

سلسلة
أعمال القلب

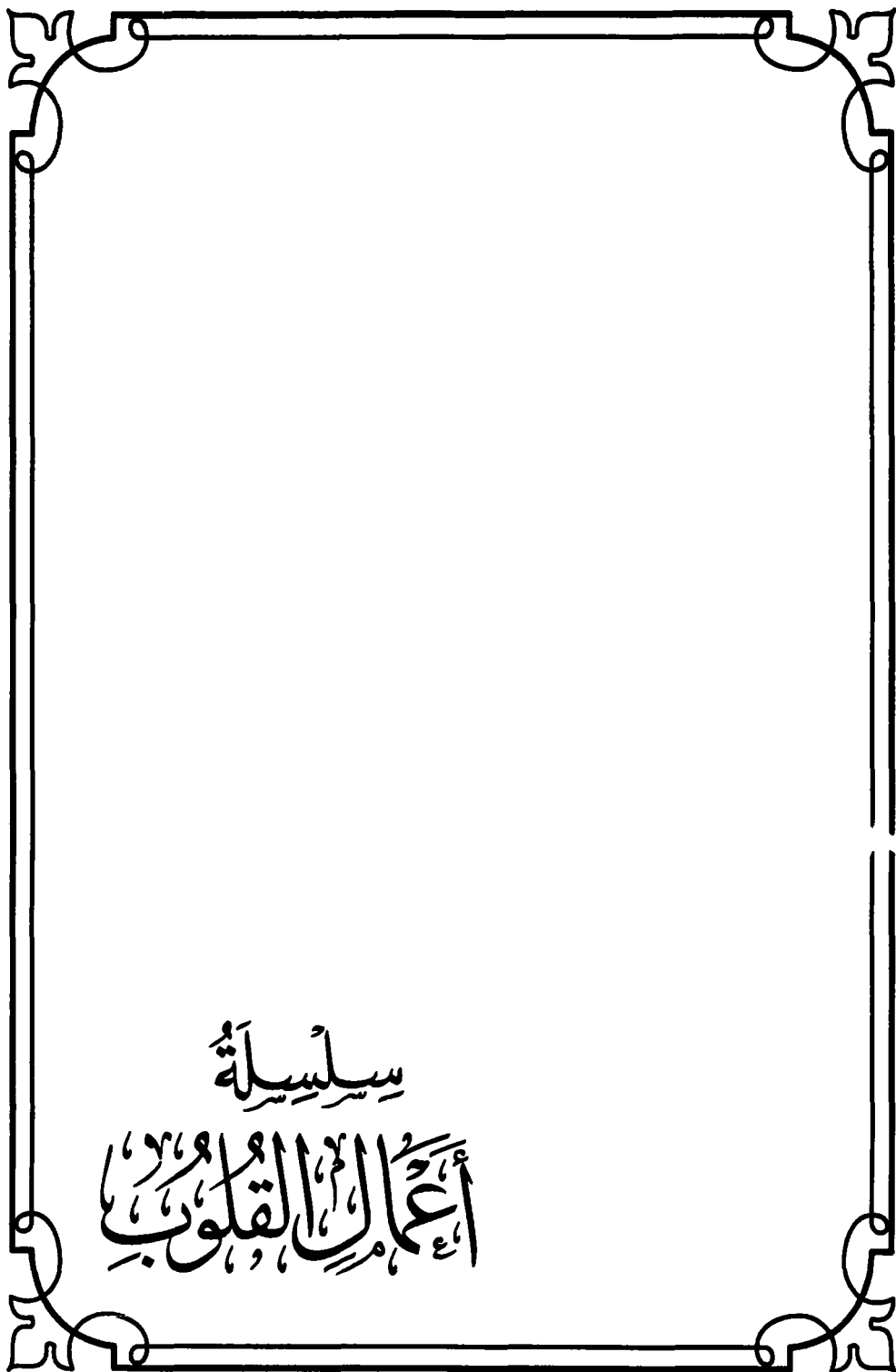
لقضية الشيخ العلامة

سيد بن عبد الرحمن الجواليقي

دار ابن جرير
القائمة

إصدار البوحيدان
الرياض





سلسلة
أعمال القلوب

مَقْوُودُ الطَّبَعِ كُفُو ظَمًا
الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٧٠٩

أنوار النوحين
الرياض

دار البرج
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

[آل عمران: ١٢٢].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أعمال القلوب هي جوهر الإيمان، وهي العلاقة الخفية بين العبد وربّه، والتي لا يستطيع أحد من الناس أن يطلع على حقيقتها، وإن صلاح القلب يظهر أثره على الجوارح بلا ريب، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

فلابد للمسلم أن يسعى إلى أسباب سلامة القلب وصلاحه؛ من مجالسة الصالحين، ومصاحبة المتقين، كما قال النبي الأمين ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»^(٢).

ومن هذا المنطلق كان اهتمام المؤلف بهذا الموضوع في دروسه ومحاضراته، ولقد قدم بمقدمة بيّن فيها أهمية أعمال القلوب، فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفع به القارئ والسامعين، وأن يطهر قلوبنا أجمعين.

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٤١).

عملنا في الكتاب:

أولاً: ضبط نص الكتاب ومقابلته.

ثانياً: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من المصحف بذكر اسم السورة ورقم الآية.

ثالثاً: عزو الأحاديث إلى مصادرها من كتب السنة، فالأحاديث التي في «الصحيحين»

العزو إليهما يكفي في الدلالة على صحة الحديث، وما كان في غيرهما قمنا بعزوه إلى مصادره.

وختاماً: فهذا جهد المقل، فما كان من توفيق فهو من الله وحده، وما كان من زلل أو خطأ فهو من عند أنفسنا ومن الشيطان.

فنسأل الله سبحانه أن يغفر لنا ويتجاوز عن زلاتنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ونسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

أهمية أعمال القلوب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله الأمين محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فإن موضوعنا سوف يكون عن جانب عظيم ومهم جدًا من جوانب الإيمان، وهو ما يتعلق بأعمال القلوب التي غفل كثير من الناس عن أهميتها، ولا أعني بالغافلين عنها الذين انحرفوا فيها كالمتكلمين والصوفية، ولكنني أقصد تقصيرنا نحن أهل السنة والجماعة المتبعين لمنهج السلف الصالح، ومنهج رسول الله ﷺ، في الدعوة والتزكية والتربية، نحن قد لا نعطي لهذه الأمور ما تستحق من العناية والتركيز، مع أنها من أهم الأمور، كما سنوضح بإذن الله تبارك وتعالى.

والتذكير بالأمور الأساسية والمهمة واجب لا يجوز ولا ينبغي لأحد أن يجد غضاضة منه، فإن الله تبارك وتعالى أكثر ما ذكر في القرآن ووعظ ونوع في الأساليب بالإيمان بالله وتوحيده والإيمان باليوم الآخر، مع أن المخاطب به قوم قد آمنوا بذلك من قبل في الغالب، لكن هذه هي الأمور المهمة والأساسية والأصلية التي تنبني عليها حياة المؤمن وعبادته وأعماله والتي يجب أن يُذكر بها، وأن يُتحدّث عنها كثيرًا، فكيف إذا وجدنا أنها ربما أهملت لأسباب مختلفة.

إنّ علينا جميعًا -نحن طلبة العلم- أن نراجع أول ما نراجع موقف قلوبنا مع ربنا تبارك وتعالى، وحال هذه القلوب من التزكية والطهارة والتصفية والنقاوة، وأن نتعرف على أعمال القلوب، ونعلم مقدار ما لدينا منها، وماذا ينقصنا، وكيف فهمنا لها، ومعرفتنا وعلمنا بها، أهي كما يرضي الله ﷻ وكما كان السلف الصالح، أم هنالك شيء من الخلل فيها فيُتدارك، فإذا صلحت هذه القلوب؛ فإن الحال يكون كما في الحديث الصحيح: «ألا وإنّ في الجسدِ مُضغَةً إذا صلّحت صلّحَ الجسدِ كُلُّهُ وإذا

فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه والدارمي وأحمد.

إنَّ هذا الدين إنما نزل في حقيقته لتزكية القلوب وإصلاحها، ولهذا يقول ﷺ: «أنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»^(٢) رواه أحمد.

ودعوة أبينا إبراهيم هي ما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩] فإبراهيم عليه السلام دعا الله لما بنى هذا البيت العظيم «العتيق» أن يبعث في هذه الأمة هذا الرسول ﷺ وبهذه الأهداف والأغراض، وقد استجاب الله ﷻ لدعوة إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فلاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاثة المدعو بها اختلف ترتيبها، فتقدمت التزكية على التعليم، ولا شك أن الإنسان لا يمكن أن يتزكى إلا بأن يتعلم الكتاب والسنة، فيتعلم الهدى الذي جاء به النبي ﷺ؛ لكن عندما تتقدم التزكية فهي من باب تقديم الغرض والغاية على الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية.

فالأصل هي: تزكية هذه القلوب التي هي موضع نظر الله من العبد كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٣) رواه مسلم.

وهذه القلوب هي محل الابتلاء والتمحيص، ومحل الأعمال التي لو استعرضناها لعجبتم ولعلمتم أن لهذه القلوب شأنًا عظيمًا عند الله تبارك وتعالى، كيف لا والقلب هو الذي إذا كان حيًّا فإن الجسد يحيا معه، وإذا مات مات الجسد...

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٧/٤)، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

حياة القلب وموته:

فالحياة حياة القلب، والموت موت القلب، والمرض مرض القلب.

ولذلك نجد آيات عظيمة وكثيرة تتحدث عن أعمال القلوب، وأعظم هذه الأعمال بلا ريب هو الإيمان الذي هو الدين كله، ونحن الذين خاطبنا الله تبارك وتعالى باسم الإيمان حيث قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٧٤] والمقصود به: الذين استجابوا لله تبارك وتعالى، وأذعنوا ظاهراً وباطناً، قولاً وعملاً، فالإيمان عند أهل السنة والجماعة هو - كما تعلمون - (قول وعمل).

فالقول قولان والعمل عملان.

فالقول: قول القلب وهو: إقراره وتصديقه، وقول اللسان وهو: إقراره وتصديقه، أي: نطقه.

والعمل عملان: عمل القلب، وعمل الجوارح.

فلا أحد من المسلمين يجهد أنه لا بد من عمل الجوارح كالصلاة والصيام والزكاة وما أشبه ذلك، والأوضح عند المسلمين عامة الإقرار باللسان؛ أي: (قول اللسان)، لكن ما يتعلق بالقلب - وهو الأهم - قد يخفى على كثير من المسلمين.

ولهذا نجد أن الله ﷻ يخاطبنا بذلك ويبين لنا أهمية القلب؛ فمثلاً: لما جاءت الأعراب، وقالوا - كما حكى الله عنهم -: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فالأعراب أسلموا بمعنى أنه: حصل منهم الانقياد الظاهر، وأصل الإقرار والتصديق الذي يكون بالقلب، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

فالقلب لم يصل بعدُ إلى أن يكون قد آمن حقاً، وهذه درجة لا يجوز لأحد أن يدعيها، فالإيمان في الحقيقة هو إيمان القلب؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وذلك في مخاطبة المؤمنين، فهكذا يكون تزيينه في

القلب، ودخوله فيه، أما المؤمنون السابقون فقد زينه في قلوبهم، وأما الأعراب فهو لما يدخل قلوبهم بعد، مع أن الجميع مع رسول الله ﷺ، مثلما نكون نحن الآن في الصلاة -مثلاً- في المسجد وفي الجهاد، فكلنا في مسجد واحد وفي معركة واحدة، لكن بين هذا وذاك من التفاوت مثل ما بين السماء والأرض، بقدر الإيمان وبقدر أعمال القلوب من الإخلاص والخشوع والإنابة والإخبات وغير ذلك من أعمال القلب.

أما أعمال الجوارح فإنها لا تكفي من دون أعمال القلب كما حصل في عهد الرسول ﷺ، الرجل الذي كان يبلو بلاءً شديداً ضد المشركين، ومع ذلك يقول الرسول ﷺ: «هو من أهل النار»^(١)، ربما يكون ذلك مع وجود من هو من أهل الإيمان والتقوى ومن أهل الجنة في الجيش، ولم يبل ذلك البلاء ولم يقتل مشركاً واحداً ولم يَصُلْ ولم يَجُلْ في المعركة، وكذلك في الإنفاق والصدقة والإحسان وسائر أعمال الخير التي إنما نريد أن نعبد ونتقرب إلى الله تبارك وتعالى بها.

إذن: الإيمان هو: إيمان القلب، والتقوى -أيضاً- هي: تقوى القلب، كما قال الله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَكَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ويقول ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا»، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢). رواه مسلم وأحمد.

فمحل التقوى هو القلب، والتقوى تشمل كل أعمال الخير والبر والصلاح، ولاسيما إذا أفردت، وقد بحث هذه المسألة شيخ الإسلام في أول كتاب الإيمان عند كلامه على لفظ البر ولفظ التقوى، وأمثالها من الألفاظ التي تأتي في القرآن والتي إذا جاءت فهي تشمل كل أعمال الإيمان الظاهر منها والباطن.

أقسام القلوب:

أقسام القلوب ثلاثة وهي التي تسلم، أو تقسو، أو تمرض، والقسوة هي الموت،

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

وهذه الثلاث الحالات تتاب القلوب.

أما القلوب السليمة: فقد جاءت في كتاب الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] أي: خالص متجرد من الشرك، لا تشوبه شائبة من شرك، أو نفاق، أو رياء.

ويقول الله تبارك وتعالى في موضع آخر عن سلامة القلب في حق إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤] فإبراهيم عليه السلام حقق ذلك، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالالتساء والافتداء به؛ لأن قلبه عليه السلام سليم من الشرك، ومن الولاء لغير الله، ومن المداهنة، والرياء، والنفاق، فخلص وتجرد، وتطهر لله وحده لا شريك له.

أما القلوب المريضة: فكما قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَرَادُوا أَنَّمَا يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٥٠] فالقلوب تمرض، والآيات التي تذكر مرض القلب كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠].

وهناك طائفة كبيرة محسوبة ومنسوبة إلى هذا الدين، ويأتي الحديث عن أمراض القلوب غالبًا مقترنًا بها، وهم المنافقون -نسأل الله العفو والعافية- وهل هناك مؤمن يخاف من شيء أكثر من خوفه أن يكون منافقًا، فهذا أخشى وأخطر ما يجب أن نخافه، فلا ينفعا عمل مهما كبر وعظم مع النفاق، لأن المنافقين ينفقون ولكن ينفقون وهم كارهون، ويصلون ولكن يصلون وهم كارهون، ويخرجون للجهاد ولكن كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٧].

فليست المسألة في أن الأعمال تقع، لكن أن تكون هذه الأعمال تقع مع قلب سليم من المرض، ولهذا خاطبهم الله ووصفهم بأنهم قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فلا ينفع من آمن بفيه ولم يؤمن قلبه، إلا السلامة من سيف المؤمنين في الدنيا؛ لأنه قد دخل في دائرة من عصم دمه بقول هذه الكلمة ظاهراً؛ ولهذا لما ضرب الله تعالى المثل لهم في أول سورة البقرة قال فيهم: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي إِذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ [البقرة: ١١] أي: أنهم ليسوا كالكفار الذين لم يروا نورًا مطلقًا، فقد رأوا نورًا ولكن هل ينفعهم هذا الصَّيب، وهذا البرق؟ لا ينفعهم مطلقًا، بل هو مخيف لهم؛ لأنهم لم يذعنوا بقلوبهم لله تبارك وتعالى، ولو أذعنوا وآمنت قلوبهم لاستنارت ولما كان ذلك إلا نورًا في قلوبهم وحياة يحيون بها، ويزكون بها أعمالهم، وتسلم قلوبهم من المرض فتطمئن، كما قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

وأما القلوب الميتة: فإنه إذا اشتد المرض بالقلب؛ حصل الموت، والموت: هو القسوة كما في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿قَوْلٌ لِلنَّسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر: ٢٢].

من نتائج مرض القلوب وموتها:

هناك ألفاظ قريبة من القسوة أو شبيهة بها تدل على موت القلب -والعياذ بالله- إذا كان صاحبه ممن أهمله حين مرض، ولم يتنبه له ولم يعالجه بذكر الله؛ فأوصله إلى نتائج مرض القلب مثل:

١- أن يقفل عليها، كما قال تعالى: ﴿أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهَا﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد: ٢٤] فيقفل على هذه القلوب.

٢- الران، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [المطففين: ١٤].

٣- أو التغليف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨].

٤- عدم الفقه، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٥، ٦- الطبع والزيف، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٧- العمى، قال تعالى: ﴿فَأَنبَأَهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

﴿٤٦﴾ [الحج: ٤٦]، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكثير من نتائج موت القلب من مثل هذا،

ولو تدبرنا في القرآن حق التدبر لوجدنا الكثير من هذه المواضع، فيما يتعلق بمرض القلب وموته، وأكثر من ذلك أو مثله فيما يتعلق بأعمال القلوب.

حياة القلوب لها أعمال ولها صفات وأحوال، والأعمال القلبية كثيرة جداً منها:

الوجل:

كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

[المؤمنون: ٦٥].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ

إِيمَانًا ﴿الأنفال: ٢﴾].

المحبة:

والمحبة قطعاً محلها القلب؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ

مِن دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٦٥﴾].

ويقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [آل

عمران: ٣١].

ويقول: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨]، فهذه

مزاعم ودعوى باطلة، ولكن المؤمنين هم الذين يحبون الله ورسوله ﷺ، ويحبون

المؤمنين والصالحين، وكل ما من شأنه أن يقربهم إلى الله ﷻ، وإلى محبته ورضاه.

الإخلاص:

الإخلاص عمل عظيم، وبه يكون الفارق بين المؤمنين والمنافقين؛ لأن المنافقين

حتى وهم يشهدون شهادة الحق، فإنهم يشهدون وهم كاذبون، فإذا أردنا أن نفرق بين

المؤمنين والمنافقين فالصدق والإخلاص هما أساس ذلك، وهما من أعظم أعمال

القلوب إضافة إلى المحبة واليقين، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥] نعم، هكذا أمروا،

فلو عبدوا الله ﷻ من غير إخلاص، لما قبل منهم ولما نفعهم ذلك في شيء، لا سيما إذا فقد الإخلاص كله، أما إذا كان الإخلاص ناقصاً؛ أي: غير مفقود فشابته شوائب؛ فهذا له حكم أهل الوعيد والعصاة.

الإخبات:

الخبت في اللغة: هو الأرض المنبسطة، والإخبات: أخبت إذا طأطأ حتى يساوى بالأرض، ففي هذا دليل على كمال الانقياد والإذعان ﴿فَتَخَبَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٥] فالإخبات هو عدم الاعتراض، فلو ارتفعت لكان فيها نوع من الاستكبار.

ولهذا يقولون في قلوب الكفار: إنها قلوب متكبرة جبارة، وكثيراً ما يصفهم الله بوصف الاستكبار؛ لأنهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعته والانقياد لأمره، فالاستكبار ضد الإخبات.

والإخبات في الشرع هو: الخضوع الكامل والمطلق، فكأنه التصق بالأرض، فليس لديه أي اعتراض على ما يأتي من عند الله تبارك وتعالى، فهو كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] والتسليم هو: حالة الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ في حديث جبريل العظيم المشهور، وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) لأنه كما قال ابن القيم رحمته الله تحكيم رسول الله ﷺ في مقام الإسلام.

فمن لم يحكم رسول الله على قلبه ونفسه، ويجعل هواه تبعاً لما جاء به في أصل التحكيم؛ فإنه ليس بمؤمن ولا بمسلم؛ إذ التحكيم في مقام الإسلام هو كما قال: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾، وانتفاء الحرج يكون في مقام الإيمان، فالإيمان درجة أعلى من درجة الإسلام، فالدرجة هذه أنه حكم وانتفى الحرج من قلبه فلا حرج فيما يحكم به رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

والمقصود هو: ما جاء به عامة، أي: ما جاءنا من حكمه ﷺ، وهدية وسنته الظاهر منها والباطن، فنجعل كأنّ رسول الله ﷺ، بنفسه قائم بين أظهرنا، يقول: اعملوا كذا ولا تعملوا كذا.

فرسول الله ﷺ غاب بجسده، وأما دينه وسنته وهدية فهي بين أيدينا وحقته قائمة علينا، فلا بد من انتفاء الحرج هذا في مقام الإيمان.

التسليم:

يقول: ﴿وَيَسْلِمُوا تَسْلِيمًا ۝﴾، وهذا التسليم هو الذي لا يخطر على البال معه أدنى اعتراض كما كان الصديق رضى الله عنه.

ففي صلح الحديبية كان الصديق رضى الله عنه هو الوحيد من بين الصحابة جميعاً الذي سلم في هذا ولم يعترض، أما ثاني رجل في هذه الأمة في الإيمان والدين، وهو عمر رضى الله عنه فقد أبى واعترض، وقال: يا رسول الله، ألسنا بالمؤمنين، وأليسوا بالكافرين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟^(١)، فكان الشروط مجحفة وما سلم تسليمًا، لكن ليس في ذلك رد لأمر رسول الله ﷺ، أو تقديم بين يدي الله ورسوله، وإنما ذلك غيرة منه على دين الله، وحرصًا منه على علو الدين وظهوره وتمكينه وانتصاره على أعدائه، فيرى أن هذه الشروط مجحفة للمسلمين - كما هو ظاهر الحال - فما سلم تسليمًا بحيث لا يكون لديه أي ممانعة أو مدافعة أو منازعة.

وإذا علمنا ذلك علمنا أهمية أعمال القلوب، وأن التزكية تحتاج إلى صبر ومصابرة ومثابرة ومجاهدة ومحاضن تربوية، وعمل ذاتي من المربي أو المزكي بنفسه ومن المجتمع أو الأمة، حتى تصلح هذه القلوب وتصلح هذه الحالة (حالة الإحسان).

ولهذا يقول عمر رضى الله عنه: «فأعتقت وتصدقت لذلك»، أي: أعتق وتصدق من أجل موقفه في ذلك اليوم، لأنه أنزله عن دائرة التسليم المطلق الذي فعله الصديق رضى الله عنه،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٠)، ومسلم (١٧٨٥).

وكان الصحابة مع عمر لكن لم يستطيعوا وليس فيهم جرأة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رأوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحلق ويتحلل؛ عندها أذعنوا عملياً لمشورة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإنابة:

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤] والإنابة معناها قريب من معنى الإخبات، وأتاب في اللغة معناه: عاد ورجع، فالإنابة: أن يعود الإنسان ويرجع إلى الله رجوعاً كلياً متجرداً خالصاً لله تبارك وتعالى، فيرجع عن كل ما لديه من أهواء، وشهوات، ودوافع، ونوازع، ويجعل همه هو رضا الله تبارك وتعالى.

الخشية:

الخشية أمرها عظيم، وقد مدح الله وأثنى على الذين يخشونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ولا خير في علم لا يؤدي إلى خشية الله تبارك وتعالى.

الخشوع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] والخشوع هذا بمعنى الخشية أو قريب منه.

فأعمال القلب تتقارب؛ لأنها أعمال باطنة، فنجد -مثلاً- الوجل، والخوف، والخشية، والخشوع؛ متقاربة المعنى، ولكل واحد منها معنى، لكنها متقاربة في ذلك وكلها تدل في النهاية على كون هذا القلب خاضعاً وذليلاً للعزيز الجبار المتكبر الذي خلقه فسواه وعدله، وافترض عليه ما افترض، وشرع له ما شرع، وتعبده بما تعبد.

فإذن: الوجل والخوف والخشية والخشوع هي جملة من أعمال القلب لها دلائل، ويقابلها الرجاء والمحبة والرضا والفرح، فتوازن النفس الإنسانية بين هذه الأربعة وتلك الأربعة، فيكون الإنسان حقاً قد جمع كل أعمال القلوب وأنواعاً من العبوديات التي يحبها الله تبارك وتعالى والتي لا يريد أن يقع أو يحصل بعضها ويترك ويهمل البعض الآخر.

التوكل:

إنَّ أعمال القلوب كثيرة، والقاعدة في ذلك: كل ما نسب إلى القلوب أو إلى الصدور في كتاب الله ﷻ فهي من أعمال القلوب، وهي أحياناً لا تنسب إلى القلب أو إلى الصدر ولكن هي محلُّ ذلك، كالتوكل مثلاً، فهو من أعظم أعمال القلب؛ لأن التوكل يدخل في الاستعانة، والله ﷻ في سورة الفاتحة التي هي أم القرآن والسبع المثاني يقول: ﴿إِيَّاكَ نَبِّدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وكل الدين داخل في هذه الآية وهذه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، فـ ﴿إِيَّاكَ نَبِّدُ﴾ هي ﴿أَمَّنَّا بِهِ﴾ و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

فهناك أمران: أن يكون الله تبارك وتعالى وحده هو المعبود والغاية وهو المراد الذي نسعى إليه، وأن يكون هو المستعان به وحده على تحقيق هذه الغاية، والمتوكل عليه وحده في أمورنا وحدها، فأعمال القلوب كثيرة نستطيع أن نستخلصها من كتاب الله.

كيف ضلت الأمة في أعمال القلوب، وكيف أخطأت، وكيف صار حالها؟

في أول الحديث تعرضنا من أجل بيان أهميتها إلى التقصير والخلل الذي يحصل من أهل السنة والجماعة في هذا، فلعلنا نبدأ في هذا ثم نتقل إلى المناهج الأخرى التي ضلت وانحرفت.

فنقول: إن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والسلف الصالح، فهموا كتاب الله تبارك وتعالى، وأقاموه علماً وعملاً، وعلموا أهمية الإخلاص واليقين والصدق والمحبة وغير ذلك من أعمال القلوب، فتحققت فيهم العبودية الكاملة لله ﷻ، وعلموا أن «لا إله إلا الله» ليست كلمة تقال باللسان، وعلموا أن الإنسان إذا انقاد بقلبه وخضع وخشع، فلا بد أن يعمل وأن تنقاد جوارحه؛ ولذلك كانت حياتهم واقعاً وترجمةً وتجسيداً لهذه الحقائق الإيمانية التي تعيشها قلوبهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

أما الذي حدث في العصور المتأخرة لبعض أهل السنة والجماعة -ولا نتكلم

عن عداهم - أنهم اعترأهم ما اعترأ غيرهم، ولكن بقدر، فاعترأهم الضعف، وانحسر وتضاءل المفهوم في أذهانهم، فأصبح الدين كأنه الشعائر الأساسية، وأصبحت شهادة أن لا إله إلا الله مجرد قول فقط.

فلم يعد أهل السنة بتلك القوة وفي تلك القمة العالية التي كانت عليها الأجيال أو القرون الثلاثة؛ لأن النبي ﷺ عندما قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١) هؤلاء الذين يأتون بعد القرون الثلاثة، ليسوا من أهل البدع ومن أهل الأهواء، بل هم على نفس الخط ولكنهم أقل، ففيهم ضعف، وفيهم من الأمور التي لا تخرجهم عن السنة، لكنها تخرجهم وتنزلهم عن درجة القرون الثلاثة المفضلة التي هي في قمة العمل والإيمان والتصديق بهذا الدين.

ودليل ذلك: أن الذين فهموا حقيقة أعمال القلوب من العلماء وتكلموا عنها قوبلوا بشيء من الاستغراب، فقد استغربهم أو ربما أنكر عليهم البعض، ولا نعني بالبعض أهل البدع، ولكن بعض أهل السنة ظنوا كأنما جاءوا بشيء جديد، أو كأن هذا العالم أتى بأمر ما كان يؤتى به من قبل، أو أنه على الأقل جاء بشيء هم لم يألوه من شيوئهم.

وانظروا -مثلاً- كيف استغرب ما جاء به شيخ الإسلام ابن تيمية وما جاء به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تبارك وتعالى، فبعض الناس فيه الخير والصلاح، ولا يحب أهل البدع ولا يركن إليهم، وكانوا أيام دعوة الشيخ محمد وفي أثنائها وقبلها ومع ذلك ما دعوا إلى مثل ما دعا إليه ولم يجددوا مثلما جدد؛ لأنهم ما فطنوا إلى ما فطن إليه.

لكن الشيخ -رحمه الله تبارك وتعالى- وقبله ابن تيمية والإمام أحمد، فهموا وعلموا أن هذه العقيدة قول وعمل، وأن القلب إذا حي وتحرك وانطلق، فلا بد أن تتحرك الجوارح وتنطلق في الحياة، فليست المسألة تقريراً بأن نجلس ونقرر عقيدة

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

الأسماء والصفات، وعقيدة القدر، وعقيدة اليوم الآخر، وكل منا يحفظ هذا العلم، ثم ينصرف راشداً إلى بيته ويكون قد حصل له الخير والعلم والفضل، لا شك أنه حصل له خير وعلم وفضل والحمد لله وهذا شيء عظيم، لكن الأمر أكبر من ذلك.

أما هؤلاء الأئمة فقد تعلموا كما كان ﷺ يعلم الصحابة الإيمان قبل القرآن، وهؤلاء الذين ورثوا هذا العلم علموا أنه لا بد أن يتحول هذا العلم إلى عمل ودعوة وجهاد وصبر ومصابرة، لذلك انطلقوا في واقع الحياة، فلا يمكن أن يقر الإمام أحمد الأمة وهي تنصرف وتنحرف عن العقيدة الصحيحة إلى عقيدة فاسدة، وإن أُوذِيَ، وضرب، وجلد، وإن حصل له ما حصل - كما تعلمون -، وكذلك شيخ الإسلام أراد أن يحرك هذه الأمة في الجهاد وهو في أول الصفوف، فيجاهد طواغيت التتار ويذهب بنفسه ويخاطبهم بأقوى الكلام.

أما الباطنية فيأخذ طلابه ويجاهدهم بالجدال، ويدعو الأمة لمقاتلة الصليبيين، إنها حياة حقيقية التقت فيها حياة أعمال الجوارح مع حياة القلب، وعمل القلب، ولكن ليست كل الأمة فيها ذلك، فالتقصير حصل عند أهل السنة في هذا.

فعندما أتت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ كان الأمر كذلك، والآن ونحن -والحمد لله- نعيش على هذه العقيدة وعلى بقايا هذه الدعوة، نجد فينا من الضعف الظاهر البين، والواضح الجلي، والذي يدل على أننا لم نحقق أعمال القلوب كما ينبغي، وإن كنا -والحمد لله- في الجملة مجانين لأهل الأهواء والبدع، ولكن ليس الأمر فقط أن تجانب أهل الأهواء، ولكن أن ترتقي في درجات الإيمان واليقين والإخلاص والدعوة.

ولذلك كم من المسلمين ومن طلاب العلم من لا يعلم شروط لا إله إلا الله، والتي هي: العلم والإخلاص واليقين والصدق والقبول والمحبة والانقياد، ولو رجعنا لأعمال القلب التي نتحدث عنها، فـ: «لا إله إلا الله» تقتضي هذه الشروط، والتي هي أساسيات الإيمان، فنحن رجعنا إلى هذه القضية، فالشخص الذي لم يتعلم هذه

الشروط ولم يوفقه الله لها، بل ربما لا يتخيل أن لها شروطًا أو أركانًا أصلًا، لكن مع ذلك فهو إن شاء الله تبارك وتعالى على الإيمان والسنة وفيه خير ولا يأتي بالبدع، ولكن هذه الإشارة تكفي لتعلم أن الأمة لديها هذا الخلل والنقص الواضح.

ما ذكرناه من أهمية أعمال القلوب، هو ما يعتقدُه أهل السنة أما غيرهم من أهل البدع فلهم مواقف أخرى.

الطائفة الأولى: أهل الكلام:

إنَّ أهل الكلام: هم الذين تُقرر كتبهم ومناهجهم الآن في الجامعات والمعاهد والمدارس الإسلامية خارج هذه البلاد إلا ما رحم الله، بل ربما قررت هنا في بعض الجامعات وتدرس في بعض المساجد.

عقائد أهل الكلام التي يقولون فيها - كما يقول الباقلاني وهو من أكبر أئمة المذهب الأشعري المتقدمين والجويني -: «إن الإيمان هو التصديق دون سائر أعمال القلب والجوارح» فالإيمان عندهم مجرد التصديق دون سائر أعمال القلب والجوارح، والجويني في الإرشاد يأتي بالخلاف فيقول: قال جهم: «الإيمان هو المعرفة بالقلب وقال: السلف الإيمان قول وعمل ثم يقول: والذي نرتضيه دينًا هو: أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط» أي: غير عبارة جهم والتي هي المعرفة، وجاء بالتصديق.

إذن: هو يرفض مذهب السلف بعد أن نقله وأورده وذكره، فكيف يكون هؤلاء من أهل السنة والجماعة كيف يكونون متبعين لمنهج السلف الصالح وهم يذكرونه ويتعمدون مخالفته، وإلى أي رأي يخالف؟! إلى رأي ليس يبعيد عن رأي جهم، وإن غيروا المعرفة وجعلوها تصديقًا.

فإذا تجرد التصديق عن العمل، وعن بقية أعمال القلب والجوارح؛ فإنه يصبح في الحقيقة علمًا مجردًا أو معرفة مجردة لا أكثر ولا أقل، فكأن الاختلاف بينهما - بين الأشاعرة والجهمية - لفظي فقط.

إذن: ما هي نتيجة أن تدرس عقائدهم الباطلة من أقصى إندونيسيا مرورًا بالهند

وبنجلادش وباكستان وغيرها إلى الدول العربية إلى تركيا إلى إفريقيا وتكون هذه هي المناهج التي يتعلمها الناس، فيقال لهم: إن الإيمان فقط هو التصديق ولا يدخل فيه أعمال القلب ولا أعمال الجوارح.

إنه يترتب على هذا الكلام خطر عظيم، وهو الواقع في أحوال المسلمين اليوم؛ حيث اعتقدوا أن الكفر هو التكذيب، ما دام أن الإيمان هو التصديق، فمن اعتقد أن الله حق، وأن الرسول ﷺ صادق؛ فقد صدق وهو مؤمن، فالكافر هو الذي يعتقد أن الله تبارك وتعالى ليس حقاً وأن محمداً ﷺ ليس صادقاً، وكم من المسلمين من يعتقد ذلك؟! قليل جداً.

فلما أهملوا التوكل والاستعانة واليقين والإخلاص... وغير ذلك من أعمال القلوب؛ استعين بغير الله، واستغِيث بغير الله، ودُعي بغير الله، وعُبد غير الله؛ فامتلات بلاد العالم الإسلامي بالقبور، والأضرحة، والمشاهد، والمزارات، وأصبح الناس يتقربون إليها، ويطفون حولها، ويدعون أصحابها، ويستهلون إليها، ويتضرعون إلى أصحابها، ويذبحون لهم، ويهدون إليهم، فإذا قلت: هذا شرك، وهؤلاء يقعون في الشرك، قالوا: ليس هذا بشرك أو كفر؛ لأنهم تعلموا أن الكافر هو الذي كذب الرسول ﷺ، ولم يؤمن به، وهذا مصدق، فإذا أنتم مبتدعة، وأنتم على مذهب الخوارج! وتهمة الخوارج هذه إذا سمعتموها وأنها تقال لمن ليس من أهلها، فاعلموا أن هذه هي سنة الله تبارك وتعالى كما قال: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٣]، وكما قال الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، فيقال: خوارج لكل من دعا إلى الله تبارك وتعالى على علم وبصيرة، وهو واضح أنه بجانب لمذهب الخوارج مثل ما بين السماء والأرض.

فهكذا يتهم أهل الباطل وأهل الإفك من أراد أن يجرد التوحيد وأن يخلصه الله تبارك وتعالى، في القديم والحديث، وفي كل زمان ومكان.

إن إغفال أعمال القلوب هو الذي أدى إلى هذه الظاهرة العجيبة جداً لو تأملناها،

وربما أن من خرج من هذه البلاد ورآها، تعجب كل العجب، فتجد أستاذًا جامعياً في كلية الشريعة أو في غيرها على درجة كبيرة من العلم يقول: ذهبت عند ضريح الشيخ فلان أدعو، فيقال: أنت دعوته، فيقول: لا أنا ما دعوته ولكن دعوت الله تبارك وتعالى بواسطته، فإذا قلت له: فما رأيك فيمن يدعوه! يقول: حتى من يدعوه فغرضه التوسل، فإذا قلت: وأين الدليل؟ يقول: الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] سبحانه الله! كل هذه الآيات التي في أعمال القلوب تهمل، ويؤتى بمثل هذه الآية، ويتأولونها على غير وجهها، ويجعلونها معارضة لكل الآيات الصريحة الدالة الواضحة على أن القلوب لا بد أن تتجرد لرب القلوب تبارك وتعالى.

الطائفة الثانية: الصوفية:

ولقد انحرفت الصوفية انحرافاً عظيماً في أعمال القلوب، فهم لم يهملوا أعمال القلب كالذين أغفلوها من المتكلمين، فالصوفية من جنس الضالين، وأما أهل الكلام فهم من جنس المغضوب عليهم.

فمن ضل من أهل الكلام - وهم كلهم أهل ضلال - فهو من جنس المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق ولكنهم تعمدوا مخالفته ولم يعملوا به، فعندهم علم في أقوالهم، ولكنهم يتركون ذلك، أما الصوفية فهم من جنس الضالين، لأنهم يعلمون أهمية التوكل، فأكثر ما يدعون ويتكلمون عن أعمال القلوب ويركزون على اليقين والإخلاص والإخبات والإنابة، ويجعلونها مقامات وأحوالاً.

وهم يعادون أهل الفقه، أو أهل الظاهر، أو الشريعة، إلى غير ذلك من الألقاب التي يبنزون بها العلماء لأنهم يرون هؤلاء العلماء يغفلون عن أعمال القلوب، فيجلس أحدهم في المسجد يتكلم عن كتاب المياه والطهارة والوضوء والصلاة والحيض والغسل والزكاة، ولا يتكلم عن اليقين أو الإنابة أو الإخلاص أو الخوف أو الرجاء أو المحبة أو الخطرات أو الوسوس أو الشكوك أو غيرها، فيقولون: هؤلاء أهل الظاهر

فقط، أي: أحكام ظاهرة فقط، ويتركون الأساس، نعم هذا تقصير كما ذكرنا أن تهمل هذه الجوانب، لكن لا يفر من انحراف إلى انحراف آخر.

أما التوكل -مثلاً- عند الصوفية فهو التواكل، ولهذا عندما يأتي الغزالي في «الإحياء» فيجعل درجات الناس في هذا العمل العظيم، يقول: «الناس درجات، منهم عامة الناس وهؤلاء يعملون ويتخذون الأسباب»، أي: يكدحون من أجل الحصول على لقمة العيش. ثم قال: «ومن مقامات التوكل الذي يعتزل في المسجد ويذكر الله ويسبح الله ويتوكل على الله برجاء ما يقدم له»، أي: هذا يعطيه دينارًا والآخر درهماً، وآخر يقول: تعال اليوم العشاء عندي، وهو جالس يعبد الله تبارك وتعالى في المسجد، انظروا كيف يكون هذا مقام من مقامات التوكل.

ثم قال: «ومقام أعلى منه كمقام الخواص وأمثاله من أئمة الصوفية وهو الذي ينطلق ويمشي في البرية بغير زاد، توكلًا على الله تعالى، وترك الأخذ بالأسباب»، فإذا كان يريد الحج -مثلاً-: من بغداد، أو من خراسان، إلى مكة، فيخرج في البرية من غير زاد، وذلك ثقة في الله، وتوكلًا عليه، ولا يأخذ أي شيء، وهكذا يهيم في الصحراء... وهذه هي الدرجة العليا من التوكل عند الصوفية.

سبحان الله! كيف سيكون حال الأمة الإسلامية لو أخذت بذلك؛ لتركت الأسباب، ولتواكلت، ولأفنت تمامًا، فيفنيها التار والصلبيون وأمثالهما، -وفعلًا- فلما جاء الصلبيون اعتزل الغزالي الدنيا ولم يكن له أي مشاركة، والمقصود من هذا النموذج بيان خلل الصوفية في فهم أعمال القلوب كالتوكل.

أما الرضا وهو عمل عظيم، فقالت عنه الصوفية: الرضا أن ترضى بكل ما ترى في هذا الكون، أي: أن تشهد الحقيقة الكونية، فكل ما قدره الله تبارك وتعالى ترضى به، فالكفر، والشرك، والسحر، والزنا، والفساد، والسرقه، والظلم، والإفك، ترضى بها لأنها من عند الله تبارك وتعالى فتشهد الحقيقة الكونية.

حتى أن بعضهم فعل الأعاجيب، فلما دخل هولاءكو إلى بغداد أتى أحد شيوخ

الطريقة وأخذ يقود الفرس لهولاكو، فقال الناس: شيخ وتقود الفرسان لعدو من أعداء الله، سبحان الله! لكن الشيخ أجاب: بأن هذا من شهود الحقيقة الكونية، فهذا قد يكون منافقًا في الحقيقة، ولا شك أن مثل هؤلاء عملاء، وفي الأصل هو أجاب بما اصطلحت عليه الصوفية، بأن هذه عقوبة من الله على المسلمين بذنوبهم، فيدخل مع أعداء الله تبارك وتعالى فيا سبحان الله على هذا الفهم!

ولو أن كل واحد من المسلمين فهم كفهم هذا الشيخ الضال، لكان كلما داهمنا عدو، ذهبنا مع اليهود، أو الصرب، أو الأمريكان، أو المجرمين، في كل مكان يحاربون فيه أو يهاجمون فيه المسلمين، سبحان الله!

أما المحبة، فقالوا: المحبة إذا تعلق المحب بالمحوب؛ رضي عنه ولم يؤاخذه بشيء، فأصبحوا - حتى في عبادتهم - إن تقربوا إليه بشيء تقربوا إليه بما يثير المحبة، يقولون: نحن أحببناه فلا يؤاخذنا في شيء، لأن الله تبارك وتعالى لما قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ فَلَمَّ يَعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ٧٨] قالوا: فإذا أحب الله العبد لا يعذبه بذنوبه، إذن نحن نحب الله ويحبنا الله تبارك وتعالى فلا يعذبنا.

فكل ما يعملونه هو تهيج المحبة فقط، فيجلسون ويجتمعون رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً ومرداناً، وينشدون الأناشيد في المحبة والعشق والهيام والغرام، ومنها قصيدة امرؤ القيس فيأتون بها، والقصائد التي قالها المجنون في ليلى يأتون بها وليس فيها تغيير، ويتناغمون، ويتميلون عليها ويقولون: هذه تهيج المحبة وتجعلنا نحب، فإذا جئنا إلى محبة رسول الله ﷺ فهم يرون أنها عشق للنبي ﷺ، فانظر إلى سوء الأدب حتى في التعبير، يرون العشق هو عشق النبي، وقد هجاهم المعري على ما فيه من الانحراف لما قال:

فقل لهم وأهون بالحلول
كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

أرى جيل التصوف شر جيل
أقال الله حين عشقتموه

لقد بلغت - كما أوردت بعض المصادر - تكاليف بعض حفلات الصوفية التي كان يحضرها سلاطين المماليك وغيرهم آلاف الدنانير والمسومات والروائح والأطياب، فترى الشيء العجيب من الترف والبذخ، فعندما يحتفلون بعيد ميلاد الرسول ﷺ المبتدع ترى بذخاً هائلاً جداً، فيأكلون من هذا البذخ ثم يقومون يرقصون ويتميلون إلى الفجر، فقول المعري هنا على ما فيه من الزندقة ينطبق عليهم:

أقال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

فإن أنكروا هذه البدعة عليهم مُنكر، قالوا: هذا لا يحب الرسول ﷺ، فلا تستغرب منه أن يقول: هذا خارجي، أو وهابي، أو هذا لا يحب رسول الله ﷺ، فلو كان يحبه ويحب الله لأكل كما يأكلون ولرقص كما يرقصون، نسأل الله تبارك وتعالى العفو والعافية، إذن هذا فهمهم للمحبة.

ولذلك من غلوهم في فهم المحبة أنسوا الناس الخوف، بعكس الخوارج الذين أخذوا الخوف فقط، وأغفلوا الرجاء، فالصوفية أهملوا الرجاء كما قال الهروي: «الرجاء أضعف مقامات المريرين»، إذن هم أخطئوا وضلوا في الرجاء، والخوف، والرضا، والمحبة، وحتى في اليقين.

أما اليقين عند الصوفية فهو شيء عجيب جداً، فاليقين عندهم أن الواحد منهم ينام بعد أن يدعو بدعاء معين ابتدعوه فيرى النبي ﷺ في تلك الليلة، بل وصل الحال بهم إلى أنهم يرونه - كما يزعمون - يقظة، بل ويدعون أن الله تعالى يكلمهم وهم يسمعون.

إذن: وصلت الأمة إلى ما ترون من الحال، فالطائفة الأولى أناس انصرفوا إلى فقه مجرد، مع أن الفقه في حقيقته هو العلم الشريف العظيم الذي منه الفقه الأكبر وهو التوحيد، ولكنهم انصرفوا إلى مجرد أحكام ومسائل يبلغون فيها الدرجات والمناصب، ولكنهم في بُعد كامل وشديد عن تزكية القلب وتطهيره وتنقيته، والإجلال لله تبارك وتعالى والخشوع، والخضوع والإنابة له وتوحيده كما أمر الله تبارك وتعالى.

والطائفة الأخرى التي يُنظر إليهم على أنهم هم أهل العبادة وأهل الذكر، تجدهم في الموالد وعند الأضرحة، وتجد العمائم والمظاهر ولكن كما قيل في القديم: «العمائم أبراج، والأكمام أخراج، والعلم عند الله تبارك وتعالى»، هذا هو حالهم، فهم أصحاب موائد، ومناسبات، واحتفالات، ويتكلمون عن أمور هي من أصل الدين كالمحبة والرضا واليقين وما أشبه ذلك، والكرامات والولاية وكيف يصل الإنسان إلى ولاية الله تبارك وتعالى، والموضوع نفسه موضوع عظيم لكنهم يتكلمون فيه بجهل، وبدع وضلال؛ فضاعت الأمة بين هذا وذاك.

والحق هو الوسط وهو ما كان عليه سلف هذه الأمة كما أخبر ﷺ في الحديث المعلوم، حديث الافتراق فقال: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا العلم النافع إنه سميع مجيب.

صلاح القلب وفساده:

السؤال:

نحن نعلم أن القلب من الناحية التشريحية عبارة عن عضلة تتصل بها الشرايين والأوردة، وأنها تضخ الدم، فكيف تكون هذه العضلة موضعاً لأعمال مختلفة مثل الحب والكره والبغض وغيرها، وما هي إلا عضلة تضخ الدم؟ وآخر يقول: إنه مع التقدم في طب القلب ربما يغير للإنسان عضلة قلبه، فهل تتغير أحوال المرء بتغيير القلب، ما رأي فضيلتكم؟

الجواب:

نحن لا نخلط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فحتى نحن عندما يقال هذا فلان، فإنك أخذته كعلمٍ شهادة مجرد، الذي هو الطول والعرض والارتفاع، واللون والشعر والعصب واللحم، لكن إن أردت بفلان حقيقة الذاتية المعنوية، فأنت تتكلم عن شيء آخر غير ذلك تماماً، فلا نخلط بين الأمرين.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

والمقصود شرعاً بالقلب ليس هو مجرد ما يقصد به تشريحاً أنه هذه العضلة وغيره، إنما الحديث عن الجانب المعنوي الذي هو من عالم الغيب، فنحن نجهل الروح كما قال تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وهذه العضلة توجد عند الميت والحي والحيوان، وتوجد عند أتقى الأتقياء، وأفجر الفجار، ولكن ليست القيمة بهذا الشكل المادي المشاهد المحسوس، وليس هو المقصود في كلام الله ورسوله بذاته المادية المحسوسة، وإنما المقصود القلب بكيفيته المعنوية، التي لا تدخل تحت الحس ولا تحت النظر، وهكذا سائر الأعمال وما يتفرع عن القلب من ذلك، فأرجو من الأخ ألا يخلط بين عالم الغيب وبين عالم الشهادة، وكلام الإخوة الأطباء والمشرحين وأمثالهما له موضعه كناحية عضوية بحتة، ونحن نتكلم من الناحية المعنوية البحتة.

حكم من يرى أنه منافق:

السؤال:

إني أعد نفسي منافقاً حيث إنني في الظاهر أمام الناس طيب وملتزم، ولكنني إذا خلوت بنفسي ارتكبت المعاصي، ولا أستطيع أن أتركها إذا تذكرتها، ماذا أفعل هل أخبر الناس أنني ارتكبت المعاصي؟

الجواب:

نسأل الله أن يعفو عنا جميعاً، ومن منا ليس كذلك يا أخي، إذا كان بعض الصحابة يقول: «لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تكالبتم وتجمعتم هكذا» وهو من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو لا يقصد بذلك أنه يتهك المحرمات، ولكن المقصود - كما في حديث حنظلة - أن حالهم مع رسول الله ﷺ غير حالهم مع الخلو، ونحن كذلك ليس حالنا في بيوت الله وفي حلقات الذكر ومع الإخوة الطيبين، كحالنا في حالة الضعف والخلوة وغلبة الشيطان، ولكن هل يعني ذلك أننا لا بد أن نكون بين حالتين، إما أن نكون على حال واحدة كما تخيل حنظلة، فيكون حالنا على وتيرة واحدة من ازدياد الإيمان وتخييل أن الإيمان يبقى على حالة واحدة لا يقل ولا يضعف ولا يفتر،

لا في حالة الوحدة والانفراد، ولا في حالة الاجتماع، ولا في حال إقبال النفس وتشوفها إلى الطاعة، ولا في حال جرمها وعنادها وإما أن نتصور النفاق والسقوط الذي قد يدفع إلى القنوط -والعياذ بالله-؟

فعند ذلك نقول: الأفضل أن أترك هذه الأعمال الظاهرة، بل أقول للناس: أنا وإن صليت فإني أفعل كذا، ولو اتقيت ظاهراً فإني أفعل كذا، ليس الأمر هكذا، إما هذه وإما تلك، بل نحرض على أن نستديم هذه الحالة ما أمكن، فإذا ضعفت، فاعلم أن النفس طبيعتها الضعف، وطبيعة الإنسان هي الظلم والجهل، والله تبارك وتعالى يريد منك أن تقاوم هذا الظلم وهذا الجهل لتقوم النفس وتركيها.

ولهذا قال بعض السلف: «جاهدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت»؛ أي: قبل الأربعين كان يظن أنها لم تستقم بعد، ومع أنه كان في مثل هذه الحالة لكنه لم يقنط بل جاهدها، ولما سمع بهذه المقولة آخر قال: «أو قد استقامت؟!» تعجب من أنها قد استقامت، لأنه يقول: نحن سنموت وما زلنا نجاهدها ولما تستقم، وهكذا كان حالهم رضي الله عنهم، ولهذا يجب أن نبعد القنوط عنا وألا نُحدِّث الناس بذنوبنا، بل نحمد الله تبارك وتعالى أن ستر عنا ذنوبنا التي لا يعلمون.

وأيضاً: يجب علينا أن نجاهد أنفسنا وأن نحارب هذا النفاق والرياء، وهذا الخلل والتقصير ما استطعنا، فالحال حال مجاهد لا يضع سلاحه ولا يجد راحة، كما قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «لا يجد المؤمن راحة دون لقاء ربه» فلا تجد راحة إلا إذا لقيت الله -تبارك وتعالى-، ولا تطمئن إلا إذا وضعت قدميك كليهما في الجنة، وهكذا نحن في دار ابتلاء فلا بد أن نصبر على ذلك وأن نجاهد ونصبر ونصابر، ولا نياس ولا نقنط، فما دمت على هذه الحالة يا أخي، فأنت كما قال الحسن البصري رضي الله عنه عن النفاق: «ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن»، لأن المنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه ففعل به هكذا فذهب، فلا يبالي بذنبه، أما المؤمن فيرى ذنبه كالجبل العظيم يوشك أن يقع فيخاف منه.

فما دمت تخاف من النفاق -والحمد لله- وتستشعر هذه الحالة؛ فلا يدفع بك الشيطان إلى القنوط، ويقول: أخبر الناس وحدثهم بما خفي من أعمالك التي تخالف ظاهرك، بل احرص على أن تصلح باطنك، ونسأل الله أن يصلح سرائرنا وظواهرنا وأن يثبتنا على الحق إنه سميع مجيب.

حكم من انشغل بدراسته عن ذكر الله:

السؤال:

أنا طالب في كلية الطب، والإغراق في دراسة هذا العلم تشعرني بقسوة في القلب، بماذا تنصحني وكيف أجمع بين دراسة الطب والعلم الشرعي؟

الجواب:

أنا أخالف الأخ في أن دراسة الطب تؤدي إلى قسوة في القلب، أما إن كان القصد حال المذاكرة للاختبار فإن هذه توجد في أي علم، حتى لو كان في التفسير أو الفقه أو الحديث، لكن إن كان الإنسان في مجال كمجال الطب، وهو يرى عجائب خلق الله تبارك وتعالى، وأسرار ما أودع الله في هذا الجسم البشري الذي آمن بسببه كثير من الناس وكانوا من عمالقة الكفر لما رأوه وتفكروا فيه، فما بالك بالمؤمن الذي يجب عليه أن يتفكر ويتدبر، وأعتقد أن هذا الأخ لو حدثنا عن تشريح العين وعن وظائف الكبد أو الكلية أو البنكرياس، لازددنا إيماناً بالله كما لو أننا سمعنا آيات الله ﷻ وأحاديث الرسول ﷺ.

والمقصود: أن يحصل الإيمان بهذه أو بتلك، ولو أصلحنا هذه العلوم والمناهج وأخلصنا فيها النية والهدف؛ فيمكن أن نسمي هذه العلوم علوم التوحيد المساعدة، كما في الاصطلاح الأكاديمي حيث نسمي بعض العلوم: العلوم التخصصية والعلوم المساعدة، فعلم التوحيد الحقيقي الذي نعلمه نجعله هو الأساس، لكن علم التوحيد المساعد هو علم الطب والتشريح والكيمياء والفيزياء وغير ذلك؛ لأنها كلها تأمل وتدبر في ملكوت الله تبارك وتعالى وفي السموات والأرض، وفي الأنفس، قال تعالى:

﴿ سُرِّيَهُمْ أَيَّتَنَافَى الْأَنَاءِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فيجب أن نسعى وننظر ونتأمل ونتدبر في السموات والأرض والجبال، وفي الزبل والشجر، والماء، وحتى في الألوان، وفي مبدأ خلق الإنسان، وكيف تتكون النطفة، وكيف يتكون الجنين، وكيف يتعلم الإنسان بعد أن لم يكن كذلك، وأمور عديدة كلها تقوي الإيمان.

أما إن كان الأخ ينظر إلى ما بعد التخرج، فالمشكلة بالنسبة للطب هي ما بعد التخرج، لأنك قد تعمل ثمان ساعات وفي مجال كله منكرات، وربما لا تستطيع أن تدعو إلى الله تبارك وتعالى كما ينبغي؛ لأنك مشغول دائماً بعمليات وبمعالجات، فنقول: كل ميسر لما خلق له، فليست هذه الأمة ميسرة لأن تكون كلها أطباء، ولا فقهاء، ولا محدثين، ولا وعاظاً، ولكن الله تبارك وتعالى نوع فيها، فهذا يصلح للوعظ، ولا ينبغي له أن ينصرف عنه إلى غيره، وهذا الذي أعطاه الله تبارك وتعالى الفقه والقرآن والتلاوة وحسن العلم والتفقه في الدين لا ينبغي له أن يذهب ليصبح مثلاً مهندساً ميكانيكياً، لكن الذي لم يؤت إلا ذلك، فلا تقول له: أرغم نفسك ودع ما خلقت له ويسر لك، واذهب إلى هذا المجال الذي لا تحسنه ولا تتقنه بل كل يعمل فيما يحسن، فتكامل الأمة لأن كلاً منا قد عمل ما يتناسب مع ما خلقه الله وجبَّله وفطره عليه، وكلنا ندعو إلى الله، فهذا الواعظ يدعو من جهة، وهذا الطبيب من جهة، وذاك من جهة، ورب طيب يسلم ويهتدي على يديه ما لا يهتدي على يد عدد من طلاب علم يحدثون ويعظون ويعلمون في المساجد.

معنى: أن العبد سائر بين مشاهدة التقصير ومطالعة المنة:

السؤال:

هناك عبارة في كتاب مدارج السالكين هي: «العبد سائر بين مشاهدة التقصير ومطالعة المنة»، أرجو توضيح هذه العبارة؟

الجواب:

عبارات ابن القيم رحمته الله تبارك وتعالى وأمثالها، عبارات عظيمة وعالية، وهي من

أجود وأروع ما أبدعه العلماء أنهم عندما يتكلمون عن أعمال القلوب، يأتون بعبارات وبمصطلحات يجهلها علماء النفس المعاصرين.

مثلاً الصبر: يتكلم عنه أي إنسان، لكن أن تقول: إن الصبر يأتي على عشرة أوجه، أو على كذا، لا يستطيع أحد أن يقولها، وكذلك اليقين له معانٍ وتفصيلات، فكلها أعمال خفية باطنية قلبية، فكيف إذا قسمت عمل القلب إلى أعمال، فكيف إذا قسم العمل الواحد إلى درجات وأنواع! فهذا علم عظيم لا يمكن أن يتمكن منه أو يعلمه ويدركه إلا الراسخون في العلم، ولا شك أن السلف الذين تكلموا في هذا قد بلغوا الغاية، ولا أظن أحداً بلغ في هذا مثل ما بلغ ابن القيم وابن تيمية رحمهما الله ورضي الله عنهما، وربما قد يسهل عليك فهم العبارة ولكن لا تستطيع بقلبك أن تستوعب المراد منها.

فمثلاً: عندما تسمع بعض الآيات لا تستطيع أن تشرحها أو تفسرها لغيرك، لكن يظهر في قلبك أن هناك معاني عظيمة جداً، وبما أن هذا العلم مأخوذ من مشكاة القرآن والسنة، فهو يشبه إلى حد محدود مثل ما جاء في القرآن والسنة.

فالعبد في سيره إلى الله تبارك وتعالى بين مطالعة شيئين: التقصير والمنة، أي أن يعرف نفسه ويعرف ربه، تعرف ربك بجوده ومنه، وكرمه وفضله، فهو الذي هداك وأنعم عليك وأعطاك وعلمك، فأنت حتى لو عبدته وأطعته فالفضل له وحده ﷻ وتعرف نفسك بضعفها وجهلها وعجزها وتقصيرها ونسيانها ومعصيتها، فأنت كلك تقصير فلو وُكِّلت إلى نفسك طرفة عين لهلكت.

فأنت في سيرك إلى الله تبارك وتعالى لا بد أن تراعي الأمرين: أن تعلم نفسك وتقصيرها، وأن تطالع منة الله تبارك وتعالى عليك الذي له الفضل كله حتى في هدايتك وعبوديتك فإنك إن أطعته واتباعته فبمحض فضله وهدايته، ولك على ذلك الجزاء الأوفى في الجنة، وهو ﷻ غير محتاج إلى طاعتك، وهو تبارك وتعالى غير مطالب بإثابتك ومجازاتك، ولكنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة وفتح لك الأبواب، كما في

الحديث الذي رواه أهل الشام «يا عبادي... يا عبادي»^(١) فهو سبحانه يفتح لك الباب ويدعوك، و«يسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»^(٢) فأنت المحتاج المضطر بذاتك إليه تبارك وتعالى.

ثم هو بعد ذلك لو فعل بخلقه ما شاء، لو لم يعثهم ولم يجازهم، ولم يخلق الجنة ولا النار، فمن الذي يسأله، قال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ومع ذلك جعل لأهل التقوى الجزاء العظيم، الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولأولئك العذاب الأليم الذي نسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظنا منه.

فهذه معانٍ قلبية قد يَقْصُرُ تعبيرنا نحن المتأخرين عن إدراكها ولكن نتأمل ونفكر فيها، ونحاول أن نشرحها وأن نفهمها، وأنا أنصح بمطالعة كتاب «مدارج السالكين» ما أمكن وغيره من كتب السلف، وإن شقت عليك بعض العبارات، فكلما طالعت كلما فهمت واستوعبت، أما قراءة المختصرات ومطالعة الكتب العصرية، أو الشروحات من كلام المعاصرين - وإن كان مأخوذاً من كلام المتقدمين - فإنه لا يغني طالب العلم عن الرجوع إلى نفس كلام المتقدمين رحمهم الله.

الكلام حول كتاب «الرعاية» للمحاسبي:

السؤال:

ما رأيكم في كتاب «الرعاية لحقوق الله» للمحاسبي، وهل تنصح بقراءته؟

الجواب:

أما كتب المحاسبي فقد حذر منها السلف وإن كان فيها حديث عن الوسوس والخطرات، ولكن كما عبر أبو حاتم الرازي، وأبو زرعة، فقالوا: «حسبنا ما قاله السلف».

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

حكم من التزم ثم أصابه الفتور:

السؤال:

إنني شاب مستقيم، وفي بداية التزامي كنت أقوم بالاعتناء بنفسي وإيماني كثيرًا، ولكن مع طول الطريق، بدأت في التكاثر وانقلبت كثير من الأعمال إلى عادات، ويشكو آخرون بنفس الشكوى من أنهم بعد فترة من التزامهم شعروا بقسوة في قلوبهم، نرجو توجيه نصيحة لي وللباقيين؟

الجواب:

نسأل الله أن يثبتنا وإياكم، هذه سنة الله ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦] لا شك أن طول الأمد وإن كان هو نسبي أنه يؤدي إلى ذلك، ولهذا نحتاج إلى تجديد الإيمان، كما في حديث: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب»^(١) أي: يبلى كالثوب إذا جثت إليه وقد بلى فإنه يتفتت في اليد، فالإيمان يبلى في القلوب فيحتاج إلى تجديد، فنحتاج جميعًا أن نجدد إيماننا.

ومن هنا كان قدوم الإنسان خمس مرات إلى المسجد وسماعه في كل مرة آيات يقرؤها الإمام في المغرب ثم في العشاء، وما يلقي من مواعظ تجعل الإنسان يتدبر فيما يتكرر عليه، ومثل ما يتكرر كل يوم: موعظة الليل والنهار، ولكن أكثر الناس قد لا يتذكرها مرة واحدة، وبعضهم يتذكرها مرة واحدة، لكن المؤمن يحتاج في كل مرة وفي كل يوم أن يتذكر ويتفكر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَكِرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، فينظر إلى الليل وما فيه من حكم أو عجائب، وإلى النهار من طلوع الشمس إلى غروبها، فلم يأت يوم من الأيام يقول الناس فيه: لم تطلع الشمس اليوم، سبحان الله! كذلك في الليل وفي أنفسهم، فهذه مجدداً ومقومات الإيمان مما يتكرر، فما بالك فيما لا يتكرر، فعلى الإنسان أن

(١) أخرجه الحاكم (٤/١)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٩٠).

يحرص على تجديد إيمانه.

ولا شك أن الإنسان في بداية أمره وأول التزامه -وغالبًا التائب- يكون أصدق ما يكون، كما جاء في حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، عندما توجه بقلبه بصدق إلى الله ﷻ لكن سبحانه الله! بعد أن يتوب ويطمئن ويدخل في غمار الإيمان فترة، تبدأ الغفلة في الظهور ويمسه طائف من الشيطان، وما أشبه ذلك، وهذا حال القلوب جميعًا، ولكن لا بد من المصابرة ومن تجديد الإيمان بذكر الله، وقراءة القرآن، وزيارة المقابر، والتفكير في ملكوت السموات والأرض، والاعتبار بمصير الأحياء والأموات، وكل ما من شأنه أن يحيا إيمان القلب إن شاء الله.

صحة علامات قبول العمل:

السؤال:

هل عبارة: (من علامات قبول العمل: إتباع الحسنة الحسنة) صحيحة وعلى إطلاقها، لأنني هذا العام وبعد انتهاء صيام رمضان ارتكبت بعض المعاصي وفاتني صيام الست من شوال؟

الجواب:

هذه العبارة كقاعدة عامة صحيحة، لكن لكل قاعدة استثناء، وليس من أطاع الله تبارك وتعالى وأدى فريضة من فرائضه خالصة من قلبه يعصم فلا يقع في معصية، لا.

فالنفس معرضة للضعف والذنوب والتقصير، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، ولكن من علامة القبول أن يتبع الحسنة حسنة، فإن أذنب أتبع ذلك الذنب توبة، فما دام أنه كلما أذنب تاب، فإنه ما يزال متبعا للحسنة حسنة -إن شاء الله- وليس المقصود أن يعصم فلا يقع في الذنوب، لكن ما دام أنه يتوب فهذا يدل على أن قلبه حي.

والمقصود هو حياة القلوب، ولهذا يقول النبي ﷺ في وصيته الجامعة: «اتق الله

حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١) فكان في إمكانه أن يقول: ولا تعص الله مطلقاً، وهذه لا شك أنها مطلوبة، لكن في مقام الإرشاد العملي والواقعي الذي يخاطب النفس على واقعها وحقيقتها لا يمكن أن يعيش الإنسان فلا يعصي الله تبارك وتعالى فكل ابن آدم خطاء.

إذن: عليه أن يتبع السيئة الحسنة حتى تمحها، فهذا من الاستقامة أنك كلما عصيت الله كفرتها بحسنة، أما الانحراف فهو الخروج عن الطريق بالكلية، أي: يستمرى الإنسان المعصية ولا يبالي أن يتوب أو يستغفر الله تبارك وتعالى أو ينيب ويرجع إليه.

التقرب إلى الله لأمر دنيوي:

السؤال:

بَوَّبَ صاحب كتاب «التوحيد»: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا) فهل إذا قام الإنسان مثلاً بالتصدق، وأراد بذلك دفع الضر عنه، أو مثلاً قام ليلة بالدعاء في أمر دنيوي هل هذا من الشرك، أرجو تفسير هذا وتوضيحه؟

الجواب:

ذكر ﷺ الآية ﴿أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦] ثم ذكر بعدها حديث: «عس عبد الدرهم، عس عبد الدينار، عس عبد القطيفة»^(٢) والحديث يوضح الآية وهو أن الإنسان إذا لم يُرد من الزكاة أو الصدقة إلا أن يبارك الله له في ماله فقط، وهذه حالة تقع لكثير من الناس، فيقول: خشيت ألا أربح في البضاعة الفلانية، فتصدقت ذلك اليوم بألف أو ألفين ثم ربحت في الصفقة، وكثير من الناس يرى أن الصدقة وأن الإحسان له بركة فيدفع الله تبارك وتعالى به البلاء، ولكن لم يرد بذلك الدار الآخرة ولا ما عند الله تبارك وتعالى، فأصبح هذا ممن يريدون حرث الدنيا وحدها، دون الآخرة مطلقاً، فهذا وقع في الشرك الخفي، الذي قل من ينجو منه، فهذه

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

الحالة يقع فيها كثير من الناس وهم لا يشعرون، وهذا يتنافى الإخلاص لله وابتغاء ما عنده، فيجب عليك أن تصوم وأن تصلي وأن تحج لله ﷻ، أما الذي يصلي أيام الاختبارات لينجح:

صلى المصلي لأمر كان يقصده فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما
أو يتصدق من أجل أن يربح، فهذا يدخل بلا ريب في هذا النوع من أنواع الشرك،
نسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظنا منه دقيقه وجليله.

والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

- * أن هذا الدين إنما نزل في حقيقته لتزكية القلوب وإصلاحها.
- * ينبغي على أهل الخير من الدعاة وطلاب العلم المخلصين أن يهتموا بجانب تزكية القلوب وإصلاحها.
- * إغفال أعمال القلوب أدى إلى ظهور المبتدعة وانحرافهم في هذا المجال كالخوارج والصوفية.
- * لا ينفع إيمان من آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه إلا السلامة من سيف المؤمنين في الدنيا.
- * حياة القلوب لها أعمال ولها صفات وأحوال من أحوالها: الوجل - المحبة - الإخلاص - الإخبات - الإنابة - الخشية - الخشوع - الخوف.
- * الإيمان عند أهل السنة والجماعة هو قول وعمل.
- * القلوب تنقسم إلى ثلاثة أقسام قلب مريض وقلب حي وقلب ميت.
- * أعظم عمل من أعمال القلوب هو الإيمان الذي هو الدين كله.

الإخلاص

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، الذين حققوا التوحيد والإخلاص والمحبة واليقين قولاً وعملاً، فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، الشهادة التي بعث الله تبارك وتعالى بها رسله، ودعا إليها خلقه أجمعين، وجعلها رأس الدين كله.

أما بعد:

فحديثنا في هذا الدرس عن عمل من أعمال القلوب، وأصل تسمية المحاضرة هو أنها عن أعمال القلوب؛ لكننا لو تأملناها لوجدنا أنها هي نفس ما يسميه بعض العلماء شروط «لا إله إلا الله».

فهي من جهة: شروط لـ «لا إله إلا الله»، ومن جهة أخرى هي: أعمال قلبية عظيمة، يبنى عليها كل عمل من أعمال القلب أو الجوارح، ولا تعارض بين هذا وذاك، فالكل شيء واحد.

وهذه الأعمال - كما تقدم - تتداخل وتتشابك؛ إذ إن أعمال القلب كلها أمر باطن، والأعمال الباطنة يصعب التفريق بينها كالتفريق بين الأعمال الظاهرة، فأنت في الأعمال الظاهرة يمكن أن تفرق بوضوح بين الحج وبين الصوم - مثلاً - وبين أداء الزكاة وبين أداء الصلاة.

أما في الأعمال القلبية: فإن اليقين، والإخلاص، والمحبة، والتوكل، والرضا، والصدق، وما أشبه ذلك يقترن بعضها ببعض وتتداخل، فلا فصل بينها بنفس النسبة، وإن كانت إذا تأملت آثارها، وعرفت حقائقها تجد أن هذه الفروق واقعة، لكنها

متداخلة، وحديثنا عن موضوع الإخلاص هو مما يشهد لذلك.

إن الإخلاص يقترن بأعمال قلبية أخرى، ولا يكون إخلاصًا إلا بها، وأجلُّ وأظهر الأعمال القلبية التي لا بد أن يقترن بها الإخلاص هو الصدق، فإن الإخلاص لا يمكن أن يكون مع الكذب، لا لغةً ولا عرفًا ولا شرعًا، بل الإخلاص هو قرين الصدق، والجامع الذي يجمع بينهما كلمة شرعية هي قوله ﷺ في الحديث الشريف: «الدين النصيحة» قالها ثلاثًا، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «الله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» (١).

فلو تأملت معنى النصيحة لوجدتها تجمع بين معنيي الصدق والإخلاص، حتى في اللغة وفي عرف الناس، فإن الشيء الناصح هو الخالص الذي لا تشوبه شائبة، وهذا يكون فيه الصدق أيضًا.

ثم إن كل من تُقَدِّم له كلمة أو موعظة أو شيئًا ينفعه وتقول: إنك ناصح له، لو تأملت ذلك لوجدت أنك تريد أن تثبت أنك صادق في محبته وفيما قلت له، فلو كذبت عليه لما كانت نصيحة، والأمر الآخر أنك مخلص، فلو غششته فيما قلت -له أيضًا- لما كانت نصيحة، فلذلك هذه الأعمال تقترن -كما ذكرنا- لكن هذين العاملين: الصدق والإخلاص هما من أكثر الأعمال تقاربًا وتداخلًا، ولهذا نجد أن الأحاديث التي ذكرت فيها شروط لا إله إلا الله قد ذكرت العاملين معًا في بعض رواياتها، وقد نذكرها أو نوردتها إن شاء الله تعالى.

هذا من جهة علاقة هذا العمل القلبي بغيره من أعمال القلب، وأما عن أهميته وضرورته للمؤمن، فلا شك أن من تأمل كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، عِلِمَ اليقين أن الإخلاص لا بد منه، وذلك أول ما يشترط في أمر العقيدة والإيمان، ثم إنه لا بد أن يدخل في كل عمل من الأعمال التي يعملها الإنسان يريد بها وجه الله، ويريد بها الثواب والأجر من عند الله.

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

حتى لو أنك عملت عملاً من المباحات المجردة وليس من الطاعات المفروضة المشروعة وجوباً أو استحباباً، أو أي عمل من الأعمال التي يفعلها الناس بطبيعتهم كالأكل أو الشرب أو إتيان المرء أهله أو ما أشبه ذلك، كل من فعل ذلك ويريد الأجر من الله، ويريد أن يحتسبه عند الله، فلا بد أن يحقق فيه الإخلاص لله تبارك وتعالى؛ لأن شرطي قبول أي عمل من الأعمال هما المتابعة والإخلاص.

الشرط الأول: المتابعة:

أولاً: الشرط الأول: المتابعة والموافقة لما شرع الله تبارك وتعالى، فالبدع مردودة على أهلها، فمهما اجتهدوا وتعبدوا وأخلصوا في نظرهم، فالبدع مردودة، كما قال ﷺ: «كل بدعة ضلالة»^(١) وقال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢)، وقال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٣) أي: مردود لا يقبل.

وإن ظن أنه فعله لوجه الله تبارك وتعالى، كما فعل الثلاثة النفر الذين عزموا على أنفسهم، فقال الأول: أقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني: لا أتزوج النساء، وقال الثالث: لا أكل اللحم، وما أشبه ذلك، فكل عملٍ يعمله العبد ويظن أنه مخلص ويتعبد به، لن يكون فيه أكثر عبادةً من الخوارج، ولن يكون أكثر عبادةً من رهبان اليهود والنصارى والهندوس ممن ترهب منهم.

ولذلك فإن النبي ﷺ بعد أن ذكر الخوارج وعبادتهم قال: «تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وعبادتكم إلى عبادتهم» ثم قال: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(٤) والرمية: هي ما يرمى من الصيد كظبي أو نحوه، فيدخل السهم فيخترقه ويخرج، فلا يكاد يرى راميه فيه شيئاً من أثر، ومعنى ذلك أنهم يأتون الدين، ويخرجون

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٦).

منه بلا شيء، أو بما لا يكاد يُرى.

ليس لأنهم لم يتوفر لديهم شرط الإخلاص؛ ولكن لأنه لم يتوفر لديهم شرط الموافقة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وهذا الذي ذكر الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالعمل الصالح هو الموافق لما جاء به النبي ﷺ.

الشرط الثاني: الإخلاص:

ثانيًا: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] أي: فليجعله خالصًا لوجه الله الكريم، وهذا هو شرط الإخلاص، ولهذا قال الفضيل بن عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قول الله تبارك وتعالى: ﴿لِيَسْبُلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «أصوبه وأخلصه» والصواب هو الموافقة، والإخلاص: هو الشرط الثاني كما تقدم.

فإذا كان الإخلاص بهذه المثابة فإن أهميته لا تخفى، ولا سيما في أصل الدين، فهو أعظم اشتراطاً منه في الفروع؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول -كما في الحديث القدسي-: «من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك»^(١)، وفي رواية: «تركته وشركه»^(٢) ومعنى ذلك: أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، وأما غير ذلك فهو غني عن تبارك وتعالى.

فإذا لم يقبل الله تعالى من العبد طاعةً من الطاعات إلا أن لديه أصل التوحيد والدين، فإنه يخسر تلك الطاعة ويظل معه الإيمان والتوحيد، أما إذا كان الإخلاص مفقوداً وكان الشرك في أصل الإيمان والدين، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة.

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، هذا الذي يقبله الله تبارك وتعالى من

(١) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (٧٩٠/٢) بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

عباده، ولا يقبل منهم غير ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١-١٢]، ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

هذه الآيات الكريمت من سورة الزمر، وأيضا ذكر الله ﷻ فيها ما يدل على ذلك: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرَاتِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦]، وهذه السورة اشتملت على معاني عظيمة في الإيمان من أبرزها - لمن قرأها وأظهرها -: أنها كررت اشتراط الإخلاص في غير ما آية، وأوضحته وأجلته.

وكذلك نجد بعض السور القرآنية العظمى التي تتحدث عن التوحيد تشترط ذلك، وإن لم تنص عليه نصا، كما في سورة الأنعام، فإن أكثر معانيها وموضوعاتها تتعلق بتوحيد الله وتجريد العبادة له، ونفي الشرك عنه.

وهذه هي حقيقة الإخلاص وإن لم يرد في السورة بالنص نفسه، ولهذا تسمى سورة «الصمد»، أو سورة «قل هو الله أحد» سورة الإخلاص؛ لأنها في إخلاص العبادة لله ﷻ من جهة توحيد المعرفة، إخلاص التوحيد من جهة المعرفة والإثبات، فهي تثبت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤] تثبت وحدانية الله تبارك وتعالى، وتنفي عنه ما يزعمه المبطلون، الذين يدعون أن الله تبارك وتعالى ولدًا، أو أن له كفوا أو شبيها أو نظيرا، تعالى الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين.

وكذلك تسمى سورة الكافرون سورة الإخلاص؛ لأنها تضمنت حقيقة الإخلاص من جهة الولاء والبراء والهجر، هجر كل ما يعبد من دون الله تبارك وتعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون: ١-٣]، وفي آخرها: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦].

فهذه براءة أو مفاصلة ومقاطعة كاملة بين العبادتين وبين المنهجين، ومن هنا كان

الذي أخذه وعده الله تبارك وتعالى وسجّله على أهل الكتاب وعلى المنافقين أنهم كانوا غير مجردين للصدق، وغير مجردين للإخلاص لله تبارك وتعالى، بل إن ذلك - ولا سيما الإخلاص - يشمل أيضًا المشركين، وذلك أن الجامع بين الجميع هو دعوى أنهم يعبدون الله وأنهم يتقربون إليه.

المشركون أبعد الناس عن الإخلاص:

فالمشركون - مثلاً - وهم أبعد الناس عن الإخلاص يدعون أنهم يعبدون الله، وأنهم يُعظّمون حرّامات الله، ويُعظّمون بيت الله، وأنهم أتباع نبي الله إبراهيم عليه السلام، ثم إنهم يقرون لله تبارك وتعالى بالخلق والرّزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمر، وغير ذلك ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، أو: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

إذن: هم يشبتون هذا، بل إنهم حتى في دعائهم يخلصون لله تبارك وتعالى، ولكن وقت الشدة فقط، فإذا كان وقت الرخاء ونجّاهم الله تبارك وتعالى إلى البر - وكان من أشق الأمور عليهم أن يركبوا البحر، ولذلك يأتي هذا المثال كثيرًا في القرآن فلما نجّاهم إلى البر - أشركوا بالله ما لم ينزل عليهم سلطانًا.

إذن: المشركون أيضًا يكذبهم الله تبارك وتعالى، ويبطل عبادتهم في دعواهم، لماذا؟ لأنهم لم يحققوا الإخلاص، وإن كانوا يزعمون أو يظنون أنهم على شيء من الدين، ولذلك كما جاء في أول الزمر: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فهم يظنون أنهم بهذا يعبدون الله، ويتقربون بهم إلى الله، فيظنون أن عبادتهم هذه لله، وأنهم لم يشركوا بالله، فكأنما ينفون ما يدّعي أو يزعم عليهم من أنهم لا يعبدون الله، أو أنهم يشركون بالله تبارك وتعالى، فأبطل الله تبارك وتعالى عبادتهم، وأنها لا تنفعهم؛ لأن الدين الذي يقبله الله هو الدين الخالص الذي لا شرك فيه، ولا شائبة معه.

أمّا أن يتخذ من دونه أولياء - وإن كان قصد القائل أنها تقرب إلى الله - فإنه لا

يقبل منه ذلك، وهذا الزعم أنهم أولياء، أو كما ذكر في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فقد أبطل الله تبارك وتعالى ذلك كله بأن جعل الشفاعة له جميعاً، وجعل الشرطين اللذين لا بد منهما لمن يشفع لتحقيق الشفاعة يوم القيامة هما: أن يأذن الله تبارك وتعالى للشافع، وأن يرضى عن المشفوع له.

وهؤلاء المشركون لا يرضى الله تبارك وتعالى عنهم، ولا يرضى أن يشفع فيهم أحد؛ لأنه لا يرضى لعباده الكفر تبارك وتعالى، هذا في حق المشركين وهو واضح. إخلاص أهل الكتاب:

وأما أهل الكتاب فإنهم يزعمون أنهم هم أهل الإيمان، وأنهم كما ذكر الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨] ويزعمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى.

إذن: هم يرون أنهم أصحاب الصراط المستقيم، وأنهم الذين يعبدون الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، ولو سألت إلى هذه اللحظة أي يهودي أو نصراني: من الذي يعبد الله تعالى حق العبادة خالصة له في هذه الحياة الدنيا؟ لقال اليهودي: إنهم اليهود، وقال النصراني: إنهم النصارى، وهذا باطل.

وقد أبطله الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه، كما في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۗ ﴿٤﴾ [البينة: ١-٤].

وبين ذلك قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۗ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ۗ ﴿٥﴾ [البينة: ٥]، هذا دين القيمة وهو الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا ۗ ﴿٦﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ۗ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۗ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

فهؤلاء أمروا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، ولكنهم أبوا إلا أن يشركوا بالله

تبارك وتعالى بأنواعٍ وألوانٍ من الشرك، منها: دعواهم أن له ولدًا -تبارك وتعالى وتقدس عن ذلك- وهذا الزعم قد أبطله الله تعالى في أكثر من موضع كما في الأنعام والكهف ومريم وغيرها من الآيات العظيمة في استنكار ذلك، وكما في قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وهذه الدعوى واضح بطلانها وإفكهم فيها، ثم إنهم يشركون بالله ولا يجردون الإخلاص لله تبارك وتعالى فيما يتعلق بالتحليل -في التشريع- والتحريم، في توحيد الطاعة والاتباع، وهذا أيضًا ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فالله ﷻ أمرهم أن يعبدوا إلهاً واحداً، فعبدوا من دونه آلهةً أخرى، وأشركوا به تبارك وتعالى في التحليل والتحريم الأولياء -كما يزعمون- أو الأخبار أو الرهبان. والأخبار هم: علماء أهل الكتاب.

والرهبان هم: عبادهم.

والضلال لا يخرج عن هذين، فكل ضلال وقعت فيه الممل فهو بسبب أحد هذين الأمرين، بأن يشرك الناس أحد من اتصف بهاتين الصفتين.

وهذا واقع في هذه الأمة، إما أن يشركوا بالله تبارك وتعالى، أو لا يجردون الإخلاص -وإن كان دون الشرك- لا يجردون هذا المبدأ، وهذا العمل القلبي العظيم لله تبارك وتعالى في طاعة واتباع أهل العلم، الذين يجمعون المسائل العلمية الكثيرة، ولكنهم غير مؤمنين حق الإيمان، فليسوا هم العلماء الذين وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: هم الذين يخشون الله ويتقونه، أو كان العلماء كذلك، ولكن أخطئوا فجاء الأتباع فأشركوا بجعلهم آلهة، وألهمهم بتقديم ما أخطئوا فيه على ما يعلمون من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهؤلاء هم العلماء.

وأما العباد: فإن كثيرًا من الناس يفتنون بالعباد في أي ملة كانت، فيقدمون أعمالهم وآراءهم وما يعبدون أو يتقربون به على ما في كتاب الله، وعلى ما في سنة رسول الله ﷺ، وهذا يقدح في إخلاصهم ويجعلهم بذلك مشركين.

ومن هنا فإن الله تبارك وتعالى اشترط ذلك، وذكر أنه طلب من أهل الكتاب الإخلاص لله تبارك وتعالى، وهو الذي جاء في آية آل عمران: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَسْبُ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذا -أيضًا- هو تجريد العمل والإخلاص الكامل لله تبارك وتعالى، أما أن تتخذ -مفهوم الآية- أن يعبد بعضكم بعضًا، أو يعبد بعضنا بعضًا الملوك أو الأحرار أو الرهبان أو ما أشبه ذلك، فإننا بذلك لا نكون مؤمنين ولا موحدين، بل نشترط ونطلب ذلك منهم، فهذا بالنسبة لأهل الكتاب.

إخلاص المنافقين:

أما بالنسبة للمنافقين فإن الأمر في حقهم أوضح وأجلى، فالمنافقون من أخص أعمالهم وصفاتهم الكذب، كاذبون في دعوى الإيمان، كاذبون في الشهادة بالرسالة - كما في أول سورة المنافقون- كاذبون في عبادتهم، وهم في الحقيقة كما ذكر الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿رُءُوفٌ عَلَى النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٤].

فهذا الرياء والكذب في دعواهم أنهم مؤمنون وليسوا كذلك، وأنهم كما ذكر الله تبارك وتعالى من صفاتهم في أول البقرة: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، وغير ذلك.

هم بهذه الصفات قد جانبوا وضادوا معنى الإخلاص الذي طلبه الله تبارك وتعالى واشترطه من عبادته، وكذلك معنى الصدق.

ولذلك نجد أن الآيات التي تتحدث عن المنافقين، وعن أعمالهم يأتي فيها هذان الأمران العظيمان، مثلاً: سورة التوبة، الفاضحة المشقشقة المخزية التي فضحت

المنافقين، وأخزتهم وأظهرت بواطنهم وكشفتها، هذه السورة العظيمة يقول الله تبارك وتعالى بعد أن فضحهم، وبيّن أعمالهم ومنهم، ومنهم، ومنهم، ويقولون، وفعلوا، وفعلوا مما ذكر الله تبارك وتعالى، قال في آخرها موجهًا الخطاب للمؤمنين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ [التوبة: ١١٩]؛ لأن ما تقدم في حق المنافقين يشمله أنهم كاذبون فلم يكونوا من الصادقين.

وأما إخلاص الدين لله تبارك وتعالى، فإن الله ﷻ ذكر ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿١١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١١٦﴾ [النساء: ١١٥، ١١٦].

فقد جعلهم الله تبارك وتعالى في الدرك الأسفل من النار، فهم أشد الناس كفرًا وإظهارًا لمعادنة ما جاء من عند الله، وتكذيبًا لرسل الله، فلا ينفعهم أبدًا دعوى الإيمان وزعمه إلا بأن يحققوا هذه الشروط، وهي التوبة والإصلاح، والاعتصام بالله تبارك وتعالى.

والشرط الرابع هو: إخلاص الدين لله ﷻ، وهذا دليل على أن من أعظم ما يشوب أعمالهم هو ترك الإخلاص، وهو الشرك - وإن كان النفاق درجات وإن كانت الأعمال درجات - والناس درجات في هذا، لكن مثل هؤلاء الموصوفين بأنهم في الدرك الأسفل من النار، هؤلاء هم أهل النفاق الأكبر، فشركهم أو تركهم الإخلاص؛ لأنهم لم يخلصوا لله تبارك وتعالى في أصل الإيمان وفي أصل الدين.

أما ما عدا ذلك، وهو من يشرك بالله تبارك وتعالى ولا يخلص له في عمل من الأعمال، فإن ذلك العمل يحبط ويبطل؛ لأنه كما تقدم في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً، وهذا مطلق، سواء كان في أصل الدين عملاً كبيراً

عظيمًا، أو أيًا كان «أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(١).

وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يحذر من الشرك دقيقه وجليله، وأن يحذر من الرياء؛ لأنه ضد الإخلاص، ولأن الرياء هو نوع من أنواع الشرك الأصغر، نسأل الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من الشرك ما علمنا منه وما لم نعلم.

إن الإخلاص ثمراته عظيمة جدًا، ولو تأملنا الكتاب والسنة، وعمل أولياء الله من الصديقين والمقربين والصالحين الذين أثنى الله تبارك وتعالى عليهم، أو شهدت لهم الأمة بالخير لوجدنا أن صفة الإخلاص هي من أوضح وأجلى ما يتصفون به، وأنها الفارق بين ما فيه روح وما لا روح فيه.

أرأيتم الفرق بين إنسانٍ سويٍّ حيٍّ ينطق ويتحرك أمامك، وبين تمثال من الخشب -كالذي يصنعه أولئك المبطلون- أو من الفخار أو من أي شيء، الفرق العظيم بين هذا وبين هذا هو ذلك الفرق بين من يعمل العمل خالصًا لوجه الله تبارك وتعالى، ومن يعمل أي عملٍ من الأعمال كائنًا ما كان بلا إخلاص، فهو يعمل بلا روح، فروح العمل هو الإخلاص فيه.

ويتفاوت الناس في الطاعات بمقدار تفاوتهم في الإخلاص، كما أنهم أيضًا يتفاوتون في التوبة من المعاصي بمقدار تحقيقهم لحقيقة الإخلاص والصدق في التوبة.

فأما التفاوت في الطاعة فهذا معلوم للجميع، فإن الناس يؤدون الصلوات كما نرى ونشاهد، يصلون هذا بجوار هذا في صف واحد، وقد يكونان خلف الإمام مثلاً، ولكن بين أجر هذا وأجر هذا مثل ما بين السماء والأرض، وهذا بما في قلب هذا من الإخلاص لله تبارك وتعالى في هذه العبادة، وأما الآخر فقد لا يقبل منه شيء إذا كان منافقًا أو مرآئيًا في صلاته؛ فإنه لا يقبل له منها شيء، فانظروا الفرق بين هذين، وإن كان العملان الظاهران سواء، ولكن الفرق إنما كان بتحقيق الإخلاص.

(١) تقدم تخريجه.

ثمرات الإخلاص في الإنفاق:

إن المرء أو العبد المؤمن قد ينفق نفقةً يسيرةً لو رآها المنافقون لَلَمَزُوهُ، وقالوا: ما هذا؟ ألم يجد إلا هذا؟! ولكنها عند الله تبارك وتعالى عزيمة جدًّا؛ لأنها خالصة لوجه الله ﷻ، لأن هذا المؤمن التقى أنفق مما يحب، والله تعالى يقول: ﴿لَنْ نَأْتُوا النَّبِيَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبُوا﴾ [آل عمران: ٩٢].

ولم يتيمم الخبيث فينفق منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِيَاخِذِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فهو أنفق مما يحب، وأنفق وهو محتاج، وأنفق وهو صحيح شحيح يخشى الفقر ويرجو الغنى، فلما اجتمعت فيه هذه الأمور - وهي دليل على الإخلاص لله تعالى في نفقته - كانت هذه النفقة - وإن صغرت في أعين الخلق - عند الخالق تبارك وتعالى لها وزن وقدر عظيم جدًّا، والله ﷻ يُعَظِّمُ أَجْرَهَا، ويربي هذه الصدقة لصاحبها، وربما وجدها يوم القيامة مثل الجبال وهو لا يعلم، وهذا من فضل الله تبارك وتعالى وجوده وكرمه لمن صدق الله في توجهه له ﷻ.

ثمرات الإخلاص في الجهاد:

وهكذا في بقية الأعمال، في الجهاد في سبيل الله ﷻ، فلو أن أحدًا لم يخرج للجهاد ولكنه كان صادقًا مخلصًا يريد ذلك ثم لم يخرج، فهذا له أجر عظيم عند الله ﷻ، بنيته وإخلاصه لله ﷻ، فكما ذكر الله تبارك وتعالى أيضًا في الهجرة: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] أي: بنيته وإخلاصه وإن لم يتحقق له العمل.

وكما في الجهاد قال رسول الله ﷺ في قصة الذين تخلفوا معذورين، ممن عذرهم الله تبارك وتعالى في يوم تبوك عن جيش العسرة فإنهم كما قال ﷺ: «ما قطعتم واديًا ولا أنفقتم نفقة إلا وهم معكم حسبهم العذر»^(١) معنى ذلك: أن لهم من الأجر بإذن الله الشيء الكثير بنيتهم وبإخلاصهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١).

قُلْتَ لَا أَحَدًا مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ [التوبة: ٩٢].

فهم عندما أخلصوا وصدقوا لله تبارك وتعالى، وأخذوا يبكون حزناً؛ لأنهم لا يجدون من النفقة ما يحملهم، ولم يجد لهم رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه، كان لهم هذا الأجر، ورفع الله تبارك وتعالى الحرج عنهم، وجعلهم بدرجة من خرج ومن حمل السيف ومن ركب بذلك الحر الشديد، وتحمل تلك المشاقة العظيمة، وبُعد الشُّقة، ونازل القوم ثم كان ما كان من أجر له عند الله ﷻ، وأمثال ذلك كثير.

ثمرات الإخلاص في التوبة:

وأما بالنسبة للتوبة -ويدخل في ذلك أيضاً التوسل بالأعمال الصالحة- فإن الإخلاص هو من أعظم ما يحقق ذلك بإذن الله تبارك وتعالى.

والأمثلة على هذا كثيرة جداً، ومن أشهرها وأعظمها حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم ذهب وأراد أن يتوب، فسأل عن عالم يعلمه التوبة، فدل على راهب لا فقه لديه، فقال له: لا أجد لك توبة فأكمل به المائة.

فهذا الرجل لديه شدة وعنف وقوة غضبية عارمة، فأغضبه ذلك بأن قال: لا أجد لك توبة، والله تبارك وتعالى يفتح باب التوبة لمن يشاء من عباده، فكيف تغلقها أنت؟! فأكمل به المائة؛ إذ لا فرق بين أن يكون العبد قتل واحداً أو قتل ألفاً أو ألف ألف إذا لم يكن له توبة، فلا فرق بين هذا وهذا، فأكمل به المائة.

ثم ذهب فدل على عالم ممن فقهه الله تعالى في الدين، فسأله؛ فقال: ومن يمنعك من هذا؟ ثم دله -وهكذا المريبون الحكماء يعلمون ما للبيئة من أثر- لما رأى إخلاصه وصدقه في التوبة، أراد أن يتحقق له ذلك كاملاً، فقال: اخرج من هذه القرية، ودله على قرية فيها قوم يعبدون الله تبارك وتعالى، بيئة صالحة يستطيع أن يتوب فيها، ولا يعود إلى ما كان فيه من الذنوب، فأدرکه الموت في الطريق.

فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأما ملائكة العذاب فتقول:

الرجل قتل مائة نفس وإلى الآن لم يعمل شيئاً، إلا مجرد أنه توجه إلى القرية، لكنه لم يتعبد، ولم يتصدق أو يصم أو يُكْفِر أو يعمل شيئاً.

وأما ملائكة الرحمة فإنها تقول: إنه قد تاب، فحجتها أنه قد تاب، وأنه قد انسلخ من ذلك الماضي، وأنه قد أقبل على الله تبارك وتعالى تائباً صادقاً مخلصاً.

فحكم الله تبارك وتعالى وهو أحكم الحاكمين وقضى وفصل بأن الذين يستقبلونه والذين يتلقونه هم ملائكة الرحمة، وهذا من فضل الله وجوده ﷻ، وما أعظم فضله؛ لأنه هو الغفور الودود، الرحمن، الرحيم، التواب الكريم ﷻ فقبل ذلك منه.

فكان هذا الإخلاص الذي في قلبه كافيًا عن أي عمل يمكن أن يفترضه، أو يشترطه عابد أو واعظ أو مربِّ أو ناصح، كما حدث لملائكة الرحمة، أو كما حدث لملائكة العذاب؛ لأن التائب لا بد أن يشترط له تغيير في حياته، فلا بد من أعمال تثبت ذلك، والله تبارك وتعالى طلب ذلك، واشترط ذلك كما بينا مثلاً في آية: ﴿وَالَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] أي: لا بد من أعمال معينة حتى نعلم أنه قد تاب، لكن الله تبارك وتعالى بعمله هذا القلبي وبإخلاصه وبصدقه عفا عنه ورحمه، وعد ذلك كأنه قد عمل كل ما يشترط من عملٍ للتوبة.

إذن: هذا يدل على فضل الإخلاص والصدق مع الله تبارك وتعالى.

والمثال الثاني الذي يمكن أن نجعله ثانيًا - والأمثلة كثيرة جدًا - هو: مثال المرأة البغي التي كانت من بني إسرائيل - والحديث أيضًا صحيح - فمرت فرأت كلبًا يلهث ويأكل الثرى من العطش، وهو لا يستطيع أن يشرب، وليس لدى الحيوان الأعجم حيلة، ولكن كما قال ﷺ: «في كل ذات كبدٍ رطبةٍ أجر»^(١)، فلما رأت حاله رثت له، فجاءت إلى بئر وأخذت موقها؛ أي: جوربها أو خفها، فملاته بالماء، ثم صعدت به،

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).

فسقته فشكر الله لها، فغفر لها.

عمل عادي جدًا لو رأيناه، وكثير من الناس لو رأوا مثل هذا الكلب لا يرحمونه، وإن رحموه فربما لا يعدون هذا العمل شيئًا، بل ربما أن هذه المرأة قد لقيت الله تبارك وتعالى وهي لا تعلم أن لها عنده عملاً عظيمًا شكره الله لها وغفر لها من أجله، وربما لو قيل لها: احتسبي عند الله عملاً من الأعمال - كما في حق الثلاثة أصحاب الغار الذين سنذكر قصتهم إن شاء الله - لَمَا ذكرت هذا العمل؛ لأنها قد لا تراه شيئًا، ولكن حقيقة الإخلاص الذي في هذا العمل، بفضل الله تبارك وتعالى شكر الله لها ذلك فغفر لها؛ ولو تأملنا القصة نجد أنها أبعد شيء عن الرياء، لأسباب:

أولاً: أن الكلب لا يحدث الناس بما صنعت له، ولو كان من بني آدم لقليل: إنها سقته لكي يخبر الناس، ويقول: فلان أعطاني، لكن هذا حيوان أعجم، فهذا دليل على أنها ما فعلت ذلك وهي تريد شهرة ولا ذكراً ولا رياءً.

ثانياً: أنه إنما كان في خلاءٍ وهي عابرة ولم يرها أحد، ولم يذكر أن أحداً رآها لكي يذكرها.

ثالثاً: أن دليل إخلاصها هو هذا التواضع له وهو حيوان، ولا شك أن النزول إلى البئر يعرض الإنسان للخطر؛ إذ قد يقع فيها فلا يخرجها أحد.

رابعاً: أنها وضعت موقها في فمها عندما أرادت أن تصعد من البئر، وذلك حين لم تستطع أن تحمل الماء في يد وتصعد باليد الأخرى - وهذا مجرب لمن يصعد في جدار أو نحو ذلك - فجعلت موقها الذي محله الأساس هو القدم - موضع الاتساح - في الفم، وهذا لا يفعله أحد إلا في أشد ما يكون من حالات التواضع والإخلاص، فلما صعدت سقت له ومضت، ولم تطلب منه أجرًا ولا ثناءً، فهذا من فضل الله تبارك وتعالى عليها، لما أخلصت لله تعالى في ذلك، وكان حالها بخلاف المرأة الأخرى من بني قومها، التي حدّث عنها رسول الله ﷺ في خطبة الكسوف، وهي التي دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، أي: من

هوامها.

فالإخلاص يرفع الله تبارك وتعالى به العبد درجات، ويغفر بسببه الذنوب والإهمال والتقصير والتفريط الذي قد لا يتفطن إليه، قد يكون سبباً في دخول النار - نسأل الله العفو والعافية- فهذه نجت بسقي كلب، أما تلك فهلكت بحبس هرة، فليتنبه العبد وليعلم أن الطريق مهلكة، وأنه لا بد من الاستقامة على الصراط المستقيم الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، وليحذر ذنوبه، وليتفقد أحواله وتقصيره في حق الله تبارك وتعالى.

المثال الثالث: وهو مثال واضح للجميع في أثر الإخلاص وما يحمد من عاقبته؛ وهو مثال الثلاثة الذين هطل عليهم المطر، فألجأهم إلى غارٍ، فأرسل الله تبارك وتعالى عليهم صخرة فسدت فم الغار، فلم يجدوا ملجأً من الله إلا إليه، أين يذهبون؟ ومن ينادون ويخاطبون؟ ولم يجمعهم في الغار شيء إلا اللجوء والهرب من المطر.

فأروا أنهم في حالة لا ينجيهم منها إلا أن يتضرعوا إلى الله تبارك وتعالى، وأن يتوسلوا إليه بأرجى عمل صالح عملوه، فتوسلوا إليه بالإخلاص، لا بكثرة العمل، ولا بكبره -مثلاً- إنما بالإخلاص لله تبارك وتعالى فيه.

فإن صاحب الوالدين قال بعد أن ذكر ماذا يفعل بوالديه: «اللهم إن كنت فعلت ذلك خالصاً لوجهك الكريم فافرج عنا ما نحن فيه، فرفعت» كشفت الصخرة قليلاً، إلا أنهم لا يستطيعون الخروج.

وقال الذي حجزه الله تبارك وتعالى ومنعه من الزنا بعد أن كاد أن يقع فيه وحصل له ما يطلب، حيثما تكون الشهوة أشد، والتمكن من قضائها أشد ما يكون، حجز الله تبارك وتعالى وهذا الشاب، ورزقه الإخلاص، فترك ذلك خالصاً لوجه الله الكريم، لما قالت له: اتق الله، تذكّر الله فاتقاه فقام، فقال: «اللهم إن كنت فعلت ذلك خالصاً لوجهك الكريم أو ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فرفعت قليلاً».

وجاء الثالث صاحب الأجير، الذين كثيراً ما تهدر حقوقهم في هذا الزمان وفي كل

زمان، وكثير من الناس لا يبالي بهم ولا بظلمهم، ولا يحتسب الإحسان إليهم عند الله، وإذا كان في كل ذات كبد رطبة أجر ولو كانت كلبًا؛ فإن الأجر في حق هؤلاء العمال أو المستأجرين أعظم، ولا يجوز لأحد أن يظلمهم.

هذا الرجل، قلَّ أن يوجد مثله في هذا الزمان، فإن الأجير لما جاءه يطلب أجرته قال: «أترى ما في هذا الوادي من الإبل والغنم والبقر؟ هذا مالك، فقال: أنهزأ بي» أتسخر مني؟ لأن دينه لا يبلغ هذا، ولكن الرجل تطوعًا منه نماء منه، فأعطاه إياه؛ فلما تضرع إلى الله تبارك وتعالى بأنه إن كان فعل ذلك ابتغاء وجهه، أي: أخلص فيه الله ﷻ أن يفرج عنهم فاستجاب الله له، وفرج ما بهم من كرب، وخرجوا يمشون^(١).

ما أعظم ثمرات الإخلاص، وما أحوج المسلمين، وما أحوج المتقين، وما أحوج العباد الذين يريدون الله والدار الآخرة، ويعلمون حقارة وتفاهة هذه الحياة الدنيا، أن يخلصوا أعمالهم لله ﷻ، فيروا الثمرات ويروا البركات، ويروا أمورًا لا يمكن أن يصدقها أحد في حدود المنظور المادي، والواقع العادي عند الناس.

ومن ذلك أن العلماء الذين كتبوا لله ﷻ، وطلبوا العلم بإخلاص؛ جعل الله تبارك وتعالى لهم من البركة في أوقاتهم وأعمارهم وعلومهم، ونفع بهم كثيرًا.

ومن ذلك -مثلًا- «صحيح البخاري»، فكم من الكتب كتبت وألفت؟! لكن هذا الكتاب لما أخلص صاحبه الله، وكان لا يكتب الحديث إلا بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويستخير الله، وكان فيه من العبادة والزهد في الدنيا، ما هو معلوم من سيرة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ.

لما كان كذلك بارك الله له في وقته، وبارك له في علمه، وجعل هذا الكتاب بهذه الدرجة والمنزلة، فهو أصح كتاب بعد كتاب الله، وتلقاه المسلمون قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة بالقبول، وهذه كرامة عظيمة، وإلا فكم، وكم أُلِّف من كتب، لكن ليس لها

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

ما لهذا الكتاب.

كذلك حياة الإمام أحمد رضي الله عنه وأرضاه، وما أعطاه الله تبارك وتعالى من القبول، فإنه شيء مدهش، حيث كان الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا أشار بيده لرجل أن ينعم، أو إذا ذكر فلان وقال: نعم، فقط: نعم، أثنى عليه بأنه نعم، أو نِعِم الرجل، أو ما أشبه ذلك، رفعه الله عند الأمة قاطبة، فيرتفع هذا الرجل، وتنقل هذه التزكية من بغداد إلى خراسان إلى مصر إلى الأندلس وإلى كل مكان، وتسجل وتكتب، أن أحمد قال فيه: نعم الرجل أو أثنى عليه أو ذكره بخير، فتكون تزكية له وقبولاً لروايته وعلمه، وتصحيحاً لعقيدته.

وإن قال في أحد: لا، أو نحو ذلك، سقط مهما كان علمه ومهما كانت قيمته، ويتشتر هذا الجرح في الآفاق حتى لا يكاد أن تجده عند أحد إلا وقبلة حتى وإن زكاه غيره لا بد أن يقول: ولكن أحمد قال فيه كذا.

والخليفة المتوكل من شدة حرصه على أن يزكى لدى الأمة كعادة الحكام في كل زمانٍ ومكان، طلب من الإمام أحمد أن يأتي إليه؛ لأن الناس يعلمون أن الإمام أحمد لا يأكل إلا من طعام حلال، فيريد أن يأتي إليه ويطعم من طعامه، فيتحدث الناس بذلك، فيتزكى المتوكل عند الأمة بأن الإمام أحمد أكل من طعامه فقط، ولو لم يثن عليه ولا بكلمة.

فأبى الإمام أحمد، ثم لما ألحَّ عليه الخليفة، وهو المتوكل الذي أحيا الله به السنة وقمع به البدعة، وله فضل على أهل السنة والجماعة، وهو إمام المسلمين، فلم يربدًا من أن يطعمه، فذهب إليه ولكنه واصل الصيام، حتى يقول ابنه عبد الله وابنه صالح: أشفقنا وخشينا على الإمام من الموت، واصل الأيام والليالي، وكان لا يشرب إلا الماء؛ لأن الماء ليس لأحد فيه فضل، والمتوكل يظن أنه يطعم من طعامه، لأنه لم يقابله ولم يجالسه على مائدة، فلم كانت لهم هذه المنزلة؟! إنما هي بإخلاصهم لله تبارك وتعالى.

ثم من ناحية البركة في الوقت: انظر مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،

ومؤلفات الذهبي، ومؤلفات ابن كثير، ومؤلفات النووي تر عجبًا، عندما ترى هذه المؤلفات مع ما تعرضوا له - ولا سيما مثل ابن تيمية رحمته الله - من النفي والسجن والأذى والمحاكمات وحرق الكتب، وحبس ما يكتب به، والاشتغال مع ذلك بالعبادة، بل حتى بالجهاد، شيخ الإسلام رحمته الله جاهد الباطنيين، وجاهد التار، جهاد وعلم، تحصيل للعلم وتنقيب في الكتب، وعبادة، ثم يؤلف هذه الكتب، كيف كان ذلك؟!!

نحن الآن كما ترون نسأله رحمته الله البركة في أوقاتنا وأعمارنا، وأن يرزقنا الإخلاص الذي به تحل البركة، الطالب يظل خمس سنوات في الدكتوراه ثم يخرج كتابًا إذا قرأته وجدت أنه نقول فحسب، لو جدَّ فيها لجمعها في أشهر، ولو كان من السلف لجمعها في أيام وأسابيع؛ فإنها مجرد نقول فحسب، ولم يفن هذا العمر؟ إن هذا بقدر ما لدينا من إخلاص، فكيف هذه؟ حتى قال بعضهم: لو قسمت عمره على كتبه لوجدت أنه كان يكتب في كل يوم كراسة من عشرين لوحة، فهل يمكن لأحد أن يكتب هذه، ومتى يحققها؟ ومتى يحرقها؟

وإذا طلبنا من أخ مقالًا في صفحة واحدة فإنه سيكتبها الليلة ويراجعها في اليوم الذي بعده، وينقحها بعد ذلك، وقد يمضي الأسبوع ولم يأت بها، سبحان الله!! كيف يكتب هؤلاء، إذا كتب عشرين لوحة محررة منقحة بأقوال معزوة إلى أصحابها، وأمانة في النقل، ودقة في الاستنباط، لا يمكن أن يكون هذا إلا ببركة من الله تبارك وتعالى في عملهم، وذلك بسبب إخلاصهم لله رحمته الله.

ولذلك أتوا الهمة العليا، فعندما قال الإمام الطبري رحمته الله لتلاميذه: سأملئ عليكم التفسير في ثلاثمائة مجلد، قالوا: هذا كثير - ثلاثمائة كثير لا يستطيعونها - فقال: الله أكبر!! ضعفت الهمم، فجعله في ثلاثين بدلًا من الثلاثمائة، فهذه الثلاثون جزءًا، كانت على قدر الهمم، فسعة تفسير الطبري، وما فيه من الأقوال والأسانيد، وأقوال له في اللغة رواية ودراية معًا، فهذا كتبه رحمته الله لضعيفي الهمم، ونحن الآن نقول: الطبري يحتاج أن نختصره، وبالفعل يختصر؛ لأن ما عليه الهمة الآن هي عشر ما كانت

عليه في أيام تلاميذ الطبري وهكذا، فلماذا تضعف الهمة؟ تضعف الهمة بقلة الإخلاص، ومع الإخلاص تكون أعلى، ويكون اليقين أكثر، وإذا اجتمع للإنسان الإخلاص واليقين والمحبة وسائر ما ذكرنا، وما سنذكر من أعمال القلب، فإنه يكون في غاية الهمة.

والصحابه رضوان الله تعالى عليهم لما تحقق لهم ذلك لم يفكروا على الإطلاق في قوئ الدنيا كلها مهما كانت، بل ترسل الجيوش شرقاً وغرباً، برّاً وبحراً ولا يباليون، ولا ينظرون إلى العدو -نعم يعدون العدة تماماً- ويستطلعون أموره كأدق ما يكون من الدراسات الإستراتيجية أو الاستخبارات العسكرية، لكن يعلمون أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، فلم تقم أمامهم أية قوة، إنما هم انتصروا بإيمانهم وبتقواهم وبإخلاصهم وبصدقهم مع الله تبارك وتعالى.

ثم بقيت مسألة نختم بها وهي: أن الإخلاص يورث العبد بأن يكون من المخلصين؛ وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإذا أخلص العبد وصدق مع الله تبارك وتعالى، فإنه يجعله الله تبارك وتعالى من المخلصين، والمخلصون هم صفوة وخيرة من خلق الله تبارك وتعالى، وهم الذين يعرفون الله، ومن أهم صفاتهم -وهي كثيرة- أنهم يعرفون الله تبارك وتعالى، كما في سورة الصفات، بعد أن ذكر الله ﷻ حال المشركين وأمثالهم الذين نسبوا إلى الله تعالى الولد، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، قال عقب تلك الآيات: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصفات: ١٥٩، ١٦٠].

فكل ما يصفه به الواصفون فهو منزّه عنه، إلا ما يصفه به من يعرفونه ويقدرونه حق قدره، ويصفونه بصفات الكمال والثناء والمحامد المرضية.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من المخلصين المخلصين، وأن يتقبل منا أعمالنا جميعاً، وألا يجعل فيها شيئاً لأحدٍ غيره إنه سميع مجيب.

الفوائد المستخلصة:

- * أعمال القلوب تتداخل وتشابك ويصعب التفريق بينها، بخلاف الأعمال الظاهرة.
- * أظهر الأعمال القلبية التي لا بد أن يقترن فيها الإخلاص هو الصدق.
- * شرطي قبول الأعمال المتابعة والإخلاص.
- * من أعظم ما يحقق التوسل بالأعمال الصالحة هو الإخلاص فيها.
- * توبة قاتل المائة، وتوبة البغي من بني إسرائيل التي سقت الكلب، يتجلى فيهما فضل الإخلاص.
- * السلف عليهم رضوان الله عندما حققوا الإخلاص ظهرت ثمراته في عملهم وأعمارهم بوضع القبول والبركة فيها.
- * إذا [اجتمع] الإخلاص مع بقية أعمال القلوب فإن الإنسان يكون في غاية الهمة، كما كان حال الصحابة.

* * *

اليقين

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

نسأل من الله الكريم رب العرش العظيم أن يمنَّ علينا بحلاوة الإيمان وبرد اليقين، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يحسن عاقبتنا في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب.

فبعد أن تكلمنا عن أهمية عمل القلب، نتكلم في موضوع آخر متعلق بأعمال القلوب وهو موضوع عظيم جدًّا لمن فقهه الله تبارك وتعالى في الدين، وهو غاية المتقين وغاية العباد، التي سمر لها المجتهدون، وتنافس فيها المتنافسون، والتي بها يتفاوت الخلق أجمعون، ألا وهو: اليقين.

وقد يُسأل لِمَ بدأتُم باليقين قبل غيره من أعمال القلب؟

فنقول: إن أعمال القلب وهي بالأهمية والمثابة التي تحدثنا عنها في الدرس السابق من سلسلة أعمال القلوب وبيننا فضلها وقدرها وعظيم شأنها، وأهميتها، وهي في حقيقتها تبدأ جميعًا بعمل واحد ألا وهو العلم.

فالعمل الذي تبدأ به أعمال القلوب جميعًا هو العلم.

ولذلك الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ جعل ترجمة في «صحيحه»: «باب العلم قبل القول والعمل وقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]» فأول ما يطرق قلب المؤمن من معرفة الرب تبارك وتعالى والإيمان به هو العلم، وهو أن يعلم أنه لا إله إلا الله، وهذه هي شهادة الحق التي فسر بها بعض السلف

قول الله تبارك وتعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) [الزخرف: ٨٦] وهي: الصدق الذي فسر به بعض السلف أيضًا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣] وهي أيضًا الكلمة الباقية التي يفسر بها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨) [الزخرف: ٢٨].

العلم بأنه لا إله إلا الله، والعلم بأن الله تبارك وتعالى حق، وأن النار حق، وأن الجنة حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الرسل حق، وكل ما أخبر الله تبارك وتعالى به أو أخبر به رسوله ﷺ من أمر الغيب حق.

لكن هذا العلم أو هذه المعرفة بالله تبارك وتعالى، تخرج الإنسان إذا اعتقدها اعتقادًا جازمًا عن الشك وعن الريب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي تَوَلَّى كَتَبَ لِأَرْبَبٍ فِيهِ هُدًى يَتْلُو تَقِيَنَ﴾ (٤) [البقرة: ٢-١] فهذه تخرج الإنسان عن حد الريب والشك والظن ليصبح مؤمنًا بالله تبارك وتعالى.

علاقة العلم باليقين:

إن العمل القلبي الذي هو زيادة واستمرار ونماء لهذا العلم ولهذه المعرفة هو اليقين، فإذا نستطيع أن نستنتج نتيجة وهي: أنه ليس كل عالم موقن.

فالذين يعلمون أنه لا إله إلا الله ولا ريب عندهم في ذلك، بل لديهم القدر الذي يخرجهم من حد الشكوك والريب، هم كثير، لكن المؤمنين منهم بصفات اليقين التي نريد أن نتحدث عنها، والتي هي المقصود والغرض في هذا الموضوع هم قليل، فالموقنون قليل، ويقابل ذلك في الأعمال الظاهرة أن المسلمين كثير.

ونعني بالمسلمين الملتزمين بأداء ما افترضه الله تبارك وتعالى من الأركان الظاهرة، كما جاء في حديث جبريل ﷺ، فهم يشهدون بأن لا إله إلا الله، ويصلون، ويصومون، ويحجون ويزكون، إلى آخر ذلك، ولكنهم لم يرتقوا إلى درجة الإيمان، كما قال الله تبارك وتعالى عن الأعراب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وأعلى من ذلك درجة الإحسان، فنحن هنا نتكلم عن اليقين، باعتباره الإحسان في باب العمليات وفي باب الاعتقادات، كما أن الإحسان الذي فسره حديث جبريل عليه السلام في قوله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) وهذا في العمليات، وإن كان لا انفكاك ولا انفصال بين العمليات وبين العمليات، لكن اليقين يطلق على ما هو من خصائص عمل القلب بالدرجة الأولى، وتكون أعمال الجوارح ثمرة له، وتكون مما يصدقه ويزيده وهو يزيد، كما سنبين ونوضح إن شاء الله تبارك وتعالى.

فإذن: العلم هو أساس اليقين، وأما ضده ونقيضه فهو الشك والريب، ولهذا يقول المشركون في إيمانهم بالساعة: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾^(٢) [الجمانية: ٣٢] أي: ليسوا على يقين وإنما هم في ظن، وهذا الظن خالطه الشك بمعنى الريب.

لأن الظن يأتي بمعنى العلم كما في قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَافِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] وما أشبه ذلك، لكن المقصود هنا: ما كان فيه شك، بهؤلاء هم أصحاب الشك في الآخرة: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾^(٣) [النمل: ٦٦] أو في شك من الله تبارك وتعالى الذي قال: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، تعالى عن ذلك ﷻ في أي أمر من أمور الغيب، فهذا الشك وهذا الظن ينزل أصحابه عن درجة اليقين بل عن درجة العلم.

منزلة اليقين وتجليها في الخليل إبراهيم عليه السلام:

واليقين بهذه المثابة وبهذا الفهم منزلة يحبها الله تبارك وتعالى، ويريد من عباده أن يصلوها، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِيّ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٤) [الأنعام: ٧٥] فإبراهيم عليه السلام كان مؤمناً بدليل أنه قال في الآيات قبلها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ؕ إِنِّي أَرِنَاكَ وَقَوْمَكَ فِي صَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾^(٥) [الأنعام: ٧٤]، فهذه الآية في الدرجة التي قبل اليقين، فهو مؤمن، وقد

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

حكم على أبيه وعلى قومه بالضلال؛ لكونهم يعبدون غير الله تبارك وتعالى، لكن الله أراد أن يزيده إيمانًا بهذا، وأن يجعله من الموقنين.

وهي درجة عليا ومرتبته عظمى، فجعل الله سبحانه وسيلة ذلك أن يريه ملكوت السموات والأرض، فبعد أن أيقن واستيقن به ورآه وتأمله، جزم جزمًا قاطعًا أن قومه على ضلالة وتبرأ منهم، ورفع الله تبارك وتعالى حجته عليهم، ودحض شبهاتهم، وأيقن أن الأمن والاهتداء لا يكون إلا للمؤمنين، ولا حظَّ فيهما لأحد من المشركين.

وهذا يشابه أيضًا قول الخليل عليه السلام عندما طلب من الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لِأَبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فهي أيضًا زيادة ودرجة في اليقين والاطمئنان، وهذه هي حقيقة اليقين، وإذا تأملنا أثر ذلك نجد أن اليقين الذي حصل له عليه السلام أثمر لديه يقينًا في امتثال أمر الله تبارك وتعالى، يقينًا لا يكاد يوجد عند أحد، إلا من وفقه الله تبارك وتعالى لمثل ذلك من رسله وأوليائه المصطفين الأخيار.

فما هو هذا اليقين الذي كان عند الخليل؟ وما الأمر الذي أمر به الخليل وهو بهذه الحالة - قليل من الناس من يستجيب لهذا الأمر إذا أمر به -؟ أمر بذبح ابنه، بل ولم يأمره جبريل بقوله: إن الله يبلغك أن تذبح ابنك، ولكن جاء أمره: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] مجرد رؤيا، فلم يقل لعلها من الشيطان أو كذا، أو أنام الليلة فإن تكررت فعلت، ولكن اليقين جعله يمتثل، وجعل ابنه كذلك يمتثل ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] فقد حصل اليقين عند الأب، وكذلك حصل اليقين عند الابن، فجعله الله تبارك وتعالى من الموقنين.

وهذه هي الدرجة التي يريد بها الله تبارك وتعالى ويحب أن يكون أنبيأؤه وأوليأؤه عليها.

علاقة اليقين بالإيمان:

إن اليقين كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيما علقه البخاري: «الصبر شطر

الإيمان، واليقين الإيمان كله، وهذا الكلام هو من درر الكلام وغرره، وما أكثر من يتكلم به من السلف الصالح وقد يغفل عنها الكثير والكثير من الذين لا يطالعون سيرهم ولا يتابعون أقوالهم عليه السلام، فإن هذه العبارة الوجيزة تحمل معاني عظيمة جداً، فقد جعل عبد الله عليه السلام الصبر شطر الإيمان، ولكنه جعل اليقين الإيمان كله، فلم ذلك؟ الصبر هو حالة تصاحب العابد في عبادته، فهو يرجع إلى قول الله تبارك وتعالى في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَبِّدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالصبر يرجع إلى أي الأمرين؟ يرجع إلى الاستعانة، فاصبر واستعن بالله ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٢٨] إلى آخر ذلك، فيستعين العابد، ويستصحب هذا العمل - وهو عمل قلبي عظيم - في طريقة سلوكه للصراف المستقيم، فيعبد الله تبارك وتعالى بالصبر، ففي كل أمر يصبر على طاعة الله، ويصبر عن معصية الله، ويصبر على أقدار الله، لكن اليقين الإيمان كله؛ لأن العبادة لا بد أن تكون عن يقين، وما الصبر إلا ثمرة من ثمرات اليقين، فاليقين يشمل الإيمان كله، ويشمل الدين كله.

ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «المسند»: «أحب الأعمال إلى الله عز وجل، إيمان لا ريب فيه أو لا شك فيه» فهذا هو أحب عمل إلى الله عز وجل، وقال بعد ذلك «وجهاد لا غلول فيه، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(١).

فأحب الأعمال إلى الله هو الإيمان الذي لا ريب فيه ولا شك فيه، وهو الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، فلذلك كان حقاً أن اليقين هو الإيمان، وهو الدين كله، ويشهد لذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما وعد من شهد أن لا إله إلا الله بالجنة وأن يحرمه على النار، جعل ذلك مقترناً باليقين كما هو مقترن بالإخلاص، كما في قوله صلى الله عليه وسلم، في قصة غزوة تبوك عندما اشتد الأمر على الصحابة عليهم السلام، فأرادوا أن يذبحوا جمالهم ليأكلوا منها، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله: لو جمعت الطعام الذي عند المسلمين ثم

(١) أخرجه أحمد (٤١١/٣)، وصححه العلامة الألباني في «المشكاة» (٣٨٣٣).

دعوت الله تبارك وتعالى فيبارك الله تعالى فيه، ففعل رسول الله ﷺ بمشورته، فبارك الله لهم في طعامهم وتزودوا جميعاً، ثم قال ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد مستيقناً بهما غير شك إلا دخل الجنة»^(١)، فهذا معنى ذلك.

ففي مثل هذه الحالة -حالة اليقين- من رأى آية من آيات الله، كما رأى الصحابة الكرام أمام أعينهم، فمن أيقن بذلك فقد شهد أن لا إله إلا الله حقاً، فلا بد أنه في هذه الحالة قد كَمُلَ إيمانه، فأصبح حقاً أن اليقين هو الإيمان كله.

وكذلك في قصة وفاة معاذ بن جبل رضي الله عنه وهي أيضاً قصة صحيحة رواها الإمام أحمد بن حنبل بسند ثلاثي صحيح، عن جابر بن عبد الله، يقول جابر رضي الله عنه: أنا ممن حضر معاذاً رضي الله عنه عند موته، قال: ارفعوا عني سجف القبة -طرف القبة ليخاطب الناس- ارفعوا عني أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، ما منعني أن أحدثكم به إلا أن تتكلموا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله موقناً بها من قلبه دخل الجنة»^(٢)، وقال في رواية: «حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله موقناً بها من قلبه»^(٣) فهكذا يبلغ اليقين في أصحابه، وهذا هو اليقين الذي يمحو كل شبهة ويمحو كل شهوة، فيصبح الإنسان ذا قلب أجرد أزهر يتلألأ نوراً بما نوره الله تبارك وتعالى.

الصبر واليقين من صفات الهداة المهديين:

وهنا وقفة عظيمة في اقتران الصبر باليقين كما في كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، المأخوذ من القرآن من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فهذه هي صفات الهادين المهديين، الذين يخرج الله تبارك وتعالى بهم العباد من الظلمات إلى النور ويقيم بهم الحجة.

(١) أخرجه أحمد (٤١٧/٣)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩) مختصراً.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨) مختصراً.

فأئمة الهدى هذا شأنهم وهذه صفتهم، ولن تجد داعية من دعاة الحق، وإمام من أئمة الهدى، إلا أعطاه الله من هاتين الصفتين ما يشاء ﷺ: الصبر واليقين، لولا الصبر لما تحمل، ولما قاوم الابتلاء والفتن، التي لا بد أن يتعرض لها كل من دعا إلى الله تبارك وتعالى، ولولا اليقين أيضًا لما استمر ولما تابع، ولما كانت سيرته الاستقامة على هذا الدين والثبات، مهما كانت العوائق ومهما كانت العقبات فهاتان الصفتان من جمعهما أوتي الإمامة في الدين.

ولهذا يقول سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء على الناس أئمة لهم».

ورأس الأمر وأفضله أو أعلاه -أي في أعمال القلب- هو اليقين ومعه الصبر، فلما أخذوا من أعمال القلب ومن الطاعات برأسها، جعلهم الله تبارك وتعالى رؤساء على الناس أئمة يدعون إلى الهدى.

فلا بد من اقتران هذين لكل من دعا إلى الله، ولكل من جاهد في سبيل الله تبارك وتعالى، ولكل من أراد أن يتقرب إلى الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأن يعبد الله كما أراد وكما رضي وكما شرع لنا أن نعبده.

اليقين يكون في حالين هما:

١- أن يكون اليقين في خبر الله.

٢- أن يكون اليقين في أمر الله.

والمراد بخبر الله: ما كان من العلميات، أي: ما كان من الأمور العلمية الاعتقادية التي حسب المؤمن أن يؤمن بها، وأن يصدق وأن يوقن، وليست أمرًا عمليًا مطلوبًا منه.

واليقين في أمر الله: هو العمل المطلوب من العبد، فيوقن العبد بأمر الله تبارك وتعالى فيستقيم على أمر الله، ويقوم بأداء هذا العمل الذي افترضه الله تبارك وتعالى عليه.

الأمثلة على اليقين في خبر الله ﷻ:

هناك أمثلة عديدة على اليقين في خبر الله، مثل: خبر البعث، فقد أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه يحيي الموتى ويبعث من في القبور، فالواجب علينا أن نوقن بذلك، ولذلك يقول ﷻ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَنْ يَبْعَثُنَّ قُلْ لَنْ يَبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] فهو حق لا شك فيه، فنوقن بالبعث من بعد الموت.

وهناك مثال آخر ألا وهو الموت: فالموت كلُّ يؤمن به، المؤمن والكافر.

ولهذا يقول الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت»، فالموت كلُّ يوقن به، حتى الكافر؛ لكن أعجب ما في حياة الناس كما قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أن أكثر الناس لا ترى لهذا اليقين أثراً في حياتهم، ولهذا يقول: «ما رأيت يقيناً لا شك فيه».

فما تجد إنساناً في هذه الدنيا يشك في موته، لكن يقينه هذا أشبه بشك لا يقين فيه، فإذا نظرت إلى أعمالهم فهم يعملون ويجمعون ويجتهدون كالذي لن يموت أبداً، ولا نجد ليقينه هذا أثراً في حياته.

وقبل ذلك نؤمن بأن الله حق، وأن الجنة والنار حق، فنؤمن بها قبل أن نراها، وأن يوم القيامة آت، وسنبعث ونحاسب، فكل هذه نؤمن بها وهي أمثلة لما أخبرنا به ربنا ﷻ.

وهناك أمثلة أخرى أيضاً - مثلاً - عذاب القبر ونعيمه، نوقن به يقيناً ولا نشك في ذلك، لأن الصادق المصدوق ﷺ أخبرنا به، ولذلك نحن نؤمن به، وقد جاءت الأدلة به في القرآن.

أقسام أخبار الغيب:

وأيضاً نؤمن بالصراط، والملائكة، ورؤية وجه الله والميزان، وجميع أركان الإيمان، فهذه الأخبار على ثلاثة أنواع هي:

أولاً: أخبار هي غيب محض: وهذه التي مدح الله تبارك وتعالى المؤمنين بها، في أول القرآن بعد الفاتحة في سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: ٢، ٣] وهذا يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والصراط والميزان، وغير ذلك.

وهذا من الغيب المحض الذي يكون بعد أن يلقي العبد ربه، فهو ما دام في هذه الدنيا فهذا من الغيب الذي لا يراه.

ثانياً: أخبار هي غيب نسبي: والمقصود بها: ما أخبر به الله أو أخبر به رسول الله ﷺ مما سيكون في هذه الدنيا، ومما هو واقع ويكون في هذه الدنيا، وهذا يدخل فيه أمور كثيرة منها: أن توقن بظهور الإسلام على جميع الأديان، ومن أعظمها: أشرط الساعة التي نؤمن ونوقن بها حق اليقين، ولا نشك في ذلك ولا نتردد، ومن أشرط الساعة: خروج المسيح الدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج، والدابة، وبنزول عيسى عليه السلام، وبالذخان، وخروج النار من قعر عدن، وهي آخرها كما في حديث حذيفة في صحيح مسلم، فهذه الأشرط الكبرى العشرة مع الخسوفات الثلاثة: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب. فهذه عشرة.

والعلامات الأخرى غير هذه كثيرة منها: خروج ما أخبر به النبي ﷺ: من الفتن، وخروج المهدي ويكون مع عيسى عليه السلام، ويصلي خلفه، والحرب مع اليهود، ونوقن أن هذه الأمة ستقاتلهم حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، ونؤمن بتناول رعاة الشاء في البنيان وتفاخرهم فيه، وهذا مما شوهد الآن وغير ذلك.

فإذن: علينا أن نؤمن بكل ما أخبر به الله أو أخبر به رسوله ﷺ إيماناً لا يتزعزع ولا يتزحزح أبداً وبذلك نصل إلى درجة أو مرتبة اليقين فنكون موقنين بذلك.

ثالثاً: نؤمن بما هو من أمر الغيب: لكن يمكن أن يكون غيباً عند البعض وليس غيباً عند البعض الآخر، ومن أمثلتها حديث الذبابة، فالنبي ﷺ قال: «إذا وقع الذباب في

إناء أحدكم فليغمسه ثم ليلقه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء»^(١) فهذا بالنسبة لنا نحن الذين ليسوا من أهل الدراسة أو الاطلاع الكيميائي والبحث التجريبي وغير ذلك، فنحن عن طريق الغيب نؤمن بذلك.

ولكن لو أن أحدًا حلل ورأى ودقق حتى عرف الداء وعرف الدواء، فهذا أصبح بحقه من عالم الشهادة لا من عالم الغيب، لكن نحن نؤمن بذلك وبما قاله ﷺ سواء جربوا أو لم يجربوا.

والإيمان بالغيب أفضل، لأننا إذا جربنا ورأينا لم يعد ذلك إيمانًا بالغيب، وإن كان إيماننا وتصديقنا للنبي ﷺ يزيد، وأكثر الناس لا يزيد إيمانه إلا إذا رأى.

لكن المؤمن ينبغي له أن يوقن وأن يصدق بذلك دون أن يحتاج إلى تجريب وامتحان، لأنه أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي أخبر الله تعالى أنه لا ينطق عن الهوى.

إذن: يكون لدينا اعتقاد مطلق بأن كل ما أخبر به رسول الله ﷺ فهو حق من عند الله تبارك وتعالى لا نشك في ذلك ولا نتردد أبدًا، ولكن الشرط الوحيد الذي نطالب به هو أن يصح وأن يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال ذلك، وهذا يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فكل ما آتانا رسول الله ﷺ نأخذه كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] فهو إنما ينذرنا بالوحي من عند الله ﷻ، وليس بشيء من عند نفسه، فنؤمن بهذا كله، وهذا لا يحتاج إلى إطالة ولا إلى شرح ولا إلى تفصيل.

أهمية اليقين في أمر الله ﷻ:

نتقل إلى القسم الآخر، وهو مهم لأننا نحتاجه كثيرًا نحن المسلمين في هذه الأمة، وهو اليقين في أمر الله!

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠).

فإذا أمر الله تبارك وتعالى بأمر أن نوقن به مثلما نوقن أيضًا في خبر الله، وهذا يكون في الأمور العملية، فكما أنه في الحالة الأولى لا شك في خبره، فكذلك لا بد من اليقين فيما أمر به من الأعمال -مثل- توحيد الله وعبادة الله، فنوحده الله ونعبده، بالصلاة، والزكاة، والصيام، وكل أنواع العبادات.

وأن يكون العبد من اليقين بحيث إذا علم أن الله تعالى حرم ذلك، فلا بد وقف ممتثلًا ومذعنًا قائلًا في نفسه: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٥).

فهكذا لا يمكن أن يقدم العبد على محارم الله ولا أن ينتهكها، وكل ما أمر الله تبارك وتعالى به من أمر فإنه يقدم عليه ويفعله موقنًا أن الله أمر به وشرعه، وموقنًا أن الله تبارك وتعالى يجازي من فعله بالجزاء الذي وعد به، فيكون موقنًا بالوعد وموقنًا بالوعيد، ممتثلًا للأعمال التي يترتب عليها الوعد والوعيد، فما كان مأمورًا به فعله وما كان منهيًا عنه تركه، وهذه حقيقة التقوى.

فإذن: الموقنون في هذه الدرجة هم طائفة خالصة من المتقين، عندما أيقنوا أن الله ﷻ حرم ما حرم، فحرم الزنا، وحرم الربا، وحرم الخمر، وحرم السرقة، وحرم الرشوة، وحرم الغيبة، وحرم النميمة، وحرم الإساءة إلى الجار، وحرم عقوق الوالدين، وحرم الإضرار بالناس، وحرم الظلم، وحرم البغي، وحرم العدوان، فكل ما حرمه الله تبارك وتعالى فاجتنبوه وانزجروا عنه، ولم يأتوه أبدًا.

وأيقنوا أن الله ﷻ أمر بالصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والصدقة والعدل، والإحسان، وبر الوالدين، وفعل الخيرات عمومًا فكل ما أمر به الله تبارك وتعالى أيقنوا أن الله أمر به، وأن الله يجازي من فعله بخير الجزاء، فلذلك امتثلوه وعملوه.

أمثلة ضربها الصحابة في تحقيق هذه المنزلة:

ولو تأملنا أفضل جيل وأعظم جيل وأروع أمة ضربت المثل الأعلى في اليقين، وهم الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ؛ لرأيتم العجب العجاب في الحالين، في حال

اليقين بأمر الله، وفي حال اليقين بخبر الله ﷻ.

فلنأخذ بعض الأمثلة على يقين الصحابة رضي الله عنهم:

فمثلاً: يقين عامر بن عبد القيس رضي الله عنه في القول المأثور عنه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

وكذلك ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لو رأيت الجنة والنار ما ازددت يقيناً، لأنّي رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ، الذي قال فيه ربه: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَعَنَ﴾ [النجم: ١٧]».

فهو يقول: أنا لا أضمن أن يزيغ بصري أو أن يطغى، فهنا درجة عظيمة من اليقين من جهة، وتعظيم رسول الله ﷺ ومعرفة قدره ﷺ من جهة أخرى، فكأنه يقول: لو أني اطلعت فرأيت الجنة والنار، لربما زاغ بصري أو طغى فلا أوقن بها أو لا أراهما على حقيقتهما، لكني لما رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ، ولما أخبرني رسول الله ﷺ عنهما كما في ليلة الإسراء وغيرها، فهذا عندي أوثق من رؤيتي أنا بعيني، فهذا لا شك أنه يقين من جهة، وأيضاً معرفة بقدر رسول الله ﷺ من جهة أخرى.

وكذلك هناك مثال آخر: أبو بكر رضي الله عنه حين أتاه كفار قريش وقالوا له: إن صاحبك قد كان يزعم ويزعم أما الآن فقد جاء بأمر عجيب، وما نظنك إلا تكذبه، قال: ما هو؟ قالوا: يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء وعاد في ليلة، فمعنى كلامهم: حتى في مثل هذا الخبر يمكن أن تصدق صاحبك بما يقول؟ فقال: «إن كان قاله فقد صدق»^(١)، فشرط يقينه بصحة الخبر، فلما تبين له أنه قاله ﷺ أيقن بذلك حقاً، لأن لديه يقين لا يمكن أن يشك أبداً في صدق رسول الله ﷺ، فقد كان من الموقنين رضي الله عنهم.

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٣٣٥).

وغير ذلك كعبد الله بن رواحة القائل:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد لنا عذابها علي إن لاقيتها ضرابها

أنس بن النضر رضي الله عنه - وقد كان أعرج - ذهب إلى معركة أحد فقال له بعضهم: يا أنس إن الله قد عذرك: ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]، فقال: والله لأطأن بعرجتي هذه الجنة، فقال رضي الله عنه: «لقد رأيتني في الجنة وما به عرج»، فيقينه في الجنة وهو في المعركة وقت المعركة؛ حيث تخفق القلوب وترجف، ويبدأ الإنسان يفكر من أين أهرب؟ وأين الملجأ؟ وأين المفراً؟ هم يقدمون موقنين: أننا أقرب ما نكون إلى الجنة.

والآخر عمير بن الحمام القائل: «بخ بخ ليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا هذه التميرات»^(١)، هذا يقين الصحابة رضي الله عنهم فأنس يقول: «والله إني لأجد ريح الجنة من دون أحد» فهم يرون كأن عالم الغيب أصبح أمامهم عالم شهادة.
ولنا في هذه وقفة:

عندما يكون عالم الغيب أمام عينيك كيف تصبح حياتك، فالفرق بين الإنسان وبين البهائم، وبين العالم والجاهل، وبين الغافل والذاكر، هو هذا اليقين.

والناس كثير منهم كالأنعام بل هم أضل، وقد جاء في حديث صححه الشيخ الألباني: «ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وكل شيء يذكر الله عز وجل»، كما في القرآن: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] «إلا المردة من الشياطين والأغبياء من بني آدم» مهما كان علمهم وفقههم فهم أغبياء كالأنعام.

فهؤلاء الغافلون الأغبياء الذين وافقوا المردة في أنهم لا يذكرون الله، فمثلاً: إذا رأى موتاً أو حياةً أو فرحاً، أو ضحكاً، أو حزناً، أو ألماً، أو فقراً، وإن رأى ما رأى فهو لا يتأثر أبداً، كالدابة تمر وتنظر إلى دابة أخرى تذبح ثم تذهب وترعى ولا تبالي بشيء!

(١) أخرجه مسلم (١٩١).

فهذا حال الكفار الذين لا يوقنون: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

المؤمن يرى بعين الإيمان والبصيرة:

أما المؤمن فإنه يرى هذه المظاهر والمناظر بعين غير تلك العين، فله نظرات أبعد وأعمق من ذلك بكثير، فلو لم يكن في حال المؤمن إلا أن يقف وينظر إلى الناس وهم ذاهبون في الصباح -مثلاً- فيرى ويتعجب كيف أن الله ﷻ هو الذي أعطى هذا وأعطى هذا، كيف جعل الآيات له تبارك وتعالى في اختلاف ألستهم وألوانهم، فاختلاف الألسنة والألوان عجيب جداً.

ومن عجائب الله سبحانه اختلاف سعيهم أيضاً: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]. فهذا عاصٍ وهذا بار، وهذا فاجر، وهذا مُدبِر، وهذا معرض، وهذا الآن اهتدى، وهذا متعمق في الإيمان، وهذا متعمق في الغواية، وهذا وهو يرى الأشياء ولكن بعين غير تلك العين.

فالفرق بينهما كالفرق بين من يرى أخشاباً أمامه وبين آخر تعمق فأخذ منظراً مكبراً فإذا هذه الأخشاب عبارة عن مخلوقات عجيبة جداً، والآخر لا يراها أبداً فيظنها حجارةً أو أخشاباً أو أشياء لا قيمة لها.

فالمؤمن يرى ما يجري من أحداث بعين اليقين وبعين البصيرة، فيتأمل في ملكوت السموات والأرض.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فأي شيء في نفسك أو في الكون وقعت عينك عليه فيه آيات عجيبة وعظيمة، ففرق بين الغافل والذاكر، فهذا حي، وقلبه حي، وارتباطه بالله دائم ويقينه وفكره كذلك؛ ولذلك فهو مترفع عما يفكر فيه الأقلون.

ولذلك مما يترتب على هذا: أن العبد المؤمن يصبر على كل ما أصابه، لأن من يقينه أنه يصبر على كل ما يصيبه، ويعلم أن الخير والشر مقدر عليه، وكل ذلك من الله

تبارك وتعالى فلا يجزع ولا يقنط.

ولذلك يوجد الفرق الكبير بين الناس إذا وقعت مصيبة أو كارثة، على هذا الذاکر أو ذاك الغافل، وما أكثر ما يعرض للإنسان في هذه الحياة الدنيا من ذلك.

الأمثلة على اليقين في أمر الله ﷻ:

هناك أمثلة من اليقين في امتثال الأمر - مثل - بلال وعمار وغيرهم لما عذبوا ﷺ فتوضع الصخرة في حر مكة في الرمضاء على بلال وعلى صدره وهو يقول: «أحدُّ أحد»^(١) يوحد الله تبارك وتعالى، فهذا من يقينه ﷺ.

وهناك أمثلة أخرى عجيبة من هذا، عندما يقتل الرجل منهم أخاه، أو أباه، أو قريبه، في ذات الله، فما فعل ذلك إلا لأنه موقن في أن هذا عدو لله، وموقن بأن الله سبحانه أمره بأن يبرأ من الكافرين، وموقن بأنه لا ولاية ولا صلة بين المسلمين وبين الكافرين، وموقن أن من قاتل وقتل في سبيل الله فإن جزاءه الجنة، فهذا أيضًا نتيجة اليقين.

وكذلك حين قبض رسول الله ﷺ اهتزت القلوب وارتجفت، حتى عمر ﷺ قال: «ما مات؛ بل رفعه الله إليه» فاضطرب أمره ﷺ، فقال أبو بكر ﷺ: «يا عمر، أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام، وتلا عليه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فأيقن عمر^(٢).

ولما ارتدت العرب قاطبة وكان الموقف كما علمنا من عمر ﷺ وبعض الصحابة، نجد اليقين عند أبي بكر يقينًا عجيبيًا جدًا، حتى إنك تتعجب كيف أنفذ جيش أسامة إلى أقاصي الروم وقد ارتد أكثر العرب من حوله، وجيش أحد عشر لواءً يبعثها،

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٠)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٧، ٣٦٦٨).

كلًا منها يبعثه إلى ناحية من النواحي، ليعيدوا الناس إلى هذا الدين، فهذا يقين بأن الله سبحانه سينصر هذا الدين، وأن ما أخبر به رسول الله ﷺ حق، وأنه مهما كانت الهزة ومهما كانت الصدمة، فإن النصر والغلبة بإذن الله ستكون لهذا الدين.

ونستطيع أن نقول: إن حياة الصحابة رضي الله عنهم كانت كلها يقينًا مثلًا: لما حرم الله تبارك وتعالى الخمر، وسنضرب المثل بها لأنها ليست كالسرقة، وليست كالزنا، فالأمر يتعلق بالإدمان، ومن يعرف ومن يسأل ويرى المدمنين - نسأل الله العفو والعافية - يجد أن أصعب وأشق شيء على النفس أن تتخلص من عادة الإدمان، ولهذا لو قلت لإنسان مدخن: نقطع عنك الرز واللحم لما تأثر، ولو قلت له نقطع عنك التدخين فلن يقبل لأنه ليس لديه يقين، وهذا ليس إدمان تدخين، بل إدمان خمر، فلما أنزل الله تبارك وتعالى تحريم الخمر ماذا فعل الصحابة رضي الله عنهم؟ أراقوها، ولما قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (١١) [المائدة: ٩١] قالوا: «انتبهنا ربنا، انتبهنا ربنا»^(١) فأراقوها - بلا تفتيش ولا رقابة ولا شرطة ولا هيئات - هم بأنفسهم، فحين أنزل الله تحريمها، أيقنوا بذلك فقالوا: «انتبهنا ربنا» فأراقوها حتى جرت السكك في المدينة بها.

فإذا انتفى اليقين تكون الحالة كما جرى في أمريكا، فقد حدثت قصة عجيبة استمرت في العشرينات وأوائل الثلاثينات من هذا القرن، وذلك عندما قررت أمريكا أو قرر عقلاؤها إصدار أمر بتحريم الخمر؛ لأنها ضارة، ولا شك أنها تفسد الرجل الحليم كما قال أهل الجاهلية.

فقالوا: لا بد من تحريمها، وجندوا النشرات والإعلانات والدعايات بجميع أنواعها، ورسدوا لها الملايين، والجنود والمفتشين، وكل ما تتصوره أمريكا، فحين تعزم أمريكا على شيء وتقرره، يكون حالها كما قال تعالى ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٢) [الشعراء: ١٣٠] فإذا قررت شيئًا فإنها تتحرك وتتابع وتحقق وتعقب وكل ما يتخيله الإنسان من نظام ودقة، فما الذي حدث؟ اضطروا وأرغموا هم بأنفسهم أن يتراجعوا

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٥١)، وضعفه العلامة الألباني كما في «الصحيحة» (١٦/٣١).

عن هذا القرار بعد ثلاثة عشر أو اثني عشر سنة، وأغوا هذا القرار، لأنه لم يستجب الشعب لهم، بل زادت المصانع وتحولت إلى مصانع سرية، وشربت أنواع رديئة، وكله رديء، لأنه لا يخضع لمواصفات معينة، فقالوا: انتشرت الأمراض، والقتل، والدمار، والخسائر، فما كان منا إلا أن سمحنا بعودتها، فعادت كما كانت، وللشعب أن يشربها كالماء - والعياذ بالله - فامة لا يقين لها حالها ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَأَن لَّانْعَمَ بِهِ لَّهُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ [الفرقان: ٤٤] فمن لا يقين له هكذا حياته.

اليقين هو الإيمان القلبي وليس الاقتناع العقلي:

الصحابة رضي الله عنهم كان هذا أمرهم، ولذلك ليس اليقين هو الاقتناع العقلي؛ لأن أمريكا عندها الاقتناع العقلي ولم يكفها ذلك، ولكن اليقين هو الإيمان القلبي.

فكم من طيب يشرب الدخان، فإن أتيت إليه وأخبرته عن كل أضرار الدخان لا يتوب، فإذا سمع موعظة بليغة مؤثرة، أقلع عنه وتاب والحمد لله، فما ذلك إلا لأنه خاطب اليقين القلبي، أما الخطاب العقلي المجرد والكلام عن الأضرار والتأثير، فقد يترك أثرًا وقد لا يترك، وقد يترك ثم يعود، فلا نسبة بين الأثرين أبدًا.

وهناك قصة عظيمة وعجيبة وهي قصة خالد بن الوليد رضي الله عنه لما شرب السم، فكونه رضي الله عنه يقتحم المعركة ويقا تل موقنًا بما وعد الله وبنصر الله، وأنه إن مات فهو شهيد، فهذا أمر ليس غريبًا على الصحابة، لكن أن يشرب السم ليفحمهم فذاك شيء آخر، وذلك لما قالوا: إن كان نبيك ودينه على الحق فاشرب هذا السم، فلو قال: لا، فأين اليقين، فشربه، فحفظه الله من ذلك.

وهذا يدخلنا إلى مدخل عظيم جدًا وهو: أن اليقين كرامة عظيمة من الله - تبارك وتعالى - وأصحاب الكرامات الحقيقيون هم الموقنون، وقد تكون كرامة معنوية خفية، كأن يستجاب دعاؤه ولا يحدث الناس بذلك، أو كأن يعطيه الله عز وجل الفراسة، فإذا توقع أمرًا كان كما يقول، فاليقين يثمر أنواعًا من الكرامات لأصحابه.

ونختم بهذه الآية وهي قول الله تبارك وتعالى بعد أن ذكر أحكامه وأوامره التي قد

يشك فيها كثير من الناس كما يُرى في هذا العصر: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فيجب أن نحیی في الأمة الإسلامية معنی اليقين بخبر الله، وهذا والحمد لله لا شك فيه، ومعمول به عند كثير من الدعاة والوعاظ، فهم يعلمون الأمة اليقين بخبر الله، وما جاء من أمور الغيب، لكن يجب أن نحیی الجانب الآخر أيضًا وهو اليقين بأمر الله، وأن ما شرعه الله هو الحق وهو الخير، فلما حرم علينا الزنا، أو الربا، أو الخمر، أو أمر بالحجاب، أو جعل ميراث الأثني كذا وميراث الذكر كذا، أو شرع أي شيء فله بذلك الحكمة البالغة، ويجب أن نكون من الموقنين، وإن خرجنا عن ذلك أو شككنا فإننا نكون قد تركنا أمر الله ورضينا بحكم الجاهلية، فهما نوعان، وقسيمان، وضدان: حكم الله، وحكم الجاهلية.

فليكن يقيننا بالله تبارك وتعالى، وفي وعده وفي أمره، وفي خبره، كما رضي لنا ربنا ﷺ وكما علمنا رسول الله ﷺ، وكما فعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا من الموقنين.

حكم الوسواس التي ترد على الإنسان:

السؤال:

الوسواس التي ترد على الإنسان سواء كان في الصلاة أو في غيرها، أو كانت في الأمور العقيدية أو غير ذلك، هل لها علاقة باليقين، وهل ورود مثل هذه الوسواس تؤثر في يقين الإنسان؟

الجواب:

بالنسبة للوسواس فإن المؤمن يخاف منها جدًا، وقد خاف منها الصحابة الكرام ﷺ على إيمانهم، وجاءوا يشكون ذلك لرسول الله ﷺ، كما ثبت في الصحيح، قالوا: يا رسول الله «إن أحدنا ليجد في نفسه ما إن يكون حممة - أي فحمة محترقة -

ولا يتحدث به» لأنهم يستعظمون أن يتحدثوا به، فيتمنى الواحد أن يكن فحمة محترقة، ولا يتحدث به من هوله، ولا يريد أن يقوله، وساوس، وخطرات، وإلقاءات، ولمات من الشيطان، لا يريدون أن يذكروها لبشاعتها ولقبحها، ولأنها تنافي إيمانهم ويقينهم.

ولكن رسول الله ﷺ، وهو المزكي والمربي الحكيم، طمأنهم وقال: «أوقد وجدتموه؟» وكأنه ﷺ بهذا يقول: إنني أنتظر أن تجدوه، فعندما يقول لك أحد: حصل لي كذا وكذا، فتقول له: أوجدته، معناه أنك تعلم وتتوقع أنه سوف يقع له ذلك، وزيادة في التطمين قال لهم: «فذاك صريح الإيمان»^(١)، أو «ذاك محض الإيمان»^(٢)، وفي رواية قال ﷺ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»^(٣)، وهي لن تؤثر بإذن الله على المؤمن مادام أنها لم تصل إلى أن تكون اعتقادًا أو شكًا، أو وسوسة يستفظعها، ويستقبحها، ويردها، ويرفضها، ويشكو منها، مهما طالت.

وهذه تقع لكثير من الشباب في أول هدايتهم، وربما عرضت لغيرهم، فهي عرض من الشيطان، لا تلقي لها بالاً، لأن كراهيتك وبغضك لها، وكونك تخاف منها ولا تقدر أن تحدث بها أحدًا دليل على الإيمان في قلبك، فعدو الله يخوض معك آخر معركة، فإن ظفر بك وأضعفك فقد هلكت -حفظنا الله وإياكم من الهلاك- وإن نجوت وقاومت وأعرضت عنه فهو مثل الذي يرى إنسانًا ذاهبًا في طريق فيأتي من يمينه ومن خلفه، فإذا عزم وتوكل على الله ومضى في طريقة، تركه ولا يضره شيئًا، وهي من كيد الشيطان:

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

فاطمثوا وربوا إخوانكم على ما ربي عليه رسول الله ﷺ أصحابه بأن يطمثوا، وأن يتعاهدوا إيمانهم، وأن يجددوه ويقووه ولا يلقوا لتلك الخواطر بالاً.

(١) أخرجه مسلم (١٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٦/٢)، وحسنه العلامة الألباني في «ظلال الجنة» (٦٥٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٢)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

وسائل تقوية الإيمان في القلب:

السؤال:

كيف أنمي اليقين في قلبي بعد العلم؟

الجواب:

كلما تحدثنا عن أسباب تقوية الإيمان، فإنها تؤدي إلى اليقين بإذن الله، لأن أعمال القلب واحدة، فكل ما يؤدي بك إلى الإخلاص، أو إلى اليقين فإنه يؤدي بك إلى الصبر، والخشية، والخشوع، والإنابة، والرغبة، والرغبة، فكلها متداخلة.

فكل ما من شأنه أن يقوي إيمانك من قراءة القرآن، وزيارة القبور، والتفكير في ملكوت السموات والأرض، وفيما بث الله في الأرض من دابة، وفي أحوال الناس واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وإنزال الغيث، وتصريف الأمر وتدييره، كل ما من شأنه أن يقوي إيمانك من الآيات والعبر فهو بإذن الله يقوي يقينك.

حکم ادعاء اليقين الكامل، والفرق بين التوكل والتوكل:

السؤال:

أعرف بعض الإخوة يقولون: إن لديهم يقينًا تامًا، ولهذا فهم لا يعتمدون على الأخذ بالأسباب في أمور حياتهم، فمثلًا لا يدخل ابنه في المدرسة قائلًا: إنني على يقين أن ابني لن يأخذ إلا ما كتب له، أرجو التوضيح؟

الجواب:

هذا ليس يقينًا ولا توكلًا وإنما هو توكل.

أولًا: لا يجوز لإنسان أن يدعي اليقين - وخاصة عبارة اليقين الكامل - فهذا أمر صعب، فلا يجوز لأحد أن يدعي اليقين الكامل.

وأما إن من الله تبارك وتعالى عليه بشيء من اليقين فليحمد الله عليه، ولا بأس أن يحدث به، وإن كان ترك ذلك أولى، لكن المقصود أن يقول: إن لدي اليقين الكامل، فهذا مثل أن يقول أنا مؤمن كامل الإيمان، وقد أنكرها السلف على من قالها إنكارًا شديدًا.

ثم إن ترك الأخذ بالأسباب ليس من الشرع في شيء، فلا يقول: أنا على يقين أنه لن يأخذ إلا ما كتب له، فلا شك في ذلك، ولكن اجتهد أنت في أن تسعى له بالخير بالقبول في التوظيف للعمل، فهذا الابن الذي أنت تقول له هذه العبارات كيف أتى؟ لماذا لم تقل: أعيش من غير زوجة وأنا على يقين إن كان الله سيرزقني أولادًا أنه سيرزقني، لأنك تعلم أن الله تعالى جعل من سنته أنه لا يكون الابن إلا من زواج، فكذلك السعي والرزق جعله الله تبارك وتعالى مقترنًا ببذل الأسباب، ثم بعد ذلك هو **بِرَزْقِكَ** يعطي ويهب لمن يشاء، ويمنع ويحرم من يشاء.

عدم اجتماع اليقين والمعصية:

السؤال:

هل يمكن أن يكون الإنسان المسلم موقنًا ويقع في نفس الوقت في المعصية، أم أنها لا تجتمع معًا، أي: اليقين والمعصية لله، أفتونا ماجورين؟

الجواب:

اليقين والمعصية لا يجتمعان، لكن المعصية تقع، ويمكن أن تقع من كل أحد، وتعليل هذا: أن اليقين في هذه الحالة يضعف، ويستولي الشيطان على العبد، كما يفعل شياطين الإنس، فقد يكون الرجل قويًا شديدًا -مثلًا- لكن حين ينام، أو يغفل، يختطفه شيطان من شياطين الإنس ويذهب به بعيدًا عن موطنه.

وكذلك المؤمن قد يضعف ويفتر يقينه، فيختطفه الشيطان فيوقعه في معصية من المعاصي، كالفواحش -مثلًا- فينطبق عليه أنه إذا زنى العبد ارتفع إيمانه فكان عليه كالظلة، فإن تاب ورجع وإلا أقلع عنه، نسأل الله العفو والعافية.

فعندها يكون اليقين الذين ذكرنا بأوصافه وأحواله حينئذ غائبًا.

أما اليقين بمعنى العلم فقط، الذي هو الحد الذي يخرج صاحبه من دائرة الشك والريب إلى دائرة الإيمان، فهذا يظل معه، لأن هذا من قول القلب وإقراره، والكلام إنما هو عن اليقين الذي هو عمل القلب.

حكم الشك في نصر الله لدينه ولأمة الإسلام:

السؤال:

هناك أناس لا يحققون معنى اليقين من الثقة بنصر الإسلام، وأن الغلبة والعزة له، ويقول: إن الغلبة والعزة ستكون للكفار، فما هو توجيهكم لهؤلاء؟

الجواب:

هؤلاء في الحقيقة يظنون في الله ظن السوء، وظن الجاهلية، وهو: أن الله سبحانه لن ينصر دينه، بل إن الكافرين سوف ينتصرون على المؤمنين، وهذا مرض قديم في الأمة، مرض به المنافقون وابتلوا به في أيام النبي ﷺ، والآن في هذا الزمان وفي كل زمان يوجد الكثير ممن ابتلي به.

فيظن أن الله تبارك وتعالى لن يحقق لرسوله ﷺ ما وعده به: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢].

فقد وعده أن هذا الدين يبلغ ما بلغ الليل والنهار، بأن تفتح القسطنطينية، ورومية - التي هي روما - وقد أعطاه الكنزين الأحمر والأسود، وزوى له الأرض ورأى ما يبلغ ملك أمته منها، وغير ذلك مما بشر وطمأن به النبي ﷺ، وأيقن به أصحابه الكرام، فإنه قد حدثهم وأخبرهم، وهم في حال الضنك وفي حال الشدة، وهم يحفرون الخندق وقد أحاط بهم الأحزاب من كل ناحية وزلزلوا زلزلاً شديداً، أخبرهم أنهم سيفتحون ملك كسرى وقيصر: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله ﷻ»^(١)، فأيقنوا بذلك وآمنوا وتحقق ذلك بحمد الله وتوفيقه.

فهذا لا يجوز لأحد أن يعتقد من المسلمين، وأما الذين ضعف إيمانهم بالهزيمة الفكرية والنفسية وظنوا بالله هذا الظن، ووافقوا أهل الجاهلية وأهل النفاق في ذلك، فهؤلاء مرضى، فيجب أن يعالجوا بكل ما من شأنه أن يرفع يقينهم وإيمانهم وثقتهم،

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨).

ولو كانت هذه الثقة الضعيفة أو فقد الثقة في الله وفي وعد الله قبل عشر سنوات -مثلاً-
لربما يقال وأين الإسلام!؟

أما في هذه الأيام والحمد لله فهناك مبشرات كثيرة، رغم العقبات ورغم الظلمات،
ورغم ما يكيد الأعداء، فإن المبشرات كثيرة وواضحة جلية، وإلا فما معنى هذه
الصحة وهذه اليقظة وهذه التوبة وهذه الأوبة في الشباب، والكهول، والنساء،
والرجال، وفي الشرق والغرب؟ والكل يريدون منهج السلف الصالح، والكل يريدون
العلم النافع، والكل حريصون على ما يقربهم من الله، والكل يرفض المذاهب
والنظريات والشبهات: هذا دليل -والحمد لله- واضح وجلي على أن الأمة تعيش
صحة عظيمة نسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك فيها وأن يسدها وأن يرزقها الإخلاص
واليقين.

أخبار المسلمين المجاهدين:

السؤال:

ما آخر أخبار المسلمين في البوسنة والهرسك، وكذلك في أفغانستان؟

الجواب:

بالنسبة لإخواننا في البوسنة والهرسك، الوضع الدولي متواطئ ومتآمر، ويتخذ
بعض القرارات كما يسمونها لحفظ ماء الوجه أو للتغطية، وإلا فالموقف الدولي
متواطئ تمامًا، والقوى الكبرى نصرانية حاكمة أو قوى مشرقة لا تؤمن بالله تبارك
وتعالى، ولا يهتمها شأن المسلمين ولا أمرهم، فحدث هذا التواطؤ الغريب والعجيب،
دولة تعترف بها الأمم المتحدة أنها دولة مستقلة وفي قلب أوروبا، وتباد وتسحق وتدمر
ويشرد الملايين، ومعسكرات للتعذيب التي لم يشابهها كما ذكروا هم إلا معسكرات
النازية، وحرب عنصرية، إلى غير ذلك من المشاكل في ظل النظام الدولي الجديد - كما
يزعمون - وهم يترددون ويقولون: ستتخذ القوة، لماذا؟! قالوا: من أجل إيصال
المعونات وليس من أجل ردع المعتدي، سبحان الله! أين هذه القوى والموقف

والشرعية الدولية، والحق والعدل والنظام الدولي، وإثبات أن أحدًا لا يمكن أن يعتدي، وما قالوه وما جمعجعوا به في أزمة الخليج ليؤلبوا العالم معهم، أين ذلك؟! ذهب كله أدراج الرياح، واتضح أنه كله هراء وكذب، وأنهم يعملون حيث ما تكون مصلحتهم وليس أكثر من ذلك.

والحمد لله البشائر في هذا الجهاد أن المسلمين شكلوا جبهة -ونسأل الله أن يبارك فيها- جهادية مستقلة لا تمثل حكومة البوسنة ولا غير ذلك، وإنما من خريجي الجامعات الذين درسوا هنا في المملكة -والحمد لله- على عقيدة صحيحة سليمة، شكلوا معسكرات جهادية وبدءوا يجاهدون في سبيل الله، ويشترطون فيمن يكون معهم أن يكون من أهل الصلاة والالتزام، ويتجنب المعاصي، وحريصون على تربيتهم وعلى تعليمهم من خلال المعسكرات وفي أثناء التدريب وغير ذلك والحمد لله.

وبدأ هؤلاء يخوضون معارك مع الصرب، ويقولون: إنهم يفرون منهم فرار الغنم من الذئب -سبحان الله العظيم- ويقولون: رأينا فيهم جنبًا عجيبيًا جدًّا، ولكن المشكلة نقص السلاح.

ولقد حدثني أحد الإخوة يقول: كل عشرة من الشباب على مسدس واحد، فتصوروا كيف يكون ذلك مع قلة عددهم، وهم ليسوا كثيرًا، أسأل الله أن يبارك في عددهم فلو أعطوا هؤلاء السلاح وأعطوا المال فسيكون في ذلك خير كثير بإذن الله تبارك وتعالى، وهم يطلبون منكم ذلك، والحمد لله عن طريقنا يسافر تقريبًا كل أسبوع مجموعة من الإخوة الثقات، ومن الإخوة الذين يحضرون الدرس وتحمسوا لهذا الموضوع للدعوة إلى الله هنالك، فهم يذهبون ويسلمون مبالغ نقدية يدًا بيد، ويقومون بالدعوة إلى الله بحسب إجازاتهم.

ومنهم من قرر أن يبقى هناك يدعوهم إلى الله ﷻ ما شاء الله أن يبقى، نسأل الله أن يوفق الجميع، فالباب مفتوح للتبرع لهم.

أما بالنسبة لأفغانستان فالوضع في الحقيقة قاتم ومؤلم، وليس لدي تصور واضح

بالضبط عما يجري إلا الأخبار العامة ولا أتابعها كثيرًا، بل قد لا أتابعها ولا أعتد عليها، والأخبار الخاصة قد وصلتني من بعض الأطراف فقط رسائل بالفاكس تقول: إن الجهاد لا يزال مستمرًا وأن ما تحقق إنما هو مرحلة من مراحل الجهاد، ولكن الجهاد لا يزال مستمرًا مع المليشيات، ومع الشيعة ومع الباطنية والإسماعيلية، ومع الفرقة، وهي أشد أنواع المشاكل التي يعاني منها المجاهدون هناك.

الفرقة التي أوقعها الشيطان فيما بينهم، فادعوا الله وتضرعوا إليه أن يجمع كلمتهم جميعًا على الحق وعلى الكتاب والسنة، وأن يكلل نصرهم على الشيوعيين بانتصارهم على أنفسهم، فتصفو وتزكو وتطهر لله بِرَبِّكَ وتتخلص من أدران الشرك والرياء والنفاق والخرافة والبدعة، ليكونوا حقًا مجاهدين، لينصرهم الله -تبارك وتعالى- فيستمر هذا الجهاد، وتستمر هذه الراية، والمؤامرات الدولية كبيرة جدًا عليهم.

وأمریکا لأنها لم تستطع أن يكون لها يد مؤثرة في لعبة الدولة، وأن تجعل من أفغانستان دولة علمانية عليها مسحة دينية، وغلبت على ذلك فهي تريد الآن أن تخرب ما حصل من الاجتماع.

ومن أخطر ما يسمع عن الإعلام الغربي، أنه يحاول تصنيف القادة إلى معتدلين ومتطرفين، ويضرب هؤلاء هؤلاء حتى في لحظات الوفاق فيما بينهم، فالإعلام الغربي لا يكف عن وصف هذا بالتطرف والتشدد، وهذا بالاعتدال إلى آخر ذلك؛ لكي يضرب فيما بينهم ولكي تفقد الأمة الثقة فيهم، فما علينا إلا الدعاء لهم، ونسأل الله أن يجمع صفوفنا على الحق إنه سميع مجيب.

أنواع اليقين:

السؤال:

ما هي أنواع اليقين، وهل الظن هو اليقين، وما علاماته على الفرد، وهل نستطيع

الحكم باليقين على من نحسبه كذلك، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

يمكن أن يقسم اليقين إلى أنواع: من جهة وجوده وحقيقته في القلب، فيكون الحد الأدنى هو: العلم، والدرجة العليا هي: حقيقة وغاية اليقين.

ومن جهة موضوعه: فإما أن يكون متعلقًا بالاعتقاد وبالعلميات، فيكون يقينًا في خبر الله، أو متعلقًا بالعمليات وبالأوامر والنواهي فيكون يقينًا في أمر الله.

والظن ليس من اليقين ولا يجتمعان، ولهذا يقول المشركون: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، فقله: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ تأكيد، وهو من البلاغة القرآنية، فالمقصود: إن كنا نظن إلا ظنًا، فما داموا يظنون فهو ظن، لكنه تأكيد أنهم لم يكونوا على إيمان، ولم يكونوا على يقين في وعد الله - تبارك وتعالى - في الآخرة، كما قال الله ﷻ: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

وهل نستطيع الحكم باليقين على من نحسبه كذلك؟

هذا جزء من الشهادة، كمن تشهد له بالإيمان أو باليقين، فإن علمت ذلك ورأيت أماراته وعلاماته، فلا بأس أن تقول أحسبه من المتقين أو من الموقنين، أحسبه والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا، ولا سيما عندما تقرأ في سير الأولين وقد يجعل الله تبارك وتعالى أيضًا في المتأخرين من المؤمنين، لكن من ناحية الإطلاق يمكن أن يطلق أن هذا من الموقنين، ولا حرج في ذلك إن شاء الله تعالى.

والظن قد يأتي بمعنى العلم واليقين، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] فأروها بأعينهم، فظنوا هنا بمعنى: علموا وتيقنوا.

فهذا معنى لغوي، فمن حيث اللغة يأتي في مقام فعل، وهذا واسع في لغة العرب، لكن اليقين الذي هو عمل القلب سبق ذكره، فالظن الذي يقابله هو الشك والكفر.

معنى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين:

السؤال:

الأخ يسأل عن علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين؟

الجواب:

علم اليقين بالنسبة لما أخبر الله تعالى به من الجنة والنار - مثلاً - فعلم اليقين هو: ما نقرأ في كتاب الله أن الجنة والنار هكذا أوصافها، فهذا العلم هو علم يقين.

وأما حق اليقين: إذا رأيت ذلك الذي أخبرت به وعلمته، أي: رأيت الجنة ورأيت النار ورأيت ما وعد الله أمامك، فهذا حق اليقين، فتحول علم اليقين إلى حق اليقين.

وأما عين اليقين فإذا دخلتها وتنعمت فيها، جعلنا الله من أهل الجنة فهذا عين اليقين.

نصيحة للذين يستعملون البث المباشر:

السؤال:

ما نصيحتك للذين يستعملون البث المباشر وقد قام كثير منهم بشرائه؟

الجواب:

حين يتصور الواحد منا الدمار الهائل الذي ينتجه هذا البث، لا شك أنه يأرق ويحزن ويألم لشدة ما يتصور، ولما يرى من ضعف وتقصير في إبلاغ هذا الخطر والتحذير منه.

أتعلم يا أخي أن أوربا طلبت من أمريكا تأخير البث المباشر ثلاث سنوات لتتهدأ له، وقامت وضجت الصحافة الفرنسية والمجتمع الفرنسي خوفاً من البث المباشر الأمريكي!! حضارة واحدة، وإباحية واحدة، وإلحاد واحد، ويجمعهم كل شيء تقريباً، لكن يقولون: اللغة مختلفة، وبعض العادات مختلفة، فتغزونا الثقافة الأمريكية هذا خطر عظيم! وأنذروا به وخافوا منه سبحانه الله!

أما نحن ففتح صدورنا لاستقبال كل غزو، بل العجيب أن أول غزو وأول بث مباشر نحن صنعناه بأيدينا، فالشركة من أبنائنا ويتكلمون بلغتنا، ولكنهم جعلوها في لندن ييشوها علينا، ويقولون: نحن أفلامنا لا تتعرض للرقابة، فكأنهم يقولون: لا تنظر إلى التلفزيون الذي يراقب ويقطع؛ بل انظر إلينا فأفلامنا لا تتعرض للرقابة، والعياذ بالله.

فنحن نغزو أنفسنا بأنفسنا ونهياً لذلك، وستكون النتيجة هائلة ومخيفة جداً، فلو أجريت إحصائيات هذه السنة، عن نسبة الأمن، والجرائم والاختطاف، والاعتصاب، والشكوك عند الشباب، والإلحاد، والتنصير، وما يتعلق بذلك، ثم بعد ثلاث سنوات من البث المباشر، لو تجرئ إحصائية أخرى؛ لرأيت الفرق الهائل جداً، فكيف بعد عشر سنين، كيف بعد ثلاثين سنة.

وهم يطمعون أن يأتي الجيل الآخر -على الأقل الذين هم الآن في الرابعة والثالثة تقريباً- ويصبح جيلاً ملحدًا غريبًا ممسوخًا، ليس فيه من العربية إلا أنه أسمر اللون، وربما يغيرون ألوانهم وشعورهم إن استطاعوا حتى يصبح جيلاً أمريكيًا ممسوخًا تمامًا، لا ينتمي إلى دينه ولا إلى هذه البلاد بأي نوع من أنواع الانتماء، فهذا الذي يريدونه في النهاية.

ويريدون أن يصبح اليهود الذين هم حفنة قليلة هم المسيطرون على هذه المنطقة، وأن تبرع على عرش المنطقة وتنهب خيراتها، وتستعبد شعوبها، ودائمًا وأبدًا القاعدة جارية في هذا، وهي: أن تستعبد الشعوب وتستذل بالشهوات، فما الذي يسر لهتلر اجتياح أوروبا كلها وفرنسا ويدخل باريس، ما ذاك إلا لأنهم أمة شهوات وإباحية وانحلال، لا يمكن أن تقاوم أو تفكر في مقاومة أي عدو، فيقضى على كل معاني الجهاد ومعاني الغيرة ومعاني العزة، وربما تتحول -والعياذ بالله- طائفة منها وترتد وتلحد وتخرج من الإسلام، وربما أن البعض لا يكتفي بأن يخرج من دينه، بل قد يدخل في أديانهم عندما يرى ما يعرض عليه.

فتصور معي البث المباشر إذا انتشر، والآن قد التقط على قنوات عديدة منها القنوات التنصيرية، هذه القنوات التي تغطي الكوكب الأرضي كله، وتبث برامج بعدة لغات، وأنا رأيت بعيني برنامجًا من برامجهم الوعظية يوم الأحد فرأيت شيئًا عجبًا. فليست مواعظهم كمواعظنا، فنحن والحمد لله نعظ بالقرآن ونعظ بالحق، لكن هم لديهم من الإغراءات والأسباب شيء عجيب جدًا.

فيأتي المتحدث ويتكلم عن قديس - كما يسمونه - ويأتي بصورته أمامك، وكيف كان يتعبد وكيف كان زهده، ويأتيك بأفلام عن هذا القديس، مع وجود أشرطة عن حياته مجانية، حيث يقال لك: اكتب لنا العنوان فقط ونحن نرسله لك، وفي أثناء الكلام، أنت تسمع الواعظ، وفي نفس الوقت تشارك المحطة في شيء معين، فيكتبون الأشرطة والأفلام، ثم يذكر لك حالات الذين شفوا لما توسلوا بهذا القديس.

ثم يأتيك قديس - ممن يسمونهم قديسين - من الأحياء منهم، ويبدأ يتوسل به ويقرأ بعض الأشياء، ويأتي برجل كسيح، أو رجل أعمى، ويظهر ويقول أنا قد شفيت وهكذا، أشياء عجيبة جدًا، إذا رآها الإنسان قد يشك في دينه والعياذ بالله، لولا أنه يعلم أن هذا باطل، وأنه كذب، وأنه من المخاريق، وأن فيه من عبث الشيطان الشيء الكثير، لكن المهم أن عندهم إخراجًا.

مائة مليون دولار رصدت من أجل إنتاج أفلام دينية مأخوذة من سفر التكوين في هوليد، فالواحد منا لو تبرع بعشرة آلاف ريال لنشر شريط، يظن أنه عمل شيئًا كبيرًا، ولا شك أنه عند الله كبير، لكن بالنسبة لعمل هؤلاء لا شيء.

هذه جهود ضخمة جبارة هائلة، يراد بها اقتلاع هذا الدين من الوجود، فحقيقتنا حين نستقبل هذا الغزو، كمن يقول: اقتلوني واذبحوني واضربوني، وأكثر من ذلك ضراوة، هو مثل من يكون أغبى من ذلك فيطلب من أعدائه أن يطعموه، بكل جرائم الإيدز، وأن ينقلوا إليه أي مرض، فهذا وأمثاله يتقلون هذه الأمراض الفكرية والأمراض الأخلاقية إلى أهلهم وإلى ذويهم.

فما علينا جميعًا إلا أن نحیی واجب الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، الواجب الذي يكون الحمل الأكبر فيه علی العلماء ثم علی طلاب العلم، وعلی الخطباء وعلی الأئمة، أن یحذروا الناس من ذلك قبل أن تقع الكارثة وقد بدأت مع الأسف.

فما علينا إلا توسیع الدعوة حتی تكون عامة، وأن نركز علی الشباب؛ لأنهم أمل هذه الأمة وأن نشغل أوقاتهم عن طریق وسائل عدة منها: المراكز، وحلقات التحفیظ، وانتقاء المدرسين الصالحین، والمناهج الطيبة، ونشر الوسائل الإعلامية الطيبة، فهذه وغيرها لا تنقص هذه الأمة فلدينا والحمد لله وسائل طيبة.

حال من یقن بالشهادة وهو تارك لركن من أركان الإسلام:

السؤال:

فضيلة الشيخ، لقد قلت في حديثك أن «من شهد أن لا إله إلا الله موقنًا حرم علی النار»^(١) وهو حديث النبي ﷺ، فكيف يعاقب إذن إذا كان تاركًا أحد أركان الإسلام وواحدًا من الواجبات الأخرى؟

الجواب:

إذا ترك الصلاة وإن كان قد قال لا إله إلا الله مثلًا فهو كافر، ولا يشمل ذلك، فالمقصود من وصل إلى حالة اليقين، واليقين كما ذكرنا یثمر لصاحبه الاستقامة، وامتنال الأوامر واجتناب النواهي، فالذين یحرمون علی النار هم الطائفة الذين عصمهم الله تبارك وتعالى لما أعطاهم من اليقين، فلم یرتكبوا ما یوجب دخولهم النار، فاستحقوا بذلك الجنة، وإذا فعلوا ما یوجب أو ما يستحقون به النار، فإما أن تشملهم رحمة الله وشفاعة رسول الله ﷺ، فأیضًا هؤلاء طائفة لا یدخلون النار وإن كانوا في الأصل من أهلها، وإما أن یدخلوا النار فمن دخل النار علمنا أنه لم یکن من أهل اليقين،

(١) أخرجه مسلم (٢٧) بنحوه.

ولا من أهل الإخلاص، الذين وعد الله ﷻ أنه لا يدخلهم النار.

الإنكار يزيد الإيمان واليقين:

السؤال:

إنا نحبكم في الله ونسأل الله أن يجمعنا وإياكم في الفردوس الأعلى، ونرجو من فضيلتكم توضيح لنا هذا الأمر وهو: أنه يوجد في أحيائنا بعض المنكرات فنخشى أن ننكر هذه المنكرات فيضعف علينا الإيمان من كثرتها، فتقع هذه المنكرات، ونخشى ألا ننكرها فنأثم؟

الجواب:

لا أظن أن الذي ينكر المنكرات يضعف إيمانه، إلا إن كان قصد الأخ -مثلاً- لو كان شاباً في قوة الشهوة والشباب، والمنكر الذي ينكره -مثلاً- هو أن يذهب إلى بيوت للفساد، أو بعض المتعربين أو المتبرجات، وينصحهم ويكلمهم، فهذه الحالات عارضة.

أما الأصل فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يزيد الإيمان ويزيد اليقين، وبركاته وثمراته عجيبة، ورب رجل وُعث أو نُهي عن منكر بكلمة فهداه الله تبارك وتعالى وأنت تشعر أو لا تشعر، فهذه نعمة عظيمة، ولكن إن كان في إنكار المنكر مفسدة فعليك اجتنابه.

ويقول شيخ الإسلام: إذا ترتب على إنكار المنكر مفسدة عظيمة فإنك لا تنكر هذا المنكر.

كما لو رأيت امرأة متبرجة ولا تأمن على نفسك الفتنة إن كلمتها، فلا تكلمها أنت، ولكن يمكن أن يكلمها من كان شيخاً كبيراً مسنّاً، ويأمن على نفسه من الوقوع في الفتنة وأشباه ذلك.

مشكلة تواجه الشباب:

السؤال:

مشكلة تواجه الشباب، وهي: أن الواحد منا عندما يكون بين إخوانه يشعر بزيادة الإيمان، وعندما يكون وحده أو في بيته، ويصبح لوحده يضعف عنده الإيمان، وقد يرجع إلى المعاصي ومنها العادة السرية وغير ذلك، فما هو الحل لعلاج مثل هذه المشكلة؟

الجواب:

كما ذكرنا سابقًا أن هذا شأن جبلي طبيعي في النفوس أنها لا تثبت على حالة واحدة من الإيمان ومن اليقين، بل يكون الإنسان مع إخوانه أقوى منه على انفراده كما في حديث حنظلة، لما قال: نافق حنظلة، عندما «مر بأبي بكر وهو يبكي فقال: ما لك يا حنظلة قال: نافق حنظلة قال: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنه رأي عين فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثيرًا قال: فوالله إنا لكذلك، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقنا فلما رآه رسول الله قال: ما لك يا حنظلة، قال: نافق حنظلة يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنه رأي عين فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرًا»^(١).

فهذه نفس الحالة هذه، والحل في مثل هذا أن يستديم الإنسان رقابة الله تبارك وتعالى عليه:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

وأن يعلم أن الله سبحانه مطلع على كل أحواله وهو معه أينما كان، وأن يحاول أن يحافظ على هذا الإيمان بقدر الإمكان، وأن يحافظ على خلق الذكر، وأن يلتقي بالإخوان دائماً لأنه كلما يلتقي بهم يزداد إيمانه، ولا شك أنه كلما كان معهم فهو أبعد عن المعصية، وهذا من فوائد صحبة الأخيار.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

حكم تعلم علم النفس وعدم اليقين به:

السؤال:

ما حكم تعلم علم النفس وعدم اليقين بكل ما فيه، وما هو رأيك في علم النفس؟

الجواب:

هو باسمه وبشكله الحالي الموجود المنقول عن الغرب يؤدي ولا شك إلى الانحراف والضلال؛ لأن الذين كتبوه ودونوه لا يؤمنون بالله، أو لا يؤمنون بالغيب، أو لا يؤمنون بالروح التي هي حقيقة هذا الإنسان، وإنما تكلموا عن النفس على أنها أشبه ما يكون بأي نشاط من الأنشطة العضوية، فهؤلاء قوم لا يؤمنون بما وراء هذه المادة، وما وراء هذه الأعضاء، ولذلك نظرياتهم كتنظريه بافلوف ونظرية فرويد طبق في التحليل النفسي على الأمراض، مثلاً: بافلوف طبق على الكلاب، وغيره طبق على الفئران، فهم يعتبرون الإنسان حيواناً ويعتبرونه مادة، هذا خلاصة ما يمكن أن نوجز به حال هذا العلم الغربي.

أما من الناحية الإسلامية فكل كلام تكلم به السلف في أحوال القلب والإيمان والنفس وتزكيتها، فهو من علم النفس الإسلامي، إن سمي أو لم يسم، فكتاب «الجواب الكافي»، وكتاب «مدارج السالكين»، وكتاب «إغاثة اللهفان»، وغيرها من الكتب، هذه في علم النفس الإسلامي، وقد كتب علماؤنا في هذه الأبواب ما لا يمكن أن يتخيله علماء الغرب فضلاً عن أن يكتبوه؛ لأن أولئك لم يستضيئوا بنور الوحي، ومدارسنا الآن تحتاج إلى أن يكتب لها علم نفس إسلامي، مأخوذ من مشكاة الوحي ومنهج السلف الصالح.

العلاقة بين الإحسان واليقين:

السؤال:

هل اليقين أحد مراتب الدين، وهل هو أعلى من الإحسان، وما رأيكم في الذين يقولون: إنهم يقتنون أجهزة البث المباشر لمتابعة الأخبار؟

الجواب:

أما بالنسبة لمتابعة الأخبار فباختصار، إذا تابعنا ماذا نستفيد، وحتى لو تابعنا حتى لو رأينا ما هي الثمرة؟

أما من ناحية اليقين، فهو من أعمال القلب، وعلاقته بالإحسان كما ذكرنا، فالمحسن موقن والموقن محسن، لكن هذا أحد أعمال القلب التي هي أعمال باطنة، والإحسان يشمل الأعمال الباطنة والظاهرة، أما الأعمال الظاهرة الصالحة فهي من لوازم اليقين، وثمراته.

فنحن في مجتمع -الحمد لله- فيه خير وفيه فضائل وفيه قبول، كيف لو كنا في مثل ما فيه إخواننا في الجزائر -مثلاً- كيف كانت حالهم مع فرنسا من الاضطهاد ومسخ اللغة العربية، وإلغاء المناهج الدينية، وأحكام كلها قوانين وضعية، وانحلال وانحطاط واختلاط في المدارس، وكانت الحكومة التي خلفها الاستعمار مثله، فهذا ما ربوا عليه الناس، كفر صراح بواح لا مكان فيه للإسلام، إلا في المساجد، فلو استيأس الدعاة إلى الله، ما حققوا شيئاً، ولكنهم قاموا وتحركوا وخطبوا وتكلموا ووعظوا وإذا بهذه الأمة سبحانه الله يعتقل الصف الأول وجميع أئمة المساجد، فيأتي مكانهم الخطباء ويعتقل الخطباء، فيأتي خطباء، بل هم أكثر السجناء، فيهم أكثر من ستين ألفاً، ومع ذلك المساجد فيها الخطباء والدعاة والحمد لله.

سبحان الله! كيف تفجر هذا الإيمان وهذه القوة الحمد لله قام من قام، ودعا من دعا، وصبر وصمد وتحمل الأذى، فكانت خلفه أمة والحمد لله، فنحن نحتاج إلى هؤلاء الرجال المؤمنين الأقوياء، الذين لا يخشون في الله لومة لائم، والذين يدعون إلى الله سبحانه على هدى وعلى بصيرة، ويضحون بالغالي والنفيس في سبيل إقامة هذا الدين، فلم لا تكون من هؤلاء وإن لم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

اختر لنفسك طريقاً من الآن، فلتكن مجاهدًا، أو فلتكن داعية، أو فلتكن عالمًا، أو

فلتكن أمرًا بالمعروف، وما يمكن أن يكون من سبل الخير، من الآن ابدأ وستجد - بإذن الله - أن بإمكانك أن تحقق الكثير، وأن تنتج الكثير وأن الله سبحانه سيبارك في جهودك وينصرك بإذن الله، وإذا كنت أنت والآخرون، وتعاون الجميع وجدت الأمة التي ينصرها الله، كما أخبر رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره لا يضرهم من خالفهم»^(١)، وفي رواية قال: «يقاتلون في سبيل الله حتى يأتي أمر الله»^(٢)، وهو قيام الساعة والريح التي تخرج بين يدي الساعة.

الفوائد المستخلصة:

* إن العلم هو الأساس، وهو سابق للقول والعمل فمن علم أنه لا إله إلا الله، وشهد أنها حق وأنها صدق وأنها الكلمة الباقية فهو المؤمن الذي يكون قبول عمله مرهونًا بها.

* إن العلم أقل منازل اليقين، فإن قابل العلم الشك والظن كان كافرًا، وما كان فوق العلم في تفاوت اليقين.

* إن اليقين يشمل الدين كله والصبر نصفه، وما ذلك إلا لأن الصبر من ثمرات اليقين.

* إن من أهم صفات الهادي المهدي الصبر واليقين فبدونها لا يكون هاديًا مهديًا.

* إن اليقين إما أن يكون متعلقًا بالعلميات أو بالعمليات، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

* المؤمن يرى الأشياء بعين اليقين وبعين البصيرة وغير المؤمن يراها بعين البهيمية.

(١) أخرجه البخاري (٧١).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٤٤).

- * من مقتضى اليقين الإيمان، والإيمان يمنع صاحبه عن المحرمات والمضرات وكل ما يضر بالآخرين وهو ما يؤدي إلى الأمن والاستقرار.
- * الاقتناع العقلي وحده ليس يقيناً، ولكن اليقين هو الإيمان القلبي.
- * إن الموقنين حقاً هم أصحاب الكرامات سواء الظاهرة منها أو المعنوية الخفية.

* * *

الرضا

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن هذا الموضوع الأخير من سلسلة مواضيع أعمال القلوب التي بدأناها هو الرضا - نسأل الله ﷻ أن يختم أعمالنا وأعمارنا برضاه وأن يتقبلنا عنده في الفائزين المتقين، إنه سميع مجيب.

الرضا: وإن كان الحديث عنه قليلاً، لكنه عمل قلبي عظيم، وهو الذي يندرج فيه شرطي القبول، والانقياد، وهما من شروط كلمة التوحيد، التي لا بد لتحقيقها من شروط؛ لأنها لو كانت مجرد كلمة أو مجرد لفظ يقال باللسان، لكان كل من قالها في زمن رسول الله - حتى المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار - من أهل النجاة والفوز عند الله تبارك وتعالى، ولكن لها شروط عظام، وقيود ثقال، منها ما سبق ذكره من المحبة، واليقين، والإخلاص، وما سنتناوله في هذه السلسلة - وهو الرضا الذي يجمع بين الانقياد، والقبول، أو الإذعان والتسليم، بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا كان الرضا بهذه المثابة، كان هو أساس الدين، وقاعدة الإيمان كما قال ابن القيم رحمته.

الأصول الثلاثة:

١- معرفة الله.

٢- معرفة رسوله ﷺ.

٣- معرفة دين الإسلام.

كلها تدرج تحت الرضا، ولذلك يقول ﷺ في الحديث الصحيح: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا»^(١).

وقال في الحديث الآخر: «من قال حين يسمع النداء -الأذان-: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا غُفرت له ذنوبه»^(٢) وجاء في رواية أخرى: «من قال حين يمسي أو يصبح: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، دخل الجنة»^(٣).

فانظروا إلى قيمة الرضا، فقد اشتمل على الأصول الثلاثة جميعًا، وإذا كان المؤمن لا بد أن يرضى بهذه الأصول الثلاثة التي لا شيء من أمور الدين يخرج عنها - وهذا يدل على أهمية الرضا - فلا بد أن يعلم حقيقة الرضا، ودرجات الرضا، وأن يتجنب ما هو ضد الرضا.

ضد الرضا هو: الاعتراض، أو الممانعة، أو المنازعة فيما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، فإذا كان أصل الدين وأساسه، وقاعدته، هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، التي هي التوحيد بأنواعه الثلاثة «توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات» فإن الرضا يشمل هذه الأنواع الثلاثة، ويشتمل على الفروع والأحكام أيضًا.

ولذلك نجد أن الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- وهو من خير من كتب في موضوع الرضا، في كتابه النفيس القيم «مدارج السالكين» اشتق واستخرج هذه الثلاثة الأقسام للرضا، التي هي أقسام التوحيد من هذه الآية: ﴿وَلْيَصْغَحْ إِلَيْهِ أَفْسَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣] وسورة الأنعام هي سورة التوحيد العظمى، فهذه السورة من أولها إلى آخرها توحيد، حتى ما ذكر فيها

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣٣٧/٤)، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٣٤).

من تشريع، فهو مرتبط أساسًا بقضية التوحيد، وإفراد الله تبارك وتعالى.

ومن ذلك أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾

[الأنعام: ١٦٤].

وهذا في آخرها، وهو دليل على توحيد الربوبية، لأنه قال ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا﴾ وهو النوع الأول من أنواع التوحيد، فلا بد للعبد أن يرضى بربوبية الله تبارك وتعالى معتقدًا أن الله تبارك وتعالى هو الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، والذي يدبر الأمر، ويصرف هذا الكون، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويغني من يشاء، ويفقر من يشاء، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، ولا يملك أحدًا غير الله تبارك وتعالى التصرف في مقال ذرة في هذا الكون، إلا بإذن الله وقدره وتدبير منه تبارك وتعالى، فهذا هو الرضا بالله تعالى ربًّا.

وأما توحيد الألوهية: وهو الرضا بالله تبارك وتعالى إلهاً ومعبودًا، ووليًّا، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَحَدًا وَرَبًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، والولي: المقصود به الإله المعبود المحبوب، لأن أصل العبادة - كما بينا في موضوع المحبة - هي المحبة وهي التأله والوله وتعلق القلب، ومن تعلق قلبه بشيء فقد عبده، والذي يستحق أن تتعلق به القلوب، وأن تعظمه، وأن تؤله، هو الله تبارك وتعالى.

والولاية المقصود بها هنا العبادة، والتأله والتقرب إلى الله تبارك وتعالى، والتي من لوازمها، الموالاة في الله، والمعادة في الله، وهي أن يحب الإنسان المرء لا يحبه إلا لله، وأن يبغض المرء لا يبغضه إلا لله، فيكون قلبه ولاءً وعداءً وحبًّا وكرهًا في الله، ومن أجل الله تبارك وتعالى فهذا من لوازم الولاية.

ثم ذكر ابن القيم رحمته الله في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] قال: وهذا هو النوع الثالث من أنواع الرضا.

وهو أن يرضى بالله وحده لا شريك له حكمًا، فيتحاكم ويحاكم إليه، في كل شأن

من شئونه، فتراه يحتكم إلى ما أنزل الله تبارك وتعالى في كتابه، وإلى ما جاء به رسوله ﷺ، وعلى هذا كانت درجات الرضا ومقاماته.

وتقسيم مراتب الرضا، هو بحسب تحكيم العبد لما أنزل الله، ولما جاء عن رسول الله ﷺ في أصول الدين وفي فروعه، وفي معاملاته مع الناس وفي كل شأن من شئون حياته، سواء أكانت أمة، أم دولة، أم أفراداً، فلا بد أن يكون التحاكم والرجوع هو إلى الله تبارك وتعالى وإلى ما أنزل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿١٥﴾ [النساء: ٦٥].

ثم إن ضد الرضا هو: المنافاة، والمعارضة، والاعتراض، والمدافعة، والمنازعة، والممانعة، فلو تأملنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا أنها تبين مراتب الرضا، ودرجاته التي بها ينتفي كل منازعة ومعارضة، فهي تبدأ أولاً بالتحكيم، وتنتهي بالتسليم.

المرتبة الأولى من مراتب الرضا: التحكيم:

أصل التحكيم: الإقرار بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحاكم على كل ما سواه، كما جاء في الحديث: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) قال العلماء: التقدير «ليس حاكماً وقاضياً عليه أمرنا فهو رد» فأمر الله وأمر رسوله ﷺ هو الذي يقضي ويحكم على الأهواء، والرغبات، والشهوات والقوانين، والعادات، والأعراف، والأوضاع، وكل ما يخطر ببالك مما يعارض ما جاء به ﷺ، أو يمكن أن يعارضه، فيجب أن يكون الحاكم عليه هو ما جاء به ﷺ ولا يقدم على ذلك شيء مهما كان.

فهذا التحكيم من وقع ومن قر في قلبه وأقر به فقد حقق درجة الإسلام، وحقق المرتبة الأولى من مراتب الرضا، وهي الرضا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، لكن لا يزال في الدرجة الأولى، وحاله كحال الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُنَا لَمَّا نَسُوا لَكَمْ تَؤْمِسُوا وَلَكِنَّ قَوْلُوا اسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨).

[الحجرات: ١٤]، فمن كان هذا حاله فهو بحاجة إلى درجة أعلى حتى يكون من أهل الإيمان، ولذلك بعد قوله: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ، قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥].

المرتبة الثانية من مراتب الرضا: انتفاء الحرج:

والحرج هو: التردد، والريبة، والشك، فيكون في النفس منازعة وممانعة - وإن كانت خفية - واعتراض وإن كان غير معمول به، فهو قد تحاكم إلى شرع الله لكن يجب عليه أن ينفي الحرج الذي يقع في القلب، فكثير من القلوب عندما تسمع حكم رسول الله يقع فيها كثير من الأسئلة والشكوك.

فيقول: كيف أعمل بهذا؟! أيصح هذا؟! وإن كان هذا الحديث قد قاله الرسول ﷺ؛ لكن هل فعلاً ينطبق على الواقع؟! هل فعلاً أن هذا علاج حقيقي لمرض من الأمراض الاجتماعية أو النفسية؟! فهذه الشكوك، والريب، والخواطر، التي ترد على القلوب لا بد أن تزول لكي ينال المرء درجة الإيمان، التي هي المرتبة الثانية من مراتب الدين، ومن مراتب الرضا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥].

فمهما كان الأمر، ومهما خالف العادات والتقاليد، ومهما رأيت الخلق أطبقوا على مخالفتهم، فعليك أن تعلم أن الحق والخير والهدى والصواب فيما قضى به رسول الله ﷺ، وفيما جاء به من أمور الدين أصولاً، أو فروعاً، في المعاملات، أو في الأحكام، أو في أي شيء مما جاء به، وكذلك أن يؤمن أن الأخبار كلها حق وصدق، ولا يكون في نفس المؤمن أدنى حرج من أن هذا الخبر يحتمل أن يكون كذلك أو لا يحتمل! فهذا هو حال أصحاب الدرجة الثانية من المؤمنين.

المرتبة الثالثة من مراتب الرضا: التسليم:

التسليم هو أفضل المراتب وأعلاها، التي يتنافس فيها المقربون والصديقون، وأولياء الله تبارك وتعالى، وهي التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿١٥﴾

[النساء: ٦٥]، فهذه الدرجة هي درجة التسليم الكامل، والانقياد المطلق، بحيث لا توجد أدنى منازعة ولا معارضة، بل بالعكس فهنا يكون الاندفاع، والرغبة، والتصديق المطلق، والمحبة لكل ما جاء به محمداً ﷺ، وأخبر عنه، كما يجب عليه أن يسمع قول الرسول ﷺ في كل شيء ثم يصدق بذلك تصديقاً لا يداخله أدنى ريبة ولا شك، ولا يمكن أن يخطر بباله أدنى اعتراض، مهما قل، فهذا هو مقام الإحسان.

الرضا بأحكام الله والصبر عليها:

من خلال ما سبق يمكن إجمال مراتب الدين كالتالي: الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان وهو أعلاها مرتبة وأعظمها.

ولذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إن الرضا من أعمال القلوب، نظير الجهاد من أعمال الجوارح» فأفضل وأعلى وأشد أعمال الجوارح هو الجهاد، الذي يخرج فيه الإنسان بماله ونفسه في سبيل الله من أجل أن يقاتل أعداء الله تعالى، متعرضاً للموت، ولفقد الروح التي هي أغلى ما عند كل مخلوق، فهذا في عمل الجوارح.

وأما أعمال القلوب فهي درجات، فالعمل الذي يقابل الإحسان هو الرضا.

لذلك يقول أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو من تعلمون حكمته، وعظيم منزلته في الدين، وبين أصحاب رسول الله ﷺ: «ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر».

فكل ما حكم الله تبارك وتعالى به أو شرعه فلا بد أن تصبر عليه وأن تتعبد الله به، وأن تصبر وتصابر وتصطبر لكي تعبد الله كما أمر الله وشرع الله، فهذا هو الصبر للحكم، وأما الرضا بالقدر فهو نوع من أنواع الرضا - كما سنبين إن شاء الله في أنواع الاعتراض - حيث إن أكثر اعتراض العامة يكون على أقدار الله، فعامة الخلق أكثر ما يعترضون على أفعال الله، وأحكامه، وأقداره - والعياذ بالله - فالمثال جاء بالقدر؛ وإلا فالرضا بالدين، وبالشرع، وبالأمر أعظم من ذلك، وكلها لا بد منها، وهي مطلوبة، فجعل الرضا ذروة سنام الإيمان، وبذلك يتبين لنا أهمية هذا العمل القلبي العظيم، ونعلم أن الله تبارك وتعالى عندما خاطبنا، بين لنا إكمال الدين والإيمان، خاطبنا فيه أو

ذكره لنا باسم الرضا كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فإن هذا يستلزم في المقابل أن نرضى بما كتب وأنزل وشرع ﷺ، وبما قضى به الله تبارك وتعالى إما في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فهذا يؤدي بنا ويدلنا إلى أهمية معرفة أنواع الاعتراضات التي يعترض بها من لم يحقق الرضا.

جاء من الناس من يعترض على ما أنزله الله، أو جاء به رسول الله ﷺ، وأنواع الاعتراض على ما جاء من عند الله، والتي تقدح في الرضا، وهي في هذا العمل القلبي العظيم كثيرة متفاوتة منها:

١- الاعتراض على توحيد الله وأسمائه وصفاته:

أعظم أنواع الاعتراض: الاعتراض على الله تعالى في دينه، وفيما أنزل من الدين، ووصى به جميع الأنبياء والمرسلين، وبعث به هؤلاء أجمعين، وفرضه على خلقه كافة من توحيده ﷻ ومعرفته بأسمائه وصفاته، ولذلك ظهر في هذه الأمة - مع الأسف الشديد - من يعترض على ما أنزل الله تعالى في أصل الدين، فظهر فيها من يعترضون على أسماء الله وصفاته، وهو الذي له صفات الكمال، ونعوت الجمال، وله الأسماء الحسنى ﷻ وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وما من صفات كمال إلا وهي له، فأي صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه فالله تبارك وتعالى له فيها الكمال المطلق.

ثم جاء المعترضون على هذا فنفوا صفات الله ﷻ واعترضوا عليها، وأولوا كلامه، وردوا ما جاء عن رسوله ﷺ، وهذا يمس أصل الدين وأصل الإيمان، فبعضهم أنكر أسماء الله وصفاته كلها، كالجهمية، والمتفلسفة، والباطنية وأمثالهم ممن انحرفوا عن الصراط المستقيم، فهؤلاء لا خير فيهم مطلقاً، ولهذا أخرجهم كثير من العلماء عن فرق الأمة وطوائفها مطلقاً - نعوذ بالله من الضلالة - لأنهم لا يؤمنون حقيقة بالله ﷻ لأننا لا نعرف الله ﷻ إلا بأسمائه وصفاته، فإذا كنا لا نعرف من نعبد، فكيف نعبد

تبارك وتعالى؟!

فلنفرض أن أحدًا كان من أعبد خلق الله؛ لكنه لا يعرف الله، ولا يعرف أن ربه تبارك وتعالى وأن معبوده ﷻ استوى على العرش - كما أخبر في سبعة مواضع من كتابه - فعندما يسجد ويتعبد ويقول: سبحان ربي الأعلى، وهو لا يعرف علو الله فهو متناقض مع نفسه، فكيف يعتقد شيئًا ويقول بخلافه، فلا يمكن أن يُعبد الله ﷻ إلا إذا عرف الله تبارك وتعالى على الحقيقة.

ويليهم: المعتزلة الذين أنكروا جميع الصفات، وأثبتوا الأسماء، وجعلوها مترادفات للدلالة على الذات، فالعزيز والحكيم والجبار والمتكبر وكل الأسماء معناها واحد، فهي مجرد أسماء تدل على الذات، ولا يشتق منها صفات، فهم يقولون - مثلاً -: إن الله تعالى اسمه الحكيم، ولكن لا نشق منه الحكمة، أو العزيز فلا نؤمن بأن له تعالى صفة العزة... وهكذا، فنفوا ذلك جميعًا، وجعلوها كالأعلام المترادفة في الدلالة على الذات.

ثم الأشعرية وهم: الذين خففوا وهذبوا شيئًا من علو هؤلاء، ولكنهم لم يشبوا الله ما أثبتته لنفسه تبارك وتعالى أو أثبتته له رسوله ﷺ، من غير تعطيل، ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تأويل.

فخلاصة القول: أننا نحن الذين رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبكل ما يخبرنا به رسول الله ﷺ.

نؤمن بما ذكر وبما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، وأن كل ذلك حق، ولا نفرق بين شيء منه، فنؤمن بعلمه، ونؤمن بنزوله ﷻ في الثلث الأخير من الليل، ونؤمن بأنه تبارك وتعالى يأتي ويجيء يوم القيامة لفصل الحساب، ونؤمن بأنه يكلم ويخاطب من شاء، متى شاء وكيفما شاء، إلى آخر هذه الأسماء والصفات لله تبارك وتعالى.

فأولئك الذين سبق ذكرهم هم النوع الأول من الذين اعترضوا في أصل الدين.

٢- الاعتراض على أمر الله الشرعي:

هناك نوع آخر لم يعترضوا على ذلك، وإنما جاء اعتراضهم من باب آخر، ولاسيما في زماننا هذا، وهم الذين اعترضوا على الشرع، وعلى ما قضى الله تبارك وتعالى به قضاءً شرعيًا، وعلى أحكام الله التي جعلها لعباده من الحل، والحرمة، والوجوب، والتحريم، والندب، وغير ذلك، مما يشمل أحوال الناس، ومعاملاتهم وشئونهم في هذه الحياة الدنيا.

فجاء هؤلاء القوم واعترضوا على هذه الأحكام وعلى هذه الشريعة بالقوانين الوضعية، وربما اعترضوا عليه بالأراء والعادات الجاهلية - كحال أهل البوادي وأمثالها - فحكموا الطواغيت أو ما أشبه ذلك، فكل هذا اعتراض على شرع الله، وحكمه الشرعي الديني، وهذا خطير جدًا، وهو يدخل أيضًا في الاعتراض أو يلحق بالاعتراض على أصل معرفة الله، ويلحق به ويليه بالدرجة من جهة أنه كفر بالله تبارك وتعالى.

كمن يعترض على ما شرع الله ﷻ في حد الزنا - وهو الرجم للزاني إن كان محصنًا، أو الجلد إن كان غير ذلك، بشروطه المعروفة - فيلغي ذلك، وينسخه، ويجعل مكان الجلد التحميم، كما فعل اليهود، أو يلغي الجلد أيضًا، ويجعل مكان ذلك كله الحبس أو الغرامة، كما في القوانين الوضعية التي تحكم أكثر العالم الإسلامي اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويعترضون على حكم الله تبارك وتعالى الذي قال فيه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فيجعلون الربا حلالًا، ويستحلونه ويضعون له الأحكام الطويلة، ويشرعون كيفية إباحته، فيحددون نسبه وأجالًا معينة لها، ويجعلون له ألوانًا وأشكالًا من الأخذ والعطاء، والدفع، والاحتيايل، بل والاستحلال لدين الله تبارك وتعالى، وتقوم على هذه التشريعات الوضعية المنافية لكتاب الله وسنة رسوله صروح وأعمدة للاقتصاد الوطني أو العالمي كما هو ملاحظ الآن.

فهذا -أيضاً- اعتراض على الله تبارك وتعالى فيما شرع من أحكام، ولا يشك عاقل أن الربا من أخطر ما يرتكب من الذنوب، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «الربا سبعون باباً أيسرها كان ينكح الرجل أمه»^(١)، وفي الحديث الآخر: «درهم رباً أشد من ست وثلاثين زنية»^(٢)، والعياذ بالله.

والله تبارك وتعالى قد تأذن عليهم بالحرب: ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إن الربا من آخر ما نزل، وقد توعد الله تبارك وتعالى بالحرب ثقيفاً وغيرها من القبائل لما أرادت ألا تحرم الربا، فكانت العقوبة أن يحاربها رسول الله» فالمقصود أن من أحله، وشرع تحليله، فهو معترض على الله تعالى في ذلك.

وأسوأ منه الذي يجاهر ويقول: الذي شرعه الله لا يصلح أن يكون للحياة الحديثة، أو للاقتصاد الحديث، أو إننا في هذه الأيام لا بد أن نأخذ بالتشريعات المنافية، والمخالفة لما جاء في القرآن، فهذا -والعياذ بالله- معترض على الله تبارك وتعالى اعتراضاً واضحاً بيناً جلياً، فلا حظ له في الإيمان وليس داخلاً في الذين ذكرنا درجاتهم، لأنه كما ذكر الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

فهذا لم يحكم أصلاً، فضلاً عن نفي الحرج، أو التسليم، ولذلك فهو غير مؤمن -نسأل الله العفو والعافية- ويقاس على ذلك أشياء كثيرة، كحد السرقة مثلاً، وحد الردة وغير ذلك.

٣- الاعتراض على إخبار الله عما في الكون:

هناك نوع آخر من أنواع الاعتراض، وهو أيضاً يقدر في الإيمان وفي أصل الدين والإيمان، وهو مناف للرضا أيما منافاة! وهو الاعتراض على أخباره أو أوامره بما

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/٣٦٤)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الترغيب» (١٨٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٢٥)، وصححه العلامة الألباني في «المشكاة» (٢٨٢٥).

وضعه البشر من أهواء أو أفكار، أو نظريات قديمة أو حديثه.

مثلاً: أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه خلقنا نحن جميعاً من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، والنفس الواحدة هي آدم، وخلق منها زوجها هي حواء، ثم جعل السلالة البشرية بعد ذلك تتناسل من هذين، فكل من تراه على وجه الأرض، أو من عاش فوقها من البشر، فهم من بني آدم، وأبوهم آدم، وبين الله كيفية الخلق ومما هو في أكثر من آية، فهذا أمر قطعي، يقرؤه كل مؤمن ويجده واضحاً في كتاب الله.

ثم يأتي قائل - كما هو مشهور الآن في العالم، ويدرس ويلقن أبناءنا وبناتنا - فيقول: «لا، هؤلاء البشر الذين تراهم، على اختلاف أعراقهم، وأجناسهم، وألوانهم، هم منحدرون من سلالة حيوانية» وهذه هي نظرية التطور، وهي تقول: إن الأصل القديم حيوان تطور، فأصبح قرداً، وهناك حلقة مفقودة بين القرد وبين الإنسان ثم جاء الإنسان، فعلى هذا فلا يكون هناك آدم، ولا نفس واحدة، ولا خلق الله تبارك وتعالى العالم كما أخبرنا، وكما جاء في القرآن، وإنما يريدون منا أن نؤمن وأن نعتقد ما يعتقدون، ونحن نقول: إن الإيمان بها كفر يخرج صاحبه من الملة، ومن أقرها أو قررها أو درسها فقد اعترض على ما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

وهناك مثال آخر: فنحن نعلم أن الله ﷻ خلق كل إنسان منا في هذا الوجود على الفطرة القويمة ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وكما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» فنؤمن أن كل مولود يولد على الفطرة، التي هي «على الملة»، كما بيتهها الرواية الأخرى، فكل مولود يولد في الهند، أو في اليابان، أو في إفريقيا، أو في مكة، أو في غيرها يولد على ملة الإسلام، وعلى الدين القويم، ولكن الفطرة تتغير بالتربية كما قال ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١).

فجاءت النظريات التربوية والنفسية الحديثة - كما يسمونها - تنافي ذلك كله

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨).

وتقول: إن الإنسان يولد كل بحسب رأيه.

فمثلاً: نظرية فرويد اليهودي الخبيث، تجعل الإنسان كائناً جنسياً، أو أنه ما ولد ليتدين وإنما كل حركة من حركاته فهي بدافع الرغبة، والشهوة الجنسية، وهذا كلام بمتهم القذارة، ولكنه ليس بغريب من يهودي خبيث يريد أن يهدم أخلاق البشر جميعاً، والأغرب منه أن يأتي أبناء المسلمين فيقررون هذا الكلام في مناهجهم التعليمية التي يتلقاها الأبناء، دون أن يذكر أن هذا كفر وضلال.

وتأتي النظريات الأخرى، كالنظريات التربوية الإستراتيجية، والنظريات الرأسمالية، ونظريات كثيرة، كل نظرية تفسر رغبات الإنسان وميوله، منذ ولادته بما ترى، فمثلاً النظرية السلوكية في أمريكا وحدها تنقسم إلى أكثر من عشرين مدرسة نفسية، كل منها لها نظرية عن هذا المخلوق العجيب، ثم تأتي هذه النظريات وتقرر باسم علم النفس، وباسم علم الاجتماع، وما أشبه ذلك من العلوم ولا ينظر في هذه العلوم إلى ما جاء عن الله وعن رسول الله ﷺ.

أما في النظريات الكونية فإن الله تبارك وتعالى أخبرنا عن هذا الكون بما يكفيننا لمعرفته سبحانه، لا نعرف تفصيلات هذا الكون، ولنعلم أن له رباً، خالقاً، حكيماً، مدبراً تبارك وتعالى، فإذا جاءوا وأخبرونا بخلاف ذلك، كأن يقولوا: إن السماء فضاء لا نهاية له، والله تبارك وتعالى قد أخبرنا أنها سبعة طباقاً، والنبي في ليلة الإسراء والمعراج يستأذن هو وجبرئيل في الأولى، ثم في الثانية، والثالثة إلى السابعة، وأخبرنا من لقي في الأولى، ومن لقي في الثانية، وفي الثالثة... إلى السابعة، فكلامهم هذا هراء! ونحن نؤمن بما ذكر الله تبارك وتعالى ونرد ما يخالفه.

فهؤلاء الذين يأتون بنظريات مخالفة لما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى، هم من المعترضين على ما جاء عن الله، ومن عند الله.

أيضاً: من يأتي بالنظريات عن صفات الإنسان البشرية، فيعارضون بها ما أخبر الله ﷺ عن صفات هذا المخلوق، من أن المرأة دون الرجل في الخلقة، ومن ثم هي دون

الرجل في الواجبات، وفي حمل الأمانة، أو بمعنى آخر: أن الله تبارك وتعالى خلق الذكر والأنثى، وجعل لكل منهما عبادة تتناسب مع ما خلقه وفطره عليها، وتتناسب مع تكوينه الذي كونه الله تبارك وتعالى عليه، وبالتالي جاء هؤلاء وأرادوا أن يجعلوهما في العمل، والواجب، والحقوق والميراث متساويين، وهذا مما يدخل في الاعتراض على الأحكام، فقالوا: ليكن الميراث واحداً، لا كما ذكر الله تبارك وتعالى حيث فرض للذكر مثل حظ الأنثيين، ويريدون أن يجعلوهما واحداً في كل شيء، فللمرأة حق في الانتخابات، وفي الوصول إلى الوزارة، أو أن تكون رئيسة للدولة، أو أن تفعل كل ما يفعله الرجل من الأعمال، وكذلك لها مثل ما له من الحقوق، ومنها هذا الحق في الميراث، فهؤلاء من الذين يعترضون اعتراضاً جلياً واضحاً على ما شرع الله، فكانوا ممن لم يرض بدين الله تبارك وتعالى.

٤- الاعتراض بالأقيسة الفاسدة والأهواء:

هناك نوع من الناس - وهذا واقع في هذه الأمة مع الأسف الشديد كثير جداً ولا حول ولا قوة إلا بالله - يعترضون بنوع آخر في الاستدلال، ومعرفة الأحكام، وتراهم يعترضون على ما صح عن رسول الله ﷺ وتراهم يبلغهم الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فيردونه، أو يتأولونه بكلام فلان من أئمة المذاهب أو بقياس كما يسمى، أو بالنظر، أو بالعقل، إلى آخره، فيردون الحديث، ويعترضون على ما أخبر به النبي ﷺ وعلى ما شرع من الدين بالقياس، أو بالرأي، أو بالهوى، أو ما يسمونه بالقواعد المنطقية، أو القواعد الكلية، أو ما أشبه ذلك من المسميات، وهي مخالفة لما جاء عن رسول الله ﷺ، وليست مأخوذة عنه، ولا متلقاة عن هديه.

فهؤلاء القوم قد ابتليت بهم هذه الأمة حتى قال قائلهم: «أي حديث يخالف مذهبنا فهو إما ضعيف أو منسوخ» سبحانه الله! جعل المذهب هو الحكم! فأى حديث يخالف المذهب فهو إما ضعيف، أو موضوع، فلا يؤخذ به، ولا يعتد به، أو منسوخ، وأن العمل يجب أن يكون على المذهب، فتعصب هؤلاء المقلدون كل لمذهبه الذي ينتسب إليه، ومزقوا هذه الأمة، وفرقوها حتى وقع القتال، وأريقت الدماء، وكم من

دماء أريقَت من أجل حكم فرعي، فلو اتفق الجميع على قبول الحق والإذعان إلى ما شرع الله، لكانوا جميعاً على أمر واحد كما أمر الله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وإن اختلفوا في فهمه؛ فكل منهم يعذر الآخر باجتهاده، ولكن الهوى والتعصب جعلهم يتقاتلون، فكم وقع من قتال في خراسان، وما وراء النهر بين الشافعية والحنفية، وكم وقع في اليمن بين من ينتمي إلى الفقه الهادي -أي: الزيدي- وبين الشافعية، فهذا دليل على التعصب المقيت، الذي لو تأمل هؤلاء قليلاً لوجدوا أن أئمة المذاهب ينكرون هذا، ولا يقرونه، وكل منهم كان مجتهداً يريد الحق، كما بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ الْجَلِيلِ «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

٥- الاعتراض بالكشوفات والرؤى والأحلام:

يوجد نوع آخر من الاعتراض على الدين، والعبادة والشرع الذي شرعه الله، بالخيالات وبالكشوفات، وبالمنامات، وبالرؤى، وبالأحلام، وما أشبه ذلك، وهذا حال الصوفية كما هو حال المتعصبة من الفقهاء، تقول لهم: إن الله تعالى حرم هذا، أو قال فيه رسول الله ﷺ كذا، فيقول: الشيخ الفلاني نام ورأى الخضر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْمَنَامِ وَقَالَ هَذَا حَلَالٌ، سبحان الله! ومن قال لك بأن الأحلام والمنامات يعمل بها في معارضة ما جاء من الوحي في كتاب الله؟! ومن قال لك: إن هذا الذي في المنام هو الخضر، لماذا لا يكون الشيطان؟! وهل يحق للخضر أو كائناً من كان أن يشرع غير ما جاء به رسول الله ﷺ، أو أن يحدث في الدين ما ليس منه؟!!

بل تصل ببعضهم الجراءة -عياداً بالله- إلى القول بأنه يرى رسول الله ﷺ يقظة، فبعضهم يقول: مناماً ثم يتدرج ويقول: يقظة، ويقول: هذا حلال وهذا حرام، يعلمه أمراً غير ما نعلمه نحن في الكتاب والسنة، وهذا اتهام عظيم شنيع لرسول الله ﷺ، أنه ادخر شيئاً من الدين، أو أنه لم يعلمه للعالمين، واختص به هؤلاء الضالين المضلين في آخر الزمان.

ولا ريب أن هذا شيطان إن جاءه، وإلا فهم كاذبون بما يدعون، وإنما يريدون أن

يعترضوا على ما ثبت من الدين بهذه الأباطيل، وهذا إفك وافتراء، سواء أكانت أحلامًا، أم منامات، أم خيالات، أم كشوفات، كما يسمونها.

بل إن أشد من ذلك كله الذين يعتقدون من أئمة الصوفية أن الله تعالى يخاطبهم بنفسه، ويتكلم معهم، ويناديهم فحقيقة هؤلاء أنهم مدعون للنبوة! لأن من كلمه الله تعالى بلا واسطة، فقد أصبح نبيًا بلا ريب، فهؤلاء يدعون النبوة، وحقيقة أمرهم أنهم يريدون القول بأنهم أنبياء، ولا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ - والعياذ بالله - فلذلك كم تقرأ في كتبهم أن الشيخ الفلاني كان يعمل من الأعمال التي لا تجوز ولا تحل، وذلك بسبب أن المنادي ناداه فقال: يا عبدي فلان هذا حلال، فاستحله وفعله! فهذا شيطان اتخذه عبدًا له، وناداه وأمره بأمر يخالف الشرع، ليخرجه من الدين بالكلية، ويتوهم هذا المخدوع الضال - وربما كان مفتريًا ومضللًا - أن المخاطب له هو الله تبارك وتعالى!

وهذا من الدجل المنتشر في أكثر أنحاء العالم الإسلامي، وإن كان والله الحمد قليلًا في هذه البلاد الطيبة - إن شاء الله - وقد بدأ نور الخير، والسنة، واتباع منهج السلف الصالح، والله الحمد ينتشر في كل مكان، ولكن هذا مرض موجود في الكتب، وفي واقع الحياة، وهو من أسوأ أنواع الاعتراض على ما جاء عن الله، وعن رسول الله ﷺ وهو مناف للرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

٦- الاعتراض على ما شرع الله بالأعراف والعادات والأهواء الجاهلية:

وهذه عادة مذمومة ذكرها الله عن الذين كذبوا الأنبياء، وردوا دين الله ﷺ وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

فهذا النوع منتشر في الأمة - إلا من رحم الله - وقليل من الناس من لديه الاستعداد أن يترك عادات القبيلة اتباعًا لما أمر به رسول الله ﷺ، وأما الكثير منهم فتقول له: هذا حرام وهذا الحديث عن رسول الله ﷺ فلا ينزجر ولا يتراجع عن حكمه وهواه.

فمثلًا في الطرب والموسيقى وما أشبه ذلك، يقول: العادة عندنا كذا، والجماعة

كذا، والقبيلة كذا، والناس كذا! فيعترض على الدين، وعلى الشرع، بالعادات، والأعراف، والأهواء، والأوضاع الجاهلية، والأمثلة على هذا كثيرة فلا نطيل فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٧- الاعتراض على حكمة الله وقدره:

من أنواع الاعتراض: الاعتراض على حكمة الله، وعلى قدر الله، وعلى أفعال الله تبارك وتعالى.

وهذا قديم ومنتشر بين الناس - إلا من وفقه الله للرضا ولحقيقة الرضا- وأكثر المعترضين كفاً وهم الذين اعترضوا على أصل الدين، وأصل القدر، وأصل الاختيار، وقدوتهم في ذلك إبليس اللعين، الذي اعترض على أمر الله تبارك وتعالى له بالسجود لآدم، فجعل ما أمره الله به مخالفاً ومنافياً للحكمة، لأنه يرى أن النار أفضل من الطين: ﴿مِنَهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٦﴾ [الأعراف: ١٦]، فيرى أن عنصر النار أفضل، فمعنى قوله: إن من الحكمة أن يسجد الطين للنار وليس العكس!

وكثير من الناس يقعون في هذا وفيما هو أشد منه وهم يعلمون أو لا يعلمون، وبهذا طرده الله من رحمته، وجعل عليه لعنته إلى يوم الدين، وأصبح رأس الكفر في الدنيا، والمشركون تعلموا منه هذا النوع، فاعترضوا على أن يكون الرسول بشراً: ﴿فَقَالُوا أَنزِيلُنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وفي الآية الأخرى ﴿قَالُوا مَا آتَانَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا﴾ [يس: ١٥].

فهم يريدون أن يكون الرسول المرسل إليهم ملكاً، أما إذا كان رجلاً فلا، والله تعالى له الحكمة العظيمة في ذلك ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُوْنَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩]، حتى تكون القدوة، وتكون الأسوة، فيكون هذا بشراً، وهذا بشراً، فلو كان ملكاً في الحقيقة لجعلناه بشراً في الصورة، حتى يكون من جنسهم، ويخاطبهم، ليقتدوا به وهو من جنسهم، أما لو جاءهم ملك لقالوا: أنت ملك، تصلي لأنك ملك أما نحن فبشر لا نستطيع، وإن تترك الشهوات فلأنك ملك، أما نحن فبشر

فلا نترك الشهوات والمحرمات... وهكذا.

فيعترضون على حكمته وقدره، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨]،
 فيبين الله ﷻ أنه ليس لهم أن يختاروا أن يكون الرسول بشراً أو ملكاً، أو أن تكون
 الرسالة في رجل دون الآخر كما حكي عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ
 الْقُرْبَىٰ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الزخرف: ٢١].

فاعترضوا على عدم جعل الله تبارك وتعالى هذه النبوة وهذا الوحي وهذا الذكر
 ينزل على عروة بن مسعود، أو الوليد بن المغيرة، على رجل من القريتين - مكة
 والطائف - أما أن ينزل على محمد ﷺ، وليس عنده أموال، أو وجاهة في قريش، أو
 عنده عبيد وجواري، ولا كذا، فاعترضوا على حكمته؛ ولهذا يقول الله تعالى: ﴿أَهْرُ
 يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢]، فالمعيشة
 الدنيوية هذه يقسمها الله تبارك وتعالى بين خلقه ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ
 وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠]، أما النبوة، وأما الرحمة فالله أعلم حيث
 يجعل رسالته، ولا يحق لكم أن تعترضوا على اختيار الله تعالى، وتقولوا لو أنه اختار
 فلاناً، ولو أنه نبأ فلاناً لآمننا به، أما وقد نبأ فلاناً فلا!

كما اعترضوا على الأتباع: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴿١١١﴾﴾
 [الشعراء: ١١١]، كما قال قوم نوح، وقريش قالوا للنبي: «اطرد هؤلاء الضعفاء لنجالسك
 نحن عظماء القوم، ونسمع منك، أما أن نجلس معهم، ونتأذى بروائحهم، فنحن لا
 يليق بنا ذلك» وهذا من اعتراضهم على أتباعه وأتباع دينه، لذا نهاه ربه عن ذلك فقال:
 ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢]، فهؤلاء الذين
 يرجون وجه الله، هم خير عند الله تبارك وتعالى وهم أفضل من أولئك، ولكن الله تعالى
 جعل بعضهم لبعض فتنة وهو أعلم بالشاكرين، فجعل إيمان الضعفاء فتنة؛ لكيلا يؤمن
 الكبراء وهذا من حكمة الله ﷻ.

كما اعترضوا حتى على القرآن، فقالوا: لو أنه نزل جملة واحدة، فهم لا يريدونه أن ينزل بحسب الأحداث، ومنجمًا بحسب الوقائع، بل يريدونه أن ينزل جملة واحدة، فرد الله تبارك وتعالى على هذا الاعتراض، وبين أن الحكمة من ذلك التثبيت، ولكيلا يأتوا بمثل إلا جاءهم بالحق وأحسن تفسيرًا، وهناك أنواع كثيرة من أنواع الاعتراض التي اعترض بها الجاهلون والمشركون.

وأيضًا قد اعترض المنافقون، الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، فهم يعترضون دائمًا على أوامر الله، فأصحاب الشهوات في كل مكان، وفي كل زمان، لا بد أن يعترضوا على دين الله، ولا يرضيهم ذلك، فلذلك يقول ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط»^(١).

فهذه عبوديته: إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، وهذا ما فعله المنافقون، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

فترى المنافق وأصحاب الشهوات إذا تحققت شهواتهم ورجباتهم، قالوا: أحسنت وهذا حكم طيب، وأنت حقًا رسول الله، وإن كان قاضيًا فحكم له قالوا: هذا القاضي يقضي بالحق: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٩]، فإن حكم لخصمه وكان هو المبطل، وحكم القاضي بالحق قال: هذا مخطئ، أو مرتشٍ، أو كذاب، فأهم شيء عندهم أن يكون تبعًا لأهوائهم، وليس تبعًا للحق، فإذا كان لهم الحق وعلموا أن الحكم سيكون لهم، جاءوا وقالوا: لا نريد أن يحكم بيننا إلا رسول الله، أما في وقتنا الحالي فيقولون: نريد صاحب دين، وإيمان، وتقوى حتى يحكم بيننا؛ لأنه يثق بأن البيئات التي عنده ستجعل الحكم له؛ لكنه لو كان في الحالة الأولى يقول: لا نريد فلانًا، كما قال المجرمون من قبل: نذهب إلى كاهن جهينة أو إلى كعب بن الأشرف: ﴿أَلَمْ تَرَ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى
الطَّلَعُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِءِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴿

[النساء: ٦٠]، فقالوا: لا نذهب إلى محمد ﷺ، بل نذهب إلى كعب لأنه يأخذ الرشوة.

كما أن كثيرًا منهم يعترضون على قدر الله، إن أعطاهم الله ووسع عليهم وأنعم
عليهم، فيقولون: أكرمنا الله وأعطانا الله، وربكم لا يعطي إلا من يحب، وجعلوا ذلك
دليلاً وعلامة على أن الله يحبهم، وأن أعمالهم صالحة وطيبة، ونسبوا ما يأتيهم من مال
إلى عبادتهم، وإخلاصهم، وصدقاتهم، ونفقاتهم، وما علموا أنه استدراج!

وأما إذا قدر عليهم أرزاقهم، وضيق عليهم، أو منعهم وإن كان بعد عطاء، أو إذا
أمرضهم وإن كان بعد شفاء وعافية قالوا: ﴿رَبِّي أَهَنُّنِ﴾ ﴿١٦﴾ [الفجر: ١٦] قالوا: كيف
تعذبني؟! ماذا فعلت؟! وماذا صنعت؟! أو لماذا فعلت كذا ولم تفعل كذا؟! فيعترضون.

وأكثر ما يعترض الخلق قديماً وحديثاً على أقدار الله ﷻ، ويظن أنه غير أهل
لأن يتليه الله بمصيبة، أو يفقد مال، أو يفقد حبيب، لأنه يرى أنه من أهل الصلاح
والدين، ولو كان هذا في الفجار، أو في غيره من الذين يفعلون ما يفعلون لكان هذا أحق
بهم وأجدراً! ولا يعلمون أن الله تبارك وتعالى يتلي بالخير والشر، وأن الله ﷻ يمتحن
من ينعم عليه ليرى أشكر أم يكفر ويمتحن من يأتيه بما لا يرضى به ليرى الله أيصبر أم
يجزع ويقنط، ومن هنا لا بد من الرضا بأقدار الله تبارك وتعالى كما قال أبو الدرداء
رضي الله عنه.

الاعتراض على حكمة الرسول:

من ذلك أيضاً: الاعتراض على حكمة رسول الله ﷺ، وإن لم يكن فيه اعتراض
على حكمة الله كما فعل الخارجي - أصل الخوارج الذي خرجوا من ضئضئه - عندما
حكم رسول الله وقسم الغنائم فقال: «اعدل يا محمدا!» نعوذ بالله من ذلك، فاعتراض
هذا الخارجي على الحكمة النبوية، ورأى أن هواه وأن رأيه وأن عقله أصوب في هذا
الشان، وأنه يجب أن تكون القسمة بالمساواة أو أن يعطى الناس بحسب إيمانهم،

فالمؤمنون العظماء يأخذون الألف، ومن دونهم يأخذون المئات، والأقل إيمانًا يأخذون الأقل من الإبل والأنعام، ولكن من حكمة رسول الله ﷺ - وهي بوحى من الله - أن يعطي الأعراب، وأن يعطي المؤلفة قلوبهم، وأن يعطي حديثي العهد بالإسلام، وأما أولئك فكما قال ﷺ: «يكلهم إلى إيمانهم»^(١) هؤلاء مؤمنون، ورجبتهم إلى ما عند الله، ورجبتهم في الجنة، منذ أن بايعوا رسول الله ﷺ يوم العقبة فقالوا: فما لنا يا رسول الله إن نحن فعلنا؟ قال: «لكم الجنة»، قالوا: ربح البيع، لا نقييل ولا نستقييل^(٢).

وهؤلاء المهاجرون أعظم من ذلك، هؤلاء لا يريدون الدنيا ومتاعها، ولا يباليون أعطوا أم لم يُعطوا، أما أولئك فإذا أعطوا آمنوا فأمنت بعدهم قبائل وأمم، وإن لم يُعطوا كفروا فتكفر بكفرهم قبائل وأمم.

فالحكمة واضحة جلية، ومع ذلك اعترضوا على رسول الله ﷺ في هذا، ويجب أن نعلم أن الاعتراض كما يقول ابن القيم رحمه الله: «هذه الاعتراضات وأمثالها سارية في جميع الخلق، قل من ينجو من نوع من أنواع الاعتراض على الله، أو على دين الله، أو على شرعه، أو على أخباره، أو على أحكامه» قل من ينجو من ذلك، ومن نجا من ذلك وحقق درجة التسليم المطلق، بلا معارضة، ولا ممانعة، فعليه أن يحمد الله على هذا، ويجعله امتحانًا واختبارًا لإيمانه، فالأمثلة التي ذكرناها إنما هي إشارات، وإلا فداء الاعتراض داء عظيم، وقليل من خلق الله هم حقًا من ذاقوا طعم الإيمان، كما قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا»^(٣).

جعلني الله والمسلمين من الراضين، ومن هؤلاء المصطفين الأخيار، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٣٦)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢)، وصححه العلامة الألباني في «الصحيح» (٦٣).

(٣) تقدم تخريجه.

إرضاء الناس من أجل دعوتهم إلى الله:

السؤال:

يقول: حديث من طلب رضا الله بسخط الناس بِغَضِّهِ، ومن طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه أو كما قال النبي ﷺ.

وإننا في تعاملنا مع الناس ودعوتهم، قد نضطر أحياناً إلى إرضائهم، حتى نكسب قلوبهم، فهل هذا داخل تحت الحديث؟

الجواب:

ما دام غرضك من استرضائهم أن يؤمنوا بالله، وأن ينالوا رضا الله، فلا ينطبق عليك هذا الحديث - إن شاء الله - لأنك تريد أن تكسبهم الله لا لنفسك، ففي الحقيقة من كان هذا حاله فهو لا يبتغي رضا الناس بسخط الله، وإنما غايته هي رضا الله، لكي يؤمن هؤلاء، فيرضى الله عنهم بإيمانهم، ويرضى عنه بدعوته هؤلاء، ومما يرضاه الله لنا أن نستميل قلوبهم، وأن نخاطبهم بالحكمة واللين؛ لكي نكسب قلوبهم، ويؤمنوا بالله، فهذا مما يرضاه الله وهو مما شرعه.

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لا بد من شروطها حتى تتحقق:

السؤال:

فضيلة الشيخ في قولك: إن شهادة أن لا إله إلا الله محتاجة إلى شروط حتى تقبل من قائلها، فكيف نجمع بينها وبين حديث الغلام اليهودي الذين قالها عند احتضاره بعد أن وافقه أبوه على النطق بها؟

الجواب:

هذا السائل يسأل ويستدل بحديث الغلام اليهودي، الذي قال له ﷺ: «قل لا إله إلا الله»، فنظر إلى أبيه فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال: لا إله إلا الله^(١) كما يقول: إن هذا لم يأت بالشروط، وأنت قلت لا بد أن تتحقق الشروط، وهذا قال لا إله إلا الله

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

ونجا من النار فقط.

فنتقول أولاً: نعود للقاعدة نفسها فعندما نتحدث عن القاعدة العامة، أن المسلمين يقولون: لا إله إلا الله وهم أحياء، ويمشون، ويعملون، فهؤلاء نقول لهم: حققوا معناها وشروطها ومقتضاها، أما في حالة الاحتضار فهي حالة مستثناة.

ثم نقول: يا أخي الكريم: كيف عرفت أن الغلام لم يقلها بيقين، وإخلاص، ومحبة ورضاً؟! فإن قلت: قالها كذلك، قلنا هذه هي الشروط، وهذا الذي نقوله، وإن قلت لم يقل كذلك، قلنا: من أين لك ذلك؟! ولا يجوز هذا لأنك لم تطلع على قلبه، فالأصل أنه ما نظر إلى أبيه إلا خائفاً، ولذلك لم ينتظر بعد قول أبيه: أطع أبا القاسم، حتى انشرح لها صدره فقالها بانسراح صدر كما هو ظاهر الحال، واستجاب لرسول الله ﷺ، فلا بد أنه ما قالها إلا بهذه الشروط.

مسألة عدم الرضا بحكم القاضي:

السؤال:

عندما يحتكم شخص إلى قاضٍ في المحكمة، ثم يحكم القاضي عليه، فيشعر أنه مظلوم، فهل هذا الشعور يعتبر من عدم الرضا بحكم الله؟

الجواب:

فرق بين أنك تشعر أن القاضي ظلمك، ولم يحكم فيك بحكم الله، الذي هو العدل والحق ولو حكم فيك بحكم الله لقبلت ورضيت، فتعترض في هذه الحالة على عمل القاضي، الذي هو بشر، فقد يخطئ فعلاً، وقد يرتشي، وقد يظلم والعياذ بالله، وهذا قد يقع، فرق بين هذا وبين أن يكون الاعتراض على الحكم ذاته، كما لو حكم لامرأة أن لها نصف ميراث الرجل، فتقول: كيف ذلك، لا بد أن آخذ مثل أخي بالمساواة، فهذا اعتراض على الحكم، وعلى الشرع ذاته، وليس على فعل القاضي، فهذا لا بد أن يُتنبه له.

ثم الأولى والأفضل في حق المؤمن أن يصبر، وأن يرضى بحكم القاضي، ما لم

يكن يعلم علم اليقين أنه ظالم له، وأن يحتسب ذلك، فربما كان يتوهم أنه محق؛ ولكن في الحقيقة أن الحق لخصمه، الذي حكم له ذلك القاضي.

تحاكم القبائل عند رؤسائها، وعدم الرجوع إلى المحاكم الشرعية:
السؤال:

إذا حدثت مشكلة بين القبائل ذهبوا إلى الآخرين، ثم وضعوا المعاديل واحتكموا لديهم، ويحكمون بالذبح وباليمين، فما حكم ذلك؟ وما هو البديل؟ وما دور الشباب والدعاة؟

الجواب:

حقيقة هذه مشكلة كثيرًا ما تقع، وكثيرًا ما تأتي الأسئلة عنها، وأحوال القبائل والمناطق تختلف فبعضهم يغالي في هذا، وعندهم أحكام طويلة عريضة جدًا، وبعضهم لا يتجاوز أن يجتمعوا مثلاً، أو أن يصلحوا، ولذلك أقول هذه الأمور يحتاج فيها إلى تأصيل قضايا معينة.

فالأصل الأول: أن نذيع ونشيع بين الناس العلم الشرعي، حتى يعرفوا حكم الله، وحتى يعرفوا معنى الرضا بالله، ومعنى الرضا برسول الله ﷺ، وحتى يعرفوا أحكام الله، وحدود الله، فلا يتجاوزوها، ولا يتعدوها، وأن نبين لهم كفر التحاكم إلى القوانين الوضعية، والأعراف الجاهلية، وأنها من الشرائع الوضعية.

أما الأصل الثاني: فهو التوعية والدعوة، وهو حل لكل المشكلات في العالم وفي الأمة.

وأما الأصل الثالث: أن تقوم المحاكم الشرعية أو وزارة العدل بواجبها.

أولاً: بنشر المحاكم الشرعية، فبعض الناس لا يريد أن يتكبد المسافة إلى أقرب محكمة شرعية، حيث إنها تبعد عنه مائتي كيلومتر وأحياناً ثلاثمائة كيلومتر، فلا يذهب إليها وقد تقول الوزارة: أين طلابكم في الجامعات الذين يرفضون القضاء؟! فيجب عليكم معشر الشباب، من كان منكم أهلاً للقضاء ألا يمتنع عن ذلك، وإن كان طلب

القضاء في الأصل ليس مستحسنًا بلا ريب، ولكن لا تترك الدنيا بلا قضاة، أو يؤتى بالقوانين الوضعية، فيجب عليكم كما يجب على الوزارة تأمين وتوفير المحاكم الشرعية.

ثانيًا: يجب على المحاكم الشرعية أن تفصل في القضايا، وأن تسرع في ذلك، لأن الناس يرون أنه إذا تخاصم اثنان فأولًا: تذهب القضية إلى الشرطة، والشرطة أكثر الناس لا يثق فيها، ثم تحال إلى الإمارة، ثم المراكز، والمراكز تحيل إلى الإمارة الفرعية، ثم إلى المنطقة، ثم تذهب إلى الداخلية فتستمر شهرًا، فيقع في أثناء ذلك بين الناس من الخصومة والقطيعة، وقد يقع القتل، وقد يقع غير ذلك، وهذا يسجن ظالمًا أو محققًا، وهذا طليق ظالمًا أو محققًا، فأمور كثيرة لا تدارك، فيجب أن توضع إجراءات قضائية مرنة، بحيث إن المحاكم الشرعية رأسًا تتولى القضية، وتحكم فيها ولو صلحًا، أو أن تعين هي من يقوم بالصلح من أهل الدين والخير، بحيث لا يكون هناك مخالفة للشرع، فهذه بعض الحلول العامة، أما الواقع فهو أكبر من ذلك، ولكن لا حيلة فيه والله المستعان.

كيفية الرضا بالمعصية وهي من قدر الله:

السؤال:

إذا فعل الإنسان المعصية وهي من قدر الله، فكيف يكون الرضا بها، وكذلك الطاعة؟

الجواب:

هذه قضية مهمة، ولا نطيل فيها؛ لأن موضوع القضاء والقدر يحتاج إلى شرح وإفاضة، فنقول: إذا فعلت - أنت العبد الذي خلقك الله لتعبده وتقيه - ذنبًا من الذنوب، فكيف ترضا؟! أليس مطلوبًا منك الرضا؟ لا ترضى عن نفسك أنها فعلت الذنب، فعليك أن تتوب وتبادر بالتوبة والندم والاستغفار، ومع التوبة والندم والاستغفار، والعزم على ألا تعود، ترضى أن الله تعالى كتب لك ذلك، فهي من

جهة الله أمر نرضى به، لكن من جهة الشيطان، ومن جهة نفسي أنا لا أرضى به ولا أقبله.

مثلاً: أبو الدرداء رضي الله عنه الذي ذكرنا كلامه آنفاً، وقد أسلم متأخراً، أليس الكفر أعظم الذنوب؟ فهو يرى أن التأخر في إسلامه قد فوت عليه شيئاً كثيراً؛ لكن ماذا كان حاله رضي الله عنه؟ كان كحال كثير من الصحابة حيث رضي بما اختاره الله له، فقال: إن الله تعالى ما اختار لي أن أسلم إلا عندما أسلمت: ﴿وَمَا كَأَنْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، فقبل بذلك، ورضي بقدر الله، أنه لم يجعله من السابقين الأولين، هذا من الرضا؛ لكن من جهة نفسه، فعليه أن يلوم نفسه، فأى إنسان منا عليه أن يلوم نفسه، لماذا لم أتعجل؟! ولماذا لم أبادر؟! فهذا حق، وهذه حقيقة النفس اللوامة، وهي نفس المؤمن تلومه أنه فعل كذا من المعصية، ولم يفعل كذا من الطاعة.

فهو من جهة أنه قدر الله نرضى به، ومن جهة أنه فعل العبد لا نرضى به، كما لو جاء أحد وقطع الإشارة، وصدم بسيارتك وكلفك، فترضى من جهة أنه قدر الله، ولكن من جهة الذي صدمك واعتدى وأخطأ عليك، فلك الحق أن تخاصمه، وأن تحاسبه، فالمسألة فيها جهتان كل منهما تنفك عن الأخرى، وكل عمل وكل فعل له جهتان.

بغض الكفار دليل على الإيمان:

السؤال:

هل بغض أهل الكفر والنصارى في أمور الدنيا والدين دليل أكيد على محبة الله ورسوله ﷺ؟ أي: إذا كان يبغض الكفار ويعاديهم، هل هذا دليل على أنه يحب الله ورسوله ﷺ؟

الجواب:

نعم، هو أحد الأدلة إن شاء الله، لأنه لا يجتمع في قلب العبد أن يحب أحداً ويحب أعداءه، فإذا أحب الله فلن يحب أعداء الله، فإذا أبغض أعداء الله، أي يكون حبه لله، وبغضه لله، فإنه يكون من أهل الإيمان، ويذوق طعم الإيمان بإذن الله.

حكم الإعراض عن تعلم أمور الدين:

السؤال:

ما حكم الذين يعرضون عن تعلم أمور دينهم عن طريق المحاضرات، والندوات، والمواعظ، ويكرونها مع أنهم يصلون مع المسلمين، لكن إذا دعوا إليها لا يقبلون ذلك؟

الجواب:

نقول: إنهم لا يرضونها ويعترضون عليها؛ ولذلك لا يحبونها فلا يقبلونها فهناك تفصيل لذلك.

نقول: الاعتراض أو الإعراض عن دين الله تعالى من أصله، لا يعلمه، ولا يتعلمه ولا يتفقه فيه فهذا أحد أنواع الكفر، لأن صاحبه لن يعرف ربه، ولا دينه، ولا رسوله ﷺ.

فإذا أتيح لإنسان بمقدار ما قدر الله تعالى له أن يتعلم دينه أو أن يتفقه فيه، فلا يجوز له أن يعرض عن ذلك، وإلا كان -فعلاً- غير راضٍ عن هذا، معترضاً عليه بنوع من الاعتراض، جلياً كان أو خفياً، فالواجب على الإنسان أن يفرح برياض الجنة، وإذا مر بها أن يرتع فيها، وأن يحمد الله تبارك وتعالى على وجودها، وأن يشكره على ذلك، وأن يجتهد ما استطاع وكل بحسبه، لا نكلف العاملين أن يحضروا الحلقات العلمية؛ إذا لم يكن عن إعراض ونفور، وإنما لا يفقهها أو فوق طاقته ومستواه، فهذا معذور، ولكن عليه أن يحبها، وأن يحرص عليها، وأن يدعو إليها، وبنه إخوانه عليها.

حكم اتخاذ مناهج دعوية مخالفة لمنهج الرسول ﷺ:

السؤال:

هل يكون اتخاذ مناهج دعوية غير منهاج الرسول ﷺ من الاعتراض على حكمه أم لا؟

الجواب:

لا شك في ذلك، ولذلك يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) ﴿يوسف: ١٠٨﴾، فمن قَدَّم على منهج

رسول الله ﷺ ومنهج السلف الصالح في الدعوة أي منهج آخر فقد اعترض عليه، وهو نوع من أنواع الاعتراض سواء أكان هذا المنهج ينتمي إلى طائفة، أم إلى جماعة، أم إلى حزب، أم إلى إمام كائناً من كان، فإذا خالف ما جاء عن رسول الله ﷺ، فهذا نوع من التقليد المذموم، والتعصب المذهبي المذموم، الذي يجعل صاحبه يغلو في إمامه، فيقدم كلام إمامه أو مذهبه على ما جاء عن النبي ﷺ من أحكام، وحلال وحرام.

ومثله من يغلو في شيخ، أو مؤسس لجماعة، أو حزب إسلامي، أو أي معنى من هذه المعاني، فيغلو فيه، ويقدم كلامه، وكتبه، وآراءه، وطريقته، ومنهجه، على طريقة رسول الله ﷺ، وعلى منهج السلف الصالح، فلا ريب أن هذا نوع من أنواع الاعتراض، وأن فاعله لم يحقق الرضا برسول الله ﷺ، وأنه لم ينتف الحرج من قلبه، أو ربما لم يسلم تسليماً كاملاً، كالذين لا يبدؤوا دعوتهم بالتوحيد، لا شك أن هذا مخالف لما جاء به النبي ﷺ، لأن أعظم ما جاء به النبي ﷺ هو التوحيد ولا ريب في ذلك، وهو أول ما دعا إليه، فلما بعث معاذاً وغيره، كان يقول لهم: «فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله، أو شهادة أن لا إله إلا الله»^(١)، فهذا مثال ولا بد أن يعلمه الجميع.

مثلاً: من يظن أن في الإمكان أن يجمع الناس مجرد جمع على أن يتخبوه ليحكم، فإذا وصل إلى الحكم، فقد نال الهدف فيقيم الإسلام والدين، فهذا مخالف لمنهج النبي ﷺ في الدعوة؛ لأن منهجه ﷺ هو التزكية، والتربية، والاصطفاء، والاختيار لقوم يحملون هذا الدين عن حق، وعن يقين، ويجاهدون في سبيل الله حتى يقوم هذا الدين، فكذلك من يريد أن يقيم دين الله تبارك وتعالى من غير صبر ولا مصابرة، وإنما كل من عارضه قاتله، فهذا مخالف لمنهج النبي ﷺ والأنبياء في الدعوة؛ لأن أنبياء الله ورسول الله يقولون: ﴿وَلَنْصَرِيكَ عَلَىٰ مَا أَدْبَتُنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فكان النبي ﷺ يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

فإذا جاءت دعوة، أو طائفة، أو حزب، أيًا كان واستحلوا أن يقاتلوا من خالفهم، ولم يَمروا بمرحلة الصبر والابتلاء، والتزكية، فإنهم قد خالفوا منهج النبي ﷺ في الدعوة، فهؤلاء هم نوع من أنواع المقلدين.

والتقليد لا يكون فقط في الأحكام الشرعية؛ بل يكون كذلك في المناهج الدعوية، والواجب هو تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، وألا يقدم بين يدي الله ورسوله، وأما ما يجب منا نحو هؤلاء أو نحو غيرهم فهذا له موضوع آخر، وليس هذا المقام مقام التفصيل فيه.

حكم الاعتراض على حكمة الله:

السؤال:

إذا أصابت إنسان مصيبة ثم اعترض على حكمة الله، وأخذ يسب من سبب له هذه المصيبة، هل يعتبر معترضًا على حكم الله، أو يعتبر كافرًا، وما سبيل التوبة سواء أ كفر أم لم يكفر؟

الجواب:

إذا كان فعلًا اعترض على فعل الله، أو على قدر الله، فالواجب عليه أن يبادر إلى التوبة، كفر أو لم يكفر، وهذه الحالة الأحوال فيها تختلف، لكن إذا تاب من ذلك فإن كان كفرًا فقد تاب وعاد بالإيمان، وإن كانت كبيرة فقد تاب وعاد إلى الطاعة، المهم أن يتوب من ذلك، وأن يثوب إلى رشده، وأن يستغفر الله تعالى، وألا يعترض على الأمر من جهة أنه قدر الله.

أما إذا اعترض من جهة أنه فعل العبد كما بينا؛ فهذا شأن المخلوقين جميعًا، إلا من كان من أصحاب النفوس العالية جدًّا، الذين يقابلون الإساءة بالإحسان، فهذا من الإحسان، وهو مطلوب ومشروع وليس واجبًا، لأن العدل حقٌّ، أما الإحسان فهو تكرم وتفضل، فالأليق والأولى بالدعاة وبطلبة العلم هو العفو والصفح والإحسان ومقابلة الإساءة بالإحسان، فهذا الذي يليق بالدعاة، لكن في حق عامة الخلق لا يمنع من حقه ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] لكن من عفا وأصلح فهذه درجة أخرى، نرجو أن نكون جميعًا من أولئك.

الواجب تجاه إخواننا المجاهدين في أنحاء العالم:

السؤال:

ما هو واجبنا تجاه إخواننا المسلمين في البوسنة والهرسك وغيرها؟

الجواب:

واجبنا تجاه إخواننا المسلمين، في البوسنة والهرسك وغيرها، ما نستطيع ونحن نستطيع أمرين لا عذر لنا فيها: الأول منهما: الدعاء، والدعاء شأنه عظيم وجليل، ودائمًا أذكر به إخواني ونفسي، فلا نحقر الدعاء لهم في القنوات، وغيره وأن ندعو على الكافرين أيضًا مطلقًا، وندعو للمؤمنين مطلقًا، وإن خصصنا بعض الكافرين، أو دول الكفر التي لا شك أنها تحارب هذا الدين فلا بأس، ونرجو أن يتقبل الله وأن يستجيب لهذه الدعوات.

وأمر آخر إضافة إلى الدعاء، ألا وهو المال ونحن -والحمد لله- باستطاعتنا أن ندفع بقدر ما نستطيع، والقليل يجعله الله تبارك وتعالى كثيرًا، وبارك فيه، ولو جمع من كل أحد من المسلمين، وإن قل لكان كثيرًا في النهاية، ولنفع الله به إخواننا هنالك، والحمد لله لا يكاد يمر أسبوع، إلا ويسافر من نعرفه معرفة شخصية ونثق به ونعطيه المبلغ يدًا بيد، فهذا فلا عذر لأحد أن يقول: لا ندرى أين توضع هذه المبالغ، أو تصل أو لا تصل! فإنهم يأخذونها ويسلمونها يدًا بيد إلى إخوانكم المجاهدين أو المنكوبين، كما في الصومال وغيرها، والحمد لله فهذا من فضل الله علينا وعلى الناس.

حكم شراء المبيعات التي فيها علامة الصليب والنجمة السداسية:

السؤال:

كثير من المبيعات التي نشترها الآن كالسيارات والملابس يكون عليها رموز كالصليبان، والنجمة السداسية فما الحل؟

الجواب:

على كل حال الصليبان انتشرت هذه الأيام، والنجمة السداسية اليهودية انتشرت، بحيث أصبح الإنسان مهما تحرز لربما رآها في نفسه، أو في أولاده، أو في بيته، بل ربما

أحياناً في المساجد، وهذا دليل على الغزو الخبيث المبطن، الذي يريد أن يجتاز هذه الأمة، وأن يمسخها ويحولها إلى تابع ذليل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وما في السيارات وما في الملابس ما هو إلا أمثلة من هذا، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

- * إن القبول والانقياد هما الشرطان اللذان لعمل القلب وهو الرضا.
- * إن أساس الدين وقاعدة الإيمان هو الرضا.
- * أهم ركن من أركان الإسلام وهو: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله محتاج إلى شرطي الرضا وهي: القبول والانقياد.
- * الإنسان ينتقل بين الكفر والنفاق والإسلام والإيمان والإحسان بحسب تمكن الرضا من قلبه.
- * إذا كان الجهاد هو أعظم عمل الجوارح فإن الرضا هو أعظم عمل القلوب.
- * إن مضادات الرضا كثيرة منها:
 - أ- الاعتراض على توحيد الله وأسمائه وصفاته.
 - ب- الاعتراض على أمر الله وشرعه.
 - ج- الاعتراض على إخباره عما في الكون.
- * يعتقد أئمة الصوفية أن الله يخاطبهم بنفسه وهم يريدون بذلك ادعاء النبوة، لأن من خاطبه الله فهو نبي.
- * الاعتراض على الله في حكمته وقدره وهو أقدم أنواع الاعتراض على الله، وهو ما اعترض به إبليس على الله عندما أمره بالسجود لآدم.

المحبة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وحببيه وخليله الأمين، محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

حديثنا في هذا الموضوع هو عن عمل من أعمال القلب، بل هو من أعظمها شأنًا وأهمية، وهذا العمل هو: المحبة، والمحبة عمل عظيم، فهي - كما سنبين إن شاء الله تعالى - مما يجب على كل مؤمن أن يعتني بها، وأن يعرف حقيقتها، وأن يحققها لرب العالمين تبارك وتعالى كما شرع لنا وعلمنا رسوله ﷺ.

والمحبة لها علاقة عظيمة وثيقة بالإيمان وبالعبادة.

فأما علاقتها بالإيمان، فإن أصل الموضوع هو الحديث عن أعمال القلب، وعمل القلب جزء من الإيمان، الذي هو عند أهل السنة والجماعة: قول وعمل، فالقول قولان والعمل عملان.

وإذا أردنا أن نحدد كما حدده شيخ الإسلام رحمه الله في رسالته القيمة النافعة التحفة العراقية في الأعمال القلبية، فإننا نقول: إن هذا الدين الذي هو قول وعمل لكل قسم من قسميه أصل عظيم هو الأساس الذي يقوم عليه.

فأما الأقوال فأصلها وأساسها هو الصدق: العمل القلبي الذي ترجع إليه كل الأقوال، ويدخل في كل الأقوال.

وأما المحبة فهي العمل القلبي الذي ترجع إليه كل الأعمال، ويدخل في كل الأعمال والطاعات.

إذن: عرفنا بهذا أهمية هذين العملين، وهما: الصدق والمحبة، اللذان هما من

أعمال القلب، وعرفنا أيضًا علاقتهما بالإيمان، فالصدق: أصل كل الأقوال، والمحبة: أصل كل الأعمال.

وأما العبادة كما عرفها شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب العبودية فقال: «هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

فالعبادة هي الدين كله، فكل ما أمر الله تبارك وتعالى به، فعملنا وامثالنا به فإنه عبادة، وكل ما حذرنا الله تبارك وتعالى ونهانا عنه، فالتزامنا بتركه، ووقوعنا عند حدوده فإنه عبادة، فالعبادة تشمل هذه الأعمال جميعًا.

والعبادة هي الغرض وهي الحكمة التي خلق لها الثقلان، وهي التي طلبها الله تبارك وتعالى وأرادها من خلقه أجمعين، وهي التي بعث بها أنبيائه ورسله أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

[الأنبياء: ٢٥]. ﴿٢٥﴾

المحبة هي غاية العبادة:

فإذا علمنا أن الحكمة من خلق الثقلين هي العبادة؛ فلنعلم أن العبادة هي تأليه الله تبارك وتعالى، وإذا رجعنا للاشتقاق اللغوي لهذه الكلمة فإن المحبة: هي تأليه الله، ولذلك نحن نقول (لا إله إلا الله) مقرين وشاهدين على أننا لا نعبد إلا الله.

ولذلك فإن حقيقة لا إله إلا الله - كما جاءت في بعض الآيات وبعض

الأحاديث - هي: أن لا يعبد إلا الله كما في آية الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] فهذه الكلمة هي بمعنى

الآية الأخرى التي قال الله تعالى فيها: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل: ٣٦] فالمعنى واحد.

ولذلك فإن الرسل الذين قال كل واحد منهم لقومه: (لا إله إلا الله) ودعاهم إليها، هم الذين قالوا لأقوامهم ﴿أَنْ لَا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٦] و ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٢] كما ورد ذلك في قصص الأنبياء، كنوح وهود وشعيب وصالح وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فإذا كانت حقيقة العبادة هي التأله، فإن المحبة هي غاية التأله، أو بمعنى آخر: إن المحبة في اللغة إذا اشتدت وغلا فيها صاحبها، أو عظمت عند صاحبها وارتقت فإنها تصبح ولها، ويصبح المحب الذي يحب محبة عظيمة بشغف وشوق شديد ولها، ويقال له: (وله، وواله، وولهان) من هنا فإن الوله هو: شدة المحبة، والتأله لله تبارك وتعالى هو: شدة محبة الله، ومحبة ما جاء من عند الله تبارك وتعالى.

فإذا قيل في اللغة: فلان يتأله؛ فإن معنى ذلك أنه يتحجب إلى الله تبارك وتعالى، ويحب الله تبارك وتعالى محبة عظيمة.

تحقق العبادة يكون بأمرين مهمين:

المحبة الشرعية لها علاقة بالعبادة من جهة أخرى، وذلك أن التعبد والتأله لا بد أن يجتمع فيه أمران هما: كمال المحبة مع كمال الذل والخضوع، فالعابد الذي يعبد الله تبارك وتعالى لا بد أن يجمع بين هذين الأمرين.

وإذا تجردت المحبة عن الخضوع والذل أصبحت العبادة دعوى لا قيمة لها، وهذا ما أخطأ فيه الصوفية وأمثالهم ممن ادعوا محبة الله ولكنهم لم ياتمروا بأمر الله، ولم يخضعوا لسنة محمد ﷺ، ولم يحكموها في أقوالهم، وأعمالهم، وعباداتهم.

وإذا أصبحت العبادة ذلاً وتجردت عن المحبة، أصبح العابد يعبد معبوده وهو لا يحبه، فعندها تتحول المحبة إلى بغضٍ وكراهية، ويصبح العابد هذا مكرهاً، ففي هذه الحالتين لا يقبل الله تبارك وتعالى هذه العبادة.

فلا بد إذن من اجتماع الأمرين في العبادة: المحبة من جهة، والخضوع والذل من جهة أخرى.

وبهذا نكون قد علمنا ارتباط المحبة بحقيقة الإيمان وارتباطها كذلك بالعبادة وبالتأله لله تعالى، فإن هذا يقودنا إلى أن المحبة هي أصل كل الأعمال، وهي ركن لا بد منه في كل عبادة.

فمعنى ذلك أن المحبة تدخل في كل عمل من أعمالك التي تعملها، فإن ذكرت الله تبارك وتعالى، أو صليت، أو صمت، أو قرأت القرآن، أو حججت، أو اعتمرت، أو تصدقت، أو أي عمل عملته فلا بد أن يكون ركن المحبة، وعنصر المحبة متوفرًا فيه، وهذا هو الفرق بين المؤمن والمنافق.

المحبة بين المؤمن والمنافق:

الفرق بين المؤمن والمنافق هو: أن المنافق حاله كما أخبر الله تبارك وتعالى عنه بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَادِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] فلم ينفعهم ذلك؛ لأنهم آمنوا كرهاً لكي تنجو رقابهم من السيف، كما أنهم إذا خرجوا مع المؤمنين إلى الجهاد يخرجون وهم كارهون له، بل هم كارهون لنصر الله، ولا يريدون أن ينصر الله هذا الدين، وأيضاً ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢] لأنهم يكرهون الصلاة، وهذا التناقل منهم عن العبادة نتج لما في قلوبهم من الكراهية وعدم المحبة، وإلا فإن الذي تحبه مهما كنت متعباً، أو مجهداً، أو مرهقاً، فإنك تبادر إليه وتقوم وتنطلق وتسعى، وتنسى كل ما كنت تشعر به من تعب، فهكذا فطر الله القلوب والنفوس.

أما المنافقون فلو نام أحدهم الليل كله، وكان في غاية الراحة البدنية، ثم دعي إلى الصلاة، فإنه لا يؤديها إلا وهو كسلان -والعياذ بالله- ويجدها ثقيلة على قلبه، وإذا دخل المسجد فهو كالطير المحبوس في القفص، لأنه لا يحب المسجد ولا الصلاة ولا ذكر الله تبارك وتعالى.

أما المؤمن فهو بعكس ذلك، فالمؤمن يحب الله تبارك وتعالى ويحب طاعته،

ويحب أن يقرأ القرآن ويجد في قراءته من الحلاوة واللذة والمتعة ما ينسيه أعظم الهموم، ويجلي أحزانه، ويشرح صدره، ويثلج خاطره، وكما أن حبه للصلاة تدفع عنه همه، وغمه، وألمه، ولذلك تجد قلبه معلقًا بالمساجد، كما جاء في حديث من يظلمهم الله تبارك وتعالى تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل قلبه معلق بالمساجد»^(١) وذلك من محبة المؤمنين لطاعة الله، فإذا ذهب هذا المؤمن أو سافر إلى أي مكان، فإن أول شيء، وأهم شيء يسأل عنه، هو: سؤاله عن مكان المسجد والعالم والمكتبة؛ لكي يستفيد منها علمًا يقربه من الله تبارك وتعالى، فهذا قلبه معلق بالمساجد، ومحبه تابعة لطاعة الله، ولعبودية الله، ولرضا الله تعالى، فحيثما كانت فإنه يتبعها ويتجه إليها.

أما أولئك المنافقون فإن صدورهم تنشرح باللهو واللعب ولأماكنها، ولو أن أحدهم ظل الليل كله يغني ويطرب، ويهتز، ويرقص لما تعب ولا تألم، فإذا قيل له: الصلاة الصلاة ولو كانت ركعتين ثقلت عليه وكأنه يحمل على ظهره أشد ما تكون الأثقال والأحمال، نسأل الله العفو والعافية، فهذا حالهم في الصلاة.

وأما حالهم في النفقة فإنهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَثِيرُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] فيدفع الواحد منهم ويستلذ أن يدفع في الشر والفجور، وفي مقاومة الخير الشيء الكثير؛ ولذلك لما بنوا في عهد النبي ﷺ مسجد الضرار، فقد كلفهم ذلك البناء نفقة وجهدًا، لأنه لا بد في أي عمل من الأعمال من نفقة وتكاليف، ولكنهم استحبوا هذا العمل، ووجدوا أنه لا حرج فيه ولا غضاضة.

فحالهم كحال كثير من الناس اليوم -والعياذ بالله- يتفق ما يتفق على نوادي اللهو، واللعب والكرة، وعن كل ما هو مبعث عن طاعة الله تبارك وتعالى، لكن إذا قيل له أن يفعل عملاً خيرياً كأن يطبع كتاباً، أو يتفق لطباعة كتاب يعلم بعض المسلمين دينهم، أو أن يتصدق على الفقراء في أنحاء العالم الإسلامي -وما أكثر

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

الفقراء اليوم- أو أن يشارك في إتمام بناء مسجد و يبلغ أقل مما يدفع في الشر، فإنه لا ينفق إلا إذا كان للدين قوة، أو كان للذي كلمه هيبة لديه، فإنه ينفق وهو كارهه -والعياذ بالله- فهو لا يحب الطاعة ولا يريد لها.

فلهذا فإن الله تعالى لا يقبل منهم نفقاتهم أو صدقاتهم؛ لأن أساس القبول هو: المحبة، فمن كان راغباً فيما عند الله تبارك وتعالى محباً له، فمهما قل عمله، ومهما قلت نفقته، فإنها كثيرة عند الله ﷻ؛ لأن المطلوب من العبد أن يتعبد الله بما يستطيع، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] و ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وفي عهد النبي ﷺ كان بعض الصحابة يأتي بعذق من الرطب للتصدق به، وربما يكون العذق حشفاً أو قريباً من الحشف؛ لكنه لا يملك إلا ذلك، فإن الله تبارك وتعالى يأجره عليه كمثل الذي يملك ذهباً وتصدق به، فهذا تصدق بما يملك وذاك تصدق بما يملك.

أما المنافقون فإنهم -كما ذكرهم الله- ينفقون وهم كارهون، ومع ذلك يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ويلمزون الذين لا يجدون إلا وسعهم، فيقولون: هذا الذي لم يأت إلا بهذا العذق الرديء، لو لم يأت به لكان خيراً.

كما يقول كثير من الناس اليوم: إن كانت الدعوة هكذا فإننا لا نريدها، وإن كانت الموعظة بهذه الطريقة فلا تتعب نفسك، وإن كان المركز بهذا الشكل؛ فلا تتعبوا أنفسكم، مع أنك قدمت ما في وسعك، لكن غرضهم ليس أنهم يريدون الأفضل، ولكن الغرض هو: الطعن، واللمز، والهمز الذي هو من أعظم صفات المنافقين لأنهم يكرهون الطاعة، ويكرهون من يعمل لطاعة الله تبارك وتعالى.

المحبة بين المؤمن والمشرک والكافر:

إن محبة الله كما أنه يفرق فيها المؤمن عن المنافق -كما ذكرنا- فكذلك يفرق فيها المؤمن والمشرک والكافر، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن

دُونَ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٦٥﴾.

الكل يقول: إنه محب لله، لكن المشركين خلطوا محبة الله بمحبة آلهتهم، ولذلك فالمؤمنون أشدُّ حُبًّا لله من محبة الكافرين لله ولآلهتهم، فإن كانوا -كما يدعون- يحبون الله، فإنهم لا يعيرونه إذ ليس في إمكان أي متاله أن يقول: إنني لا أحب الله، فكل متاله يزعم أنه يحب الله وإن كان مشركًا، فالمشركون الأولون يقولون: نحن نحب الله، والمشركون المعاصرون في هذا الزمن يدعون ذلك أيضًا.

لكن هناك فرق بين المحبة الإيمانية، وبين تلك المحبة التي شابهها وخالطها الشرك فأبطل عمل صاحبها.

ثم إنه من خلال المحبة، والتعظيم، والإجلال، والطاعة، والتشريع وقع الناس في الشرك، كما ذكر ووضح ذلك ابن القيم رحمته الله في «المدارج»، فالذين أشركوا بالله تبارك وتعالى قديمًا لم يشركوا به في ربوبيته، ولم يجعلوا خالقًا آخر غير الله خلقه كخلقه أو خلق معه، أو يجعلون رازقًا يرزقهم من دونه أو معه، أو مدبرًا يدبر الأمر كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُدْبِرِ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١] فهم يقرون لله بهذا، وإنما كان شركهم وعدلهم وتسويتهم في المحبة بين الله وخلقه، والإجلال، والتعظيم، والطاعة، والتشريع لغيره، كما يدل على ذلك القرآن في قول الله تعالى: ﴿أَتَحْكُذِبُونَ أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فلما اتبعوا غيره وأطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال فهم بذلك جعلوهم أربابًا من دون الله.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الشرك في المحبة شرك عظيم، وأصل عبادة كل معبود هي محبته، فالذين عبدوا ودًا وسواعًا ويغوث ويعووق ونسرًا، والذين أحبوا المعبودات والمألوهات من دون الله تبارك وتعالى إنما غلوا في محبتهم تلك فعبدوهم.

فهذه المحبة إن كانت للصالحين فهي غلو، وإن كانت للأحجار وما أشبهها فتعتبر صرفًا لما لا يجوز أن تصرف له تلك المحبة، وصرفٌ لعبادة الواجب فيها أن تكون خالصة لله تبارك وتعالى، ومن صرفها لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك، ووقع في

العدل، ووقعت التسوية، وسيندمون على ذلك يوم القيامة ويقولون: ﴿إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالِكُمْ مُبِينِينَ﴾ (١٧) ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٨) ﴿[الشعراء: ٩٧-٩٨].

وهو العدل الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) ﴿[الأنعام: ١] أي: يساوون به غيره في هذا الأمر.

والعبادات منها ما هو حق خالص لله ومنها ما هو حق للمخلوقين، فأما ما هو حق خالص لله تبارك وتعالى فهي نوع لا يشترك فيها أحد مع الله، ويحرم أن يشرك بالله فيها كما قال ﷺ في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك معي فيه غيري؛ فهو للذي أشرك»^(١) وفي الرواية الأخرى: «تركته وشركه»^(٢) هذا ما كان حقاً لله من العبادات.

وأما ما هو حق للمخلوقين من العبادات فمنها بر الوالدين، والإحسان للجار، والفقراء وما أشبه ذلك، من حقوق المسلم فهذه تدخلها المحبة، وهي من حق المسلم على المسلم، وكما يجب عليك أن تحب المؤمنين فيجب عليك أن تبغض الكافرين.

فإذن: نجد أن المحبة تدخل في كل أنواع العبادات، وسنركز على النوع الخالص والخاص بالله تبارك وتعالى، فهذا النوع كلما كمل العبد فيه كان ذلك أرقى، وكلما اجتهد في تحقيقه كان أكمل وأعظم درجة، ولذلك فإن من أعظم الناس محبة لله تبارك وتعالى هو الذي كمل في المحبة حتى بلغ الدرجة العليا من العبودية لله ﷻ.

أكمل الناس في المحبة:

وأكمل الناس محبة لله ﷻ هم الأنبياء وأفضل الأنبياء في ذلك الخليلان: إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولذلك يقول ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً

(١) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (٢/٧٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

لاتخذت أبا بكر خليلاً،^(١) أي: أن النبي ﷺ لم يتخذ من أمته خليلاً، مع شدة محبته لأبي بكر ولعائشة رضي الله تعالى عنها، من أجل أن تكون خلته لله وحده، فهو خليل الرحمن، كما أن إبراهيم خليله صلوات الله وسلامه عليهما، ولذلك كانت أعمال الخليلين، وحياة الخليلين شاهدة على كمال الخُلة التي حققاها.

فهذا إبراهيم ﷺ عندما ابتلاه الله بأن يترك ابنه وزوجته في صحراء مكة القاحلة، بواد غير ذي زرع، وأمره أن يذهب ويرجع إلى بلاد الشام ولا يترك معهما شيئاً وأن يوكلهما إلى الله، وأيقن بذلك، وذهب وتركهما.

ثم لما ابتلي بأكثر من ذلك؛ بأن يذبح ابنه إسماعيل حقيق ذلك، فأضجعه وتله للجبين، ولولا أن الله تبارك وتعالى فداه بالذبح العظيم لذبح ابنه، لأن قلبه قد تجرد عن كل محبة تخالف محبة الله تبارك وتعالى، وأصبح خليلاً للرحمن، والخليل لا يمكن أن يخالف أمر خليله أبداً، بل ياتمر بأمره ويطيعه في كل شيء وفي كل أمر.

الاتباع هو من كمال المحبة:

ولهذا ربط الله تبارك وتعالى بين المحبة والاتباع كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] فحقيقة المحبة: أن يتبع العبد ما أنزل الله، وأن يتبع رسول الله ﷺ، وأن يتبع ما شرع الله وما أمر به ولا يخرج عن شيء من ذلك أبداً، فإن تمسك بهذا ترقى به في مدارج العبودية، وهو الذي يتحقق به كمال العبودية وبالتالي كمال المحبة.

ولذلك لما كان أعظم وأشق أنواع العبادات هو الجهاد اقترن بالمحبة؛ لأنك إن كنت تحبه فلا بد أن تجاهد في سبيله، وتضحى بالغالي والنفيس من أجله، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٥٣٢).

الْفَسِيقِينَ ﴿٤٤﴾ [التوبة: ٤٤].

فهنا قارن الله بين المحبتين، فإما أن تكون هذه أحب أو تلك وهذا حال أكثر الناس مع الأسف الشديد محبة الأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والمساكن والدنيا والأراضي والشركات والمؤسسات، وكل ما هو من زينة الحياة الدنيا.

فإن كانت هذه أحب إليك من الله ورسوله وجهاد في سبيله، والجهاد: خصه الله من بين سائر العبادات لأنه أشق العبادات، وهو الغاية قال: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فإن حدثم عنها ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٤٤] وهذا وعيد من الله تبارك وتعالى، فإما أن يسلم الله ﷻ الذل على المؤمنين، كما جاء في الحديث «إذا تبايعتم بالعينة، واشتغلتهم بالزرع، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا يرفعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١) وإما أن ينزل علينا عقوباته السماوية، وإما أن يعاقب من فعل ذلك بتسليط بعض خلقه عليه، فهو يعاقب كما يشاء وكيف يشاء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرِّئَةٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فهذه الصفة العظيمة أول ما ذكر ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ فجمع بين المحبة وبين الجهاد في سبيل الله، ولذلك جعل الله هذه المحبة متبادلة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فهذا دليل على أنه اصطفاهم واختارهم من بين خلقه، وإلا فهو تعالى يخلق ما يشاء، فكل هذا الكون بيده، والكل في ملكه وفي سلطانه ﷻ، وكل ما ترى أعيننا من خلائق فهي مسبحة بحمده كما أخبر به الله بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ومع ذلك فقد اختار هؤلاء ليحبهم وليحبوه ﷻ.

فهو الودود، والمؤمنون يودونه، هو يُحِبُّ وَيُحَبُّ - وهو القول الذي لا يجوز الذهاب إلى سواه - وهذا قول أهل السنة والجماعة بخلاف من أنكر ذلك من غلاظ القلوب والأكباد من الجهمية وأمثالهم من المؤولين كالأشعرية الذين ينكرون أن الله

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

يُحِبُّ أَوْ يُحَبُّ.

يحبهم ويحبونه هذا أول الأمر، علاقة مع الله تبارك وتعالى، أما في العلاقة مع الخلق فتتصف أخلاقهم بالذل للمؤمنين والعزة على الكافرين، فهذه هي العلاقة الصحيحة التي هي صفة من يختاره الله جل وعلا، إذا ارتد الناس عن دينه فإنه يختار ويصطفى هؤلاء.

أما المحب للكافرين والكاره للمؤمنين فهذا لا يمكن أن يصطفيه أو يختاره الله، بل هو من الهالكين، وممن يشمله الوعيد الذي في الآية السابقة من سورة التوبة.

ثم يأتي من صفات أحياء الله أنهم يجاهدون في سبيله، لأنه من كمل محبته لله، وكمل ولاؤه للمؤمنين لا بد أن يجرد سيفه لمقاتلة أعداء الله ﷺ الذين يبغضون الله ويبغضهم الله تبارك وتعالى، والذين يبغضون المؤمنين ويبغضهم المؤمنون، ولا يخافون في الله لومة لائم، لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقولون كلمة الحق، ولو خافوا في الله لومة لائم ما قالوا الحق، وهذه سمة واضحة في كل من خاف الخلق في الله؛ أنه لا يقول كلمة الحق أبداً، لأن أهواء الناس تخالف ذلك الحق.

فإن تكلم في الأخطاء والانحرافات والضلالات التي يقع فيها الحكام والسلاطين لم يرض عنه الحكام، وإن تكلم فيما يقع فيه التجار من المحرمات والمعاملات المحرمة وما أشبه ذلك، فهذا لن يرضى عنه التجار، وإن تكلم فيما يقع فيه طلاب العلم غضبوا عليه، وإن تكلم في أي طائفة من الناس ممن خالفوا أمر الله ودينه، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فإن ذلك لا يعجبهم.

ولذلك فالمؤمن من صفاته أنه لا يخاف في الله لومة لائم، فمن كانت هذه صفته فهو من المختارين، وهو البديل لمن يرتد عن دين الله تبارك وتعالى، ولا يقوم بحمل أمانة هذا الدين التي هي أعظم الأمانات وأثقلها إلا من كانت هذه صفته.

ولذلك نعود إلى الأصل وهو اقتران الجهاد بالمحبة: فالمؤمن لا يبالي بمن يلومه ولا نقول: إن حقيقة الملام هي ما يسعى إليه المؤمنون، ولكن كل من عمل بتقوى الله

وأحب الله وأحب رسول الله ﷺ، وأطاع الله واتباه، وأحب المؤمنين وأبغض الكافرين فلا بد أن يتعرض لهذا اللوم.

أما الذين سموا أنفسهم الملامتية من الصوفية وأشباههم ويقولون: نتعرض للوم لكي نهبين أنفسنا، ولكي نرغمها، ويتظاهرون بالمعاصي أمام العامة حتى يهينوهم ويذلوهم، ويقولون: ندفع بذلك الرياء وأمثال ذلك من الأباطيل، فهذا انحراف عن منهج التربية والتزكية الذي شرعه لنا رسول الله ﷺ بأمر من الله، وهذا هو الملام المذموم، فهم مذمومون في أعمالهم وإن لحقهم اللوم فهو في محله.

أما المؤمنون فإنهم بإخلاصهم في دين الله واجتهادهم في طاعة الله، لا بد أن يلاموا، لأنه لم يقدّم أحد بشيء من هذا الدين وعمل من أجله وجاهد عليه إلا تعرض للوم.

والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم قيل عنهم: هذا ساحر، وهذا شاعر، وهذا كاهن، وهذا كذاب، وقالوا عن القرآن: أساطير الأولين اكتتبها وأعانه عليه قوم آخرون، أشياء عظيمة قيلت فيهم، فلا بد أن يقع اللوم، فما على المؤمن إلا أن يستقيم على أمر الله؛ فإن وقع عليه من اللوم - وهو لا يطلبه - فليحمد الله الذي أعانه ووفقه للصبر والثبات لكي يكون ممن اختارهم الله ﷻ.

المحبة لله يتفرع عنها محبة عظمى، وهي محبة رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: كما في الحديث المتفق عليه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١) ومحبة رسول الله ﷺ عمل قلبي عظيم، وقربة عظمى، فهي قرة عيون المؤمنين، فأما من رآه منهم فوالله ما يعدلون برويته ﷺ شيئاً في هذه الدنيا، وإن كانوا ممن لم يروه - كما هو حالنا - فوالله لا يرون أن شيئاً في هذه الدنيا يساوي أن يكونوا قد رأوا رسول الله ﷺ مهما أوتوا من متاعها، وإن أعظم ما يرجوه عند الله في الجنة أن يروا ربهم ﷻ، وأن يروا رسول الله ﷺ ويكونوا رفاقه في الجنة، فهذا غاية ما

(١) أخرجه البخاري (١٤)، ومسلم (٤٤).

يسعى إليه كل مؤمن.

ومن لوازم محبته ﷺ: الاهتداء بهديه والافتداء بسنته، ومحبة ما أحب، وأعظم ما أحب رسول الله ﷺ أنه أحب الله، وأحب الجهاد، وأحب الأمر بالمعروف، وأحب النهي عن المنكر، وأحب الصلاة، وأحب المؤمنين، وأبغض الكفر، والشرك، والنفاق، والكافرين، والمشركين، والمنافقين، والفجار، والكذابين، والظالمين، وهكذا.

فإذا أحب الإنسان ما أحبه الرسول ﷺ، وأبغض ما أبغضه الرسول ﷺ كان الإنسان سائرًا على درب المحبة وطريقها، كما قال ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

جعل الله تعالى حقيقة محبته في اتباع رسول الله ﷺ ثم رتب على ذلك ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فرتب على اتباع رسول الله ﷺ أن يحبهم الله.

فإذن: ليس الغرض أن يدعي أحد محبة الله، كما قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله هذه الآية، فهذه آية المحنة أو آية الامتحان، لأنها امتحان لهم في حقيقة المحبة.

فليس الغرض فقط أن يدعي قوم أنهم يحبون الله، بل الغاية أن الله يحبهم، فلو أن أحدًا ظن أنه يحب الله، ولكن الله لا يحبه فلن ينفعه ذلك أبدًا!

فانظر إلى عباد النصارى الذين حجروا على أنفسهم في الأديرة والصوامع، وحرموا ما أحل الله اعتقادًا وظنًا منهم أنهم يفعلون ذلك قرابة إلى الله، وأن الله يحبهم؛ ولكن لم ينفعهم ذلك، لأن الله لا يحبهم، فلذلك لم ينفعهم أي عمل، فالغرض من هذه العبادات حصول الثمرة وهو أن يحبهم الله، وليس أن يدعواهم محبة الله، فلهذا قال ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فإذا أحبك الله فهذه هي النعمة، وهذا هو الرضوان، وهذه هي البشرى، فأبشر بالجنة وأبشر بالخير، وبمحبة الناس لك في هذه الحياة الدنيا، فإن الله تبارك وتعالى كما ثبت في الحديث: «إذا أحب عبدًا نادى جبريل ﷺ: إني

أحب فلان فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام، وينادي في أهل السماء: إن الله تبارك وتعالى يحب فلاناً فأحبوه، فيحبونه، ثم يوضع له القبول في الأرض؛ فيحبه أهل الأرض»^(١) فهذا الفضل من الله لمن يحبه الله تعالى.

فنحن محتاجون إلى محبة الله لنا، أما دعوانا أننا نحب الله، فيمكن لكل كافر وزنديق وملحد وأي إنسان من بر أو فاجر أن يدعيها، لكن ما حقيقة ذلك وما دلالة؟
المحبة لله ورسوله تكون في الاتباع:

لا بد أن يعلم الإنسان أن المحبة في الحقيقة هي في الاتباع، ولا نقول: إن الاتباع يتجرد عن المحبة بمعناها القلبي، لأن المحبة القلبية هي من الاتباع، فما محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وآله إلا في الاتباع العام، والالتزام بسنته صلى الله عليه وآله أثر لازم وظاهر لهذه المحبة التي هي عمل قلبي، فإن كانت المحبة صادقة فإن هذا يظهر في سلوك جوارح وأعمال المحب.

وذلك بأن يحب العبد كل ما أحبه رسول الله صلى الله عليه وآله ويبغض كل ما أبغضه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتأسى به في كل عمل، وفي كل ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله.

وتقديم محبة رسوله صلى الله عليه وآله على غيره يثمر للعبد ثمرة عظيمة ونعمة كبرى، لا تعادلها كنوز الدنيا جميعاً ولا ملذاتها، ألا وهي حلاوة الإيمان، جاء في الحديث «ثلاث من كن فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان» فالإيمان شيء وحلاوته شيء آخر، فكونك تجد حلاوة الإيمان وتعلم نعيمها، فإنه يهون أمامك كل شيء، وتشعر بأن هذه هي جنة الدنيا، كما قال شيخ الإسلام رحمته الله: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة» فبقدر تنعمك بحلاوة الإيمان في قلبك يكون تنعمك بالجنة بإذن الله.

أما الذين أغلقت قلوبهم وحجبت، وطمست بالكفر والشهوات والشبهات في الدنيا عن ذكر الله ومحبته فهؤلاء هم أهل النار والعياذ بالله، قال صلى الله عليه وآله في حلاوة الإيمان:

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» فلا يقدم عليهما في المحبة أي شيء، وإن حدث تعارض بين مقتضى محبة الله مع مقتضى محبة الأهل أو النفس أو الزوجة أو غير ذلك من الأحباب والأخلاء والأصدقاء، فإنه يجب أن يقدم مقتضى محبة الله تبارك وتعالى على ذلك، قال ﷺ: «وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله» وهذا فرع عن الأول، لأن الناس لا بد لهم من علاقات فيما بينهم، على أن تكون هذه العلاقات بين الخلق مبنية على المحبة في الله، وهذا ما دلت عليه الآية ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فكل الآيات والأحاديث في مدلولاتها وتطبيقاتها في منهج أهل السنة والجماعة ترتبط دائماً وتدل على معنى وحقيقة واحدة.

فمن ذاق طعم الإيمان، وذاق حلاوته، وأحب الله ورسوله، وقدم محبتهم على كل شيء، وأحب المرء أخاه ولم يحبه إلا الله خالصاً لوجهه الكريم، فإنه لا بد أن تثمر عنده: «وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»^(١) فهذه هي الحالة الثالثة، وكما قد جرى لأصحاب الأخدود، وعذب أصحاب رسول الله ﷺ، وكما يفتن المؤمنون في كل زمان ومكان، ولا يرجعون عن دينهم أبداً، لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان.

ولهذا يجعل الله تبارك وتعالى من الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه»^(٢) لأن محبتهم تجردت عن أن تكون لهوى أو لشهوة أو لغرض مما يجتمع عليه الناس، وهذه هي المحبة التي تدوم عند الله تبارك وتعالى.

أما ما عداها: فكل نسب، وكل علاقة، وكل صلة، وكل محبة يوم القيامة ليست لله ﷻ فهي مقطوعة، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

بعضاً على مودتهم في الحياة الدنيا ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فالمتقون أحياء في الدنيا وأحياء في الآخرة.

ولهذا كما في حديث أنس في الصحيح أنه قال: لم يكن عند الصحابة أرجى من قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(١) قالوا: هذا أرجى ما سمعنا، فنحن نحب رسول الله ﷺ ونحب أبا بكر وعمر، ونرجوا أن نكون معهم.

فمعنى كلامهم: إن لم نلحق بهم بأعمالنا فإننا نرجو أن نلحق بهم بمحبتنا لهم.

أثر محبة الله وأثر تحقيق المحبة:

أثر محبة الله وأثر تحقيق المحبة أنها: تثمر لصاحبها علواً ورفعةً في الدرجة، لم يكن ليصل إليها لولا هذه المحبة، إن قصر بك عمل الجوارح من أن تجاهد كجهادهم، أو أن تأمر بالمعروف كأمرهم، أو تتعد كعبادتهم، فيجب أن تحبهم بقلبك، وأن تسأل الله تبارك وتعالى مرافقتهم، وأن تبغض من أبغضهم، وتعادي من عاداهم، وبذلك تصل - بإذن الله تبارك وتعالى - من الخير الكبير، وأن تصل إلى قربهم أو أن تدنو منهم، وهذا شرف عظيم، وفخر كبير، وغاية لو شمر لها العابدون والساعون الدهر كله لكانت مستحقة لذلك.

فحقيقة المحبة إذن هي ما قدمنا من حيث علاقتها بالإيمان، والعبادة حيث إن المحب على الحقيقة لا يقدم أمراً ولا نهياً، على أمر ونهي من يحبه وهو الله تبارك وتعالى، مما يثمر ذلك لديه الاستقامة في السر والعلانية، وفي كل شأن من شؤون الحياة، واتباع سنة رسول الله ﷺ الذي جعل اتباعه امتحاناً لحقيقة المحبة وامثالها.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا ممن يحبهم الله ويحبونه، وممن يقيم هذه الأعمال وهذه الحقائق القلبية الإيمانية في نفسه وأهله ومجتمعه، ويدعو إلى ذلك، إنه سميع مجيب.

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

الأسئلة:

المحبة عند أهل الكلام وأهل التصوف:

السؤال:

اقتصرت في ذكر أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة فهل من إشارة إلى هذه الأعمال عند بعض الفرق وإزالة شبههم التي قد غيرت أفكار كثير من الناس؟

الجواب:

المحبة عند الصوفية أو الزنادقة - وهكذا سماهم السلف لأن كل من ادعى المحبة من غير تعبد واتباع للسنة فهو يسمى ويعدُّ زنديقًا - لها معنى آخر، فهناك منهجين مخالفين لأهل السنة والجماعة هما:

أهل الكلام وأهل التصوف وكلاهما غلط وضل في حقيقة المحبة لله ﷻ، فأما أهل الكلام فهم ينكرون أن الله تعالى يُحِبُّ أو يُحَبُّ، وهذا ضلال عظيم - والعياذ بالله - فهم غلاظ القلوب والأكبَاد، فكيف تتخيل أن يعبدوا الله وهم يعتقدون أنه لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، وهم لا يحبون الله، وهذا من ضلالهم.

أما ضلال الصوفية وهو الأشهر والأظهر، أنهم لم ينكروا المحبة بل صرفوها وصرفوا الأمة معهم عن حقيقتها، فأصبحت المحبة عندهم بالنسبة لله تبارك وتعالى هي أناشيد، فتراهم يأتون بشعر قيس مجنون ليلى.

أو أي شعر في الديار أو في الأوطان أو في الغربة أو في غيرها، وينشدون ويغنون ويقولون: نحن نعني بذلك محبوبنا وهو الله، وليلى ليست هي المقصودة وإنما المقصود هنا هو ذات الله، تعالى الله وتبارك عن ذلك علوًا كبيرًا.

فأصبحت جلساتهم وحضراتهم كلها من ذلك الغناء، ومن هذه الأناشيد، ومن هذا اللهو، واستحلوا تبعًا لذلك الرقص، والدف، وأنواع المزامير، فأصبحت جلساتهم هي جلسة غناء لا أكثر ولا أقل، إلا أنه غناء - كما يزعمون - للدين، وذاك غناء أهل الطرب للطرب، لكن الباعث والمحرك واحد وهو حظ النفس، نسأل الله العفو والعافية.

وَضَلُّوا عَنْ مَحَبَّتِهِ ﷺ، فزعموا أن من محبته أن تتحدث عنه عن مولده، وكيف كان، والعجائب في ذلك ضعيفها أو موضوعها أو صحيحها، ثم لا يذكر جهاده، ودعوته، وما دعا إليه، وإنما كله يتعلق بشخصه وبيدنه ﷺ؛ فبعد أن يتحدثوا عن مولده ويعدون ذلك حبًّا، بل يسمونه أحيانًا عشقًا - والعياذ بالله - ويتكلمون في ذلك ما ثبت عنه أيضًا وما لم يثبت، عن لونه، وشعره، وعينه، وصلوات الله وسلامه عليه، ويقتصرون على هذا الجانب ويخلطون الصحيح بالضعيف والموضوع.

فهذه محبة رسول الله ﷺ عندهم، أما المؤمنون أهل السنة والجماعة فمحبتهم كما ألمحنا آنفًا.

نبذة عن رابعة العدوية:

السؤال:

فضيلة الشيخ: عندما تذكر المحبة عند الصوفية تذكر رابعة العدوية نريد نبذة موجزة عنها وما موقفنا منها؟

الجواب:

عندما تذكر رابعة التي يسميها البعض شهيدة الحب الإلهي، أو شهيدة العشق الإلهي، وكان هذا في القديم حيث كتب وقيل فيها ما قيل، ثم حديثًا عُمِلت الأفلام باسم رابعة العدوية والعياذ بالله.

فالذي أراه في رابعة العدوية أن نقول فيها ما قاله أئمة الجرح والتعديل، حيث إن أبا داود - رَحِمَهُ اللهُ - وهو تلميذ الإمام أحمد في الحديث وفي الجرح والتعديل - يقول عنها: «ورابعة رابعتهم على الزندقة» أي: أن رابعة العدوية كانت من ضلال العباد، الذين ضلوا في عبادتهم وخرجوا عن سنة نبيهم ﷺ، فهي كانت تزعم أن أمرها وشأنها كله محبة، فأسقطت الخوف والرجاء بالكلية، وعلقت نفسها بالمحبة، وامتنعت عما شرع الله تبارك وتعالى للنساء من الزواج وغيره، وتبتلت وترهبت ترهب النصاري، وليس بالتبتل الذي شرعه الله تبارك وتعالى لعباده، فهي كما قال رَحِمَهُ اللهُ، فما ثبت وما

صح وما يصح عندنا هو ما يقوله علماء الجرح والتعديل.

أما ما يفتره الصوفية وأمثالهم فهذا لا شأن لنا به، وإن كان فيما يذكرون عنها طوام، ومكفرات، وأنها عندما تقول: «إنني لا أحب الجنة ولا أخاف النار وإنما أحب الله فقط» وتقول: «إن من أحب الله من أجل الجنة أو النار أو من اجتهد في العبادة لأجل الجنة والنار فهو أجير» كما ينسب إليها، هذه الأبيات الشعرية التي تقول فيها:

أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك

إلى غير ذلك مما ينسب إليها، وهذا فيه انحراف وفيه ضلال ومنه ما هو كفر، كما ينسبون إليها أنها سمعت قارئاً يقرأ ويقول: ﴿وَفَكَهَمَ مِمَّا يَتَخَبَّرُونَ﴾ (٢١) وَلَحِمَ طَيْرِيَمًا يَسْتَهُونَ (٢١) [الواقعة: ٢١-٢٢] فقالت: «يمنوننا باللحم وبالطير كأننا أطفال، وإنما الغرض المحبة».

انظر كيف تعترض حتى على ما جاء في القرآن، أما مسألة نعيم الجنة، فما بهم، والمهم هو المحبة، فهذه محبة عباد الهندوس وأمثالهم الذين يرون أن غاية العبودية هي الاتحاد في برهما، أو الفناء في برهما الذي هو الرب المعبود عندهم تعالى الله عما يصفون.

نوع التعامل مع الكفار:

السؤال:

من محبة الله البغض فيه والحب فيه، وبغض الكفار من محبة الله، فكيف يكون تعاملنا معهم إذا كانوا معنا في العمل، ونحتك بهم يومياً، وكيف يكون التسليم عليهم إذا رأيتهم؟

الجواب:

هذه دائماً نُسأل عنها ولا بد أن نبدأ الأمور من جذورها.

الأمر الأول: أنه لا يجوز أن يُدخَلَ الكفار إلى جزيرة العرب أو أن يقيموا فيها

لقوله ﷺ: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»^(١) فلا يجوز للحكومة، أو للشركات، أو للمؤسسات أن تتعاقد معهم، أو أن تعطيهم إقامة في جزيرة العرب وإذا كان لابد اضطرارًا فلأفراد معدودين وفي وقت محدد وحالة طارئة، أما أن يستقدم الكافر، بل والعياذ بالله أن يشترط في بعض العقود كما في الهند والفلبين وغيرها أن تكون نسبة كذا من المسلمين ونسبة كذا من غير المسلمين، فهذا شرط باطل، والعمل بهذا الشرط مخالفة صريحة لما نهى عنه ﷺ، ومخالفة لأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم من جزيرة العرب والآن يجتمع فيها دينان، وهذا من ما لم ينسخ قط، فإن رسول الله ﷺ قاله وحذر وأوصى به في مرض موته ﷺ، وأنفذ ذلك خلفاؤه الراشدون، وما علمنا في تاريخ المسلمين، ولا في تاريخ الخلفاء الراشدين، ولا الأمويين، ولا العباسيين، ولا من بعدهم أن كفارًا استوطنوا جزيرة العرب وأقاموا فيها إلا مع قدوم الاستعمار الغربي الخبيث، وأول ما ابتدءوا في مناطق معينة في الخليج، وكان الذي يأتي منهم إلى جدة يكون في غاية الخوف، ثم لما فتح الله علينا بهذه النعمة، وامتحننا وابتلانا بهذه الثروة جثنا بهم واستسهلنا ذلك، وأصبح كأنه أمر لا حرج فيه - نسأل الله العفو والعافية - فهذه من الذنوب والكبائر التي قد توجب غضب الله، ونزول عقابه علينا، والناس يستهينون بهذا الذنب، فترى الخادمة، والعامل، والمحاسب، والمدير كفار، وفي كثير من الإدارات يولئ الكفار على المسلمين، وهذا مناقض لما جاء في الآية السابقة: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] فيجب أن تكون الذلة للكافرين من المؤمنين والعزة للمؤمنين، أما أن تكون الأمور بعكس ذلك، وأن يتسلط الكافر على المسلم، فهذا مما لا يرضي الله تبارك وتعالى أبدًا.

أما وقد ابتلينا بهم فما علينا إلا أن نتعامل معهم فيما من شأنه - إن شاء الله - أن يفتح قلوبهم للحق، فإن رأينا أن ذلك يجدي وينفع، فالمعاملة الحسنة مطلوبة من الإنسان، والعدل مطلوب منه حتى مع هؤلاء الذين هم كفار، والذين لا يجوز أن يؤتى

(١) أخرجه مالك (١٥٨٤).

بهم إلى هنا.

لكن المعاملة الحسنة والاجتهاد في إتقان العمل، وغير ذلك من الأمور، التي يمكن أن يفتح الله بها قلوب بعضهم ليهتدوا فهذا أمر حسن.

أما ما شرعه الله من ترك البدء بالسلام عليهم، واضطرارهم إلى أضييق الطريق، وترك أكلهم أو ذبائحهم خاصة إن لم يكونوا من أهل الكتاب، أو كانوا أهل كتاب لكن لم يذبحوها وغيرها من الأمور العملية، فهذه وإن كانت مشروعة في الأصل في أهل الذمة، -وأهل الذمة موضعهم بلاد الشام ومصر وأمثالهما إلا أن هذه الأحكام تسري هنا ما دام أنهم قد جاءوا إلى هنا، وإن كان الذين هنا ليسوا بأهل ذمة ولا ينطبق عليهم ذلك العقد.

الصبر ناتج عن المحبة وتآل لها:

السؤال:

فضيلة الشيخ، ذكرت أن الذي يقوم إلى الصلاة ويحس بثقل في نفسه أنه ليس بمؤمن، ويكون فيه صفة من صفات المنافقين، ونعلم أن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة فهذا الذي يقوم إلى الصلاة ويجدها ثقيلة ألا يكون من الصبر على طاعة الله، ثم إن الله ﷻ يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فهذا القتال طاعة لله وعبادة، ومع ذلك هو كارهاً على نفوس المؤمنين، فكيف تكون المحبة شرطاً في العبادة؟

الجواب:

هذا الأخ اختلط في ذهنه مقدمة العمل ونتيجته، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، كما رواه الإمام أحمد في «المسند» فقال له ﷺ: «أسلم» قال: أجدني كارهاً. قال: «أسلم ولو كنت كارهاً»^(١) حتى لو كنت كارهاً فأرغم نفسك على الحق وقل: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فإذا فعل ذلك فيجب أن يحب الإيمان، وأن يحب

(١) أخرجه أحمد (٣/١٠٩)، وصححه العلامة الألباني في «الصحيح» (١٤٥٤).

الصلاة، فالإنسان إذا كان متعبًا مجهدًا وهو يحبها، فإنه يقوم وهو راضٍ منشراح الصدر، ويصبر على هذا القيام الذي يقومه وهو متعب، فلا تعارض بين هذا وهذا، لأن الباعث والمقدمة للعمل هي المحبة، والصبر ينتج عن محبتك لهذا العمل وأن تصبر عليه وإن كان مؤلمًا لأنك تحبه وتريده بقلبك، فالقتال كره، لكن حبك لهذا العمل يجعلك تصبر عليه، وحبك نابع من أن الله ﷻ شرعه فتكون بذلك قد امتثلت أمر الله.

فليس المقصود أن نجتث ما هو خلقيٌّ جبليٌّ في نفوسنا من كراهية القيام، أو النهوض مع التعب، أو من كراهية الجهاد، أو من كراهية الإنفاق، فمثلًا ليس المقصود ألا ننفق ونحن نحب المال، فنحن نحب المال حبًّا جمًّا - كما ذكر الله ذلك - عن الجميع - لكن المؤمن يصبر على الطاعة بدافع محبة الله تبارك وتعالى، فينفق ويجاهد عن رغبة وليس عن كسل.

حكم حضور دورات تطويرية يتضمنها محرمات:

السؤال:

فضيلة الشيخ: نحن نعمل في مطار جدة وأحيانًا تعطى لنا دورات لتطوير مهارات في العمل، ويتخلل هذه الدورات أفلام فيديو أو غيره وبداخل هذا الفيلم موسيقى وصور نساء، فهل يجوز لنا أن نحضر هذه الدورات التي بداخلها مما لا يحبه الله ورسوله علمًا بأن هذه الدورات مهمة في الترقيات؟

الجواب:

الأمر في مثل هذه الأمور دائر بين المصلحة والمفسدة، والقاعدة فيه ما الراجع: هل المصلحة أم المفسدة؟ فإن كانت المصلحة أرجح بأن نستفيد من علوم هؤلاء الكفار، لكي تترقى لتحل محل واحد منهم، ثم تعلم أنك بعد ذلك تصبح مدربًا وتعلم المسلمين وأن تبعد هذا المنكر وما أشبه ذلك، فيجوز لك أن تحضر وتغض النظر عن الصورة المحرمة، وأيضًا تقفل سمعك عن المسموع المحرم من موسيقى أو كلام لا يليق.

وأما إن كانت المفسدة فيها أرجح وأعظم، فهذا مما يجب على الإنسان أن يتركه، وأن يحتسب ذلك عند الله تبارك وتعالى.

معايشة الروافض:

السؤال:

فضيلة الشيخ: السلام وعليكم ورحمة الله وبركاته، نحن طلبة في الكلية التقنية بجدة ونسكن في السكن الداخلي، ويسكن معنا رافضة وإمامية وهم يصلون معنا في مسجد الكلية، فهل صلاتهم معنا في هذا المسجد جائزة، وهل هم كفار، وجزاكم الله خيراً؟

الجواب:

إذا أظهروا شعائر الدين وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبائحنا فهذا حسن، ونحن نكلهم إلى الله تبارك وتعالى في بواطنهم، وإن لم يظهروا عقائدهم وعملوا هذا العمل، فهذا أمر مطلوب، وهذا الذي نريده منهم.

هذا غاية ما نريده نحن في الدنيا، أما قلوبهم وبواطنهم فهي عند الله، فعلينا بعد ذلك أن نذكر ونصح على سبيل العموم فيما يتعلق بالتحذير من الشرك، وفي التحذير من الطعن والنيل من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - وأمثال ذلك مما نعلم أنه من عقائدهم، فلعل الله أن يصلح قلوبهم، وإلا نكون قد أقمنا الحجة عليهم.

حكم من يدعي التجديد في الدين:

السؤال:

فضيلة الشيخ: هناك من يدعي تجديد الدين، ويريد بذلك تغيير معالم الدين الإسلامي، وله كتابات مثل تجديد الفكر الإسلامي وتجديد الفقه الإسلامي وهكذا يريد طمس معالم الدين، كأمثال الدكتور التراي فإن ثبت هذا فهل نسميه زنديقاً أم لا؟

الجواب:

في الأصل أن من انحرف وضل في هذا الباب، ويحسب أنه يمكن أن يأتي بتجديد

الدين، وتجديد أصوله، لا تجديد العمل به وإحيائه، ولكن من يعتقد ويظن تجديد أصول الدين وحقائقه مما لم يشرعه لنا الله على لسان رسوله ﷺ، فلا شك أنه زنديق، ولا شك أن الزنادقة بهذا المعنى كثير قديمًا وحديثًا.

أما إطلاقه على فلان بعينه فهذا يحتاج إلى تحرُّ وتثبت، ولا بأس أن يطلق على أفكاره أنها أفكار ضالة مضلة، أو أفكار زندقية أو ما أشبه ذلك، لكن إطلاقه على فلان باسمه وعينه يحتاج إلى تثبت، ولا سيما إذا كان ممن ضعفت صلته وعلمه بهذه الشريعة من جهة، وضعف من يقيم الحجة عليه من جهة أخرى.

ومن أكثر ما يسبب الضلال عند هؤلاء العصرانيين - كما يسمون - ويدفعهم إلى الضلال، أنهم لا يجدون من أهل السنة والجماعة من يقيم الحجة الكافية عليهم، فعلمهم محدود وضحل، بل إن علمهم غربي محض، وليس لهم إلا اطلاعات عابرة على الشريعة وكون هذا المذهب منتشر في أوربا وأمريكا فإنهم لا يجدون إلا شبابًا يحبون السنة ولكن لا يفقهون من الأصول ومن قوة الحجة والإقناع والمناظرة ما يقيمون به الحجة عليهم، فيقولون: إن هؤلاء جزئيون أو شكليون أو ظاهريون، أو ما أشبه ذلك من التهم التي يلصقونها بأهل السنة والجماعة المتبعين لمنهج السلف الصالح، ويزيدهم ذلك اقتناعًا بشبهاتهم وبضلالهم، نسأل الله العفو والعافية.

والواجب على علماء الأمة وعلى دعائها محاربة هذا الفكر الهدام والتصدي له، والكتابة عنه فهو خطير ومهم جدًا، سواء سمي تجديدًا أو عصرنةً.

وللأستاذ جمال سلطان كتابات مفيدة في هذا، وهي موجودة ومتوفرة لمن أراد أن يطلع عليها، وليحرص كل منا على الاطلاع عليها.

التنقل في المحبة وعدم الاستقرار:

السؤال:

فضيلة الشيخ: إني أحبك في الله: فأنا شاب في أحد المراكز وأحب الملتزمين كثيرًا، ولا أود فراقهم، ولكنني غبت عن المركز يومًا واحدًا وهو أمس، ولعبت مع شباب ليسوا

ملتزمين وليسوا فاسقين فأحببتهم كثيرًا، وأصبحت أنضايق من المركز ومن طلاب الأسرة، وأصبحت أفكر في ترك المركز لأذهب إلى من أحببتهم، ودخلوا قلبي حبًا في الله، وأصبحت محتارًا جدًّا، فما الحل؟ أفيدونا أفادكم الله وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

من كان حاله كحالك فيخشى عليه الاضطراب؛ فكيف يكونون ليسوا ملتزمين وتحبهم في الله، وفي يوم واحد تحبهم محبة تفوق أو تساوي محبة المركز بما فيه من خير وشباب صالحين وغير ذلك.

فأخشى أن تكون ممن هو سريع في التنقل، وأرجو أن يكون حالك كما قال الشاعر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

فالحبيب الأول هو المركز، والمشاركون فيه، فلا تكثر التنقل -بارك الله فيك- في المحبة، وهذا يدل على أمر أقوله دائمًا وأكرره وهو: أن الشاب بحاجة إلى من يريه، وإلى من يوجهه، وإلى من يقومه، فإنه لا يعلم المصلحة في أي شيء، فبمجرد الاندفاع والرغبة والمحبة تجعله متنقلًا في المحبة، فربما يكون في حلقة تحفيظ قرآن، ويجد شابًا يلعب الكرة فيترك التحفيظ ويذهب للعب معه وربما يكون في مكان نافع خير، فيتركه ويذهب إلى مكان آخر وإن لم يكن ضارًا فهو أقل نفعًا؛ فعليه قبل أن يترك ذلك أن يستشير من يوثق بعلمه، وفهمه، وحسن تربيته، وتزكيتة، ثم يعمل بمشورته.

من ابتلي بحب النظر إلى النساء:

السؤال:

الرجاء الإجابة على ما وقعت فيه، ونصحي بما يبعثني وينجيني من هذه المعصية -عافاكم الله والمسلمين جميعًا- فقد ابتليت بحب النظر إلى النساء، فأصبح هذا مرض في نفسي -ولكنني أحب الله ورسوله- مما أتعبني كثيرًا؛ فكيف الخلاص، وأرجو الدعاء لي وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

نسأل الله أن يهدينا وإياك، ويثبتنا على الحق ويعصمنا من الضلال.

ما دمت أنك تحب الله ورسوله فأبشر بخير، واجعل هذه المحبة وسيلة لك إلى
 ألا تحب إلا الله، وتترك المحبة لما حرمه الله، فكيف تحب ما حرمه الله وقد حرمه!
 ومن بين هذه المحرمات النظر إلى النساء الأجنبية وقد أمر الله المؤمنين بقوله: ﴿قُلْ
 لِّلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ
 ﴿٣٠﴾ [النور: ٣٠] فلا بد من غرض النظر وحفظ الفرج كما أمر الله تبارك وتعالى.

فإن فعلت ذلك فإنك تكون محبًا لله ومحبًا لرسوله ﷺ، وما هذا إلا ذنب من
 الذنوب التي تطرأ على العبد، فعليك بعلاجه بما تعالج به سائر الذنوب، بالتوبة
 والإقلاع عنه، والاستغفار، والعزم على ألا ترجع إليه أبدًا، والاستعانة بالله تبارك
 وتعالى، ثم بمجالس الخير وحلّي الذكّر، وترك المشيرات والمغريات، وأن تعلم أنك
 مهما نظرت فإنما هي سهام توجه إلى قلبك، فهذا شأن النظر.

واعلم أن هذه النظرات ما هي إلا من تزيين الشيطان، حيث إنه يزين لك المرأة
 التي إن كانت النظرة حرامًا، ويجعل قلبك معلقًا، ولكنك لو تزوجتها بالحلال لكانت
 أقل بكثير في عينك عما كنت تراها عليه وهي حرام.

وهذه حالة لا يسع المقام للتفصيل فيها، لكن المقصود أن تزيين الشيطان وأزه
 وإغراءه، هو الذي يدفع الشباب لهذا، ولو أن العبد اعتصم بالله تبارك وتعالى فإن هذا
 الاعتصام سيكون له عوضًا عن ذلك، وسيجد في قلبه حلاوة الإيمان كما ورد ذلك في
 الحديث، وأنصحك بقراءة كتاب «الجواب الكافي».

وكتاب «ذم الهوى» لابن الجوزي، فلعل فيهما ما يردك إن شاء الله.

حكم من ينفر الشباب من المراكز الصيفية:

السؤال:

فضيلة الشيخ: ما هو رأيكم في المراكز الصيفية فإن هناك من ينفر الشباب من هذه
 المراكز، وفي المقابل هناك من يحث الشباب ويرغبهم فيها، فما رأيكم في ذلك؟

الجواب:

كل مركز يختلف عن الآخر، ففي المراكز من المحاسن كما أن في بعضها قبائح، فهي كالمدارس، وكأي أمر من الأمور الأخرى، فهناك المراكز التي يكون فيها الخير والعلم النافع والسنة والحق.

وهذا -والحمد لله- هو الذي لاحظناه وشاهدناه عندما زرنا المركز، ولا أزكي أحدًا على الله، وقد يكون في بعض المراكز انحراف أو أخطاء أو معاصٍ أو ما أشبه ذلك؛ فهذا قد يكون في بعض هذه المراكز، لكن لأننا لم نعلم ولم نر كل المراكز فأقول: إن من العدل ألا يذم أحدنا شيئًا أو يمدح مطلقًا بمجرد الاسم، فمجرد الاسم لا يعطي معنى لأن اسمه مركز، لكن هل هو مركز سنة وحق وطاعة وفائدة، أو مركز بدعة وضلالة وضياع؟ فهذا يكون التفريق.

فما عليك إلا أن تختار الحق والخير والطاعة، وما يفيدك في دينك ودنياك، وإن لحظت على غيرك أو رأيت أو علمت عنه أمرًا فلإنكار المنكر وسائله الكثيرة المعروفة، فأنكر بنفسك أو عن طريق من يؤثر عليهم أو ما أشبه ذلك، أما أن تدم مطلقًا فهذا من الظلم ومن الإجحاف.

انتشار الشحنة بين الدعوة إلى الله:

السؤال:

فضيلة الشيخ: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هناك بعض طلبة العلم، ومن الذين لهم القيادة بين الشباب، ولكن المشكلة أن هؤلاء الشباب -أي: طلبة العلم- بينهم من البغضاء والشحنة ما يشيب له الرأس، فهل من كلمة توجيهية لنا جميعًا، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

هذه هي الحالقة كما أخبر عنها ﷺ: «لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» (١)

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٩)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

وهذا هو التحريش الذي رضي به الشيطان، بعد أن يش أن يعبد في جزيرة العرب وهذه البغضاء تولد قسوة في القلب، وجفوة في التعامل، وربما أورثت صاحبها الخروج عن النهج القويم، بأن يظلم، وأن يفترى، وأن يبغى على من خالفه أو من يرى أنه عدو له.

وهذا من التفرق الذي نهينا عنه، فإن الله ﷻ لم ينف أن يقع بين المؤمنين اختلاف أو اقتتال فقال: ﴿وَلَا تَأْتُوا بِلَايِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَتَتَلَوُا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] الاقتتال قد يقع، والاختلاف لا بد أن يقع لكن يُحل ذلك بالتفاهم، يحل بالصلح، يحل بالتناصح، وبترك الغيبة، أما البغي والظلم والعدوان لمجرد المخالفة، فهي مؤلمة وسيئة وشر بين الأمة، فكيف بها بين الشباب وبين طلاب العلم!

فأقول لنفسي ولإخواني: إنك لن تعامل من عصى الله تبارك وتعالى فيك بخير من أن تطيع الله تعالى فيه، فإن ذمك بما ليس فيك فاصبر، واصفح واعف، وقل فيه ما تعلم أنه خير، ولا تقابل الإساءة بالإساءة، ولا تقابل الدم بالدم، فإن كان ولا بد فلا تزدد ولا تبغ.

وهذه من صفات المؤمنين، ولا سيما الدعوة منهم، فإن الدعوة أرقى من أن ينزلوا إلى مستوى المهاترات، وإلى أن يردوا على كل من رد عليهم، أو يتكلموا فيمن تكلم فيهم، فإن فعلوا ذلك لم يعودوا دعاة، بل سُغِلوا عن الدعوة بهذه الأمور.

فهذه أمور لا شك أنها عظيمة، وأنه: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٢٥].

والذين جعلوا لنفوسهم من الزكاء ومن الرفعة، وكانوا كما وقف عمر رضي الله تعالى عنه لما قال له ذلك الأعرابي: «إنك لا تعدل بين الرعية، ولا تقسم بالسوية، فهمم به فقال له الشاب التقى الحر بن قيس - رضي الله تعالى عنه - يا أمير المؤمنين: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فوقف عمر رضي الله تعالى عنه» فهكذا يكون الصفح والعفو والإحسان حتى إلى من أساء إليك، خاصة إذا كان يعلم شيئاً مما أنزل الله ويعلم شيئاً من حدود الله، فاعلم أنه

سيؤدي به هذا الأمر إلى أن يندم ويتأسف، ويحبك عندما يرى أنه يرد عليك ولا ترد عليه، ويهاجمك ولا تهاجمه، ويتكلم فيك ولا تتكلم فيه، فلا بد أن يرجع إن كان في قلبه إخلاص لله تبارك وتعالى.

وأما من لم يكن كذلك فاعلم أنه لا بد في كل زمان من حثالة تقف في وجوه الدعاة، وتبث الفرقة بين الشباب، من أهل الخير، فهذه الحثالة لا دواء ولا حيلة معها أبداً، كما قال الشاعر:

لِي حِيلَةٌ فَيَمْنُ يَنْمُ مُوْلِيْسٌ فِي الْكِذَابِ حِيْلُهُ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُو لَفَحِيْلَتِي فِيْهِ قَلِيْلُهُ

فالنمام قد تقفل أذنك عنه وتركه، لكن الكذاب الذي يخلق أي شيء، فلا حيلة فيه إلا أن تصبر وتحسب ذلك عند الله، فإذا علمنا أنه لا بد أن يظل هناك فئة شأنها القطع والتشهير والتضليل والتبديع لأهل الحق ولأهل الهدى ومهاجمتهم بالباطل، فلا بد أن نحتمل وأن نغض الطرف عنه، وكأنه لم يكن، فأرجو أن يكون في الشباب الصالحين من الأخلاق الرفيعة السامية العالية ما يجعلهم يترفعون عن البغضاء وعن الشحناء فيما بينهم، أو سماع من يثير هذه الشحناء والبغضاء فيما بين شباب الدعوة والخير والهدى.

نصيحة لأهل اليمن:

السؤال:

نحبك في الله، ونحن من أهل اليمن فأرجو نصيحة لنا في نهضة هذه الصحوة في هذا الوقت وجزاكم الله خيراً؟

الجواب:

جزاكم الله خيراً، فأنا أحبكم في الله، ثم أريد أن أنبه أنه على المسلم ألا يعتبر ولا يعترف بهذه الفواصل التي أنشأها الاستعمار، أو أنشأناها نحن بتأييد من الاستعمار، فهذا يماني وهذا مصري وهذا سعودي وهذا وهذا، فنحن كلنا أمة واحدة في الإيمان،

وفي التقوى، وفي الاتباع لرسول الله ﷺ.

فعندما نقول: أهل اليمن أو أهل مصر أو أهل الشام فإنما أقصد به البقعة الجغرافية كما كان السلف الصالح يقولون: أهل اليمن فيعونون بذلك من كان يسكن جهة اليمن.

أما الحدود الذي وضعها هؤلاء فنحن لا نعرف بها، وجنسية الإنسان عندنا هي عقيدته، فنصنف الناس بحسب عقائدهم لا بحسب بلادهم ومواطنهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

هذه حقيقة أحب أن أوضحها، ثم بعد ذلك يجب علينا جميعاً أن نحب أهل اليمن؛ لأن رسول الله ﷺ أحبهم وأثنى عليهم، ووصفهم بركة القلب ونسبهم إلى الحكمة، وهذا لا شك فيه وهو مشاهد وملموس ومن هنا فهذا الشعب جدير بالعبادة، وخاصة ممن هم من أهل تلك البلاد وجاءوا إلى هذه البلاد؛ أن يهتموا بطلب العلم الشرعي النافع الصحيح، وأن ينشروه في أماكن تجمعهم وفي مساكنهم هنا، وأن ينشروه إذا رجعوا إلى أهلهم، وأن يعثوا إليهم بالكتاب، وبالشرط، وبالموعظة، وبالداعية ليكون التواصل بإذن الله، بين أهل السنة والجماعة هنا وهناك.

نصيحة لشباب مركز الصديق:

السؤال:

يقول: فضيلة الشيخ: شباب مركز الصديق يطلبون منكم توجيه كلمة لهم، وجزاكم الله خيراً؟

الجواب:

الذي أريد أن أقوله وأوجه به إخواني، ونفسي أولاً هو: أن نتقي الله ﷻ فهذه وصية الله إلى الأولين وإلى الآخرين - ولا حرج في أن نكررها - كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

ثم أوصيكم بأن تقدروا أمانة الدعوة وحمل هذا الدين، وأن تجتهدوا في تحقيق

الدعوة إلى الله تبارك وتعالى بإخلاص لله واتباع لسنة رسول الله ﷺ، ومنهج السلف الصالح والبعد عن البدع وعن مضلات الفتن، والأهواء، وأن تتحابوا فيما بينكم، وأن تتآخروا، وأن تتعاونوا، وأن تتشاوروا، وألا يجعل الشيطان هذا الشباب الزاكي الطيب الغض، في هذه الأمواج من شباب الشهوات والشبهات، ألا يجعلهم أحزابًا وفرقًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢] وكل منهم يطعن في هذا، أو يغتابه، أو يتكلم فيه، أو يوقع بينهم ما يريد أن يبيث من الفتن، نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ثم أوصي القائمين على هذه المراكز وأمثالها، بالصبر والتحمل والأناة، ومتابعة هؤلاء الشباب ما أمكن في بيوتهم بعد ذهابهم؛ من أجل أن تكون تربيتهم أشمل وأعمق وأزكى لهذه القلوب الغضة الطرية بإذن الله.

وأوصي الشباب المسلم أن يطيع المرابين والموجهين في طاعة الله تبارك وتعالى، وأن يكونوا من الانضباط ومن النظام بحيث يمثلون ما يوجهونهم به، وأن يعودوا أنفسهم على ذلك، ففي هذا خير لهم وحصول للنفع والفائدة من التربية أكثر وأكثر.

هذا، وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يمنَّ علينا جميعًا بالهدى والاستقامة، وأن يؤتي نفوسنا وقلوبنا تقواها فإنه خير من زكاها، وهو وليها ومولاها، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

- * أن العلاقة بين المحبة والإيمان والعبادة علاقة وثيقة لا تنفصل.
- * العبادة لا تتحقق إلا بأمرين أساسيين هما كمال المحبة مع كمال الذل والخضوع.

* المحبة هي التي فرقت بين المؤمن والمنافق والكافر والمشرک.

* أنه وقع الشرك من بعض الفرق المنحرفة في المحبة وهو شرك عظيم.

* أعظم من حقق المحبة لله ﷺ هم الأنبياء عموماً والخليان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين خصوصاً.

* السمة الواضحة في كل من خاف الخلق أنه لا يقول كلمة الحق لأن أهواء الناس تخالف ذلك الحق.

* أن من ثمار المحبة الاتباع لله ولرسوله ﷺ.

* أن من صفات عباد الرحمن أنهم يحبهم الله ﷻ ويحبون الله ﷻ.

* أن المحبة لله تبارك وتعالى يتفرع عنها محبة عظمى هي محبة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

* * *

محبة الرسول ﷺ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

معنى المحبة في اللغة معروف، وهي في الشرع: أمر زائد على مجرد الميل الطبيعي للمحبوب؛ فمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة المؤمنين، ومحبة ما شرع الله من الدين - هي أمر زائد على مجرد الميل الطبيعي إلى شيء من ذلك؛ إذ لا بد فيها من جانب اختياري تكليفي.

وباصطلاحاتنا المعاصرة أقول: إن المحبة الشرعية ليست مجرد عاطفة متعلقة بالوجدان وحده، وإنما هي متعلقة بالوجدان والعاطفة، والعقل والإرادة، والعمل: عمل القلب، وعمل الجوارح؛ إذ إنها جزء مهم من الإيمان.

والإيمان عند أهل السنة والجماعة - كما هو معلوم للجميع - قول وعمل، أي: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، كما هو مبين في مواضعه.

وعلى هذا فمن ظن أن محبة رسول الله ﷺ هي مجرد الميل الطبيعي والوجداني له ﷺ - فهو غالط غلطاً بيناً؛ لأن هذا الظن هو الذي أوقع طوائف من الأمة في التفريط في اتباعه ﷺ، وترك سنته، ونبذ شريعته، وترك تحكيمه، وترك التأدب معه، وأوقعهم في التقديم بين يدي هديه وحكمه، هذا مع تعلقهم العاطفي بذاته، وتغنيهم بشمائله، وإعجابهم بكماله، وربما بكائهم لتذكرة، ولهجهم بالصلاة والسلام عليه ﷺ.

وكذلك من قال: إن معنى محبة النبي ﷺ هي طاعته، وامثال أمره، والتمسك بسنته، فهو مقصر عن إصابة كبد الحقيقة في هذا؛ إذ إن هذا هو تفسير لها باللازم والمقتضى.

فالطاعة والامثال هو لازم المحبة ومقتضاها لا حقيقتها ومعناها، والتحقيق في

ذلك: أنها أمر زائد على ذلك يجمع ويشمل ما ذكرنا آنفاً، فالمحبة بهذا الاعتبار أمر عظيم من أمور الإيمان.

وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -، يقول: «إذا كان الحب أصل كل عمل من حق أو باطل، وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، فالعملان القلبيان العظيمان إذن هما المحبة والتصديق، المحبة هي أصل جميع الأعمال، والتصديق هو أصل جميع الأقوال الإيمانية».

ويقول رحمه الله في موضع آخر: «أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ، وحب الله هو أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأليه الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع، وهذا هو الإسلام».

وقال: «أصل الإشراك العملي في الله الإشراك في المحبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكما هو معلوم أن تأليه الله - تبارك وتعالى - أو الشهادة بأنه لا إله إلا الله، قيل: إنها مشتقة من الأله أو من الوله، فالأله هو: العبادة، كما في الآية ﴿وَيَذَرِكْ ءَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وأما إن كان من الوله فالمقصود بالوله هو: درجة عليا من درجات المحبة، وهي تعلق القلب بهذا المألوه الذي هو الله ﷻ، المعبود وحده لا شريك له.

ومن هنا وقع شرك المشركين حين أحبوا غير الله، وتعلقت قلوبهم به، ونتج عن ذلك أن دَعَوْهُمْ، واستغاثوا بهم، وعبدوهم من دون الله سبحانه، وصرفوا لهم الحق الخالص لله ﷻ، وهذا المعنى الواسع العميق للمحبة عند أهل السنة والجماعة هو الذي يميز محبتهم عن المحبة العاطفية الهائمة التي يدعيها الصوفية دون أي أساس من الشرع.

وهذه المحبة التي يدعونها هي شحنة عاطفية يمكن أن تفرغ بقصيدة من الشعر أو

حفلة أو ذكر أو حضرة أو بأي نوع من أنواع المتفرغات العاطفية، وينتهي مفعولها، بخلافها عند أهل السنة والجماعة؛ حيث تشمل عمل القلب وعمل الأرواح التي ترتبط بعمل القلب، فيكون المحب في هذه الحالة مطيعاً وذاكراً ومتعلق القلب بالمحجوب.

وأما المحبة الصوفية أو المحبة البدعية الهائمة، فهي تلك المحبة التي عبّر عنها السلف الصالح بأنها زندقة، حيث قالوا: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو المؤمن». وهذا هو القول الصحيح، وقد عبّر عن هذه المحبة الزندقية - تصديقاً لهذا القول القديم المأثور - الشاعر الصوفي المشهور ابن عربي حين قال - قاتله الله -:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعئى لغزلان، وديرًا رهبان
وبيتًا لأوثان، وكعبة طائف	وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدينُ بدينِ الحبِّ أني توجَّهت	رَكَائِبُهُ فَالْحُبُّ ديني وإيماني

فلما أصبحت المحبة بهذا المعنى، وأصبحت محبة الله ومحبة رسول الله ﷺ هي هذا الهيام العاطفي الذي لا يحده ضابط ولا قيد وقعت الأمة أو الطوائف التي اعتنقت هذه المحبة في الغلو العظيم، على ما سوف نوضحه - إن شاء الله - في الفقرة المناسبة له، وخرج بذلك عن حد المحبة الشرعية، وحققتها، وما ذلك إلا لجهلهم لهذه المحبة التي شرعها الله، والتي لا يقبل الله - تبارك وتعالى - إلا هي.

لوازم ومقتضيات محبته ﷺ كثيرة جداً، نرجو الله تعالى أن يوفقنا لنظم أشنات الحديث فيها:

تحقيق الشهادة له ﷺ:

وأعظم ذلك هو تحقيق الشهادة له ﷺ بأنه رسول الله، هذه الشهادة التي هي ركن التوحيد، والشهادة له ﷺ بالرسالة التي تعني طاعته ﷺ في كل ما أمر، وتعني كذلك

اجتناب كل ما نهى عنه وزجر، وتعني تصديقه في كل ما أخبر به، وتعني ألا يعبد الله إلا بما شرع ﷺ؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فلا بد من اتباعه ﷺ، ولا بد من طاعته؛ وهذا الاتباع والطاعة يرث العبد بهما محبة الله، فتورث محبة الله -تبارك وتعالى- بذلك، وهذه هي الغاية العظمى التي يسعى إليها كل المؤمنين، كما قال بعض السلف: «ليست العبرة بأن تُحِب، ولكن العبرة بأن تُحَبَّ».

فمن أحبه الله -تبارك وتعالى-، فقد وفقه لكل خير، وتَحَقَّقَ محبة الله ﷺ للعبد لا يكون إلا بأن يحقق العبد اتباع رسول الله ﷺ، ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وبالطبع اتباع الله، واتباع دين الله وشرعه.

الاقْتِدَاءُ بِهِ ﷺ:

ومن ذلك الاقتداء به ﷺ، والتأسي به، كما قال ﷺ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فلا بد من الاقتداء به والتأسي به في هديه وخلقه ومعاملته وكل أحواله في البيت، والمسجد، وفي الطريق، في السلم، والحرب، وفي كل الأحوال، وهذا الاقتداء هو حقيقة أو هو علامة ولازم تلك المحبة التي يجب أن تكون كما أشرنا.

وقد ورد حديث عن عبد الرحمن بن أبي قراد رضي الله عنه حسنه الشيخ الألباني، بل ذكره في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» في الجزء الذي لم يخرج، قال: إن رسول الله ﷺ تَوَضَّأَ يوماً فجعل الصحابة يَتَمَسَّحُونَ بوضوئه، وذلك تبركاً منهم بوضوئه ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما يحملكم على هذا؟» أي: لِمَ تفعلون ذلك؟ قالوا: حب الله ورسوله: فقال النبي ﷺ: «من سره أن يحب الله ورسوله أو يحبه الله ورسوله

فليصدق حديثه إذا حَدَّثَ، وليؤد أمانته إذا أؤتمن، وليحسن جوار من جاوره»^(١).

ولو تأملنا خلق النبي ﷺ لوجدنا أنه أصدق الناس لهجةً، وأنه أعظم الناس أمانةً، وأنه ﷺ أحسن الناس جواراً، فهذا نوع وجزء من شمائله العظمى ﷺ يجب الاقتداء به فيها، وهذا هو تحقيق محبته ﷺ، ولازمها ومقتضاها.

تحكيمة في كل موضع نزاع:

ومن أعظم لوازم محبته ﷺ تحكيمة في كل موضع نزاع، فلا يقدم قول أحد ولا رأيه ولا اجتهاده ولا نظره، ولا حكمه على قول النبي ﷺ وحكمه، يقول الله -تبارك وتعالى- في هذا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

وهذه الآية -كما ذكر ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في «شرح المنازل»-: «هذه الآية شملت مراتب الدين الثلاث، ففيها المقامات الثلاثة: مقام الإسلام، ومقام الإيمان، ومقام الإحسان، فالتحكيم في مقام الإسلام: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥].

فمن لم يحكم الرسول ﷺ فإنه لا يكون مسلمًا، والإيمان في مقام نفي الحرج: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥] فمن انتفى عنه الحرج فهو مؤمن -أي: حَكَمَ رسول الله ﷺ، وانتفى عنه الحرج بما حكم به النبي ﷺ، فهذا هو المؤمن.

وأعلى من ذلك وأجل هو تحقيق مرتبة الإحسان وهي التسليم المطلق ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥]، فيسلم المؤمن تسليمًا مطلقًا لما حكم به رسول الله ﷺ، ولما أمر ولما أخبر به من خبر، فلا يعرضه لا على عقله ولا على رأيه ولا على مذهبه ولا على قول شيخه، ولا على أي مخلوق أو أي فكر بشري».

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/١١٠)، وحسنه العلامة الألباني في «المشكاة» (٤٩٩٠).

وإنَّ مما يجب أن ننبه عليه في هذا المقام - هـ - ذلك المنكر العظيم الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية أو طوائف كبيرة منها مع دعوى محبة النبي ﷺ ومع إظهار بعض الشكليات التي يظنون بها أنهم قد أدوا حقهم، وأظهروا محبته، وزعموها، وذلك هو: تحكيم القوانين الوضعية في شئون حياتهم، ومعارضة سنة النبي ﷺ، وهدية وحكمه وشريعته بتلك الأحكام.

فهذه جرأة على الله، وجرأة على مقام النبوة، بل هي إهدار وحط من مقام الرسالة؛ لأن معنى الشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ هو أن يشهد العبد أن الله ﷻ قد أرسل هذا الرسول إلينا لنطيعه ونتبع أوامره، ونلتزم بكل ما يأمرنا به، فما هو إلا رسول مبلغ من عند الله ﷻ.

فالذين يرفضون حكم الله ورسوله، ولا يقيمون شرع الله ودينه في أنفسهم، ولا في مجتمعاتهم ولا في شئون السياسة أو الحكم أو الاقتصاد أو الاجتماع أو مناهج التعليم، أو أي ناحية من نواحي الحياة، فلا ينفعهم أنهم يقيمون له الموالد، أو ينشدون له الأناشيد، أو يُحْيُونَ ذكرياتٍ بدعيةً في ليلة الإسراء والمعراج وما أشبهها، ويزعمون بعد ذلك أنهم مؤمنون، وأنهم يعظمون رسول الله ﷺ.

وربما ذهب بهم الشيطان إلى أبعد من هذا فعَادُوا من يُطَبِّق سنة رسول الله ﷺ، ويتمسك بها، ويقتدي بهديه ﷺ، بحجة أنه مبغض للرسول، أو أنه خارج عن هديه، وينبذونه بأشنع التهم والألقاب.

فهذا من أعظم المنكرات الدالة على أن هؤلاء الناس تركوا محبة رسول الله ﷺ، فلا يقيمون له وزنًا، ولا لرسالته ولا لمقام نبوته ولا لمنزلته عند الله ﷻ الذي فضله الله تعالى بها على العالمين أجمعين.

ولا شك أن هذا مخالف لحال المؤمنين من السلف الكرام والصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - الذين حالهم كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١] فلا اعتراض،

ولا منازعة، ولا مدافعة، ولا تردد؛ ولهذا قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

فلا يكون الفلاح إلا لهؤلاء الذين حكموا سنته ﷺ في جميع أعمالهم وحركاتهم، ولم تكن لهم الخيرة فيما يقضي به ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فلا اختيار مع أمره ﷺ، بل التنفيذ والامتثال، هذه هي لوازم محبته، وهذا هو تحقيقها، وقد أمر الله -تبارك وتعالى- تبعاً لذلك بالرد إلى الرسول ﷺ حين قال: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إلى الله هو: الرد إلى كتابه ﷺ، إلى هذا الذكر الحكيم، والرد إلى الرسول ﷺ، هو: الرد إلى سنته، بأن يُسأل في حياته، ويُرجع إليه في الأمور، وبعد مماته يُرجع إلى دينه وسنته، وهديه، فلا يكون لأحدٍ إيماناً إلا بذلك، كما قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

فمن ادَّعى الإيمان والمحبة مع عدم الرد إلى الله ورسوله في مواضع النزاع والاشتباه في أي حال من الأحوال فقد نقض تلك المحبة وهو كاذب في دعواها، ولم يأتِ بلوازمها، ومقتضياتها.

وكما هو معلوم عنه ﷺ في الحديث الثابت: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١). وقد أشار الشراح -رحمهم الله- إلى أن هذه اللفظة: «عليه أمرنا» فيها الجار والمجرور متعلق بمحذوف يقدر بـ(حاكماً أو قاضياً)، من عمل عملاً ليس أمرنا حاكماً عليه أو قاضياً عليه أو خاتماً عليه فهو رد، فمعنى ذلك: أن أعمال العباد يجب أن تكون تحت أمر رسول الله ﷺ، وتحت سنته وهديه وشرعه.

وكذلك في الحديث الآخر يقول ﷺ في الحديث الصحيح: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢). فمهما ادَّعى من مدعي محبته ﷺ وهو راغب عن سنته فليس منه.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

وأما صحابته الكرام الذين أحبوه ذلك الحب العظيم فإنهم ﷺ كانوا متمسكين بستته، حريصين على التأدب معه ﷺ، والافتداء به، والاهتداء بهديه، والتأدب معه ﷺ، وعدم التقديم بين يديه.

عدم التقديم بين يديه وغيض الصوت:

وأيضاً مما يجب لتحقيق هذه المحبة، وهو لازم عظيم من لوازمها: عدم التقديم بين يديه ﷺ، وغيض الصوت عنده يكون في حياته كما هو معلوم بالنسبة لشخصه ولذاته، وبعد مماته يكون بالتأدب مع سنته وغيض الصوت، فلا يرتفع صوت رأي، ولا فكرة، ولا مذهب، ولا قياس فوق سنة رسول الله ﷺ.

وقد كان الصحابة الكرام، يدركون هذا المعنى غاية الإدراك كما ورد في «صحيح مسلم» عن أبي قتادة ﷺ قال: كنا عند عمران بن حصين في رهط منا، وفينا بشير بن كعب، فحدثنا عمران يومئذ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله - قال: أو قال: الحياء كله خير-»^(١).

الحديث المشهور المعروف: «والحياء شعبة من الإيمان»^(٢). والنبي ﷺ قال: «الحياء خير كله - أو الحياء كله خير-». هذا بلفظ عام لم يخص بشيء، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب، أو الحكمة أن منه سكيناً ووقاراً لله، ومنه ضعف. يقول: نجد في بعض الكتب أو في بعض موروثات كتب الأولين أن من الحياء سكيناً ووقاراً ولكن أيضاً، أن منه ضعفاً.

قال أبو قتادة: فغضب عمران حتى احمرت عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه. ثم يقول أبو قتادة: فأعاد عمران الحديث، فأعاد بشير، فغضب عمران.

(١) أخرجه مسلم (٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

ولا شك أن الغضب الثاني أشد من الغضب الأول، فلما رأى أولئك الرهط ثورة عمران، أخذوا يهدثونه قال أبو قتادة: فما زلنا نقول فيه: إنه منا يا أبا نجيد، إنه لا بأس به.

يقولون: يا أبا نجيد، إن بشيرًا هذا منا، إنه ليس من أهل البدع ولا من أهل النفاق ولا من أهل الزيف والضلال، فما حصل منه هو عمل أهل الزيف وأهل الضلال وأهل النفاق الذين إذا قيل لهم: قال رسول الله ﷺ. قالوا: إن الأمر كذا، ولكن فلانًا قال كذا، ولكن العلماء قالوا كذا، ولكن المذهب فيه كذا، ولكن الشيخ الفلاني أفتى بكذا... إلى آخر ذلك.

ولذلك الإمام الشافعي -رحمة الله عليه-، عبّر عن ذلك تعبيرًا عظيمًا حين جاءه رجل يسأله عن أمر من الأمور، فقال: قال رسول الله ﷺ كذا -وتلا عليه حديثًا- فقال له الرجل: فما رأيك أنت؟ فغضب الإمام الشافعي ﷺ غضبًا شديدًا، وقال: أتراني في كنيسة؟! أترى عليّ زنازا؟! أقول لك: قال رسول الله ﷺ، وتقول ما رأيك أنت؟ فكانوا يعلمون ويدركون أنه لا رأي لأحد مع كلام رسول الله ﷺ، ومع هديه، ومع سنته.

الصلاة والسلام عليه ﷺ:

يجب أو ينبغي أن ننبه إلى أمر عظيم من لوازم محبته ﷺ، وهو الصلاة والسلام عليه ﷺ، وهذا الأمر العظيم قد جاء تفصيله في الشرع؛ فهناك مواضع تجب فيها الصلاة والسلام عليه ﷺ بالصيغة أو بالصيغ الشرعية الواردة في الأحاديث الصحيحة، وهناك مواضع تُستحب فيها هذه الصلاة وتؤكد، وهناك أحوال بل نقول: إنها في كل حال، وفي كل وقت الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ هي قرينة وذكر ونافلة وعبادة من أعظم العبادات وأجلّها.

عدم أذيته ﷺ:

مما يجب أن يعلم أن من لوازم محبته ﷺ عدم أذيته، كما تفضل الشيخ عبد الله

في مسألة الاستهزاء؛ بل إن الله سبحانه بيّن أن أذيته هي شأن المنافقين ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

فأي قول فيه نوع من التحقير، أو التقليل للنبي ﷺ، أو الحط من قيمته، أو الأذية له أو لسنته فإنه من عمل المنافقين، وهذا النفاق هو نفاق أكبر - نسأل الله العفو والعافية - وما من قلب ينعد على شيء من بغض النبي ﷺ أو كراهيته ويكون صاحبه مؤمناً قط.

نعم، الناس يتفاوتون في محبة النبي ﷺ تفاوتاً عظيماً، ولكن المؤمن المسلم لا يخلو قلبه أبداً من شيء من محبته ﷺ وإن قل، أما أن يشتمل قلب أحد من البشر بشيء من كراهيته ﷺ فهذا هو الكفر عياداً بالله، ولا يجتمع الإيمان مع بغضه ﷺ أبداً، ومن ذلك عدم إيذائه ﷺ في زوجاته، وعدم إيذائه ﷺ في صحابته الكرام.

فإن من آذاه في زوجاته أو في صحابته فكأنما آذاه في نفسه وفي شخصه ﷺ، الواحد من الناس أو الواحد من البشر من آذاه في زوجته أو في صديقه، أو في حبيبه فلا شك أنه آذاه هو، فكيف بمن آذى رسول الله ﷺ بشيء من ذلك؟! وهذا مما هو معلوم من جميع المسلمين - والله الحمد - وإنما أحببنا أن ننبه فيه لأهميته، ولعله يأتي بعد ذلك ويزيده إيضاحاً بعون الله ﷻ.

الغلو في النبي ﷺ:

إن بسط هذا الموضوع يحتاج إلى مقام أكبر، وما ذلك إلا لكثرة ما وقع من الخبط والضلال في هذا الباب نسأل الله الهداية والعصمة والعافية، والناس في محبة رسول الله ﷺ طرفان ووسط، أما الوسط فهم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة.

وقد تقدّم الحديث عنهم، فهم الذين ساروا على مقتضى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في أمر هذه المحبة، كما ساروا عليه في سالف أمور الدين الاعتقادية والعملية.

ومن ذلك أنهم لم يجاوزوا للنبي ﷺ قدره، ولم ينقصوه - أيضاً - حقه.

فمثلاً: الحديث المتفق عليه حديث عبادة بن الصامت الذي يقول فيه النبي ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق - أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(١).

هذا الحديث يعمل به أهل السنة والجماعة مع فهمهم لمدلوله وحقيقته، فقد نص على الشهادة بأن محمداً عبده ورسوله.

فعبده تقتضي: ألا يُرفع إلى مقام الألوهية، فهو مهما علت منزلته - وهي منزلة عليا بلا شك - وليس أعلى منه أحد من الخلق في المنزلة، مهما بلغ فهو لا يصل إلى مقام الألوهية أبداً فهو عبد، وكماله ﷺ إنما هو بتحقيقه لكمال العبودية لربه ﷻ.

فلم يحقق ذلك أحد من البشر مثلما حققه رسول الله ﷺ فهو العبد الكامل المصطفى المجتبي الذي استحق أن يوصف بذلك في أعلى درجات التكريم، كما قال تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

فهو عبده، وهو رسوله، فكما أنه لا يزداد عن قدره ﷺ، فكذلك لا يعامل كسائر البشر؛ لأنه رسوله ﷺ، وهذه ميزة عظمى، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، فالله تبارك وتعالى فضله بهذا الوحي وبهذه الرسالة.

فكونه رسول الله ﷺ يقتضي كل ما ذكرنا من اللوازم: من الاتباع، والطاعة، وامتثال الأمر، والوقوف عند حدود ما شرع، وألا يعبد الله إلا بما جاء به ﷺ، وألا يُقدم على قوله قول أحد كائناً من كان إلى آخر ما ذكرنا فهذا يقتضيه قوله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

منزلة النبي ﷺ عند الناس:

أهل السنة والجماعة - والله الحمد- يثبتون ذلك فهو عبد الله ورسوله، فهم الذين يتمسكون بهديه في العبادة، وهم الذين يتبعون ما جاء به من الشرع والدين، فلا ينقصونه قدره ﷺ؛ بل هم أعظم الناس له حباً وتقديراً وإجلالاً، كما سمعنا في محبة الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- ومن بعدهم من السلف، وهم أيضاً في نفس الوقت لم يخرجوه عن حده.

فلم يقفوا فيما نهى عنه ﷺ مما وقع فيه غيرهم، وهما الطرفان اللذان أشرنا لهما، وهذان الطرفان هما كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-، عندما تعرض لهذا الموضوع، فذكر: «أن باب محبة الله ومحبة رسوله ﷺ الناس فيه طرفان، فطرف أول وهم أشباه اليهود، أما أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم جحدوها وكذبوا بتحقيقها، وفريق من أهل التبع والتصوف والزهد أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا بها المشركين، فالأولون يشبهون المستكبرين وهؤلاء يشبهون المشركين؛ ولهذا يكون الأول في أشباه اليهود ويكون الثاني في أشباه النصارى». وهذا من جامع وأدق الألفاظ التي تدل على حقيقة هؤلاء القوم.

أما الطائفة الأولى: وهم الذين فيهم شبه اليهود، فهؤلاء قساة القلوب، غلاظ الأكباد، لم تتخلل محبة النبي ﷺ قلوبهم، ولم تخالط شغافها، ولم تنعم وتسرق قلوبهم لمحبتة ﷺ، بل تلك الغلظة والجفوة والقسوة ظاهرة باقية عليهم في تعاملهم معه ﷺ، فلا يكادون يذكرونه إلا قليلاً وإذا ذكروه لا يصلون عليه ولا يسلمون.

وأشد من ذلك وأشدهم في ذلك من تخلى عن سنته، وحارب أتباعه الداعين إلى التمسك بدينه والتحاكم إلى شريعته، وإلى أعداءه الذين يكذبونه ويجحدون رسالته، كمن يوالي اليهود والنصارى والمشركين، ويتبع قوانينهم وآرائهم، ومناهجهم، وأحوالهم، وتقاليدهم.

هؤلاء أبعد الناس عن محبة النبي ﷺ، وهم الطرف الأول الذي كان بهذه الأمة

فيما سبق شيء منهم، أو نموذج لهم، وهم الفلاسفة والمتكلمون وغيرهم، ولكن بلغ هذا الأمر ذروته في هؤلاء المتخلين عن دينه ﷺ، أنهم منسلخون عن شرعه بالكلية، نسأل الله السلامة والعفو والعافية.

والكلام في هؤلاء لا يحتاج إلى إطالة، فحسبهم هذه الأوصاف، حسبهم جفوتهم وغلظتهم، وإهدارهم لمقام نبوته ﷺ.

وأما الطرف الآخر: الذين هم أشباه النصارى وأشباه المشركين؛ فهم في الواقع طرائق شتى، ولهم في الانحراف أيضًا طرق شتى، وعامة المسلمين هم إما منهم أو من أتباعهم نسأل الله أن يردهم إليه ردًا حميدًا؛ فقد وقعوا فيما وقعت فيه النصارى من الغلو في النبي ﷺ.

كما غالى النصارى في عيسى غلوًا ذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال، حتى إنه في بعض الأحيان يكون فيه تنقص لقدر النبي ﷺ، وإهدار لمقامه وهم لا يشعرون، لقد ضلوا في فهم المحبة فجعلوها مسألة عاطفية وجدانية، ولهذا نجد غالبهم يجعلون محبته ﷺ مجرد ذكرى ترتبط بزمن معين أو حال معين، ولا يلقون ولا يسخون سمعًا لأمره ونهيه، فلا عمل القلب يتحقق ولا عمل الجوارح، وإنما هذه العاطفة الهائمة فقط.

أسباب الغلو:

وهذا الغلو في الحقيقة له أسباب كثيرة، نذكر منها ما يلي:

أن بعض أولئك الذين غلوا في رسول الله ﷺ، من مؤسسي الطرق ومدعي الكرامات وغيرهم -إنما أرادوا بذلك التوصل إلى تعظيم أنفسهم، أو مشايخهم وقداوتهم؛ ولهذا قال من قال من السلف: الناس يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون أنفسهم أو يعبدون الخلق لأنفسهم، ويطلبون حظ النفس ومتعة النفس فيما يعملون.

حتى محبة النبي ﷺ يطلبون بها حظ النفس من الشهرة، ومن الكرامات، ومن الخوارق وما أشبه ذلك، ولهذا وضعوا قاعدةً معروفةً عندهم، يقولون: كل ما ثبت

للنبي معجزة فهو ثابت للولي كرامة. فيدعون للنبي ﷺ الكثير من الخوارق والمعجزات، والكرامات، غير ما أعطاه ربه ﷻ من الآيات البيّنات والكرامات، يدعونها ليضيفوها إلى شيوخهم فيما بعد، وليثبتوها له.

فإذا اعترض معترض لماذا تنسبون هذا للشيخ؟ قالوا: هذا قد ثبت للرسول ﷺ، وأكثر الجهال يثبت ذلك ولا يعارض خشية أن يقال: أنت تنتقص مقام النبي ﷺ. وهذه التهمة التي دائماً يتهمون بها أهل الحق - كما سنرى إن شاء الله فيما بعد - فيسلم لهم أن هذا للنبي ﷺ، فيقولون: هو ثابت للأولياء الوراث. يسمونهم: الوراث، وارثوا الحقيقة المحمدية كما يزعمون، هذا سبب ولا نطيل فيه.

السبب الثاني: هو التأثير بالرافضة - قاتلهم الله -؛ فإن الرافضة في غلوهم في حق علي بن أبي طالب، مع الصراع التاريخي المزمّن بينهم وبين أهل السنة انتشر وباء التصوف والغلو في رسول الله ﷺ مقابل غلو أولئك في علي بن أبي طالب.

فالمسألة أصبحت ردود فعل من العامة، وعواطف جيّاشة لا تستند لا عند هؤلاء ولا عند هؤلاء على الدليل العلمي الصحيح والبرهان.

ولهذا آل الأمر إلى أن أسبغوا من أوصاف الألوهية وخصائصها للنبي ﷺ مثل ما تسبغ الروافض على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى آل بيته، والصلة بين التصوف والتشيع حقيقة قائمة يشهد بها التاريخ، ولا سيما تاريخ الفرق، وليس بإمكاننا الآن أن أوضح ذلك أو أن أطيل فيه.

والمقصود أن هؤلاء لما وقعوا في ذلك ناقضوا كتاب الله وصحيح سنته ﷺ.

فمثلاً: قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: ١١٠] هناك كثير من الأدلة على أن الرسول ﷺ بشر، وإن أردتم التمثيل فلنذكر مثلاً: فرقة البريلوية.

يقولون: إننا نحن أهل السنة ومعاشر المسلمين نقرأ الآية بخلاف ما أنزل الله،

فإن القراءة الصحيحة لها أن نقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فهو تأكيد لنفي بشريته، يقولون: الآية تؤكد (إن) تأكيد النفي (ما أنا بشر مثلكم) أي: فهو فوق البشر، وأمثال ذلك مما يحدثنا به كتاب الله سبحانه، ومثلاً قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١) كما تقدم من حديث عمر.

هذا القول وهذا النهي منه ﷺ ضربوا به عرض الحائط، فغلوا فيه ﷺ غلواً عظيماً فاحشاً، وما أكثر ما نسبوا إليه من خصائص الألوهية، فجاروا بذلك وخرجوا من الملة.

مثلاً: ينسبون إلى النبي ﷺ أن بيده مقاليد السموات والأرض، وأن له أن يقطع من أرض الجنة كما يشاء، وقالوا: إنه يعلم الغيب، وإنه يعلم سر الروح وحقيقة الروح، وإنه يعلم متى تقوم الساعة، وأنه يعلم الخمس التي ذكرها الله سبحانه في كتابه وهو مختص ﷺ بعلمها.

يقولون: إن النبي ﷺ مطلع على ذلك وعالم بما فيه، كيف وقد قال قائلهم:

فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

فماذا بعد هذا الغلو من غلو نعوذ بالله من الضلال؟ فهكذا غلوا فيه ﷺ، وهم يزعمون ويظنون أنهم بذلك يحبونه ويعظمونه.

السبب الثالث: ومن ذلك أيضاً من ما خالفوا به هديه ﷺ.

مثلاً: ما ثبت عنه ﷺ في زيارة القبور، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢). وقال في الحديث الصحيح الآخر: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

فخالقوا أمره وناقضوه أعظم المناقضة، وشرعوا شد الرحل لزيارة قبره وفرضوه فرضاً، وقالوا: إنه وإن كان سنةً عند الفقهاء فمن زار مسجده ﷺ؛ فإن زيارة قبره وشد الرحل إلى قبره عند الصوفية فرض، وأفردوا كتباً وافتروا أحاديث كثيرةً على النبي ﷺ وتقولوا عليه ما لم يقل، وما أكثر هذه الأحاديث، وقد ذكرها العلماء، وجمعها المؤلفون منهم في الأحاديث الموضوعية، ولم يكتفوا بهذا بل شرعوا لمن زاره ولغير زائر قبره ﷺ أن يستغيث به، وأن يدعوه، وأن يستجير به، ورتبوا لذلك أموراً، وهذا من أعظم الشرك؛ لأن كفر الجاهليين وشركهم إنما كان لأنهم يدعون غير الله ﷻ، ويستغيثون به ويستجيرون به.

فأوقعوا هذه الأمة المحمدية في نقيض ما دعا إليه رسول التوحيد ﷺ وهو أنه يدعى ويستغاث ويستجار به ﷺ، وجعلوا لذلك أوراذا وصلوات وأحزاباً كثيرةً جداً، مثل جامع الصلوات الذي جمعه النبهاني، فلا تكاد تجد فيه أي صلاة من تلك الصلوات إلا وفيها الشرك الصريح، وفيها الحلول، وفيها الاتحاد، وفيها وحدة الوجود.

كقولهم: إنه ﷺ إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، وأنه مظهر وتجلي لصفات الله سبحانه، وغير ذلك مما وضعوه، وكما وضع البكري - وهو من أقطابهم المتأخرين قبحه الله - ذلك أشعاراً تردد وتشد في الموالد وغيرها، كقصيدة اللامية التي ضاهت البردة في الشريكيات، التي قال فيها:

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل
فلذبه من كل ما تشكي	فهو شفيع دائم يقبل
ولذبه من كل ما ترتجي	فإنه المأمّن والمعقل

وحط أحمال الرجاء عنده
وناداه إن أزمته أنشبت
يا أكرم الخلق على ربه
كم مسني الكرب وكم مرة
فبالذي خصك بين السورئ
عجل بإذهاب الذي اشتكى

فإنه المرجع والموئل
أظفارها واستحكم المعضل
وخير من فيهم به يُسأل
فرجت كرباً بعضه يذهل
برتبته عنها العلات تنزل
فإن توقفت فمن ذا أسأل

نسأل الله السلامة والعافية، أين الله إذا كان «فإن توقفت فمن ذا أسأل»، ورتبوا
أنشودة مثل هذه الأناشيد أو حتى عند زيارة القبر أوراذا معينة يأتي الإنسان إلى القبر ثم
يستقبله ثم يرفع يديه ويدعو ثم يتوب من الذنوب، ثم يقول بعد أن يدعو الأدعية التي
يشرعونها:

يا رسول الله قد ظلمت نفسي ظلماً كبيراً
وأتيت بجهلي وغفلاتي أمراً كبيراً
وقد وفدت عليك زائراً وبك مستنجراً

نسأل الله العفو والعافية، ويزعمون أنهم بهذا يتوبون أصحاب المعاصي من
المعصية وهم يوقعونهم في الشرك الأكبر الذي تهون معه كل المعاصي، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فلو حققوا التوحيد لشملتهم مشيئة الله تعالى بالمغفرة بألا يعذبهم أصلاً، وإما
بأن يعذبهم ثم يخرجهم من الجنة، أما من أتى بهذا الشرك الذي يلقتونه إياهم فإنه خالد
مخلد في النار كما توعد الله به المشركين -نسأل الله العفو والعافية-.

غلو أهل البدع في النبي ﷺ:

وقد بلغ بهم أيضاً الغلو في النبي ﷺ أن زعموا أنه هو أول المخلوقات، وأنه خلق
من نور الله ﷻ، ولهم في ذلك أعاجيب ينقلونها ومن ذلك الطريقة القادرية، معروفة

وهي أشهر وأكبر الطرق، تنتشر في إفريقيا والهند والباكستان والدول العربية انتشارًا عجيبًا.

حتى قيل: إن أتباعها يقاربون (٣٠٠) مليون من المسلمين مع الأسف، فهؤلاء الناس الذين حتى لو حجوا أو اعتمروا أو صلوا لا يرددون إلا أذكار هذه الطريقة، في أثناء الحج أو بعد الصلوات.

وينسبون كتابًا من كتب الطريقة اسمه «سر الأسرار» إلى عبد القادر الجيلاني، معي الآن مقطع منه فيما يتعلق بهذه الفقرة، يقول: «اعلم - وفقك الله - لما يحب ويرضى، لقد خلق الله تعالى روح محمد ﷺ أولًا: من نوره وجماله، كما قال الله ﷻ: «خلقت روح محمد ﷺ من نور وجهي» - وهذا كذب لم يقله الله ﷻ - وكما قال النبي ﷺ: «أول ما خلق الله روعي، وأول ما خلق الله نوري، وأول ما خلق الله القلم، وأول ما خلق الله العقل» - وهذا كله كذب باطل، إلا قوله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم» (١).

يقول: «فالمراد منها - أي: من هذه الأحاديث المختلفة - شيء واحد هو: الحقيقة المحمدية»، والحقيقة المحمدية اصطلاح فلسفي يطلقه الصوفية على أول المخلوقات، وأول الكائنات، وهو في الحقيقة يقابل العقل الكلي الذي تدعيه الفلاسفة والباطنية، ويقولون: إنه أصل جميع الموجودات، وهؤلاء يسمونه الحقيقة المحمدية.

يقول: «المراد من هذه الأحاديث شيء واحد هو: الحقيقة المحمدية، فالروح المحمدية خلاصة الأكوان، وأول الكائنات كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «أنا من الله والمؤمنون مني، وخلق الله الأرواح كلها منها في عالم اللاهوت وفي أحسن التقويم وهو الوطن الأصلي - انظروا كيف تحريف كتاب الله وتفسيره - فلما مضى عليها أربعة آلاف سنة خلق العرش من نور عين محمد ﷺ، وبواقي الكائنات منه -

(١) أخرجه الترمذي (٣٣١٩)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٧).

يعني: من نور النبي ﷺ - ثم ردت الأرواح إلى درك أسفل الكائنات».

أي: الأجساد، لأن الأجساد في نظر الصوفية هي أسفل الكائنات، كما هي النظرية الهندوسية المعروفة في ديانة الهندوس الفناء: الجسد هو أدنى الدرجات، والإنسان يترقى ويفنى في الاتحاد حتى يتحد بالله ﷻ، تعالى الله عما يقولون.

يقول: «كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَصْفَلَّ سَفَلِينَ﴾ [التين: ٥] - هذا من تفسيرات الصوفية - فلما تعلقت الأرواح وأنست في الأجساد نسيت ما اتخذت من عهد الميثاق في يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فلم ترجع إلى الوطن الأصلي».

الآن يعلل لماذا بعث النبي ﷺ؟ يقول: بعث لأن الأرواح تعلقت بالأجساد ونسيت أصلها.

يقول: «فترحم الرحمان المستعان عليهم بإنزال الكتب السماوية تذكرة لهم بذلك الوطن الأصلي كما قال تعالى: ﴿وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٥]، أي: أيام وصاله بما سبق مع الأرواح».

وهذا ليس بصحيح أبداً أيضاً بل هو من تفسيراتهم، ومثل هذا تفسيرات الباطنية. يقول: «حتى أفضت الرسالة إلى الروح الأعظم المحمدي خاتم الرسالة، والهادي من الضلالة، فأرسله إلى هؤلاء الناس الغافلين، ليفتح بصيرتهم، من نوم الغفلة فيدعوهم إلى الله تعالى، ووصله ولقاء جماله الأزلي». نسأل الله العفو العافية.

نحن نقول: إن هذا الكلام المنسوب للجيلاني لا يعقل أن يقوله، ولم يثبت لدينا قوله، ولكن أصحابه ينسبون ذلك إليه، ولو قاله لما كانت له تلك المنزلة التي ذكرها العلماء عنه، مع ما ذكروا عنه من بعض جوانب البدع.

لكن نحن الآن لا نحاسبه كفرد ولكن نحاسب هذه الطائفة التي غلت في رسول الله ﷺ إلى هذا الحد، وجاءت بأمثال هذه الخرافات والتي أصلها ما افتراه

الزرادشتية والمجوس في أنبيائهم كما نقل ذلك الدكتور طلعت غنام وأمثالهم ممن بحثوا في أصول التصوف.

أن الكون خلق لأجل النبي ﷺ:

ومن ذلك أيضًا زعمهم -أي: من غلوهم في النبي ﷺ- أن الكون إنما خُلق لأجله ﷺ، وأن ليلة مولده هي أفضل من ليلة القدر، ويزعمون أن روحه تحضر الموالد والمحافل التي يقولونها، فيزعمون أنه ﷺ حي باستمرار حياة كاملة، وأنه يحضر الموالد، وأنه يخاطب الأولياء، وأنه يكلمهم.

وكم افتروا على الله ﷻ، وعلى الرسول ﷺ من أمثال هذه الأمور، فشرعوا من الدين ما لم يأمر به الله، مثل ما شرع أحمد التيجاني، ومثل المهدي الذي في السودان ممن يفترون على الله الكذب والشاذلي الذي يقول: إن كل طريقة لها شيخ، وأما أنا فشيخي رسول الله ﷺ أخذ عنه في اليقظة مباشرة، وأمثال هذا من الغلو الذي يزعمونه.

ولا شك في بطلان ذلك -والحمد لله- لكل ذي بصيرة؛ ولكن العجب! هو انتشار هذه الطرق، وفتكها لهذه الأمة في غفلة من دعاة الحق، وربما لإقرار أو لتعاون من دعاة الباطل من أصحاب القسم الأول أشباه اليهود الذين يحاربون سنة النبي ﷺ؛ فإنهم يعضون النظر عن أمثال هؤلاء ويؤيدونهم، ويشجعونهم، ويعطونهم أعظم المناصب، ويحضرون احتفالاتهم أيضًا؛ لأنهم يعلمون أنها خارجة عن دين الله فهي لا تضرهم، وقد خرجوا هم عن دين الله ولكن من باب آخر، نسأل الله العفو والعافية.

أن نعل النبي ﷺ على رءوس جميع الكائنات:

والغلو هذا لا يقف عند حد الافتراء والكذب، حتى إن بعضهم افتعلوا للنبي ﷺ أشياء لا تزيد في قدره بل ربما يكون في بعضها منقصه له.

مثلاً: افتعلوا أن نعل النبي ﷺ علت على رءوس جميع الكائنات، وأنها أفضل من جميع المخلوقات، وجعلوا الأمر متعلق بنعل النبي ﷺ، حتى قال قائلهم:

على رأس هذا الكون نعلُ محمد سمت فجميع الخلق تحت ظلاله
لدى الطور موسى نودي اخلع واحمد إلى العرش لم يؤمر بخلع نعاله

ويقولون: إن النبي ﷺ ليلة الإسراء أسري به لربه ولم يخلع نعاله، وأنه قرب من بساط الأنس وخاطبه ربه وكلمه، وأحياناً يقولون: رآه، وهو لم يخلع نعاله فسمت فوق جميع الكائنات، مع أن موسى أمر بخلع النعال في الطور وهو في الأرض، وأمثال هذا الكلام الذي لا دليل عليه.

وفي نفس الوقت لا يزيد إثبات مثل هذا من قيمة النبي ﷺ، كما يقولون: إن النبي ﷺ كان القمل لا يؤذيه والذباب لا يقع عليه، فهذا فوق كونه من الكذب المختلق الذي لا دليل عليه، وهذا مما فيه غض ونقص من حق النبي ﷺ أنه كان فيه قمل لكن لا يؤذيه، أو أن القمل عنده وعند أصحابه لكنه لا يؤذيه.

فما الذي يدعو إلى أمثال هذه الأقوال واختلاق هذا الإفك والله سبحانه قد فضّله بالمقام المحمود في الآخرة، وقد فضله بالشرف العظيم في هذه الدنيا بالرسالة العظيمة الخالدة التي أعلاها وأظهرها الله سبحانه على جميع العالمين، ليس هنالك من داعي على الإطلاق لأمثال هذه الأمور.

الرد على من يدعي أن أهل السنة يكرهون النبي ﷺ:

إن الأمر في هذا يطول، والحديث يتشعب، لكن أحب أن أختتم هذا بأمر مناسب، وهو ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته المشهورة من أن أهل البدع يتهمون أهل السنة والجماعة بأنهم يكرهون النبي ﷺ، أو يتنقصون من قدره، وهذا هو الواقع في كل زمان ومكان، وهذا الافتراء وهذا الإفك قديم، وابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يرد عليهم بأبيات عظيمة، يبين فيها حقيقة التوحيد وحقيقة الخلاف بين الطائفتين، فمعدرة إذا أطلت عليكم قليلاً، وقرأت شيئاً من هذه الأبيات، يقول رَحِمَهُ اللهُ:

قالوا تنقصتم رسول الله وا عجباً لهذا البغي والبهتان
عزلوه أن يحتج قط بقوله في العلم بالله العظيم الشأن
عزلوا كلام الله ثم رسوله عن ذاك عزلاً ليس ذا كتمان

واستمر في بيان كلامهم في الصفات وفي غيرها إلى أن قال:

الرب رب والرسول فعبدته
 فلذلك لم نعبده مثل عبادة الـ
 كلا ولم نغل الغلو كما نهى
 الله حق لا يكون لغيره
 لا تجعلوا الحقين حقًا واحدًا
 حقًا وليس لنا إله ثان
 من ضمن فعل المشرك النصراني
 عنه الرسول مخافة الكفران
 ولعبدته حق هما حقان
 من غير تمييز ولا فرقان

هم خلطوا بين الحقين فجعلوا حق الله للنبي ﷺ وهكذا، يقول:

فالحج للرحمن دون رسوله
 وكذا السجود ونذرنا ويمينا
 وكذا التوكل والإنابة والتقوى
 وكذا العبادة واستعانتنا به
 يعني هذان توحيدان:
 وكذا الصلاة وذبح ذي القربان
 وكذا متاب العبد من عصيان
 وكذا الرجاء وخشية الرحمن
 إياك نعبد ذاك توحيدان

وعليهما قام الوجود بأسره
 وكذلك التسبح والتكبير والتـ
 ثم يقول:

لكنما التعزير والتوقير حق
 والحب والإيمان والتصديق لا
 ق للرسول بمقتضى القرآن
 يختص بل حقان مشتركان

فالحب والإيمان والتصديق مشتركان بين النبي ﷺ وبين الله ﷻ.

هذه تفاصيل الحقوق ثلاثة
 إلى أن يقول:

ونظير هذا قول أعداء المسـ
 يح من النصراني عابدي الصلبان

إننا تنقصنا المسيح بقولنا
 لو قلتمْ ولد إله خالق
 وكذاك أشباه النصارى مُدَّغَلُوا
 صاروا معادين الرسول ودينه
 فانظر إلى تبديلهم توحيد
 وانظر إلى تجريده التوحيد من
 راجع مقالتهم وما قد قاله
 عقل وفطرتك السليمة ثم زن
 فهناك تعلم أي حزيننا هو الـ

أي: تعرف من الذي يتنقص النبي ﷺ أهم أهل السنة أو أولئك، إلى أن يقول

رَحِمَهُ اللهُ:

والله أمركم عجيب معجبٌ
 ضدان فيكم ليس يتفقان
 يقول: فيكم أمران الأول: أنكم أنتم تغلون في النبي ﷺ جمعتم أمرين:
 تقديم آراء الرجال عليه مع
 هذا الغلو فكيف يجتمعان
 كفرتم من جرد التوحيد جهـ
 لآ منكم بحقائق الإيمان
 لكن تجردتم لنصر الشرك والـ
 سبدع المضلة في رضا الشيطان

يقول: والثاني: أنكم أنتم تقدمون آراء الرجال والشيوخ والمذاهب على النبي ﷺ، هذا معروف من حالهم، ومع ذلك يغلون فيه، ويؤلّهونه، بل يؤلّهون حتى بعض آثاره كما سمعنا في الكلام عن الحذاء وأمثال ذلك، فيقول: كيف تجمعون بين هذا وهذا، يقول:

والله لم نقصد سوى التجريد للـ
 وتوحيد ذاك وصية الرحمن
 ورضا رسول الله منا لا غلو
 الشرك أصل عبادة الأوثان

والله لو يرضى الرسول دعاءنا
والله لو يرضى الرسول سجدونا
والله ما يرضيه منا غير إخـ
ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائه
ولقد نهانا أن نُصيِّر قبره
ودعا بالألّا يجعل القبر الذي
إلى آخر ما بين فيه رضى الله عنه ورحمه.

نسأل الله أن يهدينا ويهدي ضال المسلمين إلى معرفة محبته ﷺ، وإلى التمسك
بسته واتباع هديه، إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة من المحاضرة:

* أن من مقتضيات محبته ﷺ وأعظمه تحقيق الشهادة له ﷺ بأنه رسول الله،
وهي ركن التوحيد.

* أنه لا يجوز ويحرم الغلو في النبي ﷺ، فهو عبد الله ورسوله، فعبدته تقتضي ألا
يدفع إلى مقام الألوهية.

* أن المحبة أمر زائد على مجرد الميل الطبيعي للمحبوب.

* أن من لوازم محبته ﷺ الصلاة والسلام عليه.

* أن من أعظم لوازم محبته ﷺ تحكيمه في أول موضع نزاع.

* أن أهل السنة والجماعة يثبتون أنه عبد الله ورسوله، فهم الذين يتمسكون بهديه
في العبادة، ويتبعون ما جاء به من الشهادة والدين، ولا ينقصونه قدرًا، بل هم أعظم
[الناس] له حبًا وتقديرًا وإجلالًا.

* أن من مقتضيات محبته ﷺ الاقتداء به والتأسي به ﷺ.

التضرع إلى الله تعالى

الحمد لله القائل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤]، والقائل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد القائل: «إن الله حبي رحيم كريم يستحي أن يرفع العبد يده إليه ثم لا يضع فيها خيراً»^(١). وصلى الله وسلم وبارك على صحبه الكرام، والتابعين لهم بإحسان، الذين تعرفوا إلى الله -تبارك وتعالى- في الرخاء، فتعرف الله إليهم في الشدة، الذين سئوا لنا كيف نتضرع إلى الله، ولا نغفل عنه، ولا ننسى ذكره في أي وقت وعلى أي حال.

أما بعد:

فما منا أحد اليوم إلا وهو يسمع ويجالس، ويرى ويستشعر في كل حين هذه الأحداث، التي تمر بأمة الإسلام في كل البلاد، وفي هذا البلد خاصة، الذي كان أهله يحسبون أنهم سيظلون في منأى عن الفتن والأحداث، حتى جاءتهم.

مع أن الله ﷻ لا يجامل في سنته ولا يحابي أحداً، فله سنن ثابتة لا تتخلف، وقد ابتلانا قبل ذلك بالنعماء وبالسراء، ثم هاهي قد بدأت طلائع البأساء والضراء - ونسأل الله العفو العافية - وليست المشكلة في أن البلايا تقع، أو أن العذاب يقرب، أو أن الفتن والمحن تموج، فهذا تاريخنا الإسلامي حافل به.

ولكن المصيبة والمشكلة في غفلتنا عن أسباب الوقاية، وفي بعدنا عن الرجوع إلى الله ﷻ، والأخذ بموجب التقوى والإيمان، الذي يدفع الله ﷻ به العذاب، ويكشف عنا به البلاء، والله ﷻ رحيم وكريم وهو الغني الحميد، ومن رحمته بهذه الأمة - وهو الذي أنزل إليها الكتاب رحمة وبعث إليها نبي الرحمة ﷺ - أن بين لها

(١) أخرجه الحاكم (١/٤٩٧)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦٨).

كيف تتقي عذابه؟ وكيف تتجنب سخطه؟ وكيف تأخذ بأسباب النجاة في أمر ديننا ودنيانا؟

النجاة من عقوبة الله تكون بالدعاء والتضرع:

وإن مما شرعه الله ﷻ، وجعله سبباً - بل هو من أعظم الأسباب - لاتقاء عذابه وسخطه، دعاءه والتضرع إليه ﷻ، والتوبة والاستغفار والإنابة، فنحن في هذه الأيام أحوج ما نكون إليها، وإن كنا محتاجين إليها في كل وقت وفي كل حين؛ لكن مع هذه الفتن، ومع هذه الأحداث فنحن أحوج ما نكون إلى الأُنسَى ذلك.

ولا سيما أن الذين أحاط بهم جلهم من طلبية العلم - والله الحمد - وفيهم الدعاء والأئمة والخطباء، وبهم تتأثر الأمة - إن شاء الله - ويتشتر الخير فيها، فيجب أن ننشر هذا الحق وهذا الخير، وأن نحَبَّ لإخواننا ما نحِب لأنفسنا، وأن نجتهد في دفع هذا البلاء عن الأمة ببيان أسباب الوقاية منه - بإذن الله تبارك وتعالى - وهذا من أعظمها كما بيّن الله ﷻ ذلك، بل إن الله - تبارك وتعالى - جعل التضرع غايةً كما ذكرنا في الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا آخِذًا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢].

إذن: فالأخذ بالْبَأْسَاء وهي: الحروب والضراء، وهي تعم الفتن والجذب والقحط وكل ما من شأنه أن يضار الناس - الغاية منها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾؛ أي: كي يضرعوا إلى الله ﷻ، فإن الناس إن لم يعرفوا الله - تبارك وتعالى - في الرخاء فلا بد أن يتعرفوا إليه في الشدة، وإن من أعظم وأكثر الناس قسوةً وأعظمهم غفلةً الذين لا يضرعون إلى الله لا في الرخاء ولا في الشدة؛ ولهذا قال ﷻ في الأنعام: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٤٦] فَلَمَّاسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [٤٤] فَطَمَعُ دَابِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٣-٤٥].

فانظروا إلى إمهال الله ﷻ للأمم السابقة ففي أول الأمر أخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فلما لم يتضرعوا، وقست قلوبهم حلت ووقعت عليهم العقوبة، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، استدراجاً من الله ﷻ لهم.

ومن هنا قال لنبيه وللمؤمنين: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]؛ لأن هذا فتح من الله؛ يفتح الله عليهم أبواب كل شيء؛ ثم في النهاية ﴿إِنَّ أَخَذَهُمْ آيَةٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، فيأخذهم بغتة؛ لأنه قد أذرهم، وقد حلت من قبلهم المثالات، وقد جاءتهم النذر، ولكنهم أعرضوا ونسوا ما ذُكِّروا به، فعند ذلك يقطع دابرهم بأليم عقابه، نسأل الله العفو والعافية.

حال المتضرع وحال المعرض:

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]، فلو أنهم تضرعوا إلى الله لكشف عنهم السوء، ولهذا استثنى الله -تبارك وتعالى- من الأمم قوم يونس، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

فذكر المفسرون من السلف -رحمهم الله- في هذه الآية أن قوم يونس خرجوا إلى الصعدات، وجأروا إلى الله ﷻ، وخرجوا بأطفالهم ونسائهم ودوابهم، وقيل: إنهم ظلوا على هذه الحالة أربعين ليلة وهم يستغيثون ويتضرعون، ويدعون ويكون ويستغفرون؛ فكشف الله -تبارك وتعالى- عنهم العذاب في هذه الحياة الدنيا، وهذا من فضل الله ﷻ ومن سعة رحمته.

أما الذين يصرون ويعاندون ويستكبرون على الله، ولا يتضرعون إليه ولا ينيون - فإنه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا ما بينه في سورة الأنعام وكما بينه أيضًا في آيات الأعراف السابقة، ويقول الله ﷻ فيها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فهناك ذكر أنهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ [الأنعام: ٤٤]، وقال هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ [الأعراف: ٩٦]، وليس أبواب كل شيء؛ ولكن بركات، والبركة في أي أمر حلت فهي خير، أما الذي لا بركة فيه فلا خير فيه، وإن كان كثيرا، ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ [الأعراف: ٩٦].

عقوبة الأمن من مكر الله:

ثم قال ﷺ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿ [٩٧] أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿ [٩٨] [الأعراف: ٩٧، ٩٨] أي: ما المانع وما الموجب وما المقضي للغفلة والإعراض وقسوة القلب وعدم اللجوء إلى الله ﷻ والتضرع إليه، أهو الأمن؟! فكيف يأمنون والله ﷻ قادر؟ والله -تبارك وتعالى- قوي؟! والله تعالى عزيز ذو انتقام؟! كيف يأمنون أن يأتيهم بأس الله بيانا وهم نائمون؟! وكم من أمة جاءها ذلك البأس فأخذهم الله ﷻ مصبحين، كما أخذ الله قوم لوط ﴿الْبَيْتِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبِينَةِ فَأَخَذْنَاهُم بِأَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿ [الحجر: ٨٣]، أو (مُشْرِقِينَ) هكذا أخذ الله ﷻ كثيرا من الأمم، أخذهم بيانا أو مع الإشراق، ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿ [٩٨] [الأعراف: ٩٨].

وقد أخذ الله ﷻ أيضا أمما أخرى وأهلكها، وعذبها وهي ترى العذاب، ومن ذلك ما ذكر الله ﷻ عن قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أُدْيَانِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمَطَّرٌ نَّآءٌ ﴿ [الاحقاف: ٢٤] -نعوذ بالله من القسوة ومن الغفلة- حتى لما رأوا العذاب قالوا: هذا عارض ممطرنا، فما ظنوه إلا استمرارا لهم في الخير واستمرارا للعطاء والنعمة، وما ظنوه إلا سيستمروا، وهم لا يحسبونه استدراجا، ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ [٢٥] تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴿ [الاحقاف: ٢٥]، فكانوا بعد ذلك ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ تَخَلِّ مُنْفَعِرٍ ﴿ [القمر: ٢٥].

وهكذا كل أمة يجب عليها ألا تأمن من مكر الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿أَوْلَا لَيْسَ لِّلَّذِينَ يَرْتُوبُونَ أَلْحَاقٌ مِّنْ بَعْدِ آهْلِهِمْ أَن لَّوْنَسَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ

لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٣﴾ [الأعراف: ١٣]، لا يصح ولا يجوز لأي أحد أن ينسى، أو يغفل، أو يكف عن التضرع إلى الله والتوبة إليه، والأخذ بالأسباب الواقية من عذابه، والمؤدية إلى النجاة من انتقام الله ﷻ، فهكذا يجب على الناس أممًا وأفرادًا.

أما من كان حاله غير ذلك، فإنما مثله مثل الذي قال: ﴿وَقَالَ لَأَوْتِيكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مریم: ٧٧]، فرد الله عليه: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مریم: ٧٨].

الم نقل في هذه الأيام بصريح الحال أو المقال: إننا في رخاء مستمر، وإن الأمان مستمر، وإن الأموال متنامية، وكل شيء في نمو ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مریم: ٧٨] هل اطلعنا على الغيب فوثقنا أن حالنا سيبطل كذلك؟! لا والله لم نطلع عليه، ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥] وكذلك هل أعطانا الله -تبارك وتعالى- عهدًا وميثاقًا أن يعذب الأمم ويبتليها ولا يبتلينا؟ لا والله، ومن أين لنا ذلك؟! فقد رأينا عبر الله ﷻ، ورأينا أيام الله التي فعلها بالأمم التي قبلنا، ورأينا ما حدث في أوروبا في الحرب العالمية الثانية، وسمع الناس بذلك.

أقول: الأمة في مجموعها علمت بذلك، ثم رأى الناس ما حل بأهل لبنان مع ما كانوا فيه من الرخاء والنعمة، لكن لما طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد صب الله عليهم سوط عذاب، وجعل الفتنة فيما بينهم، وكان الهرج -القتل- حتى أن القاتل لا يدري فيما قتل ولا المقتول فيما قتل، ولا يخفى ذلك على أحد.

ورأينا ما فعل الله ﷻ بإيران بعد أن كان عرش الطاوس تخاف منه العروش، وتهتز له الملوك، وكان يريد أن يكون ثالث قوة في العالم، أسقطه الله وأذهبه، وجاءت الحروب، وجاءت الفتن، حتى أصبحوا في أسفل سافلين في كل جانب من جوانب الحياة، وكذلك أمم ودول أخرى من حولنا.

ثم جاءتنا مصيبة تستوجب أن نرفع أكف الضراعة إلى الله في كل حين أن يرفع هذه المصائب عن الإسلام والمسلمين، وأن يجعل عاقبتها خيرًا، ولن تدفع هذه

المصائب، ولا ما هو أعظم منها - إذ لا ندري ما يخفي لنا القدر - إلا بضراعةٍ إلى الله، وبإخلاصٍ لله وتوبةٍ وأوبةٍ ورجوعٍ إلى الله ﷻ؛ فإن الله ﷻ يريد منا قلوبًا مؤمنةً ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ بِنَاةِ النَّفْسِ النَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وكما قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم»^(١). فيريد الله منا قلوبًا مؤمنةً خاشعةً مخبئةً منيئةً، وإن كانت العبادة قليلةً، لكن هذه الأمور في ذاتها أعظم عبادة.

وأساس كل عبادة أن يكون هذا القلب متصلًا بالله، وأن يرى آثار الأمم السابقة فيعتبر بها، وأن يرى آثار نعم الله ﷻ فيحمد الله ويشكره عليها، ويدعو الله أن يديمها عليه.

وقد ضرب سبحانه تعالى لنا الأمثلة الكثيرة، وعامة القرآن في قصصه إنما هو من أجل ذلك، كما ذكر الله ﷻ: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٤﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٥﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٦﴾ فَكَايِنَ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيْهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مُعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٧﴾ أَلَمْ تَرَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُوْنُ لَهُمْ قُلُوْبٌ يَعْقِلُوْنَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُوْنَ بِهَا فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوْبُ الَّتِي فِي الصُّدُوْرِ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٤، ٤٦]، فنعوذ بالله من عمى القلوب، ومن قسوتها.

ففي مثل هذه المواضع ذكر الله - سبحانه تعالى - قسوة القلب كما في سورة الأنعام، وعمى القلب كما في سورة الحج، فالقلوب إذا قست، وإذا عميت، لم تعتبر بما ترى، وأما المؤمنون فإنهم يعتبرون ويتعظون، فإذا اعتبروا واتعظوا كان التضرع، والدعاء، والاعتبار، والاتعاظ خيرًا لهم، حتى إن تلك المصيبة مهما عظمت تكون خيرًا، ويفرح المؤمنون بما نزل في قلوبهم من إيمان، ويعلمون أن تلك المصيبة كانت خيرًا؛ إذ ردتهم إلى الله، وأرجعتهم إلى الإيمان به، وذكَّرتهم بأيامه، فتنقلب المصيبة

(١) تقدم تخريجه.

والضراء والبأساء إلى نعماء وخير وبركة؛ لأنهم تابوا إلى الله ﷻ، وتضرعوا إليه.

والدعاء والتضرع سبب عظيم من أسباب الخير، في كل أمر وفي كل وقت، كما يجب علينا أن نعلم أننا لا نستغني عن الله ﷻ والنبي ﷺ كان من دعائه: «يا حيُّ يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» (١). ولهذا قال المفسرون والعلماء: «إن خير الدعاء وخير الضراعة والتضرع، هو ما ذكره الله ﷻ في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾» [الفاتحة: ٦-٧].

وقالوا: «إن الصحيح في تفسيرها أنه ليس مجرد مزيد الهداية، أو الاستمرار في الهداية، بل الحكمة من تكرارها في كل ركعة أن الإنسان يحتاج بعد أن هداه الله ﷻ هدايةً عامةً ومجملةً، وهي: معرفة الحق والإيمان به، والتمسك بالدين والإيمان بالرسول ﷺ، يحتاج مع ذلك إلى الإيمان التفصيلي، والمعرفة التفصيلية، فهو في كل يوم وفي كل لحظة تعرض له مشاكل وأمور وأحداث يحتاج أن يهديه الله -تبارك وتعالى- فيها الصراط المستقيم».

فهو أعظم دعاءً، وناسب أن يكون في كل ركعة، وفي أعظم سورة، وأفضل سورة أنزلها الله ﷻ؛ ولذلك نحن في كل يوم، وفي كل وقت، وفي كل طرفة عين، نحتاج أن ندعو الله، وأن نتضرع إلى الله ﷻ، ونعلم أنه كما قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، فنحن الذين نحتاج إلى أن نتضرع إليه، وأن ندعوه؛ لأن الله ﷻ قد تعبدنا بذلك، كما في الحديث -الذي هو حسن بشواهد- يقول النبي ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه» (٢)، وقد نظم هذا بعض الشعراء فقال:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٦)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

فإنه يغضب ﷺ إن تركنا سؤاله، ويُحِبُّ أن نتضرع إليه وندعوه ونرجوه ونطلبه. قد ذكر الله ﷻ لنا أمثلة ممن دعوه فاستجاب لهم كما بين الله لنا ﷻ في قصص أنبيائه:

أعظم أنواع الدعاء ما قاله يونس عليه السلام:

في قصة يونس عليه السلام لما دعى الله تعالى بدعاء عظيم، وهو في ظلمات البحر وفي بطن الحوت، دعا الله ونادى في الظلمات؛ ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرَضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وهذا من أعظم أنواع الدعاء؛ لاشتماله أولاً: على توحيد الله (لا إله إلا أنت) وهو أعظم وسيلة إلى الله تعالى، وأعظم طاعة وأعظم وقربة.

ثم ثنى بالتنزيه (سبحانك) تنزيه الله عما لا يليق به عليه السلام، فكل ما يفعل، وكل ما يقدر فله فيه الحكمة البالغة، فهو منزه عما لا يليق بجلاله وكماله عليه السلام وعظيم شأنه.

ثم ثلث ببيان عجزه وضعفه وفقره وظلمه لنفسه، وهكذا كل عبد بالنسبة إلى الله عليه السلام ينبغي له أن يكون كذلك، ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

دعاء أيوب عليه السلام:

وكذلك في دعاء أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فما أطف هذا الدعاء، وما أرقه، وما أخشعه إلى الله عليه السلام، مع أن الجمل قليلة! ولكن القلوب إذا دعت الله عليه السلام عن صدق، وإخلاص، وإن قلت العبارات، فإن الله عليه السلام يستجيب لأولئك: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ، مِنْ ضُرِّهِ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٤] وهكذا غيرهم.

وقد بين الله عليه السلام أنه يغيث الكفار إذا تضرعوا إليه؛ ولهذا يقول ابن القيم رحمته الله كما في كتاب الفوائد: «التوحيد مفزع أوليائه، ومفزع أعدائه» أي: التوحيد يلجأ إليه أولياؤه،

ويفزعون إليه، وكذلك يلجأ إليه أعداء الله، فهو حصن منيع ومعتصم النجاة.

رحمة الله بالكفار:

كما أن الذين يوحدون الله ويدعونه، يتوسلون إليه بالتوحيد لينجيهم، فكذلك المشركون إذا ركبوا في الفلك، وجاءهم الموج من كل مكان، وأحاطت بهم الشدائد دعوا الله مخلصين له الدين؛ ولهذا يقول ﷻ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] هل أحد غيره؟ هل إله غير الله يفعل ذلك؟ لا والله.

التوبة إلى الله من الذنوب:

وإنه لجدير بكل مؤمن - مع هذه الأحداث والفتن والمحن والبلايا -، أن يراجع نفسه مع كتاب الله، وأن ينظر فيما ابتلى الله - تبارك وتعالى - به الأمم من قبل، والشعوب من حولنا، وأن نعلم جميعاً أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا مفرج من الله ﷻ إلا إليه، فلنكن صادقين في قولنا: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولنكن صادقين في توكلنا على الله ﷻ، ولنكن صادقين في اعتصامنا بالله ﷻ، ولنكن صادقين في دعوى أننا نسير على عقيدة السلف، وعلى منهج السلف الصالح، وأنا متمسكون بعقيدة الحق وشريعة الحق، ولنصدق الله بصدقنا الله ﷻ، ولنتب إلى الله، ولنجعل ما جاء أو استشرف أو استجد من الفتن سبباً لأن نكف عما حرم الله، وأن نتوب عمّا أجرمنا، وعمّا أسلفنا دولاً وأفراداً وجماعات، فهذا واجبنا جميعاً أن نعلم أن هذه المصائب والفتن والمحن نذير من الله تعالى، فإن تبنا واستغفرنا وأصلحنا، دفعه الله - تبارك وتعالى - عنا بما يشاء.

وإن اعتمدنا على الأسباب المادية، وركنا إلى خلق من خلق الله مثلنا، بل ربما كانوا أقل منا - فلربما سلط علينا من غير أهل ملتنا، وهم غير أهل لأن ينصرهم الله ﷻ، ولكنه يتبلي البعض بالبعض، ويولي بعض الظالمين بعضاً بذنوبهم جميعاً، فيقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

فنقول: إذا اعتمدنا على هؤلاء الكفار، واعتمدنا على نصرتهم ومعونتهم، ولم

نوثق الصلة بالله ﷻ، ونتوكل عليه وحده، ونعتمد عليه وحده - فإن العاقبة ستكون وخيمةً، ونكون كمن أراد أن يفر من عقوبة الذنب، فوقع في ذنب أكبر وأعظم - نسأل الله العفو والعافية- فالأمة قد تحتاج، وقد تضطر إلى أي سبب من الأسباب، والأخذ بالأسباب واجب، وهو من الدين، وهو من التوكل ولا ينافيه، لكن فرق بين أن نأخذ بالأسباب، ونحن على إيمان و يقين وإخلاص لله ﷻ، وعلى توبة صادقة مع الله، وبين أن نركن إلى الأسباب، ونغفل عن الله ﷻ ونعلق آمالنا بهذه الأسباب، نسأل الله العفو والعافية.

وإن هذه الأحداث ليس فيها جديد بالنسبة إلى سنن الله ﷻ، فكلها تجري وفق سنن دائمة، كما ذكر الله ﷻ، ولكننا نغفل، ولا ننظر إلى مرادها، ولا نتأمل كتاب الله، ثم ننظر إلى واقعنا، فلا ندري أيكون الابتلاء بهذا أو بذاك، لمن نراه صديقاً أو نحسبه عدوًّا، فيجب أن نتوقع الابتلاء والعذاب والمصيبة ما دمتنا في هذه الذنوب والمعاصي التي لا أرى حاجةً لأن أعددها وأذكرها، فهي ملء السمع والبصر، ولا تخفى على أحد منا؛ فذنوبنا هي السبب، فما وقع بلاء إلا بذنب، ولا رُفِع إلا بتوبة، كما أن أسباب النجاة بين أيدينا، وأن رحمة الله -تبارك وتعالى- بالمؤمنين -ولله الحمد- غير غائبة عنا، ولكن علينا أن نأخذ بهذه الأسباب، وصلّى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

معنى التضرع إلى الله وأسبابه:

السؤال:

ما هي أسباب التضرع إلى الله؟

الجواب:

ذكرنا أن الإنسان في كل وقت محتاج إلى أن يدعو الله، وأن يتضرع إليه، ولعلنا لو رجعنا إلى المعنى اللغوي للتضرع لأفادنا في معرفة المعنى الشرعي، فالتضرع: كلمة اشتقت من الضرع، والضرع معروف لذوات الخف من الحيوان، كالإبل والبقر التي

يكون فيها ضرع.

والتضرع أن يأتي صغير هذه الحيوان فيرتضع ويلتقم هذا الثدي، فتراه عند ارتضاعه يلح ويرتفع ويحاول بكل قوته أن يجذب هذا اللبن الذي لا يمكن أن يعيش إلا به، نعمة من الله وفضلًا، ففي هذه الصورة البيانية مثل هذا الضرع، من جهة أن أصل خروج المولود هو من هذه الأم، كما أن أصل نموه - بإذن الله تعالى - ناشئ عن هذه الأم، ثم هو لهذا لا يمكن أن يستغني عنها، فلو قطع عنه اللبن لما أمكن أن يعيش أبدًا بهذا الشكل.

وكذلك أيضًا أصل الإنسان وجوده، هو من رحمة الله وفضله، ثم هو لذلك يحتاج أن يرفع يديه وأن يتضرع إلى الله ﷻ ويلح في الدعاء، ويجتهد بحرص على ما يقيم حياته ويدفع عنه الشر والسوء، كما يجتهد ويلح ويحرص ذلك الحيوان عندما يرتضع من الثدي أو الضرع، ففي كل وقت وفي كل لحظة، نحن لا نستغني عن الله؛ ولهذا كان النبي ﷺ يدعو بقوله: «ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين»^(١).

فانظر إلى هؤلاء الكفار الذين وكلهم الله إلى أنفسهم - قديمًا وحديثًا - واستدرجهم بالنعيم، فظنوا أنهم أقوى ما يكونون، فعندها يخذلهم الله ﷻ، فيفقدون قواهم، ويكونون أحوج ما يكونون إليه، فيسقطون وإذا بهم لا شيء، وتذهب كل قوة إلا من عصمه الله ﷻ وحفظه بقوته، فأسباب التضرع كامنة في كل حركة من حركاتك، فأنت في كل يوم تحتاج إلى أن يرفع الله عنك البلاء، وأن يرزقك وأن يعطيك الصحة والعافية، وأن يوفقك لطاعته، فعليك أن تتمسك بدينه، وألا تستغني عنه لحظة؛ ولذا فأسباب التضرع والدعاء قائمة.

الصدقة من أسباب رفع البلاء:

السؤال:

نلاحظ في هذه الأيام قلة التصدق على الفقراء، ولم تعد هناك أموال تذهب إلى

(١) تقدم تخريجه.

المسلمين في إفريقيا وأفغانستان وغيرها، فهلًا ذكّرتم الناس بالتصدق؟

الجواب:

إن من أعظم ما يدفع الله تعالى به العذاب الصدقة، كما قال النبي ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»^(١). وهي من أفضل الأعمال، فإنها تطفى الخطايا، ويدفع الله تعالى بها البلايا، ولا شك أننا في بلد أنعم الله علينا فيه بنعم عظيمة، ولو تذكرنا حال الأمم والشعوب الأخرى لعجبنا، فنحن هنا لا نتضرع، وقليل من الناس من يتضرع إلى الله كل يوم أن يطعمه الله أو يسقيه، فنحن لا نسأل الله ذلك؛ لأن الطعام والشراب والأكل متوفر عندنا، وقد يوهمنا الشيطان أننا لا نحتاج إلى الله -تعالى الله عن ذلك- فلوفرته فهو مثل الهواء مع أنه حتى الهواء نحتاج أن ندعو الله أن يحفظه لنا، وفي كل شيء نحتاج أن ندعو الله.

ولنضرب لكم مثلاً مما نعيشه، فنحن لا يهمنا مسألة الطعام والشراب، وإنما أكثر الناس همومهم في العمارات وفي غيرها، وفي أرزاقهم ووظائفهم وفي زيادة مالٍ في كذا وكذا، وأكثر من نصف الشعوب في العالم -كما في تقارير الأمم المتحدة- تعاني من سوء التغذية، فهي تحتاج أن تأكل أكلاً سليماً، وتحتاج أن تشرب ولكنها لا تجد! فانظروا كيف هذا الحال الذي نعيش فيه، وكيف تعيش تلك الشعوب والأمم، الواحد منا لو سافر إلى تلك البلاد ومعه الأموال -والحمد لله- قد لا يجد أكلاً نظيفاً يأكله، وقد لا يجد ما يريد من الفاكهة وإن وجد فقد يجد نوعاً رديئاً في حالة يرثى لها، بينما هنا الفاكهة تداس وترمى، وتورد بملايين الأطنان، فنحن نعيش في بحبوحة ورخاء وسراء، ثم نغفل عن الله ﷻ وانتقامه وسريع غضبه، ولا نفطن لأحوال إخواننا المسلمين الذين يحتاجون إلى ذلك.

فأقول: يجب مضاعفة النقود في التصدق لمنفعتها، بل لمنافعها العظمى التي منها أن يدفع الله -تبارك وتعالى- عنا العذاب ويرفعه.

(١) أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١١٦).

دور الشباب المسلم في الأزمات وكيف ينصرف:

السؤال:

ما هو دور الشباب المسلم في هذه الأحداث، وماذا يفعل؟

الجواب:

أولاً: يجب أن نعلم ما هو أصل الداء، إن كل داء يصيبنا فهو بسبب ذنوبنا وتقصيرنا في حق الله، فيجب أن نعلم ذلك، وأن نرشد الأمة إليه، وأن نعرف حقيقة أعدائنا على الواقع، ولا نكتفي بإخبارنا عنهم من مجرد كلام عام في وسائل الإعلام وغيرها، بل نعرف معرفة تفصيلية بحسب الإمكان ماذا يريدون؟ ولماذا جاءوا؟

فحقيقة الأمر أننا لو كنا ندرس ونقرأ ما ينشر لكنا قد أخذنا الحيلة والحذر، ولكننا نعلم أن ما وقع سيّقع، أو قريباً منه، ولعلنا في درس قادم نأتي ببعض البراهين أو البيّنات على ذلك - إن شاء الله - فيجب أن يكون عندنا قراءة واطلاع واسع على الواقع بحقيقته، وواقع هذه الأحزاب الكافرة، وواقع الدول المجرمة - أيضاً - في الشرق والغرب، وماذا تريد لنا؟ وماذا يفعل الكفار؛ وماذا يخططون لتحقيقه في بلادنا؟ لنكون على بصيرة من ذلك وأن نبين الحق للناس، ولا تأخذنا في الله لومة لائم، بل نقول ونوضح ذلك للكل.

ومشكلة المسلمين اليوم أن الخطيب يوم الجمعة إذا خطب، أو الواعظ إذا وعظ، أو المحاضر إذا حاضر، أو المذكر إذا ذكر، وتكلم عن الذنوب والمعاصي، أن كل إنسان يظن أن غيره هو المعني بهذا الخطاب، وهذه مشكلة فإذا قيل: المجرمون الظالمون المفسدون المقصرون في طاعة الله، فأكثر الناس يتصور أن المقصود غيره، والحقيقة أن المفروض أن كل إنسان منا عندما يقرأ كتاب الله أو يسمع الواعظ أو المذكر، أن يقول: إني أنا المخاطب بهذا، وأول ما يتأمل ويتفحص ذنوبه وعيوبه، وأن يعرض نفسه وأعماله على كتاب الله وعلى سنة رسوله ﷺ، فلو بدأ كل إنسان بذلك ثم ثنى بمن يستطيع من إخوانه وأقربائه لوجدنا الخير ينتشر بإذن الله، أما أن نجعل

المستولية كما يجعله بعض الناس، على أناس معينين، فناس يقولون: على الحكام، وناس يقولون: على العلماء، وناس يقولون: على هؤلاء المجرمين، ففعلًا إن المجرمين في هذه البلاد كثير، ولكن لماذا لا تنظر لنفسك؟! فلربما كنت أنت -أيضًا- فيك تقصير، ولربما يكون بالنسبة إلى ما تعلمه أنت عن الله، وما تعرفه من دين الله وما ترتكبه من ذنوب هو مثل ما يرتكبونه هم، لأنهم بعيدون عن الله، ولا يعلمون عن الله، ولا يعلمون من أمر الله مثل ما تعلم، فلماذا لا يكون ذلك؟ أقول: فهذا مما يجب أن نحاسب أنفسنا عليه، وأن نقول كلمة الحق، وأن نبين ذلك للناس، أعني أن على كل واحد منا أن يجعل الأمر متعلق بنفسه، فإذا أصلحنا أنفسنا؛ فإن الله ﷻ سيدفع عنا هذا البلاء بإذنه ﷻ.

فالواجب كبير وهذه الأحداث هي التي تربي الشباب المسلم الحق، وهي التي تظهر الرجال؛ لأنه لا يقف لمثل هذه المواقف، ويقول كلمة الحق، ويعرف كيف يقولها، وأين يقولها، إلا الرجل الحق فالحمد لله أن الشباب المسلم كثير، وأرجو أن يكونوا -إن شاء الله- جميعًا رجالًا صادقين مع الله ﷻ، وأن يعرفوا الحق، ويعرفوا كيف يبلغونه للناس، ويقولونه ولا يخشون في الله لومة لائم.

التوجه الديني عند النصارى في الأزمات:

السؤال:

يقول الأخ: الرجاء التعليق على ما يلي: جاء في التلفزيون الأمريكي في الأسبوع الأول من الأزمة أن بوش ذهب إلى الكنيسة للدعاء في هذه الأزمة، وورد توجيه من كبار رهبان وقسيسي الكنيسة إلى عامة الناس أن يتجهوا ويدعوا في الكنيسة، وهذا الأخ يقول: إنه شاهد بعينه ذلك، ويقول: وكذلك رأيت هنا في الأخبار أن تتشر كانت في الكنيسة ثم عمل لها لقاء صحفي وقالت بشدة: إن صدام ديكتاتور يجب أن نتخلص منه؟

الجواب:

لا غرابة في ذلك، فكما ذكرنا أن الله ﷻ لا يستغني أحد عنه، وكل من يريد أن

يحقق أملاً أو مارباً فإنه من الطبيعي أن يلجأ ويتضرع إلى الله ﷻ حتى أيام الحرب العالمية الثانية، كان يُضطر الإنجليز وحلفاؤهم من الأمريكان عندما خافوا من هتلر خوفاً شديداً إلى أن يقيموا القداسات - كما يسمونها - على ظهر البوارج - السفن - مع أنهم أصلاً لا يتعبدون ولا يدعون إلا في الكنائس.

وأما نحن فبفضل الله تعالى علينا خصَّ به نبينا محمد ﷺ بقوله ﷻ: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(١). أما هم فلا يصلون إلا في كنائسهم، ومع ذلك قالوا: نصلي على ظهور البوارج والبواخر، ونتضرع، وندعو الله، حتى يكشف عنا عذاب هتلر، ففي هذه الأزمة - أيضاً - وقع منهم ذلك ولا يُستغرب، بل الغريب الذي يجب منا أن نستغربه حقاً أننا نحن لم نتب، ولم نتضرع إلى الله ﷻ.

فهم غاية ما عندهم من الدين - كما يزعمون - أن المسيح ﷺ قال: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله». فهم يرون أن ما لله هذا هو الدعاء أو العبادة أو الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد، والباقي لقيصر، فيظنون أن هذا هو الدين.

أما نحن فنعلم أننا عبيد لله في كل وقت، وفي كل مكان، ولن نتصر إلا بعبوديتنا لله، ولن نوفق إلا بعبوديتنا لله، ولن نستديم النعم إلا بالعبودية لله، والمساجد مفتوحة في آناء الليل والنهار، ومع ذلك انظروا كم من الناس - حتى لا ننفي نفيًا عامًا - من لجثوا إلى المساجد وبدءوا يصلون صلاة الجماعة بعد هذه الأحداث، بعد أن لم يكونوا يصلون من قبل؟! كم من متبرجة كانت تتبرج في الأسواق، فلما جاءت الفتنة تركت التبرج وتابت وبدأت تصلي وتتحجب؟! كم من أكل للربا كان يأكله، فلما جاءت هذه الفتنة تاب وأقلع عن أكله؟! كم... ما أظن أن ذلك كثير والله أعلم، بل إن وُجد فهو قليل، ولو كان كثيراً لدفع الله عنا العذاب، لكن هذه الأمة - إن شاء الله - آخذة في طريق النجاة.

أما الواقع فهو كما ترون: الغفلة هي الغفلة، والتقصير هو التقصير، والمعاصي

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥).

هي المعاصي، فهذا الغريب فينا نحن، أما هم فلا يذهبون إلى الكنيسة ولا يدعون الله إلا في مثل هذه الحالة، والله تعالى ذكر أن الكفار يدعون في حال الشدة.

من لوازم التضرع الابتعاد عن المعاصي:

السؤال:

هل ينفعنا التضرع الآن ولا تزال المنكرات بيننا لم تتغير؟

الجواب:

هذا من ذلك، نريد أن نغير المنكر لا أن ندعو الله ونُصِرَ على المنكر، لكن التضرع إلى الله ﷻ يستلزم الإقلاع عما نحن فيه من المنكر، ولا شك أن من يدعو الله صادقاً بقلب خالص، وابتعد ويتجنب معاصي الله ﷻ، ولا يقرب منها أن الله يستجيب له؛ لأن التضرع إلى الله لا يقصد به مجرد الدعاء فقط، بل يقصد به -أيضاً- الإقلاع عن الذنوب وترك المعاصي.

يجب أن نصلي الصلوات الخمس جماعةً حيث يُنادى بهن، وأن نتلافى التقصير، ونقبل على قراءة كتاب الله ﷻ، وأن ننكر المنكرات، بل يجب أن نحیی شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيننا، في مجتمعاتنا وفي أسواقنا وفي مجالسنا وفي كل مكان.

من التضرع القنوت في الصلاة:

السؤال:

هل يكون التضرع أيضاً في القنوت في الصلوات كما قنت النبي ﷺ؟

الجواب:

نعم، القنوت من التضرع، ولا بأس به -إن شاء الله- فإذا لم يُفعل جماعةً فنستطيع أن نفعله فرادى، والدعاء فرادى وفي جوف الليل والإنسان خال بربه ﷻ من أرجى أنواع الدعاء، وكل منا يدرك ذلك -والله الحمد- فافعلوه، وهل يضيرنا في شيء؟! بل هو والله خير لنا في الدنيا والآخرة، فهذا الدعاء خير لنا في معادنا وفي مآلنا بل

نحتاجه، ونؤجر عليه، ونثاب عليه، كما في حديث رسول الله ﷺ، بأن نُعطى ما دعونا أو نعطى من الخير مثله أو يُصرف عنا من الشر مثله، فالدعاء كله خير، وكله بركة، فإذا دعونا الله فلنستحي بطبيعة الحال أن نعصيه، بل يجب أن نجدنا حيث أمرنا، وألا نجدنا حيث نهانا، والله المستعان.

إنكار المنكر يكون بالبحث عن جذوره لاستئصاله ولا يمنع من الإنكار الفردي:

السؤال:

يواجه كثير من الدعاة حرج شديد عند رؤية المنكر التي تكون المرأة طرفاً فيه، كأن يرى امرأة متبرجة وهناك من يسير خلفها من أهل السوء إلى آخر المشاهد السيئة، فكيف يكون إنكار هذه المنكرات بالطريقة الصحيحة؟

الجواب:

مع أننا نقول بضرورة المبادرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه من أعظم أسباب الوقاية من العذاب، فإن ذلك لا يعني أن نتسرع في أي منكر فننكر بأي إنكار وبأي وسيلة، لكن كل شيء لابد أن نأخذ له أسبابه وطريقه الصحيح، ونعالجه بالحكمة، فالحكمة: هي وضع الشيء في موضعه، ومن ذلك أن نفكر في أسباب صادقة وجادة وبعيدة المدى في إنكار هذه المنكرات، فليس بالضرورة أن تستثار أعصاب الشاب أو حمية الغيرة لهذه المرأة بالذات، لكن يمكن أن نفكر كيف نقضي على هذا المنكر من مصابه ومنابعه.

فأمامنا منكر عظيم جداً يجب أن نتنبه له، ألا وهو: التبرج والتعري الذي في أسواقنا مع قلة عدد الكفار الموجودين بالنسبة إلى مجموع السكان الآن، وسيكثر لمجيء هؤلاء مما قد يسهل لهم المجيء إلى بلادنا أكثر، فأقول: ستفتح أبواباً للمنكرات أكثر، فلتكن نظرنا أبعد من مجرد أن ننكر على هذه المرأة في السوق، وإنما نفكر كيف يمكن أن نغير هذا المنكر من أساسه، ولا سيما الإخوة الدعاة الذين لديهم الفكر وبُعد النظر، ولا يقصد بذلك أننا لا ننكر على أي امرأة بمفردها، فلنجتهد في

ذلك، وعلى أية حال لابد أن أتوقع الأذى؛ ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ولابد من الصبر؛ لأن الصبر مقرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا بد أن نُؤذَى، فليس من الشرط أننا لا نخطئ فقد نخطئ، وقد نُؤذَى ونحن لم نخطئ، فلا بد من أن نُؤذَى في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولتتحمل ذلك، وإذا قمنا به ونحن كثير -والحمد لله- فإن هذا سيدفع الشر -إن شاء الله- وسيقلل من المنكر، ولو لم يكن فيه إلا الإعذار إلى الله لكان ذلك أمرًا عظيمًا وخيرًا كثيرًا.

آثار أحداث الخليج على الصحوة:

السؤال:

ما أثر هذه الأحداث في الخليج على مسيرة الصحوة الإسلامية؟ وهل هناك من إيجابيات تأخذها من هذه الأحداث؟

الجواب:

أعداء الإسلام لا شك أنهم يريدون أن يقضوا على هذه الصحوة، وأن يذلواها ويستفردوا بها عن الأمة؛ ولذلك فلتتوقع ضعفًا ولو مؤقتًا لمسيرة الشباب للإرباك الحاصل بين الشباب، والخلاف والحيرة الدائرة بينهم في التعامل مع هذه الأحداث، فكل ذلك مما يعيق مسيرة الصحوة، وقد يكون الأمر أكبر من ذلك أيضًا، وقد يؤذَى بعض الدعاة عمومًا على مستوى الأمة، نسأل الله لنا ولهم العفو العافية.

وأما الإيجابيات، فأنا أرى أنها أكبر وأعظم من السلبيات، بشرط أن يعرف الدعاة موقعهم في الأمة، وأن يتقوا الله، ويقوموا بالواجب الذي أمرهم الله ﷻ به، وألا يتخلوا عن واجبهم ومسئوليتهم، وعن ما يجب عليهم ويكلوه إلى غيرهم، فإذا أحسننا التعامل مع الأحداث والاستفادة منها فأنا آمل خيرًا كثيرًا فيها؛ لأنه ما من حدث وقع في الأمة الإسلامية من قديم، إلا وكان فيه خير لها والحمد لله.

وإليكم على ذلك مثالًا: لَمَّا جاء التار كان فيه خير، فشَئخ الإسلام ابن تيمية،

ومن كان معه من أهل الخير والعلماء وأهل السنة جميعاً، لم تظهر قيمتهم وفضلهم والتفاف الناس حولهم، إلا لما جاءت فتنة التتار، وجاهدوا في الله حق جهاده، فقد كان لهم خير وفضل، ولكن أقول: إن ذلك مما أظهرهم الله تعالى به.

ومثال آخر: نور الدين وصلاح الدين -رحمهم الله- وأمثالهم، ما ظهروا في هذه الأمة إلا لما اشتدت الأزمات، فظهر أولئك الرجال الذين توكلوا على الله، وجاهدوا في سبيل الله، ونصرهم الله، ونحن نتوقع أنه كلما اشتد الظلام فالفجر قريب، والآن نحن على الأقل في بداية الظلام الحالك، ولا يعلم مصيره إلا الله ﷻ، لكن نقول: إنه بإذنه تعالى سوف ينبثق من هذه الأمة شبابٌ يؤمن بالله، ويجاهد في سبيل الله، ويُعيد الحق إلى نصابه، ويكون لهم النصر على الكفار، مهما تألبوا وتكالبوا بإذنه ﷻ، وهذا لا شك لدينا، وهو مصداق ما أخبر به النبي ﷺ، وما وعد الله تعالى به الطائفة المنصورة.

اهتمام الناس بأحداث الخليج لا يمنع من الاهتمام بكل الأحداث، بل هو المطلوب:
السؤال:

نلاحظ أن هم الناس ينصب على قضية العراق والكويت، ونسوا قضية أفغانستان وفلسطين بعد ما كانت همهم الأكبر؟

الجواب:

نحن المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فلا ينبغي أن تشغلنا قضية عن قضية، وإن كان بعضها أهم من بعض بلاريب، ولكن لضعفنا وتفرقنا وقتلتنا، والقللة لا نعني بها الغناء، فالغناء كثير، لكن قللة من لديه البصيرة، كان هذا سبباً من أسباب أن الأمة تشتغل قتلها بقضية عن قضية؛ ولذلك أصبحت كالكرة يتراماها الأعداء، وكلما انصرفوا إلى قضية شغلهم بقضية أخرى، فلا شك أن ما نراه في الكويت أمر كبير، وخاصة لأنه قريب منا، وأن تعطل الدعوة في الكويت، وتعطل منابع للخير فيها يؤثر على الدعوة في عامة العالم الإسلامي، ولا شك في ذلك، وهي جديرة أن يهتم بها، لكن لا يعني ذلك أن ننسى

القضايا الأخرى.

وانظروا إلى أعداء الله ﷺ هؤلاء الذين لا تلهيهم قضية عن قضية؛ لأن لديهم التخصصات والاستشارات والدراسات الوافية عن كل مشكلة، وكل موضوع، وانظروا إلى الحرب النفسية التي يجعلونها نعيش فيها، فرييس الدولة في إجازة ونائبه في إجازة ووزير الدفاع في إجازة.

شيء عجيب جدًا! لماذا مع هذه الأحداث؟ وخاصة أن عندهم في الداخل مشاكل، وعندهم في أماكن كثيرة أمور لم تحسم ولم تحل ومع ذلك فإنهم بهذا الحال؛ لأنهم حقيقة أخذوا بسنة الله في التخطيط والدراسة والشورى؛ ولذلك لا تأتيهم الأمور صدفة، ولا تأتيهم قضية تشغلهم عن القضايا الأخرى.

الجوانب الاقتصادية لها حسابها، والجوانب العسكرية لها حسابها، والجوانب السياسية لها حسابها، والمواطنون في إرتيريا لا ينسون ولا يغفل عنهم من أجل المواطنين في العراق، ووحدة ألمانيا والوحدة الأوروبية، ومشاكل كثيرة تُدرس وكلها على مستوى واحد، وتعالجها من الاهتمام، وإن كانت لا ينالهم من الإعلام لأنه يستأثر بآخر القضايا، لكننا مع الأسف إذا جاءتنا قضية شغلنا عن الأخرى.

وخير مثال -والأمثلة توضح ذلك- ما ذكره مالك بن نبي رحمته الله عندما ذكر أن حال هذه الأمة مثل مصارعة الثيران، فالأمة فيها قوة ومقاومة، فالغرب جعلها كالثور الذي يصارع تلك القطعة الحمراء من القماش، فيتلاعب به كما يشاء، وينهك جهده ويذهب قوته دون أن يثمر شيئاً، فيطعنه في الأخير ويخر صريعاً ويموت، وهكذا يفعلون، يرون أننا نستنكر وأن مشاعرنا تثور وعواطفنا تستنفذ فيجعلون أمامنا قضية تستهلك كل قوانا، وإذا جاء أحد يذكرنا بغيرها لا يُنظر إليه مطلقاً مع أنه لا ينسينا إياها.

تذكرون أيام الجهاد الأفغاني كان بعض الإخوة، وبعض الدعاة يقولون: لا تنظروا فقط إلى أفغانستان فالقضايا كبيرة والأخطار محدقة والمصائب من كل جهة، اهتموا ببناء قاعدة للإسلام في هذا البلد، وهو الأساس وهذا هو المنطلق، وما كان

يُسمع إليه، وربما يتهم بأن هذا تشبیط أو تخذيل، فلما وقعت الواقعة هنا وإذا به يقال: كل الذي هناك يأتون إلى هنا، ونسى أولئك، فلا هذا ولا هذا.

يجب أن تكون مواقفنا دائماً متزنة ومحسوبة ومدروسة، والحمد لله، فالمال وفير، فنستطيع أن نعطي هنا وهناك، والإعانات والإغاثة كذلك، والطاقات -والحمد لله- لو وجهت ونظمت ورتبت فهي كثيرة، وأقول بهذه المناسبة: جزيرة العرب كانت معروفة بقلّة سكانها وقلة مواردها سابقاً، أما الآن فعلى العكس فالموارد بها من أغنى بلاد العالم.

لكن من ناحية العديدة والطاقات الذهنية، هي هي في جميع القرون، هي التي أخرجت الصحابة الذين فتحوا فارس والروم، وهي التي قاومت الصليبيين، فما هناك نقص في العدد، بل هناك زيادة في المال، والعدد هو هو، فلو وُجّهت الطاقات والجهود في هذه الأمة في داخل الجزيرة، بل لا نقول في جزيرة العرب كلها، بل فقط المملكة، وأصبحت مُسخرة لوجه الله في الإعلام والجيش وفي كل القطاعات من الرجال المؤمنين، توبة صادقة إلى الله ﷻ، واستقامة صادقة على أمر الله ﷻ والكف عن كل ما حرم الله، وتوعية مستديمة وشاملة في العقيدة الصحيحة، وفي الإيمان الصحيح، وعن أعداء الله ﷻ، لغيرنا والله العالم كله، وهزمتنا العالم كله بإذن الله ﷻ، فليست هي قضية عجز؛ لأن فينا من الطاقات -ولله الحمد والفضل والمنة- معدن الخير ولا ينضب في جميع العصور، ولا نعدم الخير في هذه البلاد.

أما الغفلة التي أكثر الناس غارقون فيها فهي العائق أمام استغلال هذه الطاقات الهائلة لهذه الأمة، ومع ذلك توجّهت بعض طاقات من شباب هذه الأمة إلى بعض المجالات، فتفوقت على أهل تلك البلاد في عدة مجالات، في الاكتشاف والبحث العلمي، وكذلك لما توجهت إلى بعض المجالات الجهادية فعلت ما لم تفعله أي بلاد أخرى، ولما توجهت إلى مجالات علمية أنتجت ما لم تنتج أي بلاد أخرى، فهذه من رحمة الله ونعمته وفضله على هذه البلاد، ولكن نحن نتغافل عن هذه النعمة بالركون

إلى الشهوات وملذات الدنيا، مما أورث لدينا الوهن «حب الدنيا وكرهية الموت»^(١)،
كما أخبر النبي ﷺ.

السؤال:

في جريدة «الشرق الأوسط» في عدد يوم السبت الماضي ذكر موضوع وخبر صغير ما معناه أنه قام كثير من الفنانين في مصر بالقاهرة بعمل فيلم يتكلم عن الأزمة وعن السبب التي قامت من أجله هذه الأزمة وهو التطرف.

الجواب:

سبحان الله! بدلاً من التضرع، أو من الكلام على التضرع، كان الكلام عن التطرف! لكي يزيدونا خسارةً ووبالاً، ولا شك أن الأعداء يستغلون مثل هذه الأشياء، ويقولون: من أسباب المشاكل هو: التطرف، ومن عجيب ما بلغني أنه لما طُلب من بعض المستشارين أو بعض الناس، أن يكتب عن كثرة انتشار جرائم قطع الطريق، جعل من ضمن الأسباب التطرف الديني، فسبحان الله! فهم أعداء هذا الدين، وأعداء للدعوة، ويريدون أن ينتهزوا أي فرصة لإدخال هذا الشيء الذي يرون أن الناس يستكرونه ويستفزعونه بحيث إنهم يضعون هذا العدو اللدود من ضمنه أو من أحد أسبابه.

وليس بغريب على الفنانين الذين هم سبب المصائب، وسبب كل بلاء، بما أشاعوه في الأمة من الفحشاء واللهو والغفلة عن الله ﷻ في التلفزيون وفي الصحافة والمجلات، واستأثروا بحديث المجالس كما قال بعض الشعراء من الوزراء، يقول: «أصبح الحكام يغبطون الفنانين ولاعبي الكرة على هذه المكانة التي يحصلون عليها عند الناس». ومع ذلك فهم الذين يرسخون جذور الفتنة والبلاء وأسباب النقم والعذاب في الأمة، ثم بعد ذلك يقولون: إن التطرف هو السبب. وإذا أتوا عند التطرف لا يقولون: تطرف حزب البعث، أو تطرف المفسدين في فسادهم، لا، بل يعنون به

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه العلامة الألباني في «المشكاة» (٥٣٦٩).

وجود هذا الشباب المؤمن الطيب الذي أكثره - كما هو الحال في بداية التمسك - إعفاء اللحية ورفع الثوب قليلاً عن الكعبين.

تركيز النصح والإرشاد على من نزلت بهم المحنة:

السؤال:

إن الكثير من التذكير والنصح والإرشاد لوحظ أنه مقتصر على طلبة العلم والإخوة في الله وهذا شيء طيب، ولكن من حلت بهم المحنة أحق بأن يركز الدعاة في دعوتهم إلى التوبة والإنابة في كل حرب، ولأن وَقَع التذكرة في هذه الظروف أجدي من أي وقت آخر، ويا حبذا من توجيه هذه الدعوة إلى طلبة العلم الحضور، لكي يتوجهوا إلى الأماكن التي يوجد بها الإخوان الكويتيون ونصحهم؟

الجواب:

المحنة هي للجميع، فلا نتكلم نحن عن الكويت فقط؛ لأن المصيبة دائرة بالجميع وأحاطت بالكل، وإنما هؤلاء الذين أحاطت بهم المحنة هم أحق بأن تركز الدعوة عليهم، وبالنسبة لإخواننا الكويتيين في جدة فهذا شيء ضروري جدًّا، ولا يجوز أن نتخلى عنه من ناحية إغاثتهم بما يحتاجون من لوازم الحياة، ومن ناحية إغاثتهم مما هو أهم وأحوج، وهم أحوج ما يكونون إليه، وهو الإيمان والدعوة إلى الله ﷻ، والحمد لله هناك جهود رتب لهذا الشأن، نسأل الله أن تأخذ دورها في التنفيذ - بإذن الله تعالى - من محاضرات، ومواعظ وغيرها، ولا شك أن هذا واجب علينا، ونؤكد عليه بدورنا.

طلب الدعاء:

السؤال:

الأخ يرى أن ندعو الآن؟

الجواب:

ما أرى أننا ندعو الآن، فأنا أقصد بالتضرع إلى الله أنها حالة دائمة، وإن كان لا

مانع أن ندعو الآن جميعًا، لكن أقول: يجب أن نجعل هذه الحالة دائمة، فالتضرع نجعله حالة دائمة في كل الأحوال، ونحن بحاجة إلى الله في كل الأحوال، فنحن مذنبون في كل الأحوال ومقصرون، فلا نستغني عن الدعاء الآن وفي كل حين، ونسأل الله الإجابة، والله المستعان.

تعليق على صور للنساء في مجلة «تايم»:

السؤال:

هذه صور من مجلة تايم، وغيرها من المجلات، كما أشرنا وتشتمل على صور المجنذات والنساء اللاتي قدمن مع هذه القوات؟

الجواب:

هذه من المصائب، نسأل الله ﷻ أن يرفعها ويدفعها عنا، هذا بلاء على بلاء، فوجود و قدوم هؤلاء لا شك أنه بلاء خصوصًا للنساء بالذات، لأنه كما تعلمون، وكما هو واقع في وجود القوات الأمريكية دائمًا في أي بلد، في بانكوك وفي أيام حرب فيتنام وفي غيرها.

فأنا أقول: يجب أن نعرف هذا لأنه من الأمور البديهية وما يتنازعنا فيها أحد إلا من كان مكابرًا في البدهيات، أن الإنسان الأمريكي مستحيل أن يستغني عن الخمر والزنا والمخدرات فحياتهم هي هذه، وهذه هي متعتهم، وهذه هي شهوتهم، وهذا هو إيمانهم، فهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يحسبون لها أي حساب، فلا نستغرب أن ينزلوا إلى أي بلد إلا ومعهم الخمر والنساء، وما يسمونه الترفيه، كما قرأتم في الجرائد عن الآلاف من الكريمات والدهانات الحرارية التي وصلتهم حتى يدهنوا أنفسهم بها، فهذه هي حياتهم، وهل تظنون أنهم جاءوا من أجل سواد عيوننا أو تقديرًا أو احترامًا لنا أو لديننا أو لتقاليدنا؟ طبعًا ما جاءوا من أجل ذلك، كما أنه أيضًا هل تظنون أنهم من أجلنا يتركون هذه الشهوات وهم لا يرجون عند الله شيئًا والله يقول: ﴿وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٤]، فأى شيء يرجون غير هذه الدنيا فقط؟! ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ [يونس: ٧].

لكن نحن علينا واجب كبير، وواجب عظيم، كل واحد منا بما يستطيع، وهو أن ننبه وندعو ونطالب ونذكر بأي أسلوب نراه، وبكل مكان بحسبه، أن هذا البلاء إن لم يرفع كله فعلى الأقل أنه يُحد إلى أقصى حد، فهذا واجب، وإن لم نفعل ذلك فلا شك أننا أغضبنا الله ﷻ.

فهذه الصور المعروضة في المجالات مثلاً من شواهداً لحال، والصور في الواقع أكثر من ذلك.

وتكلم بعض الإخوان، وكتبوا لنا بما هو أعظم من ذلك، وهذه المصيبة نسأل الله ﷻ أن يدفعها، ويرفعها عنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفوائد المستخلصة:

- * كشف الضر يكشفه الله لمن تضرع إليه وإن كان كافراً.
- * لا يغرنك تقلب غير المتضرعين إلى الله في النعيم فإنما هو استدراج لهم وليس عطاءهم عن رضاء عنه.
- * من أسباب كشف الضر علم الله أننا سنرجع إليه حتى بعد كشف الضر.
- * أخبر الله أنه لو كشف الضر قبل الإنابة إليه لاستمر العصاة في غيهم.
- * إن كان ما يملكه المتضرع إلى الله قليلاً فإنه كثير بالبركة.
- * إن الله سنناً ثابتة لا تختلف، فمتى توافرت شروطها وقعت، ولا يجامل ولا يحابي أحداً في ذلك تعالى الله عن ذلك وعلا.
- * لكل شيء غاية، وغاية إنزال الله البأساء والضراء هو لكي يرجع الخلق للتضرع إلى الله لرفعه والرجوع لدينهم.
- * إن أمر المتضرع كله خير فإما أن يستجاب له أو يدخر له أجره أو يرفع عنه بلاء

بقدر.

* إن التضرع كما يكون مطلوبًا في الشدة فهو كذلك مطلوب في وقت الرخاء

أيضًا.

* أفضل الدعاء ما جمع بين التوحيد والثناء والاعتراف بالذنب وهو ما جمع في

دعاء يونس (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

* * *

درجة الخوف من الله تعالى

قال الإمام الطحاوي: «ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئتهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم».

قال المصنف: «وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمته في حق نفسه وفي حق غيره، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ ﴿٤١﴾ [البقرة: ٤١]، ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴿٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوْا السَّكَّاسَ وَأَخْشَوْنَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]، ومدح أهل الخوف، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِن خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَوْمُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦١].»

وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: لا يا بنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه». قال الحسن رضي الله عنه: «عملوا - والله - بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا». انتهى.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَلَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات، فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى وشرعه وقدره وثوابه وكرمه، ولو أن رجلاً له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه، فأهملها ولم يحراثها ولم يبذرهما، ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث

وَزَرَعَ، وتعاهد الأرض، لَعَدَهُ الناس من أسفه السفهاء، وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع! أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب علم وحرص تام! وأمثال ذلك، فكذلك من حَسُن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى، والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامثال أوامره، واجتناب نواهيه. اهـ.

الشرح: يقول المصنف -رحمه الله تعالى-: «على المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ في حق نفسه وفي حق غيره». فذكر ما نعتقه في غيرنا من الناس، سواء المؤمن منهم والمحسن، أم المسيء والفاجر، فيضيف المصنف ويقول: هذا ما نعتقه في حق أنفسنا وفي حق غيرنا، والإشارة ترجع إلى الخوف والرجاء وعدم الأمن وعدم القنوط، فنحن لأنفسنا نعتقد ذلك، فنخاف الله ﷻ ونخاف ذنوبنا، ولكن نرجو رحمة الله ومغفرته، وإذا عملنا عملاً صالحاً نخاف ألا يقبله، ولكن نرجو أن يتقبله؛ لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فيكون حالنا بين الخوف والرجاء.

التوسل عند المشركين:

ثم ذكر الشيخ هذه الآية العظيمة، وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وفي قراءة لابن مسعود: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، فيكون الخطاب فيها للكفار والمشركين؛ لأنهم هم الذين يدعون آلهة من دون الله، والخطاب فيها بصيغة الغائب، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتِغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أَلَيْسَ أَرْبَابُهُمْ قُرْبَىٰ وَرَبُّونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويوضح معنى هذه الآية الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]، فهي توضح أن الله ﷻ يقول للنبي ﷺ: قل لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين زعتم من دونه فلا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، وهذه الأصنام والأرباب جميعاً -من حجارة أو من بشر- لا تملك رزقاً ولا أجلاً، بل لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، فهم من خلق الله ﷻ، ولا يملكون الحياة والممات وتدبير الأمور والتقديم والتأخير والعطاء والمنع؛ بل هو ﷻ لا مانع لما أعطى ولا معطي لما

منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، والنتيجة دعاء خاسر: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، في الدنيا والآخرة، ولكن تظهر عاقبتهم في الآخرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وتبرأ الكبراء من الضعفاء، والرؤساء من الأتباع، وكانوا بعبادتهم كافرين، وأصبحت المودة التي كانت بينهم في الحياة الدنيا عداوة يوم القيامة، ويتلاعنون في النار كما بين الله ﷻ في أكثر من موضع، فهذا هو حالهم مع أولئك، فلا يرجئ من وراء دعوتهم ودعائهم وعبادتهم إلا الخيبة والندامة والحسرة والخسران في الدنيا والآخرة، ولذلك ضرب الله -تبارك وتعالى- المثل للمشركين الذين يدعون غير الله، سواء أكانوا ملائكة أم جنات أم عبادة صالحين أم حجارة، فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فليس له من ينقذه أو ينجيه أو يتمسك به، فهذا هو حال أولئك المشركين.

ثم جاء بهذا البرهان القاطع الجلي، وهو: أن هؤلاء القوم المدعويين والمعبودين سواء أكانوا ملائكة أم جنات أم أمواتاً أم صالحين - وهذا التفسير كما فسرها عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه وغيره - الذين هم مؤمنون بالله ﷻ، كالملائكة فإنه لا شك في إيمانهم، وأيضاً مؤمنو الجن، وعباد الله الصالحون، كما جاء في الحديث عن الرجال الصالحين من قوم نوح، ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فكل من كان عبداً صالحاً لله ﷻ فإنه لا يجوز أن يُعبَد؛ لأنه هو يعبد الله ويتقرب إلى ربه كما تتقرب أنت إلى ربك، فكيف تعبد وحاله حالك، وافتقاره افتقارك، وذلة ذلك، وخضوعه خضوعك، ورجاؤه رجاؤك؟! ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وهذه الوسيلة قد ضل فيها من ضل من الناس، ولو قابلت من الروافض المشركين، أو عباد القبور الصوفية في كل البلاد لقال: نحن نعتقد أن الله هو الخالق الرازق، وهؤلاء لا يتفعون ولا يضررون، وإنما نحن نذهب إلى الحسين والبدوي وندعو يا عباس، أو يا علي، أو يا حسن، أو يا حسين، ويقولون: نقصد بذلك الوسيلة، والله ﷻ يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فيقول:

إن الله أمرنا أن نتخذ وسيلةً وواسطةً إليه، أما أنتم أيها الوهابية، فتتكرون كتاب الله، وتعادون أولياء الله، وتكرهون رسول الله ﷺ، وتقولون: لا نتخذ وسيلةً إلى الله، فنقول: يقول الله: ﴿يَكْتَابُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فهذه الآية تبين معنى الوسيلة وأنه وليس المقصود بالوسيلة الأشخاص والذوات، ولو كانت كذلك لما كان لهذه الآية معنى؛ لأن هؤلاء الأشخاص أو الذوات يبتغون إلى ربهم الوسيلة، فهل هؤلاء الأشخاص يبتغون أشخاصًا آخرين، لا يمكن هذا؛ لأنهم هم الذين يُبْتَغَوْنَ وَيُعْبَدُونَ.

تفسير معنى الوسيلة:

فالوسيلة هي: القربة كما قال الحافظ ابن حجر رحمته الله في الفتح (٣٩٧/٨)؛ حيث يقول: «والمراد بالوسيلة القربة أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري من طريق أخرى عن قتادة، ومن طريق ابن عباس أيضًا».

فالوسيلة هي: القربة، قال تعالى: ﴿يَكْتَابُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] أي: ابتغوا إليه القربة، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فكلمة أقرب توضح أن المراد هو: القربة؛ حيث إن كلاً منهم يريد القربة، فهم يتنافسون ويتسابقون أيهم أقرب إلى الله ﷻ، وأيهم أكثر ذلاً وخضوعاً وانقياداً واستسلاماً وعبوديةً ودعاءً وضراعةً ورغبةً ورهبةً وإنابةً، فهذا هو المعنى الصحيح.

ولهذا ذكر الإمام البخاري رحمته الله بالسند المتصل عن عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه -، قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم»^(١). فهم في الجاهلية كانوا يعبدون الجن، ويوم القيامة تشهد عليهم الملائكة بذلك، كانوا يعبدون الجن وأكثرهم بهم مؤمنون، فلما بُعث رسول الله ﷺ واستمع إليه نفرٌ من الجن ولّوا إلى قومهم منذرين، كما أخبر الله -تبارك وتعالى-،

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٤).

وكما جاء في الأحاديث الأخرى أن النبي ﷺ ذهب إليهم وعلمهم فأمنت الجن، وكان ممن آمن منهم جنٌّ كان يعبدهم المشركون من الإنس، فأمن المعبودون، وظل العابدون على شركهم يعبدون من قد أناب وتاب وآمن، وهو يعبد الله، ويتغني إليه الوسيلة يرجو رحمة الله، ويخاف عذابه.

التوسل الممنوع:

يقول الحافظ ابن حجر: «وهناك رواية عن ابن عباس أن المقصود في هذه الآية هم: الملائكة والمسيح وعزير».

ولكن قال: إنها ضعيفة، والمعنى في هذه الآية واضح، وهو أن هؤلاء عباد صالحون الملائكة والمسيح وعزير منهم، وكذلك من ذكرهم عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه -، فهذه أمثلة وأنواع فيمن يُعبد من دون الله ﷻ وهو غير راضٍ بهذه العبادة.

وهناك الآن من يعبد علياً - رضي الله تعالى عنه - والحسن والحسين وأمثاله من الصالحين كجعفر وعبد القادر الجيلاني، فهؤلاء كانوا يعبدون الله ويخافونه ويرجونه.

ولكن الناس في الحاضر قاموا بعبادتهم، وهذه الحججة القرآنية قائمة على كل هؤلاء، فمثلاً البدوي وأمثاله لم يعرف عنهم صلاح وما جاء من أحوالهم يدل على أنهم زنادقة، مما يدل على أن الناس يتوسلون إلى الله بمن لا يؤمن بالله، كما كان بعض شيوخ الطرق الصوفية.

فالناس يرونه يترك الجمعة والجماعات ويمشي وهو بادي العورة في الطرقات، ويفعل أقبح القبائح، ومع ذلك يعتقدون ولايته ويعبدونه، ويدعونه حياً وميتاً، فهؤلاء ليس لهم ولاية ولا مكانة عند الله ﷻ، فمن يتقرب ويظن أنه يتقرب إلى الله ﷻ بهم فهو واضح الخسارة والخيبة، وليس لديه عقل ولا فكر ولا رأي.

وأما الذي يتوسل إلى الله تبارك وتعالى بالملائكة، ويقول هؤلاء ملائكة الله نتقرب إلى الله بعباده المكرمين، أو يتوسل إلى الله بأنبيائه أو بعباد الله وأوليائه

وأصفيائه، ويقول: نحن نتقرب إلى الله بهؤلاء، فالجواب عليه واضح في الحجة القرآنية، وهي أن هؤلاء أنفسهم إنما يعبدون ويدعون ويتقربون إلى الله، فالواجب التقرب إلى الله كتقربهم ولا نجعلهم هم الوسيلة.

أركان العبادة في آية الوسيلة:

وقد ذكر الله في هذه الآية المراتب الثلاثة، وهي: أركان العبادة الثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء، ونستطيع أن نستنبط الحب من قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فعندما تقول فلان أقرب إليك أي: أن محبته لك أكثر، فالقرب هو لازم المحبة.

وأساس كل الطاعات هي المحبة، وأساس الإيمان بالله تعالى هو محبته ومحبة رسوله ﷺ، ونستنبط الرجاء من قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾، والخوف من قوله: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾؛ ولذلك حقيقة العبودية هي: كمال الذل والخضوع، مع كمال المحبة والإجلال.

فإذا جردنا العبودية من المحبة فإنها تُصبح خوفاً محضاً؛ ولذلك نوضح بالأمثلة عبودية الأقوام السابقة، فالطواغيت نوعان في جميع العصور: إما طواغيت سلطان ورياسة وعلو في الأرض، كما أخبرنا الله تبارك وتعالى، وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض، فهؤلاء طواغيت الرياسة والحكم والسلطة والعلو، يجعلون أنفسهم أرباباً وآلهة من دون الله، ومن المعلوم أن من كره هؤلاء ومقتهم أنه غير عابد لهم، وإن كان مطيعاً لهم، فقد يكون من جنودهم وأتباعهم لكن ليس من عبادهم؛ لأن أساس العبادة هو: المحبة.

والنوع الآخر من الطواغيت هم: طواغيت التدين والدين والخرافة والتبديل والتحريف، وهؤلاء لخطرهم ولضررهم هم الأكثر والتحذير منهم في القرآن أكثر، وأكثر شرك الناس بسببهم؛ لأنه لا يقترن بهم قوة ولا سلطان فإذا وجدت بين أهل مصر من يشي على فرعون، فيحتمل أنه يشي عليه خوفاً منه؛ لأنه الملك أو لمصلحة أو رابطة دنيوية ولا يكون عابداً له ولا مؤلهاً له، لكن من كان يحب البابا يوحنا أو شيخ الطريقة

أو البدوي، فهذا لا سلطان له، وسبب محبته أنها محبة تَقْرُب وتَنْسُك وأنه يظن ذلك ديناً.

والطاغوت: هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله ﷺ.

فهؤلاء الذين ذكرهم الله ﷻ من أول صفاتهم المحبة؛ لأنها الركن الأساس من أركان العبادة أو العبودية، والرجاء هو الركن الثاني، فبالإجلال والتقدير والمحبة تكون العبادة، فإذا اجتمع هذان أصبحت عبادة، وإذا انتفى أحد هذين لم تصبح عبادة.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُواْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥) وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَازْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوْاْ الْكُفْرَ وَآخِشُواْ﴾ [المائدة: ٤٤] أو ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخِشُونِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، فهذه الآيات كلها في الخوف والرهبة والخشية.

قال: «ومدح الله تعالى أهل الخوف، وأثنى عليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّائِيَّتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] هذه الآيات من سورة المؤمنون آيات عظيمة ذكرها الله ﷻ، وسياقها يبين ما جاء في تفسيرها، وأنه تفسير حق ودلالته صحيحة.

وسياق الآيات هذه في بيان المحسنين السابقين كما ذكر في آخرها: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٦١) [المؤمنون: ٦١] فالذي يسارع في الخيرات ويسابق هو في درجة الإحسان والتقوى، وأما حال الفريق الآخر فقال تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٥٤) [المؤمنون: ٥٤] وبين شعورهم ونظرتهم واعتقادهم فيما ينعم الله تبارك وتعالى به عليهم: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] فالله ﷻ ذكر صنفين: صنف معرض عن الله ﷻ وغير مؤمن به، فهو في غمرة ولهو، وعندما يرزق ويعطى يظن أنه مسارعة من الله تبارك وتعالى له بالخيرات

لفضله وخيره وصلاحه.

والصنف الآخر: هم المؤمنون.

وعندما يذكر الله -تبارك وتعالى- أحوال أهل الكفر مقابل أحوال أهل الإيمان فإنه يذكر أعلى صفاتهم، فعندما يذكر الكفار يذكر أعلى درجاتهم في الكفر، وكذلك عندما يذكر صفات أهل الإيمان يذكر أعلى درجاتهم في الإيمان، ولا يذكر ضعاف الإيمان في هذا المقام المقابل للكفر، إنما يذكر في مقابل الكفار أهل الإيمان وما هم فيه من الفضل والسابقة والمسارة والخير، وفي هذا دليل على أن الآيات هي في هؤلاء؛ ولذلك ما جاء فيها من الحديث ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح في (٨/٢٩٩) أنه الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم، وسكت الحافظ -رحمه الله تعالى- ولم يشر إلى أن فيه انقطاعاً ما بين عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني وعائشة؛ ولكن التفسير صحيح قالت: قلت يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ فكان مقصودها تعالى أن هؤلاء العباد من إيمانهم وفضلهم وخيرهم إذا أتوا منكراً أو فعلوا فاحشة فإنهم يفعلونها وهم خائفون؛ لكن الأمر أجل وأعظم من ذلك، فقال النبي ﷺ: «لا يا بنه الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخاف ألا يُقبل منه»^(١). فهم يؤتون ويعطون ويبدلون من القربات والطاعات وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، فلسان حاله يقول: نعم صمت وصليت وحججت واعتمرت وأحسنيت إلى الفقراء والمساكين، وحفظت لساني عن غيبة إخواني المسلمين، وحفظت يدي عن حقوقهم، لكنني والله لا أدري أتقبل مني هذه العبادة أم لا، وربما كان في الحج من الرفث واللغو والفسوق والجدال أو الرياء ما أحبط الحج، فلربما كان في الصلاة والزكاة ما يحبطها، وربما انتفت بعض الشروط أو بعض الواجبات، أو فسدت النية فلم تقبل هذه الطاعة، فالمؤمن يعمل الطاعة وهو يخاف ألا يُقبل منه.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٨)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه».

فهذه هي الدرجة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن، لكن الواقع من كثير من الناس أنهم يعملون المعاصي، ويرتكبون المحرمات ولا توجل قلوبهم، ولا يخافون من الله، والله تعالى يقول: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فالإنسان إذا عمل طاعة أو معصية فعليه أن يتقي الله، ويشعر أنه راجع إلى الله، فإن كان ما عمله طاعةً فيخاف الأتقبل وإن كان ما عمله معصيةً أو منكراً أو فاحشةً، فهو أحرى وأجدر أن يخاف الله، فليتب وينزجر عن معصية الله تبارك وتعالى.

الفرق بين الخوف والخشية:

وابن القيم رحمه الله في الجزء الأول من «مدارج السالكين» صفحة (٥٠٢) ذكر شرحاً لمنزلة الخوف، وكلام المصنف رحمه الله مأخوذ من كلام ابن القيم حيث ذكر آية: ﴿وَلِيِّنِي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْا أَلْتَكَّاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وذكر أن الله مدح أهل الخوف.

ثم ذكر الآيات من سورة المؤمنون، والحديث الذي ذكرناه آنفاً، ثم أتى رحمه الله بكلام نفيس في بيان الفرق بين هذه الألفاظ، مثل: الرهبة والوجل والخشية والخوف والإشفاق، والتفريق بينها من دقائق العلم التي لا يتفطن إليها إلا من وفقه الله، كما كان حال ابن القيم رحمه الله فيقول: «الوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة». قال: «قيل: إن الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، وقيل اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف».

وحقيقة الخوف واضحة، وإيضاح الواضح من المشكلات، فالخوف معروف، لكن نأخذ ما بعده ليتضح الفرق، ويقول رحمه الله: «الخشية أخص من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله» وأخذ هذا من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فالعلماء هم الذين يخشون الله؛ لأن الناس في هذا أنواع: فالنوع الأول: العالم بالله، والعالم بدين الله، فهم من يخشى الله تعالى.

النوع الثاني: عالم بالله غير عالم بدين الله، وهذا الذي وقع فيه كثير من العباد، فهو

لديه حقائق الإيمان واليقين والإخلاص والرجاء والرغبة والخوف؛ ولكنه غير عالم بدين الله، فلا يعرف الحلال من الحرام، وربما وقع في البدعة فخرج عن طريق الإيمان والعلم، ولم يعد عالمًا بالله.

النوع الثالث: من ليس عالمًا بالله ولا عالمًا بدين الله، وهذا حال أكثر الخلق، نسأل الله العفو والعافية.

يقول ابن القيم: «فهي -أي: الخشية- خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»^(١) وفي رواية أخرى: «إني لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية»^(٢) فالخشية مقترنة بالعلم، ففيها زيادة العلم والمعرفة بالمعبود ﷻ، وبين ابن القيم الفرق بينهما فقال: «فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض، فإن الذي يرى العدو والسييل ونحو ذلك له حالتان: إحداهما: حركة للهرب منه وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي: الخشية ثم قال: وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه -فالرهبة خوف؛ ولكن فيها زيادة إمعان في الهرب من المخوف منه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه» فالرغبة زيادة عن مجرد المحبة، فالمحبة بلا رغبة لا يقترن بها الحرص والطلب، وأما الرغبة فيقترن بها العمل والحرص وطلب هذا المحبوب المراد، ثم يقول ﷻ: «وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى».

وهذه عادة لغة القرآن واللغة العربية.

الفرق بين الرهبة والرغبة وبين الوجل والهيبة:

ثم قال: «وأما الوجل فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته». فالوجل خوف؛ ولكنه من نوع خاص بالنسبة لشعور الإنسان عندما يرى من يجبل أو من يخاف منه أو إذا ذكر عنده من يخافه، ثم قال: «وأما الهيبة

(١) أخرجه مسلم (١١٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (١١١٠).

فخوف مقارن للتعظيم والإجلال» فالهبة خوف؛ ولكنه ليس خوفاً مجرداً، إنما خوف مقترن به التعظيم والإجلال، كما قالت العرب:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيها

قال: «وأكثر ما تكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال: تعظيم مقرون بالحب، - ثم قال- فالخوف لعامة المؤمنين» فكل مؤمن لابد أن يخاف الله ﷻ، فهذا الذي نعتقده، وكل مؤمن مطالب أن يخاف على نفسه وعلى إخوانه المسلمين، وأن يخاف الله -تبارك وتعالى-، فالمقصود أن الخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء، فالعلماء عندهم زيادة خوف مع علم فتصبح خشيةً، والهبة للمحبين سواء كانوا من العلماء أم من غيرهم، وهذه ليست متعارضة، بل يوجد بينها قدر مشترك، قد تزيد صفة، أو جانب من الجوانب في فرد وجانب يزيد في فرد آخر، كما كان الصحابة -رضوان الله عليهم- والسلف، فبعضهم يزيد عنده جانب الرجاء قليلاً، وبعضهم جانب الخوف، وبعضهم جانب الهبة، وبعضهم جانب الخشية، فمثلاً أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ وعامر بن عبد القيس، وعبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، وسفيان الثوري -رحمهم الله- غيرهم غلب عليهم جانب الخوف، وبعض العلماء يغلب عليهم جانب الهبة والإجلال والمحبة، والله -تبارك وتعالى- جعل للنفس التنوع في التبعيدات؛ لِيُعْبَدَ ﷻ بكل أنواع العبوديات، وهي في الأصل مشتركة، ولها أصل مشترك بين جميع الناس، فيقول: «الخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال ﷻ: «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشيةً»^(١). وفي رواية «خوفاً». وقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»^(٢)، فزيادة علم النبي ﷺ تدل على معرفته بربه

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

وهيبته له -تبارك وتعالى-، وإجلاله في قلبه، ومن معرفته لما أعده الله تبارك وتعالى للمؤمنين من الثواب، وللمجرمين من العقاب، ومعرفته ﷺ وعلمه بأيام الله وسنن الله في الذين خلوا من قبلنا.

وهذه القلوب في مثل هذا تتفاوت تفاوتاً عظيماً جداً، وهذا هو موضع زيادة الإيمان ونقصانه، وموضع التنافس: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ثم يوضح ذلك بقوله: «فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب»، فيهرب كلما رأى شهوة دفعته إليها عينه أو أذنه أو قلبه، فعلم: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فيهرب من هذه المعصية ويخاف، وهذا هو حال المؤمن، ثم قال: «وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم» الذي في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ من أضرار هذه المعصية، ومن فسادها، وأثرها على القلب، وعلى الحياة في الدنيا والآخرة، ولذلك صاحب هذا العلم تحصن بأقوى حصن، فلا يرقى إليه هذا الوحش، ولا يطمع فيه ولا يصل إليه؛ لأنه ليس مجرد هارب، فالهارب قد يُدْرَك؛ لكن الذي يعتصم بحصن حصين لا يُنَال -بإذن الله ﷻ- فكذلك الإنسان يعتصم بالله ﷻ، ويعتصم بالإيمان بالله وبكتاب الله، وبالعلم الذي يقربه من الله ويعرفه بالله ﷻ، فلا يأتي شيئاً مما حرم الله؛ لأنه عرف ذلك بما أعطاه الله ﷻ وما وهبه من العلم بخطر الذنوب والمعاصي وآثارها وضررها على الإنسان.

علاقة الإشفاق بالخوف:

يقول ابن القيم في صفحة (٥١٤): «والإشفاق: رقة الخوف» الإشفاق خوف مع رقة، ثم يقول: «وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه». وأرق الخوف هو الإشفاق، والله ﷻ ذكر ذلك في القرآن؛ حيث ذكر أن أهل الجنة يتذكرون ما كانوا فيه من الدنيا، فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ أَهْلِنا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وقال في سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [٢٧] إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنُوا [المعارج: ٢٧]، وقال في سورة فاطر: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فكانوا في الدنيا مشفقين، وكان الحزن في قلوبهم؛ لأنهم لا يعلمون كيف يلقون الله ﷻ، أما

الذين كانوا في دنياهم فرحين بطرين فإنهم يفاجتون يوم القيامة بأهوال لم يكونوا يتوقعونها.

وأما المؤمنون فقد ذكر الله تعالى حالهم في الخوف، فقال عنهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا قَطِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ [الإنسان: ١٠، ١١]، فهذا جزاء الخوف والحزن، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٢٦﴾ [الذِّى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ] ﴿٢٥﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] فكانوا يعانون في الدنيا التعب والألم والأحزان والمصائب؛ ولهذا يقول ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١). فالمسجون -دائمًا- خائف ومشفق حزين؛ لأنه مسجون، ولكن من الناس من يكون مطمئنًا كما كان شيخ الإسلام رحمه الله لما وضع في السجن قال: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورَ لَهٗ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ﴿١٧﴾ [الحديد: ١٣]، فالجنود والسايطان الذين يقفون في الخارج في العذاب، وهو في الرحمة بالمقارنة لما أعدده الله في الآخرة، فالمؤمن مسجون في الدنيا مع طمأنينته وفرحه بفضل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [يونس: ٥٨]، فهو مع فرحته وطمأنينته وسعادته بذكر الله مسجون؛ لأنه لم يدخل الجنة، ولم يروجه الله ﷻ، ولا الحور العين، ولم يلتق بإخوانه المؤمنين على سرر متقابلين.

وأما الكافر فقد يكون في الدنيا في منتهى الرفاهية والتنعم والتلذذ، ولكن هذه جنته بالمقارنة لما ينتظره هنالك من العذاب، ففي الآخرة ليس له جنة؛ حيث يقول تعالى للكافرين: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الاحقاف: ٢٠]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ [هود: ١٦] فجتتهم في الدنيا مع ما فيها من الشقاء والتكد والتغيب، ولكن لأنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار فإن جتتهم في الدنيا.

ويضرب مثل رائع لمقدار التمتع بالدنيا، فالحاكم عبد الرحمن الناصر حكم

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

الأندلس خمسين سنة، والأندلس تسمى جنة الدنيا، ففي يوم من الأيام اجتمع في آخر ملكه مع بعض وزرائه، فتذكروا هذا الأمر العظيم، وهل سبق أن أحدًا حكم هذه المدة وهذه الجنة، وكعادة المنافقين من جلساء السلاطين في كل زمان ومكان أخذوا يمدحونه، ويثنون عليه، ولكنه قال لهم: أتدرون كم أيام السرور في هذا الملك في الأندلس؟! قالوا: لا، قال: عددها فإذا هي أربعة عشر يومًا! فالمقصود أنه لا بد للمؤمن من الخوف والرجاء والإشفاق والرغبة والرغبة والوجل.

الخوف والرجاء عند المؤمن والمنافق:

وكما قال الحسن رضي الله عنه فيما نقله عنه ابن القيم قال: قال الحسن: «عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، وإن المنافق جمع إساءةً وأمنًا». فإذا وجدت الخائف الوجل المشفق من عذاب الله، فتجد أن أعماله فيها الكثير من الخير والإحسان والفضل، وأما المطمئن فتجد فيه النفاق والبعد والمعصية، والعكس بالعكس، فالمؤمن يحسن العمل؛ ولذلك أحسن الرجاء، وأما المنافق فإنه آمن من مكر الله، ولم يخف الله، ولم يبال بعقوبة الله؛ فلذلك اطمأن وعمل ما عمل؛ ولذلك إذا رأيت المؤمن شكًا ذنوبه، وخاف من عدم قبول أعماله، ورأى ذنوبه كما جاء في الحديث: «المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يخشى أن يقع عليه، وأما المنافق فيرى الذنوب - جميعًا من شرور وخمور وفجور ولهو وإعراض وتهاون في طاعة الله وأكل لحقوق الناس - كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فطار»^(١)، وإذا سألته وجالسته قال: نحن أحسن حالًا من غيرنا، ثم يذكر حسناته، أما المؤمن فلا يذكر حسناته؛ لأنه يعلم أن هذا خطر عليه.

لا بأس بذكر نعمة الله عليك؛ لكن مع شكر هذه النعمة، وأما في أمور الدين فينظر العبد إلى من هو فوقه في العبادة والإحسان، وأما في أمور الدنيا فينظر العبد إلى من هو دونه؛ لئلا يزدري نعمة الله عليه.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

الخوف من الرحمن وسيلة إلى الرضوان:

وهنا فائدة عظيمة ذكرها ابن القيم رحمه الله حيث يقول: «والخوف ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصود لغيره، فأهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» والمحبة مقصوده لذاتها؛ ولهذا نحب الله -تبارك وتعالى- في الدنيا، وإذا أدخل الله تعالى المؤمنين الجنة يظلمون يحبون الله، بل يزدادون حباً له؛ لأنها مطلوبة لذاتها، وأما الخوف فليس لذاته، بل هو وسيلة للانزجار عما حرم الله ونهى عنه، فإذا أمن العباد، وبشرتهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

زال الخوف، ولهذا قال تعالى في [أهل] الجنة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فنفى الله -تبارك وتعالى- عنهم الخوف والحزن، فلا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما وراءهم؛ لأن الله تعالى يتولى المؤمنين والمتقين والصالحين؛ فلهذا يقول: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فالخوف ليس مقصوداً لذاته، وإنما لما يترتب عليه من معرفة الله، ومعرفة وعد الله ووعيده، والانزجار عما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه، ثم قال: «والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات». فالخوف يتعلق بالأفعال، فتجد العبد يخاف من عذاب الله، والله -تبارك وتعالى- بين لنا أن العذاب فعله، وأن الرحمة والمغفرة صفته الذاتية، قال تعالى: ﴿نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٨] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [٥٩] ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠]، وهذا من كمال رحمة الله ﷻ؛ ولذلك نجد في الفاتحة قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَسْلُوبِ﴾ [٢] ﴿الرحمن الرحيم﴾ [٢] ﴿[الفاتحة: ٢، ٣]، ورحمة الله سبقت غضبه؛ ولهذا جعل المحبة تتعلق بالذات والصفات، وأما الخوف فإنه متعلق بالأفعال؛ لأن عذابه هو من فعله، وأما محبته فهو يحب لذاته ﷻ؛ لأنه غفور رحيم ودود كريم، فاسم الله الودود يشعر بمحبة خاصة جداً.

ولو تأمل الناس في صفات الله ﷻ لعرفوا الله، وإذا عرفوه حق المعرفة، وعرفوا أنه ودود وغفور ورحيم، أحبوه فلم يعصوه، وإذا انزجروا عن معصيته -لأنهم يؤمنون بأنه الرحمن الرحيم الغفور الودود- لكانوا من أهل الهيبة والإجلال، وهذا أفضل من

أن يكونوا من مجرد أهل الخوف كما بين ابن القيم رحمه الله.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد.

الفوائد المستخلصة:

- * إن الخوف من الله بغير علم هو خوف، مع العلم خشية، ومع التعظيم والإجلال هيبة، ومع انصداع القلب ورجفانه من ذكره وَجَلُّ.
- * كلما كان الإنسان عالمًا بالله كان أشد خوفًا وتعظيمًا له.
- * المحبة مقصودة لذاتها بينما الخوف مقصود لغيره.
- * المحبة والإجلال شرطاً للعبادة، فإذا انتفى أحدهما فلا عبادة، كما أن الخوف هو الوقاء والحدود للمسير إلى المحبوب.

* * *

نماذج من خوف السلف

نذكر الآن - إن شاء الله تعالى - بعض النماذج من حياة السلف الصالح الذين غلب عليهم جانب الخوف أولاً، ثم نشني - إن شاء الله - ببعض من غلب عليهم جانب الرجاء.

نذكر أسباب ذلك عند كلا الطرفين، وهي نماذج موجزة ومختصرة، والمقصود منها: هو أن نعلم أن أركان العبادة التي تحدثنا عنها، وهي: المحبة، والخوف، والرجاء، هذه الأركان الثلاثة قد يغلب أحدها على بعض الناس، وقد تغلب الأخرى على آخرين، لكن لا يمكن ولا يصح أن يخلو الإيمان أو القلب من اجتماع هذه الثلاثة، فكانت حياة السلف الصالح - رضوان الله تعالى عليهم - نموذجاً لاجتماع الخوف والرجاء والمحبة، كما أثنى الله - تبارك وتعالى - على عباده الصالحين من المرسلين، ومن اتبعهم في الآيات التي ذكرها الله، كقوله - تبارك وتعالى -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِكْرَامَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧] وقوله - تبارك وتعالى -: ﴿لَئِنْهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْأَخْيَارِ يَدْعُونَ تَارِعًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ونحو ذلك.

والخوف - عموماً - هو سمة لأهل الإيمان الكُمَّل الخُلص من عباد الله ﷺ، ففي سيرة رسول الله ﷺ أعظم النماذج لذلك، وكذلك في سير الخلفاء الراشدين.

عمر بن الخطاب:

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - سأل حذيفة بن اليمان - الذي هو أمين سر رسول الله ﷺ، والذي أطلع رسول الله على أسماء المنافقين -، فقال له: «أنتدك بالله! ألم يسمني رسول الله ﷺ منهم؟!». «

عمر بن الخطاب ﷺ هو ثاني رجل في هذه الأمة بعد أبي بكر الصديق من أتباع محمد ﷺ، وهو مبشر بالجنة، ما بينه وبين الجنة إلا أن يموت فيدخلها، وليست أية

جنة، وإنما جنة المقربين والصديقين وأهل الدرجات العلى.

عمر الذي جاهد في الله حق جهاده؛ فبمجرد أن آمن وأسلم، أظهر الله - تبارك وتعالى - الإسلام وأعزّه، ولما ولي الخلافة فتح الله على يده مملكتي كسرى وقيصر، وورثتهما هذه الأمة، وأنفقت كنوزهما في سبيل الله ﷻ على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجنده.

وكان في سيرته من العدل والإيثار والشفقة والرحمة ومحاسبة العمال ما هو مضرب الأمثال في جميع العصور والأجيال مما لا يتسع له المقام؛ بل يحتاج إلى أن يكتب عنه المجلدات العظام، ومع ذلك فإنه كان يخشى ويخاف على نفسه من النفاق، ولم يكن ممن يُغلب جانب الرجاء رَغَمَ ما وُعدَّ به - وهو وعدٌ صادقٌ لا يتخلف - من أنه من أصحاب الجنة، فكان يقول ذلك لحذيفة - رضي الله تعالى عنه - ويسأله أهو من أهل النفاق أم لا؟

مقولة ابن أبي مليكة:

يقول ابن أبي مليكة - وهو من التابعين - كما في هذه الرواية التي ذكرها عنه الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - في كتاب الإيمان قال: «أدرت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم كان يخشى على نفسه النفاق، ولا يقول: (إن إيماني كإيمان جبرائيل وميكائيل)».

يريد بذلك الردّ على المرجئة الذي يزعم أحدهم أن إيمانه كامل، فيقول: أنا أدرت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ الذين لا شك في أنهم أكمل الأمة إيماناً، ومع ذلك كلهم يخشى على نفسه النفاق، وما كان أحد منهم يقول: (إن إيماني كإيمان جبرائيل وميكائيل)، حتى أتى أولئك المرجئة، فأخذوا يزعمون هذا الزعم، ويدّعون أن الإيمان لا يتفاضل ولا يزيد ولا ينقص، ويدعون أن إيمانهم كإيمان جبرائيل وميكائيل: إما تصريحاً وإما لزوماً؛ فكلامهم يلزم منه تلك المساواة؛ لأن إنكار تفاضل الإيمان وزيادته ونقصانه يلزم منه مساواة أهله فيه.

عبد الله بن مسعود:

ومن النماذج الكثيرة في الخوف وممن اشتهر عنه ذلك من الصحابة: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ فقد كان جالساً مع بعض تلاميذه، فقال رجل منهم: ما أحبُّ أن أكون من أصحاب اليمين، وإنما أحب أن أكون من المقربين - وهذه أمنية وليست أمنية ضائعة خاسرة - كما سيمثل الشارح رحمته الله للأمامي والأحلام التي لا أساس له من الواقع - إذ إن تلاميذه وجلساء رضي الله عنهم كانوا من خيار الأمة حينئذٍ، وهذا تطلع وتشوق من هذا الرجل أن يكون من المقربين، ويرجو ذلك، ولم يقم به مانع يمنعه من أن يكون ممن يتمنى ذلك -، وأراد عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه - أن يعلمهم كيفية الخوف، وأن الإنسان يغلب جانب الخوف والحذر، فقال: «أما إن هاهنا رجلاً يتمنى أنه إذا مات لم يبعث - أي: نفسه - وقال: وددت لو أتي شجرة تعضد».

من شدة خوفه من حساب الله، ومن لقاء الله، ومن شدة خوفه من أن أعماله - مهما كانت صالحة - قد لا تقبل، وهو من الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، ومن اتهامهم لأنفسهم ولأعمالهم مع ما فيها من خير وصلاح يتمنون أنهم إذا ماتوا لم يبعثوا، فلا لهم ولا عليهم.

وهذا الأثر بقي في مدرسته التي كانت جامعة عظيمة تخرج منها خيار الأمة، وكل ذلك من غرس يده - رضي الله تعالى عنه - في الكوفة، ثم بعد ذلك انتشر علمها في أقطار الدنيا.

ومن الملاحظ في سير العلماء التي لو تتبعناها - وجدنا بنا أن نتبعها دائماً - لوجدنا أن من كان من العلماء أو من العباد الصالحين والزهاد في أول أمره مقارفاً للذنوب والمعاصي، ثم اهتدى فيما بعد، نجد جانب الخوف عنده أكثر، وقد تأملت بعض السير فوجدت هذا، وأظن أن السر والسبب في ذلك لا يخفى؛ لأن الذي نشأ من أصله في تقوى الله وفي طاعة الله لا يحس ولا يستشعر خطر الذنوب والمعاصي كالذي واقعها وقارفها ثم عرف خطرها.

ففي كل حين يأتيه وازع الإيمان في قلبه، ويقول له: كيف لو مت وأنت على تلك الذنوب؟! كيف لو كانت خاتمتك وأنت تفعل تلك المعاصي والفواحش والموبقات والكبائر؟! فلذلك نجد أن هؤلاء أشد خوفاً وخشية على أنفسهم من الذنوب والمعاصي من غيرهم ممن لم يكونوا كذلك.

وبرزت في بعض الشخصيات سمات الخوف أكثر مما لدى غيرهم ممن برزت عنده سمات الرجاء:

هرم بن حيان:

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي رحمته الله في «صفوة الصفوة» وهو تهذيب لـ«حلية الأولياء».

يقول: «خرج هرم بن حيان وعبد الله بن عامر يؤمان الحجاز فجعلت أعناق رواحلهما تتخالجان الشجر فقال هرم لابن عامر: «أتحب أنك شجرة من هذه الشجر؟ فقال ابن عامر: لا والله؛ إنا لنترجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك، فقال له هرم: لكني والله لوددت أني شجرة من هذا الشجر أكلتني هذه الراحلة ثم قذفتني بعراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة». أي: أنهما خرجا وكانا في العابدين الزاهدين يضرب بهم المثل في ذلك، فخرجا يريدان الحجاز فأخذت رواحلهما ترعى وتأخذ من الشجر، ولكن المؤمنين دائماً يعتبرون من كل قضية ومن كل حدث يرونه أمامهم، فقال أحدهما للآخر: لو أنك مجرد نبات تأكله الدابة وينتهي شجرة تعضد؟ فرد عليه: لا والله! إني لأرجو أن يكون لي عند الله خير ومنزلة.

فهكذا كان الخوف عند بعض العباد، فقد كان يستحضر في ذهنه الوقوف بين يدي الله تعالى عندما يكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان.

يقول: «إما إلى الجنة وإما إلى النار؛ ويحك يا ابن عامر إني أخاف الداهية الكبرى» إما إلى الجنة وإما إلى النار! لا يدري ما يفعل به، ولا يدري أين مصيره، لكن لو كان شجرةً وأكلت لعرف أن هذا هو المصير، وانتهى الأمر، فليس وراءه ما يخاف

وما يحاذر من سكرات الموت، ومن ضغطة القبر، ومن سؤال الملكين، ثم النفخ في الصور، ثم الوقوف بين يدي الله ﷻ، ثم أخذ الصحيفة باليمين أو اليسار، ثم عبور الصراط أمور عظيمة جداً! فأولو الألباب، وأصحاب العقول التي أيقظها الله -تبارك وتعالى- بالتفكير في هذه الأمور، وأصحاب القلوب التي أحيها الله -تبارك وتعالى- بذكره، يأرقون ويألمون ويفزعون لما يستحضرونه وما يستذكرونه من هذه الأهوال التي أمامهم، وليس منها مفر، وليس هناك حيلة، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه؛ فلذلك يغلب عليهم هذا وإن كانوا لا يستديمونه.

ولا يعني ذلك أن الإنسان يستديم هذا الشعور مطلقاً، لكن لا بد للنفس المؤمنة أن يأتيها ذلك ولو في حالات معينة، كما تأتيها حالات من الرجاء والفرح والأنس بالله ﷻ تجعل الإنسان يُحب لقاء الله، وكذلك تأتيها حالات من الخوف من الموت ومما أعد الله ﷻ من اللقاء والحساب تجعل الإنسان ينقبض، ويتمنى مثل هذه الأمنية التي ذكرها هذا العابد الزاهد -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.

مطرف بن الشخير ووصاياه:

ومن شدة خوفهم من الله أورثتهم شدة الاجتهاد في العبادة، فهذا مطرف بن عبد الله بن الشخير -رضي الله تعالى عنه- كما روى عنه ثابت قال: كان يقول: «يا إخواني، اجتهدوا في العمل؛ فإن كان الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه، كانت لنا درجات في الجنة، وإن يكن الأمر شديداً، لم نقل: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٢٧]، بل نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك، حتى نعذر إلى الله ﷻ، ونعذر إلى أنفسنا». فكانوا يوصون أنفسهم، ويوصون إخوانهم في الله وتلاميذهم بالاجتهاد، فاجتهدوا في طاعة الله، واجتهدوا في العمل، ولا تركنوا إلى أعمالكم ولا إلى أنفسكم ولا إلى ما قدمتم؛ بل اجتهدوا في الطاعات، واستكثروا منها ما استطعتم، فإن كان الأمر ما نرجو من رحمة الله وعفوه وما وعد به عباده المؤمنين، فإن ذلك يكون لنا زيادة في درجاتنا، وخير للإنسان أن يكون من أصحاب الدرجات العلى بدل أن يكون من أهل الدرجات الدنيا، فإن يكن الأمر بخلاف ذلك ولا ندري ماذا نفاجأ به لم نقل:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

لأن المجرمين والكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرهم الحياة الدنيا، ولم يكونوا يرجون الله ولا يخافون الآخرة، وغرهم بالله الغرور، ورضوا بالحياة الدنيا كما ذكر الله تبارك وتعالى، واطمأنوا بها، هؤلاء يقولون هذا القول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] يتمنون العودة ﴿هَلْ إِلَى مَرَجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] هل إلى خروج من سبيل؟ ولكن لا ينفع ذلك، بل كما ذكر الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] كحالهم في الدنيا إذا كانوا في مرض وفي خوف وفي ألم وفي شدة، تمنوا أن يعافيهم الله، ويدعون الله ويتضرعون إليه قائمين وقاعدين وعلى جنوبهم أنه إذا عفا عنهم فسيفعلون ويفعلون من الطاعات ومن التقوى، فإذا منَّ الله تعالى عليهم بالنعيم وأعطى الإنسان منهم ما كان يتمناه من عافية وخير وصحة، مرَّ كان لم يدعنا إلى ضر مسه.

هذا حالهم في الدنيا، فكذلك في الآخرة لو عادوا إلى الدنيا لنسوا.

لكن المؤمنين المتقين لا يريدون لأنفسهم ذلك، فهم يقولون: لا نريد أن نقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، إنما نقول: قد عملنا واجتهدنا فلم ينفعنا؛ فنكون قد أعدرنا، أي: إذا كان الذي نخاف، وإن كانت الشدة، وإن كان قد أعدَّ الله ﷻ لنا ما ليس في حسابنا، وإن كانت هذه الأعمال الصالحات لم تقبل، وإن كان الخوف أكثر مما نتصور، وإن كانت الأحوال فوق ما كنا نتوقع، وإن كانت منزلتنا عند الله ﷻ أقل بكثير مما قد يُخيل إلينا، فإننا سنقول: قد اجتهدنا وبذلنا جهدنا وعملنا، وليس للإنسان إلا ما كتب الله، أما أن نهمل، وأن نفرط، وأن نضيع حق الله -تبارك وتعالى-، فأقل ما فيها الندم هنالك وتمني العودة، وليس إلى مرد من سبيل، أو إلى خروج من سبيل، فلا ينفع ذلك أبداً.

حكيم التابعين الحسن البصري:

الحسن رضي الله عنه في سيرته العجب العجاب من هذا يحيى بن المختار ينقل عنه

أنه قال: «إن المؤمن قَوَّامٌ على نفسه يُحَاسِبُ نَفْسَهُ اللهُ ﷻ قبل أن يُحَاسِبَ، وَيَسْأَلُهَا قبل أن يُسْأَلَ - هذا حاله مع نفسه - وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، فمن حاسبها في الدنيا خف عليه الحساب يوم القيامة، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة». وتلقوا هذا الدين عادات، فوجد من قبله يصوم ويصلي، فأخذ يصوم ويصلي، وليس هناك من استشعار للخوف، ولا محاسبة للنفس، ولا تفكر هل هذا العمل قَبْلُ أم لم يقبل؟ المهم أننا أدبناها وانتهينا، إن كانت صلاة أو صيامًا، أو حجًّا، فعلنا كما يفعل الناس وانتهى الأمر، والتفكير والهم في حياته وشأنه وإقامته وترحاله في الدنيا، وهمومًا، في المال، والولد، والوظيفة، والترف، والنعمة، وأمور كثير.

فالدنيا مشغلة ملهية، من يهرب منها فإنها تطارده، أما من يستسلم لها فإنها تقيده بحيث لا يستطيع إذا جاء الموت أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أو يقال له: يا فلان، بم توصي؟ هل توصي من مالك بشيء؟ وهل يُتصدَّقُ عنك؟ وهل لديك وقفٌ توقفه؟ فبدلاً من أن يتكلم بالأفضل أو الأصح، فإنه يتكلم في الشهوات والمعاصي والذنوب، وأخف منه الذي يقول: اطلبوا الدين الفلاني، وانتهوا من بناء العمارة الفلانية، واشتروا كذا، وافعلوا كذا، وخذوا مالاً من عند فلان، وافعلوا. وهذا كثير قديماً وحديثاً، نسأل الله العفو والعافية! لأن هذا هو الذي كان همه في الدنيا فاستحضره في تلك اللحظة، فلذلك هذا حالهم؛ فالذين حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وكانوا يخافون الآخرة، خف عليهم الحساب عند الله - تبارك وتعالى -؛ وأما الذين غفلوا ونسوا ذلك، فإنه يثقل عليهم الحساب يوم القيامة؛ لأنهم يفاجئون بما لم يكونوا يحتسبون.

وقال: «إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات! حيل بيني وبينك! ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت هذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً! إن المؤمنين قوم تفقهوا القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم».

ولهذا كانت الدنيا سجن المؤمن، فليس كل ما يتمنى يأكل، ولا كل ما يشتهي وما يتطلع إليه يريده، ربما تدعوه نفسه إلى أمر من الأمور يشتهي ويحلوه له فيتذكر، ربما كان فيه شبهة، والناس اليوم يُذَكَّرُونَ بالحرام فلا يرتدعون إلا ما رحم ربك، لكن من يخاف الله، ومن يخاف الآخرة فما فيه شبهة فإنه يتوقف وينزجر عنه، يتركه وهو من أحب الأمور إليه، وهو أشد شهوة وتعلقاً به، ويفوته الأمر هو أشد ما يكون حاجةً إليه، فيقول: (لعل ذلك خير فالحمد لله على ما قضى وعلى ما قدر)، ولا تتطلع نفسه إليه، فإن كان خيراً فإنه يعلم أنه قد حرم منه بذنوب قد أصابها، وإن كان ذنباً أو معصية فليحمد الله ﷻ الذي عافاه منه، وهكذا حال المؤمن هو حال المحاسبة بجميع الأحوال.

الحسن ووصية المحاسبة:

وقال: «إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ﷻ» كما جاء عن بعض الصحابة -رضوان الله عليه- «لو وضعت رجلي اليمنى في الجنة لما أمّنتُ حتى أضع اليسرى». فالمؤمن أسير في هذه الدنيا يسعى في فكاك رقبته، فمثله كمثل العبد المكاتب الذي كاتب سيده على أن يدفع له كذا وكذا لعتقه، فكل همه أن يجتهد ليعتق رقبته، فالمؤمن هذا حاله، كل همه في الدنيا هو الاجتهاد ليعتق رقبته من النار، ليخرج من هذا الأسر، ومن الذي أسرنا فيه؟! كما قال ابن القيم رحمه الله:

ولكننا أسرى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

فالذي أسرنا وأنزلنا وأخرجنا إلى هذا التراب هو عدونا اللعين إبليس، عندما دعا إلى الشهوة وإلى المعصية، فكان ما كان مما قضى به الله ﷻ وقدره، فجاء الإنسان في هذه الأرض ليبتلى وليختبر وليمتحن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، فهذا امتحان وابتلاء من الله ﷻ، وهذا الأسر إنما وقعنا فيه بسبب هذا العدو، فبالله هل هناك عاقل في هذه الدنيا يأسره عدوه ويوثقه ويكتفه ويجعله في دار هوان ومذلة، بعد أن أخرجه من دار نعمة وكرامة، ثم يطمئن إلى هذا العدو ويصدق

ويحبه ويواليه؟! والله لا يفعل ذلك عاقل أبدًا! ومع ذلك فهذا حال أكثر الخلق، فأكثر الناس اليوم متقادون وراء هذا العدو، وراء شهواته التي يزينها، وراء غروره الذي يأتي به، وراء أمانيه ووعوده! ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ [النساء: ١٢٠].

فالشيطان يأتي بالأمانى البعيدة الزائلة التي لا خير فيها؛ ليصرف الإنسان عن واجب مما افترضه الله -تبارك وتعالى- عليه، أو ليوقعه في شيء مما حرمه الله -تبارك وتعالى- عليه.

بكر المزني وعظمة التواضع:

إن سير الصحابة والسلف -رضوان الله تعالى عليهم- مليئة بهذا، وأعجبتني هذه الفقرة لبكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه - وهو من مشاهير العلماء المحدثين - يقول: «إذا رأيت من هو أكبر منك، فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح؛ فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك، فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي؛ فهو خير مني».

هذا ينشأ في طاعة الله وفي تقوى الله، وأنا قد غلبتني الذنوب والمعاصي والغفلة والتقصير، فلا يبلغ مثل ما أبلغ أنا من العمر الآن إلا قد نال الدرجات العلى، وقد جمع من الكنوز ومن الغنائم ومن الأجر ما ياليتني أنا قد جمعته وهكذا دائمًا والناس إما أكبر منك أو أصغر منك، فتوقع هذا وتوقع هذا؛ حتى يُؤدب الإنسان نفسه، ويعلمها أن تحقر ما تعمل وإن كان من الطاعات.

قال: «وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضل أخذوا به». ولعل مقصوده رضي الله عنه أن هذا فضل منهم، أو هذا فضل من الله تعالى من عليّ به، وأخذوا به ولا استحقه.

أي: إذا رأيت إخوانك يحبونك ويعظمونك ويقدرونك فلا يغرنك الشيطان، فتقول: الآن عرفوا قدرتي، وعرفوا منزلتي وعلمي وعبادتي واجتهادي! لا والله، فهذا من الغرور!! نسأل الله العفو والعافية.

لكن قل: هذا فضل أخذوا به، قل: غرهم مني أنهم رأوني أقول: كذا وكذا وما

علموا ما أغلق عليه بابي، كما كان عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يقول: «لو أنكم تدرّون ما أغلق عليه بابي ما فعلتم كذا».

والله إننا نعلم أنه رضي الله تعالى عنه لا يغلق بابه إلا على خير وعلى تقوى وعلى قراءة قرآن وعلى عبادة، لكن قال ذلك زاجرًا لهم لما تجمعوا ليسيروا خلفه، وقال لهم: «إنها ذلة للتابع فتنة للمتبع».

وأيضًا من مآثور كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لو أن للذنوب رائحة ما جالسنى منكم أحد».

سبحان الله! هؤلاء الناس هم أطهر الخلق بعد الأنبياء وأفضلهم بعد الرسل، يقول: «لو أن للذنوب رائحة ما جالسنى منكم أحد» رائحتها تنتشر ومن هذا المعنى أخذ الشاعر أبو العتاهية، فقال:

أحسَنَ اللهُ بِنَا أَنْ	نَ الْخَطَايَا لَا تَفْـُوحُ
فَإِذَا الْمَسْتَوْر مِنْهَا	بَيْنَ ثَوْبِيهِ فَضُوحُ
نَحْ عَلَيَّ نَفْسِكَ يَا مَسْ	كِينَ إِنْ كُنْتَ تَفْـُوحُ
لْتَمُوتَنَّ وَلَوْ عُمْرُ	مِرَّتْ مَا عُمَّرَ نَوْحُ

هكذا كانوا يشعرون! فليتأمل كل منا هذا المعنى، لو أن للذنوب رائحة! سبحان الكريم! سبحان الحليم! الذي بلغ من عفوه، ورحمته، ومن سعة رحمته، وفضله، وكرمه، وأنه الغفور الودود الحليم -أنه يقول- في حق الذين أحرقوا أوليائه بالنار الذين خدوا الأخاديد، وجاءوا بهؤلاء المؤمنين، وألقوهم فيها وهم أحياء- في سورة البروج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]، فيفتح لهم باب التوبة! يقبل التوبة ممن يفتن المؤمنين بسبب إيمانهم، ويلقيهم في النار وهم أحياء! فهذه توبته للمجرمين فكيف مع المحبين؟! وكيف مع الصادقين؟! وكيف مع المخلصين؟! فمن رحمته أن الخطايا لا تفوح، فكيف لو كان للذنوب رائحة؟! لكان بعض الناس يتعد عن خلق الله آلاف الأميال، ورائحته تبلغهم أينما ذهبوا، لكن رحمة الله واسعة؛ ولذلك

فإن من شر الناس منزلة عند الله ﷻ المجاهرين، الذين يعمل أحدهم الخطايا والقبائح بالليل، ويستر الله -تبارك وتعالى- عليه، ثم يأتي ويحدث الناس بها، ويقول: (عملت، وعملت) هؤلاء الذين يظهرون الروائح، والله -تبارك وتعالى- يخفيها ويسترها ويفتح باب التوبة لمن أعلن بها.

يقول بكر بن عبد الله المزني: «وإن رأيت منهم جفاءً وانقباضاً فقل: هذا بذنب أحدثته» أتهم نفسك، ولا تقل: ليس فيهم خير، بل قل: (هذا ذنب أحدثته) أطلعهم الله ﷻ عليه، وهم يشعرون أو لا يشعرون، فكانت هذه الجفوة، وكان هذا الإعراض عني، فالتهم في كل الأحوال مع الصغير ومع الكبير، عند الإعراض وعند التكريم هو هذه النفس.

من علامات الخائفين:

الاشتغال بعيوب النفس:

طوبى لعبد شغلته عيوبه عن عيوب الناس! فلهذا قال قائلهم: «إني لأرى أثر معصيتي -أو ذنبي- في خلق امرأتي ودابتي». سبحان الله! فهؤلاء يرون أثر المعاصي؛ لأن القوم لما قلت ذنوبهم علموا من أين أتوا؛ ولذلك لو وقعت لواحد منهم مثل هذه الأمور: إما إعراض، وإما ظلم، وإما مشكلة، وإما فرية، وإما بهتان، فإنه يعلم من أين أتى، فيقول: هذا بسبب ذلك ويعرفه، لكن الذي يجني ويحصد الذنوب ليل نهار، ووقعت له نازلة، فإنه لا يدري من أين أتى؛ لا يدري: هل هي من الغيبة؟ أم من النوم؟ أم من تضييع الصلوات، أم من هجر كتاب الله ﷻ، أم من أكل الحرام؟! أم من التعلق بالدنيا والغفلة عن الآخرة؟! فهو لا يدري من أين أتى، لكن الذي يعلم أنه ما أخطأ إلا تلك الخطيئة، وما أذنب إلا ذلك الذنب يعلم من أين أتى، فيتوب ويستغفر، فيكون قد أقفل هذا الباب، فيلقى الله ﷻ وقد غسل هذا القلب من الأدران والخطايا.

حماد بن سلمة:

يقول موسى بن إسماعيل -وهو من تلاميذ أحد العلماء المشهورين وهو

حماد بن سلمة رضي الله تعالى عنه - قال: «لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا قط صدقتم - أي: لو قلت لكم ذلك ما أكذبكم فما رأيته ضاحكًا قط قال:- كان مشغولًا بنفسه إما أن يحدث عن رسول الله ﷺ - لأنه كان من الرواة المشهورين كما هو معلوم - وإما أن يقرأ القرآن أو يقرأ العلم النافع، وإما أن يسبح، وإما أن يصلي»، كان قد قسم النهار بين هذه الأعمال؛ إن ترك القراءة فهو للصلاة، وإن انفلت من الصلاة فهو للتسبيح، وإن انتهى من التسبيح فللحديث وللعلم؛ فكل حياتهم هكذا إن كانوا في الجهاد، فجهاد ومنازلة كأقوى ما يكون الرجال، وإن انصرفوا من الجهاد فللحج والعمرة والصيام وقراءة القرآن، وإن خرجوا من المسجد، وقد أدوا الصلاة، فلأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن دخلوا بيت أحد، فللزيرة في الله وللدعوة والنصيحة والتذكير بالله، وإن قرءوا ففيما ينفعهم، وإن تكلموا فيما يؤجرون عليه؛ فهو لاء كانوا يعيشون قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ابتعاد السلف عن اللغو:

جاءت ابنة أحدهم إليه، تقول: يا أبتاه! أريد أن أعب، وكان معه بعض جلسائه، فأعرض عنها، فأبتت من هاهنا ومن هاهنا: يا أبتاه! أريد أن أعب! قال أحدهم: قل لها: العبي، وتذهب عنك، قال: لا أريد أن أجد في ديواني لعبًا. لأن بعض السلف يرى أن ذلك يكتب! وهناك خلاف في هذه المسألة بين السلف - رضي الله تعالى عنهم -؛ فبعضهم كان يرى أن كل شيء يقوله الإنسان يكتب عليه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، فكل كلمة مكتوبة، وكل عمل مكتوب أيًا كان، وبعضهم يقول: لا، إنما تكتب الحسنات أو السيئات، أما ما يدخل في المباح أو اللغو أو فضول الحياة، فهذه لا تكتب مثل قولنا: العب أو اذهب أو أي أمراض من أعمالنا اليومية التي لا علاقة لها بالإثم ولا بالحسنة، فالكلام المعتاد لا يكتب، والتصرف المعتاد لا يكتب. فكان هذان المذهبان من قديم عند السلف رضي الله عنهم، فبعضهم يقول: كل شيء يكتب؛ فإذا قلت: «العبي». وجدت يوم القيامة في ديواني مكتوب «العبي». وما أريد أن يكون ذلك في

ديواني، ومن هنا ندرك مدى التنزيه الذي وصلوا إليه لأفواههم ولقلوبهم ولصحائفهم، مع ما هم عليه من الخوف فكيف بمن يلطخ لسانه وقلبه وصحائفه، فإذا سُئِلَ، قال: الحمد لله! ونحن إلى خيرا! ونحن كذا! وأخذ يثني على نفسه ويذكرها بما ليس فيها.

حبهم لعبادة الخوف من الله:

ومن السلف الصالح الذين غلب عليهم الخوف: عمرو بن قيس الملائي رضي الله عنه قال عمر بن حفص بن غياث: «لما احتضر عمرو بن قيس بكى، فقال له أصحابه: علام تبكي من الدنيا فوالله لقد كنت تبغض العيش أيام حياتك فكيف تبكي؟! فقال: والله ما أبكي على الدنيا وإنما أبكي خوفاً أن أحرم خوف الآخرة». فمن شدة حرصه على أن يتعبد الله تعالى بالخوف منه يبكي لأنه إذا فارق الدنيا ربما يفارقه الخوف من الآخرة، وهو يتعبد الله - تبارك وتعالى - بهذا الخوف، فكان نوعاً من أنواع العبادة قد انقطع عنه، يقول: إن أمتني الله تعالى وأدخلني جنته، ورضي عني، وقبل أعمالي، فسأكون قد انقطعت عن عبادة من العبادات كنت أحبها وأحرص عليها، وهي الخوف من الله تعالى! لقد أصبح الخوف محبوباً عندهم حتى إنهم ليبكون خوفاً من فواته وهو خوف عند الاحتضار، وهي الساعة التي يُعَلَّبُ كثيرٌ من السلف فيها الرجاء على الخوف، وأما مآثرهم فهي عظيمة وجليلة؛ كما قال بعض العلماء: «إذا ذكِرَ الصالحون افتضحنا» نسأل الله العفو والعافية؛ لأنه إنما يعرف الإنسان نفسه إذا ذكر هؤلاء.

عابد الشام أبو سليمان الداراني:

أبو سليمان الداراني الذي ضرب به ابن القيم المثل في العبادة قال في «المدارج»: «كان مضرب المثل في العبادة من أهل الشام مثل ما كان الحسن البصري في البصرة ومثل ما كان سفيان في الكوفة» وهكذا كل مدينة يشتهر فيها عدد من الناس بهذا، فمن أعظم وأبرز أعلام أهل الشام أبو سليمان الداراني رضي الله عنه نسبة إلى داريا وهي قرية من قرى دمشق كان رضي الله عنه يقول: «مفتاح الدنيا الشيع، ومفتاح الآخرة الجوع، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله». ولهذا كانت مظاهر الخوف في سيرته - رضي الله تعالى عنه - أوضح منها في غيرها من ذلك.

يقول: «لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، وما أحب البقاء في الدنيا لتشقيق الأنهار ولا لغرس الأشجار».

مثلما قال الآخر: «مساكين أهل الدنيا! خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها» مساكين! فلو مات أثرى أثرياء الدنيا الذين كانوا يتقلبون في أعطاف القصور والنعيم، وكل ما لا يخطر على أذهان الفقراء، ولا يدور في خلد المساكين - لو ماتوا وهم لم يذوقوا لذة مناجاة الله ﷻ والقرب من الله ﷻ، فهؤلاء مساكين - خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أحلى وألذ ما فيها، ولهذا كان للسلف الصالح كلام عظيم - لو جمع لكان جزءاً - في الليل وفي محبة الليل والثناء على الليل وتعلقهم بالليل؛ لأنه وقت الخلوة بالحبيب، ووقت المناجاة حيث لا يراهم أحد.

كان ليلهم غير ليلنا، نحن الآن في الليل والنهار - نسأل الله والعفو والعافية - لا نخلو ولا نانس! لكن الحياة في الصدور الأول كان فيها الليل - فعلاً - ليلاً، كما كان آباؤنا - وهم قرييون من عصرنا - إذا صلى الناس العشاء ذهبوا فناموا، فعندئذ يخلو الإنسان بربه ﷻ قراءة وذكراً وقياماً وصلاة وتسيباً، فيحب الليل، فيقول: «لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا» فأحب الأوقات إليّ هذا الوقت الذي أجد فيه اللذة التي من لم يذوقها فهو مسكين! دخل الدنيا وخرج منها ولم يذوق ألذ وأحلى ما فيها، ولم يتمتع بذلك، وهذا هو الذي قال فيه القائل الآخر إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف». الأغنياء والمترفون والكبراء وأهل الدنيا أيما شهوة تبلغهم ذهبوا إليها! والتاريخ مليء بذلك.

كان بعضهم يقال له وهو في بغداد: إن جارية بخراسان تغني فيطرب لها كذا وكذا، فيقول: اشتروها لي. فيقولون: إنها بمائة ألف دينار. فيقول: ادفعوا مائة ألف دينار وأتوني بها. أية لذة يسمعون عنها يأخذونها ويشترونها، فإن تعاسرت على المال، وحيل بينهم وبينها بالمال، جردوا السيوف لinalوها؛ سواء كانت لذة ملك أو شهوة أو أيًا ما كان الأمر، يجالدون بالسيوف لinalوها، لكنهم مساكين! لو يعلم من لم يكن عمله في

طاعة الله، وجهاده ومجالدته في طاعة الله ما عند من يجتمعون على كتاب الله ومن يقرأون سيرة رسول الله ﷺ ومن يقرأون حديث رسول الله ﷺ وكلام هؤلاء الأئمة وحياتهم، لو يعلمون ما يجده هؤلاء في بيت من بيوت الله أو في بيت من بيوت أحدهم لجالدوا عليه بالسيوف، لكن لا يعلمون؛ لأن اللذات عندهم محصورة في الشهوات فقط، ولذلك لا يمكن أن يتطلعوا أو يفكروا فيما وراءها، ولو علموا أن اللذة الحقيقية هي لذة النجوى والأنس بالله ﷻ والفرح بما عند الله ﷻ وما أنعم الله به على الإنسان من الإيمان والتقوى - لو علموا ذلك - لسابقوا إليه، لكنهم لأنهم لم يعلموا ذلك فلم يسابقوا ولم يزاحموا عليه.

المعصية سبب للهوان على الله:

يقول أبو سليمان الداراني حكمة عظيمة من حكمه - وما أكثر حكمه وحكم أمثاله - يقول: «إنما عصى الله ﷻ من عصاه لهوانهم عليه، ولو كرموا عليه لَحَجَزَهُمْ عن معاصيه».

أي: عندما نرى أحداً يقترف محرماً أو يتتهك حرمة الله وينغمس في الشهوات، فإننا نعلم أنه من هوانه على الله أوقعه في ذلك كائناً من كان؛ لأنه لا يساوي عند الله ﷻ أن يمنعه، فلذلك هانوا عليه فتركهم ووكلمهم إلى أنفسهم، فرتعوا في الحرام، ووقعوا في الشهوات التي حرمها الله - تبارك وتعالى - أما من كرموا على الله فإن الله ﷻ يمنعهم ويحجزهم ويحميهم فلا يقعون فيها.

ومن أعظم الأمثلة الدالة على صدق هذا الكلام ما ذكره الله - تبارك وتعالى - في القرآن عن الذي أتاحت له كل الأسباب، ولكن الله ﷻ حجزه ومنعه وعصمه، وهو يوسف ﷻ، يقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَرَزَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، هذا في منتهى الشباب، وغريب لا يعرفه أحد، وعادة الغريب أنه يكون أدعى إلى أن يفعل ما يشاء وأكثر ممن يكون بين قومه وأهله وذويه، فقد يقولون له: لم فعلت يا فلان كذا؟! وليس هو الذي طلب، بل هي التي

راودته كما قال: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، وهي التي هو في بيتها، تملكه وتملك البيت، فهي سيدة البيت، بل هي سيدة البلد؛ لأنها امرأة العزيز، والعزيز هو ملك مصر، فهي التي راودته، وهي التي تملكه، وهو في منتهى الشباب والطاقة وفورة الشهوة، وهي في منتهى الجمال والفتنة والإغراء، ولا أحد يدري بذلك أبدًا، ثم إنها قد عملت الوسائل التي لا محيص منها عن الشهوة؛ غلقت الأبواب، فلم يبق هنالك مجال أن يقول: أخرج أو أترُّ أو أذهب. وقالت: هيت لك. إما بمعنى تهيأت لك، أو بمعنى هيات لك أن تفر، أو ألا تفعل؛ فكل داعٍ من دواعي الوقوع في الفاحشة كان متوفرًا، ولم يبق هناك أيُّ ملاذ أو ملجأ لأي إنسان إلا من عصمه الله فحجزه، ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

الله ﷻ إذا علم أن عبدًا من عباده صادقٌ تقويُّ برٍّ، فإنه يحجزه ويمنعه، فلكرمه على الله لا يفعل، وكان يوسف ﷻ كذلك، كما قال ﷻ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»^(١).

وصلَّى الله وسلم على أولئك الأنبياء الذين من كرمهم على الله كانت لهم السير المعطرة الطيبة الزاكية، وكانوا يحجزون ويمنعون عن المعاصي؛ لأنهم كرماء على الله ﷻ، أما الذين لا يساؤون عند الله جناح بعوضة، فكما يشاءون؛ الشهوات متيسرة، والفساد مهيبًا، فيفعل ما يشاء، فهو موكول إلى نفسه؛ لأنه هان على الله، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فإن فكَرَّ أو تكلم أو كتب أو جاء أو ذهب فيفعل ويتكلم في كل شيء ويخوض في كل شيء إلا نفسه.

يا مسكين، أما علمت أن أمامك موتًا، وأمامك قبرًا، وأمامك آخرة، وأمامك صراطًا وحسابًا وجنةً ونارًا، لكنه لا يفكر في هذه الأشياء بل يفكر في فلان وفي فلان، وفي القضية الفلانية وفي الموضوع الفلاني، بل ربما يدعو بقلمه إلى ما حرم الله.

يقول: تحرير المرأة! والمرأة مسكينة! والمرأة مظلومة! والمرأة مضطهدة! فكر

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٨).

في نفسك يا مسكين! أنت المسكين المحروم، وليس المرأة هي المحرومة، أنت محروم من طاعة الله، وأنت محروم من قراءة القرآن، وأنت محروم من عبادة الله، وأنت محروم من الجلوس مع أولياء الله، وتقول: المرأة محرومة ومظلومة! وصدق الله إذ يقول: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فترك الأمر الذي أمامه من طريق مخوف مفرع والذي هو واقع فيه، فلم يفكر فيه، لم يحجزه ربه؛ لأنه هان عليه، فلما هان عليه تركه يفعل ما يشاء.

ولهذا علينا أن نُقدِّر نعمة الله أن هدانا للإيمان، فإذا كنت ممن يتقي الله ويطيع الله، ولا يغفل عن ذكر الله ولا عن الآخرة، فاحمد ربك؛ لأنك كريم على الله، فإذا دعتك نفسك إلى معصية أو هُيئت لك معصية من المعاصي، فكففت عنها، فاحمد ربك لأنه لا يمنع ولا يحجز ولا يصرف عن السوء والفحشاء إلا من كان كريماً عليه وحبیباً لديه، فاحمد الله على هذه المنزلة ولا تسقط من عينه.

منزلة الأخوة عند السلف:

يقول أبو سليمان من درر كلامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهذه ليس لها علاقة بالخوف لكنني أحببت أن أذكرها لشدة حاجتنا إليها وإلى مثل هذه العبر - يقول: «لو أن الدنيا كلها جمعت في لقمة - أي: أموالها وشهواتها ومتاعها وكل ما فيها جمع في لقمة - ثم جاءني أخ لي من إخواني في الله لأحببت أن أضعها في فمه».

فالدنيا كلها لا تساوي شيئاً، فالأخوة في الله خير عندي من كل الدنيا، فلو جمعت الدنيا بكل شهواتها وملذاتها ومتاعها وما يطلبه الناس وما يتسابقون إليه منها في لقمة، ثم جاءني أخ في الله لأحببت أن أضعها في فمه! فهؤلاء هم الذين كانت الأخوة والمحبة في الله عندهم بهذه المنزلة العالية؛ ولذلك لو لم يدخلهم الجنة إلا هذا الكفى، فهذا من أعظم ما يرجو به الإنسان الجنة.

قال أنس - رضي الله تعالى عنه - عندما سمع رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر المرء مع من أحب يوم القيامة»، قال: فأنا والله أحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن

أكون معهم^(١). فهذه نعمة عظيمة، فلينظر الإنسان من يحب، ولينظر من يخالل، ولنعرف قيمة الأخوة في الله، والأخوة في الله ليست مجرد مشاعر أو عواطف تأتينا إذا التقينا وذهبنا وأتينا، بل الأخوة الصادقة أن تكون محبًا ومؤثرًا له، ناصحًا صادقًا في معاملته ووفيًا، إذا احتاج إليك فإنك تنجده ما استطعت، وتبذل له ما استطعت.

سأل بعض التابعين بعض تلاميذه: «كيف محبتكم في الله؟ قالوا: الحمد لله، نتحاب ونتأخى في الله، قال: أيمد أحدكم يده إلى كُم أخيه، فيأخذ منه ما يشاء ويدع ما يشاء؟ قالوا: لا. قال: إذن أين المحبة؟».

هكذا تبلغ بهم المحبة، فيشعر الإنسان أن ما يملك فهو لأخيه، وما يملك أخوه فهو له من مال أو من مساعدة أو من خدمة يمكن أن يقدمها الإنسان لإخوانه في الله، فهذه هي حقيقة الأخوة.

يقول أبو سليمان الداراني -لنعرف كيف كانت سيرته في العزوف عن الدنيا، والتعلق بالآخرة، والخوف من الله ﷻ قال: «إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب، لم تزحمها الآخرة؛ لأن الآخرة كريمة، والدنيا لثيمة، ولا يزاحم إلا اللثام».

إذن الذي ينبغي للإنسان أن يجعله في قلبه هو الآخرة، أما إذا كانت الدنيا هي التي في القلب فلننتبه، فلا بد من يقظة، ولا بد من عزيمة، ولا بد من عمل، فلا نتوقع أن تأتي الآخرة فتزحمها أبدًا، فالإنسان لابد أن يعلم ما الذي يضع في قلبه، فإن كانت الآخرة فليحافظ عليها من مزاحمة اللثيمة، وإن كانت اللثيمة، فليطردها وإلا فلن تخرج؛ والكريمة لن تزحمها ولن تدخل.

حسن الظن أم أمانى كاذبة

ومن كان هذا حاله كان ملازمًا للمحاسبة دائمًا، وكان الخوف هو الغالب عليه

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

في تصرفاته، ولهذا قال -رحمه الله تعالى-: «من حَسَنَ ظَنه بالله ﷻ ثم لا يخاف الله فهو مخدوع» كما قال الحسن: «إن قومًا أساءوا العمل، وقالوا: نحسن الظن! ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

هذه قاعدة الكرام العقلاء في حياتهم: إذا أحسنوا الظن أحسنوا العمل، والناس في دنياهم يتعاملون هكذا، فإذا وجدت إنسانًا يجتهد في شيء ويحسبه فإنك تقول: هذا إنسان وإن شاء الله سيساعدنا، وإذا وجدت واحدًا لا يهتم بشيء فإنك تقول: هذا لا ينفع مهما عملت معه، فهذه حقيقة، فمن أحسن الظن أحسن العمل.

فإذا أتينا إلى ما يتعلق بالله ﷻ -ولله المثل الأعلى- فسوف نجد أهل الفجور والمعاصي والذنوب يتقحمون في النار، ويقولون: نحسن الظن بالله. وحقيقة أحدهم أنه مخدوع خدعه الشيطان، وخدعته النفس والشهوات، وخدعته الدنيا والأمانى الباطلة، وخدعته أنواع من الغرور والخداع، فأمن وركن إلى الدنيا، فكانت هذه هي النتيجة، وهو أنه هنالك عند الحساب لا يجد شيئًا! فالمخدوع يكتشف أنه مخدوع إذا قضي الأمر وانتهى، فيقول: ربنا أخرجنا! ياليتنا نرد فنعمل صالحًا! وقد قضي الأمر وانتهى.

الازدياد في الطاعة:

ومن درر كلامه -رضي الله تعالى عنه- أيضًا في هذا الجانب؛ حتى يتعلق الإنسان دائمًا، ويتطلع إلى الزيادة، ولا يطمئن ولا يركن إلى عمله، ولا يقول: أنا أرجو. ويحسن الظن في غير موضعه، قال: «من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان».

هذه القاعدة حتى في الدنيا التجار، والشركات... وغيرها، إذا كانت نسبة الربح في هذه السنة مثل النسبة التي كانت في السنة الماضية فإنهم يقولون: «أكيد أننا خسرننا، وما هي الفائدة وربح هذه السنة مثل ربح السنة الماضية؟»

فدائمًا يريدون النسبة أن ترتفع! هذا في دنيانا، لكن في الآخرة قليل من الناس من يفكر كذلك.

ولقد جاء عن بعض السلف أنه لو قيل له: «إنَّ يوم القيامة تقوم غدًا» أو «إنك

سوف تموت الليلة» ما زاد في عمله شيئاً...! فهؤلاء قوم أخذوا أنفسهم بهذه القاعدة، وكل يوم يأتي عليه فهو أفضل مما قبله، وصل في النهاية إلى أنه لو قيل له: تموت الآن أو تموت الليلة فما يزيد في الطاعات! لا يوجد مجال؛ لأنه مستكمل لكل جوانب الطاعات، لكن لو نظرنا إلى الغافلين اللاهين من أمثالنا: لو قيل له: «سوف تموت الليلة أو غداً». لقال: أريد أن أصلي، وأن أصوم، وأن أتصدق، وأن أجاهد!! فالأيام تمر ولم نسدها بعمل صالح فهي ثغرات مكشوفة، وهذه الثغرات المكشوفة يتسلل منها العدو والشيطان والشهوات والدنيا، فيفاجأ الإنسان وقد دخل قلبه شيء من ذلك، لكن الذي يحرص كل يوم على أن يكون ما بعده خيراً منه، فإنه سيكون أكثر ذكراً لله، وأكثر حرصاً على طاعة الله، وأكثر طلباً للعلم النافع، وأكثر جهاداً، وأكثر أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وأكثر خوفاً، وأكثر رجاءً، وأكثر محبة ما استطاع، حتى لو نقص عمله الصالح أحياناً فإنه يعوضه.

معالجة القلوب:

والقلوب ليست دائماً على حال واحدة، «إنما القلوب كالدواب» كما قال بعض السلف -رضي الله تعالى عنه-، وهم يمثلون بالدواب؛ لأنهم كانوا يعيشونها يومياً، أحياناً يركب الإنسان على هذه البغلة فتمشي وتهرول وتهملج وأحياناً تستعصي وتقف فيضربها ويحركها، فلا تمشي بسبب ما من الأسباب، والقلوب كذلك، في يوم من الأيام، ولحظة من اللحظات، وساعة من الساعات تجد نفسك تقرأ القرآن بانسراح وانفتاح وطمأنينة، وتجد نفسك منشرحة لعبادة من العبادات، أو لطاعة من الطاعات، أو لذكر من الأذكار، أو لعمل من أعمال الخير، مهما استكثرت منه؛ فالنفس منشرحة تقول: يا ليتني أستمر على هذا العمل! ويا ليتني لا أنقطع عن حلاوته!

وفي لحظة من اللحظات أو يوم من الأيام تجد أنك كالذي ينحت في الصخر بقوة! لا تستطيع أن تنال شيئاً من ذلك!

إذا كان هذا حال القلوب فلا بد أن تأخذها وقت الرخاء ووقت الإقبال بالعزيمة،

فتحثها وتسيرها فتقطع مسافة كبيرة، فإذا حرّنت الدابة، وتلكأت، وعرجت، واسترخت، فسيكون ذلك وقد قطعت مسافة كبيرة جدًّا، لكن إذا هملجت وأسرعت فاسترخت ونمت، فلن تقطع بك إلا قليلًا، فإذا تلكأت هي وأردت أنت أن تحركها وقفت، فلا تقطع شيئًا، فيسبق السابقون وأنت منقطع ومتخلف ليس معك أحد، فهكذا حال الإنسان.

ولا يعني أن كل يوم أفضل من جميع الوجوه، فقد تجد أنك في يوم من الأيام صعبت عليك الطاعة، العمل الصالح، فإذا رأيت ذلك في نفسك فاجتهد فيه ما استطعت؛ فإذا جاءك من غدٍ فسحةٌ وانطلاقةٌ وانسراحٌ، فاحمد الله ﷻ، واستمر في الاجتهاد، فلا تأتي الحزونة أو الحرونة من غدٍ إلا وقد قطعت شوطًا كبيرًا، وتقول: يا نفس، بالأمس كنت كذا، والآن هكذا! لا يليق هذا الشيء، فتمشي بك ولو إلى نصف الطريق، فتكون قد كسبت! لكن لو كنت في وقت الرخاء مشيت النصف، فأنت في وقت الشدة قد لا تقطع الربع، والله المستعان.

لربهم يرهبون:

وممن اشتهر عنه جانب الخوف - وهم كثير - رجلا ن عُرفًا بذلك أكثر من غيرهما كما قال بعض السلف: «أكثر الناس بعد الصدر الأول من الصحابة وكبار التابعين خوفًا رجلا ن هما: عمر بن عبد العزيز وسفيان الثوري كأن النار لم تخلق إلا لهما».

فمن كان يتأمل ويرى حال عمر بن عبد العزيز - رضي الله تعالى عنه - فإنه سوف يقول: (ما خلقت النار إلا له) فكأنه يشعر أنها ما خلقت إلا له، وحياته فيها الكثير من العجائب! ولذلك فإن ابن الجوزي رحمته الله - صاحب «صفة الصفوة» - لما تكلم عن سير الصالحين والعباد، أفرد الكبار المشاهير بكتب مستقلة، ومن الذين أفردهم ابن الجوزي بتراجم مستقلة - لأنهم كانوا أكثر وأشهر وأعظم من أن يحصرهم ضمن تراجم مع غيرهم عمر بن عبد العزيز، فله كتاب عظيم عنه، وله كتاب عن سفيان الثوري وهو - والله أعلم - مفقود، وما بلغني أنه موجود، وحبذا لو يظهر! والثالث عن الإمام

أحمد بن حنبل.

ومن حكمة الله أن يذكر غير الصحابة أيضًا في التحدث عن تلك الفضائل، فلو ذكر الصحابة فقط لقال الناس: هؤلاء صحابة رسول الله ﷺ ومن يبلغ ما بلغوا؟ لكن تأتي هذه النماذج، بعضهم في وقت الشدة ووقت الفتن ووقت البدع، وبعضهم في زمن الحجاج.

عمر بن عبد العزيز والهمة العالية:

عمر بن عبد العزيز الذي جاء في زمن الفتنة والشهوات، والدنيا قد أقبلت ومع ذلك فقد أترَّ عنه أنه لما كان أميرًا على المدينة جيء له بثوب، فقال: كم ثمنه؟ قالوا: خمسمائة دينار، فقال: رخيص. فلما ولي الخلافة جيء له بثوب، قال: كم ثمنه؟ قالوا: عشرة دراهم، قال: هذا غالٍ، فانظر كيف تبدل حاله! قال بعض جلسائه: والله يا أمير المؤمنين! إني لأذكر - لأنه في أول شبابه كان مترفاً رضي الله تعالى عنه - مرة عرض عليك الثوب بكذا وكذا دينار، فقلت: رخيص. فقال كلاماً عظيماً عجيباً جداً قال: «تأقت نفسي إلى الإمارة، فلما وليتها تأقت نفسي إلى الخلافة، فلما وليت الخلافة تأقت نفسي إلى الجنة». فهذه هي الهمة العالية! لما ولي الخلافة، كان يحكم الدنيا، ولو أن رجلاً أقسم بالله أنه كان يحكم الدنيا ما حنت ولا أثم كما يعبر الفقهاء، إذ كان يحكم من جنوب فرنسا إلى بلاد المغرب وإفريقيا إلى بلاد الشام والعراق وترك وحتى حدود الهند والصين، وتدفع له الممالك من غير المسلمين الجزية، هذه هي الدنيا! أما الأمريكتان وأستراليا فلم تكن معروفة، وأما أوروبا فإنهم همج ولو أُعطيَتْ لأحد ذلك اليوم لما قبلها، ولو قيل له: احكم أوروبا، لقال: ما أريد بها وهم همج رعا لا خير فيهم.

إذن فقد كان يحكم الدنيا، فتطلع إلى ما هو أعظم من الدنيا، فقال: (الآن تأقت نفسي، أي: اشتاقت نفسي إلى الجنة).

إن القيمة الحقيقية هي في الآخرة، أما الذي يُعظَّم الدنيا ويحبها ويريد ما فيها، فقد

يحصل عليها ولو بأغلى الأثمان، لكنها سرعان ما تنتهي وتذهب، وهكذا الدنيا! ليس فيها شيء يدوم! بهرج وبريق كبرق السحاب الخلب، ثم تذهب وتنتهي أما النفوس العالية ذات الهمة العالية، فهي لا تنظر إلى مجرد المتاع كالههم الدنيئة.

كما قال بعض السلف: «القلوب نوعان: قلوب تطوف حول العرش، وقلوب تطوف حول الحش» أي: المرحاض، ويعنون بذلك أن أهل الدنيا كل تفكيرهم في شيء نهايته إلى ذلك المرحاض: شهوة النساء، أو شهوة الأكل، أو شهوة كذا، فكلها في المرحاض وما حوله؛ لكن هناك قلوب تطوف حول العرش، فهي دائماً هناك! تفكر في آلاء الله، وفي صفات الله، وفي أسماء الله ﷻ، وفي هذه المعاني العظيمة، تُفكر دائماً فيما عند الله، تفكر في جنات عدن التي سقفها عرش الرحمن، وهكذا يعيش الناس في دناءاتهم، وهم بهذه الهمة العالية.

الورع وابن المبارك:

ولشهرة هؤلاء أخذنا بعض النماذج الأخرى، ومنهم عبد الله بن المبارك - رضي الله تعالى عنه - الذي كان مجاهدًا، وكان عابداً، جمع بين الجهاد وبين العبادة وبين الكرم، وسيرته عجيبة.

عبد الله بن المبارك - رضي الله تعالى عنه - كان في أصله من أولاد الملوك، وكان أجداده من ملوك فارس، وكانت أمه تركية، وعنده عجائب في الورع وفي الزهد.

يقول أحد تلاميذه: «رأيت في منزل ابن المبارك حمامًا - كما نرى نحن الآن في البيوت من الحمام الذي يربى في البيوت - فكانه استغرب أن هذا الحمام يتكاثر ولا أحد يأخذه، فقال عبد الله بن المبارك: قد كنا ننتفع بفراخ هذا الحمام، فنأخذها ونذبح ونطعم أبناءنا أو ضيوفنا، قال: فلم نعد ننتفع بها اليوم، قال: لماذا؟ قال: اختلطت بها حمام غيرها، فتزوجت بها، فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك».

سبحان الله! بخلاف هذا الزمان! فالواحد لو قُدِّر له أن يلتهم ما عند الجيران وما عند زملاءه وما عند الموظفين لأكل؛ مع أن المسألة ليست أن تشبع أو أن تكنز المال!

فكرًا فأمامك حساب، فهذه شدة حذرهم وخوفهم رضي الله تعالى عنهم.

وقد بلغ من شدة خوفه وتفكره مبلغًا عظيمًا، قال سويد بن سعيد: رأيت عبد الله بن المبارك بمكة أتى زمزم فاستقى عنها، ثم استقبل الكعبة، فقال: «اللهم إن ابن أبي الموالي حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «ماء زمزم لما شرب له»^(١) وهأنا أشربه لعطش يوم القيامة، فحين ترى ما يفكرون فيه، وهم يعملون الطاعات، إذ هو في عبادة وهو في حج، فإنك ترى فيهم مصداق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال نعيم بن حماد: «كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق -والمقصود أي حديث في باب الرقاق- فكأنه بقرة منحورة من البكاء، لا يجرو أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء».

التواضع عند ابن المبارك:

ومن عجيب كلامه ما نقله عنه عبد الله بن حبيب «قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ قال: التكبر على الأغنياء».

ولا يعني أن الإنسان يظلمهم أو ينظر أنه أفضل منهم، إنما الحكمة واضحة ومقصودة، وهو أن تشعر أنك بما عندك من إيمان وتقوى وعبادة خير من هؤلاء، فهذه حقيقة التواضع، وليس أن الإنسان إذا رأى أحدًا من هؤلاء فإنه ينبغي له أن يتواضع، فليس التواضع أمام الأغنياء أو أمام الكبراء في كلمة الحق أمرًا مرغوبًا فيه شرعًا، بل قد يكون هذا التواضع داخلًا في باب آخر في باب الخوف من غير الله أو في باب محبة الدنيا؛ فلو رآك أهل الدنيا ومن لا خير فيهم تتواضع أمامهم لقالوا: هذا يطمع فيما عندنا، وهذا يريد المال، وهذا يريد شيئًا! لكن لو رآك الأغنياء وأهل الدنيا وأنت تتكبر

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٥٧)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٠٢).

عليهم بأن يدعوك فلا تذهب، فإذا دعاك فقير طالب مسكين، لا يملك شيئاً من حطام الدنيا وأجبتة، وذاك يرى ويسمع، لعلم أنك متكبر عليه، فهذا هو المقصود، وليس التكبر هنا أنك تغمطه فضله أو حقه، بل أن يعلم أنك لا تنظر إلى جاهه ولا إلى منصبه ولا إلى أي شيء، خاصة إذا كان من أهل الدنيا الذين لا يريدون الله واليوم والآخر.

وليس كل من آتاه الله مالاً فهو كذلك، ليس هذا هو المقصود، إنما المقصود أن يرى الناس فيك هذه الصفة.

جاء إلى سعيد بن المسيب، والخطبة ابنته لولي عهد المملكة والخلافة الوليد بن عبد الملك، فعبد الملك خطبها لابنه الوليد فرفض وأبى، وزوجها من ذلك المسكين طالب الحديث، ورفض أن يعطيها لابن عبد الملك بن مروان الذي كان يحكم الدنيا من شرقها إلى غربها.

إذن: فهذا هو التكبر على أهل الدنيا، وهذا هو التواضع.

وهذه حقيقة التواضع حتى لا يفهم بعض الناس من سير هؤلاء الأجلة والعلماء أن التواضع هو ما فهمه الصوفية من الاستخاء والاستجداء، فهؤلاء لو راح الواحد منهم يريد أن يعمل دعوة، فأول ما يبدأ بالأغنياء، ويطلق بيوت الكبار؛ حتى لو أرادوا عملاً من أعمال الخير ولو كان موعظة أو تدريساً في مسجد فإنهم لا يذهبون إلا إلى مساجد الأغنياء وإلى مجالس المترفين! نسأل الله العفو والعافية، وهذا فهم الصوفية الذين تنقطع قلوبهم من حب الدنيا، وفي نفس الوقت يدعون أنهم من أهل الله، أما المؤمنون الصادقون الذين يؤثرون حقيقة الآخرة على الدنيا فإنهم لا يباليون بهؤلاء، وإنما ينظرون إلى الإنسان من جهة إيمانه وتقواه، فيحبون الله ويوالون فيه ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

الهوان على الله:

السؤال:

الشخص الذي كان غارقاً في المعاصي والذنوب، وكان هيناً على الله، ثم يتوب عن ذلك ويصلح، فيصبح غير هين على الله؛ فما هو أساس هذا؟ ثم أحياناً يكون عكس ذلك كالذي يتحول من ظاهر الصلاح إلى المعاصي؟

الجواب:

الخيار بيد العبد، فإن أراد أن يكرمه الله ﷻ فليتق الله، وليحفظ نفسه من المعاصي ومن الذنوب، وليصدق مع الله في ذلك، فإذا صدق مع الله في إرادته الخير والهداية أكرمه الله ﷻ بمزيد الفضل والإيمان ورفع الدرجة، وحجزه عن المعاصي والذنوب.

أما إذا تخلى عن ذلك، وكان إيمانه قليلاً أو ضعيفاً أو كان مدخولاً، وعصى الله ﷻ، فإنه يهان، ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، ولو كانت له ذلك منزلة عند الله ﷻ فيما يرى من نفسه، ولو كان قبل ذلك على طاعة وعلى خير وإحسان وإخلاص في ظاهر نفسه، لكنه ارتد وانتكس! فهذا قد أهان نفسه، والله ﷻ لو علم فيه خيراً لحجزه ولعصمه بما قد سبق له، لكن لا بد أن في تلك الأعمال ما لا يقبله الله ﷻ، أو فيها ما لا نعلمه من المفسدات أو المحبطات، أو اقترن بها ما لم يجعلها تعطي الإنسان المراد والمطلوب من مثل هذه الطاعة.

فالمقصود أن الأمر بيد الإنسان، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فمن أراد كرامة الله ﷻ فطريق الكرامة أمامه، ومن أراد غير ذلك فهو كما أراد، وكما قال ﷻ: «اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له»^(١).

إن كان من أهل الكرامة والفوز والنجاح فهو ميسر له ذلك، وإن كان من أهل الشقاوة والغواية فإنه ييسر له ذلك، فلا تناقض في هذا.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

خشية الرياء من علامة التقوى:

السؤال:

إنني أحياناً في قيامي بعبادتي، وخاصة التي تكون أمام الناس أكون في صراع مع نفسي، هل أنا مرءٍ أم لا؟ وأذكر أحياناً دعاء كفارة الرياء؟

الجواب:

هذا من جملة ما يقع لأكثر العباد، ونرجو أن يكون ذلك من علامة التقوى، لأنه كما قال الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النفاق «ما آمنه إلا منافق، ولا خافه إلا مؤمن».

والرياء يحبط الأعمال، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾^(١) أحداً ﴿١١﴾ [الكهف: ١١٠]، والله تعالى يقول كما في الحديث القدسي الصحيح: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك»^(٢). أو قال: «تركته وشركه»^(٢).

فالله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك؛ لذلك فإن كل عبد تقي يخاف الشرك الأصغر «الرياء» الذي يحبط الأعمال، وقد يكون الرياء شركاً أكبر كرياء المنافقين، أي: إذا كان الرياء في أصل الإيمان.

فالخوف من الرياء من سمات المتقين الصالحين، ولا ينبغي للعبد المؤمن أن يمنعه شبهة الخوف من الرياء أو أن الناس ينظرون إليه عن عمل من أعمال الخير أو الصلاح.

إن كنت تقرأ القرآن، أو تصوم، أو تصلي، أو تتصدق، أو تعمل أي عمل من أعمال الخير، تفعله أنت عن إيمان وعن محبة لهذه الطاعة، وتقرب إلى الله -تبارك وتعالى-، فلا يمنعنك من ذلك خشية كلام الناس، فتحشى أن تقع في الرياء، فتقول: لا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

أعمل الطاعة، فهذا باب من أبواب الشيطان التي قد يدخل بها على الإنسان؛ ولهذا قد ورد عن بعض السلف أنهم قالوا: «العمل لأجل الناس رياء، وترك العمل لأجل الناس كفر».

إذا كان الإنسان يعمل الطاعة من أجل الناس فهذا رياء، فإن تركها من أجل الناس لأي سبب من الأسباب فهذا كفر! نعوذ بالله منه.

إذن: الإنسان لا يترك الطاعة، إنما يعمل الطاعة من جهة، ويقاوم الرياء من جهة أخرى، ويستغفر الله إن كان قد وقع له منه شيء.

هذا هو الواجب، وإلا فالشيطان يُلبس على كثير من الشباب في هذا، فبعض طلبه العلم ترك حفظ القرآن، لأن الشيطان أوهمه بأن حفظه جيد، وقراءته جميلة، فلو حفظت القرآن لافتنت.

وبعضهم ترك الصلاة في المسجد، يقول: إنني إذا سمعت القرآن لا أصبر من البكاء من الخشوع، وأصلي صلاة خاشعة، فخفت من الرياء، فجعل الصلاة في البيت! وهذا هرب من شيء محتمل، فوقع في ذنب مؤكد وخطأ محقق؛ فليس هذا هو التعامل الصحيح الذي سنه لنا رسول الله ﷺ ولا أصحابه الكرام، بل من الأعمال ما ينبغي أن يجهر بها الإنسان مع الحذر من الرياء، كالزكاة مثلاً؛ قال العلماء فيها: يحسن أن يخرجها علانية أحياناً لما في ذلك من المصلحة؛ ولهذا ذكر الله ﷻ الحالين: السر والعلانية في الإنفاق خاصة، أما السر فحتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه؛ ليكون أبعد عن الرياء، وأما العلانية ففيها فوائد عظيمة منها: أن يكون أسوة لغيره ليقنتي به.

ومنها - وهو مقصد شرعي وإن كنا قد نغفل عنه - دفع الغيبة عن نفسه، كأن يقال فيه: هذا مع كثرة أمواله لم يطعم مسكيناً! ليس فيه خير. ويدخل في الإثم بسبب الغيبة، فأنت تدفع ذلك عن نفسك، لكن بشرط ألا ترائي، فتنفق علانية، وليس كما يفعل البعض من أنهم يقفون ضياعاً ثم يكتبون عليه هذا وقف فلان بن فلان! يكفي أن يعلم الناس في المحكمة أن الذي بنى الوقف هو فلان أو يعلم الجيران في الحي بأن

الذي بنى المسجد هو فلان، فلو علموا ذلك فلا بأس، وربما يكون ذلك مدعاةً لأن يتنافسوا في الخير، بشرط أن تأمن أنت على نفسك من الرياء.

هذه حالات للقلوب، وكلُّ أدري بقلبه وأعلمُ بنفسه، لهذا نجد السلف - رضوان الله عليهم - منهم من كان يعمل علناً، ومنهم من كان يعمل سراً، لماذا؛ لأن بعضهم كان يعلم من نفسه أنه لن يراني، وأنه لا يهمه كلام الناس، فيفعل ما يشاء سراً أو علانية.

والبعض كان يخاف؛ لأنه يعلم أن نفسه ربما تقع في ذلك، فكان سره أكثر من علانيته أو ربما لا علانية له، أما أهل الدعوة والعلم ممن يُقتدى بهم فلا بأس أن تظهر منهم بعض هذه الطاعات لمصالح كثيرة من أهمها: الاقتداء، لكن مع الحذر من الرياء. أما العبادة الخفية كعمل أعمال الطاعة في البيت، فلا يكون التحدث بها من غير داعٍ إلا رياءً، أما ما كان من أصله علانيةً فلا بأس أن يكون كذلك.

التفكر في صفات الله:

السؤال:

هل التفكير في صفات الله صحيح؟ وما هو دورنا إذا وجدنا أي خطأ في كلامك يخالف الصواب؟

الجواب:

أي خطأ تجدونه فردونا إليه، والإنسان معرض للغلط، فقد يتكلم في موضوع وينسى، فإذا كان حُفاظ القرآن أو السنة يخطئون، فكيف بمن يستنبط ويجمع من هنا وهناك؟! لا بد أن يقع منه خطأ فوجهونا جزاكم الله خيراً.

أما مقولة: (نتفكر في صفات الله وأسماء الله) فليست خطأ، فنحن لم نقل: نتفكر في ذات الله، وإنما قلنا: التفكر في صفات الله، فمثلاً التفكر في اسم الله الكريم، ومظاهر كرمه على الإنسان، ومما تجد برده على قلبك، وأذكر تجربة بسيطة: كنت أفكر في كرم الله وفي حلم الله وعفوه، فلما ذهبت إلى أمريكا، وتحدثت مع بعض الإخوان،

قلت لهم: الإنسان هنا يرى يقيناً أن الله ﷻ حلِيم وكريم، سبحانه الله ما أوسع رحمته! وما أوسع وأعظم حلم الله! فهؤلاء عندما يرى الإنسان حياتهم، وهم أخط وأرذل، ومن أخس البهائم المعروفة وأخس الوحوش، ومع ذلك يعيشون في نعيم، فجنات الدنيا عندهم، وكل ما يريدونه ميسر لهم، يأكلون ويشربون ويسرحون ويمرحون ويعبثون بالدنيا، العالم كله يكاد أن يكون تحت سيطرتهم، إن أرادوا إسقاط دولة أسقطوها، وإن أرادوا إقامة دولة أقاموها بعد إذن الله سبحانه، آتاهم الله من ملك الدنيا شيئاً عجيباً، وهم يعيشون أخط ما يمكن من الحياة الدنيئة الذليلة التي يترفع عنها لا نقول: عباد الله المكرمون، بل البهائم، وهذا يدل على قول الله ﷻ: ﴿ وَأَمَلِي لَهُمْ إِنِّي كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٥]، وقوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، إلى آخر الآيات، فالإمهال والاستدراج تجده أمام عينيك، ومهما حدثت عنه، فلن تجد مثل ما ترى.

فتفكر في ذلك، ثم إذا تفكرت في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا يَافِيئِدٌ وَإِنَّا لَمَوَسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وحين تنظر إلى هذه النجوم والكواكب، وكيف خلق الله ﷻ هذا الخلق، والاتساع الذي تعجز العقول عن إدراكه، وهم يتكلمون في هذه الحياة الدنيا، في حدود الوجود الدنيوي، أي: السماء الدنيا فما دونها، ولا يتكلمون عن السماء أصلاً، لا يعرفون السماء ولا يذكرونها، ويظنون أنها مجرد فراغ، لكن ما يتكلم به الفلكيون الكبار المتخصصون عن أبعاد ما بين هذه النجوم شيء مذهل جداً يحير العقل! فتعرف أن الله ﷻ هو المتصف بهذه الصفات، فيزداد عندك الخشوع لله والرغبة والخوف والرهبة منه ﷻ.

أضرب لكم مثالا - والله المثل الأعلى -: إنسان كنت تراه كل يوم في العمل أو في الشارع، أو جار لك يذهب ويروح بطريقة عادية، ثم جاءك رجل واحد، فقال: هناك رجل اسمه: فلان بن فلان، كان وزيراً وكانت لديه الأموال، واخترع مخترعات عجيبة، وفعل ما لم يفعله الكثيرون، وهو ساكن هنا، فتقول: هذا فلان جاري، ثم عندما تراه مرة أخرى تنظر إليه، وقد تغيرت معلوماتك عنه، وتكرر النظر، وتسعد بلقاؤه، وترجو لو

تستضيفه، كان هذا بعد أن علمت منجزاته، فارتفعت قيمته عندك.

فكيف بالله ﷻ؟! والله المثل الأعلى! إذا عرفت صفات الله، وتذكرت هذا الإله الكريم العظيم الذي هذه عظمته وقدرته، ومع ذلك كان رحيمًا، ومن رحمته مع كمال غناه - كما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] - أنه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، ومع ذلك ينزل إذا كان الثلث الأخير إلى السماء الدنيا، يخاطبنا نحن المساكين المحتاجين الفقراء: «هل من سائل فأعطيه؟! هل من مستغفر فأغفر له؟! هل من داع فأستجيب له?!»^(١). فكلما تقرأ حديثًا عن الله، أو تعرف صفة من صفات الله في الكتاب أو السنة، فإنك تزداد - بإذن الله تعالى - إيمانًا و يقينًا وحبًا لله ﷻ، ورغبة فيما عند الله، وخشوعًا لله.

ولهذا قال العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أنهم هم العلماء بالله وبأسمائه وصفاته وما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وبما يليق به وما لا يليق به.

ولهذا كان من أفضل الأذكار تنزيه الله ﷻ وتسبيحه وتقديسه.

فهذا ما قصدناه، وأما الخطأ فأكرر وأقول: كلنا عرضة للخطأ، ورحم الله امرأً أهدي إلينا عيوبنا!

التأخي في الله والبغض لأعداء الله:

السؤال:

نرجو أن تسامحنا فقد تكلمنا فيك وبهتاك واغبتناك؟!

الجواب:

غفر الله لكم! نرجو الله ﷻ أن نلقى الله، وليس في قلوبنا أي غلٍّ على أي مسلم إن شاء الله أيًا كان، ومهما أساء إلينا، ونحن كلنا عرضة للخطأ، ونرجو الله ﷻ أن

(١) أخرجه أحمد (٤٣٣/٢)، وصححه العلامة الالباني في «صحيح الجامع» (٨١٦٧).

تكون عداوتنا وبغضنا وكلامنا في أعداء الله، حتى إذا لقينا الله يوم القيامة يكون خصمك عدو الله، لا رجلاً مؤمناً، وأنا أرجو من نفسي ومنكم جميعاً أن نجعل عداوتنا وبغضنا وما في قلوبنا من مقت أو غضب أو كراهية دائماً هو لأعداء الله وأهل الشرك وأهل البدع ولأهل المعاصي المجاهرين المحاربين لله ولرسوله ﷺ، أما المؤمن فمهما أخطأ عليك فهو أخ لك في الإيمان، وسيرده إليك إيمانه بإذن الله، وسيرجع إن كان فيه خير وإخلاص وإيمان، ولو بعد حين، ولنحذر أن يشكك الشيطان بعضنا من بعض، وأن يفرق بيننا بالنقولات ونحوها ولا نعين الشيطان بها، ولتكن القلوب سليمة، لأننا من أحوج ما يكون إلى قلوب متآخية، نقية، متصافية، سليمة.

أما أن تذب عن عرض أخيك، فهذا عمل عظيم قال ﷺ: «من ذب عن عرض أخيه، ذب الله عنه النار يوم القيامة»^(١). لكن لا تذهب إلى الآخر، وتقول: ذكرك فلان بسوء، فتزرع بينهما العداوة، بل دعهما متحابين، وفيما يظهر لهم، وأنت تقوم بواجبك دون أن يعلم أخوك.

العلمانية والفرق بين تكفير الفكرة وتكفير المعين:

السؤال:

ما هي العلمانية؟

الجواب:

العلمانية إذا كانت بمعنى اعتقاد الإنسان أن الدين مفصول عن الحياة، وأن الدين ينظم علاقة معينة بين الإنسان والله، ولكنه لا ينظم شؤون الحياة، بل نلجأ ونرجع في تنظيم شؤون الحياة إلى غير الله، وإلى القوانين الوضعية، والتقاليد والعادات والآراء البشرية، في الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسة والتربية والتعليم وما أشبه ذلك، فهذا الاعتقاد كفر لا شك فيه.

وهو اتخاذ نذ مع الله ﷻ، وهو أشنع وأشد من كفر الجاهليين المشركين الذين

(١) أخرجه الترمذي (١٩٣١)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

جعلوا شيئاً من الحرث والأنعام لله، وشيئاً منها لغير الله كما ذكر الله ﷻ عنهم في سورة الأنعام، وما أشركوا به أيضاً من البحيرة والسائبة إلى آخر ذلك.

فهذا الاعتقاد شرك وكفر، لكن ليس كل من قال هذه العبارة أو تلفظ بها يكون كافراً مشركاً الشرك الأكبر.

لأن المعين لا بد في تكفيره من تحقق شروط وانتفاء موانع، فقد يقولها عن جهل، بغير قصد، وبتلبيس، وقد يقصد أمور الدنيا (أي: الأشياء العادية) مما قال فيه النبي ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»^(١). أو شيئاً من هذا، فالتلبيس وارد على الناس في هذا الأمر.

فنحن عندما نريد أن نجلي حقيقة من حقائق الدين والشرع، فإننا نبينها ونقول: هذا الاعتقاد توحيد، ذاك الاعتقاد شرك أو كفر، ونوضحها بالأدلة.

أما الحكم على المعينين فلا بد من استيفاء الشروط، وانتفاء الموانع. فقد يتفق اثنان في كلمة أو في عمل، وأحدهما كفّر وخرج من الملة، والآخر معذور.

التفكر في آثار الصفات:

السؤال:

هل صحيح أن نقول: لا يجوز أن نتفكر في كيفية الصفات، ومطلوب أن نتفكر في معاني وآثار الصفات؟

الجواب:

نعم، هذا هو المقصود، وأذكر فائدة هي أن شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمة الله عليه- قال في الاستدلال بصفات الله ﷻ: إنه لا يمكن ولا يصح ولا يجوز أن يشرع أحد من دون الله؛ لأن المشرع لا بد أن تجتمع فيه صفات كما قال تعالى:

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣).

﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي ﴾ [الشورى: ١٠]، إلى أن قال:
 ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وما دام لا يوجد أحد فيه
 هذه الصفات، فلا يمكن أن يشرع أحدٌ إلا الله ﷻ؛ فاستدل بمعاني هذه الصفات على
 هذا الأمر العظيم، الجليل.

نماذج من النشرات التنصيرية، وكيفية التعامل معها:

السؤال:

هناك نشرات تنصيرية ونطلعكم على بعضها، وكيف نتعامل معها؟

الجواب:

هذه نشرات تنصيرية، وفي كل أسبوع أصبحت تأتي هذه النشرات وتنتشر، وأنا لا أريد أن أبين إهمال الرقابة أو الجمارك أو التجار، أريد أن أبين إهمالنا نحن، لماذا؟ لا أخفيكم أنني اتصلت ببعض المسئولين بالجمارك، فقالوا: أين أنتم؟! أي بضاعة فيها شيء من هذا، فلا تقولوا: نصادر هذا القماش ونحوه، بل اكتبوا لنا عن البضاعة، وعن التاجر، ونحن نسحبها من جميع الأسواق، ونعاقب التاجر، ولهذا لا بد من إعانتهم.

هذه المسطرة -مثلاً- عليها رسومات: الرسم الأول مكتوب عليه: نحن نتعلم عن المسيح في الكنيسة، وفيها طلاب يمشون والكنيسة أمامهم مع الصليب.

الرسم الثانية: نتذكر الصلاة كل يوم.

الرسم الثالثة: أينما يقودنا المسيح فنحن وراءه.

والكتابة بالإنجليزي، لكن -أيضاً- يقرأها الناس، والآن يطالب البعض بتكثيف الدراسة باللغة الإنجليزية، وكأنهم رأونا أقوياء في العربية والشرع، ولا ينقصنا إلا الإنجليزية؛ لنستقبل البث المباشر، ونفهم ما يقولون، فيجب على من رأى شيئاً من هذا، أو الأقلام التي فيها صور عارية، أو أي شيء من هذه البضاعة -أن يبلغ عنها، فعند شرائك إياها من المكتبة، خذ فاتورة من صاحب المكتبة، وأرفق البضاعة هذه مع الفاتورة إلى إدارة الجمارك، فإذا لم تستطع توصيلها إلى إدارة الجمارك فأوصلها إلى الهيئة، والهيئة ترفع بها إلى الجمارك، فتسحب البضاعة من السوق، وأيضاً ربما يكون هناك عقاب أو اكتشاف لمن أدخلها، وهو إما جاهل أو خبيث، قد يكون موظفاً نصرانياً خبيثاً أو متعاقداً أو عاملاً، وقد يكون غير ذلك.

الهدى النبوي في الضحك:

السؤال:

هل يليق بطالب العلم الذي يأخذ من ميراث النبوة أنه إذا ضحك سمعت له قهقهة، نرجو أن توجهنا إلى أدب الضحك والابتسام؟

الجواب:

صح عن النبي ﷺ في أكثر من موقف أنه ضحك حتى بدت نواجذه الشريفة، صلوات الله وسلامه عليه.

فالضحك والتبسم إذا كان لسبب يقتضيه فإنه ليس مما يُعاقب عليه، لكن المبالغة في الضحك، أو كثرته أو أن يتشبه بالفساق، كما هو حال بعض الناس ممن يضحكون كضحك الفساق، أو كضحك من يرونه على الشاشة من المجرمين الذين يسمونهم ممثلين، أو المبالغة التي تحصل عند بعض الناس، وهذه نقولها للطلاب خاصة، فبعض الشباب يجمعون النكات، وفي اليوم الثاني كل واحد يخبر زملاءه بآخر ما سمع! فأصبح الغرض هو الضحك.

بل بعض علماء النفس - كما يسمون - يقولون في علاجهم: حاول أن تضحك! مع أن الضحك بهذا الشكل لا يحل المشكلة، بل مثله مثل مجروح بجرح عميق غائر، فوضع عليه ما يغطيه عن أعين الناس فقط! لكن ليس عندهم إلا هذا، فهم لا يستطيعون معالجة أسباب القلق والاكتئاب واليأس، ويقولون: الضحك علاج! وأصبحنا نقرأ هذا في عدة مجلات طبية أو علمية! ومن الأدلة على غلبة الشقاوة على الناس بإعراضهم عن ذكر الله، أنك تجد هذا الكلام (ابتسم وضحك) غالباً في كل جريدة وفي كل إدارة وفي كل مكان، وخاصة الأمم التي لا تؤمن بالله تعالى.

ونحن هنا مع الأسف نستورد منهم كل شيء؛ ولذلك أصبحوا يضربون المثل بالابتسامة الغربية، أو الابتسامة الإنكليزية كما يسمونها! نحن أدبنا الله ﷻ بأدب رسوله ﷺ وهدية ﷺ موجود بين أيدينا حتى في ضحكه وفي نومه وأكله وشربه، وهناك كتاب عظيم في هذا المجال ألفه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ «زاد المعاد» والذي يسمى: «زاد المعاد في هدي خير العباد صلوات الله وسلامه عليه»، فهذا الذي يجب أن يكون هدينا في أمورنا كلها عليه.

معنى التطرف عند الغربيين:

السؤال:

جاء خبر يقول: إن الغربيين زاروا العرب ليبينوا لهم خطورة الجماعات، نرجو

التعليق عليه؟

الجواب:

رمتني بدائها وانسلت! هذه تكملة هذا الخبر.

إن الغربيين الفرنسيين ما وجدوا عند من زاروهم الإلمام الكامل بخطورة هذه الجماعات، فجاءوا من هناك من باريس يعلمونهم خطورة هذه الجماعات، ويقولون: لا بد من الاهتمام بذلك، الله المستعان!! وذكروا أن الدول الأوروبية استضافت العديد من قادة هؤلاء الجماعات.

وقبل أيام سمعنا أن (٦٠٠ مليون دولار) وقبلها (٣٠٠ مليون دولار) أعطيت للجزائر ، وهذه هي المكافأة! فأصبحوا يقولون: لا، إن الغرب يتعاون مع هذه الجماعات، وهي تهمة على كل حال.

عموماً ما يهمنا هو واجبنا نحن المسلمين، فواجبنا هو العدل ومعرفة الأمور على حقائقها، وأن نعلم أن هؤلاء كما ذكر الله ﷻ: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] يوصون ويحذرون من خطر المتطرفين، وعندهم أن من طالب بإفقال مصنع للخمور فهو متطرف! ولذلك في الغرب -كما في صحفهم- يعتبرون بلدنا هذا كله متطرف، ويقولون: بلد متطرف! لأن الزنا ممنوع، والخمر ممنوع، وإذا اكتشف أن امرأة زنت تعاقب، سواء في بيت الزوجية أم لا، ولا يكادون يصدقون هذا، لأن عندهم قانون نابليون الذي عمل به الغربيون والدول التي استوردت قوانينهم، أن الجريمة ما كانت على فراش الزوجية! وأذكر هنا قصة حدثت في مصر، وذكرها الشيخ أحمد شاکر رَحِمَهُ اللهُ أَنْ أَحَدَهُمْ دَخَلَ بَيْتَهُ، فَوَجَدَ رَجُلًا يَزِي بِأَهْلِهِ، فَأَرَادَ الزَّوْجُ أَنْ يَقْتُلَهُ، وَلَكِنَّ الزَّانِي سَبَقَ وَقَتَلَ الزَّوْجَ، فَحَكَمَتِ الْمَحْكَمَةُ بِأَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ مُضْطَرٌ وَأَنَّهُ كَانَ فِي حَالَةِ دِفَاعٍ

شرعي عن نفسه، أما الزنا فموضوع آخر! المتطرف هو الذي يرفض الزنا، وهذا أمر ليس بالغريب منهم، إنما الغريب والعجيب أن يقول هذا بعض أبناء المسلمين وفي بلاد الإسلام، هذه هي المشكلة.

مشكلة الخادِمات:

السؤال:

الخادِمات أصبحن مشكلة! نرجو التنبيه إلى خطرهن؟

الجواب:

نعم، وبعض ربوات البيوت تقول: الخادِمة ضربت أبنائي، وعذبتهم بالنار. من الذي وكلها؟ من الذي جعلها خازنة على النار؟ وأخرى تقول: خادمتي كادت تقتلني بعد انتهاء دعوة العشاء. وهناك حوادث قتل، وغيرها من الأعمال الفظيعة، وعدة أمهات يقلن: تعلق طفلي بالخادِمة، جعلها هي الأم وأنا الخادِمة. والطفل معه حق في ذلك، فالخادِمة هي التي تحمله وترضعه وتربيته، وأمه في العمل وفي الوظيفة، وفي المساء في الأسواق.

والأخصائية الاجتماعية تقول: إذا لم يرق الأبوان بدورهما الحقيقي فلماذا نلوم الخادِمة؟! الخطر هو الاعتماد الكلي على الخادِمة، واستقدام الوثنيات والمسيحيات؛ وهذا كلام نشرته صحيفة عكاظ في صفحة: (هو وهي) عن هذه الظاهرة الخطيرة.

أساس الخطر هو استقدام الخادِمة، وبغض النظر عن كونها وثنية - مع أنه لا يجوز للكافر من أي دين كان أن يقيم في جزيرة العرب وهذا معلوم - حتى ولو مسلمة، أين سفرها بلا محرم؟ وخلوتها بالرجل وأبنائه، وأين ما قد يكون في بعضهن من فسق، أو فجور تنقله من بلادها؟ وأين تكشفها؟ وأشياء كثيرة.

بعض الناس إذا دخل الضيوف عنده قدمت الخادِمة لهم القهوة وهي كاشفة الساقين والشعر، ويقول: هي خادِمة. وما يقع في خلوة الخادم مع أهله، وما خفي كان أعظم مما ظهر من الدواهي والبلايا، فالأصل أنه لا يستقدم إلا من كان لديه ضرورة أو

حاجة، فليستقدم المرأة مع زوجها، وليسكنهما منفصلين، بحيث أن المرأة تخدم أهله، ولا يراها ولا تراه، والرجل يخدمه، ولا يرى أهله ولا يراهم، ولا يخلو بالنساء.

وهذا ممكن ومعمول به، وإلا فأمهاتنا كن يعشن التعب والألم والشدة، ما كانت عندنا هذه المشكلة أبدًا، كما أنه كان هناك تعاون بين الجيران فيما إذا مرضت المرأة أو نفست... وهكذا، ولم تكن هذه المصائب والبلايا موجودة.

لكن عندما أتانا التوظيف، والمرأة أصبحت مديرة مستشفى وموظفة أصبحت تستنكف أن تنظف أو تمسك الطفل وتمسك القذارة بيدها، ولو كان ولدها؛ لأن هذا لا يليق بمقامها، فأصبحت خادمة تتولى الرضاعة، وأخرى أعمال البيت! لقد أصابها الغرور، وظنت أن الأمومة عمل دنيء وحقير، وأنها -باعتبارها المديرة والموظفة الراقية- تترفع عن هذه الأمور، وبهذا انتكست فطرتها وتعاملها وأخلاقها، وخسرت أعلى ما يملك، وأفضل ما يُقتنى في هذه الحياة الدنيا.

وإذا سألت أم الطفل: هل يعدل هذا الطفل بالدنيا؟ فتجيب: وما هي الدنيا بالنسبة له؟! رغم تعبها وسهرها عليه، وهي سعيدة جدًا، أما تلك فلا تدري المسكينة شيئًا، بل وحتى في أعمالها تخفق، فلا بد أن يظهر أثر هذه النفسية؛ لأنها حرمت نفسها من عاطفة الأمومة، وتاتشر -المرأة الحديدية كما سمتهما الصحافة العربية والإعلام العربي- لما حدث الانفجار لولدها بكت، ووضعت يدها على خدها مثل أي أم تبكي في الشارع.

لكن الأمهات المؤمنات لا يبكين، ولا يتحنن ذلك الانتحاب، يقال: إن ابنك قد استشهد، فتقول: الحمد لله الذي شرفني بشهادته.

وتلك نسيت أنها رئيسة وزراء دولة عظمى وأنها المرأة الحديدية، وصار الحديد ماء، لأنها امرأة قبل كل شيء، امرأة في أفكارها ومشاعرها وعواطفها.

حكم تداول العهد السبعة:

السؤال:

ما قولكم -فضيلة الشيخ- فيما يسمى بالعهد السبعة؟

الجواب:

ما يسمونها بالعهود السبعة فيها من الدجل والكذب على الله وعلى نبي الله سليمان عليه السلام وعلى التوحيد - الشيء العظيم، وهذه لا يجوز تداولها ولا بيعها ولا تصويرها.

بل يجب أن تُصادر كل نسخة منها، وأن يبلغ عمن لم يتزجر عن نشرها بعد أن يبين له ما فيها من كفر وشرك، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَئِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فكيف ينسب إلى نبي الله سليمان عليه السلام هذا السحر؟! هذا تكذيب للقرآن، ومن صدق به فقد كذب كتاب الله تعالى.

المكس ومعاملة العمال والمكفولين:

السؤال:

هل ما يأخذه الكفيل الذي يعمل عنده مكفول من ماله عنوة وتحت تهديد الخروج النهائي، أو بدعوى أنها تكاليف التعقيب، هل يعتبر هذا نوع من أنواع المكس؟

الجواب:

المكس المقصود به العشور، أو الضرائب المأخوذة ظلماً، هذا إذا حددناه بالكلمة الشرعية، أما إذا أطلقناها بمعنى كل مال حرام، فهذا يدخل فيه الحرام.

لكن لا يهمننا الاسم، إنما الذي يهمننا هو الحقيقة والمضمون، فأحدهم يأتي (١٠٠) أو (٥٠) عاملاً، ويتركهم في البلد يفعلون ما يريدون، ثم في النهاية يريد منهم مالا كل سنة أو كل شهر، وإن لم يجد العامل عملاً فإنه يأخذها منه بالقوة، أو يطرده ويجمع ثروته من خلال هؤلاء، وهذا لا شك أنه سُحت.

فلا بد من تقوى الله كما في شرع الله لا كما في نظام العمل والعمال؛ لأن شرع الله أفضل وأرحم وأرفق بالعامل وبالعامل مما في نظام العمل والعمال.

ومما يُعلم أن أحد الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة ودعوا الله تعالى كان قد

استأجر أجيرًا، وذهب ولم يأخذ حقه، فتمّاه له، فلما عاد بعد زمن قال: هذا مالك. وكان أوديةً من البقر والإبل والغنم، قال الأجير: يا عبد الله، أتهزأ بي؟ أتسخر مني؟ قال: لا، ولكنه مالك نميته، خذه بارك الله لك فيه. فلما دعا الله وتوسل إليه إن كان عمل هذا العمل خالصًا لوجه الله الكريم، أن يكشف عنهم ما هم فيه، فكشف الله عنهم ما هم فيه! هذه العلاقة: هل يمكن أن يرقى إليها أي نظام، أو قانون، أو تشريع في الدنيا؟ لا يمكن أبدًا؛ لأنها علاقة الأخوة والرحمة.

ولهذا نقول: الأصل أنه لا يأتي إلا بالمسلم، وليس أي مسلم، بل المسلم التقي، فإذا جئت به وكان مسلمًا تقيًا، فهذه المعاملة لا تليق بالمسلمين الأتقياء، قال تعالى: ﴿وَتَوَاصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصُوا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحم» (١). وقال ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (٢).

لقد كان في سوء المعاملة للمكفولين مآسي منها: كثرة السرقات من المنازل خاصة أيام الحج، والإجازات ثم تقيد ضد مجهول، وهذا فيه تعكير للأمن، وتعطيل لرجاله، والسبب هم أصحاب السحت.

إن كل ما يرتكبه الجاني من جرائم فعليه وعلى صاحبه إثمها، وحتى وإن لم تعلم الشرطة فالله هو العليم، وهو المطلع على كل شيء، لهذا يجب أن نتقي الله في العمال، وألا نغتر بالأيام، فهي دول، كما قال الله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فربما يأتي يوم ونصير عمالًا عندهم.

ولقد جاءني أحدهم، وقال لي: لماذا لا تتكلمون عن الظلم؟ فقلت له: وما هذا الظلم؟ فقال: العمال! لهذا لا بد من التواصي بالخير والمعاملة الحسنة، وفي كل ذلك أجر، كما أنه لا تنتصر أمة لا يُنتصر لضعيفها من قويها.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٢٤)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

وهذا لون ونوع من أنواع المآسي التي يعيشها الناس إذا ابتعدوا عما أمر الله به من التقوى والرحمة؛ ولهذا يأتي الشيوعي يقول للناس الكادحين: من الذي أكل مال الكادحين إلا هؤلاء الأغنياء؟! ومن الذي سحق الناس إلا هم؟ وكما قال لهم المجرم اليهودي المؤسس كارل ماركس: على ماذا تخافون أيها العمال؟ وأنتم لا مال لكم هيئاً إلى الثورة ضد الأغنياء الذين أكلوا أموالكم، ونوزعها بيننا.

وهكذا جاء الشيوعيون من هذا الباب، وأخذوا يطالبون بتوزيع الثروات وبالعطف على الناس، وبكفالة كل فرد في الدولة، وتركتنا نحن المسلمين هذا الأصل العظيم، وهو من أصول ديننا نحن، فهل هم مقرون في كتاب الله ﷻ بعقيدة الإيمان باليوم الآخر ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ﴾ [١] ﴿الماعون: ١﴾ ثم قال: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [٢] ﴿وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٣٤] ﴿الماعون: ٢، ٣﴾.

عن ماذا يتساءل المؤمنون المتقون؟ يقول تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ يَسَاءُ لُونٌ﴾ [٤١] ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٤١] ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [٤٢] ﴿المدثر: ٤١-٤٢﴾ لماذا جئتم إلى هذا الجحيم؟ ﴿قَالُوا لَوْ نَرْنَا مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ [٤٣] ﴿المدثر: ٤٣﴾، وماذا بقي؟ قالوا: ﴿وَلَوْ نَرْنَا نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [٤٤] ﴿المدثر: ٤٤﴾، وهكذا كان جزاؤهم، لم يطعموا في الدنيا فكان عقابهم في النار كذلك، ﴿وَكُنَّا نَحْوَصُّ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [٤٥] ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [٤٦] ﴿المدثر: ٤٥، ٤٦﴾.

إذن: الذي لا يعطف على الفقير والمسكين ولا يرحمه، فعمله عمل الذين لا يؤمنون بالآخرة، والذي يشفق على الفقراء والمساكين والأرامل والضعفاء، فهذا عمله عمل المؤمنين بالآخرة.

وهذا من ديننا، ونحن أولى الناس أن نطالب بالرفقة والشفقة وكفالة كل إنسان، وأن يُعطى كل إنسان ما يحتاج من ضروريات الحياة، وبدون أي مقابل وبدون أية منة.

فعلى المجتمع - القرية أو الحي - أن يعملوا جمعية أو أي شيء آخر يحاولون أن يحلوا من خلالها مشاكل الحي كجار فقير أو شاب أعزب أو فتاة عانس، وإذا لم يفعلوا، فيجب على الدولة أن تعطيه من بيت المال، فلا يضيع أحد ولا يجوع أحد، ولا

يفتقر أحد، ولا يعزب أحد، ولا تعنس فتاة.

فهذا من ديننا، ومن بدهياته التي لا يجوز أن ننساها أو نغفل عنها.

حكم فتح الحساب في البنوك الربوية:

السؤال:

ما قولكم فضيلة الشيخ فيما صدر عن أحد الشركات، وقولها: انطلاقاً من حرص قطاع التوزيع بالمنطقة الغربية على راحة العاملين وتسهيل صرف رواتبهم، وبموجب الاتفاقية المبرمة مع البنك السعودي الأمريكي وما يقدمه من خدمات للعاملين، فإننا نهيب بجميع العاملين بفتح حسابات شخصية لدى البنك السعودي الأمريكي، مع العلم بأنه سوف يتم صرف الرواتب إلى البنك، لذا نأمل من الراغبين في فتح حساب شخصي، مراجعة فرع البنك وموقع العمل... إلى آخره؟

الجواب:

هذا ليس خدمة ولا تيسيراً ولا تسهلاً! وإنما هو من باب التعاون على الربا، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

والبنوك الربوية محاربة لله ورسوله ﷺ، فإذا ساعدناها وأمددناها وأعطيناها وفتحنا فيها حسابات - فهذا إعانة لها وترسيخ وتثبيت لوجودها، وهذا حرام ولا يجوز، ونرجو أن تتراجع هذه الإدارة عن هذا القرار إن شاء الله.

أما ضرر الربا على البنوك، فإن بعضها يفلس كما حدث لأمريكا عام (١٩٣٠م)، فقد أفلست كل أمريكا، وانتحر أكثر أصحاب البنوك، وقبل حوالي سنة أو أكثر قليلاً، كادت أن تقع نفس المشكلة وكاد أن ينتحر الجميع، لكن تحسنت أوضاعهم.

فالله تعالى يقول: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، نتيجة الربا هي المحق الكامل، والآن البنوك تشتكي، وتقول: الذين أخذوا منا القروض لم يعطونا شيئاً، وإن شكوناهم، فإما أن نشكو أناساً لا نقدر عليهم، أو أناساً يبلغون أعداداً هائلة! ولهذا أصبحت تأتي أسئلة كثيرة من بعضهم فيما يخص البنوك وتعاملاتها المريبة؛ كأن

يبيع البنك دينًا بلغ قدره (مائة ألف) (بخمسين ألفًا)، والباقي مقابل الدعوى والخصومة، وهكذا تظهر أثر المعاصي، وماذا كانت نهايتها وعاقبتها.

ولذلك نحن ننكر هذا المنكر؛ حتى لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وحتى لا يؤاخذنا الله بما فعله السفهاء منا.

والله يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وأي انهيار اقتصادي للبنوك يظهر أثره على الناس أجمعين.

الفوائد المستخلصة:

* عندما نرى أحدًا يقترف معصية فإننا نعلم أن ذلك بسبب هوانه على الله، ولو كان كريمًا على الله لمنعه من ذلك.

* كانت حياة السلف نموذجًا لاجتماع الخوف والمحبة والرجاء.

* من كان في أول أمره مقارفًا للذنوب والمعاصي ثم اهتدى، فإن الخوف يكون عليه أغلى.

* المؤمن التقي يحاسب نفسه ويمنعها من لذائدها، والفاجر يعطيها مئناها ويقتحم بها غمرات الجحيم، والعياذ بالله!

* يغلب على المرء في ساعة الموت ذكر ما غلب عليه في حياته فإن كان من أهل المعاصي ذكر تلك المعاصي، ومن كان من أهل الدنيا ذكرها وهكذا.

* لو مات أثرى أثرياء الناس ممن يتقلبون في لذائذ الحياة الدنيا ولم يذق لذة مناجاة الله فإنه مسكين، دخل الدنيا وما ذاق أحلى ما فيه.

* أكثر الناس اليوم متقادون وراء شهواتهم، والشيطان يمنيهم بالأمانى الكاذبة ليصرفهم عما أوجبه الله عليهم.

* من أحسن الظن بالله أحسن العمل، ومن أساء العمل فهو مخدوع بالأمانى الكاذبة وكلامه مجرد تزيين شيطاني يحتج به على الناس.

* تنشط القلوب أحياناً، وتتكاسل أحياناً، والواجب علينا أن نستغل ساعة نشاطها في قطع الطريق إلى الله، أما ساعة الفتور فلا نفتر بل نجاهدها ونضربها بسياط الخوف من الله، ونحدوها بحادي الرجاء.

بعض السلف يرى أن كل شيء يقوله الإنسان أو يفعله فإنه يكتب عليه، وبعضهم يرى ذلك مختصاً بالحسنات والسيئات، أما أمور الحياة المعتادة فلا تكتب.
* الخوف من سمة أهل الإيمان، وصفة الكمّل الخالص من عباد الله.

* * *

الصبر على مجاهدة النفس

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فنحن نعيش همومًا وآلامًا وأمورًا يجب أن نلاحظها بعين البصيرة، وبعين النقد أحيانًا، وبعين المراجعة، فيجب أن تكون القاعدة في ذلك هي التذكير، وليس شرطًا أن تكون جديدة.

التذكير بالأمر التي قد نغفل عنها جميعًا، أو ننساها في زحمة العمل، وأهمها وأعظمها تقوى الله -تبارك وتعالى-، فإن الله ﷻ أوصى بها الأولين والآخرين كما في كتابه المبين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] أن نتقي الله تعالى في كل ما نأتي ونذر، في حركات أبداننا وخلجات قلوبنا، وألفاظ ألسنتنا، وأن يكون الله تعالى -وهو كذلك ﷻ- مطلعًا ورقيبًا علينا، فلنستشعر نحن هذه الرقابة دائمًا، وأن نعامله ما استطعنا بدرجة الإحسان كما قال ﷻ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

والأولى بهذه الدرجة هو طالب العلم، والداعية إلى الله، أن يعبد الله بهذه المرتبة: «أن تعبد الله كأنك تراه»، فنحن آمنة به ﷻ بالغيب، فيجب أن نستشعر هذه الحالة، وبقدر يقيننا وإيماننا ورسوخ الإيمان بالغيب في قلوبنا، نجد أننا نسمو ونرتفع في آفاق إيمانية عظيمة، تعجز عن وصفها الألفاظ والعبارات والألسن، ولكنها منازل يبلغها الله -تبارك وتعالى- من شاء من عباده ويرفعهم إليها درجات.

فأولى الناس بأن يرتقوا هذه المنازل ويرتفعوا في هذه الدرجات العلى هم طلبة العلم، ونعوذ بالله أن يكون أحدنا شمعةً تحترق لتضيء لغيره، أن يستفيد الناس من مواعظنا ومحاضراتنا وندواتنا، ونكون نحن آخر من يستفيد منها، إنما الواجب علينا أن نجعل تقوى الله -تبارك وتعالى- نبراسًا لنا في حياتنا وفي كل أمورنا، نحفظ قلوبنا

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

وجوارحنا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال أيضًا: ﴿مَا لِي لِقَظٍ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْ رَقِيبٍ عَبِيدٍ﴾ ﴿١٨﴾ [ق: ١٨]، فطالب العلم أولى الناس بهذا، إذا نطق أن يكون نُطْقُهُ ذِكْرًا، وإذا صمت فصمته عبرة، وإذا نظر فنظره فكر، ولا تخلو حال المؤمن من هذا.

وقد عبر عن ذلك بعض السلف -رضوان الله عليهم- فقال في معنى الإخلاص: «أن تكون حركاته وسكناته لله تعالى، لا يمازجه شيء ولا يخالطه شيء»، وهذه هي الدرجة التي تجعل الإنسان ولياً لله -تبارك وتعالى- كما في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه».

فإذا جعل الإنسان هذه الرقابة والحصانة على أعضائه ومشاعره، وصارت حركاته وسكناته لله، استحق هذه المرتبة، فإذا كان كذلك صار كما قال الله -تبارك وتعالى- في الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١). فلما حفظ هذه الأمور جميعاً، وزكاها وما دساها، نال ذلك بإذن الله، فتقوى الله مع الإخلاص لله تعالى في القول والعمل هو أول ما نوصي ونذكر به إخواننا.

ومن باب التذكير أيضًا أن نذكر بواجب الأخوة في الله والمحبة، وهذه المحبة لا نعني بها ما قد يكون عند بعض الشباب من أنه يسر برؤية أخيه، ويفرح بأن يجالسه، وأن يسهر معه، وأن يذهب معه، مجرد هذا لا يكفي وإن كان في هذا خير، وإنما نعني المحبة الإيمانية بلوازمها وموجباتها الشرعية.

ومن لوازم ذلك وموجباته: التناصح، فالمحبة مقتضاها التناصح وتسديد العيب، وبيان التقصير، ودوام الانتباه لأمراض القلوب التي قد تعترى أخيك أو تعترى، فكل منا يكون مرآة لأخيه، والمرأة -كما تعلمون- لا تدخر شيئاً من العيوب، ولا تجامل ولا تحابي، لكنها لا تشهر، هذه هي الميزة.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

فالإنسان يجب أن يكون بالنسبة لأخيه مرآة له، يريه ويصره بما يرى على سبيل التناصح، فالنصيحة واجبه بيننا، أما إن كانت علاقاتنا عاطفية أو أخوية تتجرد عن التناصح، وعن تسديد الأخطاء، وعن بيان الواجب في الدعوة إلى الله - فإننا مع الزمن نتضخم لدينا الأخطاء، ولا نستفيد من هذه العلاقة إلا راحة نفسية يجدها الإنسان عندما يرى إخوانه، ولا شك أن هذه الراحة مطلوبة، وأنها دليل الإيمان إن شاء الله، ولكنها لا تكفي وحدها، وأنا أعزو هذا الارتياح الذي نجده عندما يقابل بعضنا بعضًا إلى شدة وطأة الغربة والألم الذي نعيشه، فالإنسان عندما يسمع دائمًا عن أهل الشر والفساد والمنكر، والبدعة، والضلالات، فإذا رأى أخًا له فرح وأنس به، وتحدث معه، وهذا ما عبر عنه الشاعر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتندم

حتى قال بعض السلف: «ذهبت لذات الدنيا كلها، وبقي من لذات الدنيا محادثة الإخوان» أو: «مناجاة الإخوان». فلذة النساء تذهب بعد الشباب، ولذة المال أيضًا للعاقل ليست شيئًا، وإنما بقي منها محادثة الإخوان.

وهذه من لذات الدنيا التي تبقى مهما كبر الإنسان في السن، ومهما تقدم في العمر، ومهما افتقد من الدنيا، فإذا وجد أخًا له في الله يحبه وجلس معه، استمتع ووجد راحة لا يجدها في أي من اللذات الأخرى التي تضمحل وتذهب.

إن هذا يعود إلى وطأة الغربة أحيانًا، ولكن ذلك لا يعني أن نسترسل ونسترخي لعواطفنا، وإنما محبتنا - حتى لله ولرسوله ﷺ - هي محبة إيمانية، وليست مجرد علاقة أو محبة عاطفية، وإنما هي محبة إيمانية لها مقتضيات ولوازم، وتتطلب منا أعمالًا وأمورًا لا بد أن نحققها في واقعنا وفي أنفسنا، هذا الشيء لا ينبغي أن يغيب عن أذهان الإخوة الدعاة، وهذه العلاقة ضرورية في مثل هذا الخضم الذي نعيشه.

نحن الآن نرى آثار التفكك وضعف الأخوة والعلاقة بين الشباب، حتى سأل بعض السلف بعضًا من طلابه، فقال لهم: «هل بلغ من محبة أحدكم لأخيه أن يدخل

يده في جيبه، فيأخذ ما شاء ويدع ما شاء؟ قالوا: لا.

قال: فما المحبة عندكم إذن؟! انظر كيف كان السلف الصالح رضي الله عنهم وأروع مثال على ذلك مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، وكيف تلاحمت هذه الأمة فأصبحت لحمة واحدة مع اختلاف القبيلة والوطن والحال، ولكن جمعهم الإيمان والعقيدة، ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجمعتهم الهجرة إلى الله ورسوله، ونصرة دين الله عز وجل فلما كان الهدف والغاية وجه الله عز وجل اجتمعوا على ذلك؛ فكانت هذه الأخوة العميقة، بحيث إنك أحياناً إن لم تكن تعرف القبائل أو لا تعرف حال هذا الصحابي من قبل، إذا قرأت اسمه من المهاجرين أو من الأنصار، فبمجرد أنك قرأت خبراً أنه ذهب فلان وجاء فلان، تحتاج إلى أن تعرف هل هو من المهاجرين أو الأنصار، ذهبت كل الفوارق تماماً، وأصبحوا أمة واحدة، فهذه هي المحبة التي لا بد منها.

ثم أمر ثالث يجب أن نكرر الوصية به لا نملُّ في ذلك وهو الصبر، فلا بد من الصبر، ومن أعجب ما نراه الآن ونفقده في الدعاة إلى الله وطلبة العلم - قلة صبرنا، سبحان الله! لا نصبر على طاعة نستمر فيها، الواحد منا قد يكون له شيء من كتاب الله أو من السنة يدرسه، ولكنه لا يصبر عليه، فينقطع في نصف الطريق، هذا عجيب! أين الصبر؟ بعض السلف لما قيل له: «بمَ عرفت ربك؟ قال: عرفته بضعف الهمم، وفتور العزائم» لأن العزائم والهمم تضعف، فيعرف الإنسان حقيقة نفسه وضعفه؛ فيعرف ربه -تبارك وتعالى- المتصف بصفات الكمال والثناء عز وجل، فهذه حالة تعترى الناس، لكن هناك فرق بين أن تضعف وأنت تريد الدرجات العلى فتضعف عنها، وبين أن تضعف وأنت في أول الطريق.

ومما يذكر أن أحد العظماء قال لابنه: «يا بني! من تريد أن تكون مثله؟ فقال: يا أبتِ أريد أن أكون مثلك، قال: يا بني! إذا كان كذلك فلن تكون؛ لأنني اجتهدت أن أكون مثل عمر بن الخطاب، فكنت كما تراني، فإذا أردت أن تكون مثلي فلن تكون» يقول له: أنت لا بد أن تكون همتك أعلى، وتصبر وتصابر ومع ذلك لن تصل -والله

أعلم - إلى النصف أو الربع مما تأمل.

الصبر على الدعوة والعلم:

فلا بد أن يكون لدينا الصبر على طلب العلم، والصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحن - ومع الأسف - نعلن عن بعض المشاريع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو بعض المبادرات الخيرة فلا نصبر، أحدنا يقول: قد ذهبنا إلى السوق مرات ولم نستفد، سبحان الله! النبي ﷺ يقول: «رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»^(١). ونحن اليوم نملُّ من الدعوة؛ لأن بعض الناس استجابوا وبعضهم لم يستجب! لقد ظل نوح ﷺ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا لم يمل ولم يكل، والنبي ﷺ جاهد قومه، ودعاهم إلى الله ﷻ كثيرًا، فطريق الدعوة هو طريق الصبر على الأذى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، والصبر إما على الطاعة، أو عن المعصية، أو على الابتلاء.

أما نحن فقد ضقتنا ذرعًا حتى بالدروس العلمية، فبعض الإخوة يلقي المواعظ والدروس، وفي أول الأمر يحضر عنده عدد عشرين أو ثلاثين طالبًا، ثم ينقص العدد فيقول: لقد صاروا أربعة أو خمسة ثم يترك، وما علم أن هناك علماء كبار يستمرون ثلاثين وأربعين سنة على خمسة طلاب أحيانًا أو على عشرة ولا يملون، والذين يعرف قيمة العلم ينظر لهذه القضية من زاوية أخرى، من زاوية أنه ينفق علمه، والعلم إن لم تنفقه ضاع، فلا تنظر إلى كثرة من حضر واستفاد؛ لكن انظر إلى أنه يجب عليك أن تُعَلِّم.

ولهذا لو قلت اليوم: أنا أقرأ ما تيسر من كتاب الله، وشيئًا من السنة، بعد صلاة الفجر، ثم أقوم بعد صلاة العصر، فأعظ به الناس في المسجد، فإن هذا العلم سيثبت في ذهنك، لكن في الأيام التي لا تعظ فيها بما قرأت فإنك [تنساه] كله أو بعضه، فمما يثبت العلم ومما يحفظه الوعظ به، وتعليمه، والعلم هو الشيء الذي يزيد بكثرة الإنفاق منه،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

وأما غيره فينقص بالإنفاق ولو كان البحر على كبره.

أيضاً لا يوجد عندنا صبر حتى على التعلم، وما أكثر هذا ومع الأسف، فبعض الإخوة نطلب منهم ونلاحقهم شهوراً على التعلم ثم إذا جاء فلا يلبث حتى يترك محتجاً بأن الكتاب لم يعجبه، أو أن الشيخ يطيل أو غير ذلك، وكأن الطالب يريد أن يفعل الشيخ كما يشاء هو، وهذا أول شرط من الشروط التي تخل بطلب العلم، فطالب العلم يجب عليه أن يوطن نفسه على أن يتعلم كما يريد الشيخ، وقد كان بعض الأئمة المحدثين الكبار يرحلون إلى آفاق بعيدة من أجل الحديث والحديثين.

بعض الناس يجلسه الحياء أول الأمر - والحياء خير كله - وكما قال النبي ﷺ: «أما الأول فأوى الله وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه»^(١) فالذي لا يريد أن يستفيد، فليات من باب الحياء.

وعندما يأتينا من يريد أن يعلمنا، ونعرف أن له فضلاً، ولن يتكلم إلا بخير فلنحضر ولو كان لدينا أعمال، أو ظننا أننا لن نستفيد منه، وكم من محاضرات وكتب وأشرطة تركناها نظن أن لدينا ما هو أهم وأعظم فائدة، فإذا بدأنا بها ندمنا وقلنا: ليتنا قرأناها من قبل.

كم من أناس نقول عنهم إذا أرادوا أن يحاضروا أو يدرسوا: من هو هذا في العلم والمعرفة؟ فإذا حضرت له استفدت، وهذا فيه احترام وتقدير للزائر، ولن تخلو من فائدة - إن شاء الله تبارك وتعالى - فهذه كلها داخلة في نطاق الصبر.

الصبر على مجاهدة النفس:

إن الإنسان إذا ابتلي في نفسه أو ماله، أو أهله صبر، وهذا نوع، لكن الصبر له أنواع ومنها: الصبر على مرض النفس.

واعلم - أخي المسلم - أن أعدى عدو لك هو هذه النفس، ولو عاداك الناس

(١) أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

كلهم وسلمت من شرها؛ فأنت آمن بإذن الله، ولن يضرók أبدًا؛ لكن المشكلة هي: كيف أحترس من عدوي، إذا كان عدوي بين أضلعي؟ والمشكلة هي العدو الداخلي، هذه النفس والهوى والشهوة، وحب الإخلاق إلى الدنيا، والتكاسل عن طاعة الله ﷻ والميل إلى ما يريحها وإن كان مُتعبًا فيما بعد، وهذا من إيثار العاجل، وهكذا طبعت هذه النفس، فيجب أن تصبر على ذلك.

بعض الناس عنده نفس غضوبية، فهذا يجب عليه أن يسأل الله دائمًا أن يهديه إلى أحب الأخلاق وأحسنها إليه، لكن -أيضًا- من الابتلاء أن أكون إنسانًا غضوبًا فأصبر على غضبي، وأحاول أن أصبر عليها وأجاهدها؛ فإنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، وإنما الصبر بالتصبر، نعود النفوس الصبر حتى تستقيم.

بعض الناس مشكلته أنه لينٌ جدًا، أي أنه متساهل، وليس عنده فطانة، وبعض الناس يقول: ليس عندي فطنة، فنقول له: مارس الحياة، واعرف أن فيك هذا العيب، وهذا عليه ألا يثق بكل أحد، إنما يتأكد ويتأنى ويفكر، فلا يعطي كل من طلبه كتبه أو ماله حتى يتأكد من حاجته.

والبعض يشكو من أن نفسه تتوق إلى شيء من مظهر الدنيا فلا يصبر، فهو لا يخرج إلا بالثوب والغترة والشكل المعين، وإلا اعتذر عن الحضور، فهذا عليه أن يعود نفسه -رويدًا رويدًا- على أن يذهب أحيانًا بشكل عادي أقل من هذا، قليلًا قليلًا حتى ينتهي هذا الأمر وهكذا.

وهذه النفس مشكلتها أنها حرون مثل الدابة؛ مرة تمشي، ومرة تقف وسط الطريق، لا تتحرك، ولذلك القاعدة التي علمنا إياها السلف الصالح في التعامل مع النفس، أنها إذا أسلست لك القيادة حركها بسرعة حتى إذا حرنت، تكون قد قطعت مسافة كبيرة، وكل إنسان يجد في نفسه الفتور والخير، فإذا جاءت أوقات الاندفاع والإقبال على الله تعالى فحركها، فإذا جاء وقت الفتور فستجد أنه ليس فتورًا كليًا وإنما إلى حد ما.

فمن أهم ما يصبر عليه هذه النفوس التي بين جنبينا، فبعض الإخوة لم تكمل ما أخبرته به حتى يعطيك رأيه سريعاً فيحكم بسرعة ولا يصبر ويتأني.

والبعض مشكلته كثرة الكلام، فأصبحت مجالسنا فيها كثرة كلام وقلة ثمرة، وفي الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»^(١). ونترك وكالة أبناء (قالوا) ونرفعها عنا، ولا نتحدث بـ (سمعنا وقالوا) ولكن نتركها ونصبر، وقد قال النبي ﷺ - وهذا حديث عظيم جداً في معالجة القلوب والنفوس - : «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢). هو الذي إذا قلت له: اتق الله ولا تغضب. وقف.

فيجب أن تجعل أهم شيء تعالجه في حياتك هذه النفس، فإذا وطنتها على أمر الله حتى تصبح مواظبةً له، فأبشر بما سبق أن ذكرنا من فضل الله عليك، فتصبح لا تفكر، ولا تهتم، ولا تعزم، ولا تعمل، ولا تخطو إلا كما بين الله تعالى في الحديث القدسي: «فبي يسمع وببي يبصر إلى آخره»^(٣). هذه الحال لا تصل إليها إلا بعد المجاهدة، مع أن كل نفس ركب فيها هذا الأمر إلا من عصم الله من الأخيار والمؤمنين.

الصحابة والصبر:

وسير الصحابة - رضوان الله عليهم - في هذا عجيب - كما تعلمون - كان بعض الصحابة يشكو منه غلامه، وبعضهم تشكو منه زوجته، وكان بعضهم يشكو منه جاره، سبحان الله! لديهم طباع لكنهم كانوا سريعي الندم والتوبة والأوبة، وفي نفس الوقت أحدهم يعلم ما في نفسه من أمر، فتجد أحياناً يقول: ما منعني أن أتكلم إلا خشية كذا، ما منعني أن أمشي إلا خشية كذا، كثيراً تجد في السير أن عالماً لم يقدر على مسألة فيصبر عندها ولا يتجاوزها حتى يفهمها.

(١) أخرجه مسلم (٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٨).

(٣) تقدم تخريجه.

من مظاهر ترك الصبر:

من مظاهر ترك الصبر في حياتنا أن أحدنا يتصرف بعجلة، فكثير من تصرفات الشباب ينقصها الصبر، وأستشهد ولو بمثال واحد: وهو قول بعض الشباب: والله يا شيخ ما عدل ابن باز وهو إن شاء الله غضبه لله، أو إنكاره المنكر لله، لكن تعجل فأدخل الناس في حرج، فنقول له: اصبر قليلاً فالله تعالى يقول: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرُوءَ يَنْبَغِي﴾ [الشورى: ٣٨] شاور، إذا كانت قضيه تخصك في ذاتك أنت، فتعجلت فيها فلا بأس، لكن شيء يعالج وضع الأمة لا تعجل فيه، واصبر حتى تستشير أقرب الناس إليك، ومن تثق فيه وهكذا، وأقصد بهذا أن الصبر له جوانب كثيرة؛ ولهذا يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]، ولا بد من هذا، هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، وأسأل الله لي ولكم العفو والعافية إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

ينبغي أن يفرق الإنسان بين ما يهواه ويتمناه، وأن يكون له قاعدة في عمله، فأنتم عندما تعمل في طريق الدعوة أو الجهاد، فالقاعدة في ذلك ألا تستعجل، ولهذا لما جاء الصحابة إلى النبي ﷺ وهو متوسد في ظل الكعبة، قالوا: يا رسول الله! وشكوا إليه - كما تعلمون الحديث - ما نالته منهم قريش، وسألوه الدعاء، قال: «والله ليتمن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت»^(١). وقال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فليست القاعدة في الدعوة هي العجلة، وقطف الثمرة، لكن النفس تهوى ذلك وتمناه.

وهذا -والله أعلم- لا تؤاخذ به، فأنتم تجاهد وتقدم على قتال العدو وملاقاته، أو تدعو وتقدم في سبيل الدعوة، وأنت تعلم أنك لا تدرك ثمرة عملك هذا، لا يعوقك ذلك ولا يؤخررك، لكنك تتمنى ألا يملكك الله حتى ترى ثمرته، وهذه أمنية وللإنسان أن يتمنى الخير، وما نهانا الله أن نتمنى الخير، ولكن لا ينبغي للأمامي هذه أن تؤثر على

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

العمل؛ فتصبح هي الهدف، وهي المقصود الذي نحققه، هذا الذي يبدو لي في هذه المسألة والله تعالى أعلم.

أما من أراد الحيطة وأراد أن يقطع هذا الأمر من أساسه، فينبغي له كما ثبت عن كثير من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وغيرهم -رضوان الله عليهم أجمعين- ممن تمنوا أنهم ماتوا ولقوا الله تعالى مع مصعب بن عمير وأمثاله، كما حدث لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فكانوا يخشون أن تكون حسناتهم عجلت إليهم، كما قال عتبة بن غزوان: «وما منا اليوم إلا من هو أمير على مصر من الأمصار» خافوا من الذي نتعجله نحن.

ولا شك أنّ الإنسان مجبول على أنه يتمنى أن يريه الله نصره هذا الدين، كما دعا سعد بن معاذ أن يريه الله يوماً في بني قريظة قبل أن يموت، والحمد لله فقد أراه، فهذه حالات تعرض في النفس، فإذا لم تؤثر على القاعدة، ولم تدخل إلى المنهج وإلى الغاية، فإن هذا لا يؤثر إن شاء الله تعالى.

فقه الدعوة وعوائقها:

السؤال:

فضيلة الشيخ سفر نريد أن تحدثنا عن فقه الدعوة، وبعض ما قد يفعله المجتهدون، وربما قد يكون من عوائق الدعوة؟

الجواب:

الكلام طويل جداً في هذا، ولا أدري أي عقبة يريدنا السائل، فكل طريق الدعوة عقبات، وكل ما تحدثنا هو من العقبات، عقبة النفس والهوى والشيطان، وعقبة كيد الكائدين، فهي عقبات كثيرة، وفقه الدعوة باب واسع، ولهذا من رسل الله الكرام -وهم صفوة خلقه وخيرتهم- من احتاج أن يعلمه الله تعالى فقه الدعوة بالعمل مثل يونس عليه السلام ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٤٠]، فالله تعالى يريد أن يعلمه أن الإنسان الداعية، يدعو إلى الله -تبارك وتعالى- ويصبر ويصابر ولا يعجل وهكذا.

فإذا كان الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- يعرض لهم شيء من هذا والله تعالى له حِكْمٌ عظيمة جداً، والله تعالى اختار منهم أولي العزم، وهم الذين صبروا وثابروا امتازوا عن غيرهم بهذا فما بالك بنا نحن؟ لا بد أن تعرض لنا أمور كثيرة من الضعف والفتور، ومن العقبات التي نحن بأنفسنا أكثر ما نعاني منها، وأكثر العقبات هي العقبات الداخلية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَصَبُوا وَتَقَوَّا لَأَيُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، والعقبات الخارجية هي أهون ما يلاقي المؤمن لو أننا اتقينا الله تبارك وتعالى وصبرنا على ما يصيبنا، فالطريق كله محفوف بالمتاعب من أوله إلى آخره.

يقول الإمام أحمد -وهو من تعلمون في الدعوة والعلم والإيمان، حتى أثنى عليه العلماء بما لم يشنوا به على أي عالم آخر بعد صحابة رسول الله ﷺ والتابعين-: «لا يجد المؤمن راحةً دون لقاء ربه».

فالراحة الكبرى إذا جاءتك الملائكة، وبشرك أن لا خوف عليك ولا حزن وأبشر بالجنة التي كنت توعده؛ هنا في هذه اللحظة تراح، أما قبل ذلك فإنه لا تأمن فتنة، ولا ابتلاء، ولا تأمن الضعف، ولا العداوة، لا تأمن إلا في الحالات التي ذكرها الله - تبارك وتعالى- في الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

معناه: أنهم كانوا في الدنيا في حالة حزن، فأبدلهم الله بالنعيم «الجنة»، وقالوا في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، فلما كانوا مشفقين في الدنيا صابرين أورثوا هذه الجنة، لكن لو كانوا في الدنيا مرفهين ومنعمين فلن ينالوا هذا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [٧] أُولَئِكَ مَا وَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يونس: ٧، ٨].

فعلينا أن نوطن أنفسنا على أن نكون من أهل التقوى، والعلم وأهل العمل، وأهل الصبر واليقين.

وأهم ضابط في الدعوة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ

بَصِيرَةً أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي ۖ وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٨﴾ [يوسف: ١٧٨]، والآية الأخرى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذه بينت الحالات الثلاث التي لا تخلو منها دعوة: إما أنها مع الموافقين فتحتاج إلى حكمة، وإما أنها مع الغافل فيحتاج إلى الموعظة الحسنة، وإما مع المخالف فيحتاج إلى جدال بالتي هي أحسن، فالضابط في الآية الأولى قوله: (ادعو إلى الله) لا ندعو إلى أنفسنا، ولا إلى مشايخ نحبه، ولا ندعو إلى انتماءات ننتهي إليها، لا ندعو إلى أي شيء إلا إلى الله، وما بعده فهو تبع له، فهذه الآية آية الدعوة احتوت أعظم الغاية في الدعوة وأعظم الوسائل، في الدعوة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٧٨] وختمت ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٧٨] فأعظم ما ندعو إليه توحيد الله، وأعظم ما نحذر العالم منه الشرك بالله، ثم المعيار في هذا العمل بين هذا وهذا: البصيرة، والبصيرة: أمر يجمع بين العلم النافع وبين العمل الصائب، فالإنسان إذا كان لديه علم نافع وليس له عمل صائب فلا يوصف بأنه من أهل البصيرة، ومن كان لديه عمل وإن كان يتحرى فيه الصواب لكنه بلا علم فإنه ليس من أهل البصيرة، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

- * المحبة في الله ﷻ من أهم وأعظم الأمور التي قد نغفل عنها جميعاً أو ننساها في زحمة العمل.
- * المحبة مقتضاها التناصح وتسديد العيب، وبيان التقصير، ودوام الانتباه لأمراض القلوب التي قد تعترى أخاك أو تعتريك.
- * من أنواع الصبر: الصبر على طلب العلم، والصبر على النهي عن المنكر.
- * طريق الدعوة هي طريق الصبر على الأذى، والصبر على الطاعة، والصبر على الأقدار وعلى الابتلاءات.
- * العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، والصبر بالتصبر.

الصبر على الابتلاء

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك على خير خلقك محمد سيد الدعاة، والأميرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

أتحدث إليكم أيها الإخوة وأنتم - والله الحمد - رجال الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الرجال القائمون على الفريضة التي تركتها الأمة، وغفلت عنها ونسيتها، فاعتراها ما اعتراها من الذل والضعف والهوان، وفيكم بعد الله ﷺ، وبعد توفيقه وتأييده الأمل - إن شاء الله - بإعادة هذه الأمة - مع من يسر الله ويوفقه للتعاون على البر والتقوى - إلى رشدها، وإعادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي به قوام حياتها، والذي هو سر أفضليتها على العالمين.

والحمد لله أنكم تقومون بهذا العمل أيضًا في بلد الله الحرام، وهذا جهاد على جهاد في هذا البلد الذي شرفه الله تعالى وعظمه، وقال في حقه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَامٍ يُظْلَمِ تُذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]؛ فإذا كان هذا عقاب الذي يريد فقط فكيف بالفاعل؟!

وأنتم تحولون - والله الحمد - دون فعل الموبقات والمجاهرة بالمنكرات في بلد الله الحرام، وهذا وإن كان واجبًا على كل مسلم، لكنكم تضطلعون به رغم قلة الإمكانيات والجهود؛ ففي هذا - إن شاء الله - غبطة لكم من إخوانكم الذين يغبطونكم على هذا العمل الجليل، وفيه تذكير لكم أيضًا بواجب الاحتساب لله تعالى،

والإخلاص لوجهه الكريم، لتنالوا بذلك أجركم كاملاً غير منقوص.

فنحن نشكر الله ﷻ الذي هيا لنا مثل هذا اللقاء، ونشكر - كذلك بعده ﷻ - الذين كانوا السبب في هذا الاجتماع الطيب المبارك سواء في رئاسة الهيئات، فضيلة نائب الرئيس العام، أو في مكة فضيلة الشيخ الفراج، أو المسئولون في هذه الجامعة، الذين حرصوا على إقامة هذه الدورة، وحياكم الله جميعاً، وأسأل الله العظيم الجليل لي ولكم التوفيق والسداد في القول والعمل.

الموضوع عن الصبر والكلام يطول فيه جداً كما قال الإمام أحمد - رضي الله تعالى عنه وأرضاه -: «إن الله ما عظم شيئاً في كتابه كما عظم الصبر؛ فقد ذكره في أكثر من تسعين موضعاً».

فضل الصابرين ودرجاتهم:

وأما فضل الصابرين ودرجات الصابرين فمنها: ما ذكره الله من مضاعفة الأجر لهم كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٤].

ومنها: ما ذكر من توفيتهم أجرهم بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

ومنها: بيان وذكر معيته ﷻ لهم كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، ومنها ما ذكره ﷻ في الاستعانة بالصبر على ما يواجه الإنسان، كما في قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦]، وكما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١]، وكما في الوصية به كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرَ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

فلا يتم للإنسان حقيقة اليقين والإيمان إلا بالصبر، هذا في حق كل مسلم، وفي حق كل مؤمن، ولكن عندما نتحدث عن الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، يكون الكلام أخص من ذلك، وتكون الحاجة إلى الصبر أعظم من ذلك.

حاجة الدعاة إلى الصبر:

لعل فيما ذكره الله ﷻ في وصية لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، إن التعقيب بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه إشارة إلى أن الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو أحوج من غيره إلى الصبر؛ وأن كل من دعا إلى الله وآمن بالله لا بد أن يُبتلى وأن يُمتحن، ولا بد أن يُعادى كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢-١]؛ أي: لا يمكن ذلك، ويقول الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

فكل نبي وكل صاحب دعوة له أعداء من المجرمين، وكل أمر بالمعروف ونهيه عن المنكر له أعداء من المجرمين، فالأمر بالمعروف والناهي عن المنكر يُصادم الناس في رغباتهم، وفي شهواتهم، وفي مطامعهم، وفي مآربهم وملذاتهم؛ والناس يتهافتون عليها كما مثل النبي ﷺ ذلك بأنهم يتهافتون في النار كما يتهافت الفراش والذباب، ولكنه ﷺ قال: «فأنا أخذ بحجزكم عن النار»^(١). وهذا العمل لا يقوم به من بعده ﷺ إلا العلماء والدعاة والأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، لأن الناس يتهافتون على ما يضرهم.

فلو أبيع الزنا - عيادًا بالله - لتهافتوا عليه كما يتهافت الذباب على القاذورات، ولو أبيحت الخمر لشربها أكثر من ترى من الناس، ولو أبيع أي نوع من أنواع الفساد لرايتهم يتهافتون عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤).

وأما إذا اجتمعت مع هذه الشهوة والرغبة شهوات أخرى؛ كأن يكون الرجل ذا منصب، أو كأن يكون ذا مال وجاه عند الناس؛ فإن رده للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون أكبر، فيستعظم ويستفزع أن رجلاً في مرتبة كذا ينتقد عليه وهو صاحب الرتبة والمرتبة والجاه والسلطان ويقول له: اتق الله، فهذا حال من أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلْمَهُادُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦]، نعوذ بالله من ذلك، ولكن هذا أصبح حال أكثر الناس الآن.

فإذا كان هذا في زمن كثر فيه الفساد، واشتدت غربة الدين - كما ترون - وضعف فيه سلطان أهل الحق، وأصبحوا لا يخلو حالهم من قلة أو ذلة، فإن الأمر يكون أشد، وإن الصبر يكون أحوج ما يكون له العبد ما تحتمله هذه الكلمة من أنواع الصبر.

الصبر على أذى النفس والأهل:

نعم، الصبر على أذى النفس، وعلى هوى هذه النفس الأمارة بالسوء، والتي تقول لك: يا عبد الله، الناس مرتاحون، الناس لا يعادون خلق الله، الناس يأكلون ويشربون، الناس في وظائف مرفهة منعمة، الناس في أجور عالية، وأنت في هذا المجال، ماذا تقصد، وما فائدتك؟

فهذه سهوة لا بد أن تردها وأن تقمعها، وأن تقول لها: أيتها النفس، احسني ولا تتكلمي؛ فإنني أعمل عمل الأنبياء.

وهذا العمل لو لم نتقاض عليه أي أجر فإن رسل الله الكرام قالوا لقومهم - كما ذكر سبحانه -: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٤]، ولكن ما جاء من عند الله فهو خير.

ولا شك عند من يُقدّر حال الدعوة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أن أولى ما ينفق عليه ومن أحق الناس بالعطاء الجزيل هم رجال الحسبة؛ لكن إذا لم يحصل ذلك فهنا لا بد من الصبر.

والصبر يكون كذلك مع الأهل: لأن بعض الناس قد يصبر وقد يقاوم نفسه،

ولكنه قد ينهزم أمام أهله - الزوجة أو الزوجات أو الأبناء - الذين يقولون: لقد أضعتنا، فالليل في دوريات، والنهار في دوامين، لم لا تفعل كذا أو تأتي بكذا؟ إذن: نحن ماذا؟ دعك من هذا العمل، اترك هذا العمل، أرحنا منه، وافتح محلاً... إلخ.

وهذا من الفتنة والابتلاء، فقد ابتلى الله - سبحانه وتعالى - نوحاً عليه السلام بامرأته وابنه، وابتلى لوطاً بامرأته، وابتلى إبراهيم بأبيه، فلا نستغرب هذا، فقد ابتلي به كل الأنبياء.

فلا بد من الصبر على ابتلاء الأهل وعلى ما يقولونه، وكذلك يكون الصبر على الابتلاء الحاصل في العمل نفسه.

ابتلاء هذه الأمة بالفرقة والاختلاف والتنازع:

إن الله تعالى كرم هذه الأمة، فهي أمة مكرمة مفضلة؛ لكنها لا بد أن تأخذ عقوبتها إذا عصت الله، وإن كانت عقوبتها أخف من غيرها، تكريماً لها وتشريفاً لمحمد عليه السلام، واستجابة لدعائه: لَمَّا قَالَ سَبَّحَانَهُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» قَالَ: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] فَقَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، فقال الله: ﴿أَوْ يَلْسَنُكُمْ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ٦٥] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَاتَانِ أَهْوَنُ». أَوْ قَالَ صلى الله عليه وسلم: «هَذَا أَيْسَرُ» (١) رواه البخاري والترمذي وأحمد.

وعن عامر بن سعد عن أبيه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ، فَكَرَعَ فِيهِ رُكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْفَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا» (٢). رواه مسلم وأحمد.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

أي: أعطاه ألا يُهلك أمته بعذاب من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم؛ ومنعه مشكلة الفرقة والاختلاف في الرأي، وفي الاجتهادات.

أقول: بالنسبة للعمل: فأنت ترى أن إنكار المنكر يكون بهذه الطريقة، ورئيسك المباشر قد يرى غير ذلك، والرئيس الذي أعلى منه قد يرى خلاف ذلك، فالمفتش له رأي، والرئيس العام - أحياناً - يكون له رأي... وهكذا.

وأنتم كلكم ليس لكم غرض إلا إنكار المنكر، لكن الفرقة تدب، ثم يجعلها الشيطان مشكلة، ثم يجعلها أحزاباً وخصوماتٍ وأحرص ما يحرص عليه الشيطان أن يوقع الفتنة والعداوة بين الأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر، وبين العلماء وبين الدعاة، وهذا هو مكسب الشيطان.

إن الشيطان لا يريد أن يوقع العداوة بين من يشربون الخمر - مع أن شرب الخمر من ضروراته حصول العداوة - أو من يلعبون القمار والميسر... إلخ.

لكن الشيطان أحرص ما يكون على هذه الحالقة؛ كما جاء عن الزبير بن العوام قال: قال ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَخْلِقُ الشَّعْرَ. وَلَكِنْ تَخْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُتْبِعُكُمْ بِمَا يُبَيِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ، أَفُسُّوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(١). رواه الترمذي وأحمد، فالفرقة والخصومة والنزاعات بين الإخوة العاملين في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشكلة كبيرة جداً؛ فلو تخلص الإنسان من مشكلة النفس وهواها وهوى جنسها، ومشكلة الأهل؛ فقل أن يسلم من مشكلة العمل وسيره والخلافات فيه.

إننا لو اتفقنا نحن في العمل - في المركز أو في الإدارة أو في الرئاسة - كلنا على منكر ما واتحدنا وأردنا الخير، وكانت المسألة واضحة ولا تحتاج إلى نقاش ولا إلى

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٤)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٦١).

خلاف - لوجدنا العداوة من غيرنا، وصاحب الشهوة أو صاحب المنكر يأتيك، ويجلب عليك كل عداوة، وتأتيك العداوة من الشرطة، وأحيانًا تأتيك من الإمارة مثلاً.

فأقول: من نذر نفسه في هذا العمل فليتوقع العداوة من كل أحد؛ توقع أن يأتيك أمر بالنقل أو بالفصل أو بالطرد أو بأي شكل من الأشكال، وما ذنبك إلا أنك قلت لأحدهم: اتق الله. أو غضبت عليه وهو على منكر أو جُرم يجب على كل مسلم أن ينكره عليه، وليس عليك أنت - فقط - الذي وُظِّفت أصلاً لهذا العمل، وستحاسب لو قصرت فيه.

إذن: فهي مشكلة: إن قمتم بواجبكم حوسبتهم، وقيل: أنتم عملتم وأسأتم، أو يقال: شككتم الناس في أهاليهم - هذا إذا قبض على أحد وكان مستورًا فانفضح بأن كان عنده مصنع خمر مثلاً - أما إذا لم تعملوا شيئًا قالوا: لا يخافون الله، يأخذون الراتب دون عمل، يتكلمون ويشربون القهوة، ثم بعد هذا يأخذون الراتب آخر الشهر.

إذن: ماذا نعمل؟

إن عملنا نلام بلاحق، وإن سكتنا نلام على ذلك، فأقول: يا إخوان، هذا لا بد منه، وما دام لا بد منه فلا حيلة لكم إلا الصبر؛ فقد أرشدنا الله ﷻ إلى ذلك، وأن أي أمر لا حيلة لنا فيه فالحيلة معه الصبر، فإن الصبر حيلة من لا حيلة له؛ ولهذا إذا قدر الله تعالى على أي إنسان مصيبة - نسأل الله أن يحفظنا وإياكم - فوقع وانتهى الأمر؛ فلا حيلة له إلا الصبر.

ومتى يكون الصبر؟ عند الصدمة الأولى، وأما بعد ذلك فكل الناس تسلو كما تسلو البهائم؛ لكن المؤمن يصبر، ويحتسب عند الصدمة الأولى؛ لأن الأمر قد انتهى، فمات من مات وحصل ما حصل وانتهى فماذا بقي من حيلة؟ بقي الصبر والاحتساب عند الله ﷻ، فكل هذه العقبات يجدها الداعية ويجدها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه أينما اتجه.

ابتلاء الدعاة في الوقت الحاضر:

إنَّ الشيطان إذا جاء وقال لصاحب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إذا كان الأمر كذلك فانسحب من هذا الميدان، فماذا يكون الحال؟ وهل هذا حل؟ لا، هذا ليس حلاً، فهنا الخطر، وهنا تكون الفتنة لأهل الشر والفسق والفجور، وما أجزأهم على ارتكاب المحرمات؛ إلا أنهم رأوا أنه كلما برز عنصر طيب في الهيئات سرعان ما ينسحب أو يتقل، فيكون ذلك فتنة لأهل الفساد، ويكون أيضاً إسقاطاً وخوراً في عزيمة المجتهدين الراغبين في داخل الجهاز، ويكون أيضاً تشييطاً وتخديلاً لمن يريد أن يلتحق بهذا الجهاز، وهو يرى أن أهل الخير وأهل الفضل يتركونه.

ثم أهم من ذلك: أن هذا الإنسان يأثم عند الله ﷻ؛ لأنه آثر الراحة وآثر السلامة؛ أي أنه باختصار لم ينجح في الابتلاء، والله تعالى يقول: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [المنكوت: ٢]؛ أي: أنه لا بد من الفتنة، ولا بد من الابتلاء، فهذه سنة ربانية حتى قال بعض العلماء: «إن من لم يؤذَّ ويتلى ويتحمل الأذى فإن إيمانه لا يُعد إيماناً في الحقيقة». فهو مسلم - إن شاء الله - وعلى خير، إن مات قبل الابتلاء؛ لكن إذا حصل الابتلاء فهنا يكون المحك، إما أن يصبر فيرتقى إيمانه ويكون مؤمناً حقاً على تفاوت في الدرجات بين المؤمنين؛ وإما أن يخفق في الابتلاء، فيفقد إيمانه - نسأل الله العفو والعافية - وكفى به حرماناً.

ولا خيار للإنسان، فنحن عبيد الله ﷻ، خلقنا وسيرنا واستعبدنا بأن نقيم هذا الدين، وأن ندعو إليه دون اختيار لنا في ذلك أبداً، وأي انحراف أو خروج منا على هذا الابتلاء، أو محاولة في الابتعاد عن هذا الابتلاء - فإن ذلك علينا لا لنا.

الله ﷻ يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي: أن كل من اتبع النبي ﷺ فهو داعٍ إلى الله، وهو أمرٌ بالمعروف، وناهٍ عن المنكر؛ ولهذا كان الصحابة الكرام جميعاً أمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، وأول وأعظم من كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر

هم أعظم أكابر الصحابة في الإيمان والتقوى، كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

عمر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر:

عندما تفكر كيف كان عمر رضي الله عنه يذهب في الليل ليسمع، ويرى، ويتفقد، وإذا امرأة تقول: «هل من سبيل إلى خمر فأشربها» تغزلت في رجل بشعر وهي نائمة، ولا تظن أن أحدًا يسمعها، فتقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فسمع عمر -رضي الله تعالى عنه- هذا الكلام، وفي اليوم الثاني سأل عمر: من نصر بن حجاج؟ قيل: هو رجل فيه جمال وتُعجَب به من ضعف إيمانه. فأمر بأن يُنفى من المدينة إلى الكوفة.

سبحان الله! وأما اليوم فما يُعرض في وسائل الإعلام من مشيرات الشهوات أضعاف أضعاف هذا الشعر! وذاك في عصر الإيمان والنور، ونحن في القرن الخامس عشر.

فهكذا كانوا هم أعظم القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل كانوا يبدءون بأنفسهم.

دخل عمر -رضي الله تعالى عنه- يوماً إلى سوق الإبل يتفقد ويستطلع أحوال الناس، إن رأى ضعيفاً أو عاجزاً أعطاه، وإن رأى محروماً أعطاه، وإن رأى منكراً غيره، فما رأى منكراً -والحمد لله- فبلد رسول الله ﷺ وأهله الصحابة ليس فيهم منكر؛ لكن لفت نظره ذلك اليوم أن إبلاً أسمن من غيرها، ففكر كيف ذلك وكل الإبل ترعى سواء من المدينة؟! فسأل لمن هذه الإبل؟ قالوا: هذه لعبد الله بن عمر. ثم جيء بعبد الله بن عمر، وسأله عمر: لِمَ يا عبد الله بن عمر هذه الإبل أسمن من غيرها؟ قال: والله يا أمير المؤمنين إن هذه الإبل اشتريتها من مالي، ورعيتها مع المسلمين، واسترعت لها رعاة من المسلمين، وهأنذا أريد أن أبيعها. فقال عمر: لا، كان الناس يقولون: اسقِ إبل ابن أمير المؤمنين، أو رد إبل ابن أمير المؤمنين؛ فلأنك ابن عمر شربت إبلك أكثر، ورعت

أكثر، فكانت أسمن من غيرها، لا يا عبد الله، لك رأس مالك، والريح في بيت مال المسلمين قال: سمعًا وطاعةً يا أمير المؤمنين.

فماذا يصنع عبد الله بن عمر أو غيره مع عمر -رضي الله تعالى عنه-؟! انظروا إلى الحساسية، وكيف بدأ بنفسه في إنكار المنكر، والتعاون على البر والتقوى؛ ولهذا نصرهم الله ووفقهم.

عاقبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كان الواحد منهم يذهب إلى الجهاد، وقد يصل إلى أطراف الأندلس أو إلى السند وهو مطمئن، فلن يضيع أهله؛ لأنه لا توجد مغريات أو مشيرات تجعلهم يرتكبون الفواحش -والعياذ بالله-، ولن يضيع أبنائه، فالناس في خير وإلى خير والحمد لله، وكل مسلم يستشعر ويحس بمسئوليته نحو الجميع.

ولذلك لما جاء رسول كسرى إلى المدينة متطلعًا يريد أن يرى قصور المدينة - وقد جاء من عند الإيوان - البيت الأبيض - وكأنه يسأل: أين البيت الأبيض عند عمر؟ لكن عمر لما هز الدنيا كلها ما كان ليكون له بيت أبيض في المدينة، فدخل الرسول وإذا به لم يرَ إلا بيوتًا عاديةً جدًّا، أين أمير المؤمنين، أين عمر؟ قالوا: ابحث عنه في المسجد، فذهب ووجده وحده نائمًا في ظل الشجرة، متوسدًا حجرًا، فما صدق أنه عمر! أهذا عمر الذي أربى كسرى وقيصر؟ فلماذا أوقع الله هيبته في قلوب العالمين يا معشر المؤمنين؟ إنه لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فأولئك عملوا لله ﷻ، فكان حقًا عليه أن ينصرهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَّ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، فنصرهم ورفعهم على العالمين، فوالله ما خسروا شيئًا، بل إنهم ربحوا الريح الأكبر، ولنفترض أنهم جمعوا أموال الدنيا فقد جاء بعدهم من جمعها، ولكن أين هي؟

أبو الدرداء رضي الله عنه كان يقول: «يا أهل دمشق، يا أهل دمشق، ما لي أراكم تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون؟! يا أهل دمشق، إنه قد بلغنا أن عادًا قد بنوا لَبنة من ذهب ولَبنة من فضة، فمن منكم يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين؟». لن يدفعها أحد، فأين عاد؟ ذهبت وانتهت.

وكذلك الآن ونحن بعد قرون، لو عُرض على أحد أن يشتري تركة أكبر إنسان ثري في العالم اليوم وبنوكه بدرهمين - فلن يشتريها أحد؛ لأنها ذهبت، ولكنه عند الله تعالى موقوف يحاسب على كل صغيرة وكبيرة.

إن هذه الشعيرة العظمى كلما أحييناها في الأمة أحياناها الله تعالى، فلنصبر على ذلك، ولنحتسب عند الله تعالى كل ما يصيبنا من الأذى؛ وكل ما نلاقه من محن، وكل ما يعترضنا من فتن، ولنفترض أسوأ الأحوال دائماً، ولنفترض أننا في بيئة لا تقر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إننا في خير لأننا نستطيع أن ندعو؛ وذلك أننا إذا ما قارنا أنفسنا بغيرنا؛ فسنجد أنه لا يوجد في هذا العالم دولة فيها هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا هذه البلاد، وأسوأ من ذلك أنه في تلك البلاد يعذب الإنسان، ويمتحن ويؤذى ويتابع وتكتب عليه التقارير؛ لأنه شوهد وضبط وهو يصلي الفجر عدة أيام في مسجد ما، وهذه مصيبة كبيرة جداً، فالواحد منا إذا رأى كثرة الشر والفساد والمعوقات والأعداء فعليه أن يقول: أنا بخير بالنسبة إلى ذلك المسكين الذي توبع لأنه صلى، فأنا -على الأقل- أستطيع أن أقول: أيها الناس، صلوا.

فهذا الركن العظيم وهذه الشعيرة العظيمة عليكم أن تحافظوا عليها، فلا ينظر أحدنا إلى كثرة الشر؛ بل يقارن نفسه بمن هو دونه، فينظر إلى من هو أقل منه أمراً ونهياً عن المنكر فيحمد الله أنه في فسحة، وأنه يستطيع ذلك.

إذن: فالإنسان في مثل هذه الأمور يصبر نفسه، ويعزيها، ويسليها، ولا شك أن العاقبة للمتقين، طال الزمان أو قصر، فإله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ

بَعْدَ الذِّكْرِ أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٥﴾ [الأنبياء: ١٥٥].

فلا أحد كان يظن أيام الدولة العثمانية - وهي تحكم العالم شرقاً وغرباً حتى وصلت إلى بولندا - أن هذا الشيخ المسكين محمد بن عبد الوهاب - رحمة الله عليه - الذي كان يذهب إلى الناس وإلى أهالي القرية وكلهم يطردونه وكان رجلاً وحيداً أن يكون له هذا الذكر الحسن.

فيقبله محمد بن سعود - رحمة الله عليه - ويتحالف معه في تلك المملكة وكانت كلها قرية الدرعية فقط، فما هي بالنسبة للدولة العثمانية أو بالنسبة لنابليون وللعالم الذي كان بعد ذلك في أوروبا؟ ولكنها لما بدأت بالتوحيد الخالص لله، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مدها الله ﷻ وأظهرها ونشرها، وأبقى له - كما ترون - الذكر الحسن في العالمين إلى هذا اليوم، وهذا فضل من الله ﷻ.

وعادةً يكون انبلاج الفجر عند اشتداد الظلمة، فإذا رأيت الحق يحارب فاستبشر بأن النصر قريب؛ وإذا دارت المعركة بين الحق والباطل بوضوح فاعلم أن النصر قريب؛ لأن الحق هو دين الله ﷻ وهو مُتكفّل به، ولن يُضيع عباده الصالحين أبداً، لكن المشكلة أنهم يأتون من قبل أنفسهم ومن تقصيرهم وتخاذلهم، فإن فعلوا ذلك فقد قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] أي: أنه سيأتي بغيرهم.

المهم: أن هذا الدين سيقوم، إن لم يقم على يديك فعلى يدي غيرك، وإن لم يُقَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على يد الهيئات؛ فسيخرج الله من أبناء المترفين وأبناء المجرمين من يقيمهم، فتجد الأب يوزع الخمر والمخدرات، وابنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فهذا دين الله ولا يستطيع أحد أن يسده أبداً، وسيخرج الله له من يقيم الحجة على العالمين، لكن هذه فترات ابتلاء وامتحان لا بد أن تمر.

صبر الدعاة هو من عزم الأمور:

كم ابتلي النبي ﷺ، وهل أحد أكرم أو أمنَّ على الله ﷻ، وأحظى عند الله من محمد ﷺ؟ فقد حُوصِر في الشعب هو وبنو هاشم، إلى درجة أنهم أكلوا أوراق الشجر من الجوع، وكان ذلك لما كتبت الصحيفة التي تعاقدت قريش فيها على الكفر - والعياذ بالله - وعلى القطيعة؛ فكان لا بد من الابتلاء.

وماذا كان يوم أحد؟ وكم كان يوم الأحزاب من الفتن والأهوال التي زلزلت قلوب المؤمنين؟ ولكن في النهاية كان النصر المبين، والحمد لله.

فالصبر هو أساس النصر حتى عند من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وقد سُئل الفارس الجاهلي المشهور عنتر بن شداد، فقيل له: كيف تغلب الخصوم إذا بارزتهم؟ قال: كلما قالت نفسي: فر واهرب سيقتلك، قلت لها: اصبري قليلاً لعله يفر قبلي، وما أزال بها حتى يفر. سبحان الله! هكذا الإنسان كلما آتاه الله ابتلاء فليصبر قليلاً لعل الله أن يكفيه شره، ولعله هو الذي يذهب؛ وبهذه الطريقة يحصل النصر، والله تعالى يقول: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦] أي: أن الصبر والتقوى من عزم الأمور، وأهل العزائم معدودون، لكن هؤلاء الأفراد المعدودين هم الذي يعيدون المسيرة كلها؛ لأن هذا الفرد يضع العلامة على الطريق، وهو مثل الذي يتقدم تحت وابل من الرصاص من الأعداء لكي يضع علامة على الطريق ويموت، ثم يأتي الآخر، ويضع علامة حتى يمشي عليها الناس، فهذا هو الابتلاء الذي يلاقيه الدعاة والأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؛ لأنهم يرسمون طريق العودة لهذه الأمة كلها، فإذا تحول الناس إلى الخير، برز النفاق، فالذي كان وقت الشدة لا يعرفك ولا تعرفه، بل وتخلي عنك، إذا أظهرك الله ومكن لك جاءك يقول: أتذكر يوم ساعدتك؟ أتذكر كيف أعتك يوم احتجتني؟ وهكذا حتى في عهد النبي ﷺ كان النفاق على هذه الصورة، وهو كذلك في كل زمن.

والمؤمنون يصبرون في أول الأمر حين يمتحنون ويؤذون، وقد لا يرون شيئاً من النصر؛ فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه، الفتى الذي كان مترقاً في مكة ذهب إلى المدينة ودعا الأنصار إلى الله، فأسلموا حتى ما بقي بيت في المدينة إلا ودخله الإسلام، وقُرئ فيه القرآن، يُقتل يوم أحد رضي الله عنه، فيأتي الصحابة الكرام وليس له إلا رداء إن غطي به رأسه بدت رجلاه، وإن غطيت به رجلاه بدا رأسه، ومات ولم ير شيئاً من النصر؛ لكن الذين عاشوا من بعده كعتبة بن غزوان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم، فهؤلاء رأوا كيف أظهرهم الله على كسرى وقيصر وفتحوا العالم؛ لكن من مات في بداية الطريق لم ير شيئاً من ذلك ولا أدركه؛ هؤلاء غبطوا ذلك المتقدم، وقالوا: «نخشى أن تكون حسناتنا عجلت إلينا». فخافوا من أن ما أدركوه من الخير ومن النعمة، أن تكون حسناتهم عجلت إليهم، أما مصعب وعبد الله بن رواحة وأمثالهم رضي الله عنهم فإنهم ماتوا قبل أن تفتح هذه البلاد، وقبل أن تكون تلك النعم.

وتشتد الحاجة إلى الصبر كلما كانت الأمة في انحراف، وتحتاج لمن يؤسس لها الخير، ولا أرى أن الأمر قد يحتاج إلى أن أذكر بواقع هذه الأمة الآن، فإنه شيء معروف. نحن في هذا البلد نعاني من شيء آخر، رغم ما عندنا من بقايا الخير ومن استجابة في الناس، وهي: أننا بلد مستهدف، وما أظن أن أمة في العالم مستهدفة محاربة بشكل واضح من العالم مثلنا رغم أننا لم نوذ أحداً، وتسمعون ما يُثار وما يُقال، حتى لو كان عندنا خبر واضح مثل الشمس فلا يمكن أن يروه إلا مزوراً، أو يزيدوا فيه أو ينقصوا، أو يربطوه بشيء لا حقيقة له، حتى من أكرمناهم وأعطيناهم لا يمكن أن يقولوا: جزاهم الله خيراً. أو يسكتوا عن اللوم، وهذا يجعلنا نفكر: لماذا نحن مستهدفون؟

هذا السؤال مهم يصرح به المسئولون والمثقفون والدعاة والذين يقرءون الصحف العالمية، ويسمعون الإذاعات العالمية، من الناس من يقول: إن ذلك بسبب الثروة، مع أن هناك من دول العالم من هي أثري منا، قد يكون عندنا خير كثير، لكن ذلك لا يُعد شيئاً بالنسبة لغيرنا، فإذا قارنت بثروة أمريكا أو اليابان أو ألمانيا الغربية فلا

تكاد تصدق مما عندهم من ثروة، وكوننا فتح الله علينا من المال فإنه لا تزال مناطق كثيرة جدًا في بلادنا بحاجة إلى بعض الأمور الأساسية من طرق ومستشفيات ومدارس... إلخ.

فالقضية ليست قضية المال، ورغم أننا أتينا بهم إلى بلادنا - وهذا لا يجوز شرعًا؛ لأن جزيرة العرب لا يجوز أن يجتمع فيها دينان كما أخبر النبي ﷺ، وأفتى بذلك العلماء والحمد لله - لكن أقول: مع ذلك أخذوا من الثروة وما سكتوا.

وإن قيل: بسبب الأمن، والأمن نعمة عظيمة نحسد عليها، لكن الأمن ما جاءنا من أجهزة الإنذار الإلكترونية المعلقة في كل بيت، ولا يوجد عندما في البيوت مثل هذا، بل عندما ملكنا الكمبيوتر أصبح واقعنا الأمني أقل منه قبل أربعين سنة.

إذن: الأمن له سر، وهو نتيجة لشيء آخر تميزنا به هو: هذا الدين، وهذا الإسلام، ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] يريدون منا أن نبني كنائس في بلادنا، يريدون أن يدخلوا اليهودية والنصرانية، بل يريدون أن يجعلوا منا شيوعيين ماركسيين، أو أي ملة من الملل.

المهم: لا يريدوننا أن نبقى مسلمين، فكل الحروب مهما اختلفت ومهما تنوعت المعارك فهي كلها من أجل هذه العقيدة، من أجل هذا الإيمان، وبالذات أنها - والله الحمد - عقيدة نقية سلفية صحيحة، هذا هو السبب؛ ولذلك فالمحافظة على هذه العقيدة، وذب المنكرات التي تحيط بها من البدع والضلالات هو واجب الواجبات، أي: أن حماية بيضة الدين وأصل الدين هو المحافظة على هذه العقيدة، والإيمان هو واجب واجب على كل أحد في هذه البلاد، لأن هذا هو السبب، ولذلك نحن مستهدفون، وهناك أخبار كثيرة مفزعة نقرأها، فلو ربينا الشباب هنا تربية سليمة ما حدثت مثل هذه الأمور.

منذ فترة أربعة عشر نفرًا من السعوديين قُتلوا في شاطئ في بانكوك، في شواطئ الفساد، كم هم الذين أتت من مانيلا جنائزهم، لولا أنها في جرائدنا نحن لقلنا: إنها من

هؤلاء الحاقدين المعتدين، وهذا يدلنا على الخواء الذي نعيشه، لِمَ هذا التهافت على الخارج؟! ما الذي في الخارج؟

نحن الذين العالم كله يغبطننا -كما يقولون- من أجل المال، من أجل الأمن، فلماذا نحن نتهافت إليه، نساfer إليه؟

إن الشهوة الرخيصة الشهوة الدنسة تجعلنا نذهب إليه، ثم إذا ذهب الإنسان إلى هناك هل يرجع إلينا يقول: اتقوا الله. هل يرجع يقول: رأيت المنكرات رأيت الإجرام رأيت ورأيت...؟ أبدأ، مهما رأى فإنما يتحدث، بل إن بعضهم قد لا يرجع أصلاً، وبعضهم يسرق ويذهب، ثم يرجع إلى هنا وهو يقول: إنها بلاد الحرية، أي حرية هذه وقد سلبوك كل شيء؟

لأن الشهوة إذا قادت الإنسان أذهبت عقله ودينه -نسأل الله العفو والعافية-، ولذلك فإن حرب مقاومة هذه الشهوة أول ما تبدأ فإنما تبدأ بتأسيس الإيمان والعقيدة الصحيحة ومحاربة البدع، ومحاربة الضلالات، وبناء التقوى وخوف الله ﷻ في قلوب الناس، والقبض على المجرمين وملاحقتهم، وترصدهم في أماكن وجودهم، هذا أمر وعمل لا بد منه، لا شك في ذلك، وبه قوام حياة المجتمع وأمنه.

أهمية العقيدة الصحيحة وإحياء رسالة المسجد:

لا بد من الوقاية بتربية الناس على العقيدة الصحيحة والتقوى وخوف الله، والرغبة في الآخرة، والزجر عن الشهوات من خلال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، ومن خلال خطب الجمعة، ومن إحياء المدارس في المساجد، وأن يعود للمسجد قيمته حتى يرتبط الإنسان إذا تاب بالمسجد، وبعض الناس إذا تاب لا يدري إلى أين يذهب، إذا أتى إلى المسجد يجد أهله منشغلين بطلابهم، وإذا أتى إلى الهيئة وجدهم مشغولين أيضًا، فلا يدري أين يذهب، ولا يجد من يدلّه إلى الطريق الصحيح! لا بأس أن تعطيه شريطًا، لكن مع ذلك اربطه بالمسجد، وقل له: اذهب إلى المسجد وصل، واسمع ذكر الله، وتعلم كتاب الله، وإن كنت محتاجًا فأهل الخير سيعطونك من

فضل الله تبارك وتعالى، المسجد كله خير، كله بركة، كله نور، فلما جعلناه للصلاة فقط انتهى أثره في حياة الناس، لقد كان المسجد في حياة النبي ﷺ والصحابة هو مقر الشورى، هو مقر القضاء، هو مقر العلم، مقر الفتيا، وكذا كان في عهد أبي بكر وعمر، أما نحن الآن فمقرنا المقاهي والملاهي والملاعب التي نضيع فيها الساعات الطوال، والمسجد ليس له إلا تلك اللحظات؛ وهذا لمن يأتي إليه.

أكثر المشاكل تحتاج إلى صبر وتعاون:

أقول أولاً وآخرًا: اصبروا واحتسبوا، وأخلصوا العمل لله ﷻ، واعلموا أن كل من يدعو إلى الله ﷻ، وكل من يُعلمُ الناس كتاب الله، وكل من يدعوهم إلى الخير فهو معكم، وإنما خطؤنا وتقصيرنا هو من أنفسنا، فإننا لا نتزاور، ولا نتعارف، ولا نتعاون، ولا يشدُّ بعضنا من أزر بعض، واعلموا أن بعض الأمور قد تستعصي على عضو الهيئة بينما يستطيع أن يحلها إنسان آخر بطريقة أخرى لما له من معرفة في الشرطة، أو في الإمارة، أو في أي إدارة أخرى، فتحل القضية، ويكسب الأجر العظيم، وتكون الشفاعة الحسنة التي يؤجر عليها صاحبها.

إننا قد لا نشعر بمشكلات بعضنا البعض، المحاكم لا ندري ما يدور فيها، فهم متخمون بالادعاءات والمشاكل، وهيئات التمييز تقول: لا نقدر أن نغطي أعمالنا لكثرة ما لدينا من مصائب. المدرس يقول: نحن جداولنا مزدحمة، تحضير في الليل، وتدريس بالنهار. فهذه الأعمال جعلت كل واحد منا في وادٍ، بينما لو وجد شيء من التنسيق وبذل بعض المجهود لاستطعنا أن نحقق الشيء الكثير بإذن الله ﷻ، هذا يلقي كلمة، وهذا موعظة، وهذا يطرح مشكلته على إخوانه فيجد عندهم الحل.

وأضرب لكم مثالاً من واقع المحكمة - باعتبارها محكمة شرعية، وهي أقرب شيء للهيئة، وما تراه أنت منكرًا لا شك أن القاضي يراه منكرًا - أقول: أنا أعلم ما تعاني الهيئات من المحاكم المستعجلة، لكن ذلك، لعدم وجود تنسيق ولقاءات خارج الدوام فيما بيننا، حتى تأتي على هذه المشاكل، ولكن كل واحد منا يعمل بدون أخذ مشورة من

الأخر، وبعض القضاة يريد أن يطبق شروط الفقهاء - عشرة شروط أو أكثر - في القرن الثاني أو الثالث.

فمثلاً: لا يعززه لعدم وجود الشروط، أو يقول: قد وبخت الجاني، وهذا غير لائق.

أحد القضاة يأتيني - وهو من خريجي الجامعة - يقول: أتاني شخصٌ قد شرب الخمر اثنتي عشرة مرة، فلما قلت له: الرسول ﷺ يقول: «إذا شرب الرابعة فاقتلوه»^(١). قال: القضاء الأعلى لم يفعل ذلك. إذن: لا بد أن نضع عقوبة رادعة لشرب الخمر؛ لأنه انتشر، ومثل الخمر الخلوة التي لا يبقى بعدها إلا الفاحشة الكبرى - الزنا -، التي يحذر منها حتى الغرب الإباحي، فهذه لا يكفي فيها التوبيخ والزجر كما فعل مع من شرب الخمر.

أقول: لا أريد أن أتكلم في هذه المشاكل لذاتها، لكن أقول: هذا من ضعف التعاون والتنسيق بين المسؤولين في الهيئة - ولا تؤاخذوني في ذلك - وبين المسؤولين في المحاكم المستعجلة، وبين المسؤولين أيضاً والدعاة، وبين كل ما يهتم بهذا الدين، لو كان هناك شيء من التعاون لكان غيرك يستطيع أن يفعل ما لا تفعل أنت، يرفع إلى الجهات العليا ما لا تستطيع أن ترفع، فأنت قد تُتهم أنك تتكلم عن شيء لأن لك غرضاً في نفسك، لكن عندما يأتي الأمر من غيرك ممن له قدرة فإنها تصلح الأمور؛ لكن أقول: ما زلنا نتهاون حتى أصبح رجل الهيئة كأنه خصم، وهذا خطأ، فرجل الهيئة محتسب، والمحتسب لا يؤاخذ؛ إن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران، هذا دين الله ﷻ وهذا شرع الله قديماً، وحتى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله عليه - هذه فتواه بذلك ومعممة على جميع المحاكم وجميع الهيئات، وما أشاعه الكذابون والمجرمون أن الحسبة أوقفوا حركة المرور، وطلبوا من كل واحد مع امرأة أن يخرج الصك أنها زوجته فهذا تشويه، وهذا الأمر لم يسبق أن حدث، لكن الإرجاف،

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٨٦)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٣).

والإشاعة والكذب تجعلهم يهولون هذه القضايا، ولنفترض أنه حصل واشتبهت الحسبة في أحدهم وسئل: هذه زوجتك أم لا؟ فلا حرج في ذلك، فهم مترددون بين الأجر والأجرين، لكن إذا اتهم المحتسب، وظهر أنه يقصد أمر آخر فهنا يُفصل عن العمل، ويبحث عن أناس غيره من الطيبين، لكن المهم أن يعمل جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الرجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محتسب وليس خصمًا، لا أمام المدعي العام، ولا أمام المحكمة، فلا يُقال: ادعى رجل الهيئة، وأجابه المدعى عليه فلان بن فلان، ويصل الأمر إلى أن يُضرب رجل الهيئة، والكل ينظر.

ولا أقول هذا لإثارة هذه المشاكل، بل أقول: لتصبروا عليها، لأننا في زمن الصبر وإن لم نصبر فلن نفوز، بل هذا الصبر وهذا الابتلاء أساس الفوز، وأساس النصر، وهو أول طريق الخير، وأنا أقول هذا على سبيل التفاؤل لا على سبيل التيئيس، أقول: وهذا دليل على أن الفجر قريب - بإذن الله - والله ﷻ سيسخر لدينه من يقوم به، وسوف يخرج من أصلاب المجرمين من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

والله ﷻ جعل لنا عبرًا في الأمم الأخرى، نحن الآن نشكوا من التبرج في الأسواق، والعالم من حولنا بدأ يعطينا عبرًا، المرأة في الدول الغربية بدأت تطالب بالعودة إلى البيت، في مصر - أكثر دولة إسلامية ركز عليها الاستعمار لإفساد جيلها - الفتيات بدأت بالتحجب، ولا يوجد علماء ولا دعاة ولا هيئات تدعمهم، بدأت يتحجب من ذات أنفسهن في الجامعة، في عدن الشيوعية يخرج البنات من طالبات الثانوية في مظاهرات للمطالبة بالفصل بين الطلاب والطالبات، في الجزائر مليون امرأة تخرج للمطالبة بمنع الرياضة في مدارس البنات، ومنع الاختلاط، وعودة الحجاب.

بدأت تعود الأمة لدينها في كل بلد وهي لا تعرف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن لما ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ممن يجب عليه أن يقوم به، استبدل الله بهم قومًا آخرين ثم لم يكونوا أمثالهم، فقاموا بهذا الدين، لكن ما علينا إلا الصبر، هذا الأمر قد يستمر مائة أو مائتين سنة، وذلك لا يهمنا، الذي يهمنا هو أن

نجاهته ونصبر، وأن كل ما اشتدت الظلمة نرتقب الفجر.

غلبة الدين وقهر الرجال:

السؤال:

«غلبة الدين، وقهر الرجال»، نريد منكم شرحًا كافيًا له، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

غلبة الدين وقهر الرجال هذان هما اللذان استعاذ منهما النبي ﷺ، ونستعيز بالله منها جميعًا، هذا أشد ما يمكن أن يصاب به الإنسان، الهم والحزن: «أعوذ بك من الهم والحزن، وغلبة الدين وقهر الرجال»^(١). أما الهم فهو لما يستقبله الإنسان من أمره، ولا يدري كيف سيواجهه، والحزن لما فات من أمر، فهو حزين على شيء قد وقع، كخير فات، أو شر نزل أو غير ذلك، وغلبة الدين ليس هناك أشد منه، ويُقال: إن لقمان الحكيم قال في وصاياه: «وحملت الأثقال كلها فما وجدت شيئًا أثقل من الدين». فلا أشد من الدين، ولا أسوأ على قلوب الرجال الشرفاء أهل النبالة والكرامة من أن يأتيه صاحب الدين وهو بين الناس أو وحده ثم يقول: متى تعطيني؟ وليس أي دين، ولكن غلبة الدين، وإذا كان الإنسان من أهل الكرم والخير والفضل فإنه يورط أكثر، لا يقدر أن يترك بيته، ولا يقدر أن يترك التزاماته، فنسأل الله أن يعيدنا وإياكم من ذلك.

وقهر الرجال: لأن الظلم مر، من أمر الأشياء الظلم والقهر، كأن يواجهك شخص ويقهرك ويظلمك بشيء واضح لك كالعيان، ولكنك مقهور، لا تستطيع أن تتصرف تجاهه، نسأل الله أن يعيدنا وإياكم من ذلك.

الشدة والرفق في الدعوة:

السؤال:

هل يستخدم الإنسان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القوة مع الناس أم يستخدم الرفق؟

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٥)، وضعفه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

الجواب:

نعم، هذه مشكلة، وأنا أتعجب من بعض الناس حين يأتي يتكلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكثر من مرة في مجالس كذا يقولون: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرفق، فعندما تقول: صلوا. فإنهم ينفرون منك، ولكن حين تقول: جزاك الله خيراً، أو الله يهديك. وتكلمه بالرفق فإنه يأتي إلى المسجد.

قلت لأحدهم: إذا كان المركز -مركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- فيه ثلاثة أعضاء أو أربعة أو خمسة، وهم في حي سعته خمسة كيلو متر مربع أو عشرة، وفي كل سوق أكثر من مائة دكان، وهذه الصلاة التي فرضها الله على كل مسلم، ويرتفع الأذان بها في كل أفق، والأطفال الصغار والعجائز كل واحد يعرف وجوبها، ثم يحتاج كل فرد إلى مداراة ورفق، وإلى أن يتكرر له ذلك كل مرة، فكم تتوقع أن يصلي في المسجد؟ وكيف تتوقع أن يكون الرد؟

لا أقول: إنه لا بد أن نكون جفاة؛ لكن علينا ألا نحمل الإنسان ما لا يطيق، وهنا يأتي واجب على كل إنسان، هذا السوق له إدارة تقوم عليه، ومن المفروض على هذه الإدارة أن تأمر الناس بإغلاق الدكاكين بدون حضور الهيئة أو أن تمر الهيئة فتأخذ المتخلف، لا.

لا بد أن نقول للناس: صلوا. المتسوق الذي يذهب إلى السوق واجب علينا جميعاً أن نقول له: صل. وأن نحركه للصلاة، وبهذا نكون قد خففنا من الضغط على الهيئة، وصاحب الهيئة واجبه أن يرى الناس فيه الحزم.

فمن أسباب المشكلة، أن الإنسان يؤخذ عليه العهد مرتين أو ثلاثاً وبعدها لا يكون له سلطة، أول ما يدخل يقول: تقسم بالله. ثم يتعهد، ولا يبالي؛ لأنه يعرف أنه لا يوجد عندنا غير هذا الدفتر، لو كان يعرف أن هناك حساباً وأن هناك مسئولية لاهتم، كما يهتم بالإقامة، إذا ضيعت الصلاة فلا مشكلة، فأصبحت الإقامة أغلى من الصلاة، وقد صرنا الآن كما قال ﷺ - وقد أخبرنا بكل فتنة -: «يقال للرجل: ما أعقله، وما أظرفه،

وما أجمله! وليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(١). رجل كريم وفيه خير وفيه... لكن لا يصلي، فأبي خير في هذا الذي لا يصلي؟ هذا ليس فيه ذرة من الخير، الذي لا يصلي لا يكون عنده ذرة من إيمان.

لقد استهنا بأمر الصلاة، وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما طعنه المجوسي في المحراب، وسقط مغشياً عليه والدم يتزف منه أفاق وهو في هذه الحالة، وقال: أصلى المسلمون؟ لأنه كان الإمام، فأهم قضية فكر فيها عمر: هل صلتى المسلمون؟ هذه القضية الأساسية، نقول: لما تهاونا بأمر الصلاة، وأصبحت مسألة شكلية لم يعد يعبا الناس بمرور عضو الهيئة؛ لأننا تركنا واجبنا نحن، أقول: هذا كالدوريات المنتشرة في الأسواق والتي تركت واجبها، وعندما تقول له: لماذا لا تأمر الناس أن يصلوا؟ يقول: لا نريد أن تكون هناك مشاكل، نحن مختصون بالنواحي الأمنية فقط، نقول: ماذا يخسر العسكري لو أمر الناس بالصلاة؟ هل يؤثر ذلك على عملهم وهم منتشرون في كل مكان؟ لا يؤثر، ولن يخسروا شيئاً، بل هذا فيه تعاون مع أعضاء الهيئة، أما بهذا الشكل فقد أصبحنا أضحوكة أمام الناس، فإذا مر عضو الهيئة من أمامهم قالوا: انتهى الأمر. ويعود كل شخص إلى عمله من بيع وشراء وكأنه لم يحدث شيء؛ لأنه يعلم أنه لن يعود إليه، ولا يوجد من يأمره وينهاه، فنحن بهذا عرضنا ديننا للسخرية، وهذه السخرية لا تختص برجال الهيئة فالذي يتكلم لا يتكلم في الهيئة وحدها، بل يتكلم في المجتمع كله، وفي الأمة كلها.

أقول لرجال الهيئة: اتقوا الله ما استطعتم، عليكم أن تبدلوا جهدكم، وعليكم أن تأخذوا اثنين أو ثلاثة منهم أو أكثر؛ ليكونوا عبرة للآخرين، على رئيس الهيئة أو مسئولها أن يزرهم أو يسجنهم أو يحولهم إلى المحكمة بشكل يسمع به الآخرون؛ ومع هذا فالواجب على الدوريات وعلى المتسوقين، وإدارة السوق إذا كان للسوق إدارة، وعلى كل إنسان، ومن ذلك الدعاة أن يأتوا، فيقولوا: هذا الحي الصلاة فيه قليلة، إذن لا بد من عمل محاضرة في هذا الحي، وفي هذا المسجد عن أهمية الصلاة حتى تقوم

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

الحجة، ولعل غافلاً يسمع ذكر الله، ولعله إذا رأى الناس يصلون أن تتحرك همته ويصلي مع الناس.

التعاون مع الهيئات:

السؤال:

ما سبب عدم زيارتكم لرجال وأعضاء الهيئة؟

الجواب:

من الأشياء التي نحتاج إليها أننا نجلس دائماً أو نتزاور أو نتلاقى، أنا لا أكتمكم أني ما كنت أدرك بعض ما يدور خاصة في الهيئات، أقول: هذا من الخطأ؛ لأنهم قائمون بجبهة، وهم يقومون بأعمال كثيرة، لكن يمكن أن نذهب مثلاً إلى الأمن العام ونرى كيف يعملون، والمفروض أن نعرف حال بعضنا البعض، لكن لما قرأت نظام الهيئات الذي صدر فيه الأمر الملكي وجدت فيه ثلاثة أيام توقيف أو خمس عشرة جلدة، العضو يقوم بالدعوة إلى الله وغير ذلك، فلما أتيت أسأله فإذا بهذا الأمر ما نُفذ، مع أنه منصوص عليه.

حرية الفكر:

السؤال:

ما نصيحتكم حول ما يقال من حرية الفكر، وتطبيق الأمر الصادر؟

الجواب:

أما من يقول: حرية الرأي، فليس عندنا هنا حرية للكفر، ليس عندنا حرية لترك الصلاة، ولكن عندنا حرية إسلامية -والحمد لله- فالإنسان لا يُؤخذ بظلم، فلا يحاكم إلا في محكمة شرعية، وهذه هي الحرية التي يفتقدها العالم كله، ولا يستطيع أن يجدها؛ لأن أحكامه وضعية وشرائعها وضعية، أما نحن -والحمد لله- فعندنا شرع الله، فالحرية الحقيقية للأمة هي طاعة الله، ووجود إنسان لا يصلي وهو مصر على ذلك مع عدم وجود السلطة والقوة الرادعة بيد رجل الهيئة هذا خطأ، ولا شك أن هذا يجب

التنبه إليه من قبل الجميع، كلُّ بحسب موقعه.

مشكلة دوام الهيئة:

السؤال:

إن هناك مشكلاتٍ؛ حيث إنه يوجد دوامين على فترتين، ولا توجد فرصة لزيارة الأصدقاء أو الأصدقاء فما توجيهكم؟

الجواب:

موضوع الدوامين نحن ذكرنا أن الصبر والاحتساب لا بد منه، وأنا معكم أنه لو كان رجل ضعيف مثلي ما قدر على دوامين، لكن -الحمد لله- أن الله جعل فيها من هم أكفأ وأقدر وأصبر، فاصبروا واحتسبوا الأجر، ولا شك أن هذا أيضًا يستدعي من المسئولين دراسة الوضع، وإمكانية تكثير الوظائف وتكثير العدد، بحيث تكون نوبات، فيتاح للإنسان أن يعود مريضًا، أو يزور قريبًا، أو يقوم ببعض شئونه، وهذه لا شك أنها تؤثر على عمله، لأن الإنسان لا يمكن أن يكون جثة بلا روح، ولا يصح هذا، ولكن يأتي وهو راغب، ولديه الإمكانية والاستعداد النفسي، أما إذا جاء وهو مشدود فإنه لا ينفع ولا يعمل، وربما أدى ذلك إلى التسبب ولا سيما إن لم تكن هناك رقابة، خاصة مع ضعف الحوافز المادية.

الوقت الضائع:

السؤال:

ما هي نصيحتكم لمضيعة الأوقات وعدم الاستفادة منها في طلب العلم؟

الجواب:

علينا أن نستغل فرصة فراغ وقتنا بين أوقات الصلاة -وأي فراغ عمومًا- فنأتي بكتاب ونقرأ كل يوم صفحة أو بابًا أو حديثًا أو حديثين فنقوي بذلك إيماننا، وتعرفنا بالله عز وجل، وتفقهنا في ديننا، وتجعلنا نقدم على هذا العمل ونحن مخلصون محتسبون.

إن هذا العلم نور سواء كان من كتاب الله أم من سنة رسول الله ﷺ، حتى لو

ابتدأنا بالأصول الثلاثة، ثم ترقينا منها إلى كتاب التوحيد ثم إلى فتح المجيد، هذا في الحقيقة يزيدنا علماً وإيماناً؛ لأن هذا كلام الله ورسوله، وأيضاً يجعل الإنسان إذا دعا إلى الله ﷻ يدعو على علم وعلى بصيرة وخير، وأقل شيء أنه خير من كثير من اللغو الذي قد نفع فيه، كما قال الله ﷻ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] وهذا حال أكثر نجوانا وحديثنا، إن لم يكن فيما يضرنا فهو فيما لا ينفعنا إلا من كانت الآخرة نصب عينيه.

أقول: نريد الإخوة في المراكز إن كان قد برز منهم في العلم شخص فليعلم الآخرين أو يستفيدوا منه، إن كانوا اثنين فليتعاونوا، إن كان كلهم كذلك فليتعاونوا.

ثم خارج المركز أيضاً لابد من ذلك، والوسائل -والحمد لله- كثرت هذه الأيام، بما من الله -تبارك وتعالى- به مثل إذاعة القرآن، ومثل الأشرطة، والكتيبات، ثم الكتب، وكل ذلك أيضاً موجود ومتيسر، وكذلك في غير وقت الدوام يمكن حضور حلقات العلم ومجالس الذكر وندوات الخير في المسجد الحرام وفي أي مسجد، فهذه كلها من عوامل تقوية الإيمان، وزيادة العلم، والزاد الذي نتزود إليه في طريق الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المكاره في الدعوة:

السؤال:

ما توجيهكم ونصيحتكم لرجال الهيئة الذين تواجههم مشاكل مع رجال الشرطة؟

الجواب:

أصل المشكلة هي أننا نريد عملاً بلا سلبيات أو أخطاء وهذا مستحيل، لا يمكن أن يوجد عمل إلا وفيه أخطاء، بل نقول: لا دعوة ولا عمل إلا بما تكره النفس، وأصل القضية أن أحد العسكر ذهب وتشاجر مع صاحب محل؛ لأنه قال له: صل. فقالوا: إذن هذا يسبب مشاكل، فإن العسكري ليس له دخل، بل يكون فقط مع العضو ولا يقول للناس صلوا، وهذا ليس بحل، بل إن كان الخطأ من هذا العسكري، وتكلم

بكلام لا يليق، أو أساء عوقب وحده، ويستمر الباقون في الدعوة، وإن كان الخطأ من صاحب الدكان أو التاجر حوسب وقيل له: أنت تستحق أكثر؛ لأنك رفعت صوتك على إنسان وهو يأمرك بالمعروف، وينهاك عن المنكر، وذلك عمله الرسمي، لكن للأسف بناءً على قضية مثل هذه نقفل الباب كله! ويعد هذا فإن الناس لن يقرؤا شيئاً من الخير! إذا واحد علم أنك ستداهم مصنع الخمر؛ فهل تتوقع أن يقال لك: تفضل، هذه القوارير، وهذه البراميل؟ إن هذا لا يمكن أن يكون، ولا بد من التعرض لشيء من الابتلاء، فإذا قلنا: ما دام يحدث بعض المكاره فلا ننهي عن المنكر، وهكذا كل منكر لا بد أن نتعرض في إزالته لبعض المكاره، فإذا تركنا المنكر لأجل ذلك انتشر الفساد، والمسألة من الناحية الشرعية واضحة جداً فإن (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) ويراعى مقادر المصلحة والمفسدة، فنعمل على تحقيق المصلحة العظمى ودرء المفسدة الكبرى وأما الصغرى فتلقى كأن لا وجود لها، أما إذا أردنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسير إلا على مصلحة (١٣٪) ولا يوجد مفسدة متوقعة فلن نعمل شيئاً.

وهناك شيء أهم من ذلك، وهو: أنه يجب التنسيق مع عضو الهيئة، فإنه يسيء إلى الهيئة، ويسيء إلى عملها وسمعتها، ويكون هو نفسه متضايقاً من الأمر بالمعروف، هو نفسه لا تهمة الصلاة، بل لا يهمهم أن يمشي معك ليدعو الناس إلى الصلاة، ثم بعد هذا كيف يؤمن على امرأة إذا وقفت عنده أو صبي أو مال؟

نعم، يمكن أن يقولوا: هذا يحدث في الشرطة والمجرم مجرم في أي مكان، والذي لا يخاف الله فهو كذلك في أي مكان؛ لكن الهيئة سمعتها غير سمعة بقية الأجهزة، بل لو وقعت بعض المشاكل في الشرطة فلا أحد يعرف عنها شيئاً ولا أحد يلومها على ذلك، أما الهيئة فالنقطة البسيطة تملأ الآفاق.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الفوائد المستخلصة:

- * من فضل الله على الصابرين أن يضاعف أجرهم، ويوفيه لهم، ويكون معهم.
- * الصبر في حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يكون أكثر منه في غيره.
- * الصبر حيلة من لا حيلة له، هو أساس النصر.
- * الدعاة هم الذين يرسمون طريق العودة للأمة.
- * أعداء الله يضعون كل الحيل والطرق لهدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- * من أخطاء الدعاة عدم التنسيق فيما بينهم.
- * أكرم الله هذه الأمة وشرفها على غيرها من الأمم لكنها لا بد أن تأخذ عقوبتها إن عصت الله عَزَّ وَجَلَّ.
- * قال بعض العلماء: إن لم يُؤذَّ ويتحمل الأذى فإن إيمانه لا يُعدُّ إيمانًا في الحقيقة.
- * قال أبو الدرداء: «يا أهل دمشق، مالي أراكم تبون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون».

ثمرات التقوى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد إمام
المتقين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، أما بعد:

إخوتي الكرام: أسأل الله - تبارك وتعالى - لي ولكم في هذه الليلة الطيبة
المباركة، أن يجعل اجتماعنا هذا اجتماعاً مرحوماً، وأن يجعل تفرقنا من بعده تفرقاً
معصوماً، وألا يجعل فينا شقيّاً ولا محروماً... وليدعُ كلُّ منا بما كان رسول الله ﷺ
يدعو به: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها،
اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع، ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن علم
لا ينفع، ومن دعوة لا يُستجاب لها»^(١). ونسأل الله ﷻ بمنه وجوده وكرمه أن يحشرني
وإياكم في زمرة المتقين، وأن نذوق حلاوة التقوى في قلوبنا، إيماناً و يقيناً، وإخلاصاً لله،
وجهاداً في سبيل الله، ودعوة إلى الله حتى نلقى الله، ونعوذ بالله أن يحول الله بيننا وبين
قلوبنا وأن نوكل إلى أنفسنا ولو طرفة عين.

هذا الموضوع الذي لن أوفيه حقه، ومن ذا الذي يوفي التقوى حقها إلا رسول الله
ﷺ، الذي دلنا عليها بقوله، وتمثلها ﷺ بفعله، فكان أتقى الخلق لله وأعلمهم بالله
وأخشاهم لله، ولكن لا بد أن تأتي على شيء من ثمراتها، التي نرجو الله ﷻ أن يمن
علينا بها، إنه سميع مجيب.

التقوى والتوحيد:

إن كلمة التقوى هي كلمة التوحيد، وأعظم ما أمر الله - تبارك وتعالى - به هو
توحيد الله، هو لا إله إلا الله، وقد سماها الله - تبارك وتعالى - في كتابه الكريم كلمة
التقوى ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] فهي كلمة
الإخلاص، وكلمة التقوى، وأضيفت إليها لأهميتها، ولتعلقها بها تعلقاً شديداً، فلا

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

تقوى لمشرك، ولا تقوى لمن ارتكب أكبر ذنب عصي الله به، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فمن عصى الله وأهلك نفسه بالموبقات فلا تقوى له وإن كان من أهل التوحيد؛ فكيف يكون من المتقين من أشرك في عبادة رب العالمين الذي لا إله إلا هو؟!

فأعظم ما ينافي التقوى: الشرك بالله ﷻ، ثم الابتداع في دين الله، فما عصي الله - تبارك وتعالى - بعد الشرك بذنوب أعظم من البدعة، أن يُعبد على غير ما شرع، وعلى غير ما كان رسول الله ﷺ يعبده.

فلا إله إلا الله هي كلمة التقوى، كما فسرها السلف الصالح - رضوان الله عليهم -، فهذا ديننا دين التقوى؛ لأن ديننا كله مجموع في شهادة أن «لا إله إلا الله»، وأن محمداً رسول الله، ويقدر ما يحقق العبد من التقوى، يكون محققاً للتوحيد الذي هو مناط النجاة في الدنيا والآخرة، والله - تبارك وتعالى - في أول سورة نقرؤها في كتاب الله بعد فاتحة الكتاب يقول: ﴿الَّذِي هَدَى النَّبِيَّ فِيهِ هُدَى لِنَبِيِّنَ﴾ [البقرة: ١٢٠]، جعله تعالى هدى للمتقين، هذا الكتاب الذي أنزله الله - تبارك وتعالى - نوراً وهدى وبرهاناً وضياءً يقول: ﴿هُدَى لِنَبِيِّنَ﴾ [البقرة: ١٢٠] وما جعل الوصف كذلك إلا لأهمية وصف التقوى، وإلا فأوصاف المدح للمؤمنين كثيرة، يقال: المؤمنون، والمحسنون، والمخبتون، والمنيبون، والمتذكرون، والذاكرون، والصائمون، والقائمون، وغير ذلك كما تعلمون، ولكن جاءت الإضافة هنا للتقوى، ﴿هُدَى لِنَبِيِّنَ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ لأن التقوى هي التي ينتفع صاحبها بهدى الله ﷻ، هي التي تعصم صاحبها بإذن الله، وتثمر له الاستقامة على منهج الله، وألا يزيغ عن كتاب الله وعن سنة رسول الله ﷺ.

ولهذا قال ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، يجعل لكم فرقاناً يفرق به المرء بين الحق وبين الباطل، فيستقيم على الصراط المستقيم.

التقوى هي المخرج من الشبهات والشهوات:

ولهذا كان من دعائنا في كل ركعة من صلاتنا من نفل أو فريضة أن نقول: ﴿أهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وهذا الدعاء - كما ذكر العلماء رحمهم الله -: الصحيح تكررهِ وتجدده ليس لمجرد الثبوت على الحق، مع أن الثبات على الحق مطلوب، وسؤال الله - تبارك وتعالى - الثبوت عليه أمر عظيم؛ ولكن لتجدد حاجة الإنسان إلى معرفة الصراط المستقيم في كل وقت وفي كل حين، فنحن نحتاج أن يهديننا الله ﷻ، وأن نعرف الصراط المستقيم وأن نستقيم عليه دائماً في كل أمرٍ من أمورنا، وإلا فالإسلام - الحمد لله - قد عرفناه، ونسأل الله ﷻ أن يثبتنا عليه.

التكرار بأننا ضمن اسم الإسلام وأعماله ومفهومه العام نحتاج إلى الصراط المستقيم لتصلح أمورنا، وتستقيم أحوالنا؛ فإن العبد معرض للشهوات كما هو معرض للشبهات، وقد يزيغ من هاهنا أو هاهنا؛ ولذا قال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره من السلف في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢] قال: «يجعل له مخرجاً عند الشبهات وعند الكرب». فإن الشبهات تعرض على بعض القلوب، فلا يستطيع الإنسان أن يتخلص منها، فربما أمرضته، وكم من شباب هداهم الله ﷻ، وجاءتهم الشبهات حتى أذهبت إيمانهم - عياداً بالله - أو أدخلتهم في الوسوسة أو الشكوك؛ ولذلك يحتاج الإنسان أن يتقي الله ﷻ ليعصمه الله بهذه التقوى، ويجعل له مخرجاً من الشبهات، وكذلك من الشهوات.

التقوى سببٌ للهداية وللفرقان وللاستقامة على دين الله ﷻ كما أمر الله، ولو أننا استعرضنا حال النبي ﷺ وحال الصحابة الكرام الذين كانوا خير المتقين لله ﷻ - لوجدنا من آثار وثمرات التقوى وبركاتهما عليهم العجب العجاب.

كيف كان رسول الله ﷺ وأصحابه من العبادة لله ومن الطاعة ومن الخشية، من يستطيع أن يحصي أعمال وفضائل ذلك الجيل المؤمن الذي كانت سمته العظمى

وميزته هي التقوى؟! تقوى الله ﷻ في السر والعلن امتثالاً لوصية الله التي أوصى الله - تبارك وتعالى - بها الأولين والآخرين، وأوصى بها الأمم قبلنا، ولكن حظ هذه الأمة من كل خير هو أوفر الحظ وأعظم النصيب.

يقول ﷺ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فهذه الأمة حظها من التقوى كان أعظم الحظ والحمد لله، اتقوا الله ﷻ في سرهم وعلنتهم، وفي الرخاء والشدة؛ فكانت لهم الهداية، كانوا أهدى جيل وأقوم قرن عرفته الدنيا جميعاً!

انظروا إلى أحوالهم كيف كانوا؛ لأنهم كانوا يعيشون تقوى الله ﷻ، الرجل منهم يخلو بالمرأة فتدفعه شهوته وشيطانه إلى أن يفعل بها دون الجماع، ولكن سرعان ما يفيق، ويأتي إلى رسول الله ﷺ، ويقول: يا رسول الله، إني خلوت بامرأة، فكان كذا وكذا، فطهرني يا رسول الله، قد أتيت حدًا من حدود الله. والآخر الذي وقع في الفاحشة والأخرى من الصحابة - رضوان الله عليهم - يصرون على أن يطهرهم رسول الله ﷻ منها.

أما الآخرون فلم يخطر لهم ببال، المقربون المحسنون السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، لم تخطر لهم هذه الفواحش ببال، لكن من ارتكبها وهم من عامة ذلك الجيل المبارك الطيب جاءوا إلى رسول الله ﷻ يريدون أن يطهرهم من هذا الدنس، ومن هذا الرجس.

يختارون عذاب الدنيا على عذاب الآخرة؛ لأن التقوى تحجزهم وتمنعهم أن يقعوا، فإذا قد وقعوا فإن التقوى تعيدهم إلى رشدهم وإلى صوابهم، ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥١]، فيأتون إلى رسول الله ﷻ يريدون التطهير، ولو أنهم تابوا فيما بينهم وبين الله لتقبل الله - تبارك وتعالى - توبتهم كما وعد الله تعالى عباده المتقين، ولكن هؤلاء قومٌ آثروا ذلك؛ لأن الجيل تربى التربية الحقة التي جعلت التقوى هي الأساس الذي بُنِيَ عليه الأمة.

علموا أن الله ولي المتقين كما أخبر، أن الله يحب المتقين، وعلّموا أن العاقبة للمتقين، فكل ذلك قرءوه في كتاب الله، فكانوا متقين لله ﷻ، فأورثهم الله ﷻ ما أورثهم من خير الدنيا والآخرة، من النصر على الأعداء والتأييد والتوفيق، ومن البركة في الأعمار، ومن الإيمان والطمأنينة والسكينة.

أورثهم الله ﷻ ملك كسرى وقيصر بعد أن غزوا مع رسول الله ﷺ سبع سنين يأكلون الجراد، بعد أن غزوا مع رسول الله ﷺ وهم حفاة لا يجد أحدهم حذاءً تقي قدمه من حرارة ووهج الرمضاء.

بعد أن حوصروا مع رسول الله ﷺ في الشعب، حتى أكلوا الجعلان، وأكلوا بعض الحشرات، وكانوا كما قال سعد: «إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة». بعد أن لاقوا ذلك كله وهم على تقوى الله وعلى الاستقامة على أمر الله.

إذا أخطأ أحدهم خطيئة أو ارتكب ذنباً حسب أنه جبلٌ كما علمهم رسول الله ﷺ، كأن ذنبه جبل عظيم يكاد أن يقع عليه.

ولذلك كان لهم ما أورثهم الله من المجد والتمكين، ومن العزة في الأرض؛ لأن الله ﷻ كتب ذلك كله لعباده المتقين، وتقبل الله -تبارك وتعالى- منهم أعمالهم ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

وكان حالهم كما قال الحسن البصري رضي الله عنه: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولا صدقة، ولكن بشيء وقرها هنا». شيء وقر في قلبه.

أصحاب رسول الله ﷺ ما كانوا في عبادتهم الظاهرة في القيام أو في القراءة بأكثر من بعض التابعين، فما نُقل وما هو موجود في التراجم والسير من عبادة بعض التابعين أكثر من عبادة أولئك السابقين، ولكن لأن الإيمان والتقوى التي في القلوب أعظم؛ لأن صحبتهم لرسول الله ﷺ جعلتهم في تلك المنزلة من الفضل، فسبقوا سبقاً بعيداً لم يبلغه من قبلهم، ولم يلحقهم فيه من بعدهم، وهذا من فضل الله -تبارك وتعالى- عليهم.

علموا أنه بالتقوى وبالصبر يغلب الأعداء ويهزمون، كما ذكر الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، علموا أن الله ﷻ ينصر عباده وأوليائه مهما قلَّ العدد، ومهما قلت العدة؛ فلذلك اتقوا الله ﷻ فيما تولوا من الأمور، وفي حياتهم الخاصة كانوا رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار.

يقول أبو عثمان النهدي تلميذ أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين: «ما كان بيت أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- ينام أبدًا، كان أبو هريرة يقوم ثلثه، وامرأته الثلث الثاني، والجارية الثلث الآخر». ما كان البيت يهدأ.

ولذلك انظروا آثار هذه التقوى، نفع الله بعلمهم، فأصبح هذا يقرأ ويحفظ ويتلى إلى قيام الساعة، ولهم من الأجور مثل أجور من اتبعهم في هذا العلم، «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ومنها: علم ينتفع به»^(١). فنفع الله بعلومهم، فلهم ذلك الأجر، وذلك لما اتقوا الله ﷻ في ولاياتهم، وحدث من ذلك العجب العجيب.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وهو من أئمة المتقين وساداتهم- ماشيًا ذات يوم في سوق المدينة في سوق الإبل، فوجد الناس يريدون أن يبيعوا الإبل، ووجد إبلًا سمانيًا أكثر من غيرها، فسأل: لمن هذه؟ قالوا: لعبد الله بن عمر. فدعاه، فقال: يا عبد الله أنى لك هذا؟! ما لي أرى إبلك أسمن من إبل غيرك من المسلمين، قال: والله يا أمير المؤمنين إنها لإبلي، اشتريتها من مالي، وكلفت بها راعيًا يرعاها مع المسلمين، فقال: أما إني لا أكذبك، صدقت - ولن يكذب رسول الله - ولكن كانت إذا وردت الحمى قيل: افسحوا لإبل ابن أمير المؤمنين. وإذا دنت إلى الماء قيل: افسحوا لإبل ابن أمير المؤمنين. وهكذا استأثرت إبلك بشيء عن بقية المسلمين، كم رأس مالها؟ قال: كذا. فدفعت له رأس المال، وباعها، وجعل الزيادة في بيت مال المسلمين.

نعم، كانوا يتقون الله ﷻ في أكل المال، فلم يدخل بطن أحدهم شيء حرمه الله ﷻ، عندما أنزل الله ﷻ تحريم الخمر، وقال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]،

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

قالوا: انتهينا انتهينا ربنا. هكذا قالوا بضم واحد، وجرت المدينة كالأنهار من الخمر
أهرقوها وأراقوها، ولم يبق منها شيء من دون رقابة من غير تفتيش، أو أجهزة
تلاحقهم، هم أنفسهم عرفوا أن ذلك ينافي التقوى فأزالوها وأبعدوها؛ لأنهم يتقون الله
ﷻ، ولأنهم يخافون الله ﷻ.

كانوا في حروبهم ومعاركهم يعلمون أن النصر للمتقين، وأنه لن يؤخر نصر الله إلا
الذنوب؛ ولذلك كانوا يتفقدون أنفسهم إذا أبطأ عليهم حصن أو مدينة أو بلد لم يفتح،
لا بد أن خللاً ما حدث في التقوى، كتب أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالى عنه- إلى
سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهم في مواجهة الفرس -أعتى وأقوى أمة في ذلك الزمان-،
فقال: «يا سعد، أوصيك ومن معك من الجند بتقوى الله ﷻ؛ فإن تقوى الله هي أعظم
العدة على العدو، وإنما يُنصر المسلمون بتقواهم لله، وبمعصية عدوهم له، فإذا استوتينا
نحن وهم في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة». نعم، علموا ذلك؛ ولهذا كانوا
من المتقين، لم يكن فيهم من يغل من الغنائم، لم يكن فيهم من يخون، بل كانوا
يتحرون ذلك أشد التحري، ويجتهدون أشد الاجتهاد، ألا يكون فيهم من هو مقصر أو
مذنب أو مجرم، فإذا ضمنوا هذه الجبهة الداخلية ضمنوا أن الجيش كله على تقوى الله،
وتقدموا وهم واثقون من نصر الله الذي وعد به عباده المتقين، فتكون الغلبة لهم،
ويكون النصر لهم بإذن الله ﷻ.

وإذا بأولئك الذين كانوا حفاة عراة، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير
حق، الذين هاجروا إلى الله ورسوله لا يملكون شيئاً، الذين شروا أنفسهم في سبيل الله
ﷻ، وكانوا يعيشون على الكفاف، ولا يكاد أحدهم يجد ما يأكله من الطعام، وإذا بهم
كما قال عتبة بن غزوان رضي الله عنه: «وإذا بنا اليوم ما منا إلا من هو أمير على مصر من
الأمصار». الله أكبر! بعد أن كانوا قليلاً مستضعفين في الأرض، يخافون أن يتخطفهم
الناس، أصبح كلُّ منهم أميراً على مصر من الأمصار، أقطعهم الله ﷻ، وأورثهم كنوز
كسرى وقصر ومملكتيهما وما حوتا، وما شادوا، وما جمعوا، وما بنوا، كل ذلك لأنهم
أولياء الله، والله ولي المتقين.

اتقوا الله فجعلهم الله - تبارك وتعالى - أوليائه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ [يونس: ٦٤، ٦٣]، فبالإيمان والتقوى تنال الأمة أو الفرد أو القائد أو الطالب أو العالم، وكل إنسان ينال النصر، وينال التمكين، وينال الرزق، نعم، قال ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(١). ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٤] يأتيه رزقه من حيث لا يأمل ولا يرجو بتقوى الله ﷻ، فإذا أذنب أو أجرم أو عصى فإنه يحرم الرزق.

وكذلك يحرم العلم، كما أثر عن عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه -: «إن الرجل لينسى المسألة من العلم للخطيئة يرتكبها». سبحان الله! كيف كان هذا الجيل، كيف كان أولئك السادة ينظرون بنور الله، فحققوا ولاية الله، وحققوا محبة الله، فنصرهم الله ﷻ، ومكن لهم في العالمين.

من ثمرات التقوى - وثمراتها عظيمة - اليقين والطمأنينة، والإيمان الذي يجد الإنسان حلاوته في قلبه، ويجد برده عليه مهما تشدد الظلمات، ومهما تحددت الخطوب، ومهما تشدد عليه المصائب، فإنه في طمأنينة وفي سكينته وأمان... أخوف ما يخاف أن تختل عنده التقوى، أخشى ما يخشاه أن تنقص تقواه الله... أما مع التقوى فكل شيء يهون، والنبي ﷺ يقول: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي»^(٢).

فليتسك تحلسو والحياة مريرة وليتسك ترضى والأنام غضاب

كانوا يرجون ما عند الله ﷻ، ويخشون الله، ولا يخشون أحدًا سواه، فاطمأنت قلوبهم أن الله حافظهم، وأن الله حاميمهم، وأن الله ناصرهم، وتوكلوا على الله وحده لا شريك له، فاطمأنت قلوبهم بذلك، فأنزل الله ﷻ الرعب والفرع والهلع والذعر في قلوب أعدائهم.

(١) أخرجه أحمد (٢٧٧/٥)، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٥٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٣٦)، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٨٢).

ما إن وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل - وهو أعظم ملك في العالم -، وسأل أبا سفيان الأسئلة المعروفة حتى قال: «والله ليطأن ما تحت قدمي هاتين، ليصيرن ملكه إلى ما تحت قدمي هاتين»، يعني ملك رسول الله ﷺ، وهكذا قد حصل، وفتحت تلك البلاد، وكانت غنيمةً للمسلمين، والحمد لله.

وكما قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(١).

وهذا ليس له ﷺ خاصة؛ بل هو -والحمد لله- لأمة عامة، كما يدل على ذلك الواقع والتجربة المشاهدة؛ فإن الصحابة ومن بعدهم من المؤمنين ومن الفاتحين كانوا ينصرون بالرعب، فما أن تنهض وتقوم وتتجرد السيوف للجهاد في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله، حتى يلقي الله ﷻ الرعب في قلوب أعدائهم ولو كانوا في أقاصي الأرض، وهذا من فضل الله على الرسول ﷺ وعلى الأمة ثانيًا.

أوصي نفسي وأوصي إخواني بتقوى الله في السر والعلن، كما أوصى رسول الله ﷺ معاذًا رضي الله عنه حين قال له: «إني أحبك في الله، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٢). هكذا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: «تقواه حق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر». فأوصي نفسي، وأوصي إخواني بأن نتقي الله -تبارك وتعالى- حيثما كنا، وأن نكون له ﷻ من المطيعين، ومن الذاكرين الشاكرين؛ فإذا كنا كذلك فوالله لنجدن ثمرات التقوى يرسلها الله ﷻ علينا كما يرسل المطر المدرار إلى الأرض المجدبة، فتنمو وتنبت من كل زوج بهيج بإذن الله ﷻ.

هذه وصية جامعة أوصى بها رسول الله ﷺ، أوصي بها نفسي وإخواني في هذا

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

المقام، ونحن في هذه الأيام تعيش أمتنا ونعيش جميعًا هذه الكوارث، وهذه النوازل والمصائب التي والله لن يقاومها، ولن يدفع الله تعالى عنا غوائلها، ولن يكفينا شرها إلا بزيادة عظيم من التقوى؛ فتزودي يا أمة الإسلام؛ فإن خير الزاد التقوى.

نتزود من تقوى الله، ونأخذ بالأسباب المعينة على دفع أعداء الله، كل سبب مادي أو معنوي نأخذ به، ورأس ذلك كله، أن نتقي الله ﷻ، وأن نتوكل عليه، ونعد له ما استطعنا، وبذلك نستطيع - إن شاء الله - أن ننال رضا الله تعالى.

قضية العراق مع الكويت:

السؤال:

حصل لبسٌ لدى بعض الدعاة في بعض البلاد الإسلامية حول حقيقة الرئيس العراقي، وما قام به من عدوان غاشم على الكويت، وتهديد لدول المنطقة، ثم غلب ذلك بدعوى إسلامية جهادية باطلة أرجو التكرم بإعطاء صورة متكاملة عن حقيقة هذا الرجل وتوجهاته.

الجواب:

الحمد لله، ما يتعلق بطاغوت العراق: لم يكن عندنا - والله الحمد - في أي يوم من الأيام شك في أنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين، هذا الرجل من حزب البعث العربي الاشتراكي كما يسمونه، وهذا الحزب حزبٌ علماني مرتد أسسه رجل نصراني يُدعى «ميشيل عفلق».

والحمد لله منذ أن اطلعت على أفكار هذا الحزب وعلى آرائه ونظرياته الفلسفية قديمًا، لم يكن لدي أية شبهة أو شك في أن من ينتمي إلى هذا الحزب وهو عارف وعالم بعقيدته - كافر مرتد لا حظ له في الإسلام، وإن صلتى وصام، وزعم أنه مسلم، فكيف وهم يحاربون الصلاة والصيام والتقوى والجهاد؟!

كتبت ذلك في كتاب العلمانية قبل حوالي ثلاث عشرة سنة، وكلكم أو أكثركم قد

قرأه أو رآه، وتحدثت عن ذلك مرارًا، ولكن أذكركم لعلكم ترجعون إليها، ولمن لم يكن منكم حاضرًا: عندما هلك «ميشيل عفلق» منظرُ الحزب بيغداد عند التلميذ البار، ومات ذلك المعلم الخبيث المجرم، أشيع مما أشيع أنه أسلم، أو أنه يريد أن يسلم، فعلقت على، لك تعليقًا طويلًا، وقلت مما قلت: «إنه من خلال العقيدة التي نحن - والحمد لله - متمسكون بها، وقرآناها، وتعلمناها ونعلمها، نعتقد جزمًا أن هؤلاء البعثيين مرتدون كفرًا، وأنه من انتقل من النصراني مثل «ميشيل عفلق» أو طارق عزيز أو أمثالهم، من انتقل من النصرانية إلى البعثية فإنه لا يُقر على ذلك، وقد نقض العهد والذمة التي مع المسلمين».

لأنه - كما نص العلماء - إذا انتقل الإنسان من المجوسية أو من الدهرية أو من أي مبدأ من مبادئ الشرك كالهندوسية أو البوذية إلى دين من أديان أهل الكتاب أقر على ذلك وإن كان كفرًا لا يقبل؛ لأنه انتقل من دين إلى دين هو خير من دينه الذي كان عليه... أما إذا انتقل من النصرانية أو اليهودية إلى أن يكون زنديقًا أو مجوسيًا فإنه لا يُقر على ذلك؛ فهؤلاء لا يقرون - مع أنهم نصاري كفار - على اعتناق البعثية؟! لا يقرون على تركهم النصرانية واعتناقهم للبعثية، فكيف يقر المسلم الذي يدعي أنه مسلم؟! أين الإسلام من هؤلاء القوم؟! قوم لا يحكمون بما أنزل الله! لا يقيم حد من حدود الله في ظل حكمهم أبدًا! أين هم من كتاب الله؟! أين هم من الإسلام؟ قوم يحاربون الدعوة والدعاة! يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.

وقد ذهبنا مع عدد من الإخوان من الجامعة في رحلة علمية إلى العراق، ورأينا الشيء العجيب منذ سنين قبل أيام البكر وقد اشتد الأمر بعد ذلك جدًّا في أيام هذا المجرم الطاغوت المعاصر صدام.

ندخل معظم المساجد فلا نجد فيها مصليين، وأذكر أن واحدًا منها يُسمى جامع الخلفاء، دخلناه فما وجدنا فيه إلا مؤذنًا كبير السن أذن وانتظر، فصلينا نحن الثلاثة، فإذا كل البلد شعارات... أقمشة معلقة، ومكتوب عليها شعارات ماركسية ولينينية من نفس

الشعارات الشيوعية التي لا يوجد نظيرها إلا فيما كان يعلق في روسيا، أو ألمانيا الشرقية، أو ما أشبهها من الدول الشيوعية! أي إسلامٍ لدى هؤلاء؟! كان الذي يتهم بأنه يتسبب إلى جماعة إسلامية يُقتل أو يحكم عليه بالسجن المؤبد، وما أكثر من قُتل! وما أكثر من هم في سجنه، ولا يزالون في سجنه بتهمة أنهم دعاة يدعون إلى الله ﷻ لا جريمة لهم ولا ذنب لهم إلا ذلك.

نعم كنا نقول ذلك والحمد لله، وجاءت الأحداث الأخيرة، فأكدت ما كنا نقول؛ لأن المعيار الواضح معيار العقيدة الصحيحة لا يضل ولا يخطئ بإذن الله ﷻ، ولا يُرْجى والله من المجرمين والمرتدين أي خير أبداً مهما كان.

أنا أقول (عن نفسي): كنت مرتاحاً للمساعدات التي كانت تقدم له؛ لأنه كان يقف في وجه المد المجوسي (المد الرافضي) الذي كان يريد أن يلتهم الأخضر واليابس، لكن كنت أريد وأدعو وأتمنى أن ترتبط المساعدات التي تُعطى له والمبالغ الكبيرة التي تُعطى له بأن يُدعى إلى الله وإلى تحكيم شرع الله، كنت أريد ذلك، ويشهد الله أنني كنت أتألم وأحزن عندما أجد بعض علماء المسلمين يزورون بغداد، ثم يتكلمون عنه في مقام الثناء والمدح، ونحن نعلم كفره وضلاله وزندقته وإلحاده.

أما الحدائيون والعلمانيون الذين كانوا ينشدون ويغنون ويطلبون ويزمرون لبطولات صدام في مهرجان المربد وغيره أو في الصحافة هنا أو في أي مكان، فيشهد الله أنني كنت أمقتهم وأبغضهم، أبرأ إلى الله منهم، ولا أزال.

وإنني أعلم أن هؤلاء من أخبث الناس على وجه الأرض، وأنهم هم الطابور الخامس لكل ضلالة، ولكل زيف وزندقة وإلحاد، وأنه يجب القضاء على أمثال هؤلاء؛ لأنهم خرجوا عن معيار العقيدة بالكلية، بخلاف الإنسان الذي لا يعرف كفره، فهذا أمرٌ قد يعذر به الإنسان، لكن الذين كانوا يطلبون ويزمرون له أو يدافعون عنه، هذا موقفنا منهم سابقاً، فجاءت الأحداث فزادتنا إيماناً و يقيناً وتأكيدهم بأنه لا خير فيهم، وأنه لا صلة لهم بالإسلام من قريب ولا بعيد، وأما إن كان بعض الناس خدعهم بدعائهم

الجهاد سبحانه الله وأي جهاد، وأين جاهد؟! أما أن بعض الناس قد أيدوه أو قاموا بتأييده، فهذا لا شك أنه خطأ عظيم فادح إن لم أقل أكثر من ذلك.

وأعني بذلك أن هذا يدخل في باب الردة - والعياذ بالله - فمن نصره أو شجعه أو أيداه أو أثنى عليه، وهو يعلم كفره والحاده وبعثيته وزندقته - فإنه يخشى عليه الردة - والعياذ بالله؛ - لأنه لا يوالي الملحدين والمرتدين إلا من كان مثلهم، نسأل الله العفو والعافية.

فليتق الله أولئك الذين يطبلون ويزمرون بغير هدى من الله وبغير علم.. عجباً والله! لو لم يكن منه إلا الظلم! اجتاح بلدة آمنة على ما فيها، ومهما كان الأمر فلا يجوز له أنه يعتدي، وأن ينتهك الأعراض، وأن يسفك الدماء، وأن يفعل ما فعل، بغض النظر عن الخلافات التي كانت، ولكن أن يفعل ذلك أحد ثم يُعان وينصر هذا والله لا يجوز ولا يليق بمسلم! فكيف وهو كافر ملحد مرتد والعياذ بالله؟! كيف وهو لا يسمح لجيشه بأن يؤدي الصلاة؟! واسألوا إن كنتم تجهلون... لا يُسمح في ذلك الجيش لإنسان أن يلتحي وأن يؤدي الصلاة.

بل في الأيام الأخيرة وخاصة بعد أن أصبح الحرس الحربي الذين يسمونه الحرس الجمهوري - وهم متشبعون بأفكار الحزب - أصبح هو المسيطر على الكويت.. اشتدت الوطأة على الناس هنالك، وأخبرنا الثقات الذين جاءوا في هذه الأيام أن الوطأة اشتدت حتى أنهم يفتشون الشباب، فإذا رأوا الشاب الملتحي، فإما أن ينتفوا لحيته أو يأمرؤا بحلقها، بل بعضهم يحرقها بالولاعات!! هكذا أخبرنا الثقات!! أي حظ لمثل هذا في الإسلام؟! لا والله، بل من كان أقل منه كفراً، وهو خارج عن ملة الإسلام، من كان بعثياً وإن لم يرتكب هذه الشنائع المكفرة، فإنه لا حظ له في الإسلام إلا بأن يتوب إلى الله ويتبرأ من هذا الحزب الكافر الملحد المرتد.

فخطأ كبير جداً ما وقع فيه كثير من الدعاة، ومع الأسف أنهم ينتسبون إلى الدعوة، وما أدري كيف خُدعوا؟ وإن كنت أدري من جهة أن الدعوات التي لا تقوم

على العقيدة الصحيحة وعلى المنهج الصحيح تسيرها الأحداث ولا تسير هي الأحداث، فكل من أيدهم من هؤلاء الدعاة فإنما وجدوا أن الناس بطبيعتهم يندفعون إلى أن يكونوا مع من تكلم أو عادى أمريكا وإن كان كاذبًا في ذلك، مع كل من يرفع شعارًا لمعاداة إسرائيل وإن كان فاجرًا في ذلك، فكانوا هم مع العامة... سبحان الله! كمال أتاتورك ماذا قالوا فيه؟ يقول أحمد شوقي:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

هزم الحلفاء وحرر الأناضول، وفعل ما فعل من بطولات مفتعلة، وإذا به ينقلب فيلغي الخلافة، ويلغي الأذان باللغة العربية، ويلغي الحروف العربية، ويمنع الحجاب، ويفعل الأفاعيل المكفرة التي تعلمونها جميعًا.

وجمال عبد الناصر كان يرفع شعار العداوة لأمريكا، وإسرائيل، ويقذف بها في البحر ويفعل ويفعل! وكان ما تعلمون من كفره وإلحاده، فمتى يستيقظ هؤلاء الدعاة؟! ومتى تستيقظ هذه الأمة النائمة التي لا تزن الأمور بميزان العقيدة الصحيحة وبميزان الشرع وبميزان العلم الشرعي الصحيح؟! متى يفيقون؟! ومتى يعرفون الحق؟ ومتى يعلمونه حتى يكونوا دعاة بحق، يعلمون الناس الحق؟!

وفي هذا عظة وعبر لنا جميعًا، أن نعلم الناس دائمًا هذه العقيدة الصحيحة: الولاء لمن يكون، والعداء لمن يكون؟ ليس لمن نريد نحن، أو من لمن تريد الجماهير، بل كما يريد الله ﷻ أن نكون قوامين بالقسط شهداء لله، نصف كل أحد بما وصفه الله ﷻ هذا بما يتعلق به، وأرى أن كلامي لعله صورة متكاملة كما طلب الإخوان عنه، ولعل الله ﷻ يسر فنعطيكم - إن شاء - محاضرة أو أكثر مفصلة عن عقائد هذا الحزب وأعماله.

حكم حزب البعث في غير العراق:

السؤال:

وهو في الحقيقة ملحق بما قبله.. ينتقد أحد الإخوة ويقول: أليس من كتمان العلم

بالنسبة للعلماء أن يتحدثوا عن البعث في العراق فقط؟ ألا يوجد البعث في أماكن أخرى؟!

الجواب:

على كل حال البعث هو البعث في أي مكان وُجد، وأينما ظهر إلا من تاب منهم ومن اتقى الله، لكن في الأحداث الأخيرة حصل من جانب من البعث ما لم يحصل من الآخر، أما العقيدة فهي واحدة، والمبدأ واحد، لكن الله ﷻ فرقه، والبعثيون فيما بينهم من أعدى الأعداء، وهذا شأن كل قوم اجتمعوا على غير تقوى الله ﷻ، لا بد أني فرقه الله، وأن يجعل بأسهم بينهم شديدًا، ففي ظل المتغيرات وهذه الصراعات وهذه الظروف أمكن أن يضرب بعضهم ببعض.

الرأي حول التوصيات الصادرة من المؤتمر الإسلامي العالمي:

السؤال:

ما رأي فضيلتكم في التوصيات التي صدرت من المؤتمر الإسلامي العالمي حول الأوضاع الراهنة في الخليج العربي؟

الجواب:

كلكم قرأتموها، فالتوصيات التي صدرت حقيقة كانت توصيات إيجابية وجيدة ومثمرة، بل نسأل الله ﷻ أن تأخذ وأن تنال من الأمة ما يجعلها موضع التنفيذ، فالقرارات كثيرة، وهي قيمة ونافعة، ولكن تحتاج من الأمة إلى التنفيذ وإلى الامتثال.

فقد بينوا ونصوا على أمور عظيمة... كل الفقرات التي وردت هي في الحقيقة فقرات جيدة، وقد أعجبت بها بعد أن سمعتها وقرأتها؛ إذ بينوا حكم هذا المجرم، ثم بينوا أيضًا ما يجب على الأمة، وهذا هو الجانب المهم، الفقرات التي تتعلق بواجب الأمة الإسلامية، وما يتعين عليها في سبيل دفع هذا الخطر أو غيره.

وأهم شيء يجب دائمًا أن نهتم به هو واجبنا حكومات أو علماء أو أفرادًا لكي

نقوم بهذا الواجب، والحمد لله أنها صدرت من هذا الجمع الكبير، هذه في ذاتها أنا اعتبرتها ميزة؛ لأن الأمة -والحمد لله- كلها استشعرت أن الحل هو في الجهاد في سبيل الله ﷻ، وأن تبذل الأمة جهدها وأن تبذل الغالي والنفيس لتكون مجاهدة في سبيل الله، وتستغني بذلك عن الاستعانة بأعداء الله ﷻ، والاستعانة بالكفار... فهذه من القرارات الإيجابية التي نسأل الله ﷻ أن يكون لها قبول عند المسلمين جميعاً.

فتوى اللجنة الدائمة حول أحداث الخليج:

السؤال:

بمناسبة الأحداث المؤلمة في الخليج من جراء الاعتداء الغاشم من نظام العراق الظالم على الكويت صدرت من هيئة كبار العلماء فتوى شرعية حول هذا الموضوع، أرجو منكم مزيد إيضاح لذلك.

الجواب:

الحمد لله، لا شك أن الهيئة قد أصدرت بيانا وقد أوضحه العلماء أنفسهم في بيانات ومحاضرات لاحقة بما لا يحتاج إلى أن أوضح، أنا تلميذهم إن صح أو استحققت أن أكون تلميذاً لهم، وأحب أن أقول في هذه المناسبة، وقد قلت في هذا المكان وفي هذا المسجد نفسه في شهر ذي القعدة عبارة، وكنت أقولها دائماً وما زلت أقولها، وهي حقيقة أو قاعدة أخذتها ولمستها والحمد لله من خلال معاشتي لهم وقربي منهم، واطلاعي على أحوالهم وعلى سيرهم مع اطلاعي على سير السلف الصالح، أقول: إن هؤلاء العلماء الربانيين بقية من السلف، ادخرهم الله ﷻ في هذا الزمان لنا نحن الخلف بفضل من الله وبنعمة من الله ﷻ.

علماؤنا -والحمد لله- لا نظير لهم في علماء الأرض قاطبة، أما المنهج فهو منهج السلف الصالح، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا ينازع في ذلك أحد والحمد لله، دليلهم دائماً كتاب الله والسنة الصحيحة وإجماع العلماء والقياس الصحيح.

وبذلك أنعم الله ﷻ على هذه البلاد بالذات بوحدة منهجية فكرية لا نظير لها في

البلاد الأخرى، فمناهجنا وكتبنا وما يقال من أحاديث أو مواعظ أو دروس مسموعة أو مقروءة، وما يؤلف وما يصدر، كله محكومٌ بهذا المنهج الذي سنه وبينه لنا هؤلاء العلماء جزاهم الله عنا خير الجزاء.

فنحن لا عقيدة لنا إلا عقيدة السلف الصالح، ولا منهج لنا إلا منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال، وهؤلاء العلماء جلّوا ذلك وأظهروه، وأنتم تعلمون أنهم من تجردهم وإخلاصهم وفضلهم أنهم لا يتسبون انتساباً مذهبياً، وإنما دائماً يفتنون الناس بما يعتقدون صحته من الأدلة، هذه نعمة، وهذا فضل من الله ﷻ على هؤلاء العلماء الأجلاء، ولا سيما سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - حفظه الله -، الذي لا يخفى على أحد فضله وعلمه وجهاده، بل من عايشه عن قرب، ومن رأى سيرته، فإنه والله - كما كنت أستشعر ومنذ أن سمعت عنه - وتحب أن تراه ولو رؤية، وأن يتاح لك الفرصة أن تقبل رأسه، ولا أظن أحداً من طلاب العلم إلا وهو يشاطرنى ويشاكرني هذا الشعور والحمد لله.

جاءت هذه النازلة وجاء هذا الخطب الجليل، فكان الأمر كما سمعتم وكما رأيتم بما لا يحتاج إلى مزيد من الإيضاح والتفصيل، وأصدروا ذلك البيان، وضمنوه الأدلة.

وأدلة الشرع على نوعين: إما أدلة كلية (قواعد كلية)، وإما أدلة تفصيلية، فهم جاءونا بالأدلة الكلية القطعية على أن الاستعانة بالكفار ضرورة؛ لأن اتخاذ الإجراءات والاحتياطات في البلاد واجب على ولي الأمر؛ وذلك ضرورة من جهة، ولأن قواعد الشرع تدل عليه، هذا موجز ما استدلووا به الضرورة والقواعد الشرعية العامة.

وهذه لا ينازع فيها أحد، لأن الأدلة الكلية أقوى من الأدلة التفصيلية كما لا يخفى على أي إنسان من الإخوة؛ فالأدلة الكلية إنما جاءت وبنيت بناءً على استقراء نصوص وأدلة تفصيلية جزئية، اجتمعت فكوّنت قاعدة كلية، فقاعدة الضرورة دلّت عليها الآيات، ودلّت عليها الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، فإذن قاعدة الضرورة كلية، وكذلك القواعد الكلية في حفظ الدين والمال والعرض والنفس إلى

آخر هذه الضروريات أيضًا دلت عليها أدلة كلية.

وأقول: هذا الاستدلال صحيح، ولا شك فيه، وإن كان لي نقاش ممن استدلوا بأدلة تفصيلية قد يظنون، أو اجتهدوا ظنًا منهم أنها زيادة على ما قال العلماء، فأحببت أن أقول: ما استدل به العلماء هو الصحيح، وأما هذه الأدلة الأخرى، فلسنا بحاجة إليها أصلًا لما أسلفت حتى وإن صحَّت، لأن القواعد الكلية إنما تبنى على أدلة صحيحة صريحة، أما الأدلة التفصيلية فقد يكون فيها ما هو صحيح وغير صحيح، وقد يكون الصحيح منها غير صريح، فهذا يضعف القضية التي نريد أن نستدل عليها، هذا من جهة.

من جهة أخرى أنا تلمست حكمة أيضًا في اقتصار العلماء على هذه الأدلة الكلية؛ لأن بعض ما ذكر من الأدلة التفصيلية لا شك في سلامة نية قائلها ولا ريب، لكن نحن أما أعداء مجرمين، ولديهم إعلام - كما ترون - شديد وهو مسلط على هذه الأمة؛ ليهدم هذا البلد بكل فئاته وبكل قطاعاته، فإذا قال أحد: إن النبي ﷺ استعان باليهود أو غزا معه يهود. جاء المجرمون، وقالوا: إن هؤلاء يريدون أن يستعينوا بإسرائيل علينا. هذا كذب وإفك كما تعلمون، مع أن ذلك الدليل لا يوصل إلى المطلوب.

ثم أصدر سماحة الشيخ بيانًا مطولًا وسمعتومه جميعًا، وكنت أرجوه، وهو بيان واجبتنا نحن أيضًا، وبيان أن خطر الذنوب والمعاصي هو السبب، وأنا يجب أن نتقي الله، وأن نقلع عن الذنوب والمعاصي، وأن نصلح أحوالنا، وأن نبتعد عن كل ما حرم الله مما تعلمون جميعًا؛ لينصرنا الله، ثم تلا ذلك فضيلة الشيخ الكريم الشيخ محمد بن صالح العثيمين بمحاضرة في الرياض، وفي الطائف وفي جدة، فزاد الأمر إيضاحًا وتفصيلًا، وبين ما بين في مثل هذه الليلة من الأسبوع الماضي وحضرتم والحمد لله، وقال: إن الضرورة تقدر بقدرها زمانًا ومكانًا، وكما وكيفًا، فالحمد لله فقد وضحوا، فجزاهم الله وأثابهم عنا كل خير، وضحوا التوضيح الذي لا حاجة بعده لإيضاح أو لمزيد من كلام، فهذه فتواهم وهذا منهجهم، وهذا قولهم والحمد لله تحروا فيه الحق،

وأصابوه والحمد لله.

مع أن الإنسان إذا اجتهد فأخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران، وهذا اجتهاد العلماء، وطلاب العلم يعلمون أن المسائل - وخاصة ما كان مختلفاً فيه منها، وهذه مسألة مختلف فيها - هذه مسائل اجتهادية، حتى سماحة الشيخ عبد العزيز - أثابه الله - في كتابه «نقد القومية العربية» ذكر كلاماً طويلاً لعلكم تقرأونه في منع الاستعانة مطلقاً، لكن الآن لما رأى الضرورة، قال: نعم للضرورة.

فإذا قدرت الضرورة بقدرها زماناً ومكاناً، وكماً وكيفاً، وحصل ما يجب علينا نحن من التوبة والإنابة والتضرع والاستقامة، فإننا بإذن الله نكون قد حققنا - إن شاء الله تعالى - السبب الذي أمرنا الله أن نأخذ به من أسباب النصر، فمن الناحية العلمية والناحية الفقهية: الفتوى صحيحة، وهي حق ولا غبار عليها بأي حال من الأحوال.

ويبقى علينا نحن أن نلتزم بما ذكره العلماء، من واجب إصلاح الأحوال والأوضاع والأخذ بالأسباب المعنوية والمادية؛ بأن ننال نصر الله، ويكون أمن هذا البلد وحمايته هي مسئولية أبنائه كما نقول ونردد دائماً، هذا هو الذي يجب علينا أن نسعى إليه وأن نجتهد فيه.

وعلىنا جميعاً أن نتقي الله في لحوم العلماء، وألا نتكلم فيهم، وألا ننسب ما يقع من أخطاء إليهم؛ فإن العلماء - جزاهم الله خيراً - يتحملون ما لا تطيق الجبال حمله، والمسئولية عامة ومشتركة، وكثير من الذنوب والمعاصي والمنكرات سببه تقصيرنا نحن طلبة العلم وضعفنا نحن طلبة العلم والدعاة والأئمة والمدرسين، أما العالم فماذا باستطاعته أن يفعل؟

ثم لتتق الله فلا تأخذ من فتاواهم ما نريد، ونترك ما نريد... هذه مشكلتنا نحن أمة الإسلام؛ فإن الواحد منا إذا احتاج الشيخ في فتوى للطلاق أو للزواج أو لأمر من الأمور ذهب إليه، وسأله وقبله، وقال: يا شيخ أريد كذا وكذا. لكن أن يأتي الشيخ فيعظه، أو يوجه له نصيحة، أو يقدم له موعظةً فمننا من يعمل بها، ومننا من لا يعمل، سبحان الله! إذا

احتجناهم فقط نأخذ بأقوالهم.

يجب كما سلمنا لهم بالإمامة العلمية في صحة المنهج وبسلامته أن نأخذ كل نصائحهم وكل توجيهاتهم، ونضعها موضع الاعتبار، موضع التنفيذ، وندعو الله ﷻ أن يحفظهم، وأن يمتعنا بحياتهم، وأن يجعلنا نحن طلاب العلم بالذات طلاب حق لهم، لثرتهم ونرث علمهم كما أننا سنرث واجبهم، وقد تأتي المواقف، فتسألنا الأجيال عنها، وتسألنا الأمة عنها، ونكون نحن في موقعهم فعلنا لا نستطيع أن نقف كما وقفوا، ولا أن نقول كما قالوا، نعوذ بالله من الفتن.

ربما يأتي يوم ولا نكون نحن أجراً، ولا أقول للحق منهم نعوذ بالله من الفتن! نسأل الله أن يثيبهم، وأن يجزيهم خير الجزاء، وأن ينفعنا بعلمهم، وأن يبارك فيهم، وأن يجعلنا جميعاً والأمة جميعاً عوناً لهم على إقامة دين الله ﷻ، امتثالاً للعمل الذي يقومون به والذي يصدعون به.

حكم التمريض للفتيات:

السؤال:

استفسار عن حكم التطوع في التمريض للفتيات، وهل لذلك من ضوابط شرعية؟

الجواب:

التطوع بالنسبة للفتيات لا أفهم حقيقته، يعني هل سيذهب بالفتاة التي تطوعت إلى الجيش؟ هل سيذهب بها إلى الجبهة؟ فإن ذهبت، فنعلم أن الجنود جميعاً من الرجال - الجنود السعوديون وغيرهم - ما عدا الأمريكان، لكن أقول: ستذهب المرأة إلى الرجال فكيف تمرضهم؟! تذهب من غير محرم؟ تسافر مع من؟ أنا أفكر حقيقة، وإن قيل: إنها تسافر مع محرماً. فهذا عجيب، لماذا لا نعلم المحارم التمريض؟ أو نعلم الشباب التمريض، ونأخذهم إلى الجبهة، وتبقى هي في البيت تحفظ العيال، هل يُعقل مثلاً إذا تطوعت زوجتي، فتعلمت التمريض، فاحتاجوها في الجبهة، فأذهب أنا وهي في القتال؟ علموني وأنا أمرض، وتبقى هي مع الأبناء.

أنا حقيقة أقول: إنني لم أستوعب هذا، وأخشى أن تكون الصحافة - كما قرأت - وسّعت الموضوع، أو أن يكون فينا من يريد الشهوات، ومن يتبع الشهوات، فوسعوا الموضوع، وجعلوه أكبر من حقيقته، وأخذوا يريدون به المآرب التي كانت قبل الفتنة وقبل الأحداث؛ لإخراج المرأة من بيتها، هذا الذي نخشاه.

والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧)، فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا من التائبين، وأن يكفينا شر أولئك المجرمين المائلين المميلين، وقد وعدت - إن شاء الله - أنني في الأسبوع القادم قد أزور بعض المستشفيات، وأخذ فكرة كاملة عن الموضوع، ثم نقول - إن شاء الله - ما يبرئ ذمتنا عنه، لن نكتم الحق، إني إلى الآن لم أتصور ماذا يريدون به، هل يريدون في حالة الهجوم على المدن أنها تعرف التمريض مثل الدفاع المدني، فتكون هنا فقط في المستشفيات، وربما يكون هناك منفعة أن تتعلم بعض من لديهن فراغ، ثم تقوم بالمعالجة لو وقعت قنابل على البيوت، أو شيء من هذا... على أية حال حتى أستفصل وأعرف القضية بوضوح، آتيكم إن شاء الله بالجواب الذي أدين الله ﷻ به، إلا أنني أخشى أن هذا الانفتاح الذي في الصحافة والتهويل والتضخيم، أخشى أن يكون دخل منه أصحاب الشهوات، يريدون استغلال هذا الظرف - الذي نحن أحوج ما نكون فيه إلى التقوى والإنابة - في الدعوة إلى الشهوات التي كان يدعون إليها قبل هذه الأحداث، نسأل الله العفو والعافية.

كلمة حول توحيد كلمة الأمة:

السؤال:

نرجو إلقاء كلمة حول وجوب توحيد كلمة الأمة في هذه البلاد، وفي التفافها حول قيادتها لدرء الخطر الداهم، والتهديد المستمر من حاكم العراق لهذه البلاد ومقدساتها.

الجواب:

قال الله ﷻ بعد الآيات التي قرأناها في التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ

تَقَائِدِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ [آل عمران: ١١٢]، قال ﷺ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن هذه الآيات مع أنها تنطبق على الصحابة -رضوان الله عليهم- والذين بعث فيهم رسول الله ﷺ فهي أيضًا تنطبق على هذه البلاد، كان حالها قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمته الله، وقبل ظهوره كحال الجاهلية الأولى، كما ذكر الله ﷻ، وعادت إلى شبه هذه الحال أيضًا في أول هذا القرن أو القرن الماضي الهجري، ولكن الله من فضله ومنه جمعها على كلمة التوحيد.

فهذا البلد -والحمد لله- ما قام إلا على كلمة التوحيد التي من لوازمها توحيد الكلمة والاعتصام بحبل الله وبكتاب الله؛ ولهذا فالمنهج واحد والحمد لله، والشرع واحد، والهدف كله واحد؛ ولذلك هذه البلاد لا مكان فيها لمن يدعو إلى الشرك، لا مكان فيها لأصحاب البدع، لا مكن فيها لعلمانيين، أو زنادقة، أو ملاحدة أبدًا، هذه وكل بلاد المسلمين وقف للإسلام، لكن هذه بالذات أهم وأعظم بلاد الإسلام، فهي كالقلب بالنسبة لبلاد الإسلام.

فلا يجوز أن يقر فيها أي مبدأ ولا مذهب ولا قانون ولا رأي يخالف دين الله، أو يخالف منهج السلف الصالح، من أراد ذلك وإلا فليرحل عنها، لا مكان له في هذه البلاد على الإطلاق.

هكذا يجب أن نكون بدءًا واحدة على من سوانا -كما أخبر الرسول ﷺ- أن تجتمع كلمتنا على إقامة دين الله وتحكيم كتاب الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورفع راية الجهاد في سبيل الله متخلين بذلك عن شهواتنا وعن مآربنا وعن ملذاتنا وعمما تحبه نفوسنا؛ فإنها دائمًا تحب الركون والإخلاق إلى الدنيا، وأن نكون بدءًا واحدة، نتطوع ونتبرع، وندفع كل غال ورخيص من أجل نشر كلمة الله، وإعلاء دين الله كما كان -والحمد لله- تاريخنا حافل بذلك.

ونقول توكيداً لما سبق: لا بد من توحيد الكلمة ووحدة الصف ونبذ الفرقة والاختلاف، والاعتصام بحبل الله، وكتاب الله ﷺ وسنة رسوله ﷺ، وأن نكون جميعاً يداً واحدة لإعلاء كلمة الله، هذا أمر ضروري لا بد منه.

ويجب على الإخوة الخطباء والوعاظ وكل إنسان أن يدعو الأمة إلى ذلك؛ فإن هذا أمرٌ عظيم علق الله ﷻ النصر به، بل جعل الفشل والضعف في تركه، ﴿وَلَا تَنْزِعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ فَإِن مَّا نَذَبَ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فالتنازع وعدم الالتفاف حول القيادة المؤمنة المجاهدة لا شك أنه من أسباب الهزيمة والفشل - نسأل الله العفو والعافية -.

معنى الديمقراطية وحكم الإسلام فيها:

السؤال:

ما معنى الديمقراطية، وما حكم الإسلام فيها؟

الجواب:

الديمقراطية هي أصلاً كلمة قديمة يونانية، معناها «حكم الشعب للشعب»، أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، وقد طبقت عملياً في بلاد اليونان، وفي حكومة أثينا القديمة كما يسمونها، كانت أثينا مدينة واحدة، وهي قرية باصطلاحنا المعاصر.

وكان الناس فيها متعارفين جميعاً تقريباً، فاختاروا ليحكموا أنفسهم مرشحين أو نواباً، والمرشحون هؤلاء اختاروا من جملتهم أيضاً مجلساً خاصاً، ثم المجلس اختار مجلساً، ثم من المجلس الأصغر اختيرت الزعامة أو القيادة، فأصبح الناس يحكمون أنفسهم بأنفسهم، لا شرع لهم ولا قانون، ولا شك عندنا أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير قطعاً، لكن هم تركوا شرع الله، وأعرضوا عنه، أو كانوا في فترة من الرسل - الله تعالى أعلم -.

المقصود أنهم كانوا إذا أرادوا تشريع أمر اجتمع هؤلاء الناخبون فيبلغون من انتخبوه، ماذا يريدون أن يُحكّموا به، ثم في مجلس النواب تتبادل الآراء، ثم رأي

الأكثرية يعمل به، هذه شرعة أو شريعة جاهلية قديمة كانت عند اليونان.

فلما عانت أوروبا ما عانت من الاستبداد، والطغيان والظلم في عصور الإقطاع، والقرون التي هي قرون مظلمة حقًا - والقرون الوسطى مظلمة بالنسبة لهم، وهي قرون العز والنور بالنسبة لنا - لما عانت أوروبا من ذلك ما عانت، بدأت عندها الأفكار، أول ما بدأت ما يسمى بالليبرالية التي تعني: العتق أو التحرر أو العتاق أو الحرية، ثم تطورت ولا داعي للتفصيل في دعائها، فكرة الليبرالية التي كانت تطالب الملوك والأباطرة والإقطاعيين بالتنازل عن شيء من حقوقهم - أو مما يظنونه حقوقهم - للشعب، تطورت الفكرة التي أصبحت مشاركة كاملة في الحكم، أو مشاركة كلية، أو حكمًا للشعب بالكلية.

مثلاً إذا أخذنا بريطانيا معيارًا لذلك، وهي - كما تعلمون - أول بلد نشأت فيها الديمقراطية، أو عندما قامت الثورة الإنجليزية، كانت أول مطالبة لها في عام ١٢١٥م بيانًا يسمونه «البيان العظيم» الذي كان أول مرة يطالب فيه الإمبراطور بالتنازل عن شيء من الحقوق.

تطور بعد ذلك إلى الثورة التي قادها «كرميل»، ثم بعد ذلك تحول الأمر من الاستبداد المطلق الذي كان يملكه ملك بريطانيا إلى ما ترونه الآن من أن الملكة ما هي إلا رمز، وأن الحكم كله للسلطة التنفيذية، والتشريع كله بيد مجلس النواب عمومًا، أو بينه من جهة وبين الأحزاب التي تكون عن طريق الانتخاب إلى آخره من جهة أخرى، ثم يكون الوزراء، إما من المحافظين أو من العمال إلى غير ذلك، فأصبحت الملكة أو الملك - إذا كان هناك ملك - رمزًا فقط بعد أن كان في يده كل شيء، هذه لمحة تاريخية سريعة.

بالنسبة لنا نحن في دين الإسلام: الديمقراطية كفر، الديمقراطية شرك، لماذا؟

لأنه ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، ويقول عز وجل:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ [الجنانية: ١٨]، هؤلاء لا يعلمون، فالتحكيم الديمقراطي هو اتباع لأهواء الذين لا يعلمون، أما نحن فإنما أمرنا ﴿ وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٩]، فديننا - والحمد لله - هو تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما هذه الديمقراطية فهي كفر وشرك كما بينا، والمجال لا يتسع للتفصيل.

وأما ما يتعلق بالشورى - كما يلبس البعض - والقول: إن الشورى هي الديمقراطية. فهي في الأمور الشورية التي لا نص فيها، وفي تنفيذ الشرع، فإذا نزلت بنا نازلة، كيف نقيم حكم الله في هذه النازلة؟ أي نص ينطبق على هذه النازلة؟ هنا يكون أهل الشورى، إما بالنص إذا كان نصاً آيةً أو حديثاً، وإما بالاستنباط، ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، فنستنبط ونجتمع، ونأخذ الرأي من أهله، إذا كانت مشكلة أو نازلة حربية مثلاً يُجمع العسكريون مع العلماء مع من يكون فيهم الثقة، ويقال لهم ما رأيكم في هذا؟ كيف نواجههم؟ كيف نقاومهم؟

أما الآيات والأحاديث نحن ما اجتمعنا إلا لنعمل بها ولتقيمها، ولا نقاش في ذلك، لكن الديمقراطية يجتمعون يقولون: نحن نحرم الخمر أو لا نحرم؟ بل وصل الأمر - والعياذ بالله - إلى أن بعض مجالسهم الديمقراطية أباحت اللواط زواجا؛ أي: أن يعقد للرجل على الرجل والعياذ بالله، هذه الديمقراطية نسأل الله العفو والعافية.

طلب شفاعة للأجانب في قضية التكفيل:

السؤال:

وهو في الحقيقة ليس سؤالاً، وإنما هو رجاء وطلب من كثير من الإخوة اليمينيين، ولا سيما طلاب العلم يرفعون معاناتهم، ويرجون فضيلتكم قول كلمة في ذلك، يقولون: نحن طلاب العلم، خاصة بالنسبة لما صدر من أوامر تخص اليمينيين - ولا سيما الذين في المدارس في الثانوية وفي المتوسط وفي الجامعة - سنعاني ولن نجد حلاً لمشكلتنا ولم

نجد من يكفلنا، وفي نفس الوقت لا نريد أن نذهب إلى بلادنا؛ لأننا قد أحببنا هذه البلاد وأهلها وحكامها، وبلادنا لا تطبق شرع الله، فما هي نصيحتكم أو كلمتكم الموجهة بالنسبة لما يخص طلاب العلم بالذات؟

الجواب:

إنه من يتق الله يجعل له مخرجًا، فكل ما أفهمه أو ما يمكن أستطيع أن أقول: إني فهمته. أن الإنسان أو الأخ من اليمن أو من غيرها من الدول، التي لم يكن في حاجة إلى أن يكون له كفيل أن يأتي بكفيل! فتعمة كانت عليهم من قبل، وهو أنهم لم يكونوا يطالبون الكفلاء سنين والحمد لله، وهم بهذه الحال، فالآن يأتي بكفيل، وأنا لا أظن أن مساواتهم بغيرهم في ذاتها تشكل أي شيء يمكن أن يؤثر على طلبهم للعلم أو على غيره إن شاء الله؛ لأن الأمين منهم والطيب والمخلص -والحمد لله هم كذلك-، و«الإيمان يمان والحكمة يمانية»^(١). ونحن -والحمد لله- أمة واحدة، والدين والجوار يربطنا جميعًا، نقول: لن يعدم -إن شاء الله- المتقي ممن يكفله، ولا أعرف هل الكفالة تشمل الطلاب أم لا؟ وإنني لا أملك لكم إلا الدعاء.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يرحمنا وإخواننا المسلمين جميعًا، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

- * نبينا ﷺ وصحابته الكرام ضربوا لنا أروع الأمثلة في تحقيق التقوى.
- * مما يؤثر على النصر ترك التقوى والوقوع في المنكرات والمحرمات.
- * أعظم ما ينافي كلمة التقوى هو الشرك بالله العظيم.
- * أعظم ما ينافي كلمة التقوى بعد الشرك هو الابتداع في دين الله بغير ما شرع.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٩)، ومسلم (٥٢).

* يتكرر في كل ركعة الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، لتجدد حاجة الإنسان إلى معرفة الصراط المستقيم.

* التقوى هي التي تعصم صاحبها من الشهوات ومن الشبهات وتثمر له الاستقامة على منهج الله.

* إن أعظم ما أمر الله به هو كلمة التوحيد وهي كلمة التقوى التي ألزمتنا الله بها.

* * *

دراسات قرآنية

وتشمل:

- ١- كيف نحيا بالقرآن؟
- ٢- وقفات مع آية الولاية.
- ٣- أولياء الله وأولياء الشيطان.
- ٤- صفات عباد الرحمن.
- ٥- شرح آيات من سورة المائدة.

* * *

كيف نحيا بالقرآن؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

أيها الإخوة، أحبيكم في هذه الأمسية المباركة التي نسأل الله ﷻ أن يجعلها أمسية خير لنا ولكم، وأن نتعلم فيها كيف نحيا على كتاب ربنا استجابةً لأمر الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالله ﷻ أمرنا بالاستجابة له ولرسوله الكريم، وقبل أن نبدأ موضوعنا فإنني رأيت كلامًا نفيسًا قيمًا لابن القيم يتعلق بتفسير هذه الآية، وفي بيان أن القرآن مادة حياة للناس.

يقول ابن القيم في تفسير هذه الآية: «إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة هو أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه النبي ﷺ ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ».

ثم بين ابن القيم ما ذكره المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] يقول: «يعني: للحق».

ثم قال: «وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والحكمة في الدنيا والآخرة».

وهذا هو موضوع ندوتنا لهذه الأمسية: كيف نحيا بالقرآن؟

يقول الشيخ سعيد شعلان:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله خاتم النبيين، وأشرف المرسلين، اللهم صل وسلم وبارك على نبينا وإمامنا وقدوتنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإني - كما يعلم الله تبارك وتعالى - لم أكن أحب أن أكون مبتدئًا بالكلام في هذه الندوة، ولا أن أكون مستأثرًا بأكثر الكلام فيها، وحاولت مع فضيلة الشيخ سفر - حفظه الله تعالى، وجزاه الله خيرًا - أن يأخذ نصيبًا أوفر من الكلام، لكنه رأى أن هذا التنظيم جيد ومناسب، فأرجو المعذرة للحيلولة بينكم وبين الاستماع إليه فترة طويلة من هذه الندوة، وأسأل الله ﷻ أن ينفعنا وإياكم بما نقول ونسمع، على أي لسان كان هذا الكلام، طالما كان كلامًا مستندًا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما رآه السلف الصالح في تفسير هذا الكلام وشرحه وبيانه، والله المستعان.

القرآن طريق للحياة الطيبة:

لا شك أننا جميعًا نريد لأنفسنا وللمسلمين كافة حياة طيبة في الدنيا والآخرة، ولا شك أن الرائد إلى بيان كيفية هذه الحياة هو كتاب الله ﷻ، وفي كتاب الله ﷻ دلالة على كيفية حصول هذه الحياة، فالله تعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، والحياة الطيبة المذكورة في هذه الآية هي الحياة في الدنيا، وإلا لو كانت حياة الجنة لكان قوله تعالى - كما قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى - : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] من قبيل التكرار، فالدنيا فيها حياة طيبة لمن جعل القرآن رائده وقائده وإمامه.

وهذه الحياة الطيبة تكون بأن يوفق الله العبد للطاعة، وللعمل بها، وبأن يشرح صدره وقلبه لها، وأن يرزقه العافية والرزق الحلال في هذه الدنيا، كما قال أهل العلم في

بيان هذه الحياة الطيبة، وقصدي من ذلك أن أقول: إن القرآن الكريم مشتمل على مادة الحياة الطيبة، وقد بين أن العمل الصالح مع الإيمان يمكن أن يؤدي بالعامل المؤمن إلى ما يريد لنفسه ولأهله وعشيرته وأهل دينه من الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

الأدلة على أن القرآن طريق للحياة الطيبة:

إن اشتمال القرآن الكريم على مادة الحياة يمكن أن أستدل له بموضعين من كتاب الله ﷻ، وأتبع كل موضع بما يشهد له من الآيات، وأرجو أن لا أطيل في ذلك:

الدليل الأول: أول الموضعين هو قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، هذه الآية تبين اشتمال القرآن على مادة الحياة، فماذا قال العلماء في تفسيرها؟! وهل بينت كيف تكون الحياة طيبة، كما دلت هذه الآية عليها؟ ﴿تَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧] أي: تعظكم وتذكركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله تعالى المقتضية لعقابه، جاءكم موعظة من ربكم في هذا الكتاب العزيز، وهذه المواعظ في الكتاب العزيز من عناصر مادة الحياة مع الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتذكير، والعلم اليقيني، وما إلى ذلك مما سيأتي بيانه، تذكركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، فإذا اجتنبتموها حييتم حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وفزتم؛ وعادت لكم كرامتكم التي كانت أوفر ما تكون لسلفنا الصالح في قرون الخير والإخلاص لله ﷻ والمتابعة لرسول الله ﷺ.

هذه الموعظة تحذركم من المعاصي ومفاسدها، وتبين لكم آثارها، ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: أن هذا القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادرة عن عدم الانقياد للشرع، فهذا القرآن يشفيها إذا كانت قلوباً قابلة واعية راضية بهذا الكلام، ساعية إلى الانتفاع به، مؤمنة به، مصدقة عازمة على العمل، فهو شافٍ لما في هذه الصدور من أمراض الشهوات الصادرة عن عدم الانقياد للشرع.

وفيه شفاء لما في الصدور من أمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني بألوهية الله، وربوبيته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، واستحقاقه بعبادة عباده له ﷻ، وأن يفردوه وحده بذلك دون غيره ﷻ إلى غير ذلك، فالقرآن شفاء لما في الصدور من هذه الأمراض؛ أمراض الشبهات التي تحول بين العبد وبين أن يحقق في نفسه عبودية صحيحة لله ﷻ، فإن في هذا القرآن من المواعظ والترغيب والترهيب ما يوجب للعبد رغبة في الخير، ورغبة عن الشر، هذه عناصر مادة الحياة: مواعظ، وترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير والرغبة عن الشر؛ يرغب في فعل الخير، ويرغب عن فعل الشر فلا يفعله، إذا وجدت فيه هاتان الرغبتان ونمتا -أي: زادتا وعظمتا- على تكرار ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب ذلك للعبد تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يُرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف وبينها أحسن بيان، براهين على وحدانيته، وعلى قدرته على البعث؛ والأدلة على قدرته وعظمته التي صرّفها في القرآن غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبهة القادحة في العلم اليقيني، ويزيل كل شهوة تخالف أمر الله ﷻ.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية تبعته الجوارح كلها؛ فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، وما الذي يصلح هذا القلب؟!

لا يصلحه إلا ما في هذا القرآن: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وهذا الشفاء الذي تضمنه هذا القرآن عامٌّ لشفاء القلوب من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والمقاصد الرديئة، فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وكل جهالة، ومشتمل على الوعظ والتذكير الذي تزول به كل شهوة تخالف أمر الله ﷻ، وهذا الشفاء أيضًا عامٌّ لشفاء الأبدان، ففي القرآن شفاء للقلوب من الشهوات والشبهات، وشفاء للأبدان من الآلام وأسقامها بالرقى.

﴿وَهَدَى﴾ في القرآن من عناصر مادة الحياة هدى، فما هو الهدى؟ هو: العلم

بالحق، والعمل به.

﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] والرحمة هي من عناصر مادة الحياة، وهي: ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل لمن اهتدى بهذا القرآن، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والרגائب.

وما في هذا القرآن من الأسباب والوسائل التي يحث عليها متى ما فعلها العبد فاز بالرحمة، والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل، ولكن هذا الهدى وهذه الرحمة لا تكون ولا تحصل إلا للمؤمنين بهذه الآيات، المصدقين والعاملين بها؛ كما قال الله تبارك وتعالى في أول سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلشَّاقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فمفهوم ذلك أن من لم يكن متقيًا لم يكن له في هذا الكتاب هدى.

وقال تعالى في موضعين من سورة المائدة: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]، فيزيد غير المؤمنين القرآن طغيانًا وكفرًا، ويقول تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فلعدم تصديق الآيات، ولعدم العمل بها لا تزيد الظالمين آيات القرآن إلا خسارًا؛ إذ بها تقوم عليهم الحجة، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وإذا حصل الهدى، وحصلت الرحمة الناشئة عنه - حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور.

الدليل الثاني:

وأما الموضع الثاني فهو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيْسًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ

لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أو من كان من قبل هداية الله له في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي فأحياه الله بالقرآن، وبنور العلم والإيمان، والطاعة، ووفقه لعبادته، واتباع رسله، فصار يمشي بين الناس في نور، متبصرًا في أمره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وفي غيره، عارفًا بالشر مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، هل يكون هذا كمن هو في ظلمات الكفر والجهل والبغي، والمعاصي ليس بخارج منها، ليس له منفذ ولا مخلص من هذه الظلمات، هل يكون مثله؟! لا، فهذا قد اختلطت عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، وحضره الهم والغم والحزن والشقاء.

فبه ﷻ العقول بما تعرفه وتدرکه من أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والظل والحور، والأحياء والأموات.

ومن أمثال هذه الآية الكريمة في سورة الأنعام قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالى في سورة هود: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ [هود: ٢٤] أي: المؤمنين والكافرين: ﴿كَأَلْعَمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، ومنها قوله تعالى في سورة النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقَتْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١] وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [١٦] وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٥﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٤﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٦، ٢٢]، ومنها قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِخْرُوتُ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]، أي: حان وأن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لأجل ذكر الله، وما يتكرر على قلوبهم من زواجر ومواعظ القرآن، وما يرد إليها منه.

والخشوع: خشية من الله تداخل القلب، وتظهر آثارها على الجوارح بالسكون والانخفاض والطمأنينة، حان للمؤمنين أن يكونوا كذلك، وألا يكونوا كالذين: ﴿أَوْتُوا أَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ [الحديد: ١٦].

ثم نبه الله تعالى بهذه الآية: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]، على أنه كما يحيى الأرض بعد موتها بالمطر، كذلك يحيى القلوب بهذا القرآن، وبنور العلم والإيمان والطاعة، جعلنا الله وإياكم مهتدين، والله أعلم.

والآن أيها الإخوة نتقل إلى النقطة التي بعدها، وهي كيف حيّ أسلافنا بالقرآن، لفضيلة الدكتور: سفر الحوالي.

يقول الشيخ سفر:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على خير خلقه محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، الذي جاهد في الله حق جهاده، فكانت رسالته رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الذين حيّ قلوبهم بالإيمان والقرآن، فنشروا العدل في الدنيا وهي ظالمة، ونشروا النور فيها وهي مظلمة، فاستضاءت بالنور، ونعمت بالعدل، حتى شاء الله تبارك وتعالى أن يعود الأحفاد إلى شبه الجاهلية الأولى، فعادت الظلمات، وعاد الظلم، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

حال العرب قبل الإسلام:

وبعد:

فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [١٢٢] وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالله تبارك وتعالى يمتن على المؤمنين بما أنعم به عليهم، ويبين حالهم قبل أن ينزل عليهم القرآن، وقبل أن تحيا به قلوبهم وتتنور، كيف كانوا، ثم ماذا صاروا من بعد، وقد بين ذلك أصحاب النبي ﷺ؛ بيّنه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عند النجاشي، وبينه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه كما في صحيح البخاري في أول كتاب الجزية والموادعة لما قابله رسول كسرى، وقد أوضح في ذلك وأكثر في وصفه الإمام التابعي قتادة رضي الله عنه الذي قال في تفسير هذه الآية: «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاهم عيشة، وأبينهم ضلالة، وأعراهم جلدًا، وأجوعهم بطونًا، معكومون على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم»، أي: كانوا محبوبسين مضطهدين، كأنهم على رأس حجر بين الدولتين الكبيرين الأسدين: فارس في الشرق، والروم في الغرب، يقول رضي الله عنه: «لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات رُدي في النار، يُؤكلون ولا يأكلون» كانت تحكهم الملوك المناذرة، وهم عملاء لكسرى، والغساسنة وهم عملاء لقيصر، وما عداهم ضياع وشتات، القبائل متحاربة متطاحنة، شعارهم من عزّ بزّ ومن غلب فلج.

لا يعرفون الله ولا اليوم الآخر، ولا يأمرن بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ولا ينصرون مظلومًا، ولا ينجدون مكروبًا، بل كان من أقوالهم: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، وإن لم يجد من ينهب إلا أخاه فلينبهه، كما قال قائلهم:

وأحيانًا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

ويقول: «لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلًا يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظًا وأدق فيها شأنًا منهم»، أي: أضال وأتفه الأمم؛ كانوا قبائل متصارعة، يقول: «حتى جاء الله ﷻ بالإسلام فأورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرفق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعم ربكم، إن ربكم منعكم يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك».

وكما قيل: الشعر ديوان العرب، فكيف كانت هذه الأمة -فضلاً عن فارس والروم وما شابهها ممن يعيشون في أحط ما يمكن من الحياة قبل أن يشرق عليهم نور القرآن، وقبل أن يحييهم الله بهذا الكتاب العظيم؟ كيف كان العرب وهم أقرب الأمم إلى الفطرة؟ ثم كيف حولهم القرآن؟ كما عبر سيد قطب رحمه الله: «أمة تنبثق من الكتاب». كيف انبثقت هذه الأمة، وقادت العالم بأحكام هذا الكتاب من الائتثار بأمره والانتهاه بنهيه؟! كيف كانت أحوالهم؟ الحروب الطاحنة كحرب البسوس التي دامت بين بني ربيعة: تغلب وبكر، وتطاحنوا وتقاتلوا، حتى هلك معظمهم من أجل ناقة، وكحرب داحس والغبراء وهما فرسان تسابقا، وللرياضة ماضٍ قديم في تفتيت الناس وفي تجهيلهم وإبعادهم عن القرآن فرسان تسابقا: إحداهما: داحس، والأخرى الغبراء، فتناكر صاحباهما، وتجاددا أيهما الأسبق، فتقاتلت القبيلتان قتالاً مرّاً حتى بادت خضراؤهم، وهلك معظمهم إلى أن أصلح الله -تبارك وتعالى- فيما بينهم على يد رجلين من اللذين خلد ذلك لهما الشاعر زهير بن أبي سلمى حين قال:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

هذا حالهم! أما السلب والنهب فحدث ولا حرج، من الذي كان يأمن من العرب أن يمشي ومعه أخته أو زوجته أو أمه، ويأمن ألا يسلبها أحد؟! فلذلك كان من عظمائهم الكبار ومن سادة غطفان وبني تميم قيس بن عاصم وأد بضع عشرة بنتاً من بناته، لماذا وأذهن؟! لأن إحدى بناته سُبيت، فخبرت بين السابي والأب، فاختارت سابيها على أبيها، فأقسم أبوها ألا تولد له بنت إلا ويثدها في التراب، وتعلمون حكم ذلك، عياداً بالله.

هكذا كان قاداتهم وساداتهم، وهكذا كانت حياتهم، امرؤ القيس الشاعر المشهور الذي تضرب به الأمثال في القديم والحديث - كان عرييداً سكيراً يعاقر الخمر والفجور، كما ذكر في معلقته، فبلغه أن أباه قد قتل؛ فقال: اليوم خمر وغداً أمر.

وقال في شعره:

بقتل بني أسد ربهم أكل شيء سواه جليل

فماذا فعل؟! أراد أن يثار لأبيه، فجاء من بلاد بني أسد من وسط الجزيرة، إلى ذي الخلصة، وهو طاغوت دوس، صنم قبيلة دوس في الجنوب ليستشيره وليستنصحه؛ ليقول: كيف أقاتل من قتل أبي؟ ماذا أصنع؟ كيف آخذ بثأري ومن أقتل في أبي؟

فلما استقسم بالأزلام فخرج الذي يكره، وبزعمه أنه نهاء الصنم أن يأخذ بثأره، فرماه، وقال:

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا

يومًا وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

وذهب يلتمس الحل؛ من أين يلتمسه؟ ذهب يلتمسه كما نلتمسه اليوم بعد أن ابتعدنا عن حياة القرآن وعن الحياة في ظلاله، ذهب إلى الروم إلى ملوك الأرض حينئذ؛ ولذلك يقول:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكًا أو نموت فنعدرا

وقد هلك ولم ينل الملك، ولم يعدرا! والقصاص كثيرة عن حالهم.

حال العرب بعد الإسلام:

فكيف أصبحت هذه الأمة بعد نزول القرآن؟! لقد نور الله -تبارك وتعالى- قلوبها بالإيمان، وبهذا الذكر ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أحياهم الله ﷻ بالقرآن، وهو مادة الحياة العظمى، فانقلب حالهم بعد الذل عزًا، وبعد الهوان رفعة، وبعد الهزائم نصرًا، وبعد الخوف أمنًا، وبعد الظلم عدلًا.

أصبحت هذه الأمة هي الأمة التي أورثها الله تبارك وتعالى الكتاب ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا

أَلِكِتَابِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿٣٢﴾ [فاطر: ٣٢]، اصطفأها وأورثها هذا الكتاب الذي به حيّت الأمة التي يقوم علماؤها مقام أنبياء بني إسرائيل؛ لأنهم قوامون بالقسط شهداء لله، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، كما جاء في القرآن، الأمة التي يفرع العالم إلى عدلها، ليتفياً بظلاله من ويلات الظلم والجور.

دخل قتيبة بن مسلم بلاد سمرقند بعد أن صالحهم مرارًا وهم ينقضون العهد، فصالحهم مرة وغدر بهم، ودخل المدينة انتقامًا من غدرتهم السابقة، فذهب منهم وفد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وقالوا: بلغنا أنكم أمة الحق والعدل، وهماو ذا قائدكم يصالحنا ثم يغدر، فأمر عمر رضي الله عنه الإمام العادل بأن يخرج الجيش من المدينة؛ لأنهم أعطوهم عهد الله ورسوله، ثم غدروا بهم، فأمر عمر بن عبد العزيز الجيش فخرج، وعند ذلك دخلوا في دين الله جميعًا عن حق ويقين ولم يغدروا بعدها أبدًا.

حال سائر الأمم قبل الإسلام وبعده:

هذا بالنسبة إلى حال العرب، وماذا نقول في الروم وماذا نقول في الفرس؟! أولئك الذين كانوا يعبدون النيران، وكانوا يعيشون في ظلمات الكفر والجهل، أكانت تنقصهم الحكمة كما يفعل الناس اليوم؟! يأتون بالحكم ويأتون بالأمثال ويأتون بالقصص؛ أكان ينقص العالم حكمًا أو عبرًا وقصصًا؟! لا والله! كان بيدبا الفيلسوف الهندي الذي ألف «كليلة ودمنة»، وكان بزرزمهر - وهو فيلسوف الفرس - معروفًا لديهم، وكان عند الروم أرسطو وأفلاطون وسقراط وأمثالهم؛ فوالله ما صنعوا شيئًا، ولا أخرجوهم من الظلمات إلى النور؛ وإنما أخرجهم المؤمنون بكتاب الله وبهدى الله الذي أنزله الله ﷻ بهذا الوحي الخالص ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، أخرجهم الله تبارك وتعالى بهذا القرآن، فاحتكموا إليه ورضوا به؛ حتى إن أهل الذمة الذين لم يدخلوا في الإسلام نعموا بالحياة الطيبة المطمئنة في الدنيا، وإن كانوا محرومين من الجنة عند الله تبارك وتعالى في الآخرة.

لكن الحياة التي عاشوها في الدنيا لم يجدوا لها نظيرًا، ولن يجدوا لها نظيرًا أبدًا

في ظل ملوك من النصارى كانوا يحكمونهم، ولا سيما إذا كانوا مخالفين لهم في الدين.

القرآن سبب حياة القلوب عند السلف:

نزل هذا القرآن فتفجرت ينابيع الحكمة في قلوبهم، فلو أننا قارئاً كلام حكماء اليونان والهنود والرومان والصابئين بنتف من كلام أبي الدرداء، أو بعض من كلام معاذ أو ابن مسعود الذين كانوا يرعون الشيا، والذين كانوا كما ذكر قتادة وغيره في شأنهم - لما كانت نسبة ذلك إليهم شيئاً مذكوراً.

هؤلاء القوم الذين كانوا رهباناً بالليل، فرساناً بالنهار، الذين عملوا - كما أخبر النبي ﷺ - من العصر إلى المغرب على قيراطين قيراطين، في حين أن اليهود عملوا إلى الظهر، وعملت النصارى من الظهر إلى العصر على قيراط قيراط.

هذه الأفضلية إنما جاءت لأن هذا القرآن الذي هو مادة الحياة صادف محلاً قابلاً، وهنا نأخذ العبرة والعظة، مهما كانت البذرة طيبة ومهما كان نباتها طيباً، إن لم تكن الأرض والمحل الذي تزرع به قابلاً فإنه لا يمكن أن تكون هناك حياة ضع هذه البذرة على صخرة أنتبت؟! لا، ولكن ضعها في طينة مناسبة، في أرض طيبة تجد أن نباتها يخرج طيباً بإذن ربه ﷺ وكذلك الإيمان صادف تلك القلوب التي اصطفها الله تبارك وتعالى وطهرها، فقبلت هذا الإيمان، وتشربت هذا الدين، وآمنت بكتاب الله ﷺ واتخذته وحده مع سنة رسوله ﷺ منهاجاً وشرعاً وسبيلاً، فتركوا كل ما وجد عند الأمم السابقة.

كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند فتح بلاد فارس: «إنا قد وجدنا من كتب القوم حمل وقرين أو ما أشبه ذلك، وفيها من الحكمة وفيها من العبر، فما رأيك فيه؟» فكتب رضي الله عنه: «أن أحرقتها جميعاً، فإن الله - تبارك وتعالى - قد أغنانا بالقرآن». لا نحتاج إلى حكمة، ولا نحتاج إلى منطق، ولا نحتاج إلى فلسفة، ولا إلى دراسات اجتماعية، ولا إلى دراسات نفسية، ولا إلى ما يقال وما يسطر، لا نحتاج إلا إلى أن نؤمن بكتاب ربنا تبارك وتعالى وكأنى بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الحالة، وقد استحضر قول النبي ﷺ له لما أن رآه وفي

يده صحيفة من التوراة، قال: «يا عمر، والله لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي» (١) هذا هو التور، وهذا هو الهدى، وهذا هو الخير كله، وجماع العزة والنصرة والرفعة، آمن به السلف الصالح -رضوان الله عليهم- كما أمرهم الله ﷻ، كانوا يقرءون الآية الواحدة منه، فتقع وتستقر في أعماق قلوبهم، هؤلاء شعراؤهم، كما كان لبيد الشاعر الجاهلي المشهور لما قرأ القرآن توقف ولم يقل شعراً، حتى قيل: إنه لم يقل إلا بيتاً واحداً في الإسلام بعد أن كان من شعراء المعلقات في الجاهلية وهو قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً

لم يقل غير ذلك؛ لأن القرآن أبهره، وملاً قلبه، فأخرج ما في قلبه من الشعر ومن حب الشعر.

القرآن هو المخرج من المآزق المعاصرة:

إذا عادت الأمة إلى الشعر -ونعني بالشعر ما صد عن كلام الله- وإلى قرآن الشيطان إلى الغناء، إذا عادت الأمة إلى لهوها ولعبها وفرقتها، إذا عادت الأمة إلى ضلالها وظلماتها وجاهليتها فلن ترى خيراً، فالحل وحده هو العودة إلى القرآن والارتواء من معينه الصافي، والافتداء بالنبي ﷺ وأصحابه في ذلك، ليحيوا مرة أخرى، وليُحيُوا هذا العالم، فإن العالم لم يكن يوماً من الأيام بعد مبعثه ﷺ أحوج إلى أن يحيا بالقرآن منه في هذا الزمن، وكان الزمان قد استدار كهيئته ومبعث محمد ﷺ، الدولتان العظيمتان كما تسميان إحداهما في المشرق والأخرى في المغرب، والأمة التي تنتسب إلى دين الإسلام معكومون على رأس حجر، بل معكومون في هوة سحيقة يحيط بها هذان الأسدان الجاثيان اللذان ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

فالله الله يا أمة الإسلام، ويا إخوة الإيمان! العودة إلى كتاب الله! نتلوه آناء الليل وآناء النهار، وتدبر آياته ومواعظه ففيه والله الكفاية والغنى، ونقرأ صفة النبي ﷺ التي وصفته بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهو الوصف الجامع المانع: «كان خلقه

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٨)، وحسنه العلامة الألباني في «المشكاة» (١٧٧).

القرآن»^(١). ونقرأ سير الصحابة الكرام، جند الإيمان والتوحيد، الذين كانوا بهذا الرسول ﷺ متأسين ومقتدين، تشبهوا به واقتدوا بسنته ﷺ فنالوا شرف صحبته.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم، أن يلحقني وإياكم بهم، وأن يحيي قلوبنا بالقرآن، وأن يوقظ غفلاتنا بالإيمان، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

النقطة التي نتقل إليها هي: كيف نكون أهلاً للانتفاع بالقرآن الكريم؟ قال الشيخ سعيد شعلان: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سبق أن ذكرنا اشتغال القرآن إلى مادة الحياة، وعرفنا كيف حي أسلافنا بالقرآن، والقرآن بين أيدينا، فلماذا وجدت فينا هذه الأمور التي حالت بيننا وبين أن نكون بالأثر وعلى الدرب؟! هل عزف المسلمون عن قراءة القرآن وأعرضوا عن ذلك؟

التدبر وأثره:

الواقع أن المسلمين ما زالوا يقرءون القرآن؛ ولكن مما لا شك فيه أن قراءة القرآن وحدها ليست كفيلة بأن نكون أهلاً للانتفاع به، وبأن نكون أهلاً لأن نحيا به، فلا بد أن تُتبع القراءة والتلاوة بالفهم والتدبر والتعقل وبأمور أخرى سيأتي بيانها، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في تدبر القرآن، ما هو التدبر الذي هو من أعظم الشروط التي تؤهلنا للانتفاع بالقرآن؟ - قال: «هو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهذا هو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، وقال الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ (المؤمنون: ٦٨)، وقال ﷺ في سورة ص: ﴿كُنْتُمْ أَزْوَاجًا لِيُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ آيَاتٍ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ٣) وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُنزِلَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)».

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «نزل القرآن ليتدبر وليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً».

ثم يقول - رحمه الله تعالى - والكلام ما يزال لابن القيم أثابه الله وجزاه أحسن الجزاء وأجمله -: «فليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب في نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معاني الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتها وأسبابها وغاياتها وثمراتها ومآل أهلها». هذا هو أنفع شيء للعبد في معاشه ومعاده، وهو أقرب شيء إلى نجاته؛ أن يتدبر القرآن، وأن يطيل التأمل فيه، وأن يجمع الفكر على معاني آياته.

وماذا يستفيد العبد إذا تدبر، وأطال التأمل، وجمع الفكر على المعاني؟ هذه الأمور إذا فعلها العبد، يقول: «فإنها تطلع العبد على معاني الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتها وأسبابها وغاياتها وثمراتها ومآل أهل الخير والشر، ما الذي يطلعك على ذلك؟ إنه تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته».

وماذا تفيدك إطالة التأمل مع التدبر والتعقل وجمع الفكر؟ يقول: «وتتلى في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة - ومعنى (تتلى في يده): تلقى في يده، توضع في يده - هذا كله بالتدبر والتعقل وجمع الفكر، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشد بنيانه، وتوطد أركانه، وترية صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وترية أيام الله فيهم، وتبصره بمواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماء وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه سبحانه، وقواطع الطريق وآفاتهما، وتعرفه النفس وصفاتها ومفاسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة والنار، وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترون فيه، وبالجملة تُعرفه ستة أشياء: تعرفه الرب

المدعو إليه المدعو إلى عبادته سبحانه والإقبال إليه وما إلى ذلك مما ينبغي ألا يكون إلا لله، وطريق الوصول إليه، إلى رضاه، وإلى جنته، وإلى رؤيته ﷺ، إلى من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، وطريق الوصول إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب إذا قدم عليه، فهذه ستة أمور لا بد للعبد من معرفتها، ومشاهدتها، ومطالعتها.

الانتفاع بالقرآن ومفسدات القلوب:

ينبغي لكي نكون أهلاً للانتفاع بالقرآن أن نتجنب مفسدات القلب الخمسة، وذكرها ابن القيم أيضًا في كتابه «مدارج السالكين» ومنها: «كثرة الخلطة، والتعلق بغير الله ﷻ، والشبع، وكثرة النوم». كثرة الخلطة مع غير الأخيار والصالحين، من غير دعوتهم، وبيان الحق لهم، وعرض محاسن الإسلام عليهم، والرضا بأحوالهم ومجالستهم على ما هم فيه من غير سعي إلى تغيير هذه المنكرات والأحوال السيئة، هذه مفسدة للقلب، فمهما قرأت فلا تتفجع بشيء.

التمني: أي: تمني الأمنيات، وتمني وتمني... وأحلام يقظة من غير حركة ولا فعل ولا نشاط ولا عمل ولا دعوة، فقط تمني؛ وكذلك التعلق بغير الله ﷻ يفسد القلب أيما إفساد.

أثر الذنوب في الانتفاع بالقرآن:

وينبغي أن نخاف ذنوبنا ومعاصينا؛ فإن لها من الآثار السيئة على القلوب والحيلولة بين القلوب والفهم والوعي والتدبر والتأثر ما لا يخفى على أي عاقل لبيب.

نماذج من السلف في الخوف من الذنوب:

ولا حاجة بي إلى أن أعيد ذكر الذنوب -التي ذكرها فضيلة الشيخ في كلمته- الذنوب التي حطت من قدرنا، وعطلتنا عن اللحاق بمن سبقنا، وأخرتنا أيما تأخير.

هذه الذنوب يجب أن نخافها أشد الخوف ويكفي في الدلالة على ما ينبغي من خوف الذنوب أن أذكر مثلاً على ذلك، وهو: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه والذي ذكر

فضيلة الشيخ أنه ممن تفجرت ينباع الحكمة في قلوبهم، وعلى ألسنتهم لَمَا انتفعوا بهذا القرآن العظيم.

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، وكان من المحبين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأذكر في فضله ومكانته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن مسعود نفسه قال: لما نزل قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود: قيل لي: «أنت منهم، أنت منهم»^(١). هذا في «صحيح مسلم» وفي «صحيح مسلم» أيضًا عن أبي مسعود البدرى وأبي موسى «أنهما بعد وفاة ابن مسعود رضي الله عنه جلسا، فقال أحدهما للآخر: أترأه ترك بعده مثله؟ -أي: هل بقي مثل ابن مسعود بعد وفاته- فقال الآخر: لأن قلت ذلك، لقد كان يؤذن له إذا حجبنا، ويشهد إذا غبنا».

أي: ومن منا مثل ابن مسعود، كان يؤذن له في الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حجبنا، ويشهد إذا غبنا، ولقد دخل ابن مسعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مرضه الشديد وامتناعه من الخروج للمسلمين في يوم الخميس، وقبل وفاته صلى الله عليه وسلم، وأذن له، بينما لم يؤذن لكثير من الصحابة في ذلك الوقت.

وأيضًا في «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «قدمت أنا وأخي في قدوم الأشعرين، فمكثنا زمانًا لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكثرة دخولهم وخروجهم عليه صلى الله عليه وسلم». هذا في مكانة ابن مسعود، وفي هذه المكانة حديث آخر أخرجه الإمام أحمد وغيره، عن ابن مسعود وعمر بن الخطاب، أما عمر بن الخطاب فلما بلغه وهو بعرفة رضي الله عنه أن رجلًا بالكوفة يُملئ المصاحف عن ظهر

قلب، غضب وارتعدت فرائصه، ولم يسر عنه إلا لما عرف أن ابن مسعود هو الذي يملئ المصاحف عن ظهر قلب، قال: ومن أحق منه بعد. أي: ومن حق منه في هذا الوقت؟ فليس أحد أحق من ابن مسعود، لقد كنا عند أبي بكر في سيرة وعنده رسول الله ﷺ وأنا، وخرجنا فأتينا المسجد، فوجدنا رجلاً قاتماً يصلي، فاستمعنا إليه، فلما كدنا أن نعرفه - وعرفوا أنه ابن مسعود - قال ﷺ لأبي بكر وعمر: «من أراد أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد»^(١).

ثم انتهى ابن مسعود وشرع في الدعاء، فقال - عليه الصلاة والسلام - وابن مسعود لا يشعر: «سل تعطه». فدعا ابن مسعود وقال: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد في أعلى جنات الخلد. قال عمر رضي الله عنه: فقلت في نفسي لأبشره إذا غدوت عليه؛ فلما أتته لأبشره وجدت أبا بكر سبقني، فقلت له: إنك لسباق إلى الخير.

هذا بعض ما يمكن أن يروى في مكانة ابن مسعود وفضله.

إذا انتبهتم إلى هذا، وتأكدتم منه، ووقفتم عليه، فتعالوا إذن نرى كيف كان هذا الصحابي الجليل يزري على نفسه ويهضمها، ويخاف الذنوب، لنعرف أين هم وأين نحن؟! وإلى أين وصلوا هم؟! ولماذا وقفنا ولا حراك لنا؟! ولا نأمل ونحن على ما نحن عليه من هذه الأحوال السيئة أن ندرك هذا الركب حتى نقلع عن هذه الذنوب والمعاصي، وحتى نحبي قلوبنا بهذا الهدى، وهذه الرحمة التي في القرآن.

عن إبراهيم التيمي عن أبيه بإسناد صحيح - كما أخرجه الذهبي في سيرة ابن مسعود في المجلد الأول - قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان، ولحشيتم التراب فوق رأسي، ولوددت أن الله غفر ذنباً من ذنوبي، وأني دعيت عبد الله بن روثة». وددت أن الله يغفر لي ذنباً من ذنوبي حتى وإن كانت القربان

(١) أخرجه أحمد (٧/١)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٦١).

إلى ذلك والشيء الذي يقدم ليغفر ذنبًا من الذنوب أن ادعى يا عبد الله بن روثة؛ وتعرفون معنى الروثة! هذا إزرأء على النفس وتواضع، وإلا فهم السابقون السابقون رضي الله عنهم وأرضاهم.

ويقول أبو سليمان الداراني معلقًا على كلام لابن سيرين بكلمة أختم بها هذه الفقرة في التحذير من الذنوب، ومن عدم الخوف منها، فنرى ابن سيرين رحمه الله تعالى، تدين بدين كبير عظيم جدًا حُبس بسببه، فحاسب ابن سيرين نفسه، فقال: «إني عيّرت رجلًا من ثلاثين سنة، فقلت له: يا مفلس، وهذا هو أوان عقابي وجزائي بهذا الذنب»، فماذا علق أبو سليمان الداراني؟ قال: قَلَّتْ ذُنُوبُهُمْ فَعَرَفُوا مِنْ أَيْنَ أُتُوا، وكثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نُؤْتَى!».

إذا حصلت لأحدهم مصيبة والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] إذا أصابه ذنب وبلاء عرف أن الذنب هو الذي تسبب بهذا البلاء؛ يعرفه؛ لأن ذنوبهم قليلة، فلا يحتاج إلى كثير بحث، أما نحن فإذا أصبنا ببلاء لا نستطيع أن نرد السبب إلى ذنب معين؛ لأنها ذنوب كثيرة وعظيمة.

ولقد قال أنس رضي الله عنه كما في «صحيح البخاري» لمن أدركهم من التابعين: «إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات». يعني: المهلكات، ومعنى قوله: «أنتم تعملون أعمالاً تعتبرونها في نظركم وحسابكم دقيقة كالشعر، ونحن كنا نعدها»؛ أي: نعد هذه الذنوب التي تستهينون بها على عهد النبي ﷺ من الموبقات «قَلَّتْ ذُنُوبُهُمْ فَعَرَفُوا مِنْ أَيْنَ أُتُوا، وكثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نُؤْتَى».

فنسأل الله -تبارك وتعالى- أن يوفقنا وإياكم إلى تحقيق هذه الشروط التي تجعلنا أهلاً للانتفاع بالقرآن، والتي تؤهلنا لأن نحيا بالقرآن، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

المنهجية للمبتدئ في القراءة:

السؤال:

فضيلة الشيخ سفر، يقول السائل: أنا تائب جديد، فهل تنصحني في بداية تويتي بالتركيز على قراءة القرآن وتفسيره؛ حيث إنه من عوامل الثبوت كما سمعت من طلبة العلم، أم أنواع القراءة في مختلف العلوم من فقه وعقيدة وحديث؟

الجواب:

الحمد لله، وبعد:

كلنا -أيها الإخوة في الله- نحتاج للتوبة، ونسأل الله أن يجعلنا من التائبين الأوابين.

وقد ذكرنا حال الأمة عندما تابت، والعرب جميعاً لما تابوا، على أي شيء تربوا؟! وكيف حيث قلوبهم؟! وكيف ساروا؟! القرآن هو الركن الركين، والأساس في التزكية والتربية، وكل العلوم فرع عنه؛ فالسنة شرح وتفسير له، وبيان لمجمله، وتخصيص لعمومه، وتقييد لمطلقه، إلى غير ذلك.

وَعَمَلُ النَّبِيِّ ﷺ ترجمة له، وَعَمَلُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ -رضوان الله تعالى عليهم- تطبيق وتنفيد له، فالقرآن هو الأساس، فكل علم يخالف هذا الكتاب فلا خير فيه، وكل خير في علم آخر فأصله من هذا الكتاب لاستمداده منه؛ ولذلك فإن أوجب ما يبدأ به الإنسان تائباً أو غير تائب هو: الإقبال على كتاب الله ﷻ؛ إقبالاً فيه التدبر، وفيه التفكير.

ثم بعد ذلك ينوع من العلوم بقدر لا يزاحم به كتاب الله، فإذا حَصَّصَ جزءاً مهماً أساسياً لحفظ القرآن وتدبره والاطلاع على كتب التفسير، فلا بأس أن يجعل بعد ذلك من العلوم المشتقة منه، والمكملة له، ولا سيما ما هي تطبيق وتنفيذ للقرآن، مثل: تعلم أحكام العبادات من صلاة وزكاة وصيام؛ لأنه بذلك يطبق القرآن، ويمثل أمر الله في القرآن، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهكذا.

ولا يشغل نفسه بعلوم أبعد من ذلك، تبعده عن التدبير والعمل في القرآن وإن كانت حقًا، كما يشتغل بعض الشباب فيبدءون عقب توبتهم بالاشتغال بالرجال والنقد (نقد الرجال) والجرح والتعديل، ليست هذه البداية الصحيحة لطالب العلم، وبعض الإخوة يشتغل بالإكثار من الفروع الفقهية، والخلاف بين العلماء، وبعضهم يبدأ بأصول الفقه، وبعضهم يبدأ بقراءة الفلسفة أو المنطق، أو ما أشبه ذلك، وهذا كله من الخطأ في طريق العلم، فالقرآن هو الأساس، فقد جاء عن بعض الصالحين أن رجلاً صالحًا لم يستطع أن يحفظ القرآن لشغله عنه، فأرسل ابنًا له ليحفظ القرآن، وليتعلم القرآن، فرجع الولد، فقال أبوه: يا بني، لماذا رجعت؟ قال: يا أبت، حفظت سورة أرى أنها قد كفتني، قال: وما هي؟ قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ١-٨].

أقول: بمثل هذا التدبير يجد الإنسان أن السورة الواحدة إذا حفظها وتدبر معانيها، وتفقه فيها، أنها تغنيه عن علم كثير مما فيه جفاء عن القرآن، أو جفاء في القلب، كالدخول في الخلافات وما أشبه ذلك، مما هو شأن العلماء المجتهدين المتعمقين الذين استكملوا - إن شاء الله - حظًا وافرًا من الإيمان، ثم تفقهوا وتوسعوا في العلم، وكان ذلك فرضًا متعينًا عليهم؛ لأن الأمة بحاجة إلى علومهم، أما نحن طلبة العلم، فنحن أحوج ما نكون أولًا وبادئ ذي بدء إلى إصلاح قلوبنا وتركيتها بهذا القرآن، والبعد عما يشغلنا عنه وإن كان حقًا، لكنه حقٌّ مفضول.

بهذا أنصح نفسي أولًا، وإخوتي الكرام أئابهم الله، وأقول ذلك لأننا في عصر اشتبكت واختلطت على الإخوة في السبل الصحيحة لطلب العلم ولمعرفته، وأصبح - ربما أكون مبالغًا وأرجو أن أكون كذلك - الهضم والإجحاف بالقرآن تلقياً وحفظًا وتعلمًا مقابل علوم أخرى، ما كان فيها من خير فإنما هو من كتاب الله ﷻ.

بعض أخطاء كبار القراء في العالم الإسلامي:

السؤال:

فضيلة الشيخ سعيد شعلان: مجموعة من كبار القراء الذين اشتهروا في العالم الإسلامي ظهرت أخبارهم في وسائل الإعلام وكأنهم لا يحيون بالقرآن، واستطاع الإعلاميون استغلالهم، فمنهم من استضيف في حفل مسرحي، ومنهم من استضيف في افتتاح مباراة كرة، ومنهم من اجتمع في لقاء صحفي يذكر فيه أنه يرى التلفاز والتمثيلات ويسمع الغناء، فترجو من الشيخ أن ينبه القراء إلى خطورة ما يحاك لهم من الإعلاميين بهذا الصدد؟

الجواب:

الحمد لله، تعلمون جميعاً أن الله ﷻ أنزل كتابه المبارك لهداية الناس إلى مصالح الدنيا والآخرة، ولم ينزل هذا الكتاب ليقرأ في المآتم، أو على القبور، أو في افتتاح الحفلات، أو ليوضع مهجوراً بين دفتين عظيمتين من الأصناف الغالية الثمن، وما إلى ذلك، لا، بل هو كتاب هداية، وما مضى الكلام على ما فيه من مادة الحياة، وكيف حيّ به أسلافنا، وكيف يُتدبر - يغني عن إعادة الكلام عن الهدف الذي من أجله أنزل الله - تبارك وتعالى - هذا الكتاب العزيز المبارك، ويكفيني أن أرد هذا العمل - على من قام به من القراء ولو كانوا من المشاهير - بكلام من سبقهم في قراءة القرآن وتعلمه وتعليمه، ولن يكون هؤلاء القراء مهما بلغت شهرتهم حجة على هذه الفعال بإزاء القراء الأولين المفكرين، الفاهمين، المتدبرين، المتعقلين، جامعي الفكر على معاني آيات القرآن الكريم، لن يكونوا مثلهم، ولن يُحتجّ بهم ويُترك الاحتجاجُ بهؤلاء الأولين ﷺ.

لقد ذكر النووي - رحمه الله تعالى - في «البيان في آداب حملة القرآن» آثاراً عن ابن مسعود ﷺ والحسن والفضيل بن عياض - رحمهم الله تعالى -، أكتفي بذكرها، وفيها ردٌّ كافٍ على هذه الأعمال، وعلى هذا السلوك، يقول ابن مسعود ﷺ: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذا الناس نائمون - إذا نام الناس قام هو - وبنهاره إذا الناس

مفطرون - يعني: بصيامه - وبجزئه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون».

وقال الحسن البصري - رحمه الله تعالى -: «إن من كان قبلكم - يقول للتابعين في زمانه وأتباعهم - رأوا القرآن رسائل من ربهم؛ فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار». أي: يعملون بها في النهار.

وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى -: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيمًا لحق القرآن». لا ينبغي أن يشارك في اللهو والسهو واللغو تعظيمًا لحق القرآن؛ لأنه من حملته وسيكون حجة لغيره إذا ما رآه على هذه الأمور أن يفعل مثله.

أما إذا كان هو يبرر هذه الفعال، ويحكم بجوازها وصحتها، ويتفضل بافتتاح هذه الحفلات بأن يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: ٥٤]، ولست أقول: إن المصيبة في أن يقرأ هذه الآيات، لكن المصيبة في المشاركة والحضور في هذه الحفلات، ولو قرأ أي آية من كتاب الله ﷻ؛ لأنه يجلس مع قوم فارغين، لا هم في أمر دنياهم، ولا هم في أمر آخرتهم، كيف ذلك؟!

يجلس مع قوم لا يصلحون دنياهم، ولا يصلحون آخرتهم؛ فهذا هو الذي ينبغي لحامل القرآن من الآداب، وبهذا القدر كفاية، والله تبارك وتعالى هو المسئول أن يهدينا، وأن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى، وأن يختم لنا بخير، وأن يجعل عواقب أمورنا إلى خير.

حكم التداوي بالقرآن من المس:

السؤال:

فضيلة الشيخ سفر، هل يجوز التداوي بالقرآن الكريم وإخراج الجنى من المريض بقراءة القرآن، جزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

الحمد لله، أقول:

لا ريب أن القرآن شفاء للقلوب وللأبدان - كما تفضل الشيخ فذكر الآيات في ذلك - والتداوي بالقرآن حق، ومن تداوى به كما شرع الله، وكما فعل رسول الله ﷺ، ولم يغلُ ولم يتتدع، وكان محله قابلاً للعلاج القرآني - شفي بإذن الله - تبارك وتعالى - فالشفاء موجود ولكن قابلية المحل أيضاً شرط لوقوعه، غير أني أريد أن أنبه إلى ما هو أهم؛ لناخذ العبرة من حالنا ومن واقعنا.

عندما عظمنا الدنيا، ونسينا الآخرة أصبحنا نحتاج القرآن لتداوي به أجسادنا، ونسعى إلى ذلك، ونبذل المال والجهد، ولكننا لا نسعى ولا نجتهد؛ لأن نعالج قلوبنا بالقرآن، فلو قيل: لنا: إن شيخاً أو عالماً واعظاً سيعظنا الليلة بشيء من كتاب الله - تبارك وتعالى - يرقق به القلوب، ويذكرنا بالله ﷻ، ويربطنا بهذا الكتاب المهجور. كم يجتمع له؟! كم يحضر لديه!؟

أما لو قيل: إن رجلاً ما قد ظهر في منطقة نائية بعيدة يعالج الناس بالقرآن، ويُخرج الجان، ويفك المسحور، وأمثال ذلك مما يتلذذ به العامة. لشدت إليه الرحال، وضربت إليه أكباد السيارات! سبحان الله! أليس هذا دليلاً على أن عظمنا الدنيا ونسينا الآخرة!؟

إذا كان الحسن البصري - كما سمعتم من الشيخ حفظه الله - قال ﷻ: «إن هذا القرآن أنزل ليقروه وليعملوا به، فجعلوا قراءته عملاً». سبحان الله! يلوم الذين جعلوا قراءة القرآن علماً دون العمل به، فكيف بالذين جعلوا القرآن تكسباً للدنيا! وكيف بالذين جعلوه فقط لعلاج أجسادهم!؟ فإذا صح الجسد وتعافى استُخدم في معصية الله ﷻ شُفيت العين فنظرت إلى ما حرم الله، وشُفي العقل فتفكر وتأمل فيما حرم الله، وشُفي اللسان فنطق بما حرم الله، هذه والله كارثة! أن يكون هذا حظنا من كتاب ربنا، وإن كان العلاج به حقاً لا ريب فيه.

إخوتي في الله، إن الله تبارك وتعالى رحيم كريم ومن رحمته ﷻ أنه جعل ما يقيم

حياة الناس لضرورتهم، جعله متيسراً لهم بقدر ضرورته لهم؛ فهو بقدر الحاجة أو الضرورة يكون تيسر ذلك الأمر.

فلما كان الناس بحاجة إلى الهواء لا يستطيع الإنسان أن يعيش إلا إذا تنفس الهواء جعله الله مجاناً، ولو كان الهواء يباع لاحتق أكثر الناس؛ لأنهم فقراء ولاحتكر التجار الهواء، ولكن رحمة الله منعت ذلك.

وكذلك الماء؛ لأن الناس يحتاجونه، ولا يستغني عنه أحد جعله الله تبارك وتعالى موفراً بين أيديهم، والله الحمد والمنة.

والملح؛ لأنه لا قوام للطعام إلا به هو من أرخص ما يُباع في الأسواق في كل مكان، والله الفضل، وله الحكمة البالغة ﷺ، ومن ذلك أنه لما علم ﷺ - وهو العليم بكل شيء - شدة حاجتنا إلى القرآن، وضرورة تحصننا به من الشيطان، وأن عدونا ماكر خبيث ممكن له فينا، ويجري منا مجرى الدم أعطانا الله ﷺ العلاج مجاناً.

فكل إنسان، كل مؤمن -والحمد لله- يستطيع أن يقرأ المعوذتين، ويقرأ آية الكرسي، ويقرأ آخر آيتين من سورة البقرة، ويقول: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. مائة مرة في اليوم إلى غير ذلك مجاناً، فلا تحتاج أن تذهب إلى شيخ أو تسأل عنها عالماً، ولا أن تبذل مالاً قل أم كثير.

فإنك إن قلتها حفظك الله تبارك وتعالى بها من الشيطان بإذن الله، فلا تُصرع، ولا يأتيك الجان، ولا يتلبس بك، ولا يؤذيك السحر بإذن الله تبارك وتعالى؛ إلا ما قدره الله، وقدرُ الله ﷺ كائن.

«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»^(١) هل تشق على أحد؟! أم تلك الرقى البدعية والقراءات الطويلة، ويصحبها من الباطل أقل ما يقال فيها: أنها لم ترد مرفوعة عن النبي ﷺ، وإن كان أكثرها لم يعملها الصحابة أو أحد من السلف؛ بل

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

بعضها وقد رأيناها مشتملة على شركيات وعلى توسلات بغير الله ﷻ، ويقولون: هذا قرآن، هذه آية الكرسي.

لكن اقرأ ما في الأطراف تجد أرقامًا وكتابات لا معنى لها، هذه توسلات شركية؛ ولهذا يقولون يوم القيامة عندما يسألهم ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْحَيْنَ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] هذا يستمتع به بما يقدم له من شركيات، وذلك يستمتع بما يعطيه، وكأنه يظهر على يديه الكرامات أو الخوارق.

فيا إخوتي في الله، الوقاية خير من العلاج، فلنعالج قلوبنا أولاً، ونقيها الشبهات بالقرآن، ثم بعلاج أبداننا أيضاً نتخذ من هذا القرآن وقاية للحفظ من الشيطان، فنقرأ هذه الآيات الميسورة المتوفرة -والحمد لله- ونداوم على هذه الأذكار صباحاً ومساءً وقبيل النوم، كما وردت عن النبي ﷺ، فبذلك يكون لنا الشفاء -بإذن الله تبارك وتعالى- في قلوبنا وأبداننا، أسأل الله تبارك وتعالى أن يشفينا جميعاً، وأن يعافينا من كل داء ظاهر وباطن، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

- * حتى يتم الانتفاع بالقرآن فلا بد أن نتبع القراءة بالتدبر والتعقل، وهذا هو المقصود بإنزال القرآن لا مجرد التلاوة وإن كان أجراً وخيراً كثيراً.
- * مفسدات القلب خمسة: كثرة الخلطة، التمني، التعلق بغير الله ﷻ، الشبع، كثرة النوم.
- * إطالة التدبر والتفكير في القرآن تعرفك بستة أشياء: الرب المدعو إلى عبادته، وطريق الوصول إليه، ما له من الكرامة إذا قدم عليه، والشيطان وما يدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب.
- * الحياة الحقيقية هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن عاشوا.

* القرآن شفاء للقلوب من الشهوات والشبهات، وشفاء للأبدان من الآلام والأسقام.

* الخشوع خشية من الله تداخل القلب، وتظهر آثارها على الجوارح بالسكون والانخفاض والطمأنينة.

* علماء الإسلام يقومون مقام أنبياء بني إسرائيل؛ لأنهم قوامون بالقسط شهداء لله، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

* لم يكن العالم في يوم من الأيام بعد مبعثه ﷺ أحوج إلى أن يحيا بالقرآن منه في هذا الزمان.

* * *

وقفات مع آية الولاية

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد:

بفضل الله تعالى وتوفيقه نكمل شرح الحديث العظيم الذي ذكره الإمام الشارح ابن رجب ضمن حديثه عن الولاية، وهو حديث الولي الذي ذكرنا طرفاً منه والحكم فيه، وقرأنا طائفة من شرح الإمام الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى، وكان آخر ما وقفنا عنده، هو ما كان يتحدث عنه الحافظ ابن رجب رحمته الله من أوصاف الذين يحبهم الله ويحبونه، بعد أن تحدث عن الفرائض التي تقرب إلى الله تعالى، وذكر الآية، وهي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرْنَدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال الشارح رحمته الله: «من فاته الله، فلو حصلت له الجنة بحذافيرها لكان مغبوناً». وهذا كلام عظيم لا يقدر قدره إلا من عرف الله تعالى، وعرف قدر الله، وعظم الله حق تعظيمه وقدره حق قدره.

يقول: «من فاته الله، فلو حصلت له الجنة بحذافيرها، لكان مغبوناً - على فرض أنها الجنة - فكيف إذا لم يحصل له إلا نزر حقير يسير من دار كلها لا تعدل جناح بعوضة».

هذه الدار التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١)، فكلها لا تعدل جناح بعوضة، ويستمتع فيها الكفار من قديم الزمان إلى نهاية هذه الدنيا، فكم نصيب الكافر الواحد من هذه الدنيا، كلها التي لا

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٩٢).

تعادل جناح بعوضة؟

نسبة عجيبة جداً لو تأملها الإنسان بذهنه وخياله، فهذا أثرها على الله والدار الآخرة، وباع حظه من الآخرة، وحظه من محبة الله، ومعرفته بهذه الفانية العاجلة الحقيرة التافهة.

ثم قال: «ثم ذكر وصف الذين يحبهم الله ويحبونه»، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرِّدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، فذكر الله صفات هؤلاء وهي: أولاً: أنهم يحبهم الله، ويحبون الله.

ثم أتى بالوصف الثاني لهؤلاء المحبين «فقال: ﴿أَذَلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، يعني: أنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني: أنهم يعاملون الكافرين بالعزة والشدة والغلظة، فلما أحبوا الله أحبوا أوليائه الذين يحبونه، فعاملوهم بالمحبة والرافة والرحمة، وأبغضوا أعداءه الذين يعادونه؛ فعاملوهم بالشدة والغلظة كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] والوصف الآخر هو أنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم.

ولو تأملنا هذه الآية لوجدنا أنها بينت آيات الولاية؛ فإنه أول ما ابتدأ هذا المقطع والموضوع من الآيات ابتداء بقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ثم جاءت آية، ثم هذه الآية، ثم بعد أن أكمل هذه الآيات ذكر آية الولاية، وذكر أوليائه الله، وأنهم حزب الله، فقال: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ثم حذر بعدها، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلِعِبَاءَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، إذن: قبلها آية التحذير، وبعدها آية التحذير من اتخاذ الكفار أوليائه، فبين التحذيرين من موالات الكفار. تأتي صفة المؤمنين الذين يستبدل بهم الله تعالى من يترك دينه، ويعرض عنه، ويرتد، ويتخلى عن القيام

بحمل هذه الدعوة، والوفاء بعهد الله وميثاقه في نصرته هذا الدين، وحمل ميراث النبوة، ورفع لواء سنة رسوله ﷺ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذروة ذلك الجهاد في سبيل الله ﷻ.

عاقبة الأمة التي تختلف فيها هذه الصفات:

فإما أن تكون الأمة المؤمنة التي أمر الله بها في قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٤]، ترفع لواء الجهاد في سبيل الله، وتنصر الحق موجودة أو لا توجد، أو ترتد كما ارتدت طائفة كانت تدعي ذلك، فإن الله تعالى لن يضيع دينه، وسوف يأتي بقوم آخرين، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، فيأتي الله تبارك وتعالى بقوم هذه صفاتهم.

وهذا دليل على أن الأمة التي تختلف فيها هذه الصفات - هي أمة متروكة مخذولة ليست من أولياء الله، بل يتخلى الله عنها ويعاقبها بما يشاء، ويسلط عليها أعداءها، ويسلط عليها الفرقة فيما بينها، فيشتت جمعها، ويذلها بمن يشاء من عباده المؤمنين أو الكافرين، فيبتليهم بالخوف، ويبتليهم بالجوع، وبما ذكر من المصائب والعذاب الذي حلَّ بالأمم السابقة، أو كما يشاء، ويأتي بالبديل، وهم القوم الذين هذه صفاتهم.

صفة الذلة على المؤمنين:

لما كان هذا الموضوع -موضوع الولاية- بهذه الأهمية، والتحذير عن موالة الكفار بهذه المثابة وبهذه المنزلة ذكر من صفات المؤمنين الذين يأتي بهم الله تعالى عوضاً عما ارتد عن دينه، فذكر من صفاتهم أنهم أذلة على المؤمنين، كما علل الشيخ رحمه الله بأن هؤلاء يحبون الله، ويحبون رسول الله ﷺ، ويحبون الدين، فمن كان من أهل الدين والإيمان، من أهل محبة الله، من عباد الله الصالحين، ومن أهل اتباع رسول الله ﷺ - فإنهم أذلة معه، يعاملونه باللين والرحمة والشفقة وخفض الجناح؛ لأنهم ينظرون

إلى دينه، وإلى محبوبه، وإلى غايته وهمه ومراده وهو الله واتباع رسول الله ﷺ؛ فيعاملونه بمقتضى ذلك، فهو أخوهم وحبیبهم، وخليتهم وقريبهم، حتى لو أخطأ عليهم فإنهم يعفون عنه ويتجاوزن، ولا يغفلون عليه لقوة صلته بالله ومحبته له، ومن أحب الله حقاً فإنه لا بد أن يحب كل من أحب الله من الأحياء أو من الأموات.

حتى لو أنك فتحت كتاباً من كتب التاريخ - أي كتاب - فوجدت سيرة رجل عالم عابد داعٍ إلى الله، أمرٍ بالمعروف، ناهٍ عن المنكر - أحببته وليس بينك وبينه أي صلة، وقد يكون من بلاد الهند، أو الترك، أو أطراف الدنيا، لكن لما وجدت سيرته بهذه الحال فإنك تحبه، وترحم عليه، وترضى عنه، وتسال الله تعالى أن يكثر من أمثاله في هذه الأمة.

وكذلك لو لم يكن هناك أي رابطة إلا أن الإنسان المؤمن يقرأ عن الماضين أو المعاصرين في أقاصي الدنيا، أن رجلاً منهم هذا حاله وشأنه من البعد عن الله أو محادة الله ورسوله وارتكاب ما حرم الله - فإنه يبغضه.

إذن: هذا أمر يكون في قلب كل مؤمن، ودرجته ومقداره تكون بمقدار إيمان الإنسان ومحبته لله، فكلما عظمت محبة الله تعالى في قلب العبد المؤمن عظمت محبة أولياء الله وأحباب الله، فيكون خافضاً للجناح ذليلاً أمامهم، ولاحظوا كلمة (ذلة) والذل هل هو صفة محبوبة عند الإنسان أو مكروهة؟ إنها مكروهة فلا يوجد أحد يريد لها، أو يتمناها، ولا يصف بها إخوانه، ولا يصف بها أحداً ممن يحب، ومع ذلك جاءت هذه الصفة في وصف هؤلاء، ولم يقل رحماء، وقد قال في الآية الأخرى عندما وصف الصحابة فيما بينهم: ﴿رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، لكن عندما ذكر شروط هؤلاء القوم جاء بوصف أبلغ من مجرد الرحمة وهو الذلة؛ لأنك قد ترحم إنساناً، لكن أن تكون ذليلاً له فهذه مرحلة أعظم من ذلك، فهذا دليل على أن هذا الشرط مهم، ودقيق، وضروري، ولا بد منه لمن يريد أن يكون من هؤلاء القوم.

وعليه: فإذا وجدت إنساناً غليظاً على المؤمنين، شديداً على الصالحين، عنيفاً

على المتقين بأي سبب؛ حتى لو يرى أنهم ظلموه في دنياه، أو خالفوه في رأي، أو فتيا - فاعلم أنه فقد صفة أساسية من هذه الصفات، ولا يمكن أن توجد الولاية أو المحبة لله ﷻ إلا مع وجودها، ولا بد من ترك ما يضادها.

العزة على الكافرين:

إذا كان الإنسان ذليلاً للمؤمنين، وفي المقابل مع الكافرين عزيزاً غليظاً عليهم - فقد حقق الشرطين، وهذا لا يتعارض مع العدل، ولا يعني الغلظة على الكافر أنه ظالم للكافر، بل هو العدل؛ ولذلك نحن عندما نجاهدهم فإننا نجاهدهم لأن الجهاد عدل، ونجاهدهم ونغلظ عليهم كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ قال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩]، وقال: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذه الغلظة من العدل، وليس فيها اعتداء، بل هي حق لا تعني الظلم، ولا تعني البغي، حتى ونحن نجاهدهم فإننا لا نقتل إلا من أمرنا الله بقتله، ولا نقتل من نهانا النبي ﷺ عن قتله، ففي كل أمورنا نحن مقيدون بالعدل وبالقسط وبالحق.

إذن: هذا لا يتعارض مع العدل، والغلظة أن يرى عدو الله تعالى منك ما يغيظه، ويكدر أمره، إما بكلمة غليظة، ولا نعني بكلمة غليظة أن الإنسان يسب أو يشتم، وإنما بالقوة في الحق والموقف، وإما عملاً يسيء إليه، كأن تهدم ما بيني هذا الكافر، وتحبط عمله، وتجتهد في رد كيده، وإفشال سعيه.

وأما إن كان أعلى من ذلك كمن يريد بالإسلام والمسلمين حرباً، فتحاربه وتقاتله، وتقتله إذا لم يكف شره إلا بذلك، وإذا لم يخضع لحكم الله، ويدفع الجزية؛ فإنه يقاتل حتى يقتل.

الخلل في تحقيق هاتين الصفتين:

هاتان الصفتان لا بد أن تكونا مقترنتين، ولذلك كان أكبر خطأ يخطئ فيه كثير من الناس أنهم يغلظون على المؤمنين، من أغلظ على المؤمنين فإنه يؤدي به الأمر إلى أن يتساهل مع الكافرين، وهذا أمر يجده كل إنسان من نفسه، فالله ﷻ جعل في نفس

الإنسان هذان العاملان:

أحدهما: الحب، ومقتضاه: اللين، والرافة، والرحمة، والذلة.

والآخر: البغض، ومقتضاه: العنف، والقسوة، والشدة، والمقاتلة... إلخ.

فلو أن الإنسان أخطأ في أحدهما فإنه يخطئ في الآخر لا محالة، فتجد بعض من يلين القول مع الكفار يغلظ على المسلم، فإذا تعامل مع الكفار، ووادهم، وأحبهم، وخالطهم بحيث إذا جاء إنسان وتكلم في الكفار، وحذّر منهم، وبيّن أنهم أعداء الله - أغلظ وأنكر عليه.

وكذلك لو أنه أغلظ على إخوانه المؤمنين، وكان شديداً عليهم، فإن هذا قسط من عداوته للكافرين صرفه وحوله إلى إخوانه المؤمنين.

فتجد من شغله الله بالطعن والعيب والعداوة للمؤمنين لا يجد وقتاً، ولا تجده يفرغ للطعن والحرب والعداوة لأعداء الله الكافرين؛ ولذلك يجب على المؤمن أن يحفظ هذا الميزان الدقيق، وأن يجعل نفسه كما أمر الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] يجب أن نأخذ هذه الكلمة بكل ما تحمله من معنى، وليس في ذلك غضاضة، فإن ذل المسلم لأخيه المسلم عزّ له عند الله ﷻ، وهذا يورثه الدرجة العليا، وهي أن يكون ممن يصطفاهم الله ﷻ، فأنت لا تنظر إلى أن أخاك المسلم أخطأ عليك، أو أخطأ في اجتهاد ترى أنه خالفك فيه، بل انظر إليه: هل هو ممن يحب الله ورسوله فتجتمعان في محبة الله أم لا؟

ومن عادة الناس في أمور دنياهم أنهم إذا كان أحد منهم يحب أحداً فإنه يستشفع إليه بمن يحب، حتى ولو كان بينه وبين الرجل أي مشكلة فيعضو عنه؛ لأنه تشفع له من يحبه ذلك الرجل.

محبة الله ورسوله فوق كل محبة:

وهل هناك من يُحب أعظم من الله ﷻ، فكل محبوب في هذه الدنيا تحبه فيجب

أن يكون الله أحبَّ إليك منه، لماذا؟ لأنك إن أحببت الوالد، فمن الذي خلق الوالد والوالدة؟ ومن الذي سخرهما لك؟ ومن الذي حفظهما لك حتى ربياك؟ ومن الذي أودع في قلوبهما الرأفة والحنان والشفقة بك؟ إنه الله.

لو أحببت الزوجة، فمن الذي خلقها؟ ومن الذي أعطاه الصفات التي أحببتها من أجلها في خَلْقِها أو في خُلُقِها؟ ومن الذي سخرها لك؟ إنه الله.

وقد تحب شيخك، أو معلمك، أو أستاذك، فمن الذي أعطاه العلم؟ ومن الذي سخره ليعلمك؟ ومن الذي عقد بينك وبينه هذه المحبة؟ إنه الله.

إذن: كل من تحبه في هذه الدنيا، وتقدره، وتعظمه، فالفضل أولاً وآخرًا لله تعالى، فوجب أن تحب الله أكثر من محبتك لهؤلاء جميعًا؛ ولهذا أشد محبة يجب أن يحبها الإنسان هي محبة الله ورسوله ﷺ.

ولما قال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: والله يا رسول الله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي - هل أقره النبي ﷺ؟ لا، قال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من كل شيء حتى من نفسك»، قال: الآن يا رسول الله! أنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي (١) وهذه حقيقة الإيمان؛ لأن من كان يريد أن يكون في مثل درجة عمر، فلا بد أن يصل به الحال إلى هذا المستوى، ألا يحب، وألا يؤثر على محبة الله ورسوله ﷺ أي شيء؛ حتى نفسه التي بين جنبيه؛ لأن هذه النفس إنما جاءها الخير والصلاح والهدى من غيرها، وإلا فمن أين جاءنا الخير والصلاح والهدى؟ من أين الوسيلة التي نصل بها إلى النعيم الأبدي الخالد عند الله ﷻ؟ إن ذلك كان من طريق رسول الله ﷺ.

من لوازم محبة الله ﷻ:

يجب أن يكون الله ﷻ أحب إلينا من أنفسنا إن أردنا أن نكون من أهل الدرجة العليا، وهكذا هي محبة الله تعالى، والذلة للمؤمنين والغلظة على الكافرين شرط في

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

حصول ذلك، كما ذكر الشيخ -رحمه الله تعالى-، ولذلك عَقَّبَ على الغلظة بالجهاد، كما قال تعالى: ﴿بِحَبْهُدٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

يقول: «فإن من تمام المحبة مجاهدة أعداء المحبوب».

إذا كنا نحب الله، فكيف نرضى ونسكت عمن يقول: إن الله تبارك وتعالى ولد؟ كما قال ذلك اليهود والنصارى، وكيف نرضى عن قول اليهود كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]، وعندما يقول اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَعِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وعندما يكذبون رسل الله، وعندما يدعي النصارى أن الله ولداً، وتعالى الله وتنزه عن هذا القول المنكر المفترى العظيم، الذي تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدأً، فهكذا يقول النصارى واليهود.

والمشركون يعبدون مع الله حجارة وأصناماً، ويظنون أنها تقربهم من الله، وأنها واسطة بينهم وبين الله، فحق الله الذي خلقهم ورزقهم يصرفونه إلى هذه الحجارة، وهذه الأوثان والأشجار والقبور، وغير ذلك، وهذا أمر عظيم، فمن عرف الله، وأحب الله، فإنه يجب عليه أن يتقرب إلى الله بقتال هؤلاء -أعداء الله- الذين تركوا عبادته والإخلاص له الذي أمرهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ حُفَّتْ أَعْيُنُهُمْ وَالصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فتركوا ذلك، وذهبوا إلى عبادة غير الله، والافتراء على الله، وأدعوا الله تعالى ما ليس له.

وأقول: -والله المثل الأعلى- هل يعقل أن تحب أحداً من الناس وتقول: أنا أحبه غاية المحبة، ولا تعادي من يفترى عليه أعظم الافتراء، وبهتته أعظم البهتان؟ مستحيل، حتى إن الواحد من الناس يقال له: ألم يكن فلان حبيبك؟ فيقول: نعم، هو حبيبي وأخي، لكن لما رأيته أبغض فلاناً، وافترى عليه، وكذا وكذا كرهته. فلسان حاله يقول: ليس بيني وبينه أي شيء، لكنه أبغض من أحب، وكذَّبَ على من أحب، واتهم من أحب، وأبطل حق من أحبه محبة عظيمة؛ فكانت العاقبة أن أقطع ما بيني وبينه.

إذن: هكذا المؤمنون؛ لو أحبوا الله تعالى حق المحبة لعادوا الكافرين أشد العداوة، وأحبوا المؤمنين أشد المحبة، ومنتهى العداوة أن يجاهدوا باليد بعد المجاهدة بالبيان، يجاهدوا باللسان مع إقامة الحجة عليهم بالدعوة والبرهان، ويتنقلون معهم من حال المجادلة إلى حال المجادلة، وهذا لا بد منه؛ ولذلك تأتي هذه الصفة كأنها صفة لازمة.

فإنك لو تأملت السياق: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهل المحبة صفة لازمة أو عارضة للمؤمن؟ لا شك أنها لازمة، وكذلك قوله: ﴿أَذَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، هل هي لازمة أم عارضة؟ أيضًا لازمة وثابتة، إذن يجاهدون في سبيل الله لازمة، لماذا؟ لأنه من المستحيل أن تكون بهذه الدرجة، وأن تدعو إلى الله، ولا تجاهد في سبيل الله؛ فلا بد من المجاهدة.

هذه الأمة في مجموعها لا بد لها أن تجاهد؛ لأن من سنة الله تعالى أنه ما قام أحد بأمر هذا الدين إلا عودي، وهذا ما علمه النبي ﷺ من ورقة بن نوفل، فأول ما نزل عليه ﷺ الوحي، لم يكن قد قرأ عن أخبار الأنبياء من قبل، ولا علم ولا عرف ما ابتلوا به، فأتت به خديجة بنت الخويلد إلى ورقة بن نوفل، وكان رجلاً كبيراً قد أسنَّ، فذكرت له ذلك، فقال للنبي ﷺ: يا ليتني أكون فيها جذعاً إذ يخرجك قومك فأنصرك نصراً مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي ومات، فتعجب النبي ﷺ عندما سمع ذلك فقال: «أو مخرجي هم؟»^(١). لماذا يخرجونني؟ ﴿أَقْرَأَ بِأَسْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، هل فيها شيء يتطلب الإخراج أو الأذى؟ فقال له ورقة: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وهو لا يعلم الغيب، ولكنه يعلم أنها قاعدة وسنة ماضية للرسول من قبل؛ لأنه يقرأ لأهل الكتاب أنه ما جاء نبي من الأنبياء، ودعا إلى الله إلا عودي وحورب وأوذي؛ فمنهم من قتل، ومنهم من طرد، أو أوذي، أو حبس، أو... إلى آخره.

فلا بد من نوع من الأذى والابتلاء يصيب الداعية إلى الله؛ ولهذا يقول الله تعالى

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

لعبدته ورسوله ﷺ: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]، فليس فيه جديد ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلْجُورٌ أَوْ يَجْنُونُ ﴾ (٥٤) [الذاريات: ٥٤] نفس العبارة ﴿ اتَّوَصَّوْا بِهِ ﴾ [الذاريات: ٥٣] هل كتب قوم نوح وثيقة وقالوا: يا عاد، إن بعث إليكم رسول يقول لكم: اعبدوا الله. فقولوا له كما قلنا؟ وهل كتبت عاد إلى ثمود إذا جاءكم، وبعث فيكم رجل ودعاكم إلى مثل ما دعانا إليه هود فقولوا له كما قلنا؟ أبداً.

لم يتواصوا به، إنما هي سنة واحدة، الطغيان واحد، والإعراض واحد، والرد واحد؛ لأنه كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٦١) [الفرقان: ٣١]، إذن: ما دام الأمر كذلك فكل من تصدئ لهذا الدين لا بد أن يجاهد.

الطائفة المنصورة:

الطائفة المنصورة الموعودة بنصر الله تعالى من صفاتها أنهم يجاهدون، ويقاتلون في سبيل الله، كما في الروايات الصحيحة « لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم » (١).

أقسام الناس تجاه الطائفة المنصورة:

والناس تجاه الطائفة المنصورة على قسمين:

الأول: أعداء؛ فهؤلاء يقاتلون.

الثاني: طائفة أخرى يقرون ويوافقون الطائفة المنصورة، لكنهم يخذلونهم ولا يعاونونهم، فهاتان ليستا من الطائفة المنصورة.

الدعوة والجهاد من صفات الطائفة المنصورة:

الطائفة المنصورة تدعو، وتأمرو، وتنهى، وتجاهد، فمن خذلهم فليس منهم، ومن قاتلهم فهذا عدوهم، ومن المستحيل أن يكون منهم.

ومن العقبات السبع التي ذكرها ابن القيم رَضِيَ اللهُ الْعُقَبَةَ السَّابِعَةَ: عقبة المراغمة،

(١) تقدم تخريجه.

والمراغمة هي الجهاد، فلا بد منه، فعندما ذكر العقبات مثل: عقبة الشرك، وعقبة الكبائر فإنه يوجد لله عباد لا يرتكبون الكبائر، لكن العقبة التي لا يستطيع أحد أن يتداركها أو يتجاوزها هي المراغمة، لا بد أن يسلم الله تعالى عليه عدوًّا أو يسخر من يعاديه ومن يؤذيه.

ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله عن نفسه في «الفوائد» قصة سلمان الفارسي عندما قال له أبوه: إما أن تعود إلى ديننا أو القيد. فقال: «هذا هو الخطاب الذي قالته الأمم لأنبيائهم من قديم» قال الإمام: «وهو الخطاب الذي حُوطب به الإمام أحمد عندما رفض القول بأن القرآن مخلوق، وهو الخطاب الذي قيل لابن تيمية شيخنا شَيْخ الإسلام رحمه الله، وهو الخطاب الذي قيل لنا».

فهذا لا بد منه، وهذا هو الجواب الأخير: إما أن يعود في ملتهم وإما يناله من الأذى ما يستطيعون: رجماً، أو طرداً، أو إخراجاً، أو أذى، وربما وصل الحال كما فعل بأصحاب الأخدود، هذا شيء عجيب، وحالة نادرة أن يصل الأمر إلى أن يُحرق المؤمنون، ويرجع الملك إلى ملكه، وتبقى الأمور مستمرة، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أنه لا بد من هذا، كما قال: ﴿يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فيه معاني حكيمة وعجيبة، وكل القرآن فيه ذلك لمن تدبره وتأمله، لكن قوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]، ووصفهم بأنهم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، كلها صفات نستطيع أن نقول: إنها معروفة، لكن لا بد منها وهي ضرورة للإنسان المستخلف الذي يريد أن يمكنه الله تعالى وأن ينصر به دينه.

الخوف من قول الحق:

لكن قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، كثير من الناس لا يمنعه من قول الحق، أو السير في طريق الدعوة والاستمرار فيه إلا لوم اللاتمين، فإن كان قريباً أو

صديقًا أو محبًا قال: يا فلان أنا أحبك، وأعزك، وأشفق عليك، ولا أريد أن تؤذي، ولا أريدك أن تهان، ولا أريدك أن تُخذل، أريدك أن تقعد محترمًا. وفعلاً قد يكون يحبه، ولكن هذا من لوم اللائمين.

وآخر قد يقول له أبوه أو أمه: تريد الجهاد، أخاف عليك أن تموت فمن يبقى لنا؟ أين نذهب من بعدك؟... إلخ.

وهذه حرب أخرى تسمى في مصطلحات الناس اليوم: الحرب النفسية، وحرب الأعصاب، والمهم أن هذا اللوم من المهم جداً أن يتجنب، وقد يقال لك: ألا يوجد إلا أنت حتى تقاتل الكفار وتجاهد؟ وأنت تريد الجنة، كلنا نريد الجنة! ونقاتل، وندعو، ونأمر، وننهي، ولو أوديت أو عذبت لصبرت لكن المشكلة هي في أن يأتيك اللوم.

واللوم ليس شرطاً أن يكون من العدو؛ لأنه لو كان من العدو فلن يؤثر، لكن المشكلة إذا جاءك من المحب، ومن الموافق، وفي صورة الناصح المشفق الحنون الدءوب على مصلحتك، لكنك لو أطعته لتركت أمر الله تعالى، وتركت الجهاد في سبيل الله، ونزلت عن الدرجة التي يريدتها الله تعالى لك؛ فالله تعالى يصطفي هؤلاء الأصناف بدرجة عالية عظيمة المقام، كمقام الأنبياء، بحيث يقفون ويقومون مقام الأنبياء، ويرثون ميراث النبوة، ويدعون إلى الله، هذه الدرجة العظيمة ينزلك عنها، نعم هو لا يريد أن يخرجك من الدين، ولا يريدك أن تترك الحق والخير، لكن ينزلك عن هذا المقام إلى مقام بعيد بالنسبة لهذا، وإن كنت من المؤمنين، ومن الأخيار، ومن الصالحين الذين هم على خير ويدخلون الجنة، لكن ليس هذا هو الغرض الذي أنت تريده، ولا هو الشرط أو الصفة التي يريدتها الله ﷻ فيمن يريد أن يمكنه وأن يستخلفه، وأن ينصر به دينه ويظهره.

لماذا لا يخاف الإنسان في الله لومة لائم؟:

لا بد أن يهتم الإنسان دائماً بهذا الجانب: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولا يخاف أبداً ما دامت أعماله حقاً، وبميزان الكتاب والسنة.

فالصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - كانوا دائماً يتحرون الحق حتى في الأمور المندوبة، وفي السنن المستحبة، ويعلل أحدهم ذلك بأني لا أخاف في الله لومة لائم.

أقول: هذه الجملة من الآية من المهم جداً لطلبة العلم أن يتدبروها، يقول ابن رجب رحمته الله: «فإن من تمام المحبة مجاهدة أعداء المحبوب، وأيضاً فالجهاد في سبيل الله دعوة للمعرضين عن الله إلى الرجوع إليه بالسيف والسنان، بعد الدعاء إليه بالحجة والبرهان، فالمحب لله يحب اجتلاب الخلق كلهم إلى بابه»، كما قال بعضهم: وددت لو أن لحمي قُرص بالمقاريض، وأن أحدًا لم يعص الله عز وجل.

وهذا من غيرته على دين الله، وغيرته أن تنتهك حرمان الله، ومن تعظيمه الله، ومن محبته لله لا يريد أن أحدًا يغضب الله أو يتعدى حدود الله، فيؤثر أن يقرض بالمقاريض ولا يعصى الله عز وجل.

فالمحب لله يحب أن يكون الخلق كلهم عبيداً لله طائعين له، ولا يرضى أن أحدًا منهم يعصى الله أو يتجاوز حدوده، قال: «فمن لم يجب الدعوة إليه باللين والرفق احتاج إلى الدعوة بالشدة والعنف: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»^(١).

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، لا همّ للمحب غير ما يرضي حبيبه، رضي من رضي، وسخط من سخط».

وابن رجب عاداته كعادة ابن القيم يتكلم بروحانية وبشفافية، يأتي بأساليب وعبارات أدبية، ثم يستشهد بالشعر، وكأنه لا يتكلم بكلام الفقيه أو المؤصل لأنها لا تكفي، فينتقل إلى واحة الشعر والأدب، ويبدأ يعبر هذه التعبيرات الأدبية الجميلة، ويقول: «لا همّ للمحب غير ما يرضي حبيبه رضي من رضي، وسخط من سخط، فمن خاف الملامة في هوى من يحبه فليس بصادق في المحبة، ثم أتى بهذه الأبيات:

(١) أخرجه البخاري (٣١٠).

وقف الهوى بي حيث أنت فليس متأخر عنكم ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليلمني اللوم

«وهذه الأبيات يقول فيها بعض الناس: إنها أبلغ أبيات قالتها العرب في الحب، وهذه الأمور ذوقية، وقد ترى أنت أن غير هذا أبلغ، لكن يقال في حق هذه الأبيات أو هذه القصيدة: إنها أبلغ ما قيل في المحبة وفي الحب: ثم قال في البيت الآخر:

وأهنتني فأهنت نفسي جاهداً أين المهان لديك ممن يكرم
أي: من أجلك أهنت نفسي، ثم قال:

أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليلمني اللوم

كل من يلوموني أفرح؛ لأنه يلوموني في حبك، فهم يذكرونني بك، كما يقول:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أي خطرت ببالك

وهذه قالها أحد شعراء الهوى، يقول: كلما يقولون عنك أنك لا تحبني، أنا أفرح به؛ لأن المهم عندي أي خطرت ببالك، فانظر إلى هذا الحب العظيم العميق، سبحان الله! لكن كيف يكون شعور المؤمن إذا ذكر الله فإنه يستشعر أن الله يذكره، كما يقول الله ﷻ في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي». الله أكبر! جبار السموات والأرض سبحانه الغني الحميد الذي يقول: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، ويقول: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] - يقول: «إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي». أي: حبيب في الدنيا كهذا، وبدون واسطة يعلم أن هذا ذكره، ثم قال: «وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه»^(١) فمهما تخيلت من ملا في الدنيا، فالملا الأعلى - المقربون عند الله تعالى - هم خير من هذا؛ ولهذا لما قال النبي ﷺ للصحابي أبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك، قال:

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

أو قد سمانى الله ﷻ وذكرني باسمي، قال: فبكى» (١).

هكذا يكون المحبُّ المحبَّة الحقيقية، أما أهل الهوى فيقولها في حق المحبوب. فالعملية واحدة، والتضحية واحدة، والتعلق والتعب والمشقة لا بد منها؛ ولذلك لا تجد أحدًا حتى من أكثر الناس تطفلاً على الحب - كما يسمونه - وعلى الغزل، إلا ويكتب: الحب عذاب على سيارته، وعلى أوراقه، وعلى كتاباته، فما دام عذابًا فلا تتعذب من أجل أي شيء، بل ينبغي إذا أحببت شيئًا، وتعبت من أجله، فليكن من مَنْ يستحق ذلك الحب، ولا شيء يستحق أن يُحب على الحقيقة إلا الله ﷻ، ومن والاه ﷻ؛ فهذا يقول العلماء الربانيون، ومن يعرفون الله ﷻ: إن مثل هذه الأبيات التي تقال في حق المحبوبين - لغير الله - لا يليق أن تقال لغير الله ﷻ.

مثلاً: أبو فراس له أبيات عظيمة جداً في الحب، يقول:

فليت الذي بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

فهذا كلام عظيم جداً، لكن لمن تقول هذا يا أبا فراس؟ كتب الرسالة إلى سيف الدولة، وسيف الدولة ابن عمه وكان يحبه؛ لكن لما اختلفا على الملك تقاتلا، فكتب له هذه الرسالة، وكم تقاتل من إخوة وآباء وأبناء على الملك والدينا، إذن لا يستحق أحد أن يكون الذي بينك وبينه عامر ولو خرب ما بينك وبين العالمين، وأن تراقب وتراعي رضاه، ومحبته، ورغبته، وما عدا ذلك فكل ما فوق التراب تراب إلا الله ﷻ فقط، أما ما عداه فلا، ولو دقت النظر فإنك تجد أن هذا الكلام يقال على سبيل المبالغة التي لا تصل إلى درجة الحقيقة.

لكن بالنسبة لله ﷻ يمكن أن يكون وأن يوجد على الحقيقة.

الانحراف في مفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

وهنا مدخل للصوفية الذين يكثرون من هذه الأشعار، ومن هذه الدعاوى، فإن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ومن بعدهم من الصالحين حققوا هذه المحبة على الحقيقة عملاً في قلوبهم وأحوالهم، أما الصوفية فادعوها دعوى -فقط- بغض النظر عن الزندقة، والكذب، ودعوى المحبة التي ليست إيمانية، ولو نظرنا إلى من يتكلم بهذه المحبة والوجد والهيام والشوق لوجدناها كلها دعاوى، وأشعار تُقرأ وتشد ويكفى عند سماعها، أما حقيقة هذه الأشعار والأذواق والأوجاد فقد عاشها الصحابة رضوان الله عليهم حقيقة، والتابعون، وأولياء الله العباد الصالحون، وإن لم يتمثلوا بها شعراً.

فهؤلاء الصوفية مثل الذي يتكلم ويتغزل بمحبوبته، والآخر مثل الذي حصل على ما يحب، وبذل، وأعطى، وأنفق، وأكرم حبيبه، وضحي من أجله بالفعل، هكذا الفرق بين هذا المتمني من بعيد، وبين الذي يحب ويدفع ويبذل ويضحى وإن لم يقل بيتاً من الشعر في هذا المحبوب.

فهذه الآيات إنما تليق بالله تعالى، على تعديل بعض العبارات أحياناً، فقوله:

وقف الهوى بي حيث أنت

يجب أن تقف رغبتك ومحبتك وميولك حيثما كان أمر الله ورسوله ﷺ، فلا تكون متقدماً عنه ولا متأخراً، هذا الذي يليق بك أن تكون، لا تغل فتزيد من عندك في الدين ما ليس منه ولا تقصر؛ لأن السنة -كما قال الحسن-: «وسط بين الجافي عنها والغالي فيها» فلا تتقدم ولا تتأخر عن ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثم قوله:

أجد الملامة في هواك لذيدة

نقول: يجب على الإنسان المؤمن أن يجد الملامة في محبة الله، وفي طاعة الله لذيدة.

وقوله:

حباً لذكرك فليلمني اللوم

فليلم اللوم، وليقولوا ما شاءوا، لماذا؟ لأن غاية ما يقولونه هو نفس ما ذكره شعراء الغزل:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا: إنني لك عاشق

أي أنه يقول: دعهم يسبوني وليقولوا: إنني عاشق، فهذا شيء أنا أفتخر به، وهذا المعنى أولى أن يحققه المؤمن؛ لأنه ماذا عسى أن يقول الناس فيك، إلا أنك محب لله، تجاهد في سبيل الله، وتدعو إلى الله؟ فليكن ذلك، وهل هناك شرف أفضل أو أعظم من هذا؟ هذا هو التعرض للوم الحقيقي.

وتعلمون أن طائفة من الصوفية سمت نفسها الملامتية، وألف فيهم أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي المعروف كتابًا مطبوعًا - وإن كان قليل التداول - سماه الملامتية، وهؤلاء الملامتية لماذا سموا بذلك؟ لأنهم يقولون: افعل أي شيء تلام عليه، واحرص واجتهد؛ لكي يلومك الناس من أجل العبادة، وكما يقول بعضهم: اذكر الله حتى يقال: إنك مجنون، اتركهم يلومون ويقولون مجنون، وقد ووصل الحال ببعضهم إلى أن يشبه المجانين، حتى إن بعضهم - نسأل الله العفو والعافية - غلا في ذلك فأصبح يرتكب بعض المحرمات وهو يعلم أنها محرمة؛ حتى يلومه الناس وحتى يسقط من أعينهم.

فهذا فهم ضال في اجتناب الرياء، واجتناب الغرور، أو الاغترار وتعظيم الناس، فانظروا كيف الأدواء النفسية صعبة جدًا، والواحد لا يستطيع أن يعرفها، حتى قيل: إن أولياء الله وعباد الله من الصوفية إنما هربوا وفروا عن القضاء، وعن العلم، وعن مجالس الفتيا، وعن التبحر في المسائل، وعن التقرب إلى السلاطين، حتى يجتنبوا الناس، ويجتنبوا الدنيا، ويجتنبوا الاغترار والعجب؛ فلبسوا الثياب المرقعة؛ وأخذوا يأكلون مما يعطيهم الناس من أبسط العيش، وعاشوا بعيدين عن الناس، فسلموا من هذا.

ولكن تدرج الحال فأصبح الناس لا يعظمون القاضي لكونه قاضيًا، أو الفقيه

لكونه فقيهاً، إنما يعظمون من يسمونهم أولياء الله، فإذا وجدوا إنساناً في زاوية من زوايا المسجد يذكر الله، ويسبح، ويقرأ القرآن، وثيابه رثة عظموه، وأكرموه، وأجلوه، وقالوا: ادع الله لنا. وتمسحوا به، وتبركوا به، وأينما ذهب يتبعونه، فقالوا: إذا كان أن الأمر كذلك فالحل أننا نخالف مراد الناس، فنفعل أفعالاً يحقرها الناس، ويتركونا من أجلها، حتى إن بعضهم كان يمشي في السوق فما وجد وسيلة ليصرف الناس عنه - لأنهم كانوا يمشون وراءه ويعظمونه - إلا أن سرق جوزاً من السوق وأخذ يأكلها فكرهه الناس، وقالوا: هذا ليس ولياً، فتركوه وتفرقوا عنه.

فيقول أصحاب الملامتية، أصحاب المنهج الضال، الذين يعالجون الضلال بالضلال والخطأ بالخطأ: يجب على الإنسان أن يتعرض لما يلام عليه، وأن يعمل أعمالاً يلام عليها، فيسلم من العجب والرياء والغرور وما إلى ذلك.

المفهوم الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله - وهو من أعطاه الله من الفقه والحكمة -: «عجباً لهؤلاء، أطع الله تجد من يلومك». أي: لا تحتاج أنك تعصي الله حتى يلومك الناس، أطع الله، واتق الله، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر؛ تجتمع الدنيا كلها عليك لوماً.

فقد ليم الإمام أحمد، وتعرض للوم أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية، فأوذي وعُذِب وسُجِنَ وشُهِرَ به، وكُفِّرَ وضُلِّلَ وبُدِّعَ، كل هذا تعرَّضَ له؛ لأنه استقام.

فيقول: ليس هذا حقاً، بل استقم على دين الله، ومن غير أن تطلب اللوم فسوف تلام، وعندها يجب عليك أن تصبر، أما أن تخالف شرع الله من أجل أن تلام فتحسب هذا اللوم، أو تخالف حتى يدفع عنك الغرور والعجب، فهذا مخالف لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ فإنهم استقاموا على دين الله، ولا مهم الخلق وعُذِّبوا، وأوذوا، واضطُهِدوا، حتى أقرب الناس إليهم لا مهم، فهذا أبو طالب يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن قومك فعلوا كذا، وعرضوا كذا. وقالوا كذا، فلم يأبه بذلك النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن: أنت استقم على الدين، وافعل الخير، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر وسيأتيك اللوم، وحينئذ لا تأخذك في الله لومة لائم؛ لأن هذه الصفة، هي كما قال الله تعالى: ﴿مُجْتَهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وبعد أن ذكر هذه الصفات، قال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، أي: هذه الصفات لا يمن الله تعالى بها إلا على من يصطفيهم ويختارهم.

إذن: حري وجدير بكل مسلم أن ينافس وأن يسابق؛ ليكون منهم، والذي لا يريد أن يقدم هذه التضحيات، فلن ينال هذه الدرجة وهذا الاصطفاء وهذا الكرم وهذا الفضل؛ لأن هذا فضل الله يختص برحمته من يشاء، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فعليك أن تجتهد لتكون ممن يختارهم الله ويصطفيهم؛ ولذلك يقول الشيخ «وقوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، يعني: درجة الذين يحبهم ويحبونه بأوصافهم المذكورة، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، واسع العطاء، عليم بمن يستحق الفضل فيمنحه، ومن لا يستحقه فيمنعه، قال: ويروى أن داود عليه السلام كان يقول: اللهم اجعلني من أحبائك؛ فإنك إذا أحببت عبدًا غفرت ذنبه وإن كان عظيمًا، وقبلت عمله وإن كان يسيرًا. وكان داود عليه السلام يقول في دعائه: اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومالي ومن الماء البارد.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أناي ربي صلى الله عليه وسلم - يعني في المنام - فقال لي: يا محمد، قل: اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يبلغني حبك»^(١). وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم ما زويت عني مما أحب فاجعله

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

فراعًا لي فيما تحب»^(١). وروي عنه عليه السلام أنه كان يدعو: «اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلي، وخشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عيني بعبادتك»^(٢). فأهل هذه الدرجة من المقربين ليس لهم همٌّ، إلا فيما يقربهم ممن يحبهم ويحبونه - أي: أهل هذه الدرجة همهم في الدنيا هو الحصول على مرضاة الله، ومحبة الله تعالى - قال: قال بعض السلف: «العمل على المخافة قد يغيره الرجاء، والعمل على المحبة لا يدخله الفتور». وقد تقدّم الكلام في هذا عند الكلام على الحب والخوف والرجاء، ولكن أجمع ما يقال فيها: إن الخوف والرجاء كالجنحين، والمحبة هي الرأس، فليكن عمرك كالطائر، الرأس هو الموجه وهو الأساس، والخوف والرجاء جناحان لا يميل أحدهما عن الآخر، ولو طار الطائر بجناح واحد لسقط.

إذن: فتغيب جانب الخوف قد يغير الرجاء، وقد يضعف الرجاء، وإضعاف الرجاء لا ينبغي؛ وكما قال النبي صلى الله عليه وآله: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه، ويرجو رحمة الله»^(٣).

قال: «والعمل على المحبة لا يدخله الفتور» وهذا حق، فأى شيء عمله وأنت تحبه لا يدخله الفتور، ولو كنت في آخر الليل، وتريد أن تنام لأنك مرهق، فجاءك إنسان بعمل تحبه، وتشتاق إليه؛ فإنك تقوم وتنشط وتنسى النوم وتنشغل وتسهر، واليوم الثاني إذا كنت مريضًا فزارك إنسان تحبه، فإنك تقوم وتنسى المرض... وهكذا، فالعمل على المحبة لا يلحقه الفتور، ولا يلحقه الممل ولا السأم؛ ولهذا كان العمل عملاً خالصًا لله تعالى؛ لأن العبد يعمل من محبة، وشوق، ويعمله بهذه الرغبة؛ فيكون ذلك من العمل الصالح الخالص عند الله تعالى.

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٩١)، وضعفه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٨٢/٨)، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٦٤).

(٣) أخرجه مسلم (٧٤١٢).

قال: «ومن كلام بعضهم: إذا سئم البطالون من بطالتهم فلن يسأم محبوبك من مناجاتك وذكرك».

قال فرقد السبخي: «قرأت في بعض الكتب: من أحب الله لم يكن عنده شيء آثر من هواه، ومن أحب الدنيا لم يكن عنده شيء آثر من هوى نفسه، والمحِبُّ لله تعالى أمير مؤمَّر على الأُمراء - الله تعالى يجعله أميرًا مؤمَّرًا على الأُمراء - زمرة أول الزمر يوم القيامة، ومجلسه أقرب المجالس فيما هنالك.

والمحبة منتهى القربة والاجتهاد، ولن يسأم المحبون من طول اجتهادهم لله تعالى، يحبونه ويحبون ذكره ويحبونه إلى خلقه» لاحظ كيف أنه يحبهم ويحبونه!
ضرورة تحبيب الله ﷻ إلى الخلق:

وقد أضاف الشيخ هناك عبارة عظيمة جدًا، وهي: «ويحبونه إلى خلقه» وكثير من الدعاة وطلاب العلم ينسى هذا المعنى، يقول: أنا أحب الله. ويكتفي، لكن لا تبغض الله تعالى إلى الخلق، وحب الله تعالى إلى الخلق، كيف يحبون الله إلى الخلق؟ بالرفق، واللين والنصح، وبحسن المعاملة مع الخلق، وإذا أحب الناس هذا المخلوق ورأوه يدعو إلى الله، أو أنه عالم، أو مفتي، أو أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فاعلم أن فيه صفة من صفات أولياء الله؛ لأنه عمل الأعمال التي تقرب إلى الله، وعاملهم بالمعاملة اللينة الحسنة التي يحبونها، من غير تنازل أو تهاون أو مدهانة في الدين، فيحبب الله إليهم، فأحبوا الله وأحبوا ذلك المخلوق.

ولهذا نوصي إخواننا في خطب الجمعة وفي المواعظ: أن تكون من موضوعاتها أو مما تستفتح به موعظتك هو تحبيب الخلق إلى الله، وبيان نعم الله، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، فإذا ذكرتهم بنعم الله عليهم؛ أحبوا الله، واستشعروا التقصير والتفريط، وأنه لا يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعم بتلك المعاصي والذنوب، وهذا من الحكمة في الخطابة، مع التخويف أيضًا والوعيد، لكن هذا جانب قد يُغفل عنه؛ لأن كثيرًا من

الوعاظ يقول: عندما تقول هذا حرام، والله تعالى توعد عليه بكذا، ومن فعله فقد تُوعِد بكذا، فإن الناس ينتهون، وهذا حق لكن لا ينسى الجانب الآخر، وهو أن تذكر الناس بالنعمة، وكما قال النبي ﷺ: «جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها»^(١).

إذن: علينا أن نعلم الناس أن الله تعالى أحسن إلينا بنعم عظيمة جدًا، فإذا عرف ذلك أحب الله، ولذلك يجب أن نكون جميعًا ممن يُخلِّقه ويتعامله بحسب الله إلى الخلق.

حقيقة عمل الدعاء:

يقول: «يمشون بين عباده بالنصائح، ويخافون عليهم من أعمالهم -يوم القيامة- يوم تبدو الفصائح» فعمل الدعاء في هذه الأمة هو النصيح، كما قال تعالى حاكياً عن رسله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وفي الآية الأخرى عن أحد الدعاء: ﴿يَنْقُورُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، ﴿أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١].

فهم لا يريدون شيئاً كما حكى ربهم عنهم: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص: ٨٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبا: ٤٧]، وفي سورة هود: ﴿أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَالًا﴾ [هود: ٢٩].

هكذا قال رسل الله الكرام: أنهم هم ومن يتبعهم لا يريدون من الخلق مالا، ولا دنيا، ولا منصباً، ولا جاهاً، إنما نصحاً لهم، وإشفاقاً، ومحبة وحرصاً أن يكون هؤلاء الناس على طريق الخير، الذي يؤدي بهم إلى سعادة الدارين، والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠٧/١١)، وقال العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٦٢٥): موضوع مرفوعاً وموقوفاً.

راحة المؤمن:

يقول: «أولئك أولياء الله وأحباؤه وأهل صفوته، وأولئك الذين لا راحة لهم دون لقاءه» كما قال الإمام أحمد رحمته الله: «لا يجد المؤمن راحة دون لقاء ربه».

فترتاح من أي شيء قبل أن تلقى الله، نعم، ما أمرك الله تعالى به فهو شاق، فقد أمرك بقول الحق، وقد يكون هذا مرًا وصعبًا وعظيمًا على النفس، وأمرك بالجهاد، وهذا شاق عليك، ومجهد لك، وأمرك بالصلاة، تقوم لصلاة الفجر، وإن كنت تؤثر النوم والفراس والدفء، فتقوم إلى الصلاة لتلبي داعي الله تعالى، وإن كان فيها مشقة عليك، وتتفق من مالك الزكاة الواجبة، أو الواجبات غير الزكاة كالصدقات، والمال أحب إليك، وتقاطع ابنك أو أخاك أو قريبك؛ لأنه أعرض عن طاعة الله، وهكذا فلا راحة في الدنيا.

ثم إن أعداء الله لا يتركونك ما دمت حيًا، متى تترتاح؟ لا يجد المؤمن الراحة الحقيقية إلا إذا تنزلت عليه الملائكة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فدون لقاء الله لا يستطيع الإنسان أن يرتاح، حتى لو سلم من كل شيء فرضًا، فإنه لا يضمن لنفسه حسن الخاتمة، فيخاف والعياذ بالله أن يُختم له بخاتمة السوء، فهو دائم الخوف من الله، والخوف مما أمامه.

فإذا بُشر بهذه البشرى، ولقي الله عليها اطمأن؛ ولهذا كانوا كما حكى الله عنهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، كانوا مشفقين، فأصبحوا بعد ذلك آمنين مطمئنين، بدل الله تعالى عنهم هذا بهذا والنتيجة هي: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٢٤] إذن: كانوا في الدنيا حزينين مشفقين، وكانوا وجلين وخائفين، فجاءت الجنة لا حزن فيها ولا خوف ولا وجل، وإنما الطمأنينة، يلقون فيها تحية وسلامًا، ويبشرون بنعم الله تعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجه الله، وإلى لقاء أو مجالسة أحباب الله، الذين كانوا يحبونهم في الدنيا ولم يروهم، والآن يروهم.

لأنك أنت في الدنيا تحب كثيرين، ولا تستطيع أن تراهم لأسباب كثيرة جدًا، أما من مات ممن تحب فهذا أمر قد سبق.

فهل نستطيع أن نرى النبي ﷺ والصحابة؟ لا نستطيع ذلك في الدنيا، لكنك تحب هذا، وأيضا يأتي أقوام من بعدك تحبهم لكنك ما رأيتهم، ولا تستطيع أن تعيش حتى تراهم. ففي الدنيا لا تستطيع أن تحصل فيها على كل شيء تريده، فهي ضيقة دائما.

لكن في الآخرة من نعيمها: أن الله يجمع لك بين هؤلاء وبين هؤلاء، فتجد وتلتقي بمن تحب، وأعظم محبوب هو الله ﷻ، فالمؤمنون يرون ربهم ﷻ في الجنة، وهو أعظم نعيم على الإطلاق.

وترى من تحب من الماضين وإن كانوا قبلك بقرون، فلو أحببت أن ترى آدم ﷺ أو نوحا ﷺ، أو المؤمنين ممن نجوا مع نوح في السفينة، أو الصحابة، أو الأئمة كالإمام أحمد -مثلا- وأئمة الإسلام وكل من تحب أن تراه وكذلك الذين لم يأتوا بعد، فإنك تراهم هناك.

فإن النبي ﷺ يقول: «وددت لو أننا رأينا إخواننا -كان يتمناها النبي ﷺ- قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك، قال: لا، أنتم أصحابي، لكن إخواني قوم لم يأتوا»^(١) هم الذين نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، هم الذين وجدوا الكتاب والسنة فاتبعوهما ولم يروا النبي ﷺ.

فهذا يحصل في الجنة بإذن الله تعالى، والشاهد: أن المؤمن لا يجد راحة دون لقاء ربه.

قال: «قال فتح الموصلية: المحب لا يجد مع حب الله للدنيا لذة، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين». وبعض هذه الأقوال والآثار المنهج فيها معروف، فهي تحكى ولا يعني أن تلتزم بالدقة.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩).

وقال محمد بن النظر الحارثي: ما يكاد يمل القرية إلى الله تعالى محب لله، وما يكاد يسأم من ذلك». ولا شك أن من أحب الله تعالى حق المحبة، فإنه لا يمل القرب إلى الله ولا يسأم، ولا يكاد يسأم، لكن النفس البشرية بطبيعتها أنها تمل وتسأم؛ ولهذا ينبغي للمؤمن أن ينوع في العبادة، فهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ألا يتكلف في العبادة ما لا يطيق: «فإن الله لا يمل حتى تملوا»^(١)، فإذا سئمت أو مللت، أو كدت تسأم وتمل من قراءة القرآن أو صلاة أو أي عمل فكف عنه، فإن الله لا يمل حتى تملوا.

قال: «وقال بعضهم: المحب لله طائر القلب، كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل، دأبًا وشوقًا».

ولذلك قال الله في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»^(٢) فهكذا المحب لله لا يزال يتقرب إلى الله بكل شيء، قال: «وأنشد بعضهم: وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للأحباب خدام»

وهذا أيضًا مما ينبه عليه وهو: إطلاق الخدمة على العبادة، وقد تجدون أحيانًا في كلام بعض العلماء ذلك، وأكثر من يستخدم ذلك الصوفية، والصحيح أن العبادة أجل من الخدمة.

والأفضل في حق الله تعالى ألا نستخدم إلا الألفاظ الشرعية، فنقول: عبادته. ولا نقول: خدمته.

قال: وأنشد آخر:

ما للمحب سوى إرادة حبه إن المحب بكل برٍّ يضرع

وهذا أيضًا يؤكد ذلك، فهذا كله في محبة الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٢).

(٢) تقدم تخريجه.

كيف تنال ولاية الله؟:

ثم قال الشيخ: «ومن أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله ﷻ من النوافل: كثرة تلاوة كتابه، وسماعه بتدبير وتفكر وتفهم». إذن: هذا أمر عظيم جداً؛ لأن الكلام عن كيف تنال ولاية الله، وكيف تنال محبته ﷻ، وكيف نتقرب إلى الله.

فالتقرب إلى الله بالصلاة، وهذا قد سبق في قوله ﷻ: «وأعظم فرائض البدن التي تقرب إليه الصلاة».

فأعظم الفرائض البدنية للتقرب إلى الله هي الصلاة، وأعظم النوافل قراءة القرآن، وهذا من فقه الإمام ابن رجب ﷻ أنه جعل أعظم الفرائض الصلاة، وأعظم النوافل قراءة القرآن.

يقول: «قال خباب بن الأرت لرجل: تقرب إلى الله تعالى ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه».

وفي الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً قال: «ما تقرب العبد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه»^(١). يعني: القرآن، لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، وإذا رجعنا للقاعدة -قاعدة المحبة الدنيوية- فكل من تحب، تحب كلامه، وتحب أن تقرأ له، وتحب رسائله، وتحب أن يخاطبك، أو تقرأ كلامه مكتوباً، وهذه حقيقة نفسية.

فالواجب أن يكون أحب شيء إلى العبد هو القرآن، يشغل وقته به، بل يتغنى، ومعنى يتغنى: يغتنى به عما سواه، أو يتغنى به: كما أن أهل الدنيا تعجبهم الأشعار فيتغنون بها، ويترنمون بها، ويتذكرونها فيكون هو كذلك، بحيث يكون على لسانه، يقرأه، ويتلوه، ويتلذذ به.

قوله: «لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم، وغاية مطلوبهم، قال عثمان رضي الله تعالى عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١١)، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٩٩٣).

ربكم». وهذا معيار عجيب اختبر به قلبك، وقلوب الناس.

ويوجد كثير من الناس لا يستطيع أن يستمع إلى صفحة مثلاً أو عشر آيات، ولو قلت له: اجلس نقرأ عشر آيات أو استمع لهذا الشريط، فإنه لا يطيق أبداً، إما أن يقفله، وإما أن يقول لك: أنا مشغول. -والعياذ بالله- لأن قلبه مطموس كما قال الله عنه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ومعنى: ﴿رَانَ﴾ أي: مطبوع مختوم عليه، وأغلق بحيث لا ينفذ إليه شيء من الحق فنعوذ بالله.

ومن أعظم ما يجعل العبد كذلك، أن يدمن على سماع الأغاني، والأشعار الخالية عن ذكر الله، التي كما جاء في الحديث: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً»^(١). فلو أن مدمناً على سماع الأغاني، أو هذه الأشعار الخالية من ذكر الله قلت له استمع هذه الآيات لا يستطيع ذلك، وإن كانت ذنوبه أقل فإنه يتحمل بقدر أقل وهكذا.

فعباد الله الصالحون يقول لهم: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم». لماذا الإنسان يقرأ ويقرأ، ثم يتعب ويمل أو يضعف؟ لشيء في قلبه، فهذا هو المعيار، فانظر لنفسك فإذا وجدتها لا تطيق القرآن أو لا تستمع إليه فاعلم أن داءً ومرضاً خبيثاً يداخلك فاجتنبه، وسارع إلى العلاج، وبادر إليه.

وبهذه المناسبة أذكر أن أحد الشباب أرسل إلي رسالة يشكو ويقول فيها: إنني كنت أحب طلبة العلم، وأطلب العلم، وأحب المساجد، وقراءة القرآن، والآن لا أستطيع، حتى أصبحت أتخلف عن الجماعة، وأصبحت كذا؟ نسأل الله أن يردّه إلى الحق والصواب.

فأقول: علينا جميعاً أن نبادر إلى العلاج قبل أن يستفحل الداء، انظر كم من

(١) أخرجه البخاري (٦١٥٤)، ومسلم (٢٢٥٧).

مريض يذهب إلى الطبيب فإذا به بعد فترة قد مات، لماذا؟ لأن المرض قد انتشر واستشرى في جسده.

ومرض الأرواح والقلوب ليس مثل المرض البدني، ومن فضل الله أن جعل الإنسان حتى لو كان منغمساً منهمكاً إلى أقصى شيء يمكن أن ينتشل نفسه بتوبة صادقة إلى الله، فالمهم أن تتدارك نفسك قبل أن تحاول أن تتوب فلا يقبل منك عياداً بالله.

قال: «وقال ابن مسعود: «من أحب القرآن أحب الله ورسوله»».

قال: «وقال بعض العارفين لأحد طلابه: أتحفظ القرآن؟ قال: لا. قال: واغوثاه بالله! مرید لا يحفظ القرآن، فبم يتنعم؟! فبم يترنم؟! فبم يناجي ربه تعالى؟!».

وهذا وإن كان من كلام الصوفية، ولكن هذا القول صحيح، فالذي يريد أن يسلك طريق الله، وأن يتعلم ويتأدب وهو لا يحفظ القرآن فبم يتنعم؟ وبم يترنم؟ وبم يناجي الله؟

من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها الصوفية وغيرهم ممن لا يدري: أنهم وضعوا أدعية، وأوراداً وأذكاراً في كتيبات، أو في أوراق، ونشروها بين الناس، ويقال: من قرأها فإن له كذا وكذا. مما لا أصل له في الدين، فيشتغل الناس بها عن القرآن، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الكفر والعياذ بالله.

فالتيجانية يقولون مثلاً: من قرأ صلاة الفاتح خير له من أن يقرأ القرآن ستة آلاف مرة. وهذا كفر لا شك فيه، وكلما وجدوا شيئاً غير القرآن يجعلون قراءتها خيراً منه! مادام هو مذنب قولوا -فرضاً-: من قرأها خير له من أن يتصدق بألف دينار -مثلاً-. لكن تقول: خير من أن يقرأ القرآن. هل يعقل هذا؟! إنك مهما ابتدعت أو اخترعت أو اختلقت من أذكار - فلا يمكن أن تكون أفضل من القرآن، ولا يمكن أن تأتي بشيء أفضل من القرآن أبداً.

وأقول: كثير منهم لا يصل إلى هذه الدرجة من الكفر -والعياذ بالله- لكن واقع

الحال عندهم أنهم يأتون بأدعية وأوراد يقرءونها في الصباح والمساء، ومن هذه الأحراز «الجوشن الكبير»، و«الجوشن الصغير»، و«الحصن الحصين»، و«الحصون المنيعه»، و«العهود السبعة»، وأشياء كثيرة منها ما لا أصل له، ومنها ما له أصل، لكن ليس بهذه الكيفية وبهذه الهيئة، ومنها ما يكون جملةً من الآيات اختارها صاحب الحرز، لكن لم يرد الشرع بتحديد هذه الآيات، فيشتغل بهذه الآيات عن بقية القرآن أو عما فضله الله، نعم هو من القرآن، لكن هل يستطيع أحد أن يفضل شيئاً من القرآن على شيء من غير أن يبينه الله.

فمثلاً: الله ﷻ هو الذي أخبرنا أن آية الكرسي أفضل الآيات، وأن «قل هو الله أحد» تعدل ثلث القرآن، وأن الفاتحة أفضل السور، فنحن حتى في هذه نتبع ولا نبتدع، ولكن نقرأ القرآن، ونتلذذ به كله.

وإن من أكثر ما يحول بين الناس وبين الخير إما صاحب فجور وشهوة، فيحول بين الناس وبين القرآن، بالغناء، والمزامير، والموسيقى، والأشعار، والقصص وما لا خير فيه، كما تشاهدون الإذاعات في آخر الليل، إذا قرب الثلث الأخير، تجد فيها الغزل والأشعار والهوى والحب سبحانه الله العظيم! لأن قلوب الناس، ترق في تلك الساعات، فهم جاءوا إليها يرققوها بشيء رقيق، لكنه شهوة وفتنة، هذا هو الجانب الأول.

أما الجانب الثاني: الذي يأتي ليسد الحاجة لكن بغير الحق، كالذي يطعم الجائع نشارة الخشب، أو يطعمه ما لا يُغني ولا يشبع.

فهؤلاء الذين وجدوا الناس محتاجين إلى الذكر، ويريدون المناجاة أعطوهم هذه الأوراد البدعية، والأذكار غير المشروعة، وقالوا لهم: اقرءوها في الصباح، وقرءوها في المساء، وقرءوها إذا قمتم في الليل، وقرءوها قبل أن تناموا... إلخ، فأطعموهم ما لا يغذي.

والحق: أن القلوب إنما يكون غذاؤها وترنمها، وحياتها، وروحها، وريحانها، وشفائها بقراءة كلام الله ﷻ.

حتى وإن قل التعبد بشيء من الحق ومن الخير فلو لم يقم العبد إلا بعشر آيات، ولو لم يقرأ إلا «قل هو الله أحد»، ولو لم يقرأ إلا آية الكرسي فهذا خير، لكن كلما زاد فهو خير له؛ ولهذا جعل الشيخ رأس النوافل قراءة القرآن.

نسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن يتلونه حق تلاوته، ويتلذذون بذكر الله تعالى به، وبمناجاته بقراءته؛ إنه سميع مجيب.

الفوائد المستخلصة:

* قال ابن رجب رحمته الله: من فاته الله فلو حصلت له الجنة والدنيا بحذافيرها لكان مغبوناً.

* غاية المحب هو رضئ حبيبه.

* الذلة على المؤمنين تكسبك عزة عند الله.

* كل محبة لا بد أن تكون دون محبة الله ورسوله.

* من تمام المحبة مجاهدة أعداء المحبوب.

* الولاية اصطفاء من الله.

* أفضل القرب من الفرائض الصلاة، ومن النوافل قراءة القرآن.

* من علامات محبة الله الغضب إذا انتهكت محارم الله.

* من لم يجب الدعوة باللين والرفق احتاج إلى الشدة والعنت.

* الاقتصاد في الخير والسنة أفضل من الإكثار من البدع.

* كل منهج يخالف ما كان عليه السلف في المحبة لله فهو باطل مبتدع.

* الخوف والرجاء هما الجناحان للمؤمن في الدنيا.

أولياء الله وأولياء الشيطان

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فنسأل الله ﷻ أن ينفعنا جميعاً بما نسمع وبما نقول.

إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ بِحَسْرَتٍ هُم كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَوْلِيَائِهِمْ أَهْلُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا يَسِّرُ لِلَّذِينَ يَشَاءُ وَيَصْعَقُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [يونس: ٦٤، ٦٥].
فلا يكون الكافر ولياً من أولياء الله، فالكافر هو عدوُّ الله، وهو الطاغوت، ووليه الشيطان، وهم حزبه وجنده وأعوانه، وكذلك لا يكون المجنون أو من يعتريه الجنون في حال جنونه ولياً لله -تبارك وتعالى- كما يزعم ذلك الصوفية الضلال وأمثالهم، وكذلك بالنسبة للصبي ومن لم تبلغه الدعوة.

فنقول: إن المقصود والمراد من الآية هو الرد على من يظنون أن الله تبارك وتعالى أولياء من غير المسلمين، قد يزارون أو يقصدون في بلاد نائية، أو جبال بعيدة، أو مغارات يذهب إليها بعض الناس، فيجدون بعض العباد والزهاد، ويظنون أنهم أولياء الله، وهذا من تلبس الشيطان وتلاعبه بعقول كثير من الناس سواء من الصوفية أم غيرهم، نسأل الله ﷻ أن يثبتنا وإياكم على الحق والإيمان والسنة إنه سميع مجيب.

عوام أهل السنة والجماعة هم من الأولياء:

السؤال:

هل من الممكن أن يكون عوام أهل السنة والجماعة من أولياء الله، أم لا بد أن يكونوا علماء أو طلبة علم؟

الجواب:

الحمد لله، من خلال ما تقدم نعلم الجواب إن شاء الله، وهو: أن أولياء الله -

تبارك وتعالى - لا يشترط فيهم أن يكونوا علماء أو طلبة علم كما ذكر شيخ الإسلام رحمته الله.

فالأولياء هم من عموم هذه الأمة، فمنهم: التجار، ومنهم الصناع، ومنهم الزراع، ومنهم المجاهدون، ومنهم القراء، ومنهم العلماء، فالولاية: هي إيمان وتقوى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]، فكل من حقق الإيمان والتقوى فهو ولي الله تبارك وتعالى بالمعنى الخاص، وكل من آمن بالله ورسوله ﷺ فهو ولي الله بالمعنى العام؛ لكن تنقص ولايته بمقدار ما يكون فيه من تقصير أو ارتكاب لما حرم الله، أو تفريط فيما أوجب الله تبارك وتعالى.

والعلماء إنما يُفضلون على بعض العوام بأنهم يعلمون ما جاء عن الله ورسوله ﷺ بالتفصيل، وإلا فقد يوجد في بعض العوام من قوة الإيمان والصدق والإخلاص واليقين والرغبة والرغبة والإنابة وكل الأعمال الإيمانية الظاهرة أو الباطنة كما عند العلماء، أو ما هو أكثر من بعض العلماء، لكن المزية: أن العلماء يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله تفصيلاً، وهذه لا شك أنها مزية، ولكن لو تجرد العلم من التقوى لم ينفع صاحبه.

وكذلك العامي لو عبد الله تبارك وتعالى بغير علم، بل على جهالة، ولم يسأل عن دينه في ضرورات الدين لكي يتعبد بها - فإنه لا ينفعه ذلك، فلا بد للعامي من العلم ولو كان عن طريق السؤال كما قال تعالى: ﴿فَتَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، والعالم لا بد أن يعمل، وإن لم يعمل بعلمه فلا خير فيه، بل هو كما ضرب الله تبارك وتعالى المثل له بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وهذا من أسوأ الأمثلة.

وفي مثل آخر في آية أخرى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، هذا إذا لم يعمل العالم بعلمه، ولم يؤد به علمه إلى تقوى الله ﷻ، كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

[فاطر: ٢٨].

فالعلماء هم الذين يخشون الله أكثر خشية من غيرهم؛ لأنهم يعلمون ويعرفون عن الله ﷻ ما لم يحط به غيرهم.

إذن: عوام أهل السنة والجماعة هم من الأولياء، ونستطيع أن نوضح هذا بشكل أكثر فنقول: إن المؤمنين هم الأولياء، وكلمة الولاية من الألفاظ الشرعية؛ فإذا قلنا: الأولياء أو الأبرار أو المتقون أو المهتدون أو المستقيمون أو أهل الجنة أو أتباع السنة أو أي اسم من هذه الأسماء أو الأوصاف الشرعية فالمعنى واحد.

إذن: فالأولياء فيهم العامة، وفيهم الخاصة، والمتقون والصالحون والمهتدون منهم العامة ومنهم الخاصة، وهكذا هذه الأوصاف الشرعية مترادف، فعلى ذلك يكون عوام أهل السنة والجماعة من عوام الأولياء، وعلماء أهل السنة والجماعة -أي: العلماء العاملون- هم من خاصة الأولياء أو من علماء الأولياء، ولا إشكال في هذا إن شاء الله.

لمز الملتزمين بالدين بالجنون:

السؤال:

جاء في كتاب «كنز الدعاء» أن أناساً ذهبوا يستسقون وهناك شخص يقولون: إنه مجنون. فقالوا له: ادع لنا، فقال لهم: أتيتم بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية، ودعا لهم فنزل المطر! فما التعليق على ذلك؟

الجواب:

عبارة: [يقولون: إنه مجنون] إذن لم يجزم القائل -بغض النظر عن صحة الرواية من عدمها- بأنه كان مجنوناً، ومن يقال له: إنه مجنون. قد يكون من أعقل الخلق، بل إن الملاحظ الآن والمشاهد أن كثيراً من الناس يطلقون على الشباب المتدين المتمسك بالمستقيم الذي يترك الحرام، ويتعدى عن الشبهات والشهوات، ويخاف الله ﷻ، ويقف عند حدوده - يسمونه مجنوناً، ولا غرابة، فقد قالوا ذلك للأنبياء وحتى

لرسول الله ﷺ.

فهكذا قالت كل أمة لنبیها: إنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون... إلى غير ذلك؛ فإطلاق مجنون قد يكون تهمةً، فربما يكون هذا الشاب أو هذا الرجل من أولياء الله الصالحين المستقيمين قد اعتزل ما عليه أهل هذه القرية من ظلم، وفساد، وفجور، وانحراف، فسموه المجنون، فلما أرادوا الاستسقاء والدعاء، قالوا له: ادعُ الله. فدعا الله فمطروا، ولا غرابة في ذلك.

فهذا هو الاستسقاء المشروع: أن يدعو من يرى الناس أنه خيرهم أو أبرهم، فكان رسول الله ﷺ يدعو، ثم بعد وفاته ﷺ وفي زمن عمر رضي الله تعالى عنه لما خرجوا يستسقون أمر عمر رضي الله تعالى عنه العباس عم رسول الله ﷺ أن يدعو، ثم في عهد معاوية رضي الله تعالى عنه وفي جميع عصور الإسلام من السنن المتبعة أن يكون الداعي ممن يرى أنه من خير الناس وأفضلهم وأتقاهم، فيستجيب الله تبارك وتعالى دعاءه، ويمطر ويسقي القوم جميعاً، فهذا لا غرابة فيه إن شاء الله.

إذن: لا تعارض مع ما تقدم من أن المجنون لا يكون ولياً؛ لأن هذا قيل: إنه مجنون وليس مجنوناً على الحقيقة، ودليل ذلك: أنه ذهب معهم، ولا بد أنه تطهر وصلى ودعا، فهذا لا يكون مجنوناً؛ لأن المجنون غير مكلف، ولا يعي، ولا يستطيع أن يقوم بهذه العبادات.

المفاضلة بين أهل السنة وأهل البدع:

السؤال:

ذكر شيخ الإسلام في بعض كتبه: أن علماء أهل السنة أفضل من علماء غيرهم، ومتكلميهم أفضل من متكلمي غيرهم، وصوفيتهم أفضل من صوفية غيرهم، أو كما قال رحمه الله تعالى، فماذا كان قصده بذكر متكلمي أهل السنة وصوفيتهم، وجزاكم الله خيراً؟

الجواب:

كلام شيخ الإسلام رحمه الله هذا كان في مقام المفاضلة، وليس في مقام الثناء على

المخالفين، فهناك فرق بين مقام الثناء على المخالفين للسنة - فهؤلاء لا يُثنى عليهم ولا يُمدحون- وبين مقام المفاضلة، ويشرح هذا الكلام أنه قال رَضِيَ اللهُ: «كل خير عند أهل الكتاب أو بقية الأديان ففي هذه الأمة منه أكثر، وكل شر في هذه الأمة أو من المنتسبين لهذه الأمة ففي أهل الكتاب والملل الأخرى منه أكثر». ثم تأتي إلى هذه الأمة منها أهل السنة ومنها أهل البدع، فأى شر قد يكون في أهل السنة فهو في غيرهم أكثر منهم، فلو قارنا بين أهل السنة والرافضة الشيعة وهما القسم الأكبر في الأمة؛ ولهذا يقال الآن: المسلمون سني أو شيعي. ولكن القسمة في الحقيقة ليست هكذا، وإنما هي قسمة بين السنة وأهل البدع، وأهل البدع فرق كثيرة، منها الخوارج والمرجئة والصوفية، والفرق هي الاثنان والسبعون فرقة، فلماذا يقال: سني أو شيعي؟ وذلك لأن تخصيص الشيعة بهذا الوصف لكثرة شرهم وفتنهم وبلائهم على الأمة، فجرى العرف على أن الأمة لا تخرج عن أحد هذين الوصفين؛ ولهذا لا تصلح كلمة سني في مقابل الشيعي، ولا تكون بهذا مدحاً؛ لأنه قد لا يكون شيعياً، ولكنه على بدعة أخرى، وكذلك قد يكون صاحب معاصي وفجور وإن كان منتسباً لأهل السنة.

فاصطلاح أن كلمة (سني) مقابل كلمة (شيعي)؛ هذا اصطلاح في الكتب وفي الواقع، فإذا قارنا بين أهل السنة وبين الشيعة؛ فإن عند الشيعة كل ما عند الطوائف من الأوصاف فالشيعة فيهم المتكلمون، وفيهم الصوفية، وفيهم العباد إلى آخره، وكذلك السنة بهذا المفهوم، فأهل السنة - بمعنى الذين ليسوا شيعة - نجد أن عبادهم خير من عباد الشيعة، وأن متكلمي أهل السنة خير من متكلمي الشيعة، وإن كان أهل الكلام من أهل السنة يعدون مبتدعة.

لكن بما أنه ليس متكلماً شيعياً، وإنما هو متكلم سني - بالمفهوم العام - فهو أفضل، فكل طائفة من أهل السنة وإن كان فيها ما فيها من خطأ أو انحراف أو بدع - فهي خير من أهل الرفض والتشيع مهما زعموا ومهما ابتدعوا، فهذا هو المقصود.

فمصطلح أهل السنة يطلق بمعنيين:

المعنى العام: وهو كل من ليس رافضياً، وقد يقال أحياناً في مقابل أيضاً من ليس معتزلياً محضاً، أو خارجياً محضاً، يعني: المتمحض بالبدعة بالكلية، فمن كان على شيء من البدعة أو مقابل هؤلاء يقال: إنه من أهل السنة وإن كان متلبساً ببدعة.

أما أهل السنة بالمعنى الخاص وهم الممدوحون والمفضلون، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة؛ فهم الذين لم يتلبسوا بهذه البدع، ولم يكونوا على منهج اعتقادي بدعي، وإن وقع منهم شيء من ذلك فيقع على سبيل الخطأ لا على سبيل المنهج المتبع، وإنما يقع منهم خطأ؛ لأنه ليس شرطاً ليكون الرجل من أهل السنة أن يكون معصوماً، فقد يخطئ، لكن هناك فرق بين من يخطئ فيوافق كلاماً لأهل البدع، وبين من يتبع أهل البدع في منهجهم الذي يعلم أنه مخالف لمنهج أهل السنة.

هذا الذي يحمل عليه مثل هذا القول، أما أن يفهم منه بعضهم أن أهل السنة فيهم الصوفية وفيهم المتكلمون، وهم يقررون على ذلك وهم ممدوحون وهم من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فهذا فهم خاطئ، وشيخ الإسلام رحمته الله، بل كل واحد وليس فقط شيخ الإسلام لا بد أن تضم بعض كلامه إلى بعض، فلو أخذت جانباً من كلام أي واحد فقد يظهر لك أنه خطأ أو تحكم عليه بالخطأ، لكن إذا ضم الكلام إلى بعضه فهم المقصود.

فلو جئت إلى كلام شيخ الإسلام رحمته الله في مواضع أخرى يتكلم فيها عن المتكلمين وعن الصوفية وما فيهم من الضلال والبدع فإنه يتقدمهم ويذمهم، ويعيبهم، ويبين ضلالهم، وانحرافهم وإن كانوا ليسوا من الشيعة، وإن كان بعضهم يدعون أنهم من أهل السنة، فلا بد للحكم على أي إنسان أن تضم كلامه بعضه إلى بعض، وأن ترد المتشابه من كلام أي أحد إلى المحكم، وهذا عام حتى في غير القرآن أو السنة، فالكلام المحكم الجلي بمعنى القطعي وهو النص تحاكم إليه ما قد يشبهه عليك، أما أن تأخذ المتشابه من كلام أي أحد، فهذا ضل النصارى والعياذ بالله، ويمكن أن يضل به -

أيضًا - أي إنسان أو يجور في حكمه على من يقرأ كلامه أو يستمع إليه.

نحن والصحابة في الصبر وتحمل الواردات:

السؤال:

ذكرتم أن الصحابة كان عندهم قوة في تحمل الواردات، كما كان لديهم من الله فتح ما لم يكن لمن كان بعدهم، ولكن كما تعلمون قصة وقوع عمر بن الخطاب مغشيًا عليه من إحدى الآيات التي كان يقرأها في الصلاة فكيف توجّهون ذلك؟

الجواب:

هذا لا إشكال فيه، وإنما المقصود أن من تقرب إلى الله تبارك وتعالى وقرأ القرآن، وأكثر من تلاوته، وأكثر من ذكر الله ﷻ - فإن الله يفتح عليه معاني الإيمان، وتجذُّ على قلبه حقائق إيمانية، فإذا سمع الآيات من القرآن ازداد إيمانًا و يقينًا، وفتح له أمورًا أو حقائق قد لا يستطيع أن يعبر عنها أكثر الناس، لكنه يجدها في نفسه.

وهكذا كلما تفكر المسلم في خلق الله، وكلما ذكر الله، وكلما تذكر الآخرة والموت وما أعد الله - ازداد إيمانًا، وتجلت له حقائق ومعاني عظيمة، فمن الناس من يحتملها لقوة أعطاه الله إياه وهم الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - الذين كانوا في جاهليتهم لا يُذكرون، ولا يُعدون شيئًا؛ فلما هداهم الله تعالى للإيمان أحيا الله قلوبهم بهذا القرآن، فأصبحت ينابيع الحكمة تتفجر في قلوبهم، ويظهر ذلك في أقوالهم وأعمالهم وسمتهم وهديتهم ودلهم، بما لا يشك عاقل أن هذا من أثر النبوة ومن أثر القرآن.

ولهذا لما رأهم أهل الكتاب في دمشق ومصر وغيرها قالوا: نشهد أن هؤلاء يتخلقون بأخلاق الأنبياء الذين يقرءون عنهم، وهذا فضل من الله ﷻ عليهم، أن كانت لهم هذه المعاني وهذه الحقائق، فالصلاة - مثلاً - في مظهرها الخارجي يصلونها مثلنا ركوعًا وسجودًا، والقرآن يقرءونه كما نقرؤه نحن إن كان مجرد أداء حروف، لكن الحقائق الإيمانية التي هي الأساس تختلف عندهم.

فإذن أوتوا مع ذلك قوة التحمل، وجاء من بعدهم من التابعين، فكانوا إذا وردت عليهم بعض هذه الواردات لا يتحملون، فتجد أن المعنى نفسه لو ورد على قلب أحد التابعين لسقط -مثلاً- مغشياً عليه، أو تأثر، أو قد يصاب بعضهم بشيء؛ لأن بعض الناس قد يصاب بما يشبه الجنون، أو لا يستطيع أن يتحمل، ليس لأنه مجنون، لكنه ما استطاع ذلك، وقد يعتره ما يفقده صوابه من شدة استشعاره لهذا المعنى.

فمثلاً: الوقوف بين يدي الله ﷻ خمسين ألف سنة فيقف يتذكر هذا اليوم وهذا الهول، فما يستطيع أن يتحمل، كما نشاهد في واقعنا العادي أن بعض الناس قد لا يتحمل أن يرى -مثلاً- منظر قتل أو حد قصاص يقام يوم الجمعة فيسقط، وبعضهم يراه فلا يتأثر، فالله أعطى النفوس قدرات مختلفة في التحمل.

فالمهم أن أكمل الناس تحملاً في الجملة هم الصحابة ومن جاء من بعدهم؛ ولا نقول: إنهم أكملهم تحملاً للواردات، ولكن لو ورد شيء مما يرد على الصحابة عليهم، لما استطاعوا أن يكونوا أكمل تحملاً، وعلى سبيل المثال ما نقل عن عمر -رضي الله تعالى عنه- إن ثبت أنه مرض أو حُمَّ أياماً لأنه سمع آيات من سورة الطور أو غيرها -مثلاً- هل هذا يناقض ذلك؟ نقول: لا، لأن هذا حالة عابرة عارضة، وإنما كان كلامنا على العموم، فالإنسان القوي الشديد قد يغلب أحياناً، وقد يضعف أحياناً ولا ينافي ذلك وصفه بالقوة والشدة والتحمل.

لكن الأصل في ذلك ما كان عليه النبي ﷺ وعامة الصحابة، فقد كان ﷺ إذا قرأ القرآن يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل، كأنه القدر الذي يغلي من شدة ما يفتح الله عليه من معارف وعلوم وأسرار، نحن لا نستطيع أن نعبر عنها بالألفاظ التي نستخدمها، إنما ثمرة قراءة الآيات وتأملها وتفكرها وتدبرها تعطي الإنسان مثل هذه الأمور، ومع ذلك فإنه ﷺ لم يسقط، ولم يغم عليه من أجل آية من الآيات، أما الصحابة فقد وقع ذلك لبعضهم -أحياناً- ولا ينافي الحالة العامة، أما في التابعين فكثير ذلك، ثم في من بعدهم.

وهذا المشاهد في الصوفية، فقد أصبح الواحد منهم يسقط إذا سمع -مثلاً- آية، أو إذا سمع كلاماً عاماً، بل حتى صار بعضهم من شدة ضعف احتمالته ورقة حسه، إذا سمع بيتاً من الشعر يسقط مغمياً عليه، يتذكر الأحباب أو الأوطان أو كذا، ويقول: أنا تذكرت الجنة، أو ينوي بهذا البيت الجنة أو دار المقام هناك فيسقط.

وينبغي لنا أن نقتدي بسنة رسول الله ﷺ، وما كان عليه الصحابة بقدر ما نستطيع، فنتفكر في آيات الله وفي ملكوت السموات والأرض، ونكثر من ذكر الله ﷻ في ملا أو خالين مع أنفسنا، وفي الحديث: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١). فهذا من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ففضل عظيم أن نذكر الله وحدثنا، وفي الحديث: «إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ خير منه»^(٢).

فيجب أن نقتدي بهؤلاء، ومع ذلك نقتدي بهم في قوة التحمل، فإذا قرأت آيات من كتاب الله ﷻ، وحصلت لك هذه المعاني الإيمانية، فاحمد الله واثبت، ولا تضعف واجتهد أن تكون كذلك من باب:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

وإلا فلن نحصل على ما يرد على قلوبهم من المعاني الإيمانية العظيمة، ولن نكون مثلهم في التحمل، لكن فليكونوا هم قدوتنا الذين نسأل الله ﷻ أن يحشرنا أتباعاً لهم، وفي زمريهم، إنه على ذلك قدير.

دخول الكفار إلى بلاد المسلمين:

السؤال:

ما رأيكم فيما ظهر في الأسواق مؤخراً من ألعاب وصور تحمل شعارات الكفر والصلبان والنجمة السداسية وغيرها؟

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الجواب:

لو كنا ندعو إلى الله ﷻ كما ينبغي لأسلم العالم كله إلا من كتب الله عليه الشقاوة، ومع ذلك كما ترون يأتينا دائماً من يذكرنا بعمل أعداء الله مثل هذه المسألة البسيطة - عند الكثير - هذه نجمة سداسية ملونة بعضها حمراء تأتي في بكلات الشعر، وفي الملابس، يريدون أن يغزونا، إن لم نجاهر بالكفر، فهؤلاء الكفار قبحهم الله، يرضيهم منا أن نتزيا بزى أهل الكفر، وأن نلبس شعار أهل الكفر من صلبان ونحوه، فنحن الآن مغزؤون، وأصبحنا مستهدفين من هؤلاء الكفار حتى في الشعائر الظاهرة.

وهذه ألعاب على صورة ملونة وجميلة من الممكن أن يجعلها الذي لا يدري بروازاً، ويعلقها، مع أنها وهي صورة كنيسة، والصليب واضح فيها، ومع ذلك تدخل البلاد وتنتشر.

وأنا أكرر وأقول: لا نقول المؤاخذون هم الجمارك فقط، أو الرقابة فقط، فهؤلاء جزء منا، فالتقصير عام، ويجب أن نعلم ذلك جميعاً.

وهناك دعاية واضحة للكنيسة الألمانية الغربية، فلم يخفوا حتى الكتابة؛ لأنهم أمة تدين بهذا الدين، جعلوا شعارهم الكنيسة، وكتبوا ذلك، فهي بضاعة لها شعار مقصود ومتعمد أن يكون رمزاً للدعوة كنسية، فهل اللوم على صاحب الدين الذي يريد أن ينشر دينه أم اللوم على أهل الإيمان وأهل التوحيد الذين طمع فيهم الطامعون، وجعلوهم هدفاً لنشر دينهم وملتهم؟ ومثل هذه النجوم السداسية التي تأتي على الملابس وتوضع في بكلات الشعر، وتوضع في أي شيء، فيجب أن نحذر منها؛ لأنهم يبدءون بالشعار، ثم ينتقلون إلى الشعائر بعد ذلك.

كذلك جاءتني هذه الرسالة، وتحتوي على صورة، وعلى رسالة، وهذه الصورة يزعمون أنها للمسيح ﷺ، وأتوا بكلام من الكلام الذي نقرأ منه أحياناً - كما لا يخفى عليكم - تقول الرسالة: يا بني الحبيب الغالي، سلام مني، أنا ملك السلام، أنت لا تعرف اسمي، هذا هو اسمي: عجيب مشير إله قدير أب أبدي رئيس السلام، أنا الرب.

ولو تتبعتم بشائر النبي ﷺ في الأناجيل لوجدتم أنه هو الذي يدعى مشيراً وعجيباً.

لكنهم جعلوا هذه الصفات للمسيح، وأدخلوا معها كلمات (إله ورب وقدير) إلى آخره، وآخر التوقيع بالخط الكبير أنا الرب يسوع المسيح، تعالى الله عما يصفون كما قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] الإله يأكل الطعام! ومن أكل الطعام فإنه يحتاج إلى الخلاء! لا يمكن ذلك للإله أبداً، ولذلك أول ما أنطقه الله قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] لا ألوهية فالله تعالى بين لنا هذا، ولكنهم يزعمون ذلك.

والمهم أن ذلك مما في الرسالة ولا نظيل بقراءتها، فالأربع صفحات منها تشتمل على تعليمات، مفادها في آخرها أن يؤمن العبد بأن الرب هو يسوع المسيح، ملك الملوك، ورب الأرباب، خالق الكل تعالى الله عما يشركون، ما أضل عقول النصارى وما أسفه أحلامهم! وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «إغاثة اللهفان» أن أحد ملوك الهند قال: إن النصارى سُبَّةٌ وعار على الإنسانية عموماً. مع أنه من حكماء الهند وما كان على دين كتابي؛ لكن العقل يرفض أباطيلهم وخرافاتهم، فكيف يقولون إنه هو الله والرب، ثم يقولون: إنه وُلد ونشأ طفلاً، ثم في النهاية صُلب وقتل، ويرضى أن أعداءه يتسلطون عليه ويصلبونه.

وبعد ذلك يقولون: إنه وهو على الصليب قال: إيلي إيلي، لماذا سبقتني؟ ومعناها: إلهي إلهي، لم تركتني، لم تخليت عني؟ إذن هذا عبد مخلوق؛ يقول: إلهي إلهي، لماذا تركتني؟ على كلامهم وإلا فعيسى ﷺ لم يصلب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، والذي صُلب هو رجل شُبِّهَ لهم أنه المسيح؛ لأن جند الرومان ما كانوا يعرفونه، فلما رفع الله المسيح، وألقى شبهه عليه قالوا: هذا هو المسيح فذهبوا به، فهو عبد كأبي عبد الله، وهو يتأوه على الصليب، وعند

ما أرادوا قتله كان يقول: يا إلهي، لماذا تركتني؟ يدعوا الله كأبي إنسان حتى لو كان كافرًا يدعوا، فهذا الذي يقول: إلهي إلهي لم تركتني؟ يقولون: إنه رب الأرباب وخالق الكل، وأعداؤه سلطوا عليه وقتلوه! تعالى الله عما يصفون!

وبعد ذلك يقول: وضعوه في القبر ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام خرج، سبحان الله! من كان يدبر أمر السموات والأرض، ويرزق ويعطي ويمنع، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، في خلال هذه الثلاثة الأيام، وهو في القبر وهو فوق الصليب يشكو، سبحان الله عما يصفون!! فالمقصود أن هؤلاء النصارى لا يتورعون، ويرسلون هذه الأوراق إلى أي أحد، وأرسلوا -أيضًا- مع هذه الصورة صورة آخر اللحظات عندما كانوا يضعون الصليب ليصلبوه، وجاءوا بكلام من الإنجيل في ظهرها.

وطباعتها طباعة أنيقة كيف أنه في «لوقا» قال المسيح: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك.

وكيف أنهم لما سألوه وأحضروا شهود الزور، قال رئيس الكهنة: هل أنت المسيح ابن الله؟ فأجاب: نعم. فحكموا عليه بالموت، فيقول: تفرست جارية في بطرس، فقال: إنك مع يسوع. فخاف بطرس، فأنكر يسوع ثلاث مرات.

فانظر سخافة العقول - بطرس كبير الحواريين باتفاق جميع طوائف النصارى، ورئيس الحواريين وأكثرهم التصاقًا وقربًا من المسيح ﷺ - فينكر معرفته به ثلاث مرات ويتنكر له، ويقولون: إن المسيح قال له قبل أن يصبح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات فوق ذلك، فهم يستدلون بذلك على أن المسيح يستطيع أن يعرف أو يعلم ما سيكون أو أخبر بشيء فوق، ولكن ما هو الذي وقع على فرض أن هذا وقع؟ يقول: لكبير حواريه وأصحابه قبل أن يصبح الديك تنكرني وتبرأ مني، فالنتيجة أن هذا لا يصلح أن يكون حواريًا، ولا يصلح أن يكون من المقربين لدى عيسى ﷺ، بغض النظر عن قضية دعوى الألوهية.

فهذا طعن إذن في الحواريين؛ لأنه أنكر علاقته به خوفًا من أن يصلب، وقال: لا

أعرفه، فهذا ليس من مقامات المدح بل هو في مقام الذم والطعن والتنقص، لكن هؤلاء لا عقول لديهم، إنما القضية عندهم تقليد واتباع، فإذا كانوا بهذه المنزلة وبهذه العقلية وطمعوا فينا، فمعنى ذلك أنهم يتصورون أنه ليس لنا عقول لو آمننا بهذا الكلام الذي لا يقبله عقل.

فلهذا قال لهم زويمر: لا تطمعوا أن تخرجوا المسلمين من الإسلام فتدخلوهم في نور النصرانية فهذه درجة عظيمة لا يستحقها كثير من المسلمين، لكن يكفيكم أن تخرجوهم من دينهم، وأن تجعلوا المسلم بلا دين فإن عمل فلشهواته، وإن جمع المال فلشهواته، وإن رضي فلشهواته، وإن غضب فلشهواته في كل شيء، فيكون مسلمًا بالاسم لكنه بلا دين.

فيكفي من المنصرين هذا العمل وهذه المرحلة الأولى التي يراها المنصرون أكثر ما يُعمل، وهي إخراج المسلم من دينه، والمرحلة الثانية: إدخاله في النصرانية، هذه مرحلة لاحقة فيما بعد.

فهم إذن يحقروننا، ولا يرون لنا عقولاً وإلا لما كان سفهاؤهم هؤلاء يطمعون في أن يُنصرونا؛ ولذلك هل طمعوا فينا أيام قوة عقيدتنا وإيماننا؟ والله ما طمعوا بهذا الشكل أبدًا.

نظرة الغربيين للإسلام:

هذا أحد الإخوة الغيورين نسأل الله ﷻ أن يبارك فيه، وأن يكثر من أمثاله من المقيمين في فرنسا، كتب هذه الرسالة المطولة عن نظرة الغربيين للإسلام، وما جمعه من حقائق حول ذلك، منها: السعي الغربي لتذويب المسلمين فيه باسم الاندماج، ومنها مظاهر العنصرية الدقيقة جدًا، وعلى أبسط صورها، ومنها: الجار الغربي واختلافه عن الجار العربي، أو أسلوب التعليم إلى آخر الأشياء التي جمعها جزاءه الله خيرًا، وتدل على ما يكتنه هذا الغرب للإسلام والمسلمين.

ولا يخفى عليكم الآن - وكلنا نعلم ذلك - أن الغرب الذي يفخر أنه عرف

العدالة والحرية، والمساواة، ومعاني الإنسانية، الآن من إيطاليا إلى أسبانيا إلى فرنسا إلى بريطانيا يغيرون قوانين الهجرة وقوانين الإقامة ليضيقوا على المسلمين، وليسلموا المسلمين إلى من يطلبهم من حكوماتهم، كيف يسلم فلان من أمريكا؟ وكيف يسلم فلان من ألمانيا؟ والقانون لا يسمح، فليغير القانون، فالغرب الذي يفتخر بأنه قانوني أو نظامي، وأنه لا يتعدى القوانين والأنظمة، وأنه لا أحد فوق القانون، ولا شيء فوق القانون - كما يزعمون - لكنه يغير القانون، إذا كان في تغييره تحقيق مضررة بالمسلمين أو بمسلم أو بداعية من دعاة الإسلام، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، والأخص منهم المتسلطون وأصحاب الرأي وأصحاب القرار، وإلا ففيهم لا شك من ينكر ذلك، لكن الأغلب وأصحاب القرار والمتنفذين هم بهذه الصفة كما نسمع هذه الأيام.

ومن تشنيعهم وتشهيرهم أنهم ينشرون مثل هذه الصورة المزرية، صورة نوع من القردة، وهو لابس عقلاً عربياً وبينده خرطوش الأنبوبة (البززين)، يعني أن العربي عندهم وفي نظرهم قرد كالح الوجه يلبس هذا العقال الذهبي، ورأس مالهم هذا البترول، وطبعاً رأس الأنبوبة ليس بنزيناً، إنما هو عملات ورقية، أي: أن أكثر الفئات قيمتها عشرون دولاراً، أو خمسون، فالمهم أن هذا هو العربي أو هذا هو المسلم في نظر الغربيين.

فهذه الصورة صورة عادية عندهم، ونجد الآن في المكتبات لديهم أنها تباع ككروت مراسلات طريفة، فيمكن اختيارها وإرسالها إلى زميل ليضحك إذا رآها ويرفه عن نفسه، وأن هؤلاء هم العرب وهؤلاء هم المسلمون، وقد قرأنا قبل فترة في إحدى الجرائد المحلية مقالاً بعنوان «عاصمة النور»، وإذا به يتكلم عن باريس «عاصمة النور» - كما يسمونها - وهي بلاد الفسق، والدعارة، والكفر، والظلمات، والفجور، فهذه هي عاصمة النور!! فأين نور جاءنا من الغرب؟! ومتى؟ وفي أي مرحلة من تاريخنا جاءنا النور من الغرب؟ ما جاءتنا إلا الحروب الصليبية، وما جاءنا إلا الاستعمار القديم، والآن يأتينا الاستعمار الحديث وهو أخبث الثلاثة، أما النور فما رأينا أي نور على

الإطلاق جاء من الغرب، وإنما يسمي الغربيون باريس عاصمة النور في نظرهم، لأن الثورة الفرنسية قامت، ونادت بأن الناس سواء، وأن لهم حقوقاً متساوية، وألغت بعض الظلم الموجود، وهذا أمر معلوم عندنا.

فحتى العرب في جاهليتهم لم يكن عندهم صورة من المظالم، كتلك التي كانت في أيام الإقطاع في أوروبا، بل كان العربي يأنف أن يستعبده أحد، أو يذله، ويقاقل عن حريته إلا إذا أُسِرَ فهذا مغلوب على أمره، فالنظام الإقطاعي البغيض الفظيع بمظالمه وظلماته التي كانت في أوروبا لم نعرفه في جاهليتنا، فما بالك بعد أن منَّ الله علينا بالإسلام، وأثار قلوبنا، وحرَّزنا العالم بالإسلام، والحمد لله.

ولو أنصفوا لعلموا أن الثورة الفرنسية التي لم يمر عليها إلا ٢٠٠ سنة وقليل من السنوات، إن كانت دعت إلى خير أو إلى مساواة أو إلى عدالة، فهي جزء من تأثرهم بالإسلام، ولا شيء غير ذلك، والمسلمون علموهم ذلك، لكنهم ينكرون ويجحدون كل فضل، ويصورونا بهذه الصورة الشنيعة.

وحتى لا نظلمهم، فهل يقصدون بهذه الصورة الشنيعة صورة الإنسان المسلم دائماً وأبداً؟ لا ندرى ولا نجزم، لكنهم يقصدون أقرب شيء يحتجون به على الإسلام أو على المسلمين وهو واقع المسلمين المعاصرين الآن، فلا نقول: إنهم يريدون بهذه الصورة الصحابة أو الجيل الأول أو الثاني ولا نستطيع أن نجزم، لكن الجيل الحاضر الآن هو الذي تنطبق عليه الملامح وتنطبق عليه الملابس التي صوروها وجعلوها.

ولنا دور كبير جداً، في الإساءة إلى أنفسنا وإلى ديننا، وكما قال الشاعر:

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

هكذا قالت العرب في حكمتها: ذموه بالحق وبالباطل؛ لأنه دعا الناس إلى ذمه، فمن يذهب إلى تلك البلاد - وهم كثير خاصة في هذه الأيام، وقد قلنا: ذكروا الناس وعظوم من السفر إلى بلاد الكفر - فإنه يدعو الناس إلى أن يذموه، وأن يذموا بلاده، دينه وحضارته وتاريخه بما يفعل من موبقات.

إن سكر الغربي قليلاً فيسكر هذا أضعافه، وإن زنا الغربي أحياناً، فهذا لا يذهب إلا ليزني -والعياذ بالله-، ولا نتكلم عن الأخيار الذين يذهبون لغرض شرعي محدود - وهذا قليل، ولكن أقصد من ذهب وهذا حاله فهم يتفتنون؛ بل نقول: يخرجون عن الحدود المألوفة حتى في الفجور والفساد، والفسق، والكفر. ولدئ كل واحد منهم مجموعة من الشيكات أو حزمة من الدولارات، وينفق ويبدّر ويتلاعب كما شاء، والعالم المتحضر حين يرى هؤلاء تتحسر قلوبهم.

ولذلك لا نقول: أين الضمير الغربي عندما يرى أموالنا تهدر، وعندما يأخذ خيراتنا، ويسيطر على كل مقوماتنا، لا نقول: أين ضمائرهم؟ لأننا -يا أخي- نحن سلبناه ضميره، فأبي ضمير عنده؟ لو رأيت مجنوناً أو طفلاً أو عابثاً يرمي الذهب ويكسره، أو يقطع الريالات ويرميها لقلت: أنا آخذها وأستفيد منها، أو أعمل بها مشروعاً خيرياً، أو أي شيء أحسن من هذا العابث اللاعب، فأعمالنا وتصرفاتنا هنالك تغريهم بأن ينسوا ضمائرهم وأن يتخلوا عنها.

ثم أي ضمير يبقى مع الحقد الذي تؤججه وسائل الإعلام ليلاً ونهاراً؟ وأي ضمير يبقى مع الدعاية الصهيونية والصليبية العريضة التي تلبس كل جريمة ثوب الإسلام؟ فإذا قبض على مجرم في نيويورك أو في أي مكان قالوا: متطرف إسلامي.

فكم مجرمًا سمعتموهم قبضوا عليه ونسبوه إلى دينه؟ قبضوا على بعض المجرمين في مصر، مع أنهم جاءوا إلى مصر في عمل تنصيري خبيث، وكان من جملة ما يعملون، أنهم يوزعون مصاحف محرقة فيها تغيير الآيات التي فيها المسيح وغيره، ليوافق دين النصارى ويوزعونها بين الجهال في مصر، واكتشفوا القضية ثم سفروهم وانتهى الأمر؛ وكأنه لم يحدث شيء.

ولم يقولوا: إنهم كفار بروتستانت أو نصارى أو كذا، وإنما: مجموعة من الأمريكان، وكانوا كذا. وانتهى الأمر، سبحان الله! حتى الجرائد التي نشرت هذا الخبر ليست من الجرائد الرسمية إنما هي إحدى الجرائد المعارضة - كما يسمونها - «الوفد»

أما نحن فنلبس ذلك.

حتى إن واحداً منهم في إحدى المجلات الإسلامية انتقد هذا، وكان عنده شيء من العدل، وقال: إن تحميل المسلمين لحادث تفجير المركز التجاري العالمي - جميع المسلمين - ذلك يشبه كما لو أن كوروش حمل النصارى جميعاً ما عمله، وقال: لماذا نحمل الإسلام؟ ليس من العدل.

فهكذا هم، ونحن الذين دعوناهم إلى مثل ذلك، ونشكر الأخ الذي أرسل هذه الرسالة، ونرجو إن شاء الله أن يوافينا بالمعلومات الأكثر؛ لأننا في حاجة أن نعرف هؤلاء ونعرف كيف نقاومهم، وكيف نجابههم، خاصة من فرض عليه أن يقوم هنالك؛ لأن الإخوة هنالك يقولون: كيف نعمل؟ وكيف يمكن أن نقاوم هذا؟ ونحن يجب علينا أن نمدهم بأي شيء نستطيعه، ليدروا الشر هناك في منابعه، وليروهم صورة الإنسان المسلم الطاهر التقي العفيف الورع الحكيم الذي لا يسرف في نفقته، وفي ماله، وفي مظهره ولا يقتر، نريد أن يروا الصورة الحسنة للإنسان المسلم، فيسلم منهم كثير بإذن الله، وهذا شيء طبيعي جداً أن يتقبل كثير منهم - بإذن الله - الإسلام، إن رأوا هذه الأخلاق - أخلاق النبوة -، فمن الواجب أن يكون بيننا هذه الصلة وهذا التعاون.

الصليب تسلل إلى أطفالنا:

نشرت جريدة المدينة يوم الخميس ٢٥ / ١ / ١٤١٤هـ مقالاً بعنوان «الصليب يتسلل إلى أطفالنا»، ونقول: الحرب ضد الإسلام والمسلمين تزداد عنفاً، والأعداء لم يتركوا وسيلة إلا واستخدموها لهدم عقول المسلمين في كل مكان، حتى الأطفال لم يسلموا من هذا الغزو، فشعار الصليب كما هو واضح تم إقحامه على لعب الأطفال في أسواقنا.

إن الأمر يحتاج إلى وقفة صادقة لمعرفة المسئول عن هذا التهاون، وهو كما ذكرت، ونشكر الجريدة والأخ المحرر الذي اهتم بهذا، ويجب أن نعلم أن مهمة الإعلام هي حماية العقيدة أولاً، ثم حماية الخلق وحماية كل مصالح الناس أيضاً بعد ذلك، لكن الأساس هو العقيدة.

تنمية أصحاب المواهب والقدرات:

السؤال:

لماذا لا يكون هناك محاضن ومراكز تهتم بأصحاب المواهب والقدرات وتنميتها كما هو الحال عند الغرب؟

الجواب:

أنا أشكر كل الإخوان الذين يتقدمون باقتراحات أو آراء حتى إن بعض الإخوان أحياناً يتقدم باقتراحات ليس لي دخل فيها ولا أستطيعها، فمثلاً: قد يكون هناك اقتراح تعنى به -مثلاً- شئون الحرمين أو أي إدارة أخرى، فالمهم أن الذي يفكر ويهتم بالإصلاح هذا فيه خير.

ولعل هذا الاقتراح -إن شاء الله- يصل إلى من يهمله الأمر، فينفع الله به، وإن كان -مثلاً- غير عملي أو لا يمكن فعله فأجر من قدمه وأيضاً من قرأه يكتب إن شاء الله، فمثل هذا الأخ اقترح اقتراحاً -جزاه الله خيراً- في تخصيص محاضن تعنى بأصحاب المواهب، ويريد تنمية أصحاب المواهب والقدرات، وكيف أن هناك في الغرب الكافر المتمرد على الله، ويرى تكريمهم لأصحاب القدرات وأصحاب المواهب، ونحن أولى بالتكريم منهم، والحكمة ضالة المسلم فأننى وجدها فهو أحق بها، فهو يقترح صورة معينة، وقد تكون هناك صور أخرى حول قضية كيف نستفيد من هذه المواهب.

ولا توجد أمة في العالم لديها من المواهب والطاقات العقلية ما لدى هذه الأمة، وإن شئتم أن أضرب مثلاً على ذلك، فلنفرض أننا وهم سواء -ولا أقصد العنصرية- من الناحية الجسدية والتكوينية، فإننا ستميز عليهم لأننا لسنا مثلهم؛ لأن الخمر والزنا وفقدان الأم والأب تأخذ من عقولهم وأفكارهم كثيراً جداً، فالطفل عندهم ينشأ بلا تربية أسرية سليمة وبلا تربية اجتماعية قيومة، ثم يدمن على الزنا -والعياذ بالله-، والفسق، والفساد، والمخدرات، والخمور لسنوات من شبابه، وقليل منهم من يسلم من هذا، أو يسلم له عقله.

إن هذا الذي يشتغل بنصف عقل أو بربع عقل وبهذه التربية المنحرفة أتى يكون أفضل من أمة لديها -والحمد لله- تربية قويمة مهما كان عندنا من خلل، فنحن أفضل منهم من جهة التربية، ومهما كان عندنا في التربية الأسرية من انحرافات أحياناً، فنحن أفضل منهم على أية حال وعلى أية صورة، نحن أفضل من الغرب في الجملة، لا نعني أحاد الناس، ونحن -والحمد لله- نخطط ونفكر بعقل كامل، فكيف يغلبنا هؤلاء.

المشكلة أننا نملك طاقات مهدرة ضائعة فمن ينميها ويربيها ويكتشفها؟! هذه هي المشكلة، فالنايغ مظلوم، وأحياناً نقول بلسان الحال - إن لم نقل بلسان المقال -: لا نريد النبوغ. فلنأخذ مثلاً صغيراً محدوداً: فمثلاً المدرسة أحياناً يكاد المدرس يقول: لا أريد أن يكون من طلابي من يرد عليّ ويصحح أخطائي، أنا لا أريد طلاباً نابغين، بحيث إنه يكتشف أخطائي ويلاحظ علي، وكلما كانوا وسطاً أو أغبياء كانوا أحسن لي. والمدير -أيضاً- يريد أن يكون المدرسون كلهم -أيضاً- أغبياء أو وسطاً، حتى لا يكون هناك من هو أفضل منه.

وكذلك -مثلاً- رئيس إدارة أو شركة لا يريد أحداً أن يأتي برأي أفضل من رأيه، فكأننا نقول: لا نريد النبوغ والنايغين. فيأتي أحدهم برأي جديد كتطوير فكرة معينة، فيقال له: هذا كلام فارغ ولا يصلح. ودع كل شيء مثلما هو، إياك أن تطور شيئاً، وإياك أن تُبدع، أو تفكر، أو تقترح، اتركه كما هو، ودع الأمور تسير مثلما هي، مهما كان فيها من الأخطاء. هذه مشكلة، ولا يمكن أن تنهض الأمة وهذا حالها، وهذا شأنها، أما لو فتح المجال للإبداع وللفكر، وقيل لصاحب الفكرة: نشكرك يا أخي الكريم مثلاً أو يا بني، أو يا تلميذي، أو يا أخي، أو يا زميلي في العمل على الفكرة. لكن -مثلاً- لا نستطيع أن ننفذها لهان الخطب، لكن مع هذا، فينبغي أن تشكره لأنه فكر.

فنحن من ضيق أفقنا، وضيق تفكيرنا أصبحنا نضيق وننفجر بالضحك بمجرد معرفة الاقتراح، وأنه لا يوجد بل ولا نريد تغيير، بل ربما يصل الأمر إلى الاتهامات وتركب على الشخص ألف تهمة، فنقول لهؤلاء: إن لم يعجبك الاقتراح -على الأقل-

فلا توجد مشكلة، اسمعه، وافتح صدرك له ولغيره من الناس، وفكر بعقل غيرك لا بعقل واحد تريد أن تسيّر عليه كل الإدارة.

ولذلك الغرب الخبيث الكافر المارد، وبالذات أمريكا تفوقت على غيرها، لأنها لا يهملها أن يأتي هذا العقل من أي بلد، اذهب إلى مستشفياتهم ومؤسساتهم، تجد الصيني والهندي، والأفريقي، والمصري، والتركي، والياباني، والألماني، وكل جنس تجده في أمريكا في الأمور المهمة الحساسة القوية العميقة، سبحان الله! لم يُنم المواهب التي عنده فقط، بل يشتري العقل من أي مكان، ويغريه بأعظم الإغراءات، وأي طالب يأخذ الامتياز، ويتخرج بدورة الامتياز، فيحق له أن يأخذ الإقامة الدائمة، ويبقى عندهم لأنه أخذ الامتياز.

ونحن نستغرب من تلك الأمة تريد أن تتفوق، وتحرص على الامتياز، وعندها من أبنائها من يكفي ومع ذلك أعطت المجال لغير أبنائها أيضًا؛ لأنها تريد أن توظف هذه الخبرات لها في باطلها وفي كفرها وفي كبرياتها وفي تسلطها على عباد الله، فنحن أولى بذلك.

فالمهم أنه اقتراح جيد ونشكر كل أخ يحاول أن يقترح ليطور الدعوة، ويحرك التطوير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي النواحي العلمية، وفي المجالات التربوية، وأكثرنا له علاقة بالأمور التربوية إن لم يكن مدرسًا فبدعوته، فكل داعية هو مربٍ إلى أن يطور فكره لكي يعمل أفضل.

والحكمة ضالة المؤمن فعسى أن يفتح الله تبارك وتعالى عليك بأمر، وكم من أفكار عظيمة تتبناها مجالس عليا أو قيادية انبثق أصلها من فكرة إنسان عادي جدًا طورها ونقحها، ثم قدمها إلى من أضاف إليها أو عدل فيها حتى صار لها قيمة وفائدة.

وثيقة جون ميجور:

هذه الوثيقة لجون ميجور تكلمنا عليها فيما مضى، فالنص الإنجليزي موجود، ولا نجزم بالنص، ويمكن أن نقول: إن الوثيقة مزورة، فنحن لا يهمنا أن نجادل أنه كتب

هذا الكلام أم لا، لكن هل لهذه الحقائق واقع أو لا؟ هذا الذي يهمنا.

ما قيل في هذه الوثيقة هو حقائق واقعية وهذه مجلة المجتمع وغيرها نشرت هذا وهو منشور أصلاً في صحيفة «ليليان البسنية»، والمصادر التي نُسبت إليها هي مصادر إسلامية استطاعت أن تصل إلى هذه الوثيقة، فعلى أية حال هذا جزء مما تحدثنا عنه آنفاً في أن العدو عدو ولا تلمه.

وهذا عمر أبو ريشة عندما قال:

لا يلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم

وهي قصيدة معروفة بعد الهزيمة التي يسمونها النكسة أو النكبة ومطلعها:

أمّتي هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم

فلا تلم الذئب؛ لأن الذئب إنما خلقه الله، وكانت له تلك الأنياب والمخالب ليفترس، وإنما المشكلة فينا نحن أننا فرطنا، وجعلنا أمتنا فريسة لهؤلاء في البوسنة أو في أي مكان.

القرارات الدولية والكيل بمكيالين:

وفي الصفحة الأخرى من مجلة «المجتمع» نقراً: «تأديب عيديد وتدليل كراديتش».

وهذا شيء عجيب جداً أن نتعاطف مع «عيديد»، و«عيديد» علماني مهمما قال: الإسلام أو الجهاد. فالمصلحة بالنسبة له هي نفعية، ولكن حتى على معيارهم هم، لماذا هذه المعاملة غير المتوازنة؟ فهذا يجب أن يقبض عليه ويؤدب وأن يفعل به وهو في بلده، وأما ذلك فيخالف القرارات الدولية، والشرعية الدولية والإجماع الدولي ويتحدئ الجميع، ويدلل، فكل مرة تأتي خطة أفسد وأضعف مما قبلها، وتعطي الفرصة.

لكن قضية المسلمين في البوسنة والهرسك تثير العجب، ولو تأملت أي نشرة

أخبار أو تصريح غربي، أو أي كلام على ما سوف يفعلونه، لوجدت فحوى الكلام دائماً كالذي يقول: أيها الصرب، عجلوا عجلوا، ما فعلتم شيئاً، انتهوا سوف نعقد مؤتمراً، نجعل كذا، ونجمع كذا، ونقرر.

كل هذا وكأنهم يقولون للصرب: هل انتهيت من المسلمين؟! فيقولون: ليس بعد. فيقولون: حسناً نغير الخطة، ويدعون المسلمين إلى خطط أخرى ومؤتمرات، ثم يقولون بلسان حالهم: هل انتهيت منهم أيها الصرب، فيقولون: تبقى القليل، فيدعونا الغرب من جديد إلى مؤتمرات وحلول وخطة أخرى وهكذا، ونحن المسلمين لا نعمل شيئاً إيجابياً.

إن مشكلتنا من أنفسنا، والله تعالى قال عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فمشكلتنا في البوسنة والهرسك من عند أنفسنا.

وليست المشكلة وليدة الآن، فعندما دخلت الجيوش التركية فاتحة، وفتحت تلك البلاد، بدأ الخطأ من تلك الأيام، فالحرب بين الصرب والترك قديم، وتدخل الإنجليز والأوربيين فيه قديم، ولو قرأنا تاريخ البوسنة فسنجد العجب كله، وإن ما يدور الآن هو صفحة من ماض، على وتيرة واحدة، وعلى منوال واحد، وعلى منهج واحد، والسبب فيه هو نحن أصلاً.

فلم يدخل العثمانيون والأترک فاتحين مسلمين بالمعنى الكامل الصحيح، إنما كانوا يقاتلونهم، فإذا غلبوهم دعوهم في الجملة إلى الإسلام، وإلا بقوا مسيطرين عليهم بالقوة، ويبقى أولئك على دينهم.

وإلا فاليونان والبلقان ويوغسلافيا هذه الجمهوريات وما حولها جزء كبير من الدول الشرقية ورومانيا كلها دخلها العثمانيون فاتحين، فلو نشروا العقيدة الصحيحة واللغة العربية، وأدخلوا الناس في دين الإسلام - لكانوا مسلمين جميعاً.

حكومة مسلمة تحكمهم (٤٠٠) سنة، ثم تخرج عنهم، فإذا بالمسلمين أقلية! نحن

أصلاً ما كنا حملة عقيدة، ولا حملة رسالة بوعي.

صحيح أن الدولة العثمانية كانت دولة قوة وجهاد لا ينكر ذلك احد، والحمد لله أنها دفعت شر أوروبا فحولت المعركة من بلاد الشام ومصر، إلى أن صارت المعركة في قلب أوروبا نفسها، وهذا لا شك عمل كبير.

لكن المشكلة أن الجهاد بلا عقيدة ولا علم ولا فقه لا يصلح، لا للأمم ولا حتى للأفراد.

فالجهاد لا بد أن يكون على عقيدة وعلى علم، وعلى معرفة تفصيلية بما أنزل الله تبارك وتعالى، كما جاهد النبي ﷺ وجاهد أصحابه، فيفتحون البلاد وإذا بهذا البلد المفتوح، يفتح الله قلوب أهله، فيدخلون في دين الله أفواجا، ويأتون إلى هؤلاء الرجال الأخيار يتعلمون منهم الدين، ثم ينشرون هم الدين، ويصبحون مجاهدين ولكن قوة الحديد والنار والسيطرة العسكرية وحدها لا تدوم إلى الأبد، وهذا ما وقعت فيه الدولة العثمانية من خطأ كبير.

فلما جاءت الشيوعية وجاء تيتو صديق العرب! وانظروا من أصدقاؤه من العرب: جمال عبد الناصر، وحزب البعث، وأمثالهم ممن بعضهم باقٍ وبعضهم أهلكه الله.

وتيتو هو الذي قتل المسلمين في يوغسلافيا، ومحا معالم الإسلام أيضًا.

كوشيجين وخرباتشوف واستالين الذين فعلوا بالمسلمين ما فعلوا في روسيا.

ونيري الذي قتل المسلمين في زنجبار، ونهرو الذي فعل بالمسلمين في الهند وما حولها ما فعل، ومكاريوس الذي قتل المسلمين في قبرص، وأعداء الإسلام جميعًا كانوا كلهم أصدقاء للقومية العربية.

فالمقصود من الحديث أن ما بنا فهو من عند أنفسنا فعلاً، فقد صادق القوميون العرب أعداء الإسلام، وأعانوا على قتل إخوانهم المسلمين، وأمدوهم بالمال وبكل أنواع العلاقات.

وأبيد من المسلمين من أبيد، وفرقوا ومزقوا، ثم لما ذهبت الشيوعية وتهاوت - لا ردها الله - وأخذ المسلمون يبحثون عن الذات، والعالم كله بدأت فيه عودة إلى الدين، أراد المسلمون أن يرجعوا إلى دينهم، وقامت لهم دولة اعترف بها العالم، فكانت المأساة وبدأنا ندفع ضريبة قرون وعقود من المآسي والجهل والانحراف والضياع.

وأحدنا يتعجب من الكروات! لم يصمدوا أمام الصرب ولا ساعات، والمسلمون الآن سنة وهم صامدون شيء عجيب، وهم بهذا الضعف وفيهم هذا الانحراف وهذا الخلل، وهذا القصور، وهذا التمزق، فلو أننا أمة مؤمنة حقاً، لكان من يقاتل الآن في البوسنة في إمكانه أن يهزم أكبر جيش أوروبي، وأن يفتح أوروبا بإذن الله؛ لأن قوتنا نحن في عقيدتنا وفي إيماننا، كما قال عمر رضي الله عنه: «إنما يغلب المسلمون أعداءهم بتقواهم وإيمانهم، وبكفر أعدائهم، فإذا استوينا نحن وهم في المعصية، كان لهم فضل علينا في القوة».

فسبحان الله! انظروا هذا الصبر العجيب للبسنويين الآن وهذا الصمود، وأحياناً تتحقق لهم انتصارات، وهم في أول طريق العودة والأوبة إلى الله، وهذا هو السر المزعج الذي يزعج الغرب، ويجعله يفقد توازنه.

فنجد أن كراديتش مجرم الحرب قد قتل من جنود الأمم المتحدة قرابة (٥٠) فرداً، ويمنع قوافل الأمم المتحدة من المرور ويطلق عليها النار كل يوم، ومع ذلك يتنقل بين عواصم العالم ويستقبل كزعيم يقابله الممثلون الدوليون وكأن شيئاً لم يكن.

وهذا «عيديد» عندما قتل مجموعة من الباكستانيين، هرب الأمريكان، فصار المسلم يقتل المسلم ولم نستفد شيئاً، لكن مع ذلك لم يقتل «عيديد» جنود الأمم المتحدة، فإذا به يضرب ويُدمر، وأصبح يُقتل حتى العوام في الصومال، وحتى المستشفى يدمر؛ لأن النار أطلقت على جنود الأمم المتحدة، والذين في البوسنة أليسوا جنوداً للأمم المتحدة، فانظر كيف المعيار.

إن أعداء الدين يعرفون خطر هذا الدين، وأن خطره عليهم يكمن في العقيدة وفي

الجهاد وما يسمونه الأصولية والتطرف، فعندهم هيبة ورعب يقذفه الله تعالى في قلوبهم، كما قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(١). وهذا ليس لشخصه ﷺ فحسب، بل لجيوشه ولكل من يدافع لنصرة دينه، وذلك مثل ما جاء في الحديث: «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»^(٢).

هذا أيضًا من آيات الله ومن فضل الله ومن مزايا هذه الأمة وتفضيل النبي ﷺ فهو له ولهذه الأمة كلهم.

والمقصود أن هذا جانب من جوانب الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الأعداء.

كما أنهم يمتلكون قوة حقيقية غريبة لا يستطيع الكفار أن يواجهوها، وإلا فلماذا يذهب الشاب المسلم إلى أمريكا، ويدعو إلى الله على نافلة الوقت، ولا يرجع - بإذن الله - إلا وقد أسلم على يديه مجموعة من هؤلاء، وعن رضا وطواعية واختيار ومحبة في الدين، ويصبح قلبه وولائه إسلاميًا، سبحان الله! وهم يعثون آلاف المنصرين من أجل هذا، ومن تنصر فهو لجهله صحيح أنهم ينصرون بالملايين، ولا تقلل من أهميتهم، لكن لا يستطيعون أن يملكوا قلبه وشعوره ولبه، فسبحان الله! فرق كبير بين الأمرين، وإن كان في الظاهر أن هناك نجاح.

إذن هذا الدين سره العجيب أنه حق، وأنه من عند الله ﷻ، وأن الله ﷻ تكفل أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

ولكن مهما أيقنوا أن الله مظهر دينه فإنهم لا يكفون عن محاربتة بأنفسهم أو بعملائهم أو بأجهزتهم، فأى شيء أنت تراه عاديًا جدًا يخيفهم؛ لأن أهل الباطل دائمًا يخافون من الحق.

فلو أن عصابة اجتمعت من أعتى الدهاة فكريًا، وسرقوا مالا لأحد، ورآهم طفل،

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) تقدم تخريجه.

لظلوا يخافون من هذا الطفل الصغير أن يتكلم عليهم ويدلي بأوصافهم؛ لأنهم على فجور وباطل، وذلك الطفل على حق؛ فلذلك نحن مهما كان ضعفنا؛ فإنهم يخافون من أي عمل نعمله، ويخافون من أي داعية يدعو، ومن أي كتاب، ومن أي فكرة وإن كانت صغيرة، يخافون منها؛ لأنها حق، وهم يعلمون أنهم على باطل.

فمن هنا نعرف أن أول وأهم غرض يجب أن نسعى إليه هو أن نزرع هذه العقيدة والإيمان والولاء والبراء في نفوس هذه الأمة، فالعقيدة ليست كلامًا مجردًا ونظريات مجردة. بل لابد أن تظهر العقيدة عمليًا في صورة الولاء والبراء، بأن توالي من والى الله ورسوله، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعلن ذلك وتجتهد فيه.

ومن هنا يجب أن نعلم أن أي حدث يقع في أي بلد من بلاد المسلمين لا يصح أن يفسر بأي تفسير، ولا يبنى إلا على أصل العقيدة والطاعة والمعصية.

والقاعدة التي علمنا الله تبارك وتعالى إياها في كتابه وعلمناها رسول الله ﷺ أن هذه المصائب، وهذه المحن وتسلط أعداء الله علينا، لا تفسر إلا بمعصيتنا لله لنرجع إلى الله، كما قال النبي ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، واشتغلتم بالزرع، وأخذتم بأذنان البقر، وتركتم الجهاد - سلط الله عليكم ذلًا لا يرفعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم». هذا هو الأساس الذي يجب أن يكون معلومًا لدينا إن شاء الله.

النقل الجماعي والشريط الخبيث:

السؤال:

نرجو من فضيلتكم توجيه نصيحة لشركات النقل الجماعي التي توظف عمالًا أو سائقي باصات من النصاري، وقد وجد مؤخرًا شريط يباع في عدة تسجيلات يحمل الكثير من الخبث ويباع بريال واحد؟

الجواب:

هاتان قضيتان:

الأولى: تتعلق بشركة النقل الجماعي، وقد بلغنا أن بعضًا من الحافلات قد يكون

السائق فيها نصرانيًا، ويفتح المسجل، ويضع فيه شريطًا تنصيريًا.

وبعض الحافلات على الطريق الطويل فيها تلفزيون أو فيديو وتعرض أفلامًا غير لائقة، فهذه بعض الملاحظات على النقل الجماعي، نرجو التأكد منها والتثبت من ذلك، وعلى أية حال فالمهم أن التناصح واجب بيننا وبينهم.

وأنصحهم بنصيحة أخرى وهذه منذ زمن وأنا أتحين الفرصة لها، أن شركة النقل الجماعي توظف في بعض ورشها، أو في كثير منها النصاري، وأسوأ من ذلك أن بعضهم إذا أسلم، فإنه لا يعامل المعاملة اللائقة، فلعل هذا الصوت يصل إليهم إن شاء الله، ولعل من فيه غيرة منهم - ونرجو أن يكونوا كثيرين إن شاء الله - أن يهتم بهذا الموضوع. والموضوع الآخر يقول الأخ: إن هذا الشريط كما ترون وهو شريط مغلف وملون بشكل جميل، يبدو أنه باللغة التركية - والله أعلم - يقول: وهذا الشريط يباع بريال واحد في تسجيلات - ذكر اسمها - وهو من أقبح الأشرطة، وهو وسيلة لمحاربة دين الله.

علمًا بأنه لا توجد أي تسجيلات إسلامية تباع بهذا السعر، كيف يعقل أن تكلفته وتسجيله ريال واحد؟! إذن الأشرطة مدعومة، ولها أغراض خبيثة، أو وراءها ما وراءها، وإلا كيف يكون بريال واحد لاغير؟ كل واحد يحللها بما يشاء.

والمقصود هذا الخبث والخلاعة، والفجور، والتنصير وبريال، هذا ريال للمفرد، والذي يأخذ بالجملة، فبكم سيكون؟ معنى ذلك أن هناك أيادٍ خبيثة تريد أن تهدم الإسلام والعقيدة الصحيحة، ولنفرض أنه لا يشتريه أو لا يسمعه إلا من يفهم هذه اللغة - إن كانت تركية أو أي لغة - أليس من الواجب علينا - وهؤلاء بين ظهرانينا - أن نعلمهم العقيدة الصحيحة وندعوهم إلى الله.

كم عندنا من الدروس باللغة التركية في جدة؟، لا أعرف درسًا، مع أن الأتراك في جدة بالآلاف، فانظروا المطاعم، وهناك شركات كثيرة وغيرها ولا يوجد درس واحد لهم! إذن فنحن قد تركناهم فريسة لهؤلاء، فيأتي هؤلاء بهذه الأشرطة، وأشرطة الفيديو

أخبت، ومجلات تأتي من تركيا أخبت، وليست تركيا وحدها، هذا مثال فحسب، وهناك أيضًا الفلبين وتايلاند وعندك من هم أشد، ونحن المقصرون في هذا الواجب، نسأل الله ﷻ أن يوفقنا لتلافي ذلك، وألا يجعل حديثنا دائمًا على سبيل أن نلوم أنفسنا أو بعضنا يلوم بعضًا، نريد أن يدفنا كل ما يأتي من هذه الأمور للعمل، فلنفكر جميعًا على الأقل فيما نستطيع.

أنا أخذ كتيبات باللغة التركية، وأعطي صاحب المطعم الذي بجواري في الحي، واشتري منه، إن كان يفهم اللغة العربية أيضًا أكلمه بها.

وبالمناسبة -أيضًا- لو كان عندكم بعض الكتب عن الرفضة أو عقائدهم فاعطوهم إياها؛ لأن كثيرًا من الأتراك المتكلمين باللغة العربية، والذين يعملون بالمطاعم والمسالخ هم نصيرية علوية، فهم من أقبح أنواع الرفضة من جنس النصيرية الذين في سوريا.

إذن لا بد أن ندعوهم إلى الله ونعرفهم العقيدة الصحيحة، وإلا حرمت ذبيحتهم علينا وأكلهم وطبخهم، ولا ندري فهم -أيضًا- يتعمدون أن يفسدوا علينا شيئًا من ذلك.

وللأسف أن المرء منا يأتي بالعمال أيًا كانوا، فيهمه أنهم متميزون في نظره، ويقومون بالواجب في الشغل، ولا يسأل عن دينهم ولا عن عقيدتهم، وأيضًا الزبائن من أمثالنا، يهمه أن يشتري ويمشي، ولا يفكر كيف يدعوهم، وهكذا نصبح نحن المقصرين بكل حال، ونحن مسئولون بأي حال.

ما هو واجبنا؟

هذه العبر سواء ما يتعلق منها بالواقع العالمي، أم بالواقع المحلي، أم ما نراه من مثل هذه النشرات والأشرطة والدعايات والبضائع، وكل هذه تذكرنا أن عقيدتنا مستهدفة، وأن الواجب علينا أن نحافظ عليها، ولا يكفي أن نقول -الحمد لله- نحن مسلمون وطيبون وموحدون ونحن ما قلنا: إننا مشركون، لكن قد ننسى هذا ونضيعه،

وقد نصير إلى حالة، كما ذكرها الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] شَعَرَ أو لم يشعر.

تنتشر شعائر الكفر، وتنتشر معالمه، وتنتشر دعاياته، ويحجب إلى نفوس الناشئين من الأجيال، غير ما في البث المباشر ومصائب الدشوش وغير ما في الصحف وغير ما في الإعلام الذي أصبح مفتوحاً للعالم كله، ونحن ما قمنا بالواجب لا في المسجد، ولا في الإدارة، ولا في العمل الذي نعمل فيه.

فبارك الله فيكم اجتهدوا في هذا، ولا تملوا أن يكرر عليكم هذا الكلام؛ لأن الأعداء يستفزوننا كل حين، والشيطان عدونا يعمل كل حين، فيجب أن نذكر أنفسنا أيضاً، ونعمل كل ما نستطيع، ولا يقول الواحد منا: إنه لا يستطيع أن يتكلم أو يعظ. فمثلاً خذ كتاباً أو نشرة أو شريطاً وأعطه من يستفيد منه.

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا وإياكم إلى ما يحب ويرضى، وأن يجعلنا من الدعاة إليه على منهج رسوله ﷺ إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

* الأولياء هم في عموم هذه الأمة فمنهم التجار، والصناع، والزراع، والمجاهدون، والقراء، والعلماء.

* نحن من يسيء إلى أنفسنا وإلى ديننا والدعوة إلى هذا الدين؛ بواقنا المعاصر المخالف لتعاليم الإسلام إلا من رحم الله.

* هذه المصائب والمحن لا تفسر إلا بمعصيتنا لله، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

* المجنون ومن يعتره الجنون لا يكون ولياً لله كما يزعم ذلك الصوفية وأمثالهم.

* لفظة أهل السنة تطلق ويراد بها أحد معنيين: الأول المعنى العام: وهو السنة

ضد الشيعة والثاني: المعنى الخاص: هم الذين لم يتلبسوا بأية بدعة.

* استطاعت الدولة العثمانية أن تدفع شر أوروبا، وحولت المعركة إلى قلبها.

* أهل الباطل دائماً يخافون من الحق ولو كان صغيراً.

* علوم أهل السنة هم من عوام الأولياء، وعلماء أهل السنة العاملون هم من

خاصة الأولياء.

* صادق القوميون العرب أعداء الإسلام، وأعانوهم على قتل إخوانهم

المسلمين، وأمدوهم بالمال وبكل أنواع العلاقات.

* * *

صفات عباد الرحمن

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، اللهم لك الحمد بالإسلام، اللهم لك الحمد بالإيمان، اللهم لك الحمد بالقرآن، اللهم لك الحمد على ما أنعمت به من أخوة الإيمان ومحبة التقوى، ولك الحمد على ما جمعت به وله هذه الوجوه الخيرة الطيبة، ولك الحمد أولاً وآخراً، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد بعد الرضا، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك، وصفوتك وخيرتك من خلقك محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، الذين فرضوا وسنوا سنة الأخوة في الله، والتآخي في ذات الله، والمحبة والتزاور في جلال الله تبارك وتعالى، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، فصلِّ اللهم وسلم وبارك عليهم، واجعلنا ممن يقتفي أثرهم، وينتهج نهجهم، ويسير على خطاهم، إنك على كل شيء قدير.

أما بعد:

شيوخنا العلماء، وآبائي شيوخ القبائل الكرام، وإخواني الكرام -أجمعين- الصغير منهم والكبير في هذه القبيلة الطيبة بني كنانة، وفي هذه المنطقة عامة - إن اللسان ليعجز عن التعبير، وإن البيان ليتلثم ويتردد عندما يكون الموقف مثل هذا الموقف، ماذا نقول لهؤلاء الآباء والإخوة الكرام، الذين أنزلونا منزلة لا نستحقها، ولكن هكذا أرادوا وهكذا دفعتهم محبتهم وليس في إمكاننا إلا أن نقول: اللهم اغفر لنا ما لا يعلمون، واجعلنا خيراً مما يظنون.

نعم، إنَّ اللقاء في الله، والمحبة فيه، والاجتماع لذكره - هو خير ما يسعى له العبد المؤمن، فاغترنا - من أجل ذلك وفي سبيله - كل ما يقال وكل ما لا نرضى، ولو أقررنا أو أخذ رأينا فإننا لا نقره.

وإنما نريد من جميع ومن الإخوان - أكرمهم الله وجزاهم الله خيراً - ثمرة اللقاء وخلاصته؛ وهي الدعوة بظهور الغيب لكل من يدعو إلى الله ﷻ؛ ونريد من الإخوة

الكرام وفيهم الأولياء والصالحون والمتقون بإذن الله أن ينصروا دين الله تبارك وتعالى، فهو أعظم من الأشخاص وأجل منهم - وإن كان من سنة الله ألا يقوم الدين إلا بأفراد وأشخاص -.

ونريد من آبائنا وإخواننا - وهم سلالة تلك النخبة الطاهرة النقية من صحابة رسول الله ﷺ وعلماء الأمة وخيارها، والتابعين لهم بإحسان، والمجددين في كل القرون - أن يجعلوا - بإذن الله - هذه العواطف الجياشة، وهذا الشعور الفياض قوة دافعة لرفع كلمة الله، ولإعلاء دين الله، ولمؤازرة من يدعو إلى الله، ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في كل قرية وفي كل قبيلة وفي كل مكان من أرجاء المعمورة، وإنهم لأهل لذلك بإذن الله.

إنَّ الجميع يشكرونكم - وأنا لا أعبّر عن مشاعري وحدي - ويرون في وجوهكم وملامحكم مشاعر الصدق والأخوة والمحبة الخالصة، والجميع يريدون - بإذن الله تبارك وتعالى - أن نكون يدًا واحدة من أجل إعلاء كلمة الله، فلا نريد دنيا ولا جاهًا ولا مالًا ولا فخرا ولا خيلاء ولا مباهاة، وإنما نريد جميعًا وجه الله تبارك وتعالى، ونريد الدار الآخرة وما أعد الله تبارك وتعالى لعبادة المتقين وأوليائه الصالحين: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦] فشكر الله لكم أولاً، وشكر لكم آخرًا، وجزاكم عنا كل خير.

ونخص بالذكر والشكر أخانا الكريم ابن هذه القبيلة الشيخ عبد العزيز - حفظه الله وجزاه عنا كل خير - فقد كان له الفضل، وقد كنت أقول لأهل هذه القبيلة عامة: إن ما قام به - جزاه الله خيرًا يكفي وينوب لا عن قبيلة بني كنانة خاصة بل عن زهران كافة؛ ولكن كرمكم أصر وألح إلا أن يكون له لقاء ويكون لكم لقاء، فجزاكم الله وإياه خير الجزاء.

ثم أيها الإخوة الكرام - كما تفضل الإخوة - إنما غرض الاجتماع واللقيا هو التواصي بذكر الله: التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وإن الإنسان عندما يأتي إلى أمثالكم يتحير في أي موضوع يتحدث فيه، وأي وصية يريد أن يوصي بها، وأي مقال يتكلم به، ولكن كل مرة أجد نفسي لا بد أن أتكلم من وحي الوحي، من وحي كتاب الله تبارك وتعالى، فكلما تأمل الإنسان هذا الكتاب العظيم، والذكر المبين، والصراط المستقيم، الذي لا يمل منه القراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الترداد، فإنه لن يرضى غيره بديلاً.

وعندما قرأ الإمام -حفظه الله وجزاه خيراً- هذه الآيات البينات من أواخر سورة الفرقان ذهب كل موضوع واستجمع الذهن كله إلا أن يكون الحديث عن هذه الآيات البينات، بل عن شيء ونزر يسير مما توحى إليه هذه الآيات العظيمة من كتاب الله تبارك وتعالى.

فهذا الكتاب هو الذي يجب أن يكون في أيدينا وفي قلوبنا، ملء أسماعنا وأبصارنا، نعظ به أنفسنا، وندعو الناس به وإليه؛ كما قال الله تبارك وتعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ أَنْ مَتَّخِفُوا وَيَعِذِ اللَّهُ بِالْبُاطِلِ﴾ [ق: ٥٥] وجاء في الآيات الأخرى في سورة إبراهيم قول الله تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

ومن أعظم أنواع التذكير: التذكير بالقرآن وبالآيات المشاهدة المحسوسة من أيام الله، ومن وقائع الله تبارك وتعالى في الذين من قبلنا، وفي مصارع الأمم ومهالكها.

فمن لم يعتبر ويتعظ بالقرآن ولا بأيام الله في الذين حلوا من قبلنا كقوم نوح وعاد وthumb، والذين من بعدهم قرونًا بعد ذلك كثيرة؛ فبماذا يتعظ وبماذا يعتبر؟

معنى تبارك وتعالى:

والله تبارك وتعالى في هذه الآيات البينات يقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] سبحان الله وتبارك! هذه الكلمة ككثير من ألفاظ القرآن، خير ما تفسرها به هي نفسها، فلو قلت: ما معنى تبارك؟ فإنك لن تجد أفضل من أن تقول: تبارك الله، فهي كلمة واضحة والقلب يستشربها ويستشعرها من غير أن يفسرها، وفي

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله: ﴿تَبْرَكَ الَّذِي يَدِيَهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١] فتبارك الله، أي: تعالى وتقدس، وهي بذاتها - كما قلت - كافية.

الرد على الكفار في إنكارهم للرحمن:

إن الله تبارك وتعالى - في أواخر هذه الآيات العظيمة - يريد أن يرد على الكفار الذين أمروا بأن يعبدوا الله، وأنه تبارك وتعالى من أعظم وأجل أسمائه اسم الرحمن، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: اسم الله أو الرحمن، وهما أعظم أسماء الله ﷻ؛ لكن ماذا قال المشركون: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال بعضهم: «لا نعرف رحماناً إلا رحمان اليمامة» مكرًا واستهزاءً وسخرية؛ فذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات العظيمة دلائل كونه الرحمن تبارك وتعالى.

والدلائل على أنه الرحمن وعلى أنه المعبود الحق تأتي على نوعين:

النوع الأول: الدلائل والآيات الكونية:

وهي آيات عظيمة باهرة عجيبة، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، فنجد آيات عجيبة في هذا الكون الممدود أمامنا؛ ولذلك عندما تتأمل في أي شيء يرتد إليك البصر خاسئًا وهو حسير، فانظر إلى الآفاق أمامك! وانظر إلى الجبال! وانظر إلى السحاب والسماء! ماذا ترى من آيات الله تبارك وتعالى! ترى آيات كونية عظيمة، فالكواكب والنجوم والمنازل التي هي البروج، عجز العلماء في كل زمان ومكان - حتى في عصر المكبرات والمقربات والمراصد الضخمة - عن أن يعرفوا أبعاد ونهايات هذا الكون وهذه الكواكب والشموس؛ وهذه المجرات العظيمة، فيقولون: إنها لا نهاية لها، ونحن نعلم أن لها نهاية، غير أن كل ما لا يستطيعون إدراكه يقولون عنه: لا نهاية له، من شدة أبعاده.

ف نقول: كل ذلك في حدود السماء الدنيا؛ فما بالك بالسموات السبع؟! فما بالك بالكرسي؟! فما بالك بالعرش وهو أعظم المخلوقات؟! وفوق العرش رب العالمين تبارك وتعالى فسبحان الله! ما أعظم الله! وما أعظم الدلائل البينة على قدرته وكماله وعلوه وقهره تبارك وتعالى! فهذه البروج هي دلائل عجيبة.

ثم ذكر الله تبارك وتعالى آيتين صغيرتين نراهما نحن كبيرتين، وهما في الحقيقة صغيرتان بالنسبة إلى الكون العظيم، وإلى خلق الله، وملك الله، وهما: الشمس والقمر، فهما آيتان عظيمتان، ولولا أن العقول البشرية إذا تكرر عليها شيء، فإنها تنساه حتى لا تكاد تذكره؛ لكان أعظم شيء في هذه الدنيا هو الشمس؛ ولولا أنها تتكرر كل يوم؛ لكان الناس كل يوم يجلسون في بيوتهم ينتظرونها متى تظهر ويتعجبون منها! فقد أصبح الكثير منا لا ينظر إليها ولا يدري متى أشرقت أو متى غربت، ولا شك أن هذا من الغفلة! لكن لو تأمل الإنسان في هذه الشمس لرأى عجباً! ما هذا السراج الوهاج؟! ما هذه الأشعة؟ ومن أين يأتي هذا الضوء من مسافات هائلة بهذه الدقة، وبهذه المواعيد؛ لتستقيم حياتنا ومعاشنا، فتتضج الثمار ويكبر الصغار، وتكون الحياة، وتكون عملية التبخر، وعملية إنشاء السحاب الثقال، والأمطار والزهور والورود.

عمليات كثيرة جداً، منها ما يتكلم عنه علماء الأحياء والطبيعة، ومنها ما لا يتكلمون عنه، ومنها ما يراها العامي، ومنها ما يدركها الفلاح، ومنها ما يدركها العالم الكبير، وتزداد الأيام والليالي توسعاً في هذا العلم عن هذه الآية العظيمة من آيات الله، ولا تنتهي أبداً فهذه الشمس وهي: فهي السراج.

أما القمر فكما قال تعالى: ﴿وَكَمَرًا مِّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] أي: إن للقمر نوراً، فالله تعالى قد جعل الشمس ضياءً وسراجاً، وجعل القمر نوراً، فهو ليس سراجاً أي: مشتعلاً؛ وإنما هو نور يعكس -بقدره الله تبارك وتعالى- ضوء الشمس.

وأنت لا تدخل مكتباً من مكاتب الدنيا لموظف أو عامل إلا وأمامه تقويم من أجل المواعيد، ومعرفة الأيام؛ لأن الله تعالى يعرف حاجتنا إلى أن نعرف عدد السنين

والحساب كما قال سبحانه: ﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابَ﴾ [يونس: ٥]، فقد جعل لنا هذه العلامة - القمر - تقويمًا عجيبيًا جدًا اختص به المسلمين، ولكن مع الأسف - وهذا من جملة أمور تركناها من الأصالة وهي من الدين ومن الخير والفضيلة، ثم أخذنا نتشبه بالكفار، تركنا تقويمنا وأخذنا نحسب بأشهر الكفار.

فنقول: هذه آية عظيمة، فالإنسان إن كان عاميًا أو كان فلاحًا، إن كان في البادية أو كان في أي مكان، فإنه يستطيع أن يعرف أن هذا نصف الشهر أو آخره؛ وكذلك جعل الله تبارك وتعالى الحج، وجعل العبادات كالصيام والصلاة مرتبطة أيضًا بالشمس، وبهذا الذي هو تقويم في كبد السماء، واضح جلي عجيب، فهو يراه كل الناس فيعرفون نعمة الله تبارك وتعالى عليهم، كما ذكر الله ﷻ في كتابه، فقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ نَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]، فالله ﷻ فصل لنا تلك الآيات، وامتن علينا بها، فالشهر كما قال النبي ﷺ: «هكذا أو هكذا»^(١)؛ أي: إما ثلاثون يومًا أو تسعة وعشرون يومًا بحسب النظر والرؤية للقمر لا بشيء آخر غير ذلك، فهذه من أعظم نعم الله تبارك وتعالى، ولا نطيل فيها ولا في تعدادها؛ لأننا نريد أن ندخل في الأمر الذي نحن نحتاجه وقلوبنا ظمأى إليه.

النوع الثاني: الاستدلال بعباد الرحمن:

وأما الدليل الآخر غير الدلائل الكونية فهو: الاستدلال على الرحمن بعباد الرحمن، سبحان الله! كيف يكون هذا؟! إن العاقل البصير يستطيع أن يستدل على أي ملك أو مالكٍ لشيءٍ من الأشياء، ومن كان له صحبة أو فئة أو جماعة أو أتباع؛ بأتباعه وصحبته أو بمن ينتمي وينتسب إليه.

ولذلك عندما نعلم أن أفضل الخلق هم الصحابة بعد الأنبياء، وعندما نرى سيرة صحابي واحد من الصحابة فإننا نجد أحدهم آية من آيات الله تتحرك على الأرض، ثم كيف بمجموع الصحابة، ومن الذي رباهم؟! فنستدل بذلك على رسول الله ﷺ، وأنه

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٨)، ومسلم (١٠٨٠).

أفضل الخلق أجمعين، وأفضل المرين، والمعلمين، كما قال معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله تعالى عنه - : «أبي هو وأمي ما رأيت قبله ولا بعده معلمًا أفضل منه»^(١). أي: لا يمكن أن يكون هناك معلمٌ للخير أفضل أو مثل محمد ﷺ.

فكذلك أيها الكفار المكذبون بالرحمن، انظروا إلى عباد الرحمن! وانظروا إلى من يتسبب إلى عبودية الرحمن وانظروا ما هي صفاتهم؛ لتعلموا أنه الرحمن حقًا.

وقد تعجبون عندما تبدأ الصفات التي قد تكون أقل شأنًا بالنسبة لما بعدها، فأعظم صفات المؤمنين هي: أنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر؛ لأنهم موحدون لله، وهذه أعظم صفة من صفات المؤمنين، وكلنا نعلم ذلك، فأصل كل شيء هو الإيمان وإخلاص التوحيد لله تبارك وتعالى، لكن هنالك حكم عظيمة في تقديم الأقل أحيانًا ثم التدرج إلى الأعلى.

والصفة التي جعلت الكفار يكفرون بالرحمن ويزيدهم نفورًا، وجعلتهم يتمردون على أوامر الله، ويستكبرون عن طاعة الله؛ فلا يقبلون قول الله ولا قول رسوله ﷺ - والعصاة لهم تبع في ذلك - هي: صفة الكبر - والعياذ بالله - فالمتكبر يستكبر على الله، ويستكبر على الإيمان، والحق، والدين، فهو يستكبر بسلطانه، ويستكبر بماله وأولاده وبمقامه عند الناس، ويفتخر بأبائه وأجداده.

وكل أنواع الكبر كان أول من سنها هو إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين، وذلك عندما قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

وكذلك كفار قريش عندما قالوا: كيف ينزل القرآن على محمد ﷺ؟ ولماذا لم ينزل على رجل من القريتين عظيم؟ وهما: الوليد بن المغيرة - أو الحكم بن هشام - وعروة بن مسعود من الطائف؛ لوجود معايير الكبر عندهم دائمًا؛ ولذلك تجد القلوب

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

العادية أو التي لم تتفقه في دين الله دائماً تهتم بالكبير؛ وفي الحقيقة أنه: كم من كبير عند الناس وهو صغير عند الله تبارك وتعالى.

ولهذا عتبة بن غزوان رضي الله تعالى عنه، عندما وقف وخطب وتذكر ما كان عليه الصحابة من قبل وما عانوا وما لاقوا، ثم تذكر ما أعطاهم الله تبارك وتعالى؛ قال: «وما منا اليوم إلا من هو أمير على مصر من الأمصار، قال: وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي كبيراً وعند الله صغيراً». أي: لا ينفعه ذلك وهو الصحابي رضي الله تعالى عنه.

فهذه الصفة -الكبر والعياذ بالله- أكبر حائل وأكبر مانع عن الحق.

التواضع:

لذلك كانت أول صفة من صفات عباد الرحمن هي: التواضع، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالإنسان قد يقابلك ولا يكلمك؛ -لأنه ليس شرطاً أنك كلما قابلته أن تكلمه أو يكلمك- ومع ذلك فمن كيفية سيره ومن مشيته؛ تستطيع أن تحكم عليه، لأنك تعرف صفات عباد الرحمن من أول ما تراه، ومن سيره ومشيته كما أنك قد ترى من مشية بعض الناس أنه مستكبر، فهو ليس من عباد الرحمن -عباداً بالله- وليس من أهل الطاعة ولا من أهل الإيمان، ولا من أهل الخير والصلاح، سواءً خاطبته أو رأيت فقط؛ فإنك ترى أنه متكبر، ولهذا جاء هذا الوصف الظاهر الذي يراه كل أحد في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

الإعراض عن الجاهلين:

وأما الصفة الأخرى فهي: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] الله أكبر! الآن -مع الأسف- بعض الناس يخاطبه الأخيار ويخاطبه الأفاضل ويخاطبه دعاة الخير والحق والهدى، ولا يقول: سلاماً، مع أن عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً؛ أما إذا خاطبهم الفضلاء والأخيار؛ فهنالك حسن البشاشة والاستقبال والأخوة والمحبة؛ لكن الجاهلون: هم جاهلون في تصرفاتهم، وفي

الفاظهم وتعاملاتهم، وجاهلون بربهم ﷻ وهو أعظم الجهل، وجاهلون في معاييرهم وفي موازينهم وفي قيمهم التي يقدرون بها الأشخاص أو يقدرون بها المواقف، فقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ۗ﴾ [الفرقان: ٦٣]، يعني: كان جوابهم جواب المسالم، الذي يدفع السيئة ويدراً السيئة بالحسنة، كما قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وهكذا يعلمنا الله تبارك وتعالى، وقال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فلو توقفت عند كل جاهل لتخاطبه أو لترد عليه؛ لتبين له أنه مخطئ في كلامه؛ لما عملت عملاً في حياتك، أو لربما تقطعت بك الأيام والليالي ولم تنجز عملاً واحداً؛ لأن هذا يخاطبك بلون، وهذا بلون آخر، وهذا يستهزئ ويسخر، وذاك يغتاب وينم، وهذا ينظر نظرات زائغة، وهذا... وكل ذلك داخل في الجهل؛ فلا تبال بهم، وأعرض عنهم، فأعرض عن الجاهل مطلقاً؛ لأنك تنظر بنور الله، وتنظر إلى ما عند الله، وتريد ما أعد الله؛ وهؤلاء الجاهلون بالله هم أعداء بطبيعتهم لدين الله، ولما أنزل الله تبارك وتعالى؛ فلا تبال بهم ولا تعبا بشأنهم؛ وإنما عليك أن تقول لهم: سلاماً - والقول يأتي في لغة العرب بمعنى: العمل - أي: أن تعمل عملاً أو تصرفاً هو سلام مع هؤلاء، فقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِيَ الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقد يكون باللفظ، وقد يكون بالعمل، فقوله تعالى: ﴿لَا تَبْغِيَ الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، أي: نحن لا نريدهم حتى لا ندخل معهم في مشاكل، ولا ندخل معهم في معارك، حتى لو وقفوا أمامك في الطريق حجر عثرة، فلا يردوك عن أن تتجاوز وأن تعمل وتهدى وتدعو؛ بل غض بصرك وامش وتجاوز عنهم، والله تعالى سيعينك عليهم، وتذكر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ۗ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وآيات الله كثيرة، والدلائل والعبر كثيرة من صفات هؤلاء ومن غيرها.

قيام الليل:

ثم يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۗ﴾ [الفرقان: ٦٤]، والليل له معنى خاص؛ فمن حكمة الله، أنه: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ

يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦]، فالليل يعني: الهدوء والسكون والرهبة التي كان يشعر بها الناس، ولا سيما قبل هذه الكهرباء والأضواء؛ ولو ذهبت إلى ساحل البحر أو ذهبت إلى رأس جبل من الجبال وحدك وابتعدت عن الأضواء؛ فإنك تشعر بشعور لا تجده أبداً وأنت هاهنا في الليل، سبحان الله! فماذا يفعل المؤمنون في الليل؟ إن الليل مطية المؤمنين إلى الدار الآخرة، ومطية المتقين إلى الجنة؛ لأنهم في النهار مثل الناس - في الغالب - يكدحون ويعملون، ولكن هذا الليل له أمر خاص وعلاقات خاصة؛ ولهذا الله ﷻ قد اختصهم به، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، فلماذا لا تعلم؟! لقد بين الله تبارك وتعالى لنا ما أَعَدَّه في الجنات من الحور والنعيم والخير، وهذا واضح، لكن هناك أناس يعبدون الله خفية وهم مستترون، بينهم وبين الله استغفار، قال الله عنهم: ﴿وَيَا لَأَتَّخِرَهُمْ سَعْفَرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] أي: قيامًا وسجودًا وركوعًا، فهو لاء بقدر ما تكون العلاقة خاصة مع الله في الليل وحيث لا يراهم أحد، بقدر ما يكون الجزاء أيضًا.

وانظروا إلى واقعنا نحن اليوم فإنه إذا مر أحد منا بمكان أعجبه - بجبل، أو غار، أو شجرة مثمرة لها ظل - يقول: لو أننا نأكل هاهنا أو نجتمع هاهنا الله المستعان! فهذه حياتنا.

وأما أسلافنا فقد كان الرجل منهم إذا مر بمكان أعجبه، قال: ما أحلى هذه الشجرة وما أحلى هذا الغار ليتني أدخل وأصلي فيه ركعتين، لماذا؟ لأن قلوبهم متعلقة بعبادة الله، فهمهم وراحتهم ولذتهم وطمأنينة حياتهم هي في تقوى الله وطاعته وعبادته؛ وهذه الطمأنينة والراحة تتم بتمامها في الليل، فإذا نام الناس وسكن الكون، وهدأ كل شيء؛ قاموا يناجون الله تبارك وتعالى ويسألونه ويستغفرونه ويدعونه؛ وبذلك يظهر بتلك المنزلة العظيمة؛ فهم يجدون لذة لا يجدها أهل اللذة جميعًا مهما اجتمعوا عليها، وهذه هي جنتهم، وكما قال شيخ الإسلام رحمة الله عليه: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة» نعم - والله - جنة عظيمة! قال فيها بعضهم: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها بالسيوف». نعيم لا يعلمه

الكثير، وأهل الدنيا مساكين! غاية ما عند أحدهم أن يلعب ورقة، أو أن يسكر - والعباد بالله - فيطير عقله، أو يتفرج فيما يسمى العبث والسخافة والفسق والفجور أو الغناء والطرب، فهذه هي الليلة المفضلة عندهم؛ فسبحان الله أي: شيء وأي نعيم وأي راحة في تلك الأعمال؟! والله إنها نكدٌ وظلمة في الوجه، وإنها حسرة في القلب، وإنها تكدر العلم وتمحق البركة في الرزق أيضًا، وهكذا مما في المعاصي من أضرار وأخطار، وأما المؤمن فإن الليل مطيته، والعبادة لذته وراحته.

فمن الكرامات التي تؤثر عن ثابت البناني رضي الله عنه أنه سأل الله تبارك وتعالى، فقال: «اللهم إن كنت أعطيت أحدًا أن يصلي في قبره، فأسألك يا رب أن تعطيني الصلاة في قبري» سبحان الله! الواحد منا يريد الرجوع إلى أهله كما قال رضي الله عنه: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩].

وأما إذا كان من أهل الجنة - جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة - فإنه يقول: ربِّ أقم الساعة حتى أرى أهلي في الجنة؛ لأنه يفتح له فيرى مقعده من النار، ويقال: هذا مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، ويرى أهله في الجنة فيقول: يارب! أقم الساعة حتى يرجع إلى أهله ويراهم، لكن هذا يتمنى أن يصلي حتى في القبر سبحان الله! يخاف لو مات أن تنقطع لذة الصلاة، وأن تنقطع ثمرة العبادة حتى وهو في نعيم الجنة، كأنه يقول: أنا أريد - ما بين الفترتين - في البرزخ أن أصلي، فلما توفي رضي الله تعالى عنه - وهذه من الكرامات الثابتة، وهي كثيرة والحمد لله، ولا نحتاج إلى الخرافات - ذهب أصحابه ليدفنوه، قال أحدهم: فسقطت عماتي في القبر - أراد الله أن تتحق الكرامة، فسقطت - فرفع قليلاً وأدخل يده ودنا لأخذها، وإذا بالقبر مد البصر من النور، وإذا به ثابت البناني قائم يصلي! سبحان الله! نعم، أولئك عرفوا لذة العبادة وقيمتها.

توفي أحدهم رضي الله تعالى عنه وإذا بابنة - جارية - لجاره تقول: يا أبتاه، أين الخشبة التي كان ينصبها جيراننا فوق سطحهم؟ فقال: يا بنية، أي خشبة؟! قالت: خشبة كنت أراها كل ليلة فوق السطح، وإذا بها ليست خشبة بل كان صاحب البيت يقف فيقرأ

المائتين والمئات من الآيات كل ليلة، والطفلة تراه فتظن أنه خشبة! فأين الخشبة وأين ذهبت الخشبة؟ الله أكبر! وأحدهم يبكي ويصلي من الليل، فتقول أمه: يا بني! لعلك قتلت نفسًا فإن الله غفور رحيم، وإذا قتلت نفسًا لعل الله يغفر لك - كانت تظن أنه لا يبكي ويتعبد إلا إذا ارتكب قتل نفس - فيقول: نعم يا أماه! قتلت نفسي بالذنوب والمعاصي، فهذه هي النفس المقتولة.

لقد كان الليل هو خلوتهم وراحتهم وسعادتهم، ومهما تحملوا من هموم النهار ففي الليل تأتي المناجاة واللذة والطمأنينة، ويقوم الواحد في اليوم الثاني نشيطاً في أعز راحة ونعمة؛ لأنه غسل كل الهموم والأدران والتعب، بتلك الصلاة والاستغفار والذكر لله تبارك وتعالى في جنح الليل.

وأما الإنسان الذي يكدح للدنيا فهو كما جاء في الحديث: «حمار بالنهار، جيفة بالليل»^(١). أي: أنه ينام وعنده عشرة هموم، ويقوم في الصباح فيجدها صارت عشرين، وينشغل بكذا وكذا؛ ثم تأتيه الأمراض من هنا ومن هنا؛ فلا يستطيع مقاومتها؛ لأنه مسكين لا يتحمل، فالمدح لا يتحمل، والمعدة لا تتحمل، والأعصاب لا تتحمل، وهذه المشاكل كلها من: الدكان، والتجارة، والأولاد، والزوجة، والوظيفة، والراتب، والتقاعد، والترقية، والترفيه ومشاكل كل يوم، لا يغفل عنها أبداً.

وأما المؤمن: فلو بلغه أن الدنيا كلها قد اجتمعت عليه فهي لا شيء بالنسبة له، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فحسبنا الله ونعم الوكيل هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وهي كلمة واحدة من ذكر الله يدعو بها الإنسان في جوف الليل، فتذهب كل تلك الهموم والأحزان؛ بل ربما انقضت كأعظم صاروخ في الدنيا على أعداء الله ﷻ فدمرتهم أجمعين.

ولهذا أقول: يا شباب الصحوة، يا شباب الدعوة، نريد أن يكون لهذه الصحوة

(١) أخرجه ابن حبان (١٩٥٧)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٧٨).

المباركة الطيبة أولياء عباد أتقياء، تنزلزل الجبال إذا رفعوا أيديهم بالدعاء إلى الله ﷻ، والحمد لله فالالتزام والتمسك والخير كثير في المظهر والملبس والمحافظة على صلاة الجماعة، لكننا نريده أعمق وأعمق وأعمق، نريد قلوبًا مخبئة منيية، نريد الرجل الذي إذا رفع يديه لا يردها الله تبارك وتعالى إلا وقد حقق له ما يريد، وإن الله تعالى حيي كريم كما جاء في الحديث: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه فيردهما صفرًا»^(١).

فلا أحد يرفع يديه إلى الله ويردها صفرًا؛ لكننا نريد شيئًا أخص من ذلك، نريد الذي يدعو على جبار فيقصمه الله ﷻ، نريد من يدعو على دولة من دول الكفر؛ فيدمرها رب العالمين، نريد من يدعو على ظالم من الظلمة؛ فينتقم الله منه، ويجعله عبرة وآية للعالمين، وهكذا.

ضرورة التضرع لله:

ونريد مثل محمد بن واسع وهو من موالي زهران، أي أنه من هذه القبيلة الخيرة الطيبة، والنبي ﷺ يقول: «مولي القوم منهم»^(٢).

إن قتيبة بن مسلم الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كان يعد الجيوش لحرب أكبر جبهة كانت في تاريخ العالم الإسلامي وفي تاريخ الفتوحات، وهي الجبهة الشرقية حيث الهند والصين والترك، وهي أعتى الشعوب في القتال؛ فكان يريد أن يقاتل وأن يجاهد هؤلاء، فأعد العدة المادية كاملة وبقيت العدة الأخرى، لأنه لا ينسى أحدًا من قادة المسلمين وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص: «واعلم أن المسلمين إنما ينصرهم الله تبارك وتعالى بطاعتهم لله وبمعصية عدوهم له، فإذا استوتينا نحن وهم في المعصية؛ كان لهم الفضل علينا في القوة» أي: فنحن عدتنا الطاعة، وكفى بها عدة، ففي تلك الليلة أعد كل شيء وبيت للهجوم ثم قال: اذهبوا فالتمسوا هل في المسجد أحد - هكذا نريد مثل

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٦)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

(٢) أخرجه النسائي (٢٦١٢)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٦٣).

هؤلاء تقي خفي لا يدري عنه أحد، ولكنه يأتي بدعوة هي خير من هذه الجيوش كلها، أو رديفة ومساندة لهذه الجيوش كلها- قالوا: ما وجدنا فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبه -أي: يدعو بإصبع واحدة- قال: إصبه تلك أحب إلي من ثلاثين ألف فارس.

وذلك لأنه إذا قال: يا رب. استجيب له بإذن الله تبارك وتعالى؛ لأنهم يبتون لربهم سجداً وقياماً، ويفزعون إليه تبارك وتعالى، فهم جنده، والدين دينه، والدعوة دعوته، والجنود جنده والعباد عبيده، والأعداء أعداؤه.

إذن: لا بد أن يفزعوا إليه، ولا بد أن ينادوه وأن يتضرعوا إليه.

وهنا ننبه إلى أدب عظيم من آداب الدعاء، وكلكم تعرفون الضرع، فكيف التضرع؟ أرايتم العجل الصغير من البقر أو من الإبل أو من أي شيء، كيف يرضع! وكيف يفعل إذا لم يرضع! أرايتم تلك الحالة؟ وكيف يرتفع وينزل ويحاول ويحاول ويمتص ويحرص وهكذا، فالضراعة مأخوذة من ذلك؛ فالواحد لا يرفع يده اللهم اغفر لي، ويمر منها كبعض الناس، بدون تضرع، بل اجعله دعاء ضراعة وتضرع والتمس الخير من عند الله لعله أن ينزل عليك، وبنفس الحرص والرغبة والشدة القلبية التي يفعلها هذا الصغير من الحيوان وهو يأخذ من الضرع، واطلب ذلك سواءً أكان مطراً أم غيثاً، أم رحمة أم نصراً أم رزقاً أم توفيقاً أم أي شيء.

تضرع إلى الله؛ فبالضراعة يدفع الله تبارك وتعالى العذاب؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦] أي: لو أن الناس استكانوا لربهم -والاستكانة هي الطمأنينة والخضوع الكامل الذي يناسب الهون، ﴿الَّذِينَ يَسْتُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ﴾ أي: مستكينين - وتضرعوا إلى الله ﷻ؛ لكشف الله تعالى عنهم العذاب كائنًا ما كان.

وليس الحال كحالنا اليوم: إذا نزل العذاب جرينا وراء الأسباب، وانتقلنا من سبب إلى سبب إلى سبب، حتى نضيع في أودية لا نهاية لها، والطريق سهل والاتصال بالله تبارك وتعالى ميسور؛ ونتضرع إليه فيكون كل ما نريد بإذن الله تبارك وتعالى من

خيرِه وفضله.

﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤] أي: وهاتان الحالتان في الصلاة؛ أما السجود فأقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد؛ وأما القيام فأفضل الصلاة طول القنوت والقيام، وهو الذي يجعل الإنسان مثلما رأت تلك البنت أو الجارية ذلك الرجل كأنه خشبة.

فبالسجود وبالقيام وبالدعاء وبتدبر الآيات والتفكر فيها في القيام ترى العجب، وبالركوع في السجود ترى العجب الآخر، سبحان الله العظيم! ولهذا جاء عن بعض السلف في تدبر الآيات وفي قراءة آية واحدة من كتاب الله مواقف عجيبة جدًا وكيف تفعل الآية في القلوب؛ فكيف بك إذا قرأ المئات من الآيات، حتى كان بعضهم يريد أن يصلي بعض الليل أو ثلثه، ولا يشعر إلا وقد طلع عليه الفجر، فإلى الفجر وهو ما يزال واقف لا يشعر بالوقت؛ لأنه يستغرق بعمق في هذه الآيات وفي معانيها.

وكما قرأ بعضهم قول الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبا: ٥٤] فكيف حيل بينهم وبين ما يشتهون.

فيشتهي الإنسان في هذه الدنيا، المال والراحة والزوجة والبيت وهو في هذا التعب كله ويعمل فيه، فتأتي لحظة ثم يحال بينهم وبين ما يشتهون، ولو فكر الواحد كيف يحال بينهم في لحظة واحدة يسلب هذا كله الملك، والمال، والمنصب، والسلطان، والزوجة، والبيت وكل شيء، فإذا حيل بينك وبين ما تشتهي وبدأت تفكر: ماذا قدمت وماذا أمامك؟ فهذه هي العبرة، لو فكر الإنسان وتأمل، كيف أنه يحال بينه وبين ما يشتهي وبين ما تعب.

فسنوات من عمرك وأنت تزين هذه العماره، ومالك كله قضيته وأنت تتفنن في هذه الحديقه، وفي اختيار هذا المنزل، ثم يقال لك: ارجع إلى ما أترفت فيه، لماذا تركض؟ ولماذا تذهب؟ فحيل بينهم وبين ما يشتهون، أي: بتزول الموت وبتزول العذاب ينتهي كل شيء؛ ثم يحاسب عليها ويتمنى أنه سلم منها -على الأقل- حتى

يخفف عليه الحساب؛ لكنه يحاسب عليها، ويتمتع بها غيره؛ وهذا من ضيق الدنيا وخستها وحقارتها إذا قورنت بالآخرة.

حقيقة الدنيا عند السلف:

وهذا الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمته الله، تأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٣﴾﴾ [الدخان: ٤١-٤٣].

إن هذه الآية كأنها استجمعت واستغرقت ذهنه الليلة كلها، فيفكر فقط كيف إن يوم الفصل ميقات الناس أجمعين، الأولين والآخرين، من آدم عليه السلام، إلى آخر مخلوق يخلقه الله تعالى، فيأتون جميعاً حفاةً عراةً غرلاً بهماً كيوم ولدتهم أمهاتهم، وتدنو منهم الشمس مقدار ميل، فذلك موعدهم وميقاتهم أجمعين، ثم يكون الحساب والفصل، سبحان الله! الواحد منا إذا رأى أباه أو جده وقد صار كبيراً طاعناً في السن، وتأمل هذا الكبير المنحني الظهر مرت به أيام مثل الحلم، كان طفلاً صغيراً وكان يرى جده وهو كبير طاعن في السن مثله، وذلك الجد كذلك، سبحان الله! وكأنك ترى مجموعة هائلة لا نهاية لها كلهم شبيهة إلى ما لا نهاية؛ لكن أنت شباب والحمد لله، ولكنها لحظات كالحلم، فتمر أيام معدودة، وإذا بك نفس الشيء، وإلى نفس الحالة.

ولهذا يوم الفصل يجتمع هؤلاء جميعاً، الذي كان يقول: هؤلاء أحفادي، والذي كان يقول: هؤلاء أجدادي، وكم من قرون خلقها الله، عاد وثمود والذين من بعدهم - لا يعلمهم إلا الله - قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، فكلهم يجمعهم الله تعالى كما ذكر سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الدخان: ٤١].

وهناك: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١]، ولا ينفع الإنسان هناك إلا العمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [المؤمنون: ١٦١] أي: لا ينفع مال ولا سلطان، ولا منصب ولا جاه، فكل شيء

يذهب ولا يبقى، إلا ما قدمت وما عملت، فتجده أمامك، قال سبحانه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّرَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤١﴾ [الكهف: ٤٩].

حال النبي ﷺ وأصحابه مع العبادة:

وأما زرارة بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه فكان يقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ [المدثر: ٨-١٠] فسقط رضي الله تعالى عنه في المحراب فوجدوه قد مات رَحِمَهُ اللهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وكذلك ما حصل لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين سقط وهو يقرأ من سورة الطور.

فالكل لهم في رسول الله ﷺ عظيم الأسوة وعظيم القدوة، فقد كان صدره ﷺ ينز كأزيز المرجل، أي: كالقدر الذي يغلي؛ لأنه ﷺ كان أقوى الناس قلبًا، وانظروا كيف جمع الله له هاتين الخصلتين! أقوى الناس قلبًا وأثبتهم جناتًا، وفي نفس الوقت أكثرهم اعتبارًا وتأثرًا، فهو متوازن ﷺ، فالاعتبار عظيم جدًّا؛ لكنه لا يغلب قوة قلبه صلوات الله وسلامه عليه؛ فهو ثابت واقف، فينز صدره كأزيز المرجل -الذي يغلي- من الخشية والخشوع والتدبر والتفكير؛ وكذلك كان خيار أصحابه ﷺ مثله.

فإذا ضعف القلب -وأحيانًا يضعف- يسقط مثل ما فعل زرارة وغيره، فيسقط، ولا يستطيع أن يتحمل هذه العبرة، أو هذه الآيات.

وأما إذا ضعف اليقين أو ضعفت العبرة فماذا يحصل؟ لا ينز الصدر، ولا يتحرك الجنان، فذلك مثل حالنا نحن الآن، نقرأ الآيات، ونسمع السور، ونسمع العبر، فلا نتأثر، لأن الوارد ضعيف، ولم يرد على القلب شيء قوي، بل ورد عليه شيء ضعيف، وهو قاس -نسأل الله العافية- أو مريض أو فيه تحجر فلا يتأثر؛ فلذلك كان كمال العبادة في هديه ﷺ، فهو له كمال القوة والثبات مع كمال الاتعاظ والاعتبار صلوات الله وسلامه عليه.

والآيات عظيمة وعبرها كثيرة، ونريد من أبي عبد الرحمن - يحيى يحيى - حفظه الله - وقد زارنا هذه الليلة - أن يشارك ولا نسامحه ولا نغفبه، وإن كان بعض من

حضر لا يعرفه حفظه الله، وأنا أكره حقيقة الحديث على الإنسان بحضوره سواء في أو في غيري، لكن نعرفكم بهذا الشيخ، ونسأل من الله ﷻ أن يحفظه وأن يبارك في عمره، فقد تخرج على يديه من حفاظ الكتاب والسنة الجمع الكبير - والله الحمد - وهو معروف حفظه الله في القصيم وما حولها، وإنما حقيقة لسعادة وشرف لنا نحن أبناء هذه المنطقة أن نراه وأن نسعد به، ولا بد أن نستمع إليه ولعلنا إن شاء الله نكمل هذه العبر والدلائل في لقاء آخر بإذن الله، وأمامنا كم هائل من الأسئلة فلا نطيل، ولكن نسأله تبارك وتعالى أن يجعلنا وإياكم من عباد الرحمن.

اللهم اجعلنا من عبادك المتقين، اللهم اجعلنا من أوليائك الصالحين، اللهم اجعلنا من المخبتين، اللهم اجعلنا من المنيبين، اللهم اجعلنا من الصادقين، اللهم اجعلنا من المخلصين، إنك سميع مجيب.

وصلّى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله.

كلمة للشيخ يحيى اليحيى:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فلم آتكم متحدّثاً ولا مذكراً، وإنما أتيتكم زائراً ملبياً لدعوتكم، مشاركاً في هذه السنّة التي أدين الله أنها سنة حسنة، وما أن سمعت بأن هناك اجتماعاً مضمونه اللقاء بعلم من أعلام الإسلام، حتى وجدت قلبي ونفسي تميل إلى الجلوس كل الميل، فمضيت قُدماً إلى هذه البلاد وإلى هذه الأراضي المباركة، لعلني أن أكون معيناً على البر والتقوى، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وإن هذا الاجتماع قطعاً قطعاً تعاون على البر والتقوى.

أيها الفضلاء النبلاء: إن كلماتي التي سأقولها ولدت في تلك الدقائق السالفة، ولدت لما رأيت هذه الوجوه النيرة الطيبة، التي أبت كل الإباء إلا أن تحضر هذا

الاجتماع، وهذا المكان لتشارك أهل الخير في خيرهم، ولقد تشفت آذاننا وأذانكم، وأطربت أرواحنا وأرواحكم في هذا الاجتماع، ومثل هذا الكلام هو تجديد للإيمان، فلقد تجدد إيماننا، إي والذي نفسي بيده، ففي مثل هذه المجالس يتجدد الإيمان، وأنا على يقين أن الكثير الكثير سيثوب إلى بيته وقد ازداد يقينه وإيمانه وإحسانه بالله تعالى.

ولما رأيت هذا الاجتماع وهذا الجمع الطيب تذكرت قول رسول الله ﷺ لحكيم بن حزام - كما روى ذلك البخاري ومسلم من طريق عروة - قال: أخبرني حكيم بن حزام أنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت أمورًا كنت في الجاهلية أتحدث بها، من صدقة أو عتاقة - أي: وعتاقة - أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من خير»^(١).

وأنا أقول يا معاشر زهران: لقد أسلمتم على ما أسلفتكم من خير، ولقد قدمت هذه القبيلة، لا أقول عشرات من رجال الحديث بل ولا أقول مئات، بل بالآلاف، فقد قدمت هذا القبيلة رجالًا لحديث رسول الله ﷺ، ولست بصدد بيان الرجال الذين ضحوا بمهجهم وأرواحهم وأنفسهم حتى قدموا لهذه الأمة هذا المعين الصافي من ميراث نبي الله ﷺ.

ولقد كان من رجال هذه القبيلة شيوخًا للبخاري ومسلم رحمهم الله تعالى.

إنكم يا معاشر زهران، لا زلتم تتفيثون ظلال تلك الدعوة النبوية الخالدة المستمرة، التي لفظ بها الرسول ﷺ لما أتى إلى الرسول ﷺ وقيل: يا رسول الله، ادع على دوس، لأنهم أبو، فقال النبي ﷺ: «اللهم اهدِ دوسًا، وأتِ بها»^(٢). خاف أبو هريرة، وخاف الطفيل، أن يدعو الرسول ﷺ عليهم، لكن رسول الله ﷺ دعا ربه لهذه القبيلة، فلکم نصيب من ذاك الرءوف، الذي سماه الله رءوفًا رحيمًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) أخرجه مسلم (١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

رَهُ وَفَرَجِيْرٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقال: «اللهم اهدِ دوسًا وأت بها». فهدى الله دوسًا، وأتى بها، ولا زالت دوسًا تهتدي سنة بعد سنة، وقرنًا بعد قرن، وها أنا أرى جمعًا كبيرًا من هذه القبيلة العريقة، في شعاب الزمن، منظر لفت نظري إي والله، ما هو هذا المنظر؟ إنه التمسك بالسنة رجالًا وصغارًا خاصةً وعامةً، إنني أرى الجَلَّ ممن أَعْفَى لحيته، وأحْفَى شاربه، وقصر ثوبه، لا تكاد، إنه غريب بينكم ذاك الذي يحلق لحيته، ويطيل ثوبه، فيا لله ما أعظمها من خصلة! إنه يحق لكم أن تعتزوا، ويحق لكم أن تفرحوا وأن تستبشروا وأنتم تحيون سنة قد أميتت.

وأنتم تعيشون هذا الشعور، في زمان يغربل الناس فيه غربلة: لقد أسلمتم على ما أسلفتم فيه من خير، إنكم اليوم تسجلون سنة حسنة، فالله الله، في المزيد في الهداية والسداد، هذا هو الذي أريد أن أقوله في بدء الأمر.

فأقول أيها الفضلاء، أيها الكرام، أيها الشجعان، وهذا شيء وأمر معروف، ولا خلاف فيه، أقول: هكذا ينبغي الاحتفاء بالعلماء، والاحتفاء برجالات الإسلام، الذين وضعوا أرواحهم على راحتهم، هكذا ينبغي، إن أمة تحتفي بعلمائها، أمة مرحومة، وأمة خيرة مباركة.

وأمة محمد ﷺ كانت ولا زالت ترفع من قيمة العلماء، وترفع من قيمة الدعوة، وتضحى بالغالي والنفيس من أجل الذود عنهم، وعن أعراضهم، وتضحى بكلما أوتيت انشروا صفحات التاريخ، اقرءوا الصفحات التي سجلت بالأمس، كيف كان المسلمون يقفون مع علمائهم؟ وبمنظرة سريعة إلى عالم الأمس، تجد فعلاً أن الأمة أمة مرحومة مباركة خيرة.

أيها الإخوة: إنني أشعر أني مأمور أمر وجوب لكي أتكلم مثل هذا الكلام، كيف وقد أمرني فضيلة الشيخ سفر برك الله فيه وفي علمه، إنى أراه بالنسبة لي واجب، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فمن هم أولو الأمر؟ ذهب جمهور المفسرين إلى أن أولي الأمر هم الأمراء والعلماء، الأمراء الذين يطيعون الله، ويطيعون الرسول، والعلماء الذي يخشون الله، وهم ربانيون بما يعلمون الناس.

أيها الإخوة: كما أننا نحتفي بالعلماء، فينبغي أن نسعى جاهدين من أجل أن نخرج علماء ودعاة، وأنتم - والحمد لله - خرجتم، وهأنتم تدفعون ضريبة الإسلام، وهأنتم تزكون إسلامكم، وهذا هو ابن من أبنائكم، وولد من أولادكم، أصبح بُعْبَعًا في كل أرض ينزل فيها، وكلماته دَوّت وسمعها القريب والبعيد، وما بينكم وبينه إلا بضع كيلو مترات، فالجدير أيضًا أن تواصلوا الجهود، والحمد لله، نسمع أن هناك كواكبًا من طلبة العلم، هم في هذا الطريق، قد اجتهدوا وجدوا، ولكن نريد الزيادة، فهذه أرض خصبة لا تقتع بواحد أو باثنين أو بثلاثة أو بأربعة أو بخمسة، بل نريد عشرات، بل مئات، فعلى الأولياء أن يجندوا أولادهم للذود عن هذا الدين العظيم، وأن يحيوا ما كان عليه أسلافهم، فعليهم أن يشجعوا أولادهم على طلب العلم الشرعي، بدءًا بحفظ القرآن الكريم، وتشنيّة بحفظ سنة النبي الكريم، وهكذا، وهذا هو المظنون وهو المنتظر في قرية أو إقليم أو في أرض، أو مدينة لها مالها في دين الإسلام.

أيها الأحباب: إني أقول وأنا على يقين إنكم قد سئتم من كلامي، وإني متطفل في كلمتي هذه، إنكم الآن تنظرون إلى فضيلة الشيخ سفر، وقد اشرابت أعناقكم إليه للاستماع إلى مزيد من أجوبته النافعة، وأنا معكم، ولا ألومكم، فأترك المجال لكي استفيد وتستفيدون أنتم من حديثه العطر، أسأل الله تعالى أن يجمعنا في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، أسأل الله ألا يجعل هذه الأقدام التي سارت إلى هذا المكان، تسير خطوة واحدة إلى النار.

أسأل الله تعالى أن يصلح أحوالنا وأحوالكم، وأن يأخذ بناوصينا ونواصيكم إلى الخير وإلى الصراط المستقيم، وأن يحيينا على الإسلام، وأن يتوفانا على الإسلام، وأن يميّتنا على الإسلام، وأن يدخلنا الجنة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

ولا أنسى أن أقول لمن تسبب في هذا الجمع جزاك الله خيرًا، وأصلح الله نياتك وذرياتك، اللهم وفقه على الخير، اللهم أصلح له أولاده، اللهم سدد خطاه، اللهم بارك له في ماله، اللهم بارك له في أولاده، اللهم بارك له في حياته، اللهم اغفر له بعد مماته، اللهم اجعله من الأولياء الصالحين، ومن الأولياء المتقين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تعقيب للشيخ سفر:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خير خلق الله.

أما بعد:

أيها الإخوة الكرام: شكر الله لأخينا الشيخ الحبيب يحيى بن عبد العزيز اليحيى، وأثابه على ما تفضل به، وعلى ما حض به هؤلاء الآباء الكرام وهؤلاء الشباب الذين نسأل الله تعالى أن يجعل فيهم الخلف الطيب والنشء الصالح، إني أحب أن أعقب تعقيبًا بسيطًا قليلًا فقط، على كلامه أثابه الله، لتعلموا مغزاه.

إن الشيخ حفظه الله، قد أقام حفلًا عظيمًا، وأقول بحق، إنني لم أشهد قبله ولم أشهد بعده مثله، حفل أقيم في مدينة بريدة وكان الاحتفال بحفظة الصحيحين - البخاري ومسلم - وكان المحفظ هو الشيخ حفظه الله، ولا أقصد بذلك أن أثني عليه في حضوره، وهو - والله الحمد - يستحق ذلك وأكثر، لكن أريد أن أبين لكم أن شهادته لهذه القبيلة - لقبيلة زهران - شهادة العالم المطلع، وعندما يخبركم عن كثرة الحفاظ، والشيوخ والعلماء منها فهو العليم وهو الخبير بأحوال هؤلاء الرواة، وهو يحدثكم بهذا الحديث، ويريد منكم - كما حظكم - أن تكونوا أبناء سائرين على هذا الطريق، وأن تُخرج هذه القبيلة - بإذن الله والقبائل الأخرى - الحفاظ لدين الله تبارك وتعالى، الذين يحفظونه بسيوف الجهاد، ويحفظونه أيضًا علمًا ومسائل في صدورهم وقلوبهم.

وأنا لو قلت هذا الكلام، أو قاله غيري لربما كانت الشهادة مجروحة، لأننا من

أبناء المنطقة، أو كانت في غير محلها؛ لأن التخصص مختلف، أما أن يصدر هذا الكلام منه حفظه الله، فهو يتطلع إلى أن يكون في الخلف وفي هذا الجيل من يعيد سيرة أولئك الأباء الكرام الفضلاء، وما ذلك على الله بعزيز، فبارك الله فيكم علموا أبناءكم وحفظوهم كتاب الله، وحفظوهم سنة رسول الله ﷺ، واهتموا بهم، واعتنوا بهم، واعلموا أنه كما قال ﷺ: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(١). وكما تفضل بالحديث الذي ذكره الشيخ: «أسلمت على ما أسلفت من خير»^(٢). فنسأل الله تعالى أن يبارك في هذا الجيل الجديد، وأن يجعل فيهم من يعيد سيرة أولئك الأباء الفاتحين، والعلماء العاملين إنه سميع مجيب.

حديث: «أنهلك وفينا الصالحون»:

السؤال:

عندما سئل النبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثرت الخبيث»^(٣). وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، فهل الذي ينجي الأمة هو أن يكونوا من المصلحين الصالحين؟ وما هو الدور الذي يجب أن يقوم به المسلم تجاه نفسه ليكون من الصالحين، وتجاه الأمة ليكون من المصلحين؟

الجواب:

هذا سؤال عظيم، وما ذكره الأخ السائل هو حق، فما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نعم إذا كثرت الخبيث». وكان ذلك لما سأله أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: أيهلكنا الله وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثرت الخبيث».

فالمانع والحائل من نزول العذاب هو الإصلاح لا مجرد الصلاح، فيجب أن

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٥٢٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

يكون الإنسان صالحًا في نفسه مصلحًا لغيره، واعلموا أنه إن لم يكن مصلحًا، فإنه لا يكون صالحًا؛ لأن حقيقة الصلاح وتماهه إنما تكون بالإصلاح؛ ولذلك فإن النبي ﷺ هو قدوة المصلحين وإمامهم صلوات الله وسلامه عليه، وهكذا كان أصحابه من بعده يدعون إلى الله ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

ولقد اختل مفهوم الصلاح والفساد، في هذا الزمان عند الناس مفهوم الصلاح والفساد، وهذا وحده يحتاج إلى لقاء خاص؛ لأن كثيرًا من الناس لا يمنعه من قبول الصلاح إلا الالتباس في هل هذا صلاح أم فساد؟ ولهذا بعض الناس إذا وعظته أو أعطيته أي شيء ترى أنه خير له، وتقسم له أن هذا من صلاحه إلا أنه لا يدري أهذا صلاح أم فساد؟! فالأمور تلتبس على الناس، فمن أين نأخذ المعيار والميزان الذي نعرف ونعلم به الصلاح من الفساد، ونعرف المصلح من المفسد؟ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأما لو أخذناه من معيار ثانٍ فماذا نجد؟ ماذا قال فرعون عن موسى ﷺ؟ ذكر ﷺ قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] فكيف يصبح فرعون هو الناصح الأمين المشفق الخير، وموسى داعية الفساد؟! ولو أخذنا معايير الصلاح والفساد من الأبواق الإعلامية، أو من أفواه المنافقين والمفسدين ومن المرجفين أو من الصحافة الغربية ومن الإذاعات العالمية؛ فسنعدها نوعًا آخر تمامًا والله المستعان، فالمتطرف عندهم والإرهابي هو المصلح الصالح، والمعتدل والمثقف هو من يحبون من أهل الفساد، نسأل الله أن يعافينا وإياكم.

الفوائد المستخلصة:

- * لا بد أن يكون المسلمون يدًا واحدة على أعدائهم من أجل إعلاء كلمة الله تعالى لا لشيء آخر.
- * أعظم أنواع التذكير هو: التذكير بالآيات المحسوسة في الكون، والتذكير بالآيات القرآنية.

- * العقول البشرية إذا تكرر عليها الشيء يوماً فإنها تنساه.
- * من فوائد الشمس والقمر معرفة عدد السنين والحساب.
- * الرسول ﷺ أفضل المرابين والمعلمين ولن يوجد له نظير.
- * الاستكبار هو من أقوى موانع الحق.
- * من عباد الرحمن من تعرفه بمشيئته ولو كنت لا تعرفه ولم تتحدث إليه.
- * الليل هو مطية المتقين إلى الجنة وإلى الدار الآخرة.
- * قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».
- * كان حال السلف مع القرآن وتدبر آياته عجيبيًا؛ فمنهم من يقوم الليل بآية، ومنهم من يسقطُ تأثرًا من القرآن وآياته.
- * كان ﷺ أقوى الناس قلبًا، وأثبتهم جنانًا، وأكثرهم اعتبارًا أو تأثرًا.

* * *

شرح آيات من سورة المائدة

نبدأ في هذا الدرس - إن شاء الله - في كتاب قيم عظيم في بابه، وهو كتاب «عمدة التفسير»، وهو اختصار لتفسير ابن كثير، اختصره وحققه وعلق عليه الشيخ أحمد محمد شاكر، وسوف يكون موضوعنا في تفسير آيات من سورة المائدة.

وأول شيء نقدم له بين يدي هذه الآيات هو الكلام عن سورة المائدة وعن فضلها.

وقد ذكر ابن كثير رحمته الله: أن الإمام أحمد روى عن أسماء بنت يزيد قالت: «إني لأخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة»^(١).

وروى - أيضًا - الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: «أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها»^(٢).

يقول الشيخ أحمد شاكر: إن حديث أسماء بنت يزيد إسناده صحيح، وقال في الحديث الثاني: وإسناده صحيح.

سورة المائدة آخر سورة نزلت كاملة:

قال: «وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: «آخر سورة أنزلت: سورة المائدة والفتح»^(٣). وقد روى الحاكم نحو رواية الترمذي».

ثم ذكر أن الإمام أحمد والترمذي وغيرهما رواوا عن عبد الله بن عمرو وعن عائشة رضي الله تعالى عنهما أن آخر ما نزل من القرآن هي سورة المائدة، ولا يهمننا الدخول في تفاصيل ما هو آخر ما نزل من القرآن، بل الذي يهمننا أنها لكونها آخر ما نزل،

(١) أخرجه أحمد (٦/٤٥٥)، وانظر: «صحيح السيرة النبوية» للعلامة الألباني (ص ١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٧٦)، وانظر: «صحيح السيرة النبوية» للعلامة الألباني (ص ١٠٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٦٣)، وضعفه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

أن آياتها محكمة غير منسوخة؛ فهذا هو المقصود.

فيمكن أن نقول: إن المائدة آخر ما نزل من السور كاملة كما جاء النص، وأن بعض الآيات نزلت بعدها، وأما البقرة التي فيها آية: ﴿وَأَنْقُؤْا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فإنه قد ثبت أن سورة البقرة أول ما نزل في المدينة، فيكون أول ما نزل في المدينة هو أول سورة البقرة، وآخر ما نزل من القرآن مطلقاً هو هذه الآيات من أواخر سورة البقرة.

ولكن آخر ما نزل بشكل سورة كاملة هو سورة المائدة، وقرينة ذلك ذكر الفتح، ونحن نجزم أن سورة الفتح نزلت في صلح الحديبية، فقطعاً نقول: إنه قد نزل بعدها آيات وبلا شك، لكن المقصود في السور التي نزلت كاملة.

وأما ما ورد عن ابن عباس أن سورة النصر آخر ما نزل، فالمقصود من كلام عائشة أنها في الأحكام، وأيضاً المقصود السور الطوال.

فإن جبير بن نفير قال: «حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه»^(١).

إذن: هي سورة محكمة، لم ينسخها بعدها سورة، وهذه السورة من مزاياها ومما يدل على ما ورد فيها من تشريع - افتتاحها بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، فهذه قاعدة عظيمة جداً، وما أجهل الناس بالقرآن! ولا نعني الناس الذين لا يقرءون القرآن، ولا الذين لا يقيمون حروفه ولا حدوده، وإنما نعني نحن الذين نقرؤه ليلاً ونهاراً في رمضان وفي غير رمضان، ومع ذلك نجهله لأسباب يطول شرحها.

منها: - وهو الذي يهمننا نحن طلبة العلم كثيراً - جهلنا بلغة العرب، وجهلنا

(١) أخرجه أحمد (١٨٨/٦)، وصححه الأرنؤوط.

بأساليب البيان، فحتى لو حاولنا أن نتدبر أو نتذوق القرآن، فإننا لا نجد له ذلك المذاق الذي يجده من يعرف أساليب العرب، ويعرف بيانهم وبلاغتهم.

فهذه الآيات من أول سورة المائدة وغيرها كلها عجيبة جدًا لمن تأملها، والقرآن كله يأتي بالأحكام - كما في سورة البقرة والنساء والطلاق - التي تتعلق بالأسرة والمعاملات والعقود وبأمور كثيرة، ومع ذلك تجد أن هذه الأحكام تُعرض في أسلوب بياني سلس سهل، يستمع القلب إليه فينسل إلى داخل أعماق الفؤاد، وكأن الكلام في الرقائق والمواعظ والقصص وليس في الأحكام.

فمن عادة الأحكام أن يكون فيها الجفاف الذي يخاطب العقل أو الفهم المجرد، ولكن لا يباشر شغاف القلوب إلا هذا القرآن العظيم، وهذا الذكر الحكيم.

سورة المائدة أكثر ذكراً لآيات الأحكام:

ولو تتبعنا عناوين الأحكام فقط في هذه السورة لوجدناها كثيرة، منها: الصيد، ونكاح الكتابيات، وطعامهم، واتخاذ الكفار أولياء، وحد السرقة، وحد الحرابة، والقصاص، والعقود، والعهود - قال ابن عباس ومجاهد: «العقود: بمعنى العهود» فكل عهد يجب الوفاء به، ويدخل في ذلك عهد الله ﷻ، فكل مؤمن هو معاهد لله ﷻ بالإيمان والتصديق للنبي ﷺ، واتباع أمره، وكذلك بقية العقود - وأيضًا من الأحكام: البيوع، والشركة، والإجارة، والنكاح، والبيعة، والوكالة، وهذه من أنواع العقود، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ويدخل تحتها كل أنواع العقود مع الله - وهي أعظم ما يجب الوفاء به - ومع الخلق.

وأيضًا من الأحكام: كفارة اليمين، وحكم الخمر، وحد الخمر، والطهارة، والتميم، وغيرها من الأحكام العظيمة التي وردت في هذه السورة العظيمة.

قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١] وهذه أيضًا قاعدة عظيمة جدًا في التحليل والتحريم.

﴿إِلَّا مَا بَيْنَنَا عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وهذه الآية عجيبة من الناحية

اللغوية، ففيها استثناء في غاية الجمال والأسلوب، بحيث أن الاستثناء لا يمكن أن يأتي به لسان أو يقوله شاعر أو أديب إلا ويخطئ، ويكون في أسلوبه ركافة، ولا نعلم أن أحدًا من العرب جاء باستثناء من استثناء إلا وكان الأسلوب ركيكًا، وكذلك كان الأسلوب في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَقَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِجِّي الصَّيْدِ﴾ فيه استثناء آخر، فنستثني ما حرم فيبقى ما أحل، وما أحل نستثني منه حالة الصيد، وهذا كما ذكر في أول السورة: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] وفي آخرها ذكر كفارة من فعل ذلك، فهذه سورة كلها أحكام، وفيها من مثل هذه العبر والدلالة.

وقفه مع آية من سورة المائدة، وأخذ الأحكام منها:

والآن ننتقل إلى الآيات التي فيها موضوع حديثنا، وهو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤١]، فهنا أول ما يفتح بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: إن القضية قضية الكفر، والكفر إذا جاء في القرآن فهو دائمًا المعهود المذكور، أي: الكفر الأكبر، والكفر في القرآن هو: ضد الإيمان كله، فهو الكفر الأكبر، فقوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ لا يعني: في المعصية، أو في المخالفة، أو في اتباع الهوى، بل يعني الكفر المعهود بعينه، والذي هو الخروج عن أمر الله والتكذيب بما أنزل الله، وعدم الاستسلام لحكم الله ولدينه، قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، فهؤلاء كفار كفرًا أكبر أيضًا، فهذا أمر.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وهذا أمر آخر، فهؤلاء الذين هادوا - وهم اليهود - كفار كفرًا أكبر لا شك فيه، فقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بين أنهم طائفتان: المنافقون واليهود، كما يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ». ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب

خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم -المنافقون واليهود-: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١].

فابن كثير يقول: «المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ».

ونلاحظ أن الحافظ يربط بين هذه المقدمة وبين الآيات التي بعدها، فلم يقل: الذين لا يؤمنون باليوم الآخر. ولم يقل: يكذبون بالقدر؛ لأن المقصود هنا هو مسألة الحكم والتحاكم، فمهد الله ﷻ وقدّم للحديث عن التحاكم والحكم بغير ما أنزل الله، فناسب أن الحافظ ابن كثير راعى ذلك، ويظهر هذه المناسبة، ويبين أن هؤلاء المسارعين هم الذين هذه صفتهم: يُسارعون في الكفر، كما قال الله في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، فقد يكون الإنسان كافرًا بالله، وكافرًا بآياته، وهذا كفر، وقد يكون هناك مسارعة في الكفر، أو زيادة في الكفر، وهو أن يُبدل أحكام الله، أو يعترض على أحكام الله، فيطعن في رسول الله ﷺ، أو ينكر سنته ﷺ، أو يستهزئ بآيات الله، فهذه مسارعة في الكفر، مع أنه في الأصل: اليهود كفار، والمنافقون الذين يظهرون الإيمان وقلوبهم خاوية منه كفار أيضًا في الحقيقة، ومع ذلك فإنهم يُسارعون في الكفر، ومستمرون فيه، والآيات بعضها يوضح بعضًا، ويشهد لبعض.

قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: مستجيبون له، منفعلون عنه.

فهذه صفتهم أنهم سمّعون للكذب.

إذن: يُحذّر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا سماعين للكذب، وهذا ما فعله السلف الصالح وطبقوه، فهذا أيوب «أتى إليه مبتدع يريد أن يكلمه، يقول: كلمة. يقول: ولا نصف كلمة».

فالمؤمن لا يستمع إلى الكذب ولا القذف ولا الكلام الذي لا خير فيه؛ لأنه لا يأمن أن يصدقه أو يقع في قلبه شيء منه، والمؤمن دائمًا يُعرض عن الكذب واللغو:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، ويعرض عن الباطل، كل هذا حتى يفتى القلب نقيًا سليمًا، أما المنافقون واليهود، وضعاف الإيمان، ومن كان في قلبه نفاق فهذا حالهم: ﴿سَمَعُوا لِلْكَذِبِ﴾، وكما قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.

ثم يقول: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين، لا يأتون مجلسك يا محمد ﷺ.

وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام ويُنهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك».

أي: إنهم إما يسمعون ممن لم يحضر عندك، أو هم ينقلونه إلى من لم يحضر عندك، والمقصود أن بضاعتهم الكذب، فيروجون الكذب والأضاليل والإفك والتهم في المؤمنين دائمًا، فهذا كلامهم: محمد فعل كذا، محمد يقول كذا، محمد يريد أن يفعل كذا، وهو لا أساس له من الصحة، وأبو بكر فعل كذا، وعمر فعل كذا، وهذا حالهم، ويجدون من يستمع إليهم، ولا أعظم إفكًا وقريةً من حادث الإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، ومع ذلك انتشرت وسرت وتناقلها الناس، ولو أن الناس إذا سمعوا باطلاً أو قفوه، ولم ينشروه، ولم يسمعوا له - لكان المؤمنون في راحة، ولكانت قلوبهم في أمن وسلامة، وكان صفهم موحدًا من هذه الشكوك التي تبذر فيما بينهم.

يقول: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون».

فهنا بين الله سبحانه حال هؤلاء السَّماعين، ومن يستمع إليهم أيضًا.

وهو أن عملهم هو نوع من الافتراء المحض، وهذا أمر آخر موجود، وقد ذكره الله تعالى في آية أخرى، فهم يقولون على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ما لم يقل، أو على المؤمنين ما لم يقولوا، وهذا معروف قديمًا وحديثًا.

وهناك نوع آخر وهو خبيث وسعي جداً وربما كان تصديقه أكثر عند ضعاف الإيمان وهو: ألا يفترى على المؤمنين فرية، لكنه يُحرف الكلم عن مواضعه، فالقول حق، لكنهم ينقلونه إلى الناس على أنه باطل، فإذا أمر بالمعروف، أو له هؤلاء السماعون، فقالوا: هؤلاء قد أمروا بمنكر.

وإذا دُعي إلى سنة، قال هؤلاء السماعون وأتباعهم: إنهم يدعون إلى البدعة... وهكذا، فهذا حالهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئَتْنَا هَذَا فَمَا خَدَّوهُ وَإِنْ لَمْ نُؤْتُوهُ فَأَحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١]، أي: إن اليهود من كفرهم يقولون لبعضهم: اذهبوا إلى محمد ﷺ، فإن قال ما هو في صالحكم فخذوه، وإن قال بغير ذلك فلا تأخذوه، وهذا حال المنافقين - أيضاً - ومن تبعهم من ضعاف الإيمان.

أما المؤمن فإنه إذا بلغه عن الله وعن رسول الله ﷺ شيء فإن حاله أن ينقاد له، ويقول: سمعنا وأطعنا. فكل ما جاء عن رسول الله ﷺ يسمع له ويطيع، وإن خالف ما هو فيه.

أما حال من رسخ في البدع والضلالات، واستمر عليها طوال الدهر - إذا عرض عليه قول الله وقول رسوله ﷺ - قال: إنا وجدنا آباءنا... فلا فرق إذن بين هؤلاء وبين هؤلاء، نسأل الله العفو والعافية.

ثم يأتي ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالآيات فيقول: «قيل: نزلت في أقوام من اليهود قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد ﷺ، فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه».

وهذه هي التي سيوردها رحمه الله تعالى فيما بعد، ويقول: سبب آخر في نزول هذه الآية، فهذا السبب قد ورد، ومع ذلك قال الحافظ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والصحيح: أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله».

وهذه العبارة مهمة جداً، ويجب أن نتأمل معناها؛ لأنها هي مناط الحكم في هذه المسألة، فالحكم مبني على هذا المصطلح نفسه، وعلى هذه العبارة، وهذا الفهم.

قال: «وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم».

فمناط الحكم هو التبديل: تبديل دين الله، وتبديل كتابه، وتبديل شرعه.

قال: «الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم فحرفوه».

فهذا أمر هام متعلق بمناط الحكم، وهو التبديل.

ثم قال: «واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين».

فالله ﷻ قد أنزل في التوراة الرجم، وقد قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، فلما كثر الزنا فيهم وشاع وانتشر بينهم، اصططلحوا فيما بينهم أنهم لا يقيمونه إلا على الضعيف، ويتركون إقامته على الشريف.

ولم يقف الانحدار عند هذا الحد، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨-٧٩]، فلم يقيم فيهم من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويردهم إلى الأصل، بل جاء فيهم من يقول: إن هذا لا يجوز، كيف نرجم الضعيف ونترك الشريف؟! فاتفقوا على حل آخر، ورجعوا إليه باسم الإصلاح، فقالوا: ليس من العدل أن نقيمه على الضعفاء فقط، ولكن العدل أننا نترك حتى الضعفاء، ولا نقيم عليهم حد الرجم، حتى نعدل بينهم وبين الأشراف، فقال بعضهم: هل نحلل الزنا؟! قالوا: لا، حتى لا نخالف كتاب الله! وهذا هو فقه اليهود والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض، وهو فقه أعوج، فقالوا: علينا أن نعدله بأن نتفق على شيء وسط، يناسب العصر والناس والمجتمع من جهة.

ومن جهة ثانية أن فيه موافقة لحكم الله؛ لأننا لو أمسكنا الدين بقوة لأصبحنا

وهذه من عقوبات الذنوب - نعوذ بالله -؛ حيث إنه يبدأ بذنب، فيبدأ بأكل الربا وهو خائف من الذنب، وبعد فترة يقول: من قال لكم إنه حرام، والله قد أحله؟ فيكذب على الله ويفتري عليه، ويقول على الله بغير علم، وهكذا دائماً، نعوذ بالله. فالآن انتقلت اليهود من حالة مخالفة حكم الله إلى حالة القول على الله بغير علم.

قالوا: الذي عندنا في التوراة أنهم يجلدون ويفضحون، فأكذبهم الله ﷻ: «قال عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه».

وهذا هو الشاهد من بني إسرائيل، الذي شهد عليهم، والذي فضحهم وبين كذبهم، وهو عالم بني إسرائيل، وعلماءهم الذين عرفوا الحق كثير لكنه رئيسهم ومقدمهم رضي الله تعالى عنه.

قال: «كذبتهم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفعها فإذا آية الرجم».

وهذا فيه دلالة على أن المطلع على أحوال أعداء الله أعرف ممن لم يطلع عليهم، فقالوا: «صدق يا محمد، فيها آية الرجم»^(١). أخرجاه، وهذا لفظ البخاري، وفي لفظ له: «قال لليهود: ما تصنعون بهما؟ قالوا: نسخم وجوههما ونخزيهما، قال: ﴿فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَآتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، فجاءوا، فقالوا لرجل ممن يرضون أعور: - وهو ابن صوريا - اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه، فقال: ارفع يدك، فرفع فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكاته بيننا».

فالسبب والمناط الآخر لخروجهم من الدين، هو قوله: «ولكننا نتكاته بيننا».

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩).

ولذلك قال الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] إلى آخر ما جاء من وعيد من كتم وسكت عن الحق.

قال: «فأمر بهما فرجما».

وهذه رواية أخرى من روايات مسلم وهي صحيحة.

سبب تغيير اليهود لحد الزنا:

قال: «وفي إحدى الروايات أن النبي ﷺ قال: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحسن؟ قالوا: يحمم ويجه ويجلد».

نعوذ بالله! مع أنه ﷺ أنشدهم بالله الذي أنزل التوراة على موسى! قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، ألظ به رسول الله ﷺ النشدة - شدد به لأنه سكت - فقال: اللهم إذ نشدتنا فإنا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: «فما أول ما ارتخصتم أمر الله».

أي: كيف بدأ عندكم هذا؛ حيث تترخصون أمر الله وتتركوه وتعرضوا عنه، قال: «زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في إثره من الناس - من العامة - فأراد رجمه - فأراد الملك من بني إسرائيل أن يرحمه - فحال قومه دونه وقالوا: لا نرجم صاحبنا، حتى تجيء بصاحبك فترجمه».

فصارت مشكلة، إما أن يرحم قريب الملك، ويرجم معه العامي من الناس، وإما ألا يرحم هذا ولا هذا.

فقال: «فاصلحوا هذه العقوبة بينهم»^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٥٠)، وضعفه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

فقالوا: أحسن شيء ألا نرجم هذا ولا هذا، وهذه الرواية يهمننا منها موضوع التاريخ، كيف ارتخصوا، وكيف اصطلحوا.

وفي رواية أخرى ذكرها من رواية الإمام أحمد عن البراء بن عازب وهي في «الصحيحين»، قال: فقال النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟». فقال: لا والله، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرفنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه». وهذا من مناقبه ﷺ، قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] إلى آخر الآيات»^(١).

إذن هم بدلوا كتاب الله، واصطلحوا فيما بينهم، وتكاثموا فيما بينهم، واصطلحوا على هذه العقوبة، واجتمعوا على التحميم، وهذا هو مناط التكفير، وهو الاصطلاح والاجتماع والاتفاق على حكم غير حكم الله ورسوله ﷺ، أما من فعله خطأ وجهلاً ولا يعترف به، ويقول: أنا لم أحكم إلا بما حكم الله! ولا يجوز أن نحكم إلا بما أنزل الله! وأنا أستغفر الله! فهذا لم يدخل في هذا، وهذا لم يصطلح ولم يتكاثم مع غيره.

إذن: نريد من هذه العبارات الدقيقة المهمة أن نفهم حتى نعرف مناط الحكم، ولماذا كان الحاكم بغير ما أنزل الله، المتبع لشرع غير شرع الله، والمتبع لقوانين وضعية عاملاً بها يكون كافراً خارجاً من الملة.

القول الأول في سبب النزول:

ونرجع إلى استعراض كلام الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: مرَّ على رسول الله ﷺ يهودي محمماً مجلوداً فدعاهم،

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٥٨)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه».

فقال: «أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟».

ونجد هنا أن النبي ﷺ حسب هذه الرواية: «مُرَّ عليه بيهودي محمماً» أقيم عليه هذا الحد من قبل أحبار اليهود وعلماهم، وليس فيها أنهم جاءوا إلى النبي ﷺ، والروايات دائماً تختلف، ولهذا ننبه أن عمل الفقيه غير عمل المُحدِّث، فالمحدث يجمع الروايات ثم يبين الصحيح من الضعيف، ثم يتفقه، وقد يكون فقيهاً ولكن عمل الفقيه وإن كان المُحدِّث هو نفسه أو غيره، بعد ذلك يُقارن ويُوزن بين الروايات، فقد يأخذ بالفاظ في رواية ويترك ألفاظاً، وربما يرد بعض الروايات وإن كانت ثابتة وصحيحة، فيرجح بعض هذه الروايات على بعض، وهذا علم عظيم دقيق جليل يتعلق بتعارض الأدلة، وليس كل أحد يتقن ذلك.

فالذين يتخبطون في مسائل من الدين يريدون أن ينكروا سنة محمد ﷺ بناءً على أنها تُخالف ظاهر القرآن الكريم.

والمهم هنا أنه من خلال ما سبق من الروايات نعلم أن الأرجح والأظهر والمطابق لنص القرآن الكريم هو أنهم جاءوا إلى النبي ﷺ، كما في الروايات الأخرى غير حديث البراء رضي الله عنه.

ثم قال في الحديث: «فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ فقال: لا والله، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه»، فقال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْرُوكُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١] أي: يقولون: اتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤] قال: في اليهود، إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤٥] قال: في اليهود، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ [المائدة: ٤٧] قال: في الكفار كلها^(١). انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

فهو يقرر أن الآيات في الكفار كلها، فجعل الآية الأولى في اليهود، والثانية في اليهود، والثالثة أيضًا، فقال: في الكفار كلها وهذا تفسير البراء بن عازب رضي الله عنه. والكفر هنا المراد به الكفر الأكبر، فالحكم بغير ما أنزل الله كفر أكبر.

وقد يقول قائل: هذا في اليهود، فإنهم إذا حكموا بغير ما أنزل الله من التوراة كفروا، وكذلك النصارى؛ لأن في آخرها: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ [المائدة: ٤٧] فمن لم يحكم بالتوراة أو بالإنجيل من أهل الكتاب يكون كافرًا، وهذا الذي يدل عليه الحديث.

وهذا الحكم لا يلزم منه أنه يتناول المسلم الحاكم بغير ما أنزل الله.

ونجيب على هؤلاء بقول حذيفة: «نعم أبناء عم لكم اليهود - كان الأمر كذلك - فما كان من حلوة فهي لكم وما كان من مرة فهي لهم».

فلا نجعل القرآن عضين، فنقول: إن من حكم بغير ما أنزل الله تعالى في التوراة فهو كافر؛ لأنه من اليهود، وأما إن كان حكم بغير ما أنزل الله في القرآن فهو مسلم لأنه من المسلمين، فهذا لا يجوز؛ لأنه إذا كان المغير الذي بدل التوراة أو اصطلاح على غير ما فيها أو تكاتم على ما فيها وغيره يكون بهذا العمل كافرًا بالتوراة، فمن فعل ذلك من أهل القرآن فإنه كافر بالقرآن بل هو أشد؛ لأن القرآن ناسخ ومهيمن على ما قبله، فمن كفر بالقرآن فهو أشد كفرًا ممن كفر بالتوراة مع أنها موقوتة مخصوصة بزمن معين وبأقوام معينين.

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٠).

أما القرآن الكريم فهو كلام الله الذي أنزله للعالمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالصحابي فسّر الآية، وجعلها كلها نوعًا واحدًا، ولم يقل: إن الكافرين نوع، والظالمين نوع، والفاستقين نوع، ومن فعل كذا فهو كافر، ومن فعل كذا فهو ظالم، ومن فعل كذا فهو فاستق، بل الوصف واحد.

وهذا صحيح من جهة اللغة؛ فإنه إذا اتحد المسند إليه فإن المسند يجب أن يكون واحدًا، فقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] واحد في كل الآيات الثلاث فقوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤) [المائدة: ٤٤] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٦) [المائدة: ٤٥] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ (٤٧) [المائدة: ٤٧].

فالصحيح لغة أن هذه الأوصاف الثلاثة تكون أوصافًا متعددة لموصوف واحد؛ لأنه لم يتغير المسند إليه.

فالمبتدأ واحد، والأخبار تعددت عنه، وهذا كقولك: فلان شاعر وفلان كاتب، وفلان خطيب، والمقصود هنا أنه ورد التصريح أنها في الكفار والنوع هنا واحد.

سبب حكم النبي ﷺ بموافقة التوراة:

ثم يقول: «وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مجالد بن سعيد الهمداني، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله، قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدًا عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه، فسألوه عن ذلك، فقال: «أرسلوا إلي أعلم رجلين فيكم». فجاءوا برجل أعور يقال له: ابن صوريا وآخر، فقال لهما النبي ﷺ: «أنتما أعلم من قبلكما؟». فقالا: قد لحانا قومنا كذلك. -أي: قومنا يعدوننا أفضل من فيهم-، فقال لهما النبي ﷺ: «أليس عندكما التوراة فيها حكم الله؟». قالوا: بلى. فقال النبي ﷺ: «أنشدكم بالذي فلق البحر لبنى إسرائيل، وظلل عليكم الغمام، وأنجاكم من آل فرعون، وأنزل المن والسلوى على بني إسرائيل، ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟».

متطرفين وأصوليين، وإن تركناه بالكلية فإنه لا يصلح. فقالوا: نبتغي بين ذلك سبيلاً، ونقول: إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، فهذا مثل ما قاله المنافقون، وكل من انحرف عن كتاب الله وعن سنة رسول الله ﷺ.

قالوا: إذن الحل نحممهم -والتحميم: التسويد بالفحم- ونحملهم على حمارين، ونطوف بهما في الأسواق، ونقلبهم، فنجعل ظهر كل واحد إلى الثاني، فنشهر بهما.

قال: «فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فنخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك».

فهم يتحايلون على الله، مع أنهم لم يؤمنوا بهذا النبي، ولم يتبعوه في كل ما يقول.

قال: «وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك».

أي قولوا: لدينا أحكام نحتكم إليها، ولا نريدك ولا نريد حكمك، فهكذا كانوا يقولون!! ثم قال: «وقد وردت الأحاديث بذلك، فروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه قال: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا -بعدهما قالوا ذلك الكلام- فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فرسول الله ﷺ يسألهم: ماذا ورد في التوراة عندكم في شأنهم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون».

فأولاً: مخالفة حكم الله، ثم الكذب على الله، ودائماً كل من اتبع هواه وخالف أمر الله، واتبع شهوته، وآثر الدنيا على الآخرة، فلا بد أن يؤدي به ذلك إلى أن يقول على الله بغير علم، حتى لو كان يعرف الآيات مثل ما يحفظ الناس سورة الفاتحة، فيحفظ الآيات ويعرف الحكم لكنه متبع لهواه، مؤثر لديناه، فلا بد أن يقول على الله بغير علم.

وانظر ما أعظم هذه المناشدة! فلو أن هناك قلوبًا وفيها حياة، لكنها قلوب ميتة مغلفة: «فقال أحدهما للآخر: ما نشدت بمثله قط، ثم قال: نجد ترداد النظر زنية، والاعتناق زنية، والقَبْلُ زنية، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يُبدئ ويُعيد كما يُدخل الميل في المكحلة فقد وجب الرجم، فقال النبي ﷺ: «هو ذاك»، فأمر به فرجم، فنزلت: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٢]» (١).

وهذا الحديث على أن في سنده كلامًا، لكن الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ذكر هذه الأحاديث ليصل إلى نتيجة معينة، وهي أن هذه أحاديث دالة على أن النبي ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، على اختلاف في ثبوت بعضها وضعف في بعض رواياتها.

يقول: «فهذه أحاديث دالة متفقة على أن النبي ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحى خاص من الله ﷻ إليه بذلك».

فقد أمر الله عبده ﷺ بهذا الأمر لحكم، ومنها: أن يفضحهم الله ﷻ، ويبين لهم ما صنعوه بكتابهم وما بدلوا وحرفوا فيه؛ فإنهم كما ذكر الله ﷻ عنهم: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، فهم يكتمون الحق، فيظهرون بعضه، ويخفون بعضه، ويؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض.

يقول: «وسؤاله إياهم عن ذلك ليقرّهم على ما بأيديهم».

وفي هذا أيضًا دلالة على صدق رسول الله ﷺ، وآية بينة عظيمة على أنه رسول من عند الله، وأن الذي أوحى إلى موسى هو الذي أوحى إليه -صلوات الله وسلامه عليهم-؛ لأنه طلب منهم ذلك، وأراهم حكم الله، وأنه أيضًا جاء به، فهذا دليل على أنه نبي صادق يوحى إليه من عند الله ﷻ أيضًا.

(١) أخرجه الحميدي في «مسنده» (٥٤٢/٢).

يقول: «وليقررهم على ما بأيديهم، مما تواطوا على كتمانهم وجحدته وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم رسول الله ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به».

فهم لم يأتوا إلى النبي ﷺ على سبيل الإذعان والانقياد والإيمان والتصديق، وإنما جاءوا إليه هوى وشهوة.

قال: «ولهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا﴾ [المائدة: ٤١] أي: الجلد والتحميم: ﴿فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١] أي: اقبلوه: ﴿وَإِنْ لَّمْ تُوْتُوهُ فَأَحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١] أي: من قبله واتباعه».

فالآية تدل على أن هؤلاء القوم ما كانوا يريدون حكم الله على الحقيقة، وليس غرضهم هو اتباع دين الله والعمل بما أنزل الله، وإنما قالوا: إن حكم بما يوافق الهوى عملنا به، وقلنا: هذا نبي من أنبياء الله. وجعلناه حجة بيننا وبينكم، وإن حكم بخلاف ذلك فنحن قد كذبناه فيما هو أعظم فاحذروا لا تأخذوه، بل اعملوا بما اتفقت عليه، وما كنتم تعملونه من قبل.

فمفهوم لسان حالهم أو مقالهم ربما يقول: ليس تركم لكلام محمد بأشد وأعظم من تركم لكلام التوراة التي تنتسبون إليها، فمن كفر بالكتاب الذي بين يديه فلا غرابة أن يكفر بما وراء ذلك.

يقول: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

فهذه قلوب مفتونة غير مطهرة، وأعظم فتنة تكون في الإيمان، فتصدر منه مثل هذه الحالات من التكذيب، والاتواء، والاحتيال، والافتراء على الله ﷺ، والجرأة على

كتابه، وأخذ ما يوافق هواه، وترك ما يخالف هواه وشهوته، فهذه ألوان من آثار الفتنة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] فلوا أراد الله ذلك لانقادوا وأذعنوا وآمنوا واتبعوا ما جاء به الرسول ﷺ.

من علامات الحكام بغير ما أنزل الله:

قال: ﴿سَتْنَعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤٢] أي: الباطل: ﴿أَكْتَلُونَ لِلشُّحِّ﴾

[المائدة: ٤٢].

وهذه العلامة إذا وجدت في أي أمة أو فرد فاعلم أنه لا يمكن أن يحكم بما أنزل الله، ولا بد أن يخالف حكم الله، فمن يسمع الكذب ويأكل السحت لا يمكن أن يكون عادلاً أو نزيهاً أبداً، ولهذا حُرمت الرشوة.

ويجب على القاضي ألا يحكم إلا بعد سماع المدعي ثم السماع من المدعى عليه، ثم يقارن، ثم يُرجح، حتى يحكم مجرداً عن أي ميل نفسي لمجرد القرابة أو الهوى أو الشهوة أو ما أشبه ذلك.

أما إذا كان سمّاعاً للكذب ولكل ما يلقي إليه، ثم فوق ذلك يأكل الرشوة فلا يُتَظَر منه عدل.

وهذا الداء الخبيث ليس خاصاً باليهود، بل هو في كل قاضي لا يلتزم بأمر الله.

والرشوة أنواع كثيرة، ويحتالون لها بحيل عظيمة غير صورتها المعروفة البديهة، كالهديّة من أجل الحكم، أو إعطائها قبل القضية والمشكلة، وغير ذلك مما يفعله كثير من الناس، وهي أعم من كونها تكون للقاضي فقط، فهي تدخل لمن يملك أن يحكم أو يقرر، أو له ولاية على شيء.

قال: ﴿أَكْتَلُونَ لِلشُّحِّ﴾ [المائدة: ٤٢] أي: الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن

مسعود وغير واحد، أي: ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه، وأتئى يستجيب له، ثم قال لنبيه: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ [المائدة: ٤٢] أي: يتحاكمون إليك: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

عَنَّهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴿ [المائدة: ٤٢] أي: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم، قال: ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣].

يقول: «ثم قال تعالى مُنْكَرًا عليهم في آرائهم الفاسدة، ومقاصدهم الزائغة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره، مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم».

أي: أنهم يعتقدون أن التوراة كتابهم، وأنهم مأمورون باتباعها، فيشير الحافظ ابن كثير رحمته الله إلى أنهم كفروا بالقرآن الكريم، وبرسالة محمد صلوات الله عليه معتقدين أن ما أنزل عليهم كاف، فهذه عقيدتهم ويرون ذلك لازماً لهم، ومع ذلك فإنهم عدلوا عنه إلى ما يعتقدون في نفس الأمر، وفي قرارة أنفسهم بطلانه وعدم لزومه، وهذا لا يفعله مؤمن.

قال: «فقال: ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣]، فلو كان مرادهم طلب حكم الله لاكتفوا بتحكيم كتابهم الذي يؤمنون به ويدينون به» ونأتي إلى شاهد آخر، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣] فأول ما افتتح الآيات بقوله: ﴿ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة: ٤١] فذكر الكفر المعروف بالألف واللام، ثم قال بعد ذلك: ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١] فلا شك أنهم كفار؛ لأنه نفى الإيمان عن قلوبهم، وهذا غاية ما يكون من الكفر، فهذه صيغة أخرى، ثم ذكر بعض صفاتهم: ﴿ سَتَكُنُ مِنَ الْكَاذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخَةِ ﴾ [المائدة: ٤٢] وأنهم يتحايلون على حكم الله، ثم قال: ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣] فاتضح أنهم كفار.

قال: «ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾

[المائدة: ٤٤] أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يُبدلونها ولا يحرفونها: ﴿وَالرَّبَّانِيُونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤] أي: وكذلك الربانيون وهم: العلماء والعباد، والأحبار وهم: العلماء.

وكان الرباني له ميزة علم وعبادة كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيَْنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فالرباني يجمع بين العلم وبين العبادة: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّهِي قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وهم الذين جمعوا العلم والعمل، والأحبار هم العلماء، ويحكمون به وإن كان فيهم خلل أو نقص في العمل، ولو لم يعملوا لكنهم علماء كابن صوريا وأمثاله علماء في التوراة ولو حكموا بما أنزل الله لكان ذلك موافقاً للحق وموافقاً لما طلب منهم، وإن كانوا في أنفسهم غير ملتزمين أو غير عابدين.

تحريف التوراة والإنجيل:

قال: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] أي: بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظروه ويعملوا به: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤] أي: لا تخافوا منهم وخافوا مني: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] فيه قولان سيأتي بيانهما.

وقوله: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] استنبط منها بعض العلماء أن الله ﷻ وكل حفظ التوراة والإنجيل إليهم، أما القرآن فإنه قد وكل حفظه إليه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فالقرآن محفوظ بحفظ الله؛ ولهذا لا يمكن أن يُبدل أو يُغير، أما التوراة والإنجيل وغيرهما فقد استحفظ عليها أهلها فضيعوها، ووقع فيها التحريف.

ويشهد لهذا القصة التي رواها البيهقي وغيره: أن رجلاً كان زنديقاً لا يتدين بدين، فأراد أن يختبر أهل الملل، فذهب إلى بغداد حيث توجد الأديان والملل وكتب نسخاً

من التوراة وألقاها إلى اليهود، قال: فما مضى زمن إلا ورأيتها بين يدي علمائهم يقرءون فيها حتى أصبح الواحد يقرؤها ويعطي أهله وأقاربه وقد غيّر فيها وبدّل كما يشاء. قال: ثم قلت: نغير القرآن. فكتب نسخاً من القرآن، فغيّر فيها وبدل، قال: فلما ذهبت إلى الوراقين، فكلما نظروه ردوه، وقالوا: هذا فيه أخطاء. وهم لا يعلمون نيته الخبيثة فلا يبيعونه، قال: فلم يقبل مني أحد. فجاء وأعلن إسلامه، فلما سُئل عن سبب إسلامه ذكر القصة، وقال: علمت أن هذا الكتاب محفوظ، وأنه لا يمكن أن يُبدله أحد، ولو كان من عند غير الله لأمكن أن يبدل أو يغير كما يشاء الناس.

وفي الوقت الحاضر أرادت إسرائيل أن تُغير في آخر طبعة من طبعات الإنجيل التي توزع في كل فندق وكنيسة وبيت، وفي كل مكان بأكثر من ألف نسخة، وقد طبع في إسرائيل الأنجيل الأربعة وغيّر فيها خمسمائة كلمة مما له علاقة باليهود، وأنهم تأمروا على المسيح، وأنهم أرادوا قتله إلى آخره، مما فيه تشنيع على اليهود فغيروه وطبعوه وانتشر، وجاءت المنظمات - التنصيرية التي تُسمى نفسها التبشيرية - وأخذت تجمع من هذه الكتب وتعيد الطبع وتوزع وتنتشر في العالم دون أن يقرءوا أو يحققوا أو يدققوا.

القول الثاني في سبب النزول:

يقول الحافظ ابن كثير رحمته الله: «سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] و﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: قال ابن عباس: «أنزلها الله في الطائفتين من اليهود - أي: قبيلتين من اليهود - وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتله الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق».

فحصل الشطط، فالنفرين من الضعيفة يعادل نفرًا من القوية، سبحانه الله! وهذا

الذي أنكره الله ﷻ، وأنكرته الفطرة السليمة حتى فطرة اليهود في الجاهلية.

ولو نظرنا إلى المعمول به الآن في العالم المعاصر، في ظل ما يُسمى بحقوق الإنسان لوجدنا العجب، فلو حصل حادث طائرة وتحطمت فإنهم ينظرون إلى وظائف الركاب، فإن كان دبلوماسياً فديته قد تصل إلى عشرة ملايين دولار أمريكي، وإن كان مهندساً -مثلاً- مائة ألف دولار، وإن كان فنياً خمسون ألف دولار، وإن كان عاملاً عشرة آلاف دولار... وهكذا.

فهذا ما يسمونه العالم المتحضر، ويدعون فيه إلى المساواة في الإنسانية، فالذي كرم بني آدم حقاً وساوئ بينهم هو كتاب الله ودين محمد ﷺ، فالتناس في ظله سواسية، وإن كان الكافر ديته غير دية المسلم، إلا أن الكفار كلهم ديتهم واحدة، والمسلمين كلهم ديتهم واحدة.

قال: «فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان في حين دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض».

أي: ما دمنا نحن متساوين في كل شيء، فلماذا الدية تختلف؟! والذي جعل القبيلة الذليلة ترفع رأسها، وتطلب المساواة هو قدوم محمد ﷺ، ونزول الدين الحق، وبعثة معلم الإنسانية الخير صلوات الله وسلامه عليه، الذي علمهم العدل حتى على نفسه، وعلى بني دينه وقومه، وأقرب الناس إليه صلوات الله وسلامه عليه، بل دعا الله إلى تشييته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠]؛ فلاجل هذا قالوا: «إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم -أي: خوفاً منكم-، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم».

أي: فقد أنقذنا الله، وجاءنا محرر الإنسانية، فلا يوجد ذليل وعزيز ومقهور ومتكبر.

قال: «فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ

بينهم، ثم ذكرت العريضة».

هذا في أول الأمر ما اتفقوا عليه، وقالوا: لو أنه أتانا بالوفاء بالعقود، فقالوا: نقول له هذا شيء اتفقنا عليه فلا بد أن يحكم لنا، ثم رجعوا إلى أنفسهم، فقالت: «والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم».

فلا يمكن أن يقر النبي ﷺ هذا التفاوت؛ لأنه نبي الرحمة ونبي العدل، يقول: «ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم».

أما في هذا الزمن فقسّم اليهود أنفسهم إلى نصفين: صهانية وغير صهانية، ثم قسّم الصهانية إلى نصفين: حثام وصقور، وهل اليهود فيهم حثام؟! لم نسمع ذلك في القرآن الكريم ولا في السنة ولا في التاريخ، وهناك أناس متطرفون وأناس معتدلون، فهذا لا يمكن ولو قدم بعض التنازلات، فهو لا يقولها لأنه حمامة أبداً، وإنما يقولها لأن هذا الشعب يرى أن هذا أوثق لمصلحة إسرائيل، والآخرين الذين نسميهم الصقور هم نوع آخر من الشعب يقولون: ليست مصلحة إسرائيل في هذا... وهكذا، فلا يمكن أن ندع ما في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ وتاريخنا كله، ونأخذ بما تقوله أبواقهم المأجورة في بعض الصحف التي تصدر بعد التطبيع.

فهنا يقولون: كيف الحيلة؟ قالوا: «فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه قبل أن تحكموه، فإن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتهم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول الله ﷺ أناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فقالوا لهم: أنتم تجالسون محمداً فاخبروا لنا رأيه. فلما جاء رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله، وما أرادوا، فأطلعه على ما عندهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] الآية إلى قوله تعالى: ﴿الْفَلْسِيقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: ففيهم والله أنزل، وإياهم عنى الله ﷻ»^(١).

وهناك رواية أخرى، قال: «إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة، وذلك: أن قتلى بني النضير كان لهم شرف، تُؤدى الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يُؤدى لهم نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم الرسول ﷺ على الحق، فجعل الدية في ذلك سواء»^(١). وذكر أيضًا رواية ابن جرير وغيره.

فتكون الآيات هذه دالة على أن الحكم في: ﴿إِن أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُوْتُوهُ فَأَحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١] ليس الرجم، وإنما هو الدية، ويمكن أن يكون السياق دالًا عليه.

ثم ذكر رواية عن ابن عباس، وأنه روي أيضًا عن ابن عباس نفسه رضي الله عنهما أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، قال: «كما تقدمت الأحاديث في ذلك».

وجمع النصوص والعمل بها جميعًا أفضل، وإن كانت روايات قضية الزنا أصح، لكن يمكن أن يجتمع السببان.

ومما يؤيد ذلك: سياق الآيات: ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فهذه قرينة تؤكد أنه كان هناك من الحيف والجور في ترك حكم الله، وأنهم لم يلتزموا بحكم الله فيها من أن النفس بالنفس.

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: «ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه أعلم، وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤]» [المائدة: ٤٤].

والشاهد هنا: هل هو على أحد السببين أو على كليهما؟ الصحيح أنها كما قال البراء بن عازب - كما تقدم - «في الكفار كلها». وقال حذيفة بن اليمان - وهو الحديث الذي ذكرنا أن الحاكم رواه وهو صحيح - «نعم أبناء عم لكم اليهود». وقال ابن عباس

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩١)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

والحسن البصري وغيرهم: «نزلت في أهل الكتاب». وزاد الحسن البصري «وهي علينا واجبة» فالحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنبه لما تنبه إليه حذيفة أو نبه إليه حتى لا يقول أحد: نزلت في أهل الكتاب فيكون هذا حكماً خاصاً بهم؛ لذا قال الحسن: «نزلت في أهل الكتاب، وهي علينا واجبة».

أي: أنها حكم واحد فينا وفيهم.

قال: «وروى ابن جرير عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: من السحت. قال: فقالا: وفي الحكم؟ قال: ذاك الكفر».

فإذا أعطى رشوة من أجل الوظيفة، أو يمضي له معاملة فهو سحت، لكن إذا كان إعطاه ليحكم له بخلاف ما أنزل الله، قال ابن مسعود: «ذاك الكفر -نعوذ بالله- ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]».

وهنا نقول نفس الكلام الذي ذكرناه من قبل، وهو أن الحكم هنا فيمن ارتشى وهو مقيم لدين الله، ويحكم بما أنزل الله، وملتزم بشرع الله، لكن ارتشى في قضية معينة، وخرج عن حكم الله وخالفه، فالحكم فيه كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (الكفر) والمقصود به الكفر الأصغر، فهذه معصية سميت كفرًا كما أوضحنا من قبل.

قال: «وقال السدي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً».

فالقضية ليست قضية نسيان أو جهل، فإنه إذا خالف حكم الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أنه ملتزم بحكم الله، وبشرع الله في محكمة شرعية، ويطبق حكم الله من حيث الأصل؛ لكنه عمد إلى حكم من أحكام الله فتركه: «أو جار وهو يعلم فهو من الكافرين».

كما قال ابن مسعود، فيكون قد عصى معصية تُسمى كفرًا إلا إذا كان مقصود السدي أنه يترك حكم الله أو أن يجحده فيكون من الأنواع الستة التي ذكرها الشيخ، فيكون كفرًا أكبر.

قال: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قال: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به فهو ظالم فاسق».

فمن أقر به ولكنه خالفه وعصى، وتركه مع إقراره به والتزامه وانقياده وخضوعه فهذا ظالم فاسق.

فابن عباس -رضي الله تعالى عنه- فصل بأن للحكم بما أنزل الله حالتين: حالة كفر أكبر، وحالة كفر أصغر، وعلى هذا فتكون الآية الأولى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] في الجاحد، ويكون الظالمون والفاسقون في المقر العاصي، وهذا الذي قلنا: إنه خلاف اللغة، وخلاف ظاهر الآية، فهذا القول مرجوح، إلا أن المهم في كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ذكر النوعين من أنواع الكفر.

قال: «واختار ابن جرير أن الآية المراد بها أهل الكتاب أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب».

أي: إن ابن جرير رضي الله عنه يقول: الكفر كفر أكبر -والمقصود به كفر أهل الكتاب أو كفر الجاحد فهو كافر كفرة أكبر- سواء كان من أهل الكتاب وكفرهم أكبر لا شك في ذلك أو كان من هذه الأمة، ولكن خرج عن الملة وإن انتسب إليها، فابن جرير رضي الله عنه لا يرى كلام ابن عباس رضي الله عنه المروي عنه من طريق علي بن أبي طلحة بأن الآية الأولى في الكفر الأكبر والآيتين الأخيرتين في المعصية، فهو يقول: إنهما في الكفر أو فيمن خرج عن الملة وإن انتسب إلى الإسلام.

قال: «وروى ابن جرير عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قال: هذا في المسلمين -فمن الأقوال التي نقلها ابن جرير غير الأقوال المتقدمة، قول الشعبي ومعناه: إن المسلمين إذا خالفوا القرآن الكريم كفروا-: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قال: هذا في اليهود -فاليهود إذا خالفوا التوراة فهم ظالمون- ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

﴿١٧﴾ [المائدة: ٤٧] قال: هذا في النصارى».

فالشعبي يقول: إن الوصف الأول: للمسلمين، والثاني: لليهود، والثالث: للنصارى، ففرق بين الأوصاف، وهذا مرجوح كما قد ذكرنا لكن ما يهمنا هو: أن الشعبي جعل الآية في حق المسلمين، فمن عدل عن حكم القرآن إلى حكم غيره أو من حكم غير كتاب الله فهو عند الشعبي كافر كافرًا واحدًا.

قال: «وروى عبد الرزاق عن طاوس عن أبيه قال: «سُئِلَ ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] قال: هي به كفر -أي: هذا العمل به كفر-».

قال ابن طاوس: وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال عطاء -وهو تلميذه وعنه نقل-: كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق». رواه ابن جرير، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] قال: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه» ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

فابن عباس رضي الله عنه له رواية تُفصّل أن الآية فيها كفر أكبر وفيها كفر أصغر، وروايات أخرى تقول: إن المقصود الكفر الأصغر، لكن نلاحظ أن هذه الرواية الأخيرة التي يقول فيها الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه».

إذن: ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يتكلم عن حالة واقعة معاصرة، ومسألة مختلف فيها، وهي موجودة يتناقش فيها الناس، فذهب البعض فيها إلى كذا، وذهب البعض فيها إلى كذا، وكذلك كلمة البراء: «الكفار» فالظاهر أن القولين متعارضان.

لكن القضية أن كلاً منها يريد أن يعالج مسألة موجودة، شاعت وانتشرت في مسألة الكفر وعدم الكفر في زمن الصحابة؛ وهي: قول الخوارج الذين يُكفرون المسلمين بسبب المعاصي والذنوب، قالوا: إن من أدلتنا أن المسلم إذا عصى وارتكب

كبيرة يكفر بمجرد ذلك، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قالوا: فهؤلاء بنو أمية حكموا بغير ما أنزل الله، وأمثالهم كالإمام علي عليه السلام، فإنه عندهم خالف كتاب الله، وحكم الرجال في دين الله، ورضي بالحكمين فهو كافر، وعثمان عندهم كافر -أيضاً- لأنه خالف سيرة الشيخين الراشدين، ودليلهم الآية، وأنهم ما حكموا بما أنزل الله بل خالفوا أحكام الله، وقصروا في بعض أحكام الله، فهم كفار، فيقول ابن عباس: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه» والبراء يقول: «في الكفار كلها» أي: أنها ليست في العصاة المخالفين وإنما هي في الكفار، فرغم اختلافهما إلا أن النتيجة عند الصحابة كلهم أنهم متفقون على أمر وأصل عظيم من أصول هذه العقيدة -عقيدة أهل السنة والجماعة- وهي أن المسلم لا يكفر بمجرد الذنب أو المعصية كما تقدم معناه.

يقول الشيخ أحمد شاکر بعد أن عزاه إلى الحاكم (٢/٣١٣): «ولفظه: إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، وإنه ليس كفراً ينقل عن الملة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] كفر دون كفر، ووافقه الذهبي على تصحيحه».

يقول الشيخ أحمد شاکر: «وهذه الآثار عن ابن عباس وغيره -أي: عطاء وطاوس وهم تلامذته، قال: مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا من المنتسبين للعلم، ومن غيرهم من الجراء على الدين -أي: المتجرئين على دين الله- يجعلونها عذراً أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة، التي ضربت على بلاد الإسلام. وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة، عمداً إلى الهوى، أو جهلاً بالحكم، والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر، فهم يجادلون -أي: الإباضية- يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء؛ ليكون ذلك عذراً لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف. تقدم وبيننا لكم في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مذهب الخوارج ومذهب المعتزلة فيه ومذهب أهل السنة والجماعة

وهنا نرجع إلى كلام أحمد شاكر رحمته الله، وما نقله عن أخيه محمود شاكر رحمته الله.

يقول: «وهذه الآثار عن ابن عباس وغيره».

يقصد ما ورد فيها كفر دون كفر.

«مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا من المتتسبين للعلم ومن غيرهم من الجراء على الدين، ويجعلونها عذرًا أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعية التي ضربت على بلاد الإسلام، وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة عمدًا إلى الهوى، أو جهلاً بالحكم».

والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر، فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء».

أي: يريدون أن يوافقهم في أن أمراء بني أمية كفار، قال: «ليكون ذلك عذرًا لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف».

وهذا هو مذهب الخوارج أنهم يرون الخروج بالسيف لتغيير المنكر وإن كان منكرًا في نظرهم فقط، وهذا الذي سبق إيضاحه عندما شرحنا موضوع الأصول الخمسة، وذكرنا معنى هذا الأصل - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - عند المعتزلة والخوارج ومعنى هذا الأصل هو الخروج على الأئمة بالسيف، قال: «وهذان الأثران رواهما الطبري، برقم: (١٢٠٢٥) و(١٢٠٢٦) وكتب عليهما أخي السيد محمود محمد شاكر تعليقًا نفيسًا جدًا، قويًا صريحًا، فرأيت أن أثبت هنا نص أولي روايتي الطبري، ثم تعليق أخي على الروایتين».

مناظرة أبي مجلز للخوارج:

فروئ الطبري برقم: (١٢٠٢٥) عن عمران بن جدير قال: «أتى أبا مجلز ناس

من بني عمرو بن سدوس، فقالوا: يا أبا مجلز، رأيت قول الله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤٤﴾ [المائدة: ١٤٤] أحق هو؟ قال: نعم. قالوا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٥﴾ [المائدة: ١٤٥] أحق هو؟ قال: نعم. قالوا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١٤٧﴾ [المائدة: ١٤٧] أحق هو؟ قال: نعم. فقالوا: يا أبا مجلز أفحكّم هؤلاء بما أنزل الله؟».

فإن قال: نعم. قالوا: إن مخالفتهم واضحة، وإنكارها مكابرة، وكفى بالحجاج ذنباً من بني أمية وأمثاله، وإن قال لهم: لا يحكمون بما أنزل الله؟ قالوا: إذن كفار.

وهذه مشكلة يعاني منها كثير من الناس، وإن لم ينسبوا أنفسهم إلى الخوارج، فالله ﷻ لا يحاسب الناس باللافات التي نسميها الآن في عصرنا الحاضر، فلو أنني قلت: أنا من أهل السنة، وأنا من أهل الأثر، وأهل الاتباع، ومن السلف، فإن الله لا يحاسبني بمجرد هذه الدعوى، ولا يحاسب غيري أنه يُنسب إلى الخوارج الإباضية وهو قد ظلم في هذه النسبة، وهو فعلاً على السنة، وإنما ظلم في هذه النسبة، أو انتسب وهو لا يدري، كما أن بعض العلماء يقول: أنا أشعري ويقصد: أنا أثبت الصفات، فلا يحاسبه الله على منهج الأشاعرة في نفي الصفات.

فالمقصود أن الحساب عند الله ليس بالانتماءات واللافات وإنما بالحقائق، فالخوارج الخروج صفة من صفاتهم، وصفات الخوارج يمكن أن توجد في أي مكان وفي أي زمان، وتحت أي لافته أو اسم أو شعار، يمكن أن توجد صفة أو شعبة من شعب الخروج، وهذه لأجلها -والله أعلم- جعل العلماء كتب الخوارج والمرتدين والبغاة والمحاربين كتباً من كتب الفقه.

ولو أن الخوارج هم -فقط- الفرقة التاريخية التي خرجت وانقضت لكانت تدرس في كتب التاريخ، أو كتب الملل والنحل فقط، لكن في كتب الفقه أحكام الخوارج لأنها صفة يمكن أن توجد في الناس في أي زمان وفي أي مكان، فصفاتهم التي

بَيْنَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أنهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان»^(١).

وهذه قاعدة: بأنه مهما كان الشخص يدعي الإخلاص، ويدعي العلم، واتباع السنة، ويدعي إنكار المنكر والعبادة، فالخوارج يقول عنهم النبي ﷺ: «تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وقراءتكم إلى قراءتهم»^(٢). فهذا الكلام يُخاطب النبي ﷺ به الصحابة رضي الله عنهم، ومع ذلك فهذه سيرة وعلامة من أعظم علاماتهم، أن عدواتهم منصرفة إلى أهل الإسلام، ولم يعرف ولم يشهد أن الخوارج جاهدوا الروم، ولا جاهدوا الفرس، ولا قاتلوا أعداء الإسلام، فهذا هو تاريخهم.

وهذه من دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ: (فهم يقاتلون المسلمين، ويكفرون علماء الإسلام) ويطعنون في دين علماء الإسلام، ويحاربون أهل السنة ويزعمون أنهم ليسوا أهل السنة إنما هم مرجئة وإنما هم مداهنون، فيأتون لهم بألقاب يلمزونهم وينبزونهم بها.

والشاهد: أن من طريقتهم في الاستدلال أنهم يظنون أن المسألة بهذا الإلزام سهلة، فيقولون: إما أن يقول: إنهم يحكمون بما أنزل الله، فنقول: إذن هذا مثلهم؛ لأنه لا يكفر الكافرين ويشهد لهم بالإيمان فهو كافر، وإما أن يقول: لا، فنقول: فإذا هم كفار فلماذا تجادل عنهم؟ هكذا ظنوا المسألة إما كذا وإما كذا.

وهذه أيضًا إحدى صفات الخوارج؛ لأن الأمر قد يحتمل أكثر من وجهة نظر، وقد يكون فيه سعة أو له جواب ثالث... وهكذا، فعدم تفصيل المجملات والمبهمات والعمومات مما ضل الناس بسببها، حتى قيل: إن أكثر ضلال الناس واختلافهم هو بسبب المجملات، وعدم تحرير موضع النزاع.

قال أبو مجلز الفقيه العالم: «هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون، وإليه

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (٢٤٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٠٦٤).

يدعون، فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً».

قال: الحكم بما أنزل الله بالنسبة للأمرء هؤلاء - بني أمية ومن معهم - هو دينهم الذي يدينون به، ولم يأتوا بقانون آخر، ولم يأتوا بالتوراة ولا الإنجيل ولا قانون الروم أو الفرس، فدينهم الحكم بما أنزل الله، وبه يقولون وإليه يدعون - أي: إلى الكتاب والسنة - فإن هم تركوا شيئاً منه أو قصرُوا في شيء عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً، وهم مقرون بمخالفتهم فيما خالفوا فيه، وهذا المعيار معيار سليم ودقيق جداً، فلو أنهم جاءوا بشريعة أخرى أو بقانون آخر لكان الحكم مختلفاً.

قال: «فقالوا: لا والله ولكنك تفرق! - أي: تخاف - قال: أنتم أولى بهذا مني! لا أرى، وإنكم ترون هذا ولا تحرجون - أي: أنتم أولى بهذا التفكير، وأنتم لا تحرجون فيه - ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك أو نحواً من ذلك».

فكلام أبي مجلز هنا مثل الذي جاء في حديث البراء من كلامه أو مرفوعاً: «أنها في الكفار» أما أن يكون الحكم بما أنزل الله هو دينه، وبه يقول، وإليه يدعو، وإذا خالفه فإنه يتحرج ويشعر أنه قد خالف أمر الله، فهذا ليس ممن حكم بغير ما أنزل الله.

قال: «ثم روى الطبري الأثر (١٢٠٢٦) نحو معناه، وإسناده صحيحان».

تعلق بعض المنتسبين للعلم بخبر أبي مجلز:

قال: «فكتب أخي السيد محمود محمد شاكر بمناسبة هذين الأثرين ما نصه: اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة، وبعد: فإن أهل الرب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام، فلما وقف على هذين الخبرين، اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها، والعامل عليها».

يشير الشيخ محمود إلى ما وقع فيه كثير ممن ينتسبون إلى العلم، وهذه مأساة

وقعت، وخاصة في مصر ابتدأها الاستعمار وأعوانه من أيام دولة محمد علي باشا بما يسمونه (قانون القناصل) ثم توسع القانون فأنشئت محاكم أهلية، ومحاكم أجنبية، ومحاكم ملية، وتوسع في الأمر لما جاء الإنجليز وجاء كرومر وجاء الشيخ محمد عبده، فأخذ يمهد لتنظيف القانون الفرنسي، وجاء تلميذه مصطفى المراغي فزاد الطين بلة - نسأل الله العفو والعافية- والمراغي هو الذي قال للجنة وضع القوانين: ضعوا أي تشريع أو قانون ترونه مناسباً للمصلحة وللعصر واكتبوه وأنا أخرجه لكم من أي مذهب من المذاهب الفقهية. فهكذا أصبحت الجراءة على الله إلى هذا الحد يخرج به إما على قول ضعيف، أو على قول راجح لكنه على مذهب خطأ، أو حتى على قول من أقوال العلماء الشاذة، أو قول من أقوال من لا يعتد بخلافهم كالإمامية الاثنى عشرية، ولذلك من الأشياء الطريفة التي ذكرها الشيخ محمد أبو زهرة أنهم كانوا لا يعترفون بالمذهب الحنبلي، ولو رجعنا إلى كتاب الجبرتي في تاريخ مصر وهو أشهر كتاب في تاريخ مصر، وكان صاحبه حنبلياً، وكان يثني في كتابه على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعلى رسائل الأئمة، ويذكر قصص الخرافيين والمشركين، فالكتاب فيه فوائد من هذا الجانب، فالمذهب الحنبلي كان موجوداً لكن من كراهيتهم له لا يذكرونه، ويقولون: إنه كما قال الطبري وأمثاله: أحمد بن حنبل ليس فقيهاً، وإنما هو محدث، وكذلك ابن رشد في بداية المجتهد وغيره يذكر الفقهاء الثلاثة ولا يذكرون إلا مذهب أهل الحديث عامة إن ذكروه، فيجعلون الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه والبخاري ومسلم وأمثالهم، إما من أتباع أحد المذاهب الثلاثة، وإما من أهل الحديث في الجملة ولا يذكرون المذهب الحنبلي.

والشاهد من ذلك أنه جاء في موضوع الزواج، وهم يريدون فرض القانون الفرنسي الذي لا يبيح للرجل أن يتزوج أكثر من زوجة، وهذا هدف عظيم للاستعمار، فهو يسعى إلى إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا وأمر آخر: هو تقليل نسل المؤمنين، وخاصة في إفريقيا كما يقولون.

فالنصرانية المحرفة أخذوها وأرادوا أن يفرضوا القانون الخبيث في بلاد

المسلمين، فوجدوا أن المذهب الحنبلي يجيز للزوجة أن تشتري ألا يتزوج الزوج عليها، فأخذوا به وجعلوها في قانون الأحوال الشخصية، قالوا: ورجعنا أيضًا إلى المذهب الحنبلي وأخذنا منه اشتراط ألا يتزوج عليها، وهذا دليل على أن المذهب الحنبلي فيه مرونة، وأنه يناسب العصر ويصلح أن يستفاد منه.

فالمقصود أن هؤلاء الناس خبيثاء، ويتكلم الشيخ محمود شاكر عن هؤلاء؛ حيث إنه كان يرى واقعًا مؤلمًا، فأمر يُعرض فيه أمر لتطبيق الشريعة، فيقولون: هل تريدون أن تكون الشريعة مصدرًا رئيسًا، فيقول الدعاة والمشايخ وأمثالهم: لا.

بل نريد أن تكون المصدر الرئيس، وقامت على ذلك المشاكل طوال الدهر، هل هو مصدر رئيس أو المصدر الرئيس، فلجنة تضع المسودة، ولجنة تلغي المسودة... وهكذا أربعين سنة أو أكثر، والأمر لم يتغير فيه شيء، ولم يطبق من أحكام الله أي شيء، وكان القضية قضية الألف واللام، نكتب «أل» أو لا نكتب «أل»، والقضية قطعًا ليست كذلك، وإنما هذه قلوب لا تريد أن تدعن لله ولا تؤمن بالله حق الإيمان، ولا تريد أن تستسلم لحكم الله كما ذكر الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [النساء: 65] فهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، كما ذكر الله ﷻ، ولذلك يجعلون القضية - قضية اللجنة - أن المسودة لم تكمل، وعندما أكملت المسودة بعد سنين، قالوا: يعرض على المجلس، فإذا عرض على المجلس قالوا: نجعل الشريعة مصدرًا رئيسيًا وليست المصدر الرئيسي، سبحان الله!!

ولو فرضنا أنها المصدر الرئيسي، فمعنى ذلك: أن هناك مصادر ثانوية - فمثلاً - لو قلنا: إن كل شيء لله، وكل شيء نعبد الله فيه ونطيع الله فيه إلا ثلاثة أو أربعة أمور نعصي الله فيها، ونأخذ غير شرع الله، ونستمددها من التوراة أو من الإنجيل أو من الياسق، فحكمتنا فيها حكم من أخذ البعض وترك البعض، فسيكون قد ترك الكل، لكنهم أشغلوا الأمة بهذه الأمور، فإذا جاء من يطالب بإقامة حكم الله ودين الله، قالوا:

هذا متطرف، وهذا عميل، وهذا متخلف، ورجعي، وضد التطور، وضد التحرر، ويحتجون عليه بعلماء السوء، فالشيخ شاعر كان يكتب هذا وهو يعانیه ويعيشه.

حقيقة واقع السؤال والإجابة:

يقول: «والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسئول».

فهو يعرفنا بالنوعين السائل الخوارج، والمسئول الذي هو أبو مجلز، قال: «فأبو مجلز لاحق بن حميد الشيباني السدوسي تابعي ثقة كان يحب علياً عليه السلام، وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على علي عليه السلام طائفة من بني شيبان وبني سدوس ابن شيبان بن ذهل، وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس، وهم نفرٌ من الإباضية.

والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية».

وأبو مجلز رضي الله عنه التابعي الثقة يلتقي في نسبه مع إمام عظيم، هو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، من نسل قبيلة شيبان بن ذهل التي ينتسب إليها الإمام أحمد، وهم من ربيعة، وهناك عوامل جاهلية جعلت الخوارج يكثرون في ربيعة.

والمأمون له كلمة في هذا، وقد تكون حقاً، يقول: «أما ربيعة فلم تزل ساخطة على الله منذ أن جعل النبوة في مضر، وما خرج منها اثنان إلا كان أحدهما شارقاً».

أي: من الشراة وهم الخوارج، كان يُقال لهم: الخوارج والشراة والقراء، فالمأمون عباسي فيتكلم عنم خرجوا على خلافة بني العباس وانضموا إلى غيره، وبالذات هؤلاء الشراة؛ لأن الخوارج يقولون: الإمامة حق لكل مسلم، قرشياً أو غير قرشي، فيقولون: لماذا يشترط أن يكون قرشياً؟ فيعللها المأمون بقوله: إن ربيعة - التي خرج منها كثير من الخوارج - ساخطة على الله لأنه اختار نبيه من مضر، ولأن الخلافة لا تكون إلا في قریش بالذات.

وبعد ذلك تأتي مسألة الخلاف بين أهل البيت، فالعباسيون يرون أن العم أولى، والعلويون يرون أن ذرية فاطمة أولى... إلخ.

لكن المقصود: هو أن العباسيين والأمويين -أي: المنتسبين إلى علي رضي الله تعالى عنه- متفقون جميعاً على أصل، وهو أن الخلافة في قريش، لكن الخوارج - ومنهم هؤلاء الذين ينتسبون إلى ربيعة- يقولون: لا، بل الخلافة في أي مسلم كفاء، فالمأمون يُعلل قولهم هذا.

والمقصود أن هؤلاء الإباضية جاءوا يسألون أبا مجلز رضي الله عنه.

قال: «الإباضية من جماعة الخوارج الحرورية، وهم أصحاب عبد الله بن إباح التميمي، وهم يقولون: بما قالت سائر الخوارج في التحكيم، وفي تكفير علي رضي الله عنه؛ إذ حَكَّم الحكَّمين». والخوارج كثير منهم من بني تميم، وبنو تميم من مضر.

والنبي صلى الله عليه وآله حين جاءته صدقات بني تميم، قال: «هذه صدقات قومنا» (١). فهم أقرب إلى النبي صلى الله عليه وآله نسباً من ربيعة أو مع ذلك كثير من الخوارج من بني تميم.

ولهذا نقول: إن القضية ليست قضية عنصرية وعصبية، وصحيح أن العنصرية في الجاهلية كان لها دور، لكن ليس كل الخوارج ينطلقون من منطلق العصبية، وإلا لما خرج معهم بعض من قال بقولهم، وهم من مُضَر، فكان الأولى أن يتعصبوا لقريش، لكن الضلال لا يعرف العنصرية، نسأل الله العفو العافية.

فإنه إذا أضل الله أبداً، فقد خرج من بعض أحفاد جعفر الطيار رضي الله تعالى عنه، من ادَّعى النبوة وأفسد في الدين، وهذا في عمر بني أمية، المسألة فالضلال يوجد في كل فخذ وفي كل قبيلة، وفي كل شعب.

قال: «فهم يقولون- الإباضية - مقالة سائر الخوارج، في التحكيم وفي تكفير علي رضي الله تعالى عنه، إذ حَكَّم الحكَّمين، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله في أمر

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٣)، ومسلم (٢٥٢٥).

التحكيم».

وهذه المسألة من المسائل التي ناظروا فيها عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه، وكان مما جادلهم به أن الله ﷻ شرع لنا التحكيم في سورة المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فكيف يصلح بين طائفتين عظيمتين من المسلمين.

إذن: ليس التحكيم كفرًا كما تزعم الخوارج.

قال: «ثم إن عبد الله بن إياض، قال: إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك، فخالف أصحابه، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم، ثم اختلفت الإباضية بعد عبد الله بن إياض الإمام افتراقًا لا ندري معه في أمر هذين الخبرين، من أي الفرق كان هؤلاء السائلون، إذ أن الإباضية كلها تقول: إن دور مخالفهم دور توحيد، إلا معسكر السلطان، فإنه دار كفر عندهم».

وهذا مما بقيت في عقائد الإباضية إلى اليوم.

الخوارج ثلاث طبقات - ثلاث درجات في الغلو - أشدهم غلوًا الأزارقة ثم النجدات، ثم الإباضية.

فالإباضية أخفهم، وليس معنى هذا أنهم على السنة والهدى، لكنهم لا يكفرون كل من خالفهم كما فعل أولئك، لأنهم يقولون: الكفر ينطلق على السلطان وجنده فقط، وأما الرعية فليست كافرة.

ثم قالوا: إن جميع ما افترضه الله سبحانه على خلقه إيمان، وهذا الكلام مما يشنع به المرجئة وأمثالهم على أهل السنة، فيقولون: إنكم على مذهب الخوارج.

فنحن نعتقد - أيضًا - أن كل شعب الإيمان إيمان، فالصلاة إيمان، والزكاة إيمان، والصوم إيمان حتى إمطة الأذى عن الطريق إيمان.

وفي هذا القول الخوارج يوافقون فيه أهل السنة، لكن قالوا: من ترك شيئًا من الواجبات كفر، وأهل السنة قالوا: من ترك شيئًا من شعب الإيمان عصي أو نقص

إيمانه، إلا من ترك أعلى الشعب، التي هي شهادة أن لا إله إلا الله ولوازمها، أو ترك أحد الأركان عامداً... إلخ، مما يكفر به الإنسان، فهنا الفرق.

فنحن نقول: إن قولهم بأن كل شعبة من شعب الإيمان - أو كل ما أمر الله به - هي إيمان، هذا القول حق، لكن رتب عليه الخوارج أن من لم يفعله ولم يأت بهذا الواجب فهو كافر، وهذا عند النجدات، وعند الأزارقة، أما الإباضية فقالوا: نحن نخفف قليلاً، فنقول: هو كافر، لكن كفر النعمة، وليس كفراً ينقل عن الملة، فقالوا: فهو كفر نعمة لا كفر الشرك، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلدون فيها، فهذه هي عقيدة الإباضية، وهم موجودون اليوم في عُمان والجزائر وفي غيرها.

وفي كتبهم أن من قال: إن الله تعالى يرى في الآخرة، فهو عندهم كافر خالد مخلد في النار، وصاحب الكبيرة عندهم - أيضاً - كافر خالد مخلد في النار، فهذا دينهم إلى اليوم.

فيقول الشيخ محمود: «ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية، إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء؛ لأنهم في معسكر السلطان - معسكر الخلافة - ولأنهم ربما عصوا وارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه. ولذلك قال لهم في الخبر الأول: فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً».

يقول: إنهم تقع منهم معاصي لكن يعلمون أنها معاصي.

«وقال لهم في الخبر الثاني: إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنها ذنب».

أي: ويعتقدون، وليس المقصود هو مجرد المعرفة بل المعرفة، فشخص يفعل ذنباً، ويقول: أنا أعرف أنه ذنب، فهذا لا يكفي إلا إذا اعتقد أنه ذنب، وأنه حرام فلا يكفر، أما لو استحلّه، واعتقد أنه حلال، مع معرفته أنه حرام، فإنه يكون كافراً.

إذن: قد يجتمع الاستحلال مع المعرفة، فيقول: أعرف أنه حرام، لكن يستحلّه،

فليس المقصود بالعلم مجرد المعرفة، لكن المقصود بالعلم هو الاعتقاد، أي: يعتقدون أنه حرام، فكيف نكفرهم؟!

توضيح كون التبديل إعراض عن شرع الله:

قال: «وإذا فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا».

بل سؤالهم في موضوع آخر ليس عما يحتج به مبتدعة زماننا: «من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة الله، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ».

فهو يقول: القضية قضية مختلفة تمامًا عما يقوله هؤلاء المبتدعة، ونلاحظ في عبارة الشيخ رحمه الله عدة أشياء: أول شيء: أنه القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون - قانون عام - مخالف لشريعة أهل الإسلام، يحتكم إليه.

ثانيًا: قال عبارة أخرى: «ولا في إصدار قانون ملزم».

أي: إن خلفاء بني أمية أو بني العباس، أو غيرهم من المذنبين، أخطأوا فلم يقيموا بعض الأحكام وقصروا فيها إما لهوى أو لشهوة، لكن الحكم الشرعي موجود، ولم يأتوا بقانون ملزم مخالف للشريعة، وعلى ذلك فيوجد فرق كبير جدًا بين الحالة الأولى وهذه الحالة.

فهنا عندنا حالة تشريع إلزامي، تلزم به الأمة، ويطبق عليها، ويحاكم ويحاسب من خالفه، ويعاقب من اعترض عليه.

أما الحالة الثانية فهو: ذنب وقع من إنسان، وإذا سئل قد ينكر، أو يعتذر بأن بعض العلماء أفتاه بذلك، أو أنه حكم على مذهب كذا، فهو ليس معتقدًا وملزمًا به للناس، بل هو في نفسه لا يرى أنه حلال لنفسه فضلًا عن أن يلزم به الناس.

قال: «فهذا الفعل - أي: إصدار قانون ملزم للناس بغير كتاب الله، وسنة رسوله

ﷺ - إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله

ﷺ، وهذا كفر لا يشك فيه أحد من أهل القبلة -على اختلافهم- في تكفير القائل به، والداعي إليه».

أي: الفرق القديمة لم تكن تتكلم عن هذه القضية، بل كانوا يتكلمون عنمن يخالف في قضايا أفراد -قضايا معينة- أما إلزام الناس بدين غير دين الإسلام، فلم يخالف في هذا أحد، حتى يأتي مبتدعة زماننا الآن ويقولون: إنه لا يزال مسلمًا.

توضيح لواقع هذه القوانين:

يقول: «والذي نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله».

وقول الشيخ محمود: بلا استثناء صحيح من جهة، فإن عندهم قانون الأحوال الشخصية وفق الشريعة، وبعض الدول زيد قليلًا في باب المعاملات، فنقول: لا يعتبر شيء من ذلك أنه إقامة لحكم الله، حتى قانون الأحوال الشخصية لا يعتبر أنه إقامة لحكم الله، لأن القوم الذين يطبقون قانون الأحوال الشخصية، لا يطبقونه على أنه منزل من عند الله، ولا يقولون: نحن ملزمون به ولو خالفناه لأثمننا، ولوقعنا في الإثم والحرَج، وأنه لا تصلح حياة المخلوقين والعباد إلا بهذا الشرع الذي أنزله الله، فهم لا يعتقدون ذلك، إنما هذا جانب من جوانب الحياة، وضعوا له تشريعات كما وضعوا للاقتصاد والسياسة وللإجتماع، وللأحوال الجزائية، فوضعوا محاكم تجارية، وعمالية، وإدارية، وكل شيء وضعوا له قوانين، فبقي هذا الجانب، فقالوا: هذا الجانب نأخذه من الشريعة، نقبس -مثل ما ذكرنا- من الإمامية، والزيدية، والإباضية، والحنابلة والشافعية، فنركب شيئًا على شيء حتى نكمل جانبًا من جوانب الحياة.

لكن هذا الجانب لم يجعلوه كليًا بعيدًا عن الدين؛ لأنه من الصعب على الناس أن تقول لهم: اذهبوا افعلوا عقد الزواج في البلدية، وهذا قد حصل، وقد فعله المجرم الخبيث كمال أتاتورك، وقال: الدين يلغى نهائيًا، ولا يفعل عقد زواج عند مأذون أو شيخ، بل في البلدية، فهناك موظف مدني يكتب العقد، مثل أي عقد آخر، فألغى المسألة

تمامًا، لكن في هذه المسألة وجدوا أن في تركيا نفسها لم يقبل الناس ذلك.

لأن هذه أشياء شخصية للغاية لو أخرجناها من عند الناس، فإن الناس لا يقبلون بهذا، فهم جاءوا بالشرعية الإسلامية حتى يكملوا القانون الوضعي، فهم يريدون أن يجعلوا القانون أبوابًا متكاملة، وبقي لهم بابًا اسمه: الأحوال الشخصية، قالوا: نكملة من الشرعية، فأخذوا ما يعجبهم من الشرعية، وخلطوه بغيره وكمّلوا الباقي، فهذا شيء.

والشيء الآخر: أنه إنما يأخذ شرعيته عندهم من إصدار الدولة له واعتباره قانونًا.

فمثلاً: شخص درس أحكام الطلاق، وخرج من دراسته بنتائج ونشر الكتاب، فمن يقرؤه من المسلمين يجد الدليل واضحًا فيه على مسألة من مسائل الطلاق، فالواجب عليه أن يتبعه ويعمل به رأسًا، فإذا قرأ قاضي من القضاة هذا البحث، ورأى أن هذا الحكم أحسن من الحكم الذي كان يحكم به على المذهب، فإنه يطبق الحكم مباشرة، وهذا هو الواجب وهو الحق؛ لأن وظيفة العلماء هي الكشف عن حكم الله، وتبيين أن هذا هو حكم الله، أما الإلزام به فإنه من الله، فيلتزمه الناس؛ لأنه من عند الله.

فالعالم يكشف عن أدلة حكم الله وبيئته، ثم ينتهي دوره، وبعد ذلك يجب على الأمة أن تعمل به -القاضي والحاكم والأمير والصغير والكبير- لكن في القانون الوضعي لو افترضنا أن شخصًا وضع مسودة للأحوال الشخصية، وضبط كل شيء فيها، ورتب فيها الأحكام الشرعية، مادة كذا ومادة كذا، وهذا حتى لا يقولون: أنتم عندهم أحكام وأبواب الفقه غير مرتبطة هكذا يظنون.

فهذا شخص قال: أنا أضع لكم الأحكام الشرعية على الطريقة القانونية، مادة وراء مادة، ثم نشره بين الناس، فإذا جاء شخص يعمل في المحكمة القانونية، وعمل به، وقال: إني عملت بمشروع الأحوال الشخصية المقدم من فلان، فإنهم يضحكون عليه، ويقولون: إنه مجنون؛ لأن هذا المشروع لم يعتمده وزير العدل ولم يقره رئيس الجمهورية، لأن الإلزام عندهم ليس من كونك أبنت عن الحق، وأتيت بأدلة أرجح، بل الإلزام عندهم من السلطة، ولهذا فهم يفرقون بين القانون وبين المبادئ الأخلاقية،

فالقانون عندهم لا بد أن يكون من السلطة، وأن يكون ملزمًا به، وإلا أصبح توجيهات أخلاقية.

ولهذا لا تجد في القانون شيئًا اسمه مستحب، حتى في نظام المرور ونضرب لذلك -مثالًا- في القانون لا شيء اسمه مستحب للسائق، فإذا وقف فيما أن يعاقب أو ليس عليه شيء، وهذه من الفروق الكبيرة جدًّا بين شرع الله وبين أنظمة البشر، حتى ولو كانت من تنظيم الأمور الجائز، فنظام المرور، فلا نقول فيه شيئًا، إذا لم يخالف الشرع، فأنت تنظم أمور الناس به، لكن في الإسلام أنت عندك أمور: مثلًا: لو تركت الأفضلية في المرور للكافر فإنك تأثم، ولو كان الذي يمر أمامك عاجز أو ضعيف أو أكبر منك أو... فأعطيته فرصة للمرور، فهنا قول: هذا مستحب، وربما قد يجب فأنت في كل أحوالك تتعبد الله ﷻ، وتشعر أنك إما مرتكب لمحرم، أو تارك لواجب، أو أنك مسدد ومقارب، وهذا الشعور حسن.

أما عندهم، فإما أن يستحق العقوبة فهذا قانون، أو ليس عليه عقوبة فهذا يسمى توجيهات أخلاقية، ولا تُذكر في القانون، ولا يتعرضون لها، وممكن عندهم أن يكتب عنها صحفي في الجريدة، ولهذا عندهم الصحافة وهم أصحاب الجلالة الرابعة، فهي تكمل الجوانب التي لم يأت بها القانون، فتقول للناس: لماذا تفعلوا كذا، ولو كنا نفعل كذا، ومن سمات المواطن الصالح أنه يفعل كذا، ويترجّون الناس، ولا يوجد عندهم شيء اسمه: مستحب، أو مندوب إليه وتأجر عليه، بل القضية عندهم هي أن هذا مواطن أحسن خلقًا من الآخر، وهذا أفضل مواطنة من الآخر، فهذه هي القضية عندهم.

فمن هنا كان الفرق كبيرًا جدًّا بين ما شرعه الله وما فيه الرحمة، والعدل للعالمين أجمعين، والخير واليسر والبركة وبين تشريعات هؤلاء.

فالآن عندما يقول الشيخ: «بلا استثناء»، فإن كلامه صحيح من جهتين، لأن هذا التشريع الذي هو من الدين لم يقم لأنه من عند الله، ولم يستمد الإلزام -أيضًا- من كونه من عند الله، وإنما لأن السلطة ألزمت به وانتقت واختارت بعض الأشياء من

الشريعة، وممكن تغييرها في أي لحظة وتلغيها إذا أرادت، وتضع غيرها.

وجه احتجاج الزنادقة على تفضيل أحكام القانون الوضعي:

يقول: «بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة، إنما أنزلت لزمان غير زماننا».

وقد كتب مصطفى أمين: إن أحكام الشريعة، أو ما يدعو إليه المتطرفون، إنما نزلت في أيام الجمل، والحمار وكذا...، أما في عصر الصاروخ والطائرة فلا بد من أخذ القوانين الوضعية، ومن شاء أن يذهب إلى القوانين القديمة فعلى الأقل عليه أن يقيمها في نفسه، ويأخذها ولا يدعو الأمة إليها، ولو كان راكبًا حمارًا، فهو يقول: إذا أخذت الطائرة والصاروخ والكيمياء والعلوم فإنك تأخذ معها القانون الوضعي، وإما إن كنت تريد أحكام الله فتأخذ معها ركوب الجمل أو ركوب الحمار، فهذا يربطه هكذا.

فيقول: «إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب نقضت».

فهم يقولون: الأسباب والعلل التي نزلت من أجلها الشريعة - كما يقول هؤلاء المبطلون المرتدون - انتهت، وهذا مثلما يقولون في التاريخ أحيانًا: بعث الله محمدًا - وأحيانًا لا يقولوا: الرسول، بل يقولون: أرسل الله محمدًا، وهكذا ﷺ، ولا يذكرون الصلاة عليه - لأن العرب كانوا يعبدون الأوثان، ويقدمون الأصنام، ويثدون البنات، فبعث الله النبي ﷺ، للقضاء عليها، والذي لا يعرف قصدهم يقول: هذا كلام حسن، ولكنهم يقصدون بهذا الكلام أنه الآن لا أحد يعبد الحجارة، ولا أحد يثد البنات.

إذن: هذه القضية انتهت.

والآن عندهم مشاكل أخرى، فعندهم مشكلة في الإسكان، ومشكلة التضخم، والنسل - زيادة أعداد الناس - ومشاكل التنمية، أما مسألة عبادة الحجارة، وواد البنات، فهذه كانت قديمًا وانتهت، فهذا هو الكفر الذي يزينونه للناس؛ لأنهم مهرة وفنانون في ذلك.

الفنانون الذين يشيعون الفاحشة - الأفلام وغيرها - وهم جزء من الفنانين في فن النفاق الأكبر الذي يريدون به أن الأمة تُمسح وتنسى ذكورها ودينها وعقيدتها وأخلاقها، فتصبح ممسوخة، بحيث يصبح الشخص أفرنجياً لكن ليس أفرنجياً من الفرنجة الغربيين، بل أفرنجي ممسوخ تماماً، فلا تعرف ولا ترى منه أي ملمح، فلا هو أفرنجي حقيقي، ولا هو ذلك المسلم الذي يعرفه الناس.

قالوا: «فسقطت الأحكام كلها بانقضائها - لانقضاء العلل والأسباب - فأين هذا مما بيناه في حديث أبي مجلز والنفر من الإياضية، من بني عمرو بن سدوس؟ ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام، أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة مُلزِمة للقضاء بها هذه واحدة».

وهذا مهم جداً وقوي؛ لأنه على مدار التاريخ الإسلامي لم يوجد أحد تجاوز هذا وسن حكماً وجعله شريعةً ملزمةً، فأما الياسق فهو موروث، لكن حاكم مسلم يشرع شرعاً ويفرضه، فهو يقول: إن هذا لم يحصل.

أحوال الحاكم المسلم الذي حكم بغير ما أنزل الله:

قال: «والأخرى أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكن حكم بها هوى، ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة».

أما بالنسبة للمغفرة فإن تاب وإلا فهو تحت المشيئة: «وإما أن يكون حكم بها متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار ببعض الكتاب وسنن رسول الله ﷺ».

فهذا الحاكم قد يقول: أصنع منفعة للمسلمين، فخالف في قضية معينة، وهو ملتزم بشرع الله، ويدين به، ويعلم أنه الشرع ولا غيره، فإما أنه جاهل، والجاهل له أحكام، وإما أن يكون صاحب هوى ومعصية، فهذه من الكبائر.

وإما أن يكون حكم بغير ما أنزل الله متأولاً، ففهم الدليل فهماً غير صحيح، أو تأول على قول من أقوال العلماء.

والمهم أنه يحكم في محكمة لا تحكم إلا بما أنزل الله، وفي ظل سلطان لا يحكم ولا يأمر الناس إلا بما أنزل الله، لكن خالف في مسألة، فليس كل القضاة معصومين، بل القضاة يخطئون وهم في محاكم شرعية، ويحكمون بالشرع، فهذا الخطأ لا يخرج عن ثلاث حالات: أولاً: إما جاهل: اعترف عنده شخص أنه شرب الخمر، وأقر بذلك، فقال: ليس عليك شيء، لماذا؟ قال: قد يكون معذوراً، أو مكرهاً، أو جاهلاً، وقد يكون رجوع عن الإقرار، كما يفعل بعض الناس، فهذا يكون حكمه حكم الجاهل الذي لم يمحص الشروط والأدلة.

أو حاكم ترك حد السرقة فلم يقمه على أحد، جهلاً منه بالنصاب أو نسي أو لم يعرف.

والجهل صورته كثيرة، وبعض الناس قد يستغرب: كيف يجهل الحاكم هذا؟! وكيف يخفى عليه هذا؟! وفي الحقيقة عندما تقرأ عن بعض الصحابة، فإنك تجد أموراً خفيت عليهم، فتتعجب منها، وتقول: كيف يجهلون، فمثلاً: عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه، كان لا يرى القراءة في الصلاة السرية، وهذا في صحيح البخاري، فتقول: هل يُعقل أن ابن عباس، وهو حبر الأمة، لا يدري أن القراءة واجبة في الصلاة السرية، وغيرها أشياء كثيرة، قد يستغرب الإنسان منها، وأيضاً قد يخفى عليه بعض الأحكام، وقد لا تبلغ هذا الحاكم.

والمقصود أن -خفاء الحكم بمعنى أعم- باب الجهل، وهذا يقع من القضاة حتى في عصر النبوة، وفي عصر الخلافة الراشدة.

ثانياً: أن يحكم هوى ومعصية.

مثلاً: يكون هذا السكران ولد عمه أو قريبه، أو يعمل في مكان قد يخدمه منه، فيقول: لو أقمنا عليه الحد سوف تكون فضيحة، وأهله يقولون له: لم نجد من منفعة إلا

أنك تطبق الحد على ابن عمنا، وهذه سوف تفشل القبيلة كلها، ولا بد تحكم أنه بريء، وهذه الحوادث تقع، بل وكثيراً ما تقع هذه، فيبرئته، ويقول: ليس عليه شيء.

والثالث: المتأول.

أي: هو عنده دليل لكنه فهمه على غير وجهه، فهو ليس كالجاهل؛ لأنه يخالف الجاهل من جهة أن الأول خفي عليه الحكم، أما هذا فعنده دليل لكنه فهمه على غير وجهه، مثلما تأول الصحابة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

فرجل مؤمن تقي، ماذا عليه إذا شرب الخمر؟ إذن ليس عليه جناح، مع أن هذه الآية لا تصلح دليلاً، لكنه تأولها كما يتأول بعض الناس؛ وقد ذكرنا بعض التأويلات أنها قد تكون باطلة أو صريحة، فبعض الناس -مثلاً- يريد أن يرد عليك، فيقول لك: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إذن: نساوي في الحدود بين الإماء وبين الحرائر -مثلاً- في الجلد؟ فيقول لك: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فهذا تأول، والحقيقة: أن الدليل غير ذلك.

ويُتصور -أيضاً- أن التأول وارد في أحكام كثيرة، ولو لا الجهل والخطأ والتأول؛ لم تكن أحكام الفقه مملوءة بالترجيح، وبيان الخطأ، والشذوذ؛ وهذا حاصل لأنها موجودة.

أما المعصية فهي ملء الأرض؛ والناس يخالفون أمر الله في أشياء كثيرة.

إذن: هذه الأحوال الثلاثة.

قال: «وأما أن يكون في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكمٌ حكم بقاء في أمر جاحداً لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام؛ فذلك لم يكن قط».

فهذا لم يقع ولم يحصل، والخوارج لم يسألوا عنه، وأبو مجلز لم يُجب عنه، وهذه الصورة غير واردة، فصورة أن شخصًا يحكم بحكم أو بقضاء غير كتاب الله، جاحدًا لما أنزل الله، مؤثرًا لأحكام أهل الكفر، ثم يقول: أنت يا أبا مجلز أو غيرك ليس لكم علاقة في الموضوع، وهذا القانون الذي حكمتُ به أخذناه من الفقه الروماني، لأنه من فقه هذه الأمة المتحضرة الراقية، فهذه الصورة لا يشك أحد في كفر هذا الحاكم أبدًا لا في زمن أبي مجلز أو غيره.

ولو قال شخص: هذا من أحكام الدول المتقدمة، ونحن أخذناه من الدول المتطورة.

قالوا عنه الناس: جزاء الله خيرًا، هذا يريد يطور البلد، ويريد أن يتقدم البلد، فالفرق ليس في عمله هو، بل الفرق في نظرة الناس إليه، لأنهم جهلوا دينهم.

قال: «فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه».

أي: لا ينصرف إلى هذه الحالة -حالة الجحود- أبدًا، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما مثل قول ابن عباس وطاوس ومجاهد: كفر دون كفر، من احتج بها في غير بابها، وقال: كفر دون كفر، مثل من يأتي بالقانون الوضعي وبقيمه ويطبقه، ويقول: هذا كفر دون كفر، قال: «فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابها، وصرفها إلى غير معناها، رغبة في نصرة السلطان».

وهذا أحد الأسباب، وهو نصرة السلطان على تسويق الحكم بغير ما أنزل الله، وفرضه على عباده، مثل من يقول: إن الحكومة إنما أرادت المصلحة، والله تعالى إنما أنزل الدين لغرض المصلحة، فالمصلحة تتحقق بهذا القانون، وهذا القانون مأخوذ كثير منه من الفقه المالكي؛ لأن الفقه المالكي كان في الأندلس، ولما قُضي على المسلمين في الأندلس دخل الفقه المالكي إلى فرنسا، ثم جاء نابليون وأخذ من الفقه الفرنسي، وكثير منه مالكي، وهكذا حتى يتوصل إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله سائغ.

يقول الشيخ شاکر: «فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله» أي:

أن الذي قصده نصره السلطان أو قصده الاحتيال على شرع الله: «وحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله، أن يستتاب؛ فإن أصر وكابر وجحد حكم الله، ورضي بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين» انتهى كلامه.

يقول: إن هذا النوع وهذا الصنف من الناس يجب أن يستتاب وأن تقام عليه الحجة، وإن لم يتب وأصر على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله، فحكم من يصر على جحد حكم الله، وإحلال غيره محله، معروف أو معلوم عند أهل هذا الدين، وهو أنه قد خرج من الملة نسأل الله العفو والعافية.

ونواصل تفسير الآيات الكريمات من سورة المائدة المتعلقة بالحكم بغير ما أنزل الله، والغرض هنا ليس تفسير الآيات، واستنباط الأحكام الفقهية منها، ولكن الغرض هو معرفة درجة الحكم بغير ما أنزل الله، وأنواعه.

والمقصود هنا هو موضوع الحكم من جهة تعلقه بالعقيدة، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]، وهذه هي الآية (٤٥/ص: ١٥٨) من عمدة التفسير.

يقول الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما اختصره الشيخ أحمد شاكر: «وهذا أيضًا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمدًا وعنادًا، ويقيدون النظري من القرظي، ولا يقيدون القرظي من النظري بل يعدلون إلى الدية!».

وهذا الكلام يتعلق بسبب النزول الثاني كما سبق، وسبب النزول الأول هو الزانيين، ولذلك عطف فقال: «كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطَلَحُوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار! ولهذا

قال هناك: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال هاهنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً.

وهذا الكلام كلام نفيس من الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فهو يجعل الآيات جميعاً في نسق واحد، وأنها نزلت في أناس معينين، لا كما ذكر بعض العلماء أن بعضها في المسلمين وبعضها في النصارى وبعضها في اليهود، أو كلها في الكفر الأصغر بدون تفصيل.

فهو يجعلها جميعاً في الكفر الأكبر، كما في حديث البراء: «في الكفار كلها» فالكفر كله أكبر بغض النظر عن فاعله.

فيقول: إن تنزيل الآية الأولى قال فيها: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] لأن الموضوع موضوع قصة رجم الزانين، أي: سبب النزول الأول الذي ذكره الحافظ ابن كثير وذكر رواياته، وأما الثاني، وهذه الآية التي فيها أحكام القصاص، والمساواة بين الأنفس وفي الأعضاء فإن تبديلها كان: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] فالموصوف واحد، لكنه وصف تارةً بأنه كافر، نظراً لأنهم عدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم.

وقد ذكرنا أن العلماء رحمهم الله جعلوا المناط المكفر هو: اصطلحوا أو بدلوا أو تكاتموا أو... إلخ.

وبهذا نجد فقه السلف الصالح في عباراتهم، فواضح أن العدول عن حكم الله إلى ما اصطلح عليه الناس كفر، وهنا لا تنافي مع ذلك الكفر؛ لكن بالنظر إلى كون الحق فيه حقاً للناس، فالأول حق لله؛ لأن الزانين متراضيان، ودليل ذلك كما جاء في

الصحيحين: «فرايت الرجل يجنأ عليها ليقبها»^(١) أي: الحجارة.

فالزنا هنا بتراض، فالحق فيه الله، لكن في قصة بني قريظة وبني النضير في الديات، حيث جاءت الذليلة تشتكي العزيرة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: ما علمنا أبناء دين واحد، ونسب واحد، يكون دية أحدهما نصف دية الآخر، فلما كان الحق متعلق بالمخلوقين، ناسب أن يكون الوصف بالظلم، هكذا يرى الحافظ ابن كثير وهي مناسبة لطيفة.

القراءات في قوله تعالى: ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾:

ثم ذكر بعد ذلك الثلاث القراءات في الآية، وهي لا تؤثر في المعنى كثيراً.

القراءة الأولى: قراءة الكسائي: ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] بالنصب، ومعلوم أن اسم إن وأخواتها منصوب، ثم يستأنف: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

القراءة الثانية: قراءة أبي عمرو وابن كثير وابن عامر بنصب: «والعين» وما بعدها إلى الجروح، فالمعطوف كله يعطف عليها فتكون منصوبة، لكن (الجروح) يستأنف فيها بالرفع، ولها مناسبة من حيث المعنى، وهي: أن الأعضاء السابقة فيها تماثل: نفس ونفس، عين وعين، أنف وأنف... إلخ.

لكن الجروح عموماً شيء آخر، فأي ضربة في الرجل أو الرأس ونحو ذلك فيها قصاص، فتختلف من حيث اللفظ، فكان الاستئناف استأنف هنا بالرفع.

وقد يقول قائل على هذا الاستئناف: إن الله لم يكتب عليهم في التوراة أمر الجروح، فتفهم على أنها عبارة جديدة مستأنفة، أي: هذا هو الحكم مطلقاً، ولا يلزم منه أنه هو المكتوب نصاً في التوراة.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٦).

القراءة الثالثة: وهي المشهورة التي نقرأ بها، وهي: قراءة عاصم لنصبها جميعاً.
ثم ذكر بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾

[المائدة: ٤٥].

هل شرع من قبلنا شرع لنا؟

وهنا يأتي سؤال وهو: هل الحكم الذي أنزله الله ﷻ في التوراة: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ [المائدة: ٤٥] وهو في شرع من قبلنا يلزمنا؟ أو هو مجرد إخبار من الله ﷻ عن شرع من قبلنا؟ يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حُكي مقرراً ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور».

أي: ذكره الله ﷻ أو ذكره النبي ﷺ على سبيل التقرير.

والأمر الآخر: (ولم ينسخ) فوجه نظر هؤلاء العلماء أنه لما ذكر الله تبارك وتعالى حديث بني إسرائيل وقصصهم وخبرهم والحكم عليهم، أو ذكره النبي ﷺ ما ذكره إلا لتتَّعظ ونعتبر ونعمل نحن -أيضاً- بذلك، فلو كان منسوخاً لجاننا ناسخ متصل أو منفصل، لكن ما لم يأت ناسخ، فإنه إنما ذكره الله أو ذكره رسول الله ﷺ ليكون -أيضاً- ملزماً لنا، فالأصل أن دين الأنبياء واحد، وكذلك الشرائع ما لم يأت دليل بخلاف ذلك، ولا سيما وقد ذُكر في كتابنا لا لمجرد أننا وجدناه في كتبهم، فالجمهور على أن هذا يُعد شرعاً لنا، فهو ملزم لنا أيضاً.

وذكر عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «هي عليهم وعلى الناس عامة» أي كتبها الله على بني إسرائيل، وهي -أيضاً- على الناس عامة، وذكر من نقل الإجماع على ذلك.

ثم قال: «وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يُقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة».

فهذه نفس وهذه نفس، وإن كان الجنس مختلفًا.

قال: «وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره: «أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم: «أن الرجل يقتل بالمرأة»^(١) وفي الحديث الآخر: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(٢) وهذا قول جمهور العلماء».

قول أبي حنيفة بقتل المسلم بالكافر:

قال: «وكذا احتج أبو حنيفة بعموم هذه الآية على أنه يُقتل المسلم بالكافر، وعلى قتل الحر بالعبد، فقال: الآية عامة، فإذا قتل مسلم ذميًّا أو معاهدًا فإن النفس بالنفس، فيقتل المسلم بالكافر، وإسلامه هذا ينفعه عند الله، أما في الدنيا فإنه يقتل هذا بهذا، وقد خالفة الجمهور فيهما - وقتل الحر بالعبد أخف - ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»^(٣).

والقول الصحيح الذي لا يجوز أن يصار إلى غيره هو: أنه لا يقتل مسلم بكافر، هذا مما كتبه النبي ﷺ، كما في الصحيفة التي نقلها علي بن أبي طالب عندما سئل: «هل خصم رسول الله ﷺ بشيء من العلم؟ - لأن الرافضة يزعمون أنه أعطاهم علم الغيب أو الجفر وهي دعوة قديمة - فقال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة إلا ما في كتاب الله، أو فهمًا يعطاه رجل أو ما في هذه الصحيفة، فأخرجها من قراب سيفه فكان من جملة ما فيها: وألا يقتل مسلم بكافر» وهذا في الصحيحين في روايات عدة وغيرهما، والأمة على ذلك.

وإنما شبهة الإمام أبي حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومن على مذهبه هي قولهم: إن الزيادة على القرآن نسخ، وهذه الشبهة في علم الأصول، فإن عندهم قاعدة أصولية: وهي أن السنة لا تنسخ القرآن، وعلى ذلك، فالنفس بالنفس هذا في كتاب الله، أما ما في السنة فلا يعتبرونه

(١) أخرجه النسائي (٤٨٥٣)، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥٣)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧١٢).

(٣) أخرجه البخاري (١١١).

كما فعلوا في مسألة التغريب سنة للزاني، فإنهم قالوا: إن الجلد قد ذكر في كتاب الله وفعله النبي ﷺ لكن التغريب جاءت به السنة زيادة على ما في القرآن، والزيادة نسخ، والسنة لا تنسخ القرآن؛ فلا نعمل بها، وهي قاعدة خاطئة.

أهواء المدرسة العصرية:

وهذا قد فرح به أدياء المدرسة العصرية، وهذه مدرسة كما قال فيها العلماء:

«من تتبع رخص العلماء تزندق».

وذلك لأنه سيأخذ من هنا ومن هنا فتصبح النتيجة لا شيء - نسأل الله العفو والعافية - فلما وجد بعض دعاة الاتجاه العصري والإسلام الحديث المرن الذي يحترم الأمريكان، قالوا: هذا هو الإسلام، فلا بد أن نجعل المسلم والكافر سواء - النفس بالنفس - وقالوا: لسنا مبتدعة لمجرد أننا نعظم الغرب أو الأمريكان بمأخذنا هذا فهو مذهب قديم للإمام أبي حنيفة، وهو أحد الأئمة الأربعة، وهذا قول معتبر، وهو أوفق مع العدالة الإنسانية، ويتفق مع حقوق الإنسان، وحتى لا يتهمنا الغرب أننا ضد حقوق الإنسان؛ فنجعل الإنسان المسلم فوق الكافر.

وهم لا يأخذون بكل ما قاله الإمام أبو حنيفة لكن بهذه المسألة فقط، وهم لا يأخذون بها لأن الدليل هو الذي رجحها، لأنهم لو أخذوا بها ترجيحًا للدليل فتكون المسألة من باب الاجتهاد الخاطيء، لكنهم يرجحونها بمقتضى العصر.

قال الشيخ الغزالي - هدايا الله وإياه - بمعنى كلامه في جريدة «المسلمون»: لو أن فلاحًا مسلمًا أو راعي غنم قتل خبيرًا أمريكيًا، كيف تكون النسبة؟ ونحن نقول: لو أن عبدًا مسلمًا قتل رئيس أكبر دولة كافرة في العالم فإننا لا نقتل المسلم بالكافر، فهذا دين الله ﷻ والذي لا يجوز أن يُحكم بغيره، ولا يصار إلا إليه، وكونه يقتله ظلمًا لا يعني ذلك الدعوة إلى الظلم، أو أننا نقر الظلم أو إزهاق النفس بغير حق، لكن المقصود هو أن شرع الله ودين الله في هذه الحالة ليس هو القصاص، وإنما الدية، ودية الكتابي - أيضًا - غير دية المسلم، وهم يريدون أن يجعلوا الدية واحدة والقصاص واحد،

فالمسألة ليست أن «المسلمين تكافأ دماؤهم»^(١) كما قال ﷺ، بل هم يريدون أن يقولوا: إن الناس جميعًا تكافأ دماؤهم، ويقولون: إن الله تعالى يقول: ﴿يَكْفُرُ بِهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] فالمسألة الكلية المطلقة جاء بها القرآن قبل حقوق الإنسان، فنكون قد سبقنا الغرب إلى ذلك.

نقول: لا، الآية صريحة في المقصود؛ لأن قول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] المراد بها التفاخر، فالله تعالى نهى عن مجرد التفاخر بالأنساب الذي هو من شأن أهل الجاهلية، وجعل التفاخر هو بالتقوى، والشعوب والقبايل معللة: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] فنعرف أن هذا من قريش -مثلاً- وهذا من هذيل، وهذا من حرب وهذا من جهينة، فهو للتعارف، أما أن يستنبط أن الناس سواسية مسلمهم وكافرهم فهو استدلال بعيد.

ثم بعد أن ذكر الكلام في العبد، وأن السلف لم يكونوا يقيدون العبد من الحر، ثم ذكر حديثًا يستشهد به على ما قاله من نقل الإجماع على ذلك، أي: على أن شرع من قبلنا شرع لنا، بالحديث الذي رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- من حديث أنس بن مالك: «أن الربيع عمه أنس كسرت ثنية جارية، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: القصاص» فحكم أول الأمر بالقصاص، وهذا الحكم هو المذكور في الآية، فشرع من قبلنا شرع لنا؛ لأن النبي ﷺ حكم بذلك، وليس مجرد أنه ذكر مقررًا، وفي نهاية القصة أن أحها أنس رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله، تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص»، فقال: لا والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنية فلانة. فأقسم أنها لا تكسر، وليس المقصود الاعتراض على حكم الله، لكن يقول: ذلك لن يقع، مهما بذلنا ومهما حاولنا إن شاء الله لن تكسر، قال: فرضي القوم، فعفوا وتركوا القصاص؛ فقال

رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(١). وهذه كرامة عظيمة.

ثم ذكر حديثاً آخر فيه إشكال كما قال ﷺ: «عن عمران بن حصين: «أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إننا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئاً»^(٢). وكذا رواه النسائي وإسناده قوي، وهو حديث مشكل!! اللهم إلا أن يقال: إن الجاني كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء أو استعفاهم عنه».

فالإشكال هو: كيف أسقط النبي ﷺ القود عن الغلام، وأسقط الدية بالفقر؟ وفي الحقيقة ليس هناك إشكال؛ لأن الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أنهم فعلاً عفوا عنه فلم يطلبوا القصاص أصلاً، وإنما كانوا يريدون الأرش أو الدية، فطلب النبي ﷺ من أهل الجاني الفقير، فقالوا: ليس لدينا شيء. فأسقطه؛ لأنهم كانوا قد تنازلوا عن القصاص، فأمر القصاص قد قضي، وبقي الأرش فلا يوجد عندهم شيء فاستعفاهم النبي ﷺ فعفوا، وإلا لو أصروا على الأرش؛ فإن الدية تلزم ولو ديناً وتظل في ذمته، أو يتحملها عنه شخص آخر أو غير ذلك، لكن كونه يسقط عنه ذلك فهذا دليل على أنهم قد قبلوا وعفوا، أو كما قال: لعل النبي ﷺ استعفاهم أو تحمل ﷺ ذلك، وهو كما قال ﷺ: «أنا ولي كل مؤمن»^(٣).

ثم ذكر بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ﴾ [المائدة: ٤٥] الأحاديث التي وردت في فضل العفو عما وقع له من جروح، من حديث أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم فبعضها أسانيد صحيحة، وبعضها رجح الشيخ أنه موقوف، فهذه تدل على ما نصت عليه الآية أن الإنسان إذا ظلم فُضِرْبَ أو اعتدي عليه فكان به ما يستدعي القصاص من الجراحات أو

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٠)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

(٣) أخرجه النسائي في «سننه الكبرى» (٣١٠/٧)، وانظر: «الصحيحة» للعلامة الألباني (١٧٥).

أي عضو من الأعضاء فتصدق به فهو كفارة له، وهذا من فضل الله تعالى ومن جملة ما أعد الله تعالى للعافين عن الناس، قال: «إلا كان كفارة له».

ومن حرص الشارع الحكيم على أن الأصل بين المسلمين هو العفو، وتقرير هذا الأصل، فالعفو محبب ومندوب إليه، وأجره عظيم، وفضله كبير في هذا الموضوع، وفي غيره: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وهؤلاء من أثنى الله ﷻ عليهم، وهم من أهل الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۗ وَأَنبِئْنَاهُ بِالنَّبِيِّ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦-٤٧].

فيقول الشيخ: «فقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا، ﴿عَلَىٰ آثَرِهِم﴾ أي: أنبياء بني إسرائيل: ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها». لأن عيسى ﷺ هو كما قال عنه تبارك وتعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وبنو إسرائيل كتابهم وشريعتهم هي التوراة، وما يزالون إلى اليوم، ولذلك التحريف الكبير الذي أحدثه بولس في دين النصارى هو أنه نقلها من دعوة محلية إلى دين عالمي، وهذا أحد أنواع التحريف، فبقي الشرع عند النصارى إلى اليوم في جميع أنحاء العالم على كثرتهم هو الكتاب المقدس - كما يسمونه - ويشتمل على أسفار التوراة ثم الأناجيل والرسائل، وهم يختصرونها في اسمين: العهد القديم والعهد الجديد، والعهد القديم يعنون به التوراة وما يتبعها من رسائل وأسفار وبينهم خلاف بحسب الطوائف في عددها، ثم الأناجيل الأربعة وما تبعها يسمونها العهد الجديد، ومن العهدين - القديم والجديد - يتكون الكتاب الذي يسمونه: الكتاب المقدس.

فالمفروض أن تكون التوراة كما أنزلها الله تعالى لليهود، فاليهود الآن يؤمنون بالتوراة فقط، ولا يلتفتون إلى العهد الجديد، والمفروض - أيضًا - أن تكون الأناجيل

خاصةً ببني إسرائيل حتى ولو حُرُفت، والله ﷻ في سابق علمه أنه سينزل الكتاب المهيمن، ويبعث الرسول العام للناس كافة صلوات الله وسلامه عليه، لكن المقصود حتى مع التحريف فكان المفروض أن يكون المؤمنون الآن بالأناجيل الأربعة هم النصارى فقط، ويكون اليهود مؤمنين بالتوراة؛ لأنها كتابهم ولا ينازعون في ذلك، ويؤمنون بالأناجيل؛ لأنها أنزلت على رسول بعثه الله إليهم: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩] وهو عيسى ﷺ، فهو منهم، وبعث إليهم، فالخلل والتحريف الذي حدث هو أن بولس كان داعية من قبل أن يعتنق النصرانية كما ذكروا في تاريخه، فأصبحت التوراة شريعة عامة، لأن النصارى إلى الآن يجعلونها شريعة عامة للناس، فالنصارى من أي بلد كانوا يتحاكمون كلهم إلى التوراة التي هي في الأصل لبني إسرائيل فقط، مع أن الأناجيل -أيضاً- لم تكن إلا لهم، وفي نفس الأناجيل التصريح بأن عيسى ﷺ إنما بُعث إلى بني إسرائيل وحدهم.

وهذا واضح في قصة المرأة الفينيقية أو السورية، وهي امرأة جاءت إلى عيسى ﷺ -كما في أناجيلهم-، وتقول: إن بها روحاً شريرة، يا روح الله! يا نبي الله! عالجنني واهدني معك، فقال: من أين أنت؟ قالت: أنا فينيقية -أو قالت: أنا سورية-. وهذا من الخلاف الموجود بين الأناجيل.

فقال: «إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة فبكت وحزنت وتألمت، وقالت: إذا كنت للأصحاء فمن للخطاة؟ فقال: يا امرأة! أرى أنك مملوءة إيماناً، فأدخلها واختصها بذلك».

وفي الأناجيل الموجودة الآن أنه بُعث للبشر جميعاً.

وقد استنبط شَنِخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ استنباطات عظيمة في كتابه الجواب الصحيح على أنه بشر، قال: «لست أنا الموعود الذي بشرت به الأنبياء من قبل لكنه سيأتي من بعدي».

وهو رسول الله ﷺ، كما بين الله تبارك وتعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ

أَحَدٌ ﴿ [الصف: ٦] فالشريعة عندهم هي شريعة التوراة، فكان عيسى ﷺ يحكم بها.

قال: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ [المائدة: ٤٦] أي: متبعا لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ﴿وَلَا يُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] - كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا أُحَدِّثُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ولهذا كان المشهور من قول العلماء: أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة، وهذا هو القول الصحيح، فقد نسخ بعض أحكام التوراة مما كان عقوبة على بني إسرائيل في الذبائح والطهارة وفي الأحكام الأخرى، وليس هذا مقام التفصيل فيها.

لكن الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كعادة العلماء لا يفوتهم أن ينبهوا إلى أمر مهم، ففي قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٧] يقول: «أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ، والأمر باتباعه، وتصديقه إذا وجد - فهذا مما فيه ومما يجب عليهم أن يقيموه - كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]».

فهذا رد على ما سنذكر - إن شاء الله - مما يفتره المنصرون المجرمون الآن، ويقولون: إن مثل هذه الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨] تعني: أن محمداً - لا يقولون الله؛ لأنهم لا يعترفون بأن القرآن

منزل من عند الله - يأمر أتباعه ويذكر لهم أن اليهود والنصارى على حق، وأنهم إذا أقاموا التوراة والإنجيل فهم على شيء.

وقد تنبه العلماء إلى هذا - وهو واضح كالشمس - بأنه يجب عليهم أن يؤمنوا بالرسول ﷺ، وهذا هو العهد الذي أخذه الله على جميع الرسل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴿آل عمران: ٨١﴾ كَلَّ النَّبِيِّينَ ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ ﴿آل عمران: ٨١﴾، وأخذ الإقرار على ذلك: ﴿قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿آل عمران: ٨١﴾.

فهذا عهد أخذه الله سبحانه على كل الرسل، فقد أخذ الله ميثاق النبيين أنه إذا جاء وبعث الرسول ﷺ أن يؤمنوا به، مع أنه في علم الله أنه لا يُبعث في زمن نبي من الأنبياء لكن هذا العهد فيه تكريم للنبي ﷺ وبيان لفضله وفضل دينه، وفضل أمته وفضل القرآن على سائر الكتب أو الشرائع، وأن هذا الدين سيورثه الله ﷻ الأرض وسوف يظهره على الدين كله.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاخْتَم بِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جُأً﴾ ﴿المائدة: ٤٨﴾.

يقول ابن كثير رحمه الله: «لما ذكر الله تعالى التوراة التي أنزلها الله على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائفة الاتباع - هذا القيد يعني في وقتها - وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته، واتباع ما فيه».

فإذا كان ما سبق هو كما تقرر والتوراة أنزلت ليحكم أهلها بها، والإنجيل أنزل ليحكم أهله به، والذي لا يحكم بما أنزل الله أيًا كان كتابه فهو كافر ظالم فاسق، وبعد هذه الأوصاف أثنى الله ﷻ على التوراة وأوجب العمل بها، وعلى الإنجيل وأوجب العمل به وهذا إلى أن يُنسخ.

ثم قال: «فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله».

وقد وصفهم الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] وجاء ذلك أيضاً في الحديث الصحيح: «رجل آمن بنبيه ثم آمن بي»^(١) فهذا يؤتى أجره مرتين؛ لأنه آمن بالرسول الأول، فلما بلغ أو أدرك زمن الرسول الخاتم والكتاب المهيمن آمن به أيضاً، فأخذ أجر الإيمان الأول وأخذ أجر الإيمان الآخر.

وهكذا حال المؤمنين الذين آمنوا حقاً بالتوراة الحق من غير تحريف ولا تبديل، وآمنوا بالإنجيل الحق - هذا شأنهم وهذه صفتهم - أنهم آمنوا فعلاً بالقرآن، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

يقول الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أي: إن كان ما وعدنا الله على السنة الرسل المتقدمين، من مجيء محمد ﷺ لمفعولاً، أي: لكائناً لا محالة ولا بد».

وعدنا ربنا أن يبعث فينا نبياً أميناً وأوجب علينا اتباعه، وهو مكتوب عندنا في التوراة والإنجيل، فلما بعث النبي ﷺ، قالوا: سبحان الله! هذا ما وعدنا الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩] فصدقوا وآمنوا واتبعوا، وكلمة: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ هنا مهمة جداً، في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] قال ابن عباس: «أي: مؤتمناً عليه»، وقال: «القرآن أمين على كل كتاب قبله»، وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد نحو ذلك - وهذه كلها مدرسة ابن عباس رضي الله تعالى عنه - وقال ابن جريج: «القرآن أمين على الكتب المتقدمة فما وافقه منها فهو حق، وما

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨١/٢٠).

خالفه منها فهو باطل» وعن ابن عباس رضي الله عنه: «أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب» وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، وقد تكفل الله تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

قال: «وقوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: فاحكم يا محمد بين الناس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، بما أنزل الله إليك من هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك - يريد أن يردنا إلى مسألة شرع من قبلنا - من حكم من كان قبلك من الأنبياء، ولم ينسخه في شرعك، هكذا وجهه ابن جرير بمعناه».

هل التخيير في الحكم بين الكفار منسوخ:

وهنا مسألة وهي: هل في الآيات نسخ أو فيها تخيير؟ ومتى يجب أن نحكم بين غير المسلمين، ومتى نكون مخيرين؟ قال: «فروى ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ مخيرًا، إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم».

وآية التخيير هي قوله تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] لكن نجده يقول في آية أخرى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨] فهل آية الأمر بأن نحكم بينهم ناسخة والتخيير منسوخ؟ نقول: لا، لا بد أن نحكم بينهم - العرب والعجم والذميين والحريين والمستأمنين كلهم نحكم بينهم - بما أنزل الله، ولا تخيير لنا بأن نحكم أو نعرض، فهذا قول.

وبعض العلماء قال: لا يوجد نسخ، وقد ذكر الشيخ هنا بعض التفاصيل، ولكن يهمننا هنا كلام الأئمة.

فمثلاً كلام الشافعي رحمته الله في الجزية من كتاب الأم: «ولا خيار له إذا تحاكموا إليه - أي: لا خيار للإمام المسلم - لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]».

فالشافعي يرد قول من قال: إن التخيير منسوخ.

وقال: «وهذا من أصلح الاحتجاجات؛ لأنه إذا كان معنى: ﴿وَهُمْ صَغِرُونَ﴾ [١٩] أي: تجري عليهم أحكام المسلمين وجب ألا يردوا إلى أحكامهم، فإذا وجب هذا فالآية منسوخة».

ومعنى هذا القول: أن أهل الذمة لا تردهم إلى أحكامهم؛ لأن آية التوبة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى قوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] متأخرة، وآية المائدة في التخيير كانت قبل ذلك، وعندما نفرض عليهم الجزية؛ فإننا نأخذها عن يد وهم صاغرون، فإذا كان من يعطي الجزية بطواعية ورضا يأتي إلينا يدفعها وهو صاغر.

واختلف في معنى صاغر: هل يلبس الذمي ثوباً معيناً ويقف في ذل وتكون يده هي السفلى ويد الأخذ هي العليا أو أن المقصود أن يضرب عليهم الصغار؟ ولذلك ذكر ابن القيم رحمته الله في كتاب أحكام أهل الذمة بعض من خالف في هل ضرب الجزية من باب العوض والأجرة لسكنى دار الإسلام أو هو من باب الذل والصغار؟ والصحيح أنه من باب الذل والصغار، وكذلك ضرب الأحكام عليهم.

وفي العصر الحديث أتوا بدعوة جديدة، قالوا: هذا مقابل - كما يسمونه في القوانين الوضعية - بدل عسكري، فقالوا: المسلمون يدفعون الزكاة ويجهدون، والنصارى واليهود لا يدفعون الزكاة ولا يجهدون مع المسلمين فيدفع الذمي الجزية بدلاً، وإن كان بعض الكلام له نوع من التوجيه لكن في الحقيقة هي من باب الإذلال والصغار.

إذن: لسنا مخيرين، فيجب علينا أن نذلهم، وأن نرغمهم على أن يدفعوا الجزية، وأن نجري عليهم أحكام الإسلام إذلاً وإصغاراً لهم، وإلا كيف إذا زنا المسلم أقمنا الحد، وإذا زنا الكتابي فنحن مخيرون؟! هذا لا يمكن، ونقل البيهقي عن الشافعي قوله: «ليس للإمام الخيار في أحد من المعاهدين الذين يجري عليهم الحكم إذا

جاءه في حد الله، وعليه أن يقيمه، واحتج بقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] قال: فكان الصغار -والله أعلم- أن يجري عليهم حكم الإسلام» قال الشيخ: «وقد رد أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن قول من ذهب إلى النسخ، فقال: وهذه دعوى عريضة، فإن شروط النسخ أربعة، منها: معرفة التأريخ بتحصيل المتقدم والمتأخر، وهذا مجهول من هاتين الآيتين، فامتنع أن يدعى أن واحدة منهما ناسخة للأخرى، وبقي الأمر على حاله».

ولهذا قال الشيخ: «وهذا كلام ملقى على عواهنه غير محرر» والإشكال هو أننا قررنا أن سورة المائدة نزلت كاملة محكمة، فإن كانت نزلت دفعة واحدة، فكيف نقول: هذه الآية متأخرة وهذه الآية متقدمة، وإن كانت موجودة في الترتيب في المصحف؛ لأن عندنا بعض الأحكام تكون الآية المتقدمة فيها هي الآية الناسخة، وتكون الآية المتأخرة هي المنسوخة على الأقل على قول، وهنا في سورة المائدة: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنزَلْنَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] لكن قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢].

إذن: المتوقع أنا نقول: إن الناسخ هي الآية (٤٩) وقد نسخت الآية (٤٢) لكن القضية إذا قلنا: إن السورة نزلت دفعة واحدة فليس فيها نسخ، وهذا أحد الأوجه التي ترجح أنه لا نسخ.

وقال الشيخ أحمد شاكر: «وأما الطبري فإنه أبى القول بالنسخ -قال: لا نسخ بين الآيتين - مستنداً إلى القاعدة الأصولية الصحيحة، وهي: أنه لا يصار إلى القول بالنسخ إلا إذا تعارضت الآيتان تعارضاً تاماً بحيث لا يمكن الجمع بينهما».

هذا هو الصحيح، وإذا لم يمكن الجمع فنحمل كل آية على محمل، ولذلك قال بعض العلماء: لا نسخ في القرآن مطلقاً، وكل ما قيل: إنه نسخ خرَّجه على أنه إما تخصيص للعام أو تقييد للمطلق أو بيان للمجمل... إلخ.

فهذا أحد الأقوال لكن الصحيح: أن النسخ قائم لكن ليس كما يتصوره البعض بكثرة كاثرة؛ لأنه يوجد سر في معنى كلمة نسخ، ولو عرفنا هذا السر انتهت الإشكالات.

فالنسخ عند السب من الصحابة والتابعين يطلق على أمور كثيرة، فليس خاصاً عندهم برفع الحكم كليةً، بل إذا رفع جزءاً من الحكم أو عموم الحكم عدواً ذلك نسخاً، وإذا بين ما كان مجملاً أو قيد ما كان مطلقاً عدواً ذلك نسخاً، وهو فعلاً رفع للحكم؛ لكنه رفع جزئي.

أما المتأخرون عندما ضبطوا وأصلوا، قالوا: كلمة النسخ لا تطلق إلا على ما كان رفعاً كلياً للحكم وإحلال حكم آخر محله، وهذا لا بأس به ولا مشاحة في الاصطلاح، فلا نعترض على المصطلح، لكن نقول: إذا فهم مصطلح النسخ وفهم في كلام غيرهم تبين أنه لا معارضة - إن شاء الله - ولا إشكال في هذا.

فإذن ما نفاه الحافظ الطبري رحمته الله حيث يقول: لا نسخ، أي: بالمفهوم المتأخر، لكن الحافظ على فضله وإمامته في التفسير والعربية، إلا أنه جمع بينهما فتأول الآية تأول المتأخرة، بما يجعلها توافق الأولى، بأن قال: أنت مخير؛ احكم أو أعرض، فإذا اخترت أن تحكم فاحكم بينهم بما أنزل الله، فحمل الآية الأخيرة على الأولى، وهذا فيه فائدة تدل على أن كل إمام له ملحظ، فيقول الطبري: إنه حتى وهم أهل الكتاب مع تحريفهم وظلمهم وجورهم ومع إفكهم وافترائهم إذا اخترت - والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لأي قاضٍ مسلم بعده - أن تحكم بينهم فاحكم بينهم بما أنزل الله.

فيقول الشيخ أحمد شاكر - وكلامه وجيه هنا - : «ومن المفهوم بدهة: أن هذا الجمع يكاد يجعل الأمر بالحكم بينهم في الآيتين تكراراً، فقط لما مضى في الآية [٤٣] - آية التخيير - لأن نصها: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٤].»

فإذا قلنا: إنه قال بعد ذلك: ﴿وَإِنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ولا شك أن الحكم بما أنزل الله هو الحكم بالقسط، إذن تكون الآية وليس هناك فائدة، ولا جديد في هذا الكلام، فهي مجرد مؤكدة.

لكن يقول الشيخ أحمد شاكر: «الوجه الصحيح في فهم هذه الآيات والجمع

بينها، وفي فهم حديث ابن عباس رضي الله عنهما بالنسخ: أن آية التخيير إنما هي في القوم الذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يحكمونه بينهم في شأن الزانين وفي شأن الديات، وهم قوم من يهود، لم يكونوا ذميين ولا معاهدين، أعني: لم يكونوا في سلطان الدولة الإسلامية ولا خاضعين لأحكامها، بل قدموا إلى الحاكم الأعلى في الدولة الإسلامية، يجعلونه حكمًا بينهم في بعض شأنهم، وكانوا مستطيعين أن يحكموا بأنفسهم في شأنهم، بحكم دينهم أو بأهوائهم، كعادتهم في سائر ما يعرض لديهم من الأقضية، فإذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ يحكمونه في بعض ما عرض لهم، أعلمه الله ﷻ أن له الخيار أن يحكم بينهم فيما حكموه فيه أو أن يعرض عنهم.

فعدنا أهل الكتاب نوعان: نوع خاضع للدولة الإسلامية، فهو ذمي يعيش في أرض الإسلام، كمن يعيش في بلاد الشام أو مصر أو الأندلس من النصارى واليهود.

والآخر لا يخضع لأحكام الإسلام، وإنما جاء يتحاكم إلينا، وهو يعيش -مثلاً- في فرنسا أو أمريكا أو أي مكان نحوهما، فجاءوا يترافعون إلينا، وطلبوا أن نحكم بينهم، لكن قد يشكل عليه موضوع الزانين اللذين كانا في المدينة.

لكن قد يُقال: إن هذا كان قبل أن يشمل حكم الإسلام جميعهم.

أو نقول: إن هذا الحكم هو المقرر الآن بغض النظر عما جرى في عهد النبي ﷺ ونعمل بالآيتين جميعًا دون أن يلزم من ذلك معرفة المتقدم والمتأخر أو النسخ من غيره فنقول: إن أهل الكتاب إن ترافعوا إلينا فنحن مخيرون في الحكم بينهم، أما إذا كانوا ذميين خاضعين لحكم الدولة الإسلامية، فهذا نحكم فيه بحكم الله وجوبًا.

أما أهل الكتاب الذين لا يخضعون لحكم الدولة الإسلامية فنحن مخيرون أن نحكم بينهم بما أنزل الله، أو أن نقول: لا شأن لنا فيكم ولا إثم علينا لأن شرعكم عندكم، ونطالبكم بأن تؤمنوا وأن تسلموا ثم نحكم بينكم، ويخرج على هذا احتيالهم؛ لأنهم يقولون: إن حكم بما يوافق ما قررناه نحن واصطلحنا عليه أقمناه وجعلناه حجة بيننا وبين الله، وقلنا: هذا نبي من أنبيائك حكم به، ومعلوم أن النبي المتأخر ينسخ

الشريعة المتقدمة، فشر يعتنا التي في التوراة منسوخة .

إذن: نحن لم نخالف أمر الله، وإن حكم بما يوافق حكم التوراة قلنا لأنفسنا: نحن قد تركناه وهو في كتابنا فكيف نقبله من عنده؟
فلا نعمل به، فهذه حالة.

الحالة الأخرى: أن أهل الذمة في بلاد الإسلام، فهؤلاء يقام عليهم أحكام الإسلام، وهذا من الصغار الذي يضرب عليهم، ولا شك أنه حتى المسلم يعتبر إقامة الحد عليه عقوبة وردع له، فكذلك أولى أن يعاقب من خرج على أحكام الله من أهل الكتاب، وعلى ذلك استقر الأمر .

ويؤيد الشيخ أحمد شاكر هذا الرأي بكلام من: «كلام الشافعي في الأم» بل يكاد يكون صريحاً، فقد قال: لم أعلم مخالفاً من أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما نزل بالمدينة وادع يهود كافة على غير جزية -أي: عقد معهم وثيقة المودعة من غير جزية، لأنه لم تشرع الجزية يومئذ بعد- وإن قول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، إنما نزلت في اليهود المودعين الذين لم يعطوا جزية، ولم يقرؤا بأن يجري عليهم الحكم».

وقد يقولون: يا محمد، لم نكتب في الوثيقة أن حكمك يجري علينا، وإنما هي على أن نعينك في الحفاظ على المدينة من الأعداء.

قال: «وقال بعضهم: نزلت في اليهوديين اللذين زنيا. قال الشافعي: والذي قالوا: يشبه ما قالوا لقول الله ﷻ: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي -والله أعلم-: إن تولوا عن حكمك بغير رضاهم، وهذا يشبه أن يكون ممن أتى حاكماً غير مقهورٍ على الحكم، والذين حاكموا إلى رسول الله ﷺ -في امرأة منهم ورجل زنيا- مودعون، وكان في التوراة الرجم، فجاءوا بهما فرجمهما رسول الله ﷺ، قال: وإذا وادع الإمام قوماً من أهل الشرك ولم يشترط أن

يجري عليهم الحكم، ثم جاءوا متحاكمين، فهو بالخيار بين أن يحكم بينهم أو يدع الحكم».

وكلام الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - في الحقيقة أتنا بحالة ثالثة، وهذا يدل على نفاة علم السلف وكمال فقههم، فكأنها صارت ثلاث حالات لا حالتين فحسب:

الحالة الأولى: كفار تحاكموا إلينا ليس بيننا وبينهم أية علاقة.

الحالة الثانية: وادعناهم وتحاكموا إلينا، لكن ليس في دارنا ولا تجري عليهم أحكامنا.

الحالة الثالثة: من في دارنا وتجري عليه أحكامنا.

فرحم الله الإمام الشافعي وأئمة السلف.

قال الشافعي: «وليس للإمام الخيار في أحد من المعاهدين الذين يجري عليهم الحكم، إذا جاءوه في حدِّ الله ﷻ، وعليه أن يقيمه، ولا يفارقون المواعين إلا في هذا الموضوع».

فعلى هذا انتقلت حالة اليهود من مواعين إلى معاهدين.

فإذن: كانوا أول الأمر مواعين على أساس أن النبي ﷺ جاء إليهم وهم جزء من أهل المدينة، وهذا مهاجره ﷺ، وليس من الحكمة أن يبدأ فيتقاتل أهل المدينة فيما بينهم، ويقول للأنصار أخرجوهم وتقع الفتنة، ولكن هذا الدين جاء بمراحل، فكان أول الشأن المواءمة، وكانت في المواءمة خير كبير؛ لأن أهل الكتاب بدءوا يسمعون كلام النبي ﷺ، ويقولون للأنصار: إن النبي ﷺ هو الرسول الذي عندنا في التوراة، وهذا الذي كذا، وأحاديث كثيرة في هذا بلغت مسامع أهل المدينة، وفيها تأليف لأهل الكتاب، وهذا من الحكم الدعوية حتى يعرفوا أن ما جاء به رسول الله ﷺ جاء مصدقاً لما بين أيديهم من الكتاب، وإقامة للحجة عليهم، وحكم ومصالح كثيرة، لكن لما قوي عود الإسلام وصلب واشتد، ومن حكمة الله بأن اليهود نقضوا العهد ففعل بهم النبي

ﷺ ما لا يخفى عليكم.

فكلام ابن عباس رضي الله عنه أن الحكم باقٍ في أهل الحرب من أهل العهد، وأن وجوب الحكم في أهل الذمة، ونقرأ بعض ما ذكره من كلام ابن القيم رحمته الله عن النسخ.
يقول الشيخ: «وليس في هذا التأويل والجمع أي تكلف».

أي: يبين هذا الجمع بالآيات وبين كلام ابن عباس وغيره ممن قال: إن الآية فيها نسخ.

قال ابن القيم: «مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم بجملته تارة - وهو اصطلاح المتأخرين - ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة، إما بتخصيص عام، أو تقييد مطلق، وحمله على المقيد وتفسيره وتبيينه حتى أنهم يسمون الاستثناء نسخاً، والشرط والصفة نسخاً، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد، فالنسخ - عندهم وفي لسانهم - هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ، بل بأمر خارج عنه».

فهو عام يشمل عندهم الاستثناء والتخصيص... إلخ. كما سبق، والمهم أن يكون الرفع للحكم خارجاً عن النص، فإن كان في اللفظ فهذا جزء منه كالاستثناء المتصل، لكن إذا جاءت آية واستثنت ما قرر في آية أخرى - فإن ذلك يسمى نسخاً، وإن كان في الحقيقة ليس بنسخ، وإنما هو استثناء لكنه غير متصل باللفظ.

قال: «ومن تأمل كلامهم، رأى من ذلك فيه ما لا يحصى، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر».

وهذا كثير جداً في مثل هذه الأمور، والواجب وما ينبغي لطالب العلم أن يتفطن لدلالة الألفاظ ومعانيها عند السلف، ومعانيها عند العلماء المتأخرين حتى لا يلتبس عليه الأمر هنا أو هناك.

وذلك مثل كلمة السنة، فبعض الناس يخلط ويتكلم بالخطأ؛ لأنه لم يفقه معنى السنة، والسنة لها عدة معانٍ، فإذا قلت: فلان قال كذا وخالف السنة، فنقول: ماذا

تقصد؟

هل تقصد السنة بمعنى المندوب أو السنة بمعنى الحديث وعلمه أو السنة بمعنى الهدى والطريقة؟

إذن: لابد من تحديد؛ ولذلك يلتبس هذا على من لم يفهم كلام السلف، فيضع هذا موضع هذا من النص أو غيره من الألفاظ، فيكون التناقض والاضطراب في الكلام.

قال: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: آراءهم التي اصطلمحوا عليها - نفس المناط متكرر في كلام ابن كثير - رحمه الله تعالى - وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

تتمة تفسير ابن كثير لآيات الحكم في سورة المائدة:

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: آراءهم التي اصطلمحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله».

وهذا تأكيد من الحافظ ابن كثير في أن مناط النهي وهو الكفر هو ما اصطلمح عليه اليهود، فهي ليست مجرد أهواء، وإن كان الهوى منهيًا عنه، لكن هذا هوى صحبه أنهم اصطلمحوا وتعارفوا عليه واتفقوا وأحلوه محل حكم الله.

وقد وصفهم بأنهم جهلة وأنهم أشقياء، لا لأنهم لا يعلمون التوراة، ولا يفقهون أحكامها، فإن الله ﷻ قد وصفهم بأنهم أجبارة، والحبر هو: العالم من علماء أهل الكتاب، فهؤلاء إذن علماء، لكنه وضعهم لأنهم جهلة من جهة أخرى ستأتي في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] أي: أن من خالف شرع الله فهو جاهل مهما كان عالمًا لا سيما مثل هذه الحالة؛ لأنه خالفه عن عمد وقصد، ويكفيه جهالة أنه لم يوقر الله ﷻ، ولو كان عالمًا بالله ومعظمًا وموقرًا له ومعظمًا لحرماته ولكتابه ما خالف شرع الله وأحل محله هوى أو شهوة أو شرعًا آخر.

تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾:

ثم ذكر الروایتين اللتين وقفنا عندهما قبل هذا، وهي قوله تعالى: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] قال: «عن ابن عباس: ﴿شِرْعَةً﴾ قال: سبيلاً أو منهجاً، قال: سنة، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وغيرهم وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد عكسه، قال: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سنةً وسبيلاً».

ورجَّح الحافظ ابن كثير الأول فقال: «والأول أنسب، فإن الشريعة - وهي الشريعة أيضاً - هي ما يبدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال: شرع فلان في كذا، أي: ابتدأ فيه، وكذا الشريعة وهي ما يُشرع فيها إلى الماء».

أي: الشريعة في لغة العرب: هي ما يشرع فيه إلى الماء المورد الذي يشرب منه، فنقلت إلى ما أنزل الله ﷻ من الخير يرده الناس وهو هذا الدين.

قال: «وأما المنهاج فهو: الطريق الواضح السهل».

يقال: هذا منهج، أي: طريق وخط سهل رحب وواضح.

فيقول: «والسنن - في اللغة -: الطرائق».

فناسب إذن أن يكون المنهاج هو السنة فـ ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سبيلاً وسنة.

يقول: «تفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس والله أعلم».

وهذه مسألة على كل حال الأمر فيها هين.

قال: «إن هذا إخبار في هذه الآية: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد».

والتنوين في قوله: ﴿لِكُلِّ﴾ يسمى تنوين العوض عن كلمة محذوفة، أي: لكل أمة جعلنا شريعةً ومنهاجاً، فهو يقول: فهذا إخبار من الله ﷻ عن الأمم قبلنا، وعن هذه

الامة، أن الله تعالى جعل لكل أمة من الأمم شرعةً ومنهاجًا، أي: سبيلًا وسنة في الفروع، لأن الأصل واحد.

فهو يقول: «المختلفة في الأحكام - أي: في الفروع - المتفقة في التوحيد».

أي: بالنسبة لتوحيد الله ﷻ والإيمان بأسمائه وصفاته والإيمان بالقدر والإيمان بالأنبياء والكتب واليوم الآخر وكل أمور العقيدة متفق عليها بين الرسل الكرام، وبين الأمم جميعًا.

يقول: «كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد»^(١). كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] هذه هي دعوة جميع الرسل، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكذلك ما قصه الله تبارك وتعالى عن الرسل جميعًا، عندما يذكر الله ﷻ ما دعا إليه الرسل، وبما أجيوا، كما في سورة الأعراف وهود والشعراء والأنبياء والمؤمنون وغيرها، حيث نجد أن كل رسول أول ما يفتح الدعوة يقول: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ ولهذا يجب على كل من يدعو إلى الله ﷻ أن يبدأ بما دعا إليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وإن كانت مظاهر الانحراف قد تختلف؛ حيث إن بعض الأمم انحرفت في التوحيد، ونتج عن ذلك عبادة الصالحين، كما حدث ذلك في قوم نوح، وبعضهم ادعى الربوبية كما ادعى فرعون الربوبية.

فبالخلاصة: أن مظاهر الإشراك بالله تختلف لكنها في جوهرها قضية واحدة، فهؤلاء قوم شعيب أشركوا ولكن المظهر الواضح لطغيانهم هو نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم وقطع السبيل، مع أن هذا تفرّع عن الشرك، وكذلك قوم لوط

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣).

ارتكبوا هذه الفاحشة الموبقة وهكذا.

ف نجد أن كل أمة من الأمم قد يكون مظهر الانحراف فيها يختلف في بعض نواحي المعاملات أو الاقتصاد أو النواحي المالية أو الأخلاقية، وبعض الأمم يكون الانحراف فيها في نواحي التنسك والتعبد، فكل أمة تختلف، لكن الجوهر واحد في دعوتها، وهو أنها لم توحّد الله ﷻ.

ولهذا نقول: الدعوة إلى الله ﷻ يجب أن تكون إلى توحيد الله أولاً، ثم تركز على الجانب الذي وقع فيه الانحراف والخلل، وإن كنا نقول هذا بكل أسف، فنحن في هذا العصر قد اجتمعت علينا كل الانحرافات، فعبادة الموتى والقبور لا يكاد يخلو منها بلد في العالم الإسلامي، فلو وجهت له الجهود وحده لاستنفذها ولاستهلكها جميعاً.

وجانب الشرك الجديد -أيضاً- وهو شرك القوانين الوضعية واتباعها وتقديسها وتقديمها على كتاب الله عمّ الأرض وانتشر في الأرض.

وجانب الولاء والبراء من موالات الكافرين واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، وهكذا.

فالواجب الآن كبير؛ لكن بحسب الدول والبيئات والمناطق والمدن، وذلك أن الإنسان يعتبر التوحيد عنده هو الأساس، ولكن يركز على مظاهر الانحراف الموجود في بيئته التي يعيش فيها، كما كان الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم يفعلون.

فالتوحيد هو كل شيء، لكن مع التوحيد تعالج الظاهرة الموجودة، أي: إلى جانب قوله: ﴿وَيَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] يذكرهم بما يفعلون، ولذلك فتنة عاد: ﴿أَتَبْتُونَنِي بِكُلِّ رِيحٍ مَّآيَةٍ تَعْبَثُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٨] ﴿وَتَوَخَّذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء: ١٣٩] ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ رَبَطَشْتُمْ جَبَابِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: ١٤٠] حيث إن عادًا استكبروا في الأرض، وقالوا: من أشد منا قوة؟ فهنا أنت تخاطب وتعالج جانبًا معينًا موجودًا في هذه الأمة، لكن أمة أخرى كقوم لوط كان ذنبهم ومصيبتهم هي فعل الفاحشة، فخاطبهم باستقباحتها: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ

﴿٨٥﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]؛ ولهذا قال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ٨٠] فخصهم بهذا، وأن هذه جريمة ما سبقتم إليها، وهو بلا شك دعاهم إلى التوحيد، فكل الرسل هدفهم الأساس هو التوحيد؛ لكن مع الدعوة إلى التوحيد يجب أن نعالج أنواع الانحراف، فالتركيز يكون على جانب الانحراف عند الناس، فإذا كان الأمر أنها انحرفت في جميع الجوانب فلتعالج كلها، والله المستعان.

قال: «وأما الشرائع -أي: الأوامر والنواهي- فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في الشريعة حرامًا ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس». مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي طُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]... إلخ، فكان حرامًا في شريعة اليهود ثم نسخ.

قال: «وبالعكس وخفيًا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة: قال قتادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] يقول: سبيلًا وسنة، والسنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه».

فاليهود لما بعث الله فيهم عيسى عليه السلام، قال: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] فبعضهم قالوا: آمنا بالله وصدقنا رسول الله واتبعناه، فما أحل استحلتناه، وقال بعضهم: لا، هذا خلاف ما في التوراة فكفروا به، فالنسخ من الامتحان والابتلاء، فلما بعث الله محمدًا عليه السلام وجاء بهذه الشريعة حدث من اليهود والنصارى مثل هذا الكفر، وأنكروا على النبي عليه السلام أمورًا في الشرائع كما أنكروا عليه أمورًا في الأصول كالتوحيد والإيمان بالله وباليوم الآخر.

ومن الأحكام التي أمرنا أن نخالف فيها أهل الكتاب، وهي في الفروع وليست في الأصول هو: مخالفة المجوس في اللحية، فالأصل في اليهود والنصارى أنهم لا يحلقون

اللحي، كما في صور كل المفكرين والكتّاب والزعماء والقادة الغربيين إلى القرن التاسع عشر، وإنما شاع هذا وانتشر في الجيوش، فقالوا: العسكري لا بد أن يخلق لحيته، فجاءت إلى المسلمين، وكان المسلمون لا يعرفون هذا إلا من تشبه بالمجوس أو بأشباههم.

وكذلك مثل القبلة، فهي من أعظم ما خالفنا فيه اليهود، ونسخ الله ﷺ شريعة أهل الكتاب وجاء بها، والآيات التي تحدثت عن تحويل القبلة موجودة في سورة البقرة، وكذلك الصبح، والصلاة بالنعال، والسحور بالنسبة للصيام، وصيام يوم عاشوراء مع تاسوعاء، ومعاشرة الحائض، وكذلك يوم الجمعة -هدانا الله لها وضلوا فيها، وإن كانت هذه قد تكون عقوبة لهم- والأذان، وأحلت لنا الغنائم.

إذن: أمور كثيرة خالفناهم فيها، فهي إما أن تكون منسوخة، أو أنها كانت في شرائعهم فتدخل في النسخ؛ لأنها تغيير عما كانوا عليه من الحظر إلى الإباحة، أو أنها تغيير في النوعية، أو أن يكون مما شرع الله لنا من التوسعة تكريمًا وتفضلاً منه ﷺ علينا، كقوله ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» وكان من قبلنا لا يصلون إلا في البيع والكنائس، ففضل الله ﷺ على هذه الأمة، فجعل لنا الأرض مسجدًا وطهورًا: «فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل» كما قال ﷺ (١).

وقال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره هو: التوحيد - لاتفاهم عليه جميعًا - والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل» وهذا كما في الآية التي رد بها الإمام الشافعي على أهل الإرجاء، لما سئل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن الإرجاء وترك العمل، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥].

الوجه الثاني في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾:

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

ثم ذكر الحافظ ابن كثير وجهها آخر في الآية، وهو أن قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] أي: أن المقصود هذه الأمة، وأن الله جعل لكل واحد من هذه الأمة سبيلاً إلى المقصد الصحيح، وهذا الكلام مرجوح، وكما قال الحافظ رحمته الله: لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] فلو كان المقصود هذه الأمة لما أتى بهذه الآية، وإن كان هذا المعنى صحيحاً، فإن الله تعالى جعل لكل إنسان سبيلاً في المقاصد الصحيحة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [المنكوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] والسبيل في الحقيقة واحد، لكن الذين جاهدوا في الله وعدهم بأن يهديهم سبيله.

والمقصود بالسبيل: الطرائق الموصلة إلى الخير، وطريق الخير في أصله واحد إلا أن له فروغاً تؤدي إليه بحسب ما أعطى الله.

فهذا سهل له المال يأخذه عن حله وينفقه في حقه، ينفق منه آناء الليل وآناء النهار، وهذا آتاه الله الحكمة فهو ينطق بها ويعلمها للناس.

وهذا آتاه الله الجهاد فهو آخذ بعنان فرسه في سبيل الله إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة.

وهذا أعطاه الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو يصدع بكلمة الحق، وينكر على الناس، ومهما أودى صبر واحتسب.

وهذا أعطاه الله العلم فهو يحفظ ويدون ويتتبع المسائل.

وهذا آتاه الله الصدقة بالماء ليس له شيء إلا بثر فهو يعطي الناس يشربون من الماء مجاناً بلا مقابل، وبعضهم يشتغل بالذكر وليس له مال كما قال فقراء الصحابة رضي الله عنهم: «ذهب أهل الدثور بالأجور»^(١). فدلهم النبي صلى الله عليه وسلم على العوض، وهو ذكر الله من التسبيح والتحميد والتهليل.

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

فطرق الخير كثيرة، وطاقات الناس واتجاهاتهم تختلف، ولا يعني ذلك أنه يهمل الجوانب الأخرى لكن يستفيد مما هو فيه؛ ولذلك لا يستغني أحد عن أحد، فلو جاء عالم من العلماء الذين تحتاج الأمة إلى علمهم، وقال: إنه سيذهب إلى الجهاد نقول له: لا تذهب، فمن أين لنا بالعالم إذا قتلت؟ بينما نجد مثلك في القوة من يذهب فيجاهد وتكون نكايته في العدو أشد منك وأنت نحتاجك في العلم، وهكذا... ومن الناس من يصلح في القضاء ولا يصلح في الإفتاء، ومن الناس من يصلح في الإفتاء ولا يصلح في القضاء، ومن الناس من يصلح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يصلح في غيره.

فالمقصود مع أن كل المسلمين يقيمون دين الله، ويجتهدون في ذلك، لكن الله تعالى جعل طرائق مختلفة توصل إلى الخير، وكان هذا حال الصحابة الكرام رضي الله عنهم فكانوا جيشًا واحدًا خلف رسول الله ﷺ في كل معركة، لكن هذا معروف بعبادته، وهذا بصدقته، وهذا بحرصه، حتى أن بعضهم قد يحرص على شيء مما تزدره أعين الناس، كالرجل الذي دخل على رسول الله ﷺ ولحيته تقطر، فقال النبي ﷺ: «يقدم عليكم رجل من أهل الجنة»^(١) لأن ميزته عظيمة جدًا، يغفل عنها كثير من الناس، وقد لا تعد في كتب المناقب والفضائل لأنها خفية، لكن هذا الرجل لا ينام ليلة وفي قلبه على مسلم شيء.

فسبحان الله! من يقدر على هذا؟! إن الإنسان كما قال ﷺ: «ليبلغ درجة الصائم القائم بحسن الخلق»^(٢) فإذا تعامل مع الناس يعفو ويصفح، وإن بلغه كلام فكأنه لم يسمعه، وإن أساءوا إليه استغفر الله لهم.

قال: «ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة، التي لو شاء - كما في الآية - لجمع الناس كلهم على دين واحد، وشريعة واحدة، لا ينسخ شيء

(١) أخرجه أحمد (١٦٦/٣)، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٧٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

أي: ليختبر ويمتحن كل أمة بما أوحى إليها... إلى آخر ما ذكر.

قال: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

هذا الذي قلنا: إن فيها تأكيد لما تقدم من الأمر بالحكم بما أنزل الله، والنهي عن الحكم بما يخالف شرع الله ودينه: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَلَّا يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي: احذر هؤلاء اليهود؛ فإنهم كما قال الحافظ رحمه الله تعالى: «كذبة كفرة خونة» فهؤلاء اليهود فيهم هذه الثلاث الصفات «كذبة كفرة خونة».

بينهم ومع الآخرين في جميع الأزمان وفي كل مكان، هذا هو الحق في وصفهم.

قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: عما تحكم به بينهم من الحق.

وخالفوا شرع الله، وهنا -أيضاً- لفتة تربوية عظيمة جداً: ﴿فَاعَلِمْتُمْ أَنَّنَا نُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

أي: فإن تولوا وأعرضوا وتركوا حكم الله وما تدعوهم إليه: ﴿فَاعَلِمْتُمْ أَنَّنَا نُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] فنأخذ من هذه الآية من الفقه التربوي وفقه التركيبة، فبعض الناس يقول: أين العقوبة على المعاصي؟ فأمة من الأمم تعصي الله ﷻ فيزداد رزقها أو فرد يعصي الله فيزداد ماله ويفتح الله عليه فيه.

أقول: مع أن هذا داخل تحت الإمهال والاستدراج ومع أنه سيؤخذ يوماً ما أخذ عزيز مقتدر، لكن هناك حكمة أخرى عظيمة، وسر عظيم، يغفل عنه أكثر هؤلاء، وهو: أن الإنسان قد يعاقب على المعصية بمعصية شر منها، وعلى الشرك بشرك مثله أو أكبر منه -والعياذ بالله- ولذلك يجب على الإنسان أن يتقي الله، وأن يذعن، وأن ينقاد

لأمر الله، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فإذا جاءك الحق فأقبل عليه؛ لأنه يخشى على الإنسان إذا عرض عنه أن يقلب، فمهما أتاه الحق يكون قد غلف فؤاده وطبع عليه -نعوذ بالله من ذلك- فلا ينفعه ولا يدخل إلى فؤاده تذكير ولا موعظة -نسأل الله العفو والعافية- فمن إصابتهم ببعض ذنوبهم أنهم يعاقبون بأن يعرضوا عن الإيمان -نعوذ بالله- فلا يقل أحد: فلان أكل الربا، ولم تنزل عليه صاعقة من السماء، ولا خسف به وبداره الأرض.

إذن: فالوعيد في القرآن للماضين، وكأن الكلام لا يعيننا والخطاب لا يهمننا، ولا أنزل إلينا، ولذلك يأكلون الربا، ويقولون: ليس علينا حرج، وينسون أن أكل الربا قد يعاقب بأن يستحل الربا؛ فإذا استحل كفر على جميع المذاهب، إذ لا خلاف أن من استحل الربا كفر، حتى وإن جاء من يفتي من القائلين على الله بغير علم، ويقول: الفوائد فيها وفيها، فوالله إنهم ليعلمون أن الربا حرام، ولو جاءتهم ألف فتوى، وكتب الفقه كلها مجمعة على أن من استحل محرماً كالربا أو الزنا أو شرب الخمر فقد كفر، وفي أي كتاب من كتب الفقه الإسلامية -في باب المرتد- تجد فيه أنهم يقولون: من استحل شيئاً مما حرم الله معلوم من الدين بالضرورة مثل كذا وكذا فقد كفر.

إذن: عقوبتك للربا صارت استحلالاً نعوذ بالله.

وقد يكون زانياً يذكر بالله، لكنه يستمر في الزنا -نعوذ بالله- عند ذلك يستمرئ هذه المعصية، فيعاقب بمثل ذلك، إما بأن يستحل الزنا، وإما بأن يكفر بالدين كله، ثم يقول: القضية قضية حرية، وحب وعلاقات عاطفية، ويحتج بالغرب، فكان أول الأمر يأتي الفاحشة ولو ذكرته بالله يخشى، ولا يصرح بها، وفي النهاية يكتب في الجريدة عنها، ويتبجح بها نعوذ بالله من ذلك.

وهذا مما ذكر النبي ﷺ أنه يأتي أحدهم الفاحشة أو يأتي الذنب فيستره الله عليه، فيقوم وينشرها على الملأ، فيكتب عن الحب، والعلاقات الغرامية، والصدقة ويذكر لك قصته، كيف قابل امرأة وصار صديقها -نعوذ بالله- لأن القلوب قد غلفت

وطمست فعوقبوا، وهكذا في كل ذنب من الذنوب لا يأمن الإنسان أن يعاقب بأشد منه. وبعض الناس -نعوذ بالله- ذنبه الغيبة والنميمة فهو بدأ يغتاب رجلاً ثم الثاني، ويقال له: اتق الله ولا تغتاب، اتق الله في أعراض المسلمين، ولكنه لا يبالي، فهو في أول أمره كان يغتاب الفساق، أو يذكر بعض الناس الذين فيهم أخطاء فيعاقب بعد ذلك بأن يغتاب الأبرياء والأولياء وهو لا يدري، لأنه توغل في الغيبة، ولم يدر إلى أي حال قد وصل إليه! وإذا به يصل إلى أن يغتاب أولياء الله الصالحين، فتكون النتيجة كما قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(١) فيصبح يحارب الله وهو يظنه مجرد كلام وحديث عابر، فليحذر كل عاقل من هذه الذنوب والمعاصي ومن أضرارها وآثارها نسأل الله العفو والعافية.

النهي عن اتباع الأهواء:

ثم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] فاختم الآية بهذا.

يقول ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أي: أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [١٢٦] [يوسف: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] الآية.

فليست العبرة بالأكثرية، وهنا حكمة عظيمة لا سيما في زمننا هذا فأكثر الناس فاسقون، وأكثر الناس يريدون حكم الجاهلية، ولذلك هل نعرض دين الله وشريعة الله للتصويت، ونأخذ رأي الشعب؟ وهل نحكمهم بالقرآن أم بالقانون الفرنسي؟! ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي: أن أكثرهم يريدون الشهوات، ويريدون انتهاك الحرمات، كمثل الذين وصفهم النبي ﷺ في السفينة، لا يريدون أن يصعد أحدهم إلى من فوقهم ويستقي الماء، بل يريدون أن يخرقوا ويشربوا مما يليهم، وهذا حال الكثير من الناس.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

فليست القضية قضية ديمقراطية، إنما هي قضية اتباع ما أمر الله به مهما قل العدد، ويجب أن ندعو الناس إلى ما أنزل الله وألا نتبع أهواءهم وألا نرد الأمر إلى آرائهم؛ لأن آراء الناس عجيبة جداً، فترى الناس سواسيه في الطريق وفي العمل وفي الشارع، وتقول: الحمد لله لأن الناس متفقون، لكنك لو قمت باختبارهم لرأيت العجب العجاب، فرجل له رأي في الربا، وآخر له رأي في تعدد الزوجات، وآخر له رأي في نظام معين، ولا يوجد أحد منهم يحتقر رأيه، بل كل إنسان منهم مستعد أن يقول: هؤلاء العلماء الكبار ليس عندهم علم، ثم يبرر موقفه، ويقول: انظر كيف أفتوا في هذه، وكذلك أجهل الناس في السياسة والاقتصاد.

وهذه مشكلة أصحاب الهوى، فإذا وكلنا دين الله إلى هذه الأهواء ماذا نلقى؟ فرجل لم يعجبه الدين كله، وآخر يقول: الدين حسن لكن عندي عشر مسائل أو خمس لم تعجبني، وهكذا يريدون أن يكون الدين على شهواتهم، ثم المسألة المتفق عليها بعضهم عنده فيها نظر، فيقول: الخمر لا بأس أن تقول إنه حرام، لكن نبيحه في الفنادق والقنصليات والسفارات، ويقول: أنا أعلم أنه حرام، ولكن نحن في القرن العشرين فلا بد أن نعطي هؤلاء الناس مزية، وهكذا الزنا فهو يقول: الزنا حرام، ولكن هؤلاء لو أتوا بمصائبهم معهم تركهم، وهكذا.

فالذي يتفق معك في المبدأ يختلف معك في التفاصيل، فكيف بالذي لا يوافقك حتى في أصل المبدأ، ماذا تكون النتيجة؟ إنها أهواء كما ذكر الله ﷻ، ولا يمكن أن يجتمع الناس على رأي، وإنما الذي يجب أن يخضع له كل الناس هو ما أنزله الله وما أمر به رسوله ﷺ: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] فمهما كانت هذه الأهواء فلا تتبعها وإن كثرت؛ لأنك إذا سلمت بالمبدأ وهو أن أهواء الناس ورغباتهم هي المعيار لن يبقى لك من الدين شيء، بل أنت يا من تريد أن تمالئ الناس ستأتي فترة من الزمن يقولون فيك: إنك لا تصلح، وكنت تظن أنهم يحبونك.

فيجب أن يُعلم أن القضية ليست قضية أهواء، إنما هي قضية اتباع ما أنزل الله

ﷺ، لأنه لو رُد الأمر إلى أهواء الناس لما صلحوا ولما اتفقوا، فهم يريدون أن يجعلوا العالم متوافقاً مع رغباتهم، والرغبات تختلف، وبهذا لن يكون عندنا عالم، وهكذا الحاكم والمدرس وأشكال الأسواق... إلخ.

الفرق بين الشورى والديمقراطية:

فلا يمكن أن تستقيم الأمور على أهواء الناس أبداً؛ ولذلك لو نظرت إلى حقيقة ما يُسمى بالديمقراطية، هل هي فعلاً حكم الشعب للشعب؟! أي: أن الشعب يحكم نفسه فعلاً، وهل حكم الشعب نفسه بنفسه في التاريخ كله؟! ولذلك تجد أن أهل القرى في المجتمعات اليونانية الصغيرة، وفي حكومات الكوميوند، أو جزء من ذلك في إيطاليا كانوا يجتمعون ثلاثين أو أربعين يتشاورون ويحكمون أنفسهم، هذا في كتب علم السياسة، وما يسمونه بالفقه السياسي... إلخ يقولون فيها: لم يوجد حكم ديمقراطي حقيقي مباشر إلا في القرى الإغريقية القديمة، أما ما عدا ذلك فلا.

قلت: فالفردية التي عدد أفرادها ثلاثين شخصاً، أي: الكبار منهم من يحق له الانتخاب، هل فعلاً حكموا أنفسهم بأنفسهم، أم أنه لا بد من شيخ في القرية، إذا تحرك التف حوله عشرون نفرًا، وخفضوا رءوسهم وسكتوا.

حتى القرية الصغيرة الحاكم فيها ثلاثة أو أربعة وجهاً من الناس، ولا يستطيع أحد من الناس أن يرفض؛ وذلك لأنهم يخافون من البطش، إذن فهي إما قوة جسدية أو قوة مالية أو قوة منصب، حتى الحكم المباشر الذي يضربون له مثال بالثلاثين والخمسين لا يوجد أبداً، ففي النهاية الذي يحكم هو صاحب الهوى؛ حيث يشغل قوته في هواه كما يشاء، فكيف إذا ما صارت الأمة بالملايين، وقالوا: لا بد من ممثلين ينتخبهم الشعب، ويرضاهم ودخلت المتاهات.

كما ترون في أمريكا أن الناس حزبين فقط: ديمقراطي وجمهوري، لا خيار غيرهما، حتى وصل بهم الأمر في بعض الولايات إلى أنه لا بد أن تتوارث الحزبية، أي: أن الأب ديمقراطي والابن ديمقراطي والحفيد ديمقراطي إلى يوم القيامة؛ ولهذا

تجدون أناسًا كثيرون لا يصوتون ثم يذهبون إلى دول أخرى، ويقولون: إن القضية ليست قضية حزين وهكذا الضلال.

ففي إيطاليا قبل فترة من الزمن لما تغيرت الحكومة الأخيرة، ذكروا أنه ما يقارب من خمسين حكومة تشكلت منذ الحرب العالمية الثانية -أي: تقريبًا خمسين سنة- فأحيانًا كل ستة أشهر في إيطاليا وفي غيرها تتشكل حكومة جديدة ووزراء جدد، فالوزير الذي يعلم أنه لن يحكم إلا ستة أشهر، ماذا تريد أن يعمل بالأموال؟ لكن لو كان أمامه عشرون سنة فسيجمع قليلًا قليلًا، فالناس هناك في لعب وضلال وتخبط، أهذه هي القدوة التي يريدون أن تترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أجلها؟! والشورى التي أنزلها الله وأمر بها، وعمل بها رسول الله ﷺ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا أعرف أحدًا أكثر مشاورًا لأصحابه من رسول الله ﷺ».

وقد وردت في حديث لكن في سنده انقطاع؛ لكنه من حيث الحقيقة فهذا ثابت كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فلم يكن أحد من الولاة أكثر مشاورًا لأصحابه من رسول الله ﷺ، ثم الخلفاء الراشدين من بعده: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، فهم يتشاورون في الأمر العظيم، فإذا جاءهم عن الله أو عن رسوله ﷺ نص، قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن القصص العجيبة في هذا: قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عندما ذهب إلى بلاد الشام فجاءه الأجناد والأمراء، والحديث في صحيح مسلم مفصلاً، وله أصل في البخاري وغيره، وفيها أنه جلس فقال له الأمراء: إن الوباء -وهو الطاعون- قد نزل في بلاد الشام فما الرأي؟ وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليس كأي أحد، إنما هو محدث ملهم ألقى الله الحق على قلبه ولسانه، ومع ذلك لم يستبد برأيه، بل قال: علي بالمهاجرين، فاجتمعوا واختلفوا، فقال: علي بمشيخة الأنصار، فاختلفوا كلُّ له رأي، من يقول: نقدم، ومن يقول: نرحل، فتردد في الأمر، وفي الأخير عزم على أن يرحل، وقال: الغداة الرحيل، فجاء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان غائبًا لبعض أموره، ولم يكن حاضرًا للشورى،

فقال: عندي في هذا علم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا نزل الوباء وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها، وإذا لم تكونوا فيها فلا تدخلوها - أو فلا تقدموا إليها» فقال عمر: الحمد لله (١). ولو كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه موجودًا فأخبر بهذا الحديث أول ما جاءه الخبر، لما احتاج أن يشاور أحدًا أبدًا.

وفي هذا الحديث فائدتان عظيمتان: الأولى: أهمية الشورى، وألا يستبد الحاكم برأيه.

والأخرى: أنه إذا جاء نص صريح فلا تشاور، أما مسائل الاجتهاد وموارد الاختلاف فالأمر فيها آخر، فالقضية ليست قضية ديمقراطية: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾:

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠] فأكثر الناس هذا حالهم.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠] ينكر تعالى على من خرج - أي: الاستفهام هنا للإنكار - عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله».

وهذا كلام نفيس يُكتب بماء الذهب، فلا يعدل الإنسان أو يخرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، في كل زمان وعصر، ولا يعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، أي: سواء كانت فلسفات أو قوانين أو أعرافًا أيًا كانت «التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله».

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

أي: إن القضية ليست قضية اجتهادٍ من العلماء في النصوص.

قال: «كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات».

فاين كثير -رحمه الله تعالى- حكيم في كلامه، حيث قدم بمثال متفق عليه، ثم انتقل إلى المثال الواقع في عصره، فأول ما مثل قال: «كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم».

فالعرب في الجاهلية في عكاظ -السوق الجاهلي القديم- ومجنته وذو المجاز عندهم حكماء غالبًا إما كهان وبعضهم قد يكون مما آتاه الله بلاغة وبيانًا ويسمونه: الحاكم، يأتي الناس ويتحاكمون إليه، ويحكم كما يشاء فيما يشاء بلا دليل ولا برهان من الله ولا أحد من رسله، فيفرق بين المتماثلين ويمائل بين المتفرقين، والكاهن يدعي أن العلم جاءه من رائيته، فينطق ويقول: أخبرني هذا، أي: شيطانه، والشياطين يوحون إلى أوليائهم، فيحكم بينهم، وكانوا يتحاكمون إلى الأزلام، ويستقسمون بها، ويقولون: اضرب القدح، فإذا كان كذا فعليك كذا، وإذا انقلب كذا فعليك كذا، بلا بينة ولا سماع.

وهذا مثال آخر: امرؤ القيس لما قُتل أبوه كان عربيًا سكيّرًا، أي: متحررًا متطورًا، وكان يظن أنه يعيش حياة عصرية -كما يقولون- فلما قُتل أبوه رجع، وقال: اليوم خمر وغدًا أمر، ماذا أفعل بقتلة أبي؟ فقالوا: تذهب إلى ذي الخلصة... الذي في بلاد دوس تستشير به في أن تقتل قتلة أبيك أم لا؟ وذهب امرؤ القيس إلى ذي الخلصة كما ذكر الكلبي في كتابه الأصنام -وذكره غيره- واستقسم بالأزلام عند ذي الخلصة وفي كل مرة يكون نصيبه لا تفعل، والعرب دائمًا عندهم الثأر، فقال:

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا

يومًا وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ورمى الأزلام، ورحل إلى قيصر يستنجد به، يريد أن يستعين به على كندة.

فالشاهد قوله: لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا. أي: الذي قُتل أبيه.

يوماً وكان شيخك المقبوراً. أي: كان أبوك الذي مات.

لم تنه عن قتل العداة زورا. فهو يقول: تنهاني عن قتلهم؛ لأنه ليس أبوك هو المقتول، وذو الخلصة صخرة، لا درت ولا أفتت ولا أحلت ولا حرمت، ولكنها الضلالات والجهالات، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فالناس هم من يبغون، وهذا المثال الواضح لا يخالف فيه أحد.

التتار يحكمون بغير ما أنزل الله:

وابن كثير رحمه الله تعالى ذكر شيئاً آخر، فقال: «وكما يحكم به التتار - ولم تكن جاءتهم المصائب التي جاءتنا ولم يأت نابليون ولا القوانين الوضعية - من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها».

وفيه جزء من الشريعة الإسلامية فهي تعتبر مصدراً رئيساً، ونستطيع أن نقول: لأنه من اليهودية والنصرانية، والنصرانية أحكامها قليلة أصلاً.

ومن أمثلة هذا المادة الأولى من القانون المدني المصري، الفقرة الثانية، تقول في معنى الكلام: يكون الحكم بما ورد في هذا القانون، فإن لم يوجد أي نص من القانون المدني على الحكم فيعمل بمقتضى العرف، فإن لم يوجد فيعمل بمقتضى الشريعة الإسلامية فإن لم يوجد فبأحكام القانون الطبيعي ومبادئ العدالة.

وجاء الشارح - أيضاً - فزاد الطين بلة، فقال: إن قانوننا المدني أعطى الشريعة منزلة سامية عظيمة؛ لأنه جعلها في المرتبة الثالثة.

ويقولون: هذه فيها محاباة لأنه قدمها على مبادئ العدالة - نعوذ بالله - أما الياسق فهو مأخوذ من الإسلام واليهودية والنصرانية مباشرة، وسأذكر بعض الأحكام من

الياسق، وهي مأخوذة فعلاً من الإسلام مباشرة، فالشريعة الإسلامية مصدر رئيس في الياسق.

قال: «وفيهما كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

فقدموا الياسق على الكتاب والسنة مع أن الشريعة هي مصدر من المصادر.

قال: «من فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله - أي: هذا حكم الله فيه - فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] أي: يتغنون ويريدون وعن حكم الله يعدلون: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]».

وابن كثير رحمه الله تعالى يتكلم عن واقع الأمة كما ذكر هو في تاريخه ﷺ.

فاضطربت الأمة في شأن التتار، واختلف العلماء هل نقاتل أم لا؟ ثم قالوا: إن قاتلناهم نقاتلهم على أنهم بغاة أم على أنهم خوارج، وكيف نقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وفيهم من يصلي، وفي جيوشهم جموع من الناس تصلي، ويقولون: نحن مسلمون؟ فقالوا: كيف نقاتلهم؟ كما التبس الأمر - تقريباً - على الصحابة رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ سوى أبي بكر الصديق رضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالوا: كيف نقاتلهم وهو يشهدون أن لا إله إلا الله؟ وقال بعضهم: أنزجهم سنة - نعفو عنهم هذا العام من الزكاة - حتى نتألف قلوبهم؟ فاشتبه الأمر عليهم ثم أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بأن هؤلاء خارجون عن الشريعة، ويجب قتالهم، وليس قتالهم من جنس قتال الخوارج ولا البغاة، وإنما من جنس الخارجين عن الشريعة والمرتدين، كمسيلمة وأمثاله، كمن جحد الزكاة، فهؤلاء جحدوا حكم الله، فهم كمن جحد الزكاة، فحالهم كحال المرتدين، ثم اجتمعت الأمة على هذه الفتوى وجاهدوا، وكان من يقودهم في المقدمة هو شيخ الإسلام ابن تيمية رضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فهذا الحافظ ابن كثير وهو من خيرة وصفوة هؤلاء التلاميذ النجباء الذين

أخرجتهم تلك المدرسة السلفية العظيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية، حيث كانوا كلهم هو وابن القيم والحافظ المزني رحمهم الله والذهبي وغيرهم من خير رجال الأمة الذين كانوا في ذلك العصر، فجددوا الدين، وكان لهم هذا الموقف الموحد من التتار، ومن الرافضة ومن الباطنية ومن كل أعداء الدين، وأعداء العقيدة، وإن تمسحوا بها وادعوها.

فهذا الحافظ ابن كثير رحمهم الله هنا يؤكد على فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية بشأن التتار، وأنهم كفار، وأنه يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى حكم الله ورسوله: «من فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير».

فلا يقول: أنا عندي القانون الجزائي في العقوبات، والعقوبات كلها من الشريعة الإسلامية، ولكن القانون المدني من القانون الوضعي، ولا يجوز الحكم به لا في قليل ولا كثير، ويكون الدين كله لله سبحانه، قال سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها».

فيقصد ابن كثير رحمهم الله هنا ذكر بعض الميزات التي أوجبت علينا أن نتحاكم إلى شرع الله وهي: أولاً: العدل.

ثانياً: الحكمة، قال: «وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها».

لأن الله سبحانه حين شرع لنا هذا الدين وأحل ما أحل وحرم ما حرم، أرحم وأرف بنا من الوالدة بولدها، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المعروف: «لله سبحانه مائة رحمة أنزل في هذه الدنيا رحمة واحدة، فبها يتراحم الناس،

وادخر تسعاً وتسعين رحمة عنده»^(١). فالذي يشرع وهو بهذه الرحمة لن يشرع لهم إلا ما فيه خيرهم ومصالحتهم.

قال: «فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء».

أي: أن من كانت فيه هذه الصفات فهو الذي يشرع، وهذا يذكرنا بكلام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى-، ورسالة لطيفة صغيرة ولكنها قيمة، كتبها الشيخ عبد العزيز بن ناصر الجليل، وهو من الدعاة الذين نسأل الله أن يبارك في علمهم وفي جهودهم في الرياض، عنوانها: «إن ربك حكيم عليم»، وله غيرها، مثل: قل إنما أعظكم بواحدة، وذكر كيف أن مقتضى أسماء الله وصفاته تحتم انفراد الله بالحاكمية، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، والعادل في كل شيء، ولا يوجد أحد يتصف بهذه الثلاث الصفات غير الله ﷻ حتى يجوز له أن يشرع.

وعلق الشيخ أحمد شاکر رحمته الله على كلمة الياسق، فقال: «الياسق، هكذا رسمت هذه الكلمة في المخطوطتين -اللتين اطلع عليهما رحمته الله- والمطبوعة، وهي كلمة أعجمية، ولذلك اختلفت المراجع في رسمها وأصلها».

وأنبه على أن الموجود في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية أن المعلق قال: كلمة لم أتبين لفظها، أي: لم يعرفها، والكلمة هذه تكتب أحياناً الياسق، وتكتب أحياناً السياسة، وأحياناً: الياسة، وأحياناً: السياسة، وأحياناً: اليسغ.

أي: أن الكلمة الأعجمية يتصرف فيها العرب، فحيث ما وجدت هذه الألفاظ فالمقصود واحد، وهو كتاب جنكيز خان.

ويقول الشيخ أحمد شاکر نقلاً عن الحافظ ابن كثير في التاريخ (١٣/١١٧): «وضع لهم السياسة التي يتحاكمون إليها ويحكمون بها وأكثرها مخالف لشرائع الله وكتبه،

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٢).

وهو شيء اقترحه من عند نفسه، واتبعوه في ذلك، ثم سماها بعد ذلك الياسا».

والحافظ ابن كثير فيما نقله عن الوزير علاء الدين الجويني، سماها الياسا، قال:
«وأما كتابه الياسا، فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم».

أي: هذا دستور يعظمونه.

وقال الزبيدي في شرح القاموس (٧/٩٨): «يساق - هذه كتابة أخرى على وزن كلمة - كسحاب، وربما قيل: يسق بحذف الألف، والأصل فيه: يساغ بالغيين المعجمة، وربما خفف فحذف - قد تكون يسا - وربما قلب قافاً».

ويُقصد بذلك إما أن يُقال: يساغ أو يحذف الغين ويقول ياس أو يسه: «وهي كلمة تركية».

ويقول بعضهم: إنها مغولية، وبعضهم يقول: إنها تatarية، وبعضهم يقول: أنها تركية والكلام واحد، لأنهم يقال لهم جميعاً تركاً أو أتراكاً: «يعبر بها عن وضع قانون المعاملة، كذلك ذكرها غير واحد، وقد حررها المقرئ في الخطط (٣/٣٥٧-٣٥٨) قال تحت عنوان: ذكر أحكام السياسة».

وهو قانون المعاملة أو الدستور أو القانون أو الشريعة التي وضعها جنكيز خان وأخذها من اليهودية والنصرانية والشريعة الإسلامية، وركبها وجعلها شرعاً متبعاً يتحاكم إليه قومه، وقد سبق الكلام عن تاريخ وضع القوانين، وذكرنا أن هذا يعد من أقدم القوانين بالنسبة لكونه قانوناً مكتوباً، أما القوانين العرفية غير المكتوبة فهي قديمة؛ لكن هذا من أشهر ما يسمى بقوانين القرون الوسطى.

لو عدنا إلى كلام الزبيدي نجد أنه دقيق في عباراته فيقول: «يعبر بها عن وضع قانون المعاملة، كذلك ذكره غير واحد».

فالقانون الذي وضعه جنكيز خان المقصود به قانون المعاملة، والمعاملات العسكرية جزءاً منها - الجند والقادة - وهذا من أعظم ما اهتم به جنكيز خان، وهو أن

يرتب حقوق الجنود فيما بينهم، فهو قانون للمعاملة.

أما ما يتعلق بالدين أو التدين، أو الأحوال الشخصية كما يسمونه فقد ترك، وكان في دولة التتر النصارى والمسلمون والمشركون بجميع أنواعهم، وإنما الذي نظمته وشرعه جنكيز خان هو قانون المعاملة، وهو صورة لما تريده القوانين المعاصرة اليوم.

فالمقصود عندهم هو تنظيم قوانين المعاملات بالدرجة الأولى - التي يسمونها المدينة عموماً - وقضايا العمل والعمال والشركات والبنوك والأمور الاقتصادية، ثم الجانب الجنائي والجزائي - كما يسمونه - وبعض الدول لا تمنع من الاستفادة في بعض هذا الجانب من أحكام الشريعة الإسلامية، لكن بقية الأحكام التي هي قوانين في المعاملة - كما ذكر الزبيدي في شرح القاموس - فلا بد أن تخضع للقانون الذي وضعه.

نشأة القوانين الوضعية:

والمقصود أن القوانين في الياسق - كما سنستعرض بعضها إن شاء الله من كلام الحافظ ابن كثير - كانت في هذا الجانب، مع أنه أيضاً فيها أحكام جزائية أو جنائية.

يقول الشيخ أحمد شاكر: «وقد حررها المقرئ في الخطط (٣/٣٥٧-٣٥٨) قال: تحت عنوان: ذكر أحكام السياسة - والمقرئ هو من أوفى من شرح وفصل موضوع الياسق وقد ذكر الشيخ أحمد شاكر هنا الكلام المهم منه - ويقال: ساس الأمر سياسة، بمعنى قام به... فهذا أصل وضع السياسة في اللغة، وقد ذكر كما ذكر صاحب «خزانة الأدب» قال:

فكيف نسوس الناس والناس دوننا إذا نحن فيهم سوقة ننصب

فالمقرئ يريد أن يرجع إلى الأصل اللغوي، لأنه حصل لبس كبير عند كثير من المؤرخين في أصل الكلمة، وهذا البيت ينسب إلى هند بنت النعمان بن المنذر، والمعنى: بينما كنا نسوس الناس أي: نقودهم ونرعاهم ونوجههم، - فهذا أصل وضع السياسة في اللغة، ثم رسمت بأنها القانون لموضوع رعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال - ولا شك بأنها مفسد وليست مصالح لكن من وجهة نظر أهلها، يقول

المقريري - والسياسة نوعان: سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الأحكام الشرعية، علمها من علمها، وجهلها من جهلها... والنوع الآخر سياسة ظالمة، فالشريعة تحرّمها».

فهذه مقدمة عن السياسة وهي كلمة موجودة ومستخدمة بمعنى الوسائل والأساليب أو الأنظمة التي يتخذها الحكام والولاة لضبط الأمور.

والسبب في احتياج الناس إليها هو تقصير القضاة والفقهاء، حيث ضيق بعضهم مفهوم الحدود، فقصروا الحدود في الحدود المعروفة كشرب الخمر، وحد القذف، وحد السرقة، وحد الحرابة، وحد البغي وما عدا ذلك ليست حدودًا، وكان الأمراء ورؤساء الشُّرط، والمكلفون بضبط الأمن في الولايات يعتبرونها من باب التعازير فلم تكن تندرج ضمن الأحكام، ولم يكن يتناولها القضاة وبعض الفقهاء المتأخرين، وإنما تركت على أساس أنها تعازير ترجع لولي الأمر، ولما صار ولاة أمر المسلمين من العجم، وكذلك الجنود، وكانوا لا يفقهون اللغة العربية أو شيئًا من الأحكام الشرعية، كان بدهيًا أن يجتهدوا من عند أنفسهم، ويضعوا النظم والوسائل لضبط الأمن والأحكام التي مهدت لقبول الياسق أو الياسة.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن القيم في الطرق الحكمية، فجعل أن بعض الفقهاء منهم من لم يفهم حقائق الشريعة، فجعل البيعة هي الشاهدين فقط، فإذا انتهك عرض إنسان أو سلب ماله في البر وأتى إلى القاضي أمره بإحضار شاهدين، ومن أين له ذلك وهو في البر، وبناءً على ذلك ضاع الحق، فأصبح الولاة لا يحيلون هذه الأمور إلى القضاة، فإذا لم يكن هناك شهود عذبوا الخصم بأي شكل ما، ويأتون بشيخ قبيلته أو عشيرته ويعذبونه حتى يتبين أنه هو أو غيره، فيستخدمون وسائل كثيرة لاستخلاص الحقيقة، ويقول: لولا ذلك لما ضبط الأمر، لأنه لا أحد يجني جناية ويأخذ معه شاهدين، فبذلك تضيع الحقوق.

أما ابن القيم رحمته الله فيقول: البيعة ما أبان الحق، وكشف عنه أيًا كان، حتى لو كان

بالقرائن، كقرائن معينة تصل إلى حدّ البيئة، لكن لما ضاق الأمر من الناحية الفقهية، ومن ناحية القضاء ولا بد للناس أن تضبط أمورهم، وكان الذين يضبطون الأمور جهلة بالشرع وبمقاصده، وشروط الاجتهاد ليست متوفرة فيهم، فضلاً على أن نقول: إنهم جهلة بالفقه، فلا فقه ولا اجتهاد.

ولكن لا بد أن يضبطوا الأمر، فضبطوه بهذه الوسائل التي أخذوها من تربيتهم العسكرية، وخاصة الترك السلاجقة ثم من بعدهم، لأنهم قوم متربون تربية قبلية عسكرية.

والقبائل إلى اليوم لها سلوم وسوالف وأحكام ونظم تطبقها، فأخذوا هذه الأنظمة ووضعوها مع الشرع، فقالوا: هذه شريعة وهذه سياسة، فإذا أحيل إلى القاضي وحكم عليه بحد من الحدود ولو بالتعزير، قالوا: هذه شريعة.

أما إذا كان الوالي أو مدير الشرطة أو ما أشبه ذلك، قالوا: هذا قتل سياسة، أو ضرب سياسة، أو صلب سياسية، أو يعلقون أخذ أموالهم من باب السياسة، فالأمة استمرت هذا الوضع.

ولهذا لما جاء الحكام العادلون مثل نور الدين محمود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأمر بإلغاء كل سياسة تخالف الشرع، ولا يحكم في صغير أو كبير إلا بأمر القضاة، وجعل مجلساً من القضاة والفقهاء والعلماء، فكان يستشيرهم في كل ما ينزل وهم يفتونه، انتظمت الأمور فكتب إليه بعض الناس، قالوا: إن أهل الفساد والدعارة وقطاع الطريق قد أفسدوا وفعلوا وفعلوا ولا يضبط الناس إلا نوع من السياسة، فكتب إليهم نور الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إن الله سُبْحَانَهُ قد شرع للخلق ما ينفعهم وما يصلحهم وهو أعلم بمصالحهم، وقد أكمل الدين فكل شيء يخالف شريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو باطل، ولم يرجع عما أمر به، وذلك يعدُّ في مناقبه، فكان إذا جاء الحاكم العادل الذي يحكم الشرع لم يحتج الناس إلى هذه السياسة، وإن جاء حاكم جاهل أو ظالم أو جائر أخذ يستبد كما يشاء، وإذا أراد أن يحيل أمراً أحاله إلى القضاة، وقال: هذه شريعة وهذه سياسة.

وهكذا كان الحال قبل ظهور التتار وقدمهم، وقبل ظهور كتاب أو قانون الياستق، ثم تلا ذلك مرحلة قدوم التتار، فعندما جاء التتار حصل التشابه اللفظي بين السياسة التي هي مصطلح قديم وبين الياستق، أو اليسق، فخلط الناس بينهما، والياستق الذي جاء به جنكيز خان وقومه الذين وضعوه هدفه نفس مصطلح أو مدلول السياسة الذي كان مستخدمًا في السابق.

ولهذا أنكر العلماء هذا التقسيم، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله وابن القيم في المدارج، وفي أكثر من موضع، قالوا: إن هذه القسمة في تقسيم الدين إلى سياسة وشريعة، وتقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة، كما قالت الصوفية: هذا محرم شريعةً جائزٌ حقيقة، وأولئك يقولون: هذا لا يجوز في الشرع، لكن يجوز أن يفعل سياسة، وكذلك تقسيم المتكلمين الذين إلى عقليات تثبت بالعقل، وسمعيات تثبت بالسمع، وغيرها من التقاسيم الباطلة.

لأن السياسة الحقيقية هي قسم من الشريعة، وليست قسيمًا لها، والحقيقة هي الشريعة، والشريعة هي الحقيقة، فكل شيء خالف الشريعة فهو باطل، وإن سمي حقيقة أو سياسة.

وكذلك كل ما سمي أو قيل: إنه معقول ولكنه يخالف المنقول فهو باطل، فإن الدين الذي أنزله الله على رسوله ﷺ فيه الخير كله، وفيه الكمال كله، وتتنظم به مصالح العباد كلها في الدنيا والآخرة، ولا نحتاج إلى الزيادة عليه أبدًا.

إذن فهذا التقسيم باطل، لكن كانت القسمة عرفية واصطلاحية في كتب علم الكلام، وفي واقع الناس بالنسبة للسياسة، حتى جاء التتار وجاءوا بهذا الكتاب، ومما فعلته الباطنية كما ذكر العلماء في ذمهم أنهم لا يعدون الشريعة إلا سياسة مدنية، وهؤلاء كفار خارجون عن الدين بلا ريب، فيقولون: إن الشرع ما هو إلا سياسة مدنية وضعها عقلاء مفكرون عباقرة -الأنبياء- ينظمون مصالح العباد ولا نرى الشرع إلا سياسة مدنية.

كيفية نشأة دولة التتار:

ونرجع إلى كلام المقرئزي حيث يقول: «وليس ما يقوله أهل زماننا في شيء من هذا - أي ما يستخدمه أهل زمانه وهو الياسق أو الياسة ليس هو المقصود به السياسة بمعناها اللغوي - وإنما هي كلمة مغولية - المغول هم التتار - أصلها ياسة، فحرفها أهل مصر وزادوا في أولها سيناً، فقالوا: سياسة، وأدخلوا عليها الألف واللام فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية! وما الأمر فيها إلا ما قلت».

وهذا هو رأيه، أي: هو كان يتكلم عن مصر، وكانت مصر قاعدة العالم الإسلامي في زمن المماليك.

ثم قال: «واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام: وذلك أن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد المشرق، لما غلب الملك أورنك خان وصارت له دولة، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه: ياسة، ومن الناس من يسميه: يسق، والأصل اسمه: ياسة، ولما تم وضعه، كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ - فهذا خبيث، فمن اهتمامه بها أتى بصفائح من الفولاذ ونقش فيها هذا القانون، وحفرها في الحديد - وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده، حتى قطع الله دابرهم - فالمقرئزي يتكلم عن أمة قد قضت وانتهت - وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، فصار الياسة حكماً بتاً في أعقابه، لا يخرجون عن شيء من حكمه».

وأصبح قانوناً ملتزماً به لا يخرجون عن كلامه، وجنكيز خان بنفسه لم يأت للعالم الإسلامي، ولكنه مات ثم الذي اجتاحت بغداد أولاده وأحفاده، لأن الحرب استمرت أولاً مع دولة خوارزم شاه - الدولة الخوارزمية في المشرق - وقاومهم السلطان جلال الدين في أكثر من خمسين معركة، وفي النهاية غلبوه، واجتاحوا بلاد المشرق، وهذا أيضاً بسبب ظلم المسلمين، لأن جلال الدين كان من السلاطين الظلمة، فكان يغزوا بلاد الفرس وينهب أموالهم، وإذ قيل له: لماذا تنهب المسلمين؟ قال: حتى أستعين بها على قتال التتار، فكان ظالماً.

وهكذا فإن الظالم يعاقب، والأمة المسلمة تعاقب على ظلمها بتسليط أعداء الله ﷺ عليها، فالذي اجتاحت بغداد هو حفيده هولاء الذي وصل إلى بغداد، ثم بعد ذلك وصلت طلائعهم إلى بلاد الشام، وكانت معركة عين جالوت مع قسم من أقسامهم، وبعد عين جالوت انحسر شأن التتار، الذين جاءوا على شركهم، وخرجوا من بلادهم وهم على دينهم الأصلي، إلا أن هولاء كانت زوجته النصرانية، ويقال: إنه تنصر، لكن التتار كأمة بقيت على دينها القديم: الوثنية، ثم غزاهم الإسلام ودخل قلوبهم شيئاً فشيئاً لما استقروا في بلاد الإسلام وأظهروا الإسلام، حتى كان سلطانهم قازان في أيام شيخ الإسلام ابن تيمية - وأول ما أتى التتار كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله ما يزال حدثاً طفلاً، ثم لما أصبح شيخ الأمة كان الملك في أيامه قازان - قد أظهر الإسلام، ويقول: إنهم مسلمون، كما في الفتوى المشهورة، فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في التتار، ولكن أي إسلام؟ فإن الذي يدخل الإسلام في أي زمان ومكان يدخل في الإسلام بحسب ما عليه أهل ذلك الزمان.

انحراف التتار في فهم الإسلام:

ولذلك نجد أن الذين دخلوا في الإسلام أيام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كان إسلامهم صافياً على الحقيقة، لأن الذين أدخلوهم فيه هم الصحابة، فجاء التابعون فكان كذلك أو أقل، وجاء من بعدهم فكان أقل، وفي أيام التتار كان يدخل الناس في الدين وفي التصوف والرفض والخرافات، وكان منهم خذابنذه الذي ترفض وكان شيعياً، أي: أصبحوا يتدينوا بدين المسلمين الموجود، ولا يعرفون حقيقة الإسلام، كما نجد هذا اليوم، حيث قد يأتي أمريكي يسلم ويدخل في دين الرفض، أو يكون زيدياً أو يكون صوفياً أو أي شيء من جنس الموجود المعروض لديه.

فالتتار هكذا تدينوا ولكن لم يأخذوا الإسلام على حقيقته الخالصة الصافية النقية، فلذلك بقي عندهم تعظيم لجنكيز خان، وأيضاً أخذوا يعظمون الإسلام ورسوله ﷺ، فصارت قاعدتهم كما كان ملكهم يقول: رجلا عظيمان محمد و جنكيز خان فكانت المساواة عنده، وهو يرى أنه بهذا قد أنصف الإسلام وأنصف النبي ﷺ، ولو

كان في زماننا هذا وصرح أحد زعماء أوروبا بأن النبي ﷺ مثل نابليون لقال الناس: هذا منصف، وهذا رجل فاضل.

وقد كانوا يقسمون الناس إلى أقسام معينة، فيسمون المتمسك بالدين: مسلمانيًا، والذي يساير كل شيء يسمونه: عسكري وقلندري، وأسماء كثيرة بعضها بلغتهم، وبعضها بلغة العوام.

والمقصود أنهم كانوا ينظرون إلى الناس والدين نظرة غير صحيحة، فغاية ما عندهم من تعظيم النبي ﷺ أنه رجل عظيم مثل جنكيز خان وهكذا، ولذلك أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في حقهم، وأصل الفتوى هو الياسق، وهو أنهم لا يتحاكمون فيما بينهم إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ، ولكن يتحاكمون إلى الياسق، وذكر -أيضًا- الأشياء الأخرى التي أشرنا إليها بالنسبة لهم.

الأحكام التشريعية في الياسق:

والشيخ ذكر بعض الأحكام في الياسق، وتعرض إلى بعضها، كما في تاريخ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، الجزء (١١٧/١٣) يقول: «وممن توفي فيها من الأعيان جنكيز خان سنة (٦٢٤هـ)، وهو الذي وضع لهم السياسا -بالألف الممدودة- التي يتحاكمون إليها، ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شيء اقترحه من عند نفسه، وتبعوه في ذلك، وكانت تزعم أمه أنها حملته من شعاع الشمس، فلهذا لا يعرف له أب، والظاهر أنه مجهول النسب».

وشَئِخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في فتواه عن التار لما قالوا: إن جنكيز خان أعظم من الأنبياء، قالوا: هذا أمه حملت به من شعاع الشمس، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا إن ثبت فإنه يدل على أنه ابن زنا؛ لأنها لم يكن لها زوج، فكيف حملت؟ قالوا: من شعاع الشمس؟ والشمس لا تحبل امرأة! إذن هذه زانية عاهرة حملت به وليس لها زوج فجاءت به، وإلى اليوم يعتقد اليابانيون وبعض الكوريين أن الإمبراطور من نسل الشمس، والإله عندهم الشمس، والإمبراطور من ذريتها، فلهذا يعتقدون أن في

الامبراطور جزءاً من الألوهية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال: «وقد رأيت مجلداً جمعه الوزير ببغداد علاء الدين الجويني في ترجمته، فذكر فيه سيرته».

ثم قال: «وكان وفاته في سنة (٦٩٤هـ) فجعلوه في تابوت من حديد، وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هنالك» قالوا: هذا لا يدفن في الأرض فربطوه وعلقوه، وهذه من خرافاتهم، ففي الهند يحرقونه، وعند اليابانيين والكوريين والتتار يدفنون معه كل أدواته حتى النظارات والكاميرا والقلم، ولما مات هيروهيتو دفنوا معه (٢٥٠) قطعة كما يقولون، ولكن كانوا يضعونها في تابوتٍ محكم قوي، من أجل أنه إذا قام يمكنه أن يستخدم أدواته التي كان يستخدمها في الدنيا، وهذا جنكيز خان كان شكلاً آخر.

قال: «وأما كتابه الياسا فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم، وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلاً، ثم ينزل، ثم يصعد، ثم ينزل مراراً حتى يعيي ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ».

أي: إن الرجل كان به مس من الجن نسأل الله العافية.

قال: «ثم ذكر علاء الدين الجويني نطقاً من الياسا - من أحكام الكتاب - من ذلك: أنه من زنا قتل، محصناً كان أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل».

فكان نظاماً جاهلياً لا شك فيه، ولكن بالنسبة للأنظمة الأمريكية والإنجليزية يعتبر نظاماً راقياً، لأنه يعتبر الزنا واللواط جريمة عقوبتها القتل، ولا فرق بين المحصن وغير المحصن، فقد كانوا يعتبرون الزنا واللواط جريمة، بخلاف الأنظمة الأمريكية، ففي أمريكا تقدم عشرين مليوناً إلى الرئيس ريجن يطلبون إباحة اللواط علانية، وأن يصبح لهم تمثيل خاص بهم في الكونغرس، فقاموا بمظاهرات كبيرة في نيويورك وفي لوس أنجلوس وغيرها، وحطموا المباني، وقالوا: أين الحرية والديمقراطية التي يدعيها ريجن وتدعيها أمريكا، وهي تهدر حقوق عشرين مليوناً من شعبها، نسأل من الله العفو والعافية؟ فجنكيز خان أرقى من الأمريكان في هذا الشأن.

ثم يقول: «ومن -حمد الكذب قتل أيضًا».

فهي عقوبة جاهلية وقاسية رادعة، لكنها بالنسبة للقوانين الأوروبية المعاصرة تعتبر راقية، وتجد أن الغرب الآن يسيطرون على قوانين الإعلام كله في العالم، وخاصة الإعلام السياسي؛ لأن إعلام غير الغرب هو صدى للغرب، وقائم على الكذب والتلفيق والاختلاط.

فالشاهد أن جنكيز خان يريد أن يضبط هذه القبائل الهمجية، فجعل من تعمد الكذب قتل و«من سحر قتل».

وهذا موافق للشرع، وهذا -أيضًا- يترقى به هذا القانون الجاهلي الوضعي على قوانين الغرب؛ لأن السحر في الغرب لا عقوبة عليه، وكانت الكنيسة أيام سلطتها قبل الثورة الفرنسية في أوروبا يطاردون السحرة، ويحكمون عليهم بالقتل، وكان أكثر من يمتهن السحر هن النساء، فكل من قبض عليها تقتل، وفي القصص لشكسبير وغيره في الأدب الأوروبي الكثير من الكلام عن الساحرات وكيف يفعلن، لأنه كان جزءًا من حياة الغربيين، فهو جزءًا من حياة أي مجتمع لا يدين بالتوحيد ولا بالعقيدة الصحيحة، بعقيدة السلف الصالح فلا بد أن تجد فيه السحر، فكلما ضعفت العقيدة كلما اشتد السحر والكهانة والدجل والخرافة والعرافة إلى آخر هذه الأسماء.

فكانت العقوبة في أوروبا هي الإعدام حتى ظهرت القوانين الحديثة وألغت القوانين الدينية واعتبروا السحر مجرد هواية، ولذلك أكبر مقر للسحرة في العالم الآن رسميًا هو في وسط نيويورك، وفي مبنى ضخم جدًا قريب من مبنى الأمم المتحدة، ويوجد فيه مركز كبير جدًا للسحرة الذين يجتمعون من جميع أنحاء العالم ومن أمريكا خاصة ويتكهنون بأخبار الغيب والمستقبل ويتنبئون، ولهم كتب ونشرات ومجلدات واشتراكات؛ ثم تأتي لندن وباريس وتنتشر هذا في كثير من الجرائد والمجلات، ثم تجد أن أي زعيم من زعماء الغرب الذين يدعون العلمية والموضوعية لا بد أن يتأثر بالساحرات، وكل رئيس لأمريكا - تقريبًا - يوجد عنده كاهنة، وكاهنة ريجن كتبت

مذكراتها، وكتبت زوجته مذكراتها، ونشرت في جريدة المدينة عندنا وقرأناها، فكيف ينشر هذا عند المسلمين دون ما إنكار؟! فهؤلاء الهمج الجاهليون والوثنيون والمغول كانوا في حكمهم في هذا الجانب أفضل من حكم هذه الشرائع الجاهلية الحديثة، وهو موافق للشرع وماخوذ من الشرع: «ومن تجسس قتل».

وهذه -أيضًا- فيها عدالة وإنصاف، ولا شك أن التجسس جريمة في أي عرف، أما بالنسبة لتلك القبائل الهمجية فكان عندهم هذا الحكم، وإن كان مخالفًا لشرعنا إلا أن فيه شيء من حفظ الحق على الأقل.

أما الآن فالإنسان الغربي يعيش تحت سيطرة أجهزة التصنت، فالتجسس الذي يراه هذا الغربي المتحضر حقًا عاديًا على الأقل من الناحية العرفية والواقعية، كان الوثنيون الجاهليون يعتبرونه جريمة ويعاقبون عليه بهذه العقوبة القاسية والمخالفة للشرع، ففي الشرع أنه إذا كان مسلمًا وأخبر وأطلع الكفار على أحوال المسلمين فإنه يقتل، لكن التجسس بين الناس بعضهم على بعض فليست هذه عقوبته.

ثم قال: «ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل».

يقول القانونيون المعاصرون قاتلهم الله: إن قوانين القرون الوسطى كانت ظالمة، ومجحفة وقاسية في حقوق الإنسان، لكن القوانين الحديثة ميزتها أنها تعطي المتهم الراحة والرفاهية.

فدين الله تعالى هو دين الحق والوسطية، فالجاهلية إما أن تحكم بالقتل حتى على من بال بالماء، وإما أن تجعل من يمشي عاريًا كما في أمريكا لا حرج عليه، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] أما حكم الله ﷻ فهو العدل والوسط في كل شيء.

فهذا كان بالنسبة للماء.

«ومن أطعم أسيرًا أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل».
لأنهم أمة حرب كل عملهم حرب فليس إلا العقوبات.

«ومن وجد هاربًا فلم يرده قتل، ومن أطعم أسيرًا أو رمى إلى أحدٍ شيئًا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده -ولا يقتل- ومن أطعم أحدًا شيئًا فليأكل منه أولًا، ولو كان المطعم أميرًا لا أسيرًا -حتى يطمئن بأنه ليس فيه سُم- ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيوانًا ذُبح مثله -إذا ذبحه ويقصد الذبح العادي- وقال بل يشق جوفه، ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولًا يقول جنكيز خان: الذي يذبح الحيوان بطريقة الذبح المعروفة يذبح كما يذبح الحيوان، لأن شريعته تقول: لا بد أن يذبح الجوف ويستخرج القلب، وبعد ذلك يموت الحيوان، فهكذا أملى له هواه وسولت له نفسه الخبيثة».

حكم القوانين الوضعية والتحاكم إليها:

قال: «وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام».

وقضية التشريع من أصلها هي حق الله ﷻ، لكن الأحكام فيها الموافق وفيها المخالف.

قال ابن كثير: «فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر».

مثل شريعة التوراة والإنجيل حتى لو فرضنا أننا وجدنا نسخة من التوراة لم تحرف أو تبدل ولم يغير فيها كلمة، وجاء إنسان وقال: هذا كتاب أنزله الله نتحاكم إليه، ووضع قانونًا، فعند ذلك نقول: هذا كافر بلا ريب وليس بمؤمن بالقرآن. فيقول: هذا في الشرائع المنسوخة: «فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه؟! فمن فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين، فالذي يُقدم شرعًا آخر وهو شرع وضعي أكفر من الذي يُقدم شرعًا منسوخًا، فهو كافر بإجماع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ

أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٥﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال: «ومن آدابهم - هذه ليست في الياسق لكنها آداب كان التتار يتعاملون بها - الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبقارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهم - قاتلهم الله وقبحهم - ومن مر يقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان، ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام، ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها، ولا يكلفون العلماء بكل ما ذكر شيئاً من الجنايات، ولا يتعرضون لمال ميت».

إلى آخر ما ذكر، وذكر بعد ذلك شيئاً من أخباره، وكيف كان يقيم دينه وشريعته الياسق.

وبعد أن ذكر الشيخ أحمد شاكر الجملة الأخيرة من كلام ابن كثير، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «أقول: أفيجوز - مع هذا - في شرع الله أن يُحكَم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها».

فهو يقيس وضعنا الحالي على حالة جنكيز خان والياسق، وكيف ابتلي المسلمون بهذا - نسأل الله السلامة والعافية - وكيف دخل أثر هذه القوانين إلى الناس.

فساد القوانين الوضعية:

ولعلنا نستعرض بعض الأمثلة، ثم نكمل بقية كلام الشيخ أحمد شاكر، فلقد نشر في جريدة المسلمون العدد (٣٢٨)، بقلم الشيخ محمد الغزالي، يقول: للقوانين الوضعية أثر عميق في إفساد الأمم التي نكبت بها، لا سيما إذا كانت هذه القوانين قد جاءت مع استعمار حاقد على الإسلام مكذب لنبیهم، ومضاد لتعاليمه وقيمه إنه في الحالة هذه يريد زلزلة العقيدة والشريعة معاً، وتدريب الأفراد والجماعات على تحليل الحرام،

وتحريم الحلال، وإنشاء تقاليد جديدة تألف الخمر، والخنا والربا ووسائل الآثام التي يستهين بارتكابها أو يستحله.

والقصة التي أحكيها الآن كنت أحسب العلم ببواعثها حكراً على جمهور القضاة والمحامين، حتى فوجئت بأنها معروفة لدى العمال والفلاحين، فأدركت أن الفساد في مجتمعنا قد رسب في القاع بعد ما لوث السطح، وأذكر القصة التي بعث بها إلي الأستاذ فلان.

قال: منقول عن جريدة الأخبار، القصة تقول: تلقى العميد السيد البدوي - مدير مباحث الدقهلية - بلاغاً من أهالي كوم النور قرية مركز بيت غمر، أنه تم ضبط فاطمة علي حسن عمرها عشرين سنة، وهي تحاول سرقة جاموسة، وهرب شريكها في الحقول، وكانا يريدان أن يسرقا جاموسة، وأمام العقيدين محمد شعيش ومحمد أنور اعترفت المتهممة فاطمة علي حسن: أولاً: بأنها كانت تقضي بين الحقول وقتاً سعيداً مع صديقها في الزريبة، ولم تكن تحاول السرقة، وتطلب من رجال المباحث التستر عليها حتى لا يعلم زوجها، ويطلقها حفاظاً على الأسرة والأولاد، فقالوا لها: لماذا هربت؟ قالت: كان معي رجل - حتى اعترفت بالفاحشة والعياذ بالله - فهربت حتى لا تُعرف جريمتها فالقضية قضية زنا، وترجو التستر عليها؛ لأنه لو اطلع الزوج فيمكن أنه يقيم دعوى فينهدم البيت.

يقول: ولكن تحريات الرائد رشدي فودة، وجابر الدين وهما رائدين جيدين، قالوا: لا، فالزنا ليس هو القضية، لأن القضية أهم، فقاما بالتحريات حتى أثبتا أن شريكها في السرقة هو زوجها محمد عبد العاطي وعمره اثنان وعشرين سنة، ومهنته فلاح، وهي تريد التستر عليه بهذه القصة الغريبة، وتم ضبط الزوج الذي اعترف بالسرقة، فقرر عبد العزيز حبيب وكيل النيابة حبسهما على ذمة التحقيق أربعة أيام.

ثم يقول: هل لاحظت شابة تصف نفسها بالزنا مع صديق، وتقول: هذا مجرد زنا وليس هناك جريمة، وتطلب من المباحث التستر عليها خشية أن تنكشف محاولتها

بالسرقة بالاشتراك مع زوجها الذي ادعت أنه صديقها، وهذه الشابة تجهل القراءة والكتابة كما هو الغالب في المناطق الريفية.

يقول الشيخ: ولكنها تعرف بالتأكيد أن الزنا في مصر لا عقوبة عليه إذا تم برضى الطرفين، وبشرط أن يكونا بالغين فهي في العشرين من عمرها، وهو في الثانية والعشرين من عمره، وهي تعلم أن هذا أهون بكثير من السرقة التي يعاقب عليها بالحبس أو السجن، وهي تعترف لضباط المباحث وقد نضب الحياء من وجهها بأنها كانت بالزريبة بقصد الزنا مع صديقها المزعوم، وتطلب بكل وقاحة من المباحث أن تستر عليها.

يقول الشيخ: وفي الماضي كانت الفلاحة تُفضّل الموت على أن يقال لها: زانية! فما الذي حدث في مصرنا العزيزة منذ قيام الثورة العلمانية المباركة، حتى انقلب كل شيء رأساً على عقب في هذا البلد المسكين.

يقول الشيخ الغزالي: وقد عجبت مما عجب منه الأستاذ محمد عبد الرحيم - الذي أرسل له - فعجبت من علم فلاحة في إحدى القرى القصية أن القانون الوضعي يبيح الزنا، وإن كان يرفض الإكراه عليه.

يقول: وتعرف هي أن الزوج إذا سكت عن جريمة زوجته التي زنت فإن القانون الديوث لا يتدخل حماية للأسرة، فيترك المرأة تتبع صاحبها الوغد يعيشا في بيتهما الموبوء، وبقية الافتراضات القانونية معروفة، فإن الشخص الزاني إذا قتل الزوج الغضبان الثائر سقطت دعوى الزنا بوفاته، ثم اعتبر القاتل مدافعاً عن نفسه، ويضيع دم القاتل الشريف عياداً بالله.

يقول: ولست أدري إلى متى يظل المسلمون بعيدين عن دينهم وشرعهم وشرفهم في ظل قانون وضعي، فرضه الاحتلال الأجنبي الكفور، واستبقاه الغزو الثقافي الذي خدر الناس، وأمات في دمائهم دون أدنى مقاومة.

محابة الشريعة الإسلامية:

ونشر أيضًا في جريدة الأخبار المصرية المستشار القانوني سعد العيسوي، يقول:

إن صح ما قرأت فهو خطأ في تطبيق القانون.

وهذا الرجل سمع ما قضت به إحدى المحاكم بجلد متهم ثمانين جلدة جزاء سكره وسيره في الطريق العام مخموراً.

يقول: إن صح ما قرأت في الصحف عن أسباب هذا الحكم؛ فأقول إجابة على سؤالك: إن هذا الحكم من تلك المحكمة وهي جنائية، قد أصابه الخطأ والعيور من نواحي عديدة.

والقضية أوضحها لكم بإيجاز: قاضي مسلم أحس في نفسه بأن بلدنا مسلم، ولا بد أن نكون مسلمين، وهو بإحدى المحاكم الابتدائية -أظنها في جنوب القاهرة كما في الجريدة- فقال: لماذا لا يطبق الإسلام في بلادنا، وعندنا مادة في الدستور، تقول: إن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر التشريع؟! فالمادة الدستورية هذه عندهم تقضي على اللوائح التفصيلية، وهذا معروف عندهم، فالدستور أعلى مرتبة ثم القانون ثم اللوائح، فقال: الدستور يجعل الشريعة مصدراً من المصادر، فلماذا أنا لا أحكم على هذا السكران بالجلد بحسب الشريعة، وأسند الحكم إلى المادة الثانية من الدستور؟! فإذا سألوني قلت: أنا ما أتيت بشيء خارج عن الدستور، وأنا حكمت بمقتضى الدستور، والدستور يجعل الشريعة هي المصدر، وأنا حكمت بحكم الشرع، فيجعلهم في حرج، ويرى هل فعلاً سيلتزمون بحكم الله؟! فأقدم على هذا العمل، فحكم بجلد الشخص ثمانين جلدة.

فحدث ضجة كبيرة في البلد، وكتب هذا المستشار يقول: هذا الحكم خطأ، وباطل من عدة وجوه: أولاً: أن من كتبه وقضى به ونطق به حنث في يمينه القضائي، وهو يمين يتعين على كل من يتولى وظيفة القضاء أن يقسمه، سواء كان في أول سلم العمل القضائي كمعاون نيابة، أو في أعلى مناصب القضاء وهو رئيس محكمة النقض، وهذه اليمين نص عليها في المادة (٧١) من قانون السلطة القضائية، ونصه: «أقسم بالله العظيم، أن أحكم بين الناس بالعدل، وأن أحترم القوانين، وحكم العدل، واحترام

القوانين يتضمن أن أقضي في الواقع المعروض بالعقوبة الملائمة في حدود القانون المطبق».

قال: فهذا الرجل حنث في اليمين، فهو حلف أنه يطبق القانون ثم ذهب يطبق الشريعة فهو حانث في يمينه.

ثانياً: أن من قضى بهذا الحكم، وصح أنه فعل ذلك، فقد خالف نصاً في الدستور، وهو نص المادة (٦٦) أنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بناءً على قانون، ولا يقال في ذلك: إنه حد السكر شرعاً، وأن الشريعة الإسلامية هي الأولى بالتطبيق، فيقول: لا يقال ذلك؛ لأن الشرع يطبق قوانين مكتوبة ومقررة، وليس للقاضي أن يعمل غيرها من لدنه مهما اختلفت مع معتقده الديني أو السياسي - نعوذ بالله من الكفر - إلى آخر ما قال.

ثم يقول: وأفصح المشرع عن ذلك صراحةً في المادة الأولى من التقنين المدني، بأن القاضي يطبق القانون، فإن لم يجد في نصوصه ما ينطبق على الواقعة طبق العرف، وإن لم يجد طبق أحكام الشريعة الإسلامية، وإن لم يجد طبق القانون الطبيعي وقواعد العدالة، فحينئذٍ قال: هذا لا يجوز، ولا يقبل من القاضي جنائياً أن يُحرّم فعلاً لا ينص القانون على اعتباره جريمة، فلا يقبل منه أن يقضي بعقوبة لم ينص عليها القانون... إلى آخره.

ثالثاً: إن هذا القائل بهذا الحكم أخطأ عدة أخطاء في مجال القضاء والحكم، منها: أنه جعل من أسباب الحكم مجالاً للتعبير عن المعتقدات الدينية والسياسية، ولو فتحنا هذا الباب فسيأتي كل إنسان يطبق شيئاً ويقول: هذا موافق للشريعة، مما ينتج عنه ضياع الدولة - نعوذ بالله من الخذلان - ثم يقول: ولو كان القانون يسمح بذلك المسلك لأدى الأمر إلى فوضى؛ فهذا يحكم بالجلد طبقاً لمعتقده، وذاك يحكم بغيره طبقاً لمعتقده، وهو يرى أن الحكم لا بد أن يكون بالقانون.

رابعاً: من أسباب ومبررات بطلان هذا الحكم: أن هذا الحكم يدل على أن كاتبه أو قائله لا يعرف شيئاً عن علم العقاب - فهو يقول: هذا قاضٍ جاهل لا يعرف شيئاً عن

علم العقاب - قال: فهذه الجريمة من الجائر الحكم فيها بهذا، لأنه يمكن الحكم فيها بالحبس ستة أشهر.

وهذا القاضي لم يحكم من عند نفسه، بل هذا الحكم في شريعة رب العالمين ﷺ، فالتهمة موجهة إلى الله - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - ثم بعد ذلك فصلوا هذا القاضي من العمل.

فقدم دعوى وتظلم، وقال: أيها الناس! أنا حكمت بمقتضى الدستور، ولم أخالف الدستور، فقالوا: لا هذه مخالفة، ورفض التظلم، وتمت العقوبة التي عوقب بها.

فالشاهد بعد ذلك، أنه عرض الموضوع وصار قصة طويلة، وانتهى الأمر بأن القاضي أدين لأنه حكم بحكم من أحكام الشريعة الإسلامية، ونشر بالصحف هذا الهجوم الشديد بأن هذا العمل غير قانوني ويؤدي إلى فوضى.

خطر القوانين الوضعية:

وبعد هذه القصة نرجع إلى كلام الشيخ أحمد شاکر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

يقول: «إن المسلمين لم يُبلوا بهذا قط فيما نعلم من تاريخهم - أي: بتحكيم القوانين الوضعية - إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلامُ التتار، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوا، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه».

فكان خاصاً بالحكام التتار ولم يندمج في الأمة، أما الآن مثل قصة هذه الفلاحة فاطمة علي حسن فقد اندمج القانون الوضعي كقانون نابليون بالأمة، حتى عرفت الفلاحة في أقصى الريف الجاهلة بأنه لا عقوبة عليها.

يقول الشيخ أحمد رحمته الله: إن قانون التتار لم يندمج بالامة: «ولم يتعلموه ويعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره».

أما الآن فقد جعلوا له أقسامًا: أقسام القانون، وأقسام العلوم الاقتصادية، وأقسام الأنظمة وأقسام كثيرة أخرى، وهي في الحقيقة قانون وضعي، وتدرس كل شرائعه.

يقول: «أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن - لذلك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام جنكيز خان ألتيم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟ - ونحن دخلنا الخامس عشر، فالله المستعان - إلا في فرق واحد - بين قوانين جنكيز خان وبين قوانين اليوم -: أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعًا، فاندمجت في الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت، ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالًا وأشد ظلماً وظلامًا منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية - الآن - تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذلك الياسق الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناسٌ ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباءً وأبناءً».

فالواحد منهم إذا أصبح ولده مستشارًا فهذا منصب عالٍ ورفيع، أما إذا كان - مثلاً - عضوًا في محكمة النقض فهذا أعلى، أو رئيس محكمة النقض، أو رئيس المحكمة العليا بالبلد فهذا يعادل رئيس الجمهورية، ويعادل رئيس مجلس النواب في المرتبة، فهذه منزلة عظيمة جدًا عندهم لجميع المجتمعات التي تحكم بالقوانين الوضعية.

يقول: «هذه القوانين التي يصطنعها ناس، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا: الياسق العصري!! ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم رجعيًا، وجامدًا! إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة، بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى:

ياسقهم الجديد، بالهونا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة - مثل قانون الأحوال الشخصية وتعدد الزوجات، وحتى ما كان في صلب الأحوال الفردية أيضًا، أدخلوا فيه هذه القوانين الوضعية - وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات، ويصرحون - ولا يستحيون - بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين!! أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعني التشريع الجديد؟! أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به، عالمًا كان الأب أو جاهلًا؟!».

لا يجوز أبدًا، ومع الأسف الشديد أن المحامي والقاضي الوضعي من أثرى طبقات المجتمع، وهذه الطبقة من أهم الطبقات، ومن أشدها ثراءً في جميع دول العالم.

القوانين الوضعية كفر بواح:

يقول: «أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا: الياسق العصري، وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة؟! ما أظن أن رجلاً مسلمًا يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله ﷺ كتابًا محكمًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به ﷺ واجبة قطعية الوجوب في كل حال، ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول؛ بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلانًا أصليًا، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة!!».

والقضاء باطل، وأحكامه باطلة، ولا يجوز لمسلم أن يتولى القضاء في هذه الأنظمة الطاغوتية.

يقول: «إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداراة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام - كائنًا من كان - في العمل بها، أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسه، ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيايين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه غير موانين ولا مقصرين» رحم الله الشيخ أحمد هكذا ظن بالعلماء، لكن سمعنا عن المفتي الجريء الشجاع

الذي أحل فوائد الربا، وأحل كل شيء حرام نسأل الله العفو والعافية.

قال: «سيقول عني عبيد هذا: الياسق العصري وناصره، أني جامد، وأني رجعي، وما إلى ذلك من الأقاويل، ألا فليقولوا ما شاءوا فما عبثت يوماً بما يقال عني ولكن قلت ما يجب أن أقول».

فقد بين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يجب عليه أنه يبرأ منه، وبين لأتمه حقيقة الأحكام والقوانين، فقد ذكر بأنها كفر بواح، واضح وضوح الشمس، لا مداراة فيه ولا مداهنة: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِيَّ ما عدا حكمه جاهلياً أيًا كان، فأحكام الياسق جاهلية، وأحكام قريش جاهلية، وأحكام القانون الفرنسي جاهلية، والقانون الأمريكي جاهلية.

فالحكم حكمان: إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية، وليختار الإنسان ما يشاء، ولتختار الأمة، فإن اختارت حكم الله كانت أمة مؤمنة مسلمة موحدة مطيعة شاهدة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والأمة التي تحتكم إلى غير شرع الله، وإن ظنت أنها تقول: إن الله موجود، وإن الدين حق، وأنها تصوم وتحج وتصلي إلى غير ذلك، فهي أمة تحتكم إلى شرائع الجاهلية، وتستحق أن تسمى أمة جاهلية، مهما كانت بها من الحضارة، أو من الرقي، أو من التقدم المادي كما يزعمون، فالقسمة ثنائية ولا ثالث لها.

إما أن يستقي الناس أحكامهم من حكم الله ومن دين الله، وإن كانوا يُخطئون، فالكل قد يُخطئ، فالقاضي المسلم قد يحكم وقد يفهم خطأ لكنه مستمد من دين الله، وأما أن يستمد من غير حكم الله فهو جاهلي.

وهذه الكلمة كلمة شرعية، فكلمة الجاهلية مصطلح شرعي متداول معروف في الكتاب والسنة، والنبى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لأبي ذر -رضي الله تعالى عنه- لما عير رجلاً بأمه، قال له: يا ابن السوداء! فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنك امرؤ فيك جاهلية»^(١). فهذا هو المعيار، فمن كانت

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

عنده أحكام الجاهلية، قلنا: إنه رجل جاهلي - نسأل الله العفو والعافية -.

النهي عن موالاة اليهود والنصارى:

وبعد آيات الحكم والتشريع مباشرة تأتي آيات الولاية، والسورة مترابطة محكمة، فبعد الإنكار على القوانين الوضعية يأتي النهي عن الولاية والموالاة للكافرين، فيقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبَهُمْ عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١-٥٢] فيحذر الله ﷻ من ولاية اليهود والنصارى لأنهم أعداء، ويبين الله - تبارك وتعالى - حقيقة هذه العداوة، فيقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، فهم متعاونون في القديم والحديث وفي كل زمان ومكان.

مثلاً أثيوبيا فيها أربعون مليون مسلم لم يتألم أحد لما يجري لهم، وفيها أربعة عشر ألف يهودي يتدخل الرئيس بوش لإيقاف الثوار عن دخول أديس أبابا، حتى تتم عملية موسى، وهي عملية نقل اليهود من أديس أبابا إلى إسرائيل، والعالم الحر الذين يحملون راية الديمقراطية والحرية، ومشعل الحرية في نيويورك الذي يفتخرون به لا يهمه أربعون مليوناً يسحقون من أيام هيلاسيلاسي، ثم أيام الحكم الشيوعي البائد، ثم -الآن- الجبهات الاشتراكية النصرانية الخبيثة، فكلها تسحق الأكثرية المسلمة، وتدمرها وتقتلها جوعاً، فلننظر ماذا قدموا لليهود وماذا قدموا للمسلمين؟

أولاً: أيام الإغاثة اهتموا بإغاثة الأجزاء الصليبية - فقط - من الحبشة، فالطائرات تنزل المعونات الغذائية في المناطق النصرانية، والقري المسلمة تموت من الجوع، فلما جاءت واحتاجت إسرائيل للفلاشا وعلمية موسى أيام الهالك النميري، والذي خطط لها وأشرف عليها بوش حين كان رئيس الاستخبارات، وهو الذي خطط لعملية موسى فرحلوا الدفعة الأولى ثم رحلوا الدفعة الثانية، فتدخل رئيس أكبر دولة في العالم، حاملة

لواء الحرية، وشرطي العالم الكبير تدخل لتأخير الثوار حتى لا يدخلوا العاصمة من أجل أن يرحل (١٤) ألف يهودي، والطائرات تأتي من إسرائيل وتنقلهم جميعاً، وبعد ذلك لا يباليون عن الذي مات أو عاش، والعجبة المسلحة التي تقتحم البلد جبهة نصرانية، والضحايا سيكونون من المسلمين، ولا إشكال في ذلك، فبعضهم أولياء بعض، فهل نصدق دعاوى حقوق الإنسان والعدالة والمساواة والنظام الدولي الجديد ونحوه، أو نصدق الله؛ ثم نصدق الواقع الذي ينطق كل لحظة؟ ولا يمكن أن يخالف ما ذكر الله ﷻ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فإِنَّهُ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١] فلا زجر ولا عقوبة أكثر من هذا.

خطر تولي اليهود والنصارى:

ثم يبين الله ﷻ السبب الذي من أجله يتولى بعض المسلمين الكافرين: ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] فهذا عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه، قالوا: يا محمد، ثلاثمائة دارع وحاسر تقتلهم في غداة واحدة وهم حلفائي، إني امرؤ أخشى الدوائر. فهذه حدثت في التاريخ، ولكن هل هي الحادثة والقصة الوحيدة التي تقال أم في كل زمان ومكان؟! فمن كان في قلبه مرض فسيسارع إلى قوانينهم وتبرجهم وحضارتهم وأنظمتهم وتوليهم وإلى أن يكون معهم، وهذا في كل زمان ومكان، فليحذر المسلمون أشد الحذر من هذا.

ولتأمل الأمة ماذا قال الله -تبارك وتعالى- بعد أن ذكر هذه الآية، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [المائدة: ٥٤] أي: من يتبع قوانينهم وتشريعاتهم ومن يتولهم ويرتد عن دينه فسيصبح كالكفار، ثم سيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، فهذا دين الله، وليحفظن الله هذا الدين حتى يبلغ ما بلغ الليل والنهار وليرتد من يرتد، وليتول الكفار من يتولاهم، وليفعل من شاء كما يشاء، فالله غني عن كل الناس، وله جنود يصطفئهم ويختارهم، ولا يبالي بمن عداهم أبداً.

فإذا ارتدت أمة أو جيل أو ولاية، وتابعوا الكفار والمشركين، فعند الله ﷻ

البديل، فـ: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] أول صفاتهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤] فلا يحبون الكفار ولا يوالونهم ويحبهم ويحبونه: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] فهم أذلة على المؤمن مهما كان حاله، فهو يحبه سواء كان أسود أم أبيض، غني أم فقير، في أقصى الهند أم في أقصى الفلبين، و: ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ولو كان من كان من الكفار، فنحن أعزاء، وليس كحال المسلمين اليوم، فالمسلم يُهان ويُذل، والكافر يعظم ويجل حتى في الشارع والطريق -إلا من رحم الله- فأكثر المسلمين اليوم إذا رأوا أنك مسلم، وإذا رأوا أن الرجل أتى من الهند مثلاً أو من الصين وهو مسلم فلا قيمة له، وإذا قال: رجل غربي أو أوروبي أمريكي فتجد أن جميع الناس يحترمونه ويقدرونه -سبحان الله- فهل هذا يكون في قوم صفتهم يحبهم ويحبونه؟!

فمحببة الله لا تنال بالدعاوي، محبة الله غالية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فاتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً جهاداً ودعوةً، علماً وعملاً، تورث ذلك: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤] فهم يرفعون راية الجهاد: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذا الذي يصلح فيه ما قاله الشاعر:

أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليلمني اللوم

إذا كنت تعمل لله فليلمك الناس في الله، ويقال: هذا إنسان يُطبق السنة، أو ملتزم، أو يعادي الخواجات، أو يكرههم، أو متشدد ومتطرف وأصولي، وكل كلمة لا تمك، فليلمك اللوم مادام غرضك ومرادك وجه الله ﷻ، فلا تبال بهم لأنه لو كانوا يبالون بلومة اللائم، ولو كانوا تأخذهم في الله لومة لائم، لم يكونوا محبين لله، فمن يحب الله لا يبال بالخلق أبداً.

وكلُّ واحد متناً ينظر في نفسه، فأنت إذا أحببت أحداً من زملائك أو من أصدقائك أو زوجتك أو أي إنسان فإنك لا تسمع ما يقال فيه، ولو قيل: اتركه، ولا خير فيه، فوالله

إنك لا تبالي لأنك أحببته، فكيف بمن أحب رب العالمين ﷺ، ومن كان من أوليائه.

والله ﷻ لم يجعل هذه المحبة مجرد أمر كما يظن كثير من الناس، فإن الله ﷻ عندما يحبهم يجعل لهم قيمة ومنزلة ويكرمهم ثم يدخلهم الجنة، ويرون وجه الله ﷻ، فإن العبد إذا أحب ربه وأحبه ربه صار من أولياء الله، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: «من عادني لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(١).

فليتق الله هؤلاء الصحفيون والدجالون وأصحاب المجالس، وكل من يعادي من يدعو إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخلصة:

- * آخر سورة نزلت كاملة هي سورة المائدة، وآياتها محكمة غير منسوخة.
- * الأحكام التي تعرض في القرآن الكريم تُعرض في أسلوب بياني سلس، يستمع القلب إليه فينسل إلى أعماق الفؤاد.
- * من كان سماعاً للكذب ولكل ما يُلقى إليه، ثم فوق ذلك يأكل الرشوة فلا ينتظر منه عدل أبداً.

* الصحيح لغة من الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٥] [المائدة: ٤٥] وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰتْسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] أنها أوصاف معذرة لموصوف واحد.

* الرباني هو من جمع بين العلم والعبادة.

* اختار ابن جرير أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) تقدم تخريجه.

الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ المراد بها أهل الكتاب أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.
 * مناط الحكم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ هو التبديل والتكاتم.

* اعتقاد الخوارج ليس منحصرًا فيهم فقد يوجد في غيرهم من الناس، وكما أن
 الإنسان ينسب لشيء دون إرادته فكذلك قد ينسب نفسه لشيء وهو لا يريد مسمى
 ذلك الشيء، وهذان لا يكونان مؤاخذين عند الله، بهذا.

* من يضعون القوانين الوضعية لا يهتمون أكان الحكم موجودًا في الشرع
 بالإجماع أم حتى قول مبتدع، لكن المهم هو موافقته للقانون الفرنسي أو... إلخ.
 * من عقائد الخوارج أنهم يرون الخروج على أئمة المسلمين بالسيف ويرون
 الإمامة حق كل مسلم.

* من أصر على جحد حكم ولم يتب منه فحكمه أنه خارج عن ملة الإسلام.
 * حكم الجاهلية يطلق على من حكم وهو لا يعلم، وكذلك من خالف وهو
 يعلم كأخبار أهل الكتاب.

* دعوة الرسل المتفقون عليها هي الدعوة إلى التوحيد، إلا أنهم يختلفون في
 الفروع.

* الحكمة من نسخ الشرائع هي معرفة من يطيع الله ممن يعصيه.
 * يفتح للشخص من الخير ما لا يفتح لغيره ويفتح لغيره ما لا يفتح له.
 * عقوبة الله على العبد قد تكون حسية كالحدود أو العذاب، وقد تكون
 بالاستدراج لكي يقع فيما هو أكبر من ذلك كالاستحلال للحرام.
 * الأكثرية ليست دليلًا على أن الحق هو معهم.

* الديمقراطية سراب تخدع به الشعوب، والشورى الحقة إنما هي في الإسلام

فحسب.

- * تحكيم شرع الله يكون بتحكيمة وحده كله لا بعضه في كل صغير وكبير.
- * تقسيم الدين إلى حقيقة وشرعة، أو إلى عقليات وسمعيات، أو إلى سياسة وشرعة - كلها تقسيمات باطلة مبتدعة.
- * السحر جزء من حياة أي مجتمع لا يدين بالتوحيد ولا بالعقيدة الصحيحة.
- * أحكام التار الوثنيين أفضل بكثير من أحكام الشرائع الجاهلية الحديثة.
- * ولاية القضاء في ظل القوانين الوضعية باطلة، وأحكامه باطلة، ولا يجوز لمسلم أن يتولى القضاء في هذه الأنظمة الطاغوتية.
- * لو فرضنا أن وجدنا نسخة من التوراة لم تحرف - وهذا مستحيل - فإن التحاكم إليها كفر بواح.

* * *

الفهرس

٥ مقدمة الناشر
٧ أهمية أعمال القلوب
٩ حياة القلب وموته:
١٠ أقسام القلوب:
١٢ من نتائج مرض القلوب وموتها:
١٣ الوجل:
١٣ المحبة:
١٣ الإخلاص:
١٤ الإخبات:
١٥ التسليم:
١٦ الإنابة:
١٦ الخشية:
١٦ الخشوع:
١٧ التوكل:
٢٠ الطائفة الأولى: أهل الكلام:
٢٢ الطائفة الثانية: الصوفية:
٢٦ صلاح القلب وفساده:
٢٧ حكم من يرى أنه منافق:
٢٩ حكم من انشغل بدراسته عن ذكر الله:
٣٠ معنى: أن العبد سائر بين مشاهدة التقصير ومطالعة المنة:
٣٢ الكلام حول كتاب «الرعاية» للمحاسبي:
٣٣ حكم من التزم ثم أصابه الفتور:

- ٣٤ صحة علامات قبول العمل:
- ٣٥ التقرب إلى الله لأمر دنيوي:
- ٣٦ الفوائد المستخلصة:
- ٣٧ الإخلاص:
- ٣٩ الشرط الأول: المتابعة:
- ٤٠ الشرط الثاني: الإخلاص:
- ٤٢ المشركون أبعد الناس عن الإخلاص:
- ٤٣ إخلاص أهل الكتاب:
- ٤٥ إخلاص المنافقين:
- ٤٨ ثمرات الإخلاص في الإنفاق:
- ٤٨ ثمرات الإخلاص في الجهاد:
- ٤٩ ثمرات الإخلاص في التوبة:
- ٥٧ الفوائد المستخلصة:
- ٥٨ اليقين:
- ٥٩ علاقة العلم باليقين:
- ٦٠ منزلة اليقين وتجليها في الخليل إبراهيم عليه السلام:
- ٦١ علاقة اليقين بالإيمان:
- ٦٣ الصبر واليقين من صفات الهداة المهددين:
- ٦٤ اليقين يكون في حالين هما:
- ٦٥ الأمثلة على اليقين في خبر الله تعالى:
- ٦٥ أقسام أخبار الغيب:
- ٦٧ أهمية اليقين في أمر الله تعالى:
- ٦٨ أمثلة ضربها الصحابة في تحقيق هذه المنزلة:
- ٧١ المؤمن يرى بعين الإيمان والبصيرة:

- ٧٢ الأمثلة على اليقين في أمر الله ﷻ:
- ٧٤ اليقين هو الإيمان القلبي وليس الاقتناع العقلي:
- ٧٥ حكم الوسوس التي ترد على الإنسان:
- ٧٧ وسائل تقوية الإيمان في القلب:
- ٧٧ حكم ادعاء اليقين الكامل، والفرق بين التوكل والتوكل:
- ٧٨ عدم اجتماع اليقين والمعصية:
- ٧٩ حكم الشك في نصر الله لدينه ولأمة الإسلام:
- ٨٠ أخبار المسلمين المجاهدين:
- ٨٢ أنواع اليقين:
- ٨٤ معنى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين:
- ٨٤ نصيحة للذين يستعملون البث المباشر:
- ٨٧ حال من أيقن بالشهادة وهو تارك لركن من أركان الإسلام:
- ٨٨ الإنكار يزيد الإيمان واليقين:
- ٨٩ مشكلة تواجه الشباب:
- ٩٠ حكم تعلم علم النفس وعدم اليقين به:
- ٩٠ العلاقة بين الإحسان واليقين:
- ٩٢ الفوائد المستخلصة:
- ٩٤ الرضا:
- ٩٧ المرتبة الأولى من مراتب الرضا: التحكيم:
- ٩٨ المرتبة الثانية من مراتب الرضا: انتفاء الحرج:
- ٩٨ المرتبة الثالثة من مراتب الرضا: التسليم:
- ٩٩ الرضا بأحكام الله والصبر عليها:
- ١٠٠ ١- الاعتراض على توحيد الله وأسمائه وصفاته:
- ١٠٢ ٢- الاعتراض على أمر الله الشرعي:

- ٣- الاعتراض على إخبار الله عما في الكون: ١٠٣
- ٤- الاعتراض بالأقيسة الفاسدة والأهواء: ١٠٦
- ٥- الاعتراض بالكشوفات والرؤى والأحلام: ١٠٧
- ٦- الاعتراض على ما شرع الله بالأعراف والعادات والأهواء الجاهلية: ١٠٨
- ٧- الاعتراض على حكمة الله وقدره: ١٠٩
- الاعتراض على حكمة الرسول: ١١٢
- إرضاء الناس من أجل دعوتهم إلى الله: ١١٤
- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله لا بد من شروطها حتى تتحقق: ١١٤
- مسألة عدم الرضا بحكم القاضي: ١١٥
- تحاكم القبائل عند رؤسائها، وعدم الرجوع إلى المحاكم الشرعية: ١١٦
- كيفية الرضا بالمعصية وهي من قدر الله: ١١٧
- بغض الكفار دليل على الإيمان: ١١٨
- حكم الإعراض عن تعلم أمور الدين: ١١٩
- حكم اتخاذ مناهج دعوية مخالفة لمنهج الرسول ﷺ: ١١٩
- حكم الاعتراض على حكمة الله: ١٢١
- الواجب تجاه إخواننا المجاهدين في أنحاء العالم: ١٢٢
- حكم شراء المبيعات التي فيها علامة الصليب والنجمة السداسية: ١٢٢
- الفوائد المستخلصة: ١٢٣
- المحبة ١٢٤
- المحبة هي غاية العبادة: ١٢٥
- تحقق العبادة يكون بأمرين مهمين: ١٢٦
- المحبة بين المؤمن والمنافق: ١٢٧
- المحبة بين المؤمن والمشرک والكافر: ١٢٩
- أكمل الناس في المحبة: ١٣١

- ١٣٢..... الاتباع هو من كمال المحبة:
- ١٣٧..... المحبة لله ورسوله تكون في الاتباع:
- ١٣٩..... أثر محبة الله وأثر تحقيق المحبة:
- ١٤٠..... الأسئلة:
- ١٤٠..... المحبة عند أهل الكلام وأهل التصوف:
- ١٤١..... نبذة عن رابعة العدوية:
- ١٤٢..... نوع التعامل مع الكفار:
- ١٤٤..... الصبر ناتج عن المحبة وتالي لها:
- ١٤٥..... حكم حضور دورات تطويرية يتضمنها محرمات:
- ١٤٦..... معايشة الروافض:
- ١٤٦..... حكم من يدعي التجديد في الدين:
- ١٤٧..... التنقل في المحبة وعدم الاستقرار:
- ١٤٨..... من ابتلي بحب النظر إلى النساء:
- ١٤٩..... حكم من ينفر الشباب من المراكز الصيفية:
- ١٥٠..... انتشار الشحناء بين الدعاة إلى الله:
- ١٥٢..... نصيحة لأهل اليمن:
- ١٥٣..... نصيحة لشباب مركز الصديق:
- ١٥٤..... الفوائد المستخلصة:
- ١٥٦..... محبة الرسول ﷺ
- لوازم ومقتضيات محبته ﷺ كثيرة جدًّا، نرجو الله تعالى أن يوفقنا لنظم أشتات الحديث فيها:
- ١٥٨.....
- ١٥٨..... تحقيق الشهادة له ﷺ:
- ١٥٩..... الاقتداء به ﷺ:
- ١٦٠..... تحكيمة في كل موضع نزاع:

- ١٦٣ عدم التقديم بين يديه و غص الصوت:
- ١٦٤ الصلاة والسلام عليه ﷺ:
- ١٦٤ عدم أذيته ﷺ:
- ١٦٥ الغلو في النبي ﷺ:
- ١٦٧ منزلة النبي ﷺ عند الناس:
- ١٦٨ أسباب الغلو:
- ١٧٢ غلو أهل البدع في النبي ﷺ:
- ١٧٥ أن الكون خلق لأجل النبي ﷺ:
- ١٧٥ أن نعل النبي ﷺ على رءوس جميع الكائنات:
- ١٧٦ الرد على من يدعي أن أهل السنة يكرهون النبي ﷺ:
- ١٧٩ الفوائد المستخلصة من المحاضرة:
- ١٨٠ التضرع إلى الله تعالى:
- ١٨١ النجاة من عقوبة الله تكون بالدعاء والتضرع:
- ١٨٢ حال المتضرع وحال المعرض:
- ١٨٣ عقوبة الأمن من مكر الله:
- ١٨٧ قد ذكر الله ﷻ لنا أمثلة ممن دعوه فاستجاب لهم كما بين الله لنا ﷻ في قصص أنبيائه:
- ١٨٧ أعظم أنواع الدعاء ما قاله يونس ﷻ:
- ١٨٧ دعاء أيوب ﷻ:
- ١٨٨ رحمة الله بالكفار:
- ١٨٨ التوبة إلى الله من الذنوب:
- ١٨٩ معنى التضرع إلى الله وأسبابه:
- ١٩٠ الصدقة من أسباب رفع البلياء:
- ١٩٢ دور الشباب المسلم في الأزمات وكيف ينصرف:
- ١٩٣ التوجه الديني عند النصاري في الأزمات:

- ١٩٥ من لوازم التضرع الابتعاد عن المعاصي:
- ١٩٥ من التضرع القنوت في الصلاة:
- ١٩٦ إنكار المنكر يكون بالبحث عن جذوره لاستئصاله ولا يمنع من الإنكار الفردي:
- ١٩٧ آثار أحداث الخليج على الصحوة:
- ١٩٨ اهتمام الناس بأحداث الخليج لا يمنع من الاهتمام بكل الأحداث، بل هو المطلوب:
- ٢٠٢ تركيز النصيح والإرشاد على من نزلت بهم المحنة:
- ٢٠٢ طلب الدعاء:
- ٢٠٣ تعليق على صور للنساء في مجلة «تايم»:
- ٢٠٤ الفوائد المستخلصة:
- ٢٠٦ درجة الخوف من الله تعالى
- ٢٠٧ التوسل عند المشركين:
- ٢٠٩ تفسير معنى الوسيلة:
- ٢١٠ التوسل الممنوع:
- ٢١١ أركان العبادة في آية الوسيلة:
- ٢١٤ الفرق بين الخوف والخشية:
- ٢١٥ الفرق بين الرهبة والرغبة وبين الوجل والهيبة:
- ٢١٧ علاقة الإشفاق بالخوف:
- ٢١٩ الخوف والرجاء عند المؤمن والمنافق:
- ٢٢٠ الخوف من الرحمن وسيلة إلى الرضوان:
- ٢٢١ الفوائد المستخلصة:
- ٢٢٢ نماذج من خوف السلف
- ٢٢٢ عمر بن الخطاب:
- ٢٢٣ مقولة ابن أبي مليكة:
- ٢٢٤ عبد الله بن مسعود:

- وبرزت في بعض الشخصيات سمات الخوف أكثر مما لدى غيرهم ممن برزت عنده
 ٢٢٥ سمات الرجاء:.....
 ٢٢٥ هرم بن حيان:.....
 ٢٢٦ مطرف بن الشخير ووصاياه:.....
 ٢٢٧ حكيم التابعين الحسن البصري:.....
 ٢٢٩ الحسن ووصية المحاسبة:.....
 ٢٣٠ بكر المزني وعظمة التواضع:.....
 ٢٣٢ من علامات الخائفين:.....
 ٢٣٢ الاشتغال بعيوب النفس:.....
 ٢٣٢ حماد بن سلمة:.....
 ٢٣٣ ابتعاد السلف عن اللغو:.....
 ٢٣٤ حبههم لعبادة الخوف من الله:.....
 ٢٣٤ عابد الشام أبو سليمان الداراني:.....
 ٢٣٦ المعصية سبب للهوان على الله:.....
 ٢٣٨ منزلة الأخوة عند السلف:.....
 ٢٣٩ حسن الظن أم أمانى كاذبة.....
 ٢٤٠ الازدياد في الطاعة:.....
 ٢٤١ معالجة القلوب:.....
 ٢٤٢ لربهم يرهبون:.....
 ٢٤٣ عمر بن عبد العزيز والهمة العالية:.....
 ٢٤٤ الورع وابن المبارك:.....
 ٢٤٥ التواضع عند ابن المبارك:.....
 ٢٤٧ الهوان على الله:.....
 ٢٤٨ خشية الرياء من علامة التقوى:.....

- ٢٥٠ التفكير في صفات الله:
- ٢٥٢ التأخي في الله والبغض لأعداء الله:
- ٢٥٣ العلمانية والفرق بين تكفير الفكرة وتكفير المعين:
- ٢٥٤ التفكير في آثار الصفات:
- ٢٥٥ الأحداث في أريتريا:
- ٢٥٥ نماذج من النشرات التنصيرية، وكيفية التعامل معها:
- ٢٥٦ الهدي النبوي في الضحك:
- ٢٥٨ معنى التطرف عند الغربيين:
- ٢٥٩ مشكلة الخادמות:
- ٢٦٠ حكم تداول العهود السبعة:
- ٢٦١ المكس ومعاملة العمال والمكفولين:
- ٢٦٤ حكم فتح الحساب في البنوك الربوية:
- ٢٦٥ الفوائد المستخلصة:
- ٢٦٧ الصبر على مجاهدة النفس:
- ٢٧١ الصبر على الدعوة والعلم:
- ٢٧٢ الصبر على مجاهدة النفس:
- ٢٧٤ الصحابة والصبر:
- ٢٧٥ من مظاهر ترك الصبر:
- ٢٧٦ فقه الدعوة وعوائقها:
- ٢٧٨ الفوائد المستخلصة:
- ٢٧٩ الصبر على الابتلاء:
- ٢٨٠ فضل الصابرين ودرجاتهم:
- ٢٨١ حاجة الدعوة إلى الصبر:
- ٢٨٢ الصبر على أذى النفس والأهل:

- ٢٨٣..... ابتلاء هذه الأمة بالفرقة والاختلاف والتنازع:
- ٢٨٦..... ابتلاء الدعاة في الوقت الحاضر:
- ٢٨٧..... عمر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر:
- ٢٨٨..... عاقبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:
- ٢٩١..... صبر الدعاة هو من عزم الأمور:
- ٢٩٤..... أهمية العقيدة الصحيحة وإحياء رسالة المسجد:
- ٢٩٥..... أكثر المشاكل تحتاج إلى صبر وتعاون:
- ٢٩٨..... غلبة الدين وقهر الرجال:
- ٢٩٨..... الشدة والرفق في الدعوة:
- ٣٠١..... التعاون مع الهيئات:
- ٣٠١..... حرية الفكر:
- ٣٠٢..... مشكلة دوام الهيئة:
- ٣٠٢..... الوقت الضائع:
- ٣٠٣..... المكاره في الدعوة:
- ٣٠٥..... الفوائد المستخلصة:
- ٣٠٦..... **ثمرات التقوى**
- ٣٠٦..... التقوى والتوحيد:
- ٣٠٨..... التقوى هي المخرج من الشبهات والشهوات:
- ٣١٥..... قضية العراق مع الكويت:
- ٣١٩..... حكم حزب البعث في غير العراق:
- ٣٢١..... فتوى اللجنة الدائمة حول أحداث الخليج:
- ٣٢٥..... حكم التمريض للفتيات:
- ٣٢٦..... كلمة حول توحيد كلمة الأمة:
- ٣٢٨..... معنى الديمقراطية وحكم الإسلام فيها:

- ٣٣٠ طلب شفاعة للأجانب في قضية التكفيل:
- ٣٣١ الفوائد المستخلصة:
- ٣٣٣ دراسات قرآنية:
- ٣٣٥ كيف نحيا بالقرآن؟
- ٣٣٦ القرآن طريق للحياة الطيبة:
- ٣٣٧ الأدلة على أن القرآن طريق للحياة الطيبة:
- ٣٤١ حال العرب قبل الإسلام:
- ٣٤٤ حال العرب بعد الإسلام:
- ٣٤٥ حال سائر الأمم قبل الإسلام وبعده:
- ٣٤٦ القرآن سبب حياة القلوب عند السلف:
- ٣٤٧ القرآن هو المخرج من المآزق المعاصرة:
- ٣٤٨ التدبر وأثره:
- ٣٥٠ الانتفاع بالقرآن ومفسدت القلوب:
- ٣٥٠ أثر الذنوب في الانتفاع بالقرآن:
- ٣٥٠ نماذج من السلف في الخوف من الذنوب:
- ٣٥٤ المنهجية للمبتدئ في القراءة:
- ٣٥٦ بعض أخطاء كبار القراء في العالم الإسلامي:
- ٣٥٧ حكم التداوي بالقرآن من المس:
- ٣٦٠ الفوائد المستخلصة:
- ٣٦٢ وقفات مع آية الولاية:
- ٣٦٤ عاقبة الأمة التي تختلف فيها هذه الصفات:
- ٣٦٤ صفة الذلة على المؤمنين:
- ٣٦٦ العزة على الكافرين:
- ٣٦٦ الخلل في تحقيق هاتين الصفتين:

- ٣٦٧ محبة الله ورسوله فوق كل محبة:
- ٣٦٨ من لوازم محبة الله ﷻ:
- ٣٧١ الطائفة المنصورة:
- ٣٧١ أقسام الناس تجاه الطائفة المنصورة:
- ٣٧١ الدعوة والجهاد من صفات الطائفة المنصورة:
- ٣٧٢ الخوف من قول الحق:
- ٣٧٣ لماذا لا يخاف الإنسان في الله لومة لائم؟:
- ٣٨٢ ضرورة تحبيب الله ﷻ إلى الخلق:
- ٣٨٣ حقيقة عمل الدعاة:
- ٣٨٤ راحة المؤمن:
- ٣٨٧ كيف تنال ولاية الله؟:
- ٣٩١ الفوائد المستخلصة:
- ٣٩٢ أولياء الله وأولياء الشيطان
- ٣٩٢ عوام أهل السنة والجماعة هم من الأولياء:
- ٣٩٤ لمز الملتزمين بالدين بالجنون:
- ٣٩٥ المفاضلة بين أهل السنة وأهل البدع:
- ٣٩٨ نحن والصحابة في الصبر وتحمل الواردات:
- ٤٠٠ دخول الكفار إلى بلاد المسلمين:
- ٤٠٤ نظرة الغربيين للإسلام:
- ٤٠٨ الصليب تسلل إلى أطفالنا:
- ٤٠٩ تنمية أصحاب المواهب والقدرات:
- ٤١١ وثيقة جون ميجور:
- ٤١٢ القرارات الدولية والكيل بمكيالين:
- ٤١٧ النقل الجماعي والشريط الخبيث:

- ٤١٩ ما هو واجبنا؟
- ٤٢٠ الفوائد المستخلصة:
- ٤٢٢ صفات عباد الرحمن
- ٤٢٤ معنى تبارك وتعالى:
- ٤٢٥ الرد على الكفار في إنكارهم للرحمن:
- ٤٢٥ والدلائل على أنه الرحمن وعلى أنه المعبود الحق تأتي على نوعين:
- ٤٢٥ النوع الأول: الدلائل والآيات الكونية:
- ٤٢٧ النوع الثاني: الاستدلال بعباد الرحمن:
- ٤٢٩ التواضع:
- ٤٢٩ الإعراض عن الجاهلين:
- ٤٣٠ قيام الليل:
- ٤٣٤ ضرورة التضرع لله:
- ٤٣٧ حقيقة الدنيا عند السلف:
- ٤٣٨ حال النبي ﷺ وأصحابه مع العبادة:
- ٤٣٩ كلمة للشيخ يحيى يحيى:
- ٤٤٣ تعقيب للشيخ سفر:
- ٤٤٤ حديث: «أنهلك وفينا الصالحون»:
- ٤٤٥ الفوائد المستخلصة:
- ٤٤٧ شرح آيات من سورة المائدة
- ٤٤٧ سورة المائدة آخر سورة نزلت كاملة:
- ٤٤٩ سورة المائدة أكثر ذكرًا لآيات الأحكام:
- ٤٥٠ وقفة مع آية من سورة المائدة، وأخذ الأحكام منها:
- ٤٥٧ سبب تغيير اليهود لحد الزنا:
- ٤٥٨ القول الأول في سبب النزول:

- ٤٦١ سبب حكم النبي ﷺ بموافقة التوراة:
- ٤٦٤ من علامات الحكام بغير ما أنزل الله:
- ٤٦٦ تحريف التوراة والإنجيل:
- ٤٦٧ القول الثاني في سبب النزول:
- ٤٧٥ مناظرة أبي مجلز للخوارج:
- ٤٧٨ تعلق بعض المنتسبين للعلم بخبر أبي مجلز:
- ٤٨١ حقيقة واقع السؤال والإجابة:
- ٤٨٥ توضيح كون التبديل إعراض عن شرع الله:
- ٤٨٦ توضيح لواقع هذه القوانين:
- ٤٨٩ وجه احتجاج الزنادقة على تفضيل أحكام القانون الوضعي:
- ٤٩٠ أحوال الحاكم المسلم الذي حكم بغير ما أنزل الله:
- ٤٩٧ هل شرع من قبلنا شرع لنا؟
- ٤٩٨ قول أبي حنيفة بقتل المسلم بالكافر:
- ٤٩٩ أهواء المدرسة العصرية:
- ٥٠٧ هل التخيير في الحكم بين الكفار منسوخ:
- ٥١٥ تنمة تفسير ابن كثير لآيات الحكم في سورة المائدة:
- ٥١٦ تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾:
- ٥٢٥ النهي عن اتباع الأهواء:
- ٥٢٧ الفرق بين الشورى والديمقراطية:
- ٥٢٩ تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾:
- ٥٣١ التتار يحكمون بغير ما أنزل الله:
- ٥٣٦ نشأة القوانين الوضعية:
- ٥٤٠ كيفية نشأة دولة التتار:
- ٥٤١ انحراف التتار في فهم الإسلام:

- ٥٤٢ الأحكام التشريعية في الياسق:
- ٥٤٦ حكم القوانين الوضعية والتحاكم إليها:
- ٥٤٧ فساد القوانين الوضعية:
- ٥٤٩ محابة الشريعة الإسلامية:
- ٥٥٢ خطر القوانين الوضعية:
- ٥٥٤ القوانين الوضعية كفر بواح:
- ٥٥٦ النهي عن موالاة اليهود والنصارى:
- ٥٥٧ خطر تولي اليهود والنصارى:
- ٥٥٩ الفوائد المستخلصة:
- ٥٦٢ الفهرس

